

1436 هـ - 2015 م

مؤسسة التحايا للإعلام
قسم التفريغ

تفريغ سلسلة



شرح الموافقات للإمام الشاطبي

للشيخ/ عمر محمود أبو قتادة

من الدرس الأول إلى الدرس العشرين

1 - 20

بسم الله الرحمن الرحيم

تفريغ

من الدرس [١] إلى الدرس [٢٠]

من شرح الشيخ عمر محمود أبو قتادة

لكتاب (الموافقات) للإمام الشاطبي –رحمه الله–

مُؤسَّسَة التَّحَايَا

قِسْمُ التَّفْرِيغِ وَالنَّشْرِ

الدرس [١]

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، ملء السماوات وملء الأرض وملء ما شئت من شيء، بعد عدد خلقك ورضا نفسك وزنة عرشك ومداد كلماتك، اللهم صل على محمد وعلى آله وصحبه وسلم ..

نحن في هذه الجلسات العلمية في شرح كتاب الإمام/ أبي إسحاق الشاطبي -عليه رحمة الله- والمسمى بـ (الموافقات) سيكون لنا طريقة مهمة جدًا، لن يكون هناك في هذه الجلسات إلا مجرد طرق أبواب وسيكون عليكم الجهد الأكبر في قراءة الكتاب قبل الاتيان، يعني المباحث تقرؤونها قبل الاتيان وبعدها سيكون فقط مجرد رفع الصور والعلامات على مواطن القراءة الدقيقة..

الكتاب طويل، ربما لو جلسنا نقرؤه قراءة تامة سيأخذ منا الشيء الكثير، سنجرب هذه الطريقة وإن كانت غير معهودة لدى كثير من المشايخ في قراءة الكتب ولكن بالنسبة لهذا الكتاب لأن مرتبته في علم أصول الفقه ليست هي المرتبة الأولى، بل ربما المرتبة الثانية، لكن سنحاول.

لأنه لا أعرف هل إخواني هل سبق لهم أن درسوا أصول الفقه دراسة منهجية أولى عرفوا فيها ما يسمى المصطلحات أو لا؛ لأن عامة دروس أصول الفقه في ديارنا وفي بلاد المسلمين لا يحصل بها الملكة الأصولية، هي فقط تعرف طالب العلم مصطلحات أصول الفقه.. كما في مصطلح الحديث ..والمقصود بالمصطلحات هي معرفة أسماء الأدوات اللفظية المستخدمة في هذا العلم.

فأنت لو أردت أن تدرس الطب والتشريح في علم الطب، فهو يعطيك أول ما يعطيك أسماء الأدوات المستخدمة، هذا المشرط هذا كذا، هذا كذا.. فيعرفك فقط هذا المدرس بأسماء الأدوات.

معرفة أسماء الأدوات لا يعني القدرة على استخدامها -معرفة أسماء الأدوات لا يعطيك القدرة على استخدامها- إنما القدرة على استخدامها تنشأ عن طريق المران والدربة وهذا ما يسمى عند علماء التربية "بالتكرار والزمن" فعامل تحصيل الملكة،

أي ملكة في أي علم، بل أي فن من الفنون حتى البدنية وبالتالي كذلك الذهنية إنما تحصل هذه الملكة في النفس عن طريق المران والدربة والتكرار والزمن.

الخطأ أن الكثير يدرسون الآن المصطلحات، ماذا يعني القياس لكن لو أراد أن يعرف الفرق بين القياس الفاسد والقياس الصحيح ربما لا يعرف، هو يعرف فقط ما معنى القياس ما معنى الاجماع، يعرف ما معنى اللفظ العام، لكن هل اللفظ العام يفيد القطع كما هو عند الأحناف أم يفيد الظن كما هو عند الجمهور؟

هو يعرف هذه المسائل لكن لو أراد أن يكتشف خطأ أصوليًا في مسألة فقهية لعالم لا يستطيع أو أراد أن يجتهد فيستخدم هذه الأدوات الأصولية من أجل اجتهاده فإنه لا يعرف.

فلذلك المرتبة الأولى من أصول الفقه هو أن نتعلم المصطلح، وأكرر أن تعليم المصطلحات لا يحصل ملكة أصول الفقه ولا أي علم من العلوم وبالتالي هذا الكتاب -كتاب (الموافقات)- هو يأتي في الدرجة الثانية بعد المصطلحات.

سنضطر ربما في بعض الأمور أن نرجع حين الشرح إلى المرتبة الأولى فقط من أجل مساعدة، ربما قرأ ونسي وربما لم يقرأ البته في هذه الأبواب، ولكن هذا كتاب جيد وسأبدأ بالمقدمات التالية:

المقدمة الأولى:

هذا الكتاب أيها الإخوة.. وهذه تحتاج إلى بحث إلى الآن لم أتفرغ له، كنت أتمنى أن تكون أول فاتحتي في تدريس هذا الكتاب هو بعد أن أستفرغ وسعي في بيان من نشط إلى نشر هذا الكتاب في ابتداء الأمر في هذه الأصول المتأخرة.

والسبب في هذا أننا نعلم أن هذا الكتاب، وهو (الموافقات) من نشط إلى نشره وإلى حض المشايخ والمدرسين على الاستفادة منه والنظر فيه هو الاستاذ محمد عبده ونقول رحمه الله لا نريد أن ندخل في شيء، الرجل عليه كلام ولكن في الحقيقة كان له جهود يعرفها بعض أهل العلم منها نشره لهذا الكتاب.

فهذا الكتاب الذي دعى إلى قراءته والإفادة منه من قبل المشايخ والمدرسين هو الاستاذ محمد عبده –الاستاذ محمد عبده الشيخ، الاستاذ كما يسمى أو الاستاذ الإمام كما يسميه محمد رشيد رضا كما في كتاب تاريخ السيد الإمام أو الإمام السيد..إلخ–.

ونحن نعرف أن الاستاذ محمد عبده من المدرسة الإصلاحية، هناك إشارات ذكرها بعض من علق على هذا الكتاب تفيد أن أول من نشر هذا الكتاب هو طلبة أو مشايخ في تونس، وأقول: إلى الآن لم أجزم بها؛ لأنها تحتاج إلى دراسة وتوثيق ولكن لا بد أن أقولها، وهو أن تونس نشأ فيها تيار إصلاحي، كان له علاقة مع التيار الإصلاحي في الدولة العثمانية الذي يعده الكثير من أهل العلم بداية انعتاق الدولة عن الشريعة وذلك ما يسمى بتقنين الفقه، موضوع تقنين الفقه يعده الكثير من الباحثون، وأنا أميل لهذا الرأي، أنه أول إشارة إلى القضاء على سلطة العلماء في داخل المجتمعات الإسلامية وفي داخل الدول.

لأن تقنين الفقه حين يصبح الفقه أو مسائل الأحكام مجرد مواد في داخل الدستور فحينئذ يتعطل دور المجتهد فلا يحتاج إليه.

إذا أراد القاضي أو الحاكم مسألة يذهب إلى البنود المكتوبة في الدستور، المكتوبة في القوانين، المكتوبة في ما يسمى مجلة الأحكام العدلية عند الدولة العثمانية، فهذه نقطة ربما نفرغ لها في وقت آخر، ولكن في الحقيقة أن التقنين الآن ربما يختلف، المسألة هل هذا رأيي في التقنين الآن، هذه مسألة أخرى، ولكن نحن نعتبر أن تقنين المسائل والأحكام العدلية كما صنعها سليمان القانوني الذي سمي بسليمان القانوني في الدولة العثمانية كانت بداية رفع سلطة العلماء عن الدولة وهذا من أعظم أسباب الخطورة.

بعض الباحثين الغربيين المنصفين في كتاب لهم اسمه (رفع المرايا) يقول هذه بداية انهيار سلطة الإسلام وسلطة فاعلية الإسلام في داخل الدولة الإسلامية.

ما يهمني هناك أنه قام علماء يسمونهم تقليديون –بمعنى أنهم لا يحبون هذا التجديد الذي حصل– وهو تجديد بلا شك غير محمود، هؤلاء العلماء التقليديون قاموا وأنكروا هذا التقنين من جهتين، من جهة أصله ومن جهة فروعه.

فيوجد أن كثيرًا مما ذكر في هذا التقنين ليس من الإسلام؛ لأنه ربما هم نظروا إلى أن هذا التقنين ليس من الإسلام؛ لأنه مخالف لما عليه مرجعية الدولة العثمانية في مذهب الأحناف، من هنا كان لا بد من البحث.

وانتبهوا لهذه النقطة لأنها أهم ما سيذكر في هذه الجلسة اليوم.

من هنا بدأ هؤلاء وخاصة الذين وافقوا على عملية التقنين، وإن كانوا علماء وبتأثرهم من المدارس الغربية التي زاروها كان لا بد من البحث عن دليل لفتح آفاق -لا أقوله من جهة المدح- توسعة مرتبة الدليل لإدخال المسائل الفقهية الجديدة، كان لا بد من البحث عن هذا الكتاب.

عالم قال، من قال! لا بد أن نبحث عن علماء قالوا بأن الدليل أوسع مما يعرفه العلماء التقليديون، من أخذ مذهب الأحناف من كذا، لا بد من فتح الباب.

كانت النجاة في بعض الكتب، ونظروا أن أهم كتاب في هذا هو كتاب (الموافقات).

ولذلك أنا أسجل في هذه الجلسة المهمة جدًا، وأقول هذه الكلمة بأن نشر كتاب (الموافقات) في بداية أمره لم يكن دافعه النية الصالحة، بل هو عمل المدرسة التي تسمى بين قوسين (المدرسة الإصلاحية) من أجل توسعة معاني الدليل وهذا الذي جعلهم يختصرون (الموافقات) كلها ليجعلوها فقط للحديث عن المقاصد.

هل هذا يعني بأن الشيخ أبا إسحاق الشاطبي كتب كتابه على هذا المعنى الذى أخذه هؤلاء؟! الجواب بلا شك لا.

وهذه المرحلة التي انتشرت فيها بعض الكتب الإسلامية الخفية التي لم تكن تعرف من قبل ثم حصل لها الانتشار حتى صارت كأنها هي المنتج الوحيد في تاريخ علمائنا في العصور السابقة، ويضرب مثال بهذا في كتاب مقدمة ابن خلدون.

ابن خلدون في مقدمة تاريخه لم يتكلم بشيء جديد عما يقوله العلماء من درر متناثرة في كلماتهم وفي كتبهم، إنما جمع ما تناثر في كتب الآخرين، وإنما كان إبداعه في رصد الظاهرة الاجتماعية وتحولاتها التي سميت بعد ذلك بعلم الإجتماع أو بما سماه هو قانون العمران.

ابن خلدون مسلم فقيه تولى القضاء ومتجهه إسلامي، يخطئ ويصيب لكن على الجملة هو كتابه إسلامي، لكن اهتم به القوميون وجعلوه إمامهم في دعم فكرتهم القومية.

نشأ في أوروبا تيار قومي –تيار يريد أن يحدد الهوية الأوروبية– أوروبا ليس فيها هوية، فقط يوجد لغة لكن ليس فيها هوية.

هناك بعض البلاد لا تبحث عن هذا مثل بريطانيا قديمًا وحتى فلاسفة هذا يسمون بالفلاسفة الحديين –بمعنى يتركون الأمور–، لماذا؟ لأن طبيعة المجتمع البريطاني لو فتح باب تحديد الهوية لحدث الشقاق وحصلت الحروب ولكن كان الفلاسفة والذين يتكلمون عن الهوية كانوا أبعد الناس عن الحديث عن هذا الباب؛ لأن بريطانيا ليست شيئًا واحدًا، لا أتكلم عن إنجلتر، إنجلترا هي جزء من بريطانيا، بريطانيا فيها ويلز فيها اسكتلاندا فيها إرلاندا الشمالية فيها إنجلترا، فلو فتح باب الهوية لحصل شقاق وكانت المشكلة في داخل المجتمع الألماني، وللأسف كثيرًا من الذين ذهبوا إلى أوروبا وخاصة من العرب والأتراك –لا أقول العثمانيون– وعندما تقرأ في الكتب التي كانت في تلك المرحلة لا بد أن تفرق بين العثمانيين والأتراك.

كلمة الأتراك كلمة قومية مناهضة للإسلام، كلمة عثمانيين هي الكلمة التي تجمع اسم المسلمين المنضمين تحت الراية العثمانية على جهة إقرارهم بخلافتها لذلك المسلمون عثمانييون، وكان العرب يقولون نحن عثمانييون ولسنا أتراكًا، وكانوا يرفعون شعار هذه الدولة العثمانية.

الأتراك كلمة نشأت من قبل القوميين الأتراك الذين أرادوا أن يفصلوا تركيا عن محيطها الإسلامي، ليس هذا موضوعنا ولكن أستطرد حتى تعرفوا الظروف.

فما هو الكتاب الذي ذهب إليه هؤلاء العلمانيون الأتراك وخاصة النصارى معظمهم نشأ في ألمانيا وتأثروا بالفكر القومي الألماني، والفكر القومي الألماني كان جاهدًا في تحديد مسألة الهوية، ما معنى الهوية: الأمة ما الذي يجمعها؟ ما هي أركان اجتماع الأمة؟ فكانوا يقولون بأن الأمة يجمعها شيئين:

الأول اللغة، وهذا مهم جدًا وكذلك سيرورة التاريخ، يعني أن يتفق هذا الجمع على تاريخ واحد، واستبعدوا الدين من مفهوم الهوية.

أنا أضرب المثل بمقدمة ابن خلدون لنعرف الموافقات؛ لأن المنتج إسلامي والنشر ليس بريئًا، المقصود به أشياء أخرى، فلا بد من الإسلام وهنا دائمًا حتى عند الشيوعيين كانت هناك مشكلة عندما ننشئ فكرة ما، هل نلغي التاريخ أم نذهب إلى التاريخ لنستخرج منه أدلة هذه الفكرة المعاصرة التي أتينا بها؟

نفس القضية الشيوعية في روسيا نشأ صراع كبير، هل حصولنا على مرحلة الشيوعية الآن يجعلنا نلغي تاريخ روسيا أم نذهب إلى تاريخ روسيا ونستخلص منه معالم هذه الحضارة المسماة الجديدة الشيوعية أو الإشتراكية؟ ونجحت خلال هذا الصراع الفكرة الثانية، وهو أنه لا بد من الذهاب إلى التاريخ وإبقائه معلمًا، هنا علم التاريخ هو أشد علوم أفكار خصومنا، القوميون فنهم الأكبر التاريخ يقرؤون التاريخ قراءة مستوعبة ويعتمدون عليه اعتمادًا كليًا من القوميين والشيوعيين، ونفس الشيء بالنسبة للشيوعيين العرب مثل: حسين مروه في النزاعات المادية في الفقه الإسلامي أو الفكر الإسلامي عمل نفس الطريقة وهو الذهاب إلى التاريخ؛ لاستيحاء معالم النظرية المادية أو الفلسفة المادية.

نفس القضية هنا، من أين نستوحي الفكرة القومية؟ هل ننشئها انشاءً جديدًا ونلغي التاريخ ونذهب، فكان الفكر الأقوى هو الذهاب للتاريخ.

من هنا هم الذين اكتشفوا مقدمة ابن خلدون وأنَّ ابن خلدون يدعوا إلى العصبة وأن الدولة لا تتكون إلا بالعصبة، فقالوا أن عليهم فقط أن يأخذوا القراءة الانتقائية، لا يهم هل مجموع الكتاب يؤدي إلى تدمير هذه الفكرة أم لا ولكن هذه تكفي إن جمعت؟ لأن تشكل القاعدة التي يرتكز عليها هذا الدين الجديد لمحو الدين القديم، من هنا كان انتشار مقدمة ابن خلدون واعتنى بها القوميون اعتناءً كبيرًا وصارت منتشرة.

الآن ليس هناك طالب علم يجهل مقدمة ابن خلدون، لماذا وهي لم تنتشر إلا من ١٥٠-١٨٠ سنة فقط؟ لماذا غاب هذا الكتاب هذه المدة الطويلة حتى ظهر؟ للنية السيئة. طيب لماذا غاب هذا الكتاب (الموافقات)؟!

طبعًا ابن خلدون ليس قوميًا، يعني أصلا هو بربري ولذلك يتكلم عن العرب كلامًا غير محترم حتى أن بعض شيوخنا قالوا فيه تعصب ضد العرب، وهذا غير صحيح مع أن إمام القومية العربية المعاصرة ساطع الحصري اعتنى بهذا الكتاب اعتناءً كبيرًا وتكلم عليه وحققه واستخرج منه ما يبني عليه فكرته.

من هو ساطع الحصري؟ هذا مرافق فيصل ابن الشريف حسين في حربه ضد الأتراك وأول وزير معارف نصّب بعد أن دخل جيش فيصل في سوريا وبعد ذلك في العراق، ولذلك آثاره على الفكر التربوي والقومي في المدارس كبير جدًا وهو الذي يشكل عمدة الفكر القومي.

لماذا أقول هذا؟ أقوله حتى ننتقل للموافقات، وقد حقق ساطع الحصري وأنا معه بأن أقوال ابن خلدون بالنسبة للعرب – المقصود بالعرب هم الأعراب وليس العرب– بالتفكير العنصري وله أدلة كثيرة وقد صدق فيها، ولكني أقول بأن ابن خلدون إسلامي مسلم ومنتجه منتج فقيه مسلم لا علاقة له بما يستدل به بعد ذلك.

نفس القضية في مسألة (الموافقات) أراد هؤلاء أن يوسعوا دائرة الدليل ليلتقي اسم الإسلام في تجلياته الفقهية مع الأديان الأخرى والمنتج الآخر في داخل الشعوب الأخرى، ما دام أن المفاهيم واحدة فالكل يلتقي على مفهوم العدل وأنه يحقق العدل، لا يهمنا ما هو الفرع الفقهي الذي في داخل الإسلام يحقق العدل.

هذه مسألة ليست مهمة، وهو ما يسميه الشاطبي بالجزئي إنما المقاصد هي المهمة، طبعًا مقاصد لتحقيق الدين وإلخ.

الدين ثم النسل ثم العقل من الضرورات الخمس، ولذلك وجدوا أن هذا الكتاب يفتح لهم هذا الباب وهو توسعة دائرة الدليل بالخروج من النص وإمكانية إدخال منتج الأمم الأخرى تحت الأبواب العامة التي تلتقي فيها الأديان جميعًا.

كلها تدعو للحرية والعدل والمساواة..إلخ. فالبتالي ما الذي يحقق لهم ذلك؟ (الموافقات).

ومن هنا جاء الإهتمام بكتاب (الموافقات) وكأن كتاب الموافقات ألغي تمامًا ولم يبق منه إلا كتاب المقاصد! وكأن المقاصد صارت شعارًا دون معرفة شروط صاحبها! لأنه لما توضع الشروط لتتحقق المصلحة أو المقصد هذه الشروط ليست مهمة، المهم هو يقول أنه الإسلام.

كما الآن لو جاء رجل وقال: "قال ابن القيم" يعنى أي علماني الآن، أي مشرع على غير جهة الشرع وغير جهة الكتاب والسنة يستدل بكلام ابن القيم: "حيثما كانت المصلحة فثمّ شرع الله" هذه المصلحة مطلقة، قد تكون عقلية وقد تكون عامة للناس وهو الذي يحدد المصلحة!

هذه المنطلقات التي أرادوا بها التحرر من مذاهب العلماء وخاصة ما سنبينه بأن الحامي لهذا الإختراق هو السور الأول: الإجماع، وكان ينبغي أن يكون السور الثاني الحامي من هذا الإختراق هو المذاهب الأربعة ولكن للأسف أصحاب المذاهب لم يكونوا على مقدار هذه المذاهب في الدفاع عنها وكان الخصوم الذين يمثلون سهم الإختراق من الصف الإسلامي كانوا أكثر وعيًا وأكثر فقهًا، وحين يخاطبون الأمة يخاطبونها خطابًا جميلًا رائعًا مقبولًا بخلاف من يريد أن يتعصب ليقول الحق فقط عند المذاهب الأربعة، هذه حجة غير مقبولة.

مثل ما حدث بين السلفيين وبين أتباع المذاهب، وسأبين ذلك -إن شاء الله-، لماذا يحب الناس ابن حزم؟ يسمعونه يطحن الناس طحنًا والآخر مسكين مكبل لا يستطيع الدفاع عن نفسه، ولو سُئِل عالم مُعاصر كيف تدافع أمام ابن حزم عن هذه المسألة لما استطاع أن يجيب.

وهذا الذي قاله المؤرخون في زمن ابن حزم، قالوا ابن حزم لما بدأ في دعوته إلى الظاهرية في الأندلس وجد فقط أمامه فقهاء لا يتقنون إلا قراءة المتون، بخلاف لما جاء أبو الوليد الباجي من المشرق محملًا بالحديث وكتب الصحيحين ومحملًا بالمسائل الأصوليّة فاستطاع أن يوقفه.

فمرات لا ينتشر المذهب بصوابه ولكن ينتشر المذهب لضعف قوة خصمه، وهذا واضح، لو أن إمامًا من الأئمة الأربعة ممن يعرف المذاهب جادل ظاهريًا يستطيع أن يطحنه بسهولة.

إمام ظاهري أو إمام واحد يدّعي السلفيّة أو يدّعي الاجتهاد، والدليل أنك لو قرأت مثلًا للطحاوي تعرف أي رجل هو، ولو قرأت لأبي بكر البيهقي ومناظرته للآخرين لعرفت أي رجل هو، وهكذا..

ولكن لأن الذين ورثوا هذه المناهج ورثوها تقليدًا ومتونًا، لا يعرفون كيف نشأت هذه المذاهب، القصد أن نشر كتاب (الموافقات) لم يكن بريئًا كما أن نشر العلماء الآخرين لم يكن بريئًا، الآن مثلًا في الغرب هناك تصفيق شديد جدًا لأبي الوليد ابن رشد.

- مداخلة: طيب يا شيخ ما دام أنك انتهيت من هذه الجزئية، يعني توسعة دائرة الدليل ألم تكن ظاهرة عند الأحناف وعند المالكية في سد الذرائع والاستحسانات والاستصحاب؟

الشيخ: ما أقوله وأكرر أن (الموافقات) لا يصلح لهم ولو كان يصلح لهم لنبذت هذا الكتاب؛ لأنه فى النهاية سيكون كتابًا فاسدًا، أنا أقول عندما نقول بأن عمدة القوميين هو ابن خلدون، أستطيع أن أرد على القوميين من مقدمة ابن خلدون لكن هذا لا يهمهم، يكفي أن يفتح الكتاب ما يريد والناس لا يقرؤون، الآن الكل يقول المقاصد المقاصد!! هو يكفي خلاص!

ويأتي من يفتح باب المصلحة كما يقولها الطوفي -كما سنبين في تاريخ مسألة المصالح والمقاصد- يفتحون ما لا يقوله الطوفي، يقولون المصلحة تستطيع أن تلغي الإجماع والدليل والنص والقرآن والسنة!! على طريقة تخصيص العام، هنا لسنا في معرض بيان خطئهم وصوابهم لكننا نبين أنهم مخطئون في هذا، الشاطبي لا يخدمهم وليس هو على مذهبهم ولكنني أتكلم لماذا انتشر الكتاب على القاعدة التي تقدمت مما ذكرته، أنا أريد الوعي في هذه المسألة.

كتاب الشاطبي كما أن كتاب بن خلدون، كما أن كتب أبو الوليد بن رشد الذي يصفقون له لا تصلح لهم، لكن هم يكفي أن يأخذوا الجوانب العريضة التي يبهر بها الناس، وهذه نقطة مهمة؛ لكي لا يظن أحد أن كتاب الموافقات يفتح باب الشر.

ليس كذلك ولكنه كتاب يصلح لفتح المادة التي يريدونها، وهذا يكفي عندهم.

يعنى الآن يوجد في الغرب وبعض بلاد المغرب الإسلامي إحياء لفقه أبو الوليد ابن رشد الفيلسوف الحفيد وليس الجد، الجد فقيه مالكي ليس له في علم الكلام والفلسفة، ووهذا رجل الآن يعتبرونه هو الخيط الجامع بين الأوروبيين وبين المسلمين على أساس أن التجربة الأندلسية -كذبوا طبعًا- هي تجربة المجاورة الحسنة بين الإسلام والنصرانية وهذا غير صحيح.

يعني الحروب لم تكف، وأبو الوليد بن رشد حتى لو كان للعلماء ردود عليه كشيخ الإسلام ابن تيمية، وهو الذي رد على الغزالي في كتاب (تهافت الفلاسفة)، بكتاب (تهافت التهافت) وهو الذي جعل أن هناك ثمة اتصال بين الحكمة والشريعة بكتابه (فصل المقال فيما بين الفلسفة والشريعة من الاتصال) أنه يريد أن يجعل مقاصد الشريعة هي نفس مقاصد الفلاسفة، وهذا الذي يقوله ابن حزم على الرغم من ظاهريته في كتابه المنطق أو تعريف المنطق.

هكذا نسيت الكتاب ما اسمه عند ابن حزم، هو يرى أن المنطق منتج إسلامي وضرورة إسلامية، حتى ابن حزم مع ظاهريته يقول بأن المنطق ضرورة إسلامية.

إذن، نحن لا نوافقهم في أن هذا الكتاب يصلح لهم، هو كتاب منتج إسلامي وفقه إسلامي بريئ من التبعات التي أرادوها، وهذا يكفي.

الآن المدرسة الإصلاحية، هي التي كانت تسمى بالسلفية في بداية أمرها؛ لأن أول ركن من أركان السلفية هو فتح باب الاجتهاد، وعدم الاتكاء فقط على المذاهب الأربعة.

هذه المدرسة السلفية في أفقها وتجلياتها الأولى دخل فيها جميع الأطياف، يعني "محمد عبده" السلفيون الوهابيون اليوم يسبونه، وهو في الحقيقة منتج سلفيًا والدليل هو أن محمد عبده تلميذه محمد رشيد رضا والخلاف بينهما ليس في الفكرة، الخلاف بينهما في ما هو الأولى في الصراع.

يعني ثلاثة من الأساتذة والتلاميذ أولهم جمال الدين الأفغاني كان يرى الإصلاح سياسيًا، كان يرى أنه لا بد من سقوط الاستبداد ليتحقق العدل في داخل الأمة، وسقوط الاستبداد هو الذي يحقق النهوض للأمة كما تحققت النهضة للغرب.

تلميذه محمد عبده كان يكره السياسة، خاض فيها فأصابه البلاء والشر العظيم، فأخذ يسب على ساس ويسوس وسياسة، وبالتالي أخذ الجانب الاجتماعي والديني، لكن الديني ليس بما وصلت إليه المدرسة السلفية التي جاءت من نجد بعد ذلك إنما هو على الطريقة التي تكلم فيها، وهو فتح باب الاجتهاد..إلخ.

وكان لمحمد عبده فضل كبير في إعادة علوم البلاغة، يعني علوم البلاغة التي تدرس اليوم في بلاد الإسلام ماتت حتى جاء وأحياها محمد عبده.

التلميذ الثالث مختلف عنهم، وهو ليس مختلفًا في التفكير وهو محمد رشيد رضا لم يهتم بالسياسة إلا قليلًا، وضُحك عليه بحيث أصبح مؤيدًا للشريف حسين ثم ندم على ذلك وتراجع لما رأى أن الأمور خرجت من يديه، وليس على ما قال وليس

على ما أراد ولا نوى، وكان له دور كبير جدًا في توقيف الفكر القومي في مصر، ترى المصريين ليس عندهم فكر قومي، الفكر القومي بمعنى العربي وهو أكثر ما يكون في العراق والشام بسبب النصارى والرافضة.

محمد رشيد رضا من الناس الذين أوقفوا مد الفكر القومي في مصر لأنه بقى إلى آخر لحظة يدعو إلى الخلافة الإسلامية، ومجلته كان لها حضور في الداخل بين المثقفين وبين العلماء وبين المشايخ وهي مجلة المنار.

فالقصد أن محمد رشيد رضا ليس مخالفًا لشيوخه في التفكير، وإنما مخالف في ميدان الصراع، أين الصراع؟

محمد رشيد رضا لم يقبل الخوض في السياسة كما أرادها الأفغاني، ولم يخض في الإصلاح الاجتماعي والمؤسسات علمية كما خاض فيها محمد عبده لأن محمد عبده كان أقوى في هذا الجانب، يعني حضور محمد عبده في المؤسسات الدينية في الأزهر، أصبح مفتي مصر وقربه من السياسيين.

محمد رشيد رضا دخل فيما يسمى بالإصلاح الديني التربوي الذي عليه المدرسة السلفية، وتأثر في هذا بما جاءت به المدرسة السلفية القادمة من نجد على أساس: تصليح الفقه، تصحيح الأحاديث، وإصلاح ما يمكن إصلاحه في جوانب رد البدعة ومحاربة الصوفية..إلخ.

لكن بعض الناس عندما يأتي ويسب الأفغاني ومحمد عبده لا يستطيع سب محمد رشيد رضا، رغم أن محمد رشيد رضا بقي مجلًا لأستاذه إلى الممات، وهو الذي جمع في (تفسير المنار) تفسير السيد الإمام محمد عبده.

فالقصد من هذا أن المدرسة السلفية التي تهتم بهذا الكتاب هي مدرسة أشبه بالعباءة التي يمكن أن يدخل فيها كل هذه الأطياف، حتى سمعت بعضهم يقول: إن الجانب العلماني يصلح أن يدخل في المدرسة السلفية، وذلك لأن تلميذ محمد عبده هو صاحب كتاب (تحرير المرأة)، وبعضهم يقول أن الكتاب ليس من تأليف من انتشر باسمه، لكن الكتاب من تأليف محمد عبده لكنه خاف أن يظهره من المشايخ.

المدرسة السلفية ليست بما وصلت إليكم الآن، السلفية الآن دخلت في بوتقة النجديين ووصلت إلينا على هذه الطريقة التي عرفناها، وإلا هي في الأصل التي نشرت كتاب (الموافقات) وكانت تهتم به، تحتمل هذا كله مما ذكرت.

هذه المقدمة تبين لنا تاريخ الاهتمام، فلذلك الشيخ عبد الله دراز –وهذا باقعة من البواقع– إمام من أئمة البلاغة، وهو من تلاميذ محمد عبده، وله كتاب من أروع ما يكون هو كتاب (النبأ العظيم)، وهو يرى أنه القرآن والتفاسير تقول أن النبأ العظيم إنما هي الساعة، نكتفي بهذا في قضية تاريخ الكتاب.

ما ذكره عبد الله دراز –هنا نقطة– في مقدمة كتابه عندما انتشر وأخذه، وقرأه بتوصية من الشيخ محمد عبده، فنشره ووضع مقدمة إضافية جليلة، لأن الرجل هو صاحب هذا الفن في البلاغة والأصول وغيرهما وقال بأن سبب عدم انتشار الكتاب هو لغته واللغة التي فيها، وربما تجديده..إلخ.

لكنه في الحقيقة هناك كتب كثيرة في أمتنا لم ينشط العلماء لها، وتعرفون المدارس الدينية العلمية لم تعد تدرس الأصول لتنتج مجتهدًا، لتنتج واحدًا يتعامل معها حقيقة.

هنا للأسف حتى في الطور الأول للأصول على طريقة المتكلمين فصلوا بين أصول الفقه وبين الفقه، وكأن أصول الفقه ليس لها علاقة بالفقه هي ملكة علمية خاصة بعيدة، عقلية لا يحتاج إليها الفقيه والفقيه في عرية عنها.

والغزالي يقول في (المستصفى) –ناقدًا أبا زيد الدبوسي الحنفي–: "أن الإكثار من الفروع في شرح المسائل الأصولية ليس سديدًا، ولا هي الطريقة الأصول الصحيحة".

إذن، الأصول صارت ملكة عقلية لا علاقة لها بالفقه، فإذا كان الأوائل يقولون هذا فما بالك بالمدارس الدينية التي حرمت الاجتهاد أصلًا ومنعت أي إعمال عقل في الفقه إلا أن تكون مقلدًا لعالم..إلخ.

لذلك الكتاب لا يصلح لهذا؛ لأن هذا الكتاب إنما يفتح باب النقاش العقلي في مسائل الأصول وكيفية إنزال الفروع عليها، فقوله إلى لغته وكذا فالحقيقة لا.

المدارس الدينية فقط بقيت على المنهج الواحد: وهو تدريس الأصول على جهة عقلية بحتة لا دور لها فى الفقه.

وهذا من الأسباب التي منعت انتشار مثل هذا الكتاب، ولكن ليس هذا الكتاب في الحقيقة هو الذروة العليا في كتب الأصول، إنما هذا الإنتشار الكبير له اليوم -ما تجد أحد إلا ليتكلم على الموافقات وهم لا يعرفون ما فيه- إنما بالسبب الذي قلته لكم وخاصة ما يفتح بباب المقاصد وما شاء لا يؤخذ من الكتاب إلا هذا الجزء فقط.

الآن النقطة الثانية، لما يدخل إلى أصول الفقه، عادة ما يبدأ المدرس أو الباحث في تحديد أقسام هذه المدرسة الأصولية، ما هي أقسامها؟ هل هناك مدارس متعددة داخل هذه المدرسة أم هي مدرسة واحدة؟ فعادة يشيرون إلى مدرستين لأصول الفقه.

- المدرسة الأولى: وهي مدرسة الأحناف التي تسمى بمدرسة أهل الرأي.
- المدرسة الثانية: مدرسة المتكلمين والمقصود بها مدرسة الشافعية.

وهذا تقسيم ثنائي خطأ لا يصح، وإنما هناك مدرسة هي في الحقيقة التي أنشأت أصول الفقه، لكنها غابت وذهبت وهي التي أنشأها الإمام الشافعي وهي مدرسة الحديث والبيان واللغة.

ما هي معالم مدرسة الحنفية، مدرسة أهل الرأي؟ هذه يقولون فيها بأن طرق استنباط أصول الفقه -كيف أنتج أصول الفقه من هذه المدرسة؟- أنتجت معالم وقواعد أصول الفقه عن طريق النظر في الفرعيات، مدرسة أهل الرأي هي مدرسة الأحناف، كيف تكونت قواعد أصول الفقه عندهم؟ قالوا من خلال النظر إلى فرعيات الإمام، كيف الإمام أفتى؟ فنظروا فى إفتاء الإمام الفتاوى المتكررة فوجدوها تنتظم في أصول، فإذن، أنتجت الأصول بالنظر إلى الفروع فبنيت الأصول على الفروع وليس العكس.

هذه مدرسة الأحناف وهي بناء الأصول على الفروع، وبسبب هذا وقع كثيرٌ من الاضطراب في هذه المدرسة، يعنى كثيرًا ما يأتي الحنفي ليستنتج أصلًا من أصول الفقه في فرع من فروع الحنفية قاله أبو حنيفة أو قاله الصاحبان فيجدون أن هذه القاعدة لا تطرد في فروع أخرى، فأدى ذلك إلى فتح أبواب متعددة، من هناك كفرع عندهم هذا خلاف القياس وهذا من باب الاستحسان، وسبب هذا أن كثيرًا من الفروع لم تنتظم بالقواعد التي زعموا أنها هي التي استنتجت من كلام الإمام، لكن

القاعدة الأولى أن هذه المدرسة منتجة من خلال الفروع، قواعدها الأصولية من الفروع وهذه سمتها أنها تكثر في كتابتها من الفروع، يعني عندما تقرأ كتب الأحناف تجد أنهم يستدلون على المسألة الأصولية أو القاعدة الأصولية بكثير من الفروع، لماذا؟

هذا السبب معروف؛ لأن دليل الأصول هي الفروع، فبالتالي تكثر الفروع.

المدرسة الثانية مدرسة المتكلمين والتي تنسب للشافعية، تسمى مدرسة الشافعية وهذه يقولون فيها أن الأصول هي التي بنيت أولًا ثم تُخرج عليها الفروع.

ولذلك هذه كتبها في كتب الأصول لا تهتم بالفروع؛ لأن المقصود هو تقرير الأصول، هذه المدرسة سميت مدرسة المتكلمين؛ لأنه قد غلب عليها المنطق والتقريرات العقلية الغالية والبعيدة، بل هناك من جعل المنطق شرطًا من شروط الأصولية.

بالتالي غلب عليها التفريعات الأصولية العقلية بل كثر فيها المسائل العقلية التي لا تمت للفقه بصلة، كما يبين الشاطبي الآن: "كل مسألة لا تنتج فرعًا فقهيًا فهي غريبة أجنبية على أصول الفقه".

وكأن الشاطبي أراد بهذا هذه المسألة؛ لأن كثيرًا من المسائل مثل –مع أنه يدخل فيها بعض المسائل الفرعية– هل الكفار مخاطبون بفروع الشريعة؟ هل اللغة توقيفية أم وضعية؟ هذه المسائل تُبحث في كتب الأصول ولكن الحقيقة لا تجد لها أي أثر في الفقه، لا تجد لها أي اثر في الفرع، سواء علمنا أن اللغة توقيفية أم أن اللغة وضعية أي فرع من فروع الحياة أو مسائل الفقه يدخل في هذه المسألة؟ لا يوجد، لكن كثر بها التفريعات والكلام المنطقي الذي هو غريب وأجنبي على مسائل الفقه، هذا ما يقال دائمًا الذي يقولونه دائمًا افتح كتب الأصول، سواء الشيخ عبد الوهاب خلاف أو الشيخ عبد الكريم زيدان المتأخرين الذين رصدوا ظواهر المدارس، فيقولون هذا مثل هذه الأمور.

الشيخ ابن خلدون ذكر هاتين المدرستين فقط في كتابه المقدمة وقال بأن مرجع هذه المدارس: مدرسة المتكلمين أساسها كتاب (المستصفى) للغزالي وكتاب (الإحكام في أصول الأحكام) للآمدي، أما عمدة كتب الأصول لأهل الرأي فيقول بأنه أصول السرخسي، كتاب (الأصول) لأبي زيد الدبوسي، قال بعد ذلك: "ثم جمعت المدرستين في بعض الكتب مثل كتاب الرازي (المحصول في علم الأصول)" جمعت المدرستين.

هل هذا التقسيم يغطي المدارس الأصولية؟ الجواب لا، هناك مدرسة أصولية خفية غابت طويلًا كما غاب كثير من علومنا؛ بسبب غلبة المتكلمين والمناطقة وهي مدرسة الحديث والتي أرسى قواعدها الإمام الشافعي -رحمه الله-.

ولذلك لو خرج كتاب (الرسالة) من علوم المتكلمين، هل هو ممن يغرق في التشقيقات العقلية دون أن يكون لها دور فقه؟ هل هي مدرسة يستحق أن تقول متكلمين بمعنى أنه يقوم عمدتها على علم الكلام والمنطق؟

الجواب لا، هي مدرسة أثرية حديثية عمدتها -وهذا من أهم ما سنقوله في هذه الجلسة كذلك- بأننا علينا أن نتساءل ونبحث ما هي أصول أصول الفقه.

المدرسة الثالثة هذه هي مدرسة الشافعي -رحمه الله- قد ندخلها؛ لأنها كانت موجودة، وعلينا أن نقرأ كتبها باعتناء؛ لأنها تمثل الأصول الحقيقية في طرق التعامل مع الفروع.

الكتاب الثاني الذي يدخل في هذه المدرسة بعد كتاب الإمام الشافعي هو كتاب أبي عمر ابن عبر البر (جامع بيان العلم وفضله) فهذا كتاب ينهج منهج المدرسة الأصولية الأثرية التي تقوم على الحديث وكيفية استنباط الفقه منه، وكيفية العمل بالعام وهل العام يفيد الدليل من غير معرفة التخصيص إلى غير ذلك من المسائل، يبحثها على طريقة المحدثين وعلى طريقة معرفة كيفية استنباط الفقهاء القدماء لهذه المسألة.

الكتاب الثالث وهو كتاب مهم جدًا، اسمه (الفقيه والمتفقه) للخطيب البغدادي، وعلى الرغم من أن الخطيب قنطرة اشتبك فيها معالم الكلام والأثر كما في كتاب (الكفاية) بعض أهل العلم كابن رجب يرى أن كتاب (الكفاية في علوم الرواية) للخطيب البغدادي هو أول من تأثر بالمدرسة الفقهية الأصولية التي دخل فيها علم الكلام ليدخلها في علم الحديث؛ لأن أكثر العلوم تأثرًا بالكلام هو علم الأصول، لماذ ؟ لأن مبناه على العقل.

فأكثر ما أثر علم الكلام في علم الأصول، وأقل ما أثر فيه علم الحديث؛ لأنه مبني على الرواية ومع ذلك دخل فيه.

فيقول ابن رجب أن أول من أدخل الطريق الأصولية على علم الحديث هو البغدادي في (الكفاية) عندما تكلم عن قضية قبول الثقة مطلقًا، قال أن هذه طريقة الفقهاء وليست طريقة المحدثين القدماء.

ما يهمنا أن كتاب (الفقيه والمتفقه) هو كتاب أصولي أثري من يقرؤه خير له بكثير من أن يقرأ كتب المتكلمين وكتب الأحناف، لماذا؟ لأنه يبني أصوله على طريقة الأوائل، يحضر المسألة وكيف هذه اشتق منها العلماء هذا الفقه من طريقة العام والخاص والمطلق والمقيد، وهل كل مطلق يحمل على المقيد؟ وهكذا..

الكتاب الرابع الذي نستطيع أن ندرجه مع اعتبار خواصه هو كتاب (الإحكام) لابن حزم، وندخله في هذه المدرسة؛ لأن أسلوبه -بغض النظر عن مباحثه هل هي صحيحة أم خطأ وطريقته هي الطريقة الأثرية- يأتي للأحاديث والآيات ويعمل فيها الطريقة العلمية المشهورة في استنباط الفروع من خلال هذه الأصول، عليه كلام كثير عند أهل الفقه وأصحاب المذاهب الأربعة، لكنه بأسلوبه يدخل في هذه المدرسة، ونكتفي الآن بهذا.

فأين (الموافقات) من هذه المدارس؟ ذكر الشاطبي في مقدمة كتابه (عنوان التعريف بأسرار التكليف) الآن سنأتي للمقدمة لأن فيها فوائد، يقول أن عنوان الكتاب كان (عنوان التعريف بأسرار التكليف) وتغيَّر إلى (الموافقات)؛ بسبب صديق له رأى رؤيا أن الشيخ أبا إسحاق الشاطبي قال له: "أنا أكتب كتابًا للتوفيق بين مذهب ابن القاسمي المالكي -لكن لكون المالكية في الغرب لا يعرفون مالك إلا عن طريق ابن قاسم- وبين أبي حنيفة، فهو موافقات..

إذن، كما ترون فالكتاب محاولة -هكذا هو، لما نقرأ لا نجد هذا لكن هذه المسألة في ذهنه- جعل الأصول التي زعموا أن فيها اختلافًا متوافقة في الحقيقة، فلذلك هو أقرب إلى المدرسة الأثرية، يكثر من الأمثلة وخاصة الأحاديث والآيات يكثر منها إكثارًا كبيرًا وأسلوبه لا يمت إلى المتكلمين بصلة.

في بداية المقدمات الأولى في الكتاب أخرج كل ما لا يمت إلى الأصول التي تنتج فقهًا من علم الأصول البتة، وهذه كلمة الغزالي في الحقيقة وأنا سأتكلم عنها الآن.

إذن، (الموافقات) أقرب ما يكون إلى المدرسة الأثرية، ما هي مصادر الشاطبي في كتابه هذا؟ -وبها نختم هذا الدرس- الشاطبي يقول في مقدمة كتابه أن هذه المباحث إنما هي كناشات كان يكتبها من خلال النظر في كتب الأصول فيعلق، يقرأ كتب الأصول ويعلق ويكتب ثم رأى أن يجمعها في كتاب.

- إذن، هذا المنتج الجميل الرائع العلمي إنما مبناه على كتب الأصول، هذه نقطة.

– النقطة الثانية: ما الكتب التي يكثر من ذكرها؟ في الحقيقة هو متأثر جدًا بكتب الغزالي، حتى الإحياء.

على الرغم من أن الغزالي عند أهل المغرب ليس ممدوحًا، فلما دخل في حياة الغزالي كتاب (الإحياء) للغرب حرقوه، ورد عليه علماء المغاربة المازني له كتاب في الرد على الإحياء، لكن بلا شك بعد ذلك الذين جاؤوا إلى الشرق وكان مصدر العلم لدى المغاربة هو المشارقة، –يعني لا يعد الرجل عندهم صاحب علم مميز حتى يأتي إلى الشرق فياخذ منه– هذا صار من الشيخ عبد الوهاب المالكي قديمًا حتى وصلت أن العلوم ما جاء من المشرق.

وهناك طرفة عجيبة، قال: "لماذا يؤلف المشارقة ولا يؤلف المغاربة وهم أعلم –هكذا يقول–، قال لأن المغاربة انشغلوا بتصحيح كتب المشارقة".

والحقيقة أن المحاولة المعاصرة هذه رفع لواءها بعض المفكرين القوميين، مثل جابر العابدي وسرت في بعض التنظيمات الإسلامية بأن المغاربة لهم فقه خاص ولهم مذهب خاص، وهذه نقطة –إن شاء الله– أشرحها في درس قادم؛ لأن هذا غير صحيح.

المهم أن مصدر الشاطبي الأول هو الكتب الأصولية التي قرأها فعندما نقرأ المقدمة سيبين لنا الشاطبي حالة يجهلها الناس في كيفية تأليف الكتب عند القدماء؛ لأنه كيف كانوا يؤلفون الكتب؟ ما هي الطرق في تأليف الكتب القديمة؟ وهو يذكر أن الطريقة في تأليف كتابه هذا إنما هي مجموعة مباحث كان اطلع عليها.

وعلمنا في المقدمة شيئًا وهو ما سبق، أن هذا العلم كان عصيًا عليه لكنه روضه بكثرة المطالعة والتعليق..إلخ.

لكنه علم كان ليس سهلًا عليه.

أنا أعتقد من خلال أني قرأت في وقت، وفقت في قراءة (المستصفى) مع (الموافقات) في إحدى قراآتي للموافقات وقراآتي للمستصفى، ووجدت أن أغلب مباحث –وهذه نقطة أسجلها هنا– أن أغلب المباحث المشروحة شرحًا مطولًا في كتاب (الموافقات) هي مجرد أسطر صغيرة في كتاب (المستصفى) للغزالي.

وهذا مجرد توفيق إلهي؛ لأنه مرة توافق أن قرأت (المستصفى) وأعقبته بـ (الموافقات) مباشرة فوجدت أن ما شرحه الشاطبي في أوراق كثيرة ومتعددة إنما هي جملة كان يأخذها من الغزالي ويشرحها.

وحقيقة أن هذا الكتاب لو قال قائل، وأنا أقول ما سمعت من غيري، أن (الموافقات) شرح لـ (لمستصفى) لأصاب.

جزاكم الله خيرًا ونختم بهذه الفائدة في هذا اليوم والحمد لله رب العالمين.

أسئلة ما بعد الدرس:

السائل: ذكرت يا شيخنا أن الشاطبي أقرب لمدرسة الفقهاء والأثريين، وهذا لا ينسجم مع أشعريته لو انسجم لكان أقرب للمتكلمين.

الشيخ: هو يبرئ في كتابه، كما سنرى في المقدمة الثانية والثالثة أن يدخل في كتابه أي مسألة كلامية، فهو لا يدخل مسائل الكلام في أصول الفقه وإنما يجردها على طريقة البيان وطريقة المتقدمين ومعرفة طرق استنباط الصحابة واستنباط مالك واستنباط أبي حنيفة..إلخ.

ولو قرأت كتب المتكلمين في أصول الفقه، لو قرأت كتاب (المستصفى) كتاب (الإحكام) للآمدي، الآمدي أصلًا فيلسوف ولا يعرف أصوليًا، لو نظرت لترجمته لرأيت أنه فيلسوف ولا علاقة له لا بالتفسير ولا بالحديث ولا بالفقه ومع ذلك لا يعرف بين المتدينين إلا بكتاب (الإحكام).

أبو الحسين البصري إمام من أئمة المعتزلة ومع ذلك كتابه (المعتمد) عمدة في كتب الأحناف، هو إمام وفيلسوف وله طريقة المعتزلة الصرفة ومع ذلك كتابه معتمد من أهل الرأي.

بلا شك أن هناك أشياء على طريقة المتكلمين، لكن في الحقيقة طريقة البحث والاستنباط والمناقشة أقرب إلى طريقة الأثريين منها إلى طرق المتكلمين.

السائل: شيخ أنت لما ذكرت أن الحامي من الفكر القومي هو الإجماع والمذاهب الأربعة..

الشيخ: ليس من الفكر القومي لكن من السلفية العلمانية، وهذا سنبينه في الإجماع بأنه الحصن الذي نرد به هجوم السلفية العلمانية باعتبار أن الموجود اليوم من السلفية التي تدعو أنها من الإسلام، كما كان من أمر محمد عبده وغيره.

ما يرد عليهم هو الإجماع واحترام المذاهب الأربعة.

بعد الإجماع نفوه، سهل جدًا بالرغم أنه اخترق، حسن الترابي له كتاب في الإجماع الأصولي ويخترق أدبه ليدخل فيه المذاهب الجديدة المعاصرة من عدم جواز قتل المرتد من عدم رجم الزاني..إلخ.

فما الطريق للوصول لهؤلاء لهدم هذا؟ هو الإجماع.

ثم ثانيًا: علينا أن نحيي حقيقة طريقة المذاهب الأربعة في طرق استنباطهم وليس في فروعهم ولا في متونهم، لكن في طريقة الاستنباط الأصولية والحديثية حتى نستطيع أن نوقف مدهم؛ لأنه الآن السلفية فتحت الباب لكن لم تضع الضوابط.

أنا أتكلم أصلًا عن السلفية عبر التاريخ، والذي يربط بالسلفية النجدية هذا موضوع ثاني.

السائل: الإكثار من سب أحد المذاهب مثلًا: أبو حنيفة، كثير من الإخوة يقول الخبيث الضال المرجئ، مرجئة الفقهاء! يستدلون بأقوال مثل سفيان الثوري أنه شتمه، ما رأيك في هذا يا شيخ؟

الشيخ: هذا منتهى الجهل، وكلام الأقران يطوى ولا يروى.. التفصيل في درس قادم -إن شاء الله-.

الدرس [٢]

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله.

هذا هو الدرس الثاني في مقدمات إن شاء الله نافعة، لا أقول لازمة، لكنها نافعة في قراءتنا لكتاب الإمام أبي إسحاق الشاطبي -عليه رحمة الله-، وهي كذلك نافعة في علم أصول الفقه جملة -يعني ينتفع بها طالب العلم جملة لو أراد أن يتخصص في هذا الكتاب أو أراد فقط أن يدرس على أساس أنها مما يشكل ملكته لدراسة هذا العلم الجليل الشريف.

تكلمنا في الدرس الأول عن الظروف المنشِئة لنشر كتاب (الموافقات)، وقلت أن هذا يحتاج إلى تحقيق زائد -أنا أنبه عليها لئلا يقع اللبس في الحديث- هذه تحتاج إلى تحقيق زائد ومعرفة الأشخاص الذين رعوه ابتداءً، هذه المقدمة هي إحدى الأسباب الدافعة لنا لقراءة الموافقات، لماذا؟ لماذا ندرس؟ هنا سؤال عام وسؤال خاص، السؤال العام: لماذا ندرس أصول الفقه؟ ولماذا نريد أن ندرس كتاب (الموافقات) للشاطبي؟

سأقدم الجواب على السؤال الخاص أولًا؛ لأن الجواب على السؤال الخاص له علاقة بما تقدم بالدرس الأول فقط، نحن ندرس كتاب (الموافقات) للشاطبي لأسباب متعددة؛

- السبب الأول: هو تبرئة هذا الكتاب مما نُسب إليه من انحراف في طرق الاستدلال أو في بيان الأدلة التي يُستند فيها في الاستدلال.

- الإمام الشاطبي دقيق ككل أئمتنا، والمعروف في تاريخنا -وهذه نقطة هي نقطة فصل تعتبر في دراسة أصول الفقه، وأنبه عليها هنا باعتبارها فصلًا من فصول أصول الفقه- هو أن أصول الفقه هو العلم الجامع بكل جلاء لعلمي الوجود: علم العقل وعلم النقل.

تستطيع أن تقول أن فروع الفقه مثلًا أكثر ما يتجلى فيها النص -النقل-، العقائد، العقل فيها قليل لذلك هم يقولون: العقل دَلَّ على النقل ثم استقال، يعني الذي عرفنا بصحة النقل هو العقل، لكن قالوا ثم استقال، وهناك العبارة الشهيرة التي قالها الغزالي ثم ذكرها ابن تيمية وشاعت على لسانه، والكثير من الكلمات -أنا أنبه على هذه الكلمة ليس تقليلًا لقيمة

أئمتنا– ولكن الكثير من الكلمات التي قالها الأوائل ذكرها المتأخرون وشاعت أنها لهم، والباحث الناظر والقارئ المهتم يجد أن هذه الكلمات قد سُبقوا إليها، مثل هذه الكلمة، هذه الكلمة التي شاعت في كلام شيخ الإسلام –عليه رحمة الله– في كتابه (درء تعارض العقل والنقل) وهو أن النقل لا يمكن أن يأتي بمحالات العقول، هذه القضية لا يمكن للنقل أن يأتي بمحالات العقل، لا يجوز بأن يأتي يناقض يقينية من يقينيات العقل الفطري، وهذه تحتاج إلى بحث أنا –إن شاء الله– أبينها الفرق بين العقل الصناعي والعقل الفطري؛ لأنها مَهمة من مَهمّات أصول الفقه، لا يمكن أن يأتي النقل بشيء يناقض العقل مناقضة صريحةً، لكنه يمكن أن يأتي بما لا يدركه العقل. القصد هو أن العقائد قلما يدخل فيها العقل، قد تصاغ علوم العقائد من خلال العقل، ولكن مصدر العقائد هو النقل.

كذلك الفروع الفقهية، قلّما تجدون العقل له دور، العقل له إعمال ولكن ليس له دور في الاستدلال، ليس هو الذي يستدل به.

وكذلك علم الحديث، تجد أنه –وهذا إن شاء الله إذا الله يسر نبين– أن علم الحديث هو علم اجتماعي، صحيح أنه خاص في داخل المدرسة الحديثية ولكنه مُنتَج اجتماعي والمجتمع هو الذي ينشئه، وهذه قضية مهمة تدل على أن الرقي في داخل أمتنا لم يكن نخبويًا –يعني ليس هناك طبقة للعلماء مفصولة في درجة علومها عن المجتمع– لا يوجد هذا، يعني عندما تقرؤون –أنا أنبه على هذه النقطة؛ لأهميتها– عندما تجد أن شعبة كان يجلس عنده مائة ألف نفس يسمعون له، وكان الناس يرسلون أبناءهم ليتعلّموا سَمْت أحمد، سَمْته فقط! الأم ترسل ابنها لا ليسمع، ولكن ليرى كيف يتكلم أحمد، كيف يجلس، ما هي هيبته، ما هي ديانته، كيف يتحرك، كيف يتغير صوته عند ذكر الحبيب المصطفى –صلى الله عليه وسلم–، فتُرسل الأمهات أبناءهن ليتعلموا من أحمد سمته، فتجد أنه جلس في المجلس مائة ألف نفس، مائتي ألف نفس.

يزيد بن هارون –وهذه القصة له– أنه عطس يوما فشُمِّت فاهتز قصر هارون!

فأين هؤلاء المحدثون؟

السؤال الذي يطرح نفسه: أين هؤلاء الناس؟ هؤلاء الناس يتعلمون، ترتقي عقولهم، ترتقي مداركهم السلوكية والفكرية، ثم يذهبون إلى أعمالهم، منهم من يذهب تاجر، منهم من يذهب طبيب -ها تقول طبيب؟ نعم- منهم من يذهب مقاتل، منهم من يذهب قائد، وهكذا تسري بهم الحياة، منهم من يذهب إلى الحمام يشتغل في الحمامات، وهكذا.

هؤلاء الذين جلسوا هذه المجالس العلمية ذهبت بهم الحياة، ثم بعد ذلك اختص من هؤلاء المائة ألف خمس آلاف نفس، عشر آلاف نفس في طلب الحديث، ثم برز منهم ألف، ثم كتب منهم خمسمائة، ثم بقيتْ من كتبهم مائتين، لكن القصد أن العلم كان ارتقاءً اجتماعيًّا يعني مبنيًا في قواعده على المجتمع.

أرأيتم هذا؟ هذه المائة ألف المائتي ألف، نتحدث عن ربع مليون بني آدم في جلسة واحدة! فهذا يدل على أن علوم الإسلام وخاصة علم الحديث كان علما اجتماعيًا، فهو مُنتج اجتماعي، وهذا يحتاج إلى بيان كثير جدًا وتفصيل.

القصد بأن علم أصول الفقه هو العلم الذي تجلى فيه التقاء النقل مع العقل تمامًا، ولذلك لا يجوز للغبي أن يتعامل معه، ولا يجوز لجاهل النص أن يتعامل معه، لا بد أن يكون جامعًا للأمرين.

هناك وقت من الأوقات، ولا شك غلب فيه أهل العقل، والناس يسألون من أين تأتي بالعقل والنقل؟ أنا فكرت ورأيت بعض الناس تدور أعينهم لما أقول عقل الجاهلية، ولا بد من عقل للعقلاء حتى ولو كانوا جاهليين ولا بد من هدي الإسلام، فمن أين هذا؟

انظروا إلى قوله -تعالى- تفكرت فيها هذا الأسبوع بحثت عنها في كتاب الله فوجدتها في قوله تعالى: {أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب}، والواو عند أهل اللغة بالإجماع تقتضي المغايرة، يعني أين استقلال العقل عن النقل ولا بد من اجتماعهما لحصول الهداية ولحصول المدح الإلهي في قوله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ} -هذا هؤلاء هداهم الله أين يعني- {وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ}

إذن، لا بد من عقل وإمامنا الشافعي -رحمه الله- في كتابه (الرسالة) وهو منشئ علم الأصول يجعل الاجتهاد -ما معنى اجتهاد عنده؟ يعني إعمال الرأي إعمال العقل- يجعله واجبًا، كما أن التسليم للنص واجب، فإعمال العقل في النص واجب، وهذا مما سنبينه من مهمات أصول الفقه: رفع المَلَكة العقلية.

القصد بأن أصول الفقه هو العلم الذي يتجلى فيه العقل والنقل تمامًا، يعني في العلوم الأخرى قد يغلب النقل وقد يغلب العقل ولكن هذا الانتصاف والامتزاج بين هاتين الهدايتين: هداية النص -أي النقل- وهداية العقل يتجليان في أصول الفقه.

نعم هناك طور من الأطوار غلب فيه العقل على النقل في أصول الفقه، وهذا تكلمنا عنه في قضية المتكلمين وتكلمنا بأنه قد أدخلوا فيه علم المنطق وعلم الكلام ودخل في مهمات أصول الفقه ما هو غريب وأجنبي عنها.

ولكن أصل هذا العلم إذا نظرنا في كتابه الأصيل وهو (الرسالة)، رأينا عقلًا عظيمًا ورأينا إدراكًا للنص ومعرفة وإحاطة به كذلك عظيمة، فهذا علم يقوي لديك البحث في النص ويقوي لديك المَلَكة، والملكة هي قوة النفس -يعنى لما أقول الملكة هي قوة النفس كما نقول قوة البدن أو عضلة البدن أو قوة الإبصار- ملكة العين إبصارها -أي قوة نفسها-، قوة النفس مَلكة، الشجاعة ملكة، الحلم ملكة، العلم ملكة، مِران العقل ملكة، فلا بد أن تقوى هذه الملكات.

إذن، نقول بأن الإمام الشاطبي أردنا قراءة كتابه من أجل -هذا شرح للسبب الخاص- أن نبرئ هذا الكتاب مما نُسب إليه من انحراف، ونقول هذا لعلمنا، وليس لعلمنا الذي جاء من غيرنا، بل من علمنا بالمِراس والدَّربة والامتحان بأن علماءنا وخاصة أن أَدَقَّ من كَتَبَ في العلوم هم علماء الأصول، ومن هنا كَثُر فيهم التجريد.

ما معنى التجريد؟

التجريد هو الحالة الذهنية لأنه علم يتكلم بالكليات، أنتم تعرفون، لمن قرأ شيئًا في المنطق، وشيخ الإسلام شرحها كثيرًا خاصة في هذا الكتاب (درءِ تعارض العقل والنقل) بأن الكليات ذهنية، صحيح؟

لو قلت أنت: "الحديد"، لا يوجد شيء اسمه الحديد، يوجد فرع الحديد في الواقع، كلمة الحديد كلمة كلية لا وجود لها إلا في الذهن، فإذا وقعت على الأرض -على الوجود- صارت جزئية، فالكليات هي ماذا؟ هي ذهنية، يعنى مثل ماذا؟ مثل القواعد، القواعد توجد فقط في الذهن لكن تفريعاتها هي تطبيقاتها الفقهية، واضح؟ وهي ما يسمى اليوم بالعقل الرياضي الذي يحتاج إلى أبعاد كما يقولون ثلاثية ورباعية يعني الأشياء عندك لها أبعاد ثلاثية، لكن الذهن مرات يذهب في خيالاته إلى ما هو أكثر من هذه الأبعاد فلذلك الكليات ذهنية.

من هنا كانت صرامة علماء علم الأصول، عندهم صرامة شديدة، هذا التجريد هو الذي –للأسف– في وقت من الأوقات صنع صعوبة هذا العلم، ولقلة التمثيل الذي قلناه في مدرسة المتكلمين أصبح هذا العلم غريبًا حتى على الفروع، بخلاف مدرسة أهل الرأي.

والآن سأتكلم عن قضية مهمة وهي من منافع مدرسة الرأي في هذه النقطة، إذن، لما نأتي لواحد اليوم فينسب للشاطبي كلامًا لم يقله لأنه أراد ما قلناه في الدرس الفائت، فأردنا بهذا أن نقرأ (الموافقات) أولًا لهذا السبب، وهو تبرئة الإمام مما علقه الجهلاء المعاصرون به من كلام لا يليق بالعلماء، لا يليق بسلفنا، كما يعلقون كثيرًا على ابن رشد، يعلقون على ابن حزم.. يختارون.. هذه القراءة تسمى –وهي إحدى القراءات الباطلة– اسمها القراءة الانتقائية، والقراءة العالمة السليمة الموضوعية هي القراءة المستوعِبة، هناك فرق بين القراءة الانتقائية وبين القراءة المستوعبة، القراءة المستوعبة تكون من الألف إلى الياء وكل كلمة عند علمائنا يجب أن نقف عندها، ولذلك مما يُعَلِّمُنا علم الأصول –وهذه تأتي في الجواب السؤال الثاني: ما هي فوائد قراءة علم الاصول؟– أنها تعلمك الوقوف حتى عند حروف المعاني.

يعني لو ذهبت إلى كتاب من كتب الأصول من المطولات، لو ذهبنا إلى كتاب متأخر إلى كتاب (إرشاد الفحول) وغيره، تجده يقف أكثر مما يقف علماء اللغة عند حروف المعاني، ما معنى حروف المعاني؟ هي: من، وعلى.. هذه نحن نمر عليها كأنها لا قيمة لها، أما هم فيقفون عندها، هذه تعلمك الدقة.

ولذلك علينا أن نقف مع هذا الإمام لنُبَرِّئَهُ، لنسلب من العلمانيين الإسلاميين الذين أرادوا الجمع بين العلمانية والإسلامية بحيث يريدون أن يوسعوا دائرة الدليل ليُدخلوا فيها ما يسمى بالمصلحة بإطلاق ويجعلونها دليلًا، ويأخذون كلام ابن القيم وكلام الشاطبي في المقاصد وكلام الطوفي من هنا وهنا ويجمعون، هذا ما يسمى في علم التزوير بالتَّشْيِيء، وعلينا أن نحذر منه، هذا إحدى ما يُلَبَّس علينا في واقعنا وهذا مما يفيدنا فيه علم الاصول .

التَّشْيِيء هو: وجود أجزاء المسمى بغير ترتيبه السنني، هذا التشييء، ما هو التشييء؟ هو وجود جميع أجزاء المسمى لكن بغير ترتيبه السنني.

الآن لو ضربنا المثل بالإنسان، الإنسان له رأس، له يدين فلو قلت ما هو الإنسان؟ أنت تعرف ما هو الإنسان، لكن لو افترضنا أننا جعلنا الرأس مكان الرجل والرجل مكان اليد والأذن مكان العين، فهذه الأجزاء موجودة لكنها مركبة على غير وجهها السني، وهذا المثال الاخير؛ لا أريد أن أدخل علم في علم، ولكن هنا أردت أن أنبه على مَهمات علم أصول الفقه في تربية حياتنا وعقولنا، هذا كله من علم أصول الفقه.

والآن ترون تسمية الأشياء بغير أسماءها كلها تدور على ماذا؟ هذا من أكبر الأخطاء عند الفقهاء، الأطفال قد يقع عليهم، لمجرد وجود الرأس يكفي أن يسمى إنسانا، لكن الذكي أين يقع عليه الخطأ والعالم والدارس والفقيه؟ يدخل عليه الخطأ بهذا الذي يسمى التشييء: الأجزاء كلها موجودة ويبحث عنها واحدة واحدة، موجود هذا وموجود هذا، وهذا الركن موجود في النهاية المسمى موجود. وأنت تنظر إليه فتجده مشوهًا، هذا هو التشييء.

إذن، من أسباب قراءتنا للموافقات –حتى لا نبتعد عن المسألة– أننا نريد أن نبرِئ الإمام مما علَّقه به الذين أفسدوا منهجه، قالوا مصلحة –انتبهوا لهذه المصلحة– لو ذهبنا إلى كل كتب الأصول لوجدنا أن هناك مصالح: المناسب المعتبر والمصلحة الملغاة، المصلحة المعتبرة، والمصلحة المرسلة لمن يقول بها، وأنا لا أقول بها في الحقيقة، ليس إلغاءً لما يقوله أصحابها ولكن لأنها داخلة في المصلحة المعتبرة ونريح أنفسنا بإبقائنا داخل الخطاب، وهذا سنبينه في المباح.

والشيخ الشاطبي –عليه رحمة الله– له تجليات في الكلام عن المباح، له تجليات رائعة جدًا في الكلام عن المباح. إذن، السبب الأول الذي يدعونا لقراءة (الموافقات) هو أن ننظف هذا الإمام مما علق به من خلال كتابه وليس من خلال استدعاء كتب غيره ولا شروح غيره.

الكتاب فقط نقرؤه ونرى كيف أن الإمام يرى أن أعظم مصلحة في الوجود خلقنا من أجلها هي تحقيق العبودية لله، وهذه نأتي إليها ربما لما نأتي للمصلحة، لا نريد أن ندخل فيها لأن هذا ليس هو المقصد، ما هي المقاصد المعتبرة ..إلخ، لكن لما انتقد ابن تيمية –رحمه الله– الذين جمعوا ضرورات الوجود في خمسة فقط، انتقدهم بأنهم أغفلوا أعظم ضرورة وهي ضرورة العلاقة مع الله. فالجماعة أغفلوا أعظم ضرورة وهي ضرورة عمل القلب، تجد أن الضرورات كأنها محصورة فيم هو هيكلي، وأين

الجوهر؟ وهذا نجده عند الفقهاء -يعني الآن لو أنت أردت في الفقه أن تقول ما هو حكم الخشوع لما وجدت في كتب الفقه إجابة، مع أن القرآن يجيب عليها-.

هي كأنها الراية الأولى المحمولة للدخول إلى ما هي الصلاة في القرآن: {أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ}، إذا بحثث في كتب الفقهاء لا تجد حكم الخشوع؛ لأن مهمة الفقيه هو الكلام عن هيكل العمل الذي به يتم الإبراء، الصلاة الصحيحة يعني هي براءة الذمة وسقوطها من الذمة، هذه المهمة الأولى التي نريد أن نقولها.

المسألة الثانية التي تدعونا إلى قراءة (الموافقات) هي طريقتها، وهذا في الحقيقة يحتاج إلى بيان ووقفة مهمة جدًا، هل علينا نحن المعاصرون أن نجتهد بحيث نقفز على التاريخ والتراث؟

الأستاذ عبد السلام هارون -عليه رحمة الله- وهو إمام من أئمة التحقيق وهو ابن خالة الشيخ شاكر له كلمة جميلة ورائعة -وإن كان مشايخنا لا يعرفونه؛ لأنه ليس له اهتمام بكتب الحديث والفقه وإن كان له تحقيقات في هذا ولكن هو إمام في اللغة- يقول الاجتهاد يبدأ بقتل الماضي بحثًا.

يعني، ما الذي حدث فينا؟ حدث أن الجماعة أتوا إلى كتب أصول -كتب الأصول للأقدمين-، بحثوا فيها ما فهموها فقالوا نجدد في أصول الفقه! وهذه طامة كبرى، من هنا يُتهم من يُدرّس الأصول بأنه يستعلي على متكلمه وعلى سامعه وقارئه وهذا غير صحيح، ولكن كذلك من الخطأ أن تبقى مستعليًا عليه بخطاب الأقدمين، عليك أن تُنْزِله.

نعم هناك صعوبة في مسائل الكليات كما تكلمنا لأنها مسائل ذهنية، ولكن كذلك يستطيع العالم المتبحر الذي عرف جوهر العلوم ودخل إليها ووصل إلى جوهرها أن يجعلها سهلة لسامعها والمسألة مسألة عبارة، ثم إن عجزت العبارة ذهب إلى التمثيل، والتمثيل هو أعظم درجات الحد كما يقول شيخ الإسلام في نقده للمنطق، يقول: "أن المناطق جعلوا كل مسمى لا يُعرف تصورًا إلا بالتصديق، فلا يُعرف إلا بالحد" أي تصور ذهني لا يعرف إلا بالحد، ما المقصود بالحد؟ يعني التعريف: قال ممكن نعرفه بالمثال، عوض ما نجلس نعرف ما الخبز، نأتي برغيف ونضعه أمامه فيحصل المقصود.

صحيح أنك ما نبّهت ذهنه وما شغلت ذهنه حتى تسمع وتدرك مقاصد الكلام، نزلت مرتبته، لكن في النهاية حصل المقصود، فما الذي حدث؟ الذي حدث أن كتب الأصول ارتقت في أسلوبها فابتعدت عن الأنصاف، حتى أنصاف طلبة العلم، لا ينشط لهذا العلم إلا الكبراء الذين درسوا المنطق وكبرت عندهم المعاني العقلية وصارت عندهم دربة فيها.

ما المطلوب؟ المطلوب العلمي الصحيح كما قال الشيخ عبد السلام وهو أن تذهب إلى التاريخ وتذهب إلى التراث فتقرأه قراءة مستوعبة عالمة تصل إلى درجة السيطرة عليها.

أي علم لا تستفيد منه حتى تسيطر عليه، إذا بقي من هذا العلم جزء شَمُوس لم تسيطر عليه لم تعد أنت طالب علم، لم تعد عالمًا، عالم يعني أنه العلم تحت سيطرتك وتدرك هذا العلم وهو سهل تقرؤه كأنه يتحرك بين يديك، فإذا بقي بعض من هذا العلم شموسٌ فاعلم أنك لم تسيطر عليه، فأنت إذن لا تستطيع أن تتكلم فيه ولا أن تبينه لغيرك؛ لأن البيان يعني الإبانة عن طريق اللسان، لا يمكن أن تكون واضحة ولا بينة حتى تكون بينة في النفس.

فلما ترى شيخ مخربط ويقفز من هذه لهذه وأطلق عبارة كبيرة لا يستطيع أن يفسرها للناس، هذا في الحقيقة يدل على أن هذه المسألة ما زالت في قسم الشموس -لم يسيطر عليها بعد-.

وهذا يقع في الناس وتعرفه عند الكلام عندما يتكلم يهرب منه وتقول هذا الرجل مسكين الباب مسكّر عليه، الله يفتحها عليه.

ما هو المطلوب؟ المطلوب هو الذهاب إلى تراثنا وقراءته؛ لأن نحن مجبورين الآن والعلوم لا تُعرف إلا بالحد، المسميات العقلية وخاصة المصطلحات، المصطلحات لا تعرّف إلا بالحد، يجب أن تتعلم ما هو أصول الفقه، ما هو حدّه، ما هو تعريفه تأتي إليه وتتعلم أنه أصول الفقه إما أن يعرف تعريفًا تركيبيًا وإما أن يعرف تعريفًا لقبيًا، هذا يجب أن تتعلمه، يجب أن تعرفه، ويجب ألا تخون الناس -لازم أن تعلمهم بلغتهم المعاصرة- فإذا لم تدرك هذا، توقف قليلًا أنت لا تستطيع أن تستوعب ولا أن تبين للناس.

إذن، المطلوب هو قراءة تراثنا بأسلوب ما كتب فيه، صحيح أنه دخل عليه أجنبي من منطق اليونان، لكن في النهاية كُتب.

يعنى الآن لما تأتى لكلمة "الاقتضاء"، هذه الكلمة طالب العلم يقف معها ويتساءل عن معناها؟! فهذه ينبغي أن تُسهِّلها، ولا يمكن لك أن تسهلها لطالب علم حتى تكون هي خاضعة لك، بينة في نفسك على معنى سهل، وبعد ذلك تنقاد في لسانك قيادة سهلة فتعبر بها، وهذا ما نحتاجه.

الخطأ الكبير هو من يزعم أننا نريد أن نجدد بتجاوز التراث دون أن نقرأه، هذه مهمتك، طالب العلم لا تطلب منه أن يقرأ التراث، لكن أنت وقد جلست مجلس الإبانة عن تراث علمائنا وعن كتبهم وعن علومهم وعن أصولهم فلا بد أن تقرأها من خلال أبوابها وأساليبها.

أنت جلست لتعلم الناس أمامك وتبين لهم وتفصّل لهم وتسهل لهم، ولكن أنت وقد أردت أن تقول ما لا يقوله علماؤنا فلا بد أن تدخل هذه الكتب من أبوابها التي كتبت فيها ومن مصطلحاتها التي صيغت بها وأنت يسلس لك قيادتها، وهذا جهد عظيم.

هذه ليست مسألة سهلة، المرء يحتاج إلى سنيين من القراءة والمراجعة وربما تقف لديه مسألة، تتعجب أنت حين خضت هذه المعركة وغمار هذا السبيل، تتعجب كيف هذا الشيخ يتكلم في هذه المسألة ويجعلها أول مسألة في البحث وهي في الحقيقة إلى الآن لم تحلل لديك وعناصرها لم تحلل في داخلك لأنه يلقيها كما في الكتاب يقول كذا وكذا ويمشي وأنت لا ينفعك هذا لا يكفيك هذا، تريد أن تدرسها لتوصلها علمًا في داخل السامع، هذا يحتاج إلى المراحل التي تكلمنا فيها:

أولًا: أن تقرأ التراث قراءة مستوعبة.

ثانيًا: أن تقرأ هذا التراث حتى تسلس لك قيادتها.

ثالثًا: أن تصيغه صياغة قريبة للنفس.

الإمام الشاطبي حقق هذه المنفعة، ولذلك لا تجد في كتابه تلك الصياغات المنطقية التي جففت رطوبة أصول الفقه، لكن هم أحرار.

وهذه طريقة علمائنا، كانوا أهل ضنٍ بعلومهم كالذي لديه الكنز فيريد أن يجعله فقط للمتخصصين يقول هذا علم لن أعطيه إلى هؤلاء الأولاد والصغار يتلاعبون به، هل أصابوا أم لم يصيبوا؟ هذا قطعًا في زمانهم له أسبابه التي نحكم من خلالها بإصابتهم. لكن بتغير الظرف، أضعنا الله يرحم علينا، لذلك أبو زكريا الفراء إمام من أئمة اللغة كان من عيب العلماء عليه أنه أراد أن يُسهِّل النحو حتى يُصبح ألعوبة في يد الصغار في الحواري، لما يسبونه يسبونه بهذا، يقولون: قف لقد أفسدت علينا الأمر، هذه جواهر كيف تلقيها هكذا؟ صعِّب حتى إذا أرادها الداخل إليها تعب للوصول إليها.

لكن الإمام الشاطبي لم يسلك هذا السبيل، من هنا نقول ما هي فوائد قراءة (الموافقات)؟ نقول أنه من أسهل كتب الفقه، الآن الناس يتكلمون: الموافقات، الموافقات.. ولا يقرؤونه، فإذا كان الكتاب أسهل كتب الفقه كيف لو نلقيه في (المستصفى)، كيف لو نرميه في (الإحكام) للآمدي؟ مع أن الآمدي أصلًا فيلسوف، فتصور واحد فيلسوف يكتب في أصول الفقه! أو يقرأ للمعتزلي أو لأبي الحسين البصري (المعتمد)، يرى كيف حاله معها، يرى كلمات سوداء، صحيح أنها مكتوبة بحروف عربية ولكن ما الموضوع؟!

ولذلك، السبب الثاني الذي يدعونا لقراءة (الموافقات) للإمام أبي إسحاق الشاطبي هو طريقة صياغته، طريقة الصياغة التي كتب فيها سنتبينها، لكن أول فارق أنه لا يقف عند الحدود التي عليها المناطقة، لا يقف عند الحد ولكنه يبينه بالطريقة التي فيها الشرح والطريقة المعروفة لمشايخ عصره، يعني هو توفي عام ٧٩٠ هجرية وتوفي سنة ٧٥٢ ابن القيم، يقول بعضهم -وهذا مما يحتاج لتدقيق ومعروف طبعًا أن الشيخ الشاطبي هو تلميذ القرافي المالكي- وهذا ربما نتكلم عنه، عن كيف تكونت لديه الملكة، تكلمنا عن مصادره ولكن لم نتكلم عن شيوخه وأن القرافي هو ممن التقى مع شيخ الإسلام الثاني ابن القيم -رحمه الله- فالطريقة تحتاج إلى توسع في قضية الإبانة وخاصة أن المواضيع التي طرحها هي مواضيع تحتاج إلى شرح موسع على غير ما وضعت لها الكتب الأصولية التي قلنا بأنها كليات، و(الموافقات) كأنه كتاب فرعيات؛ لأنه قال في مقدمة الكتاب أنه أراد أن يجمع بين طريقتي ابن القاسم وأبي حنيفة -عليهم رحمة الله-.

طيب نكتفي بهذا القدر من الشرح لما هو خاص في قراءة (الموافقات)، قد يدخل فيها أسباب كثيرة، أن (الموافقات) أصبح له حضور اليوم عند طلبة العلم، والمشايخ يحتجون به كثيرًا، قد تدخل هذه النقطة في النقطة الأولى لكنه حتى نقرأ أبحاثه ومواضيعه ونصبح على أدراكٍ تام بماذا يريد هذا الإمام بهذا.

بالنسبة لهذا الكتاب ففيه منافع كثيرة، هو من الكتب التي نفعتني وسأبينها في السبب الثاني: لماذا نقرأ أصول الفقه جملة وعامة؟ ولكن هذا الكتاب، ممن اعتنى به في حياتنا اعتناءً حقيقيًا كليًا وليس اعتناءً جزئيًا -هناك من اعتنى به اعتناءً جزئيًا من أجل المقاصد وكذا، ولا يهمنا البحث في هذا الباب لأنه لا نقرأ (الموافقات) لنقرأ كتاب المقاصد- الأستاذ فتحي الدريري، لعله يقول قرأه لا أقول أنه تجاوز المائة أو أكثر من مائة، لكنه يقسم لأحد تلامذته أنه ما دخل يومًا الدرس -وقد بقي مدرسًا أكثر من خمسين سنة في الجامعة- ليُدرسَ شيئًا من العلوم من أصول الفقه إلا ويقدم أن يقرأ له، قراءته كالطالب، يقرأ قبل أن يدخل الدرس الذي يُدرس فيه، هذا من أمانة حمل العلم.

الآن نأتي إلى ما هي فوائد قراءة كتب الأصول؟ ما هي فوائد تعلمنا لأصول الفقه؟ ذكرنا إجمالًا في الدرس الفائت قلنا:

أولًا: تنمية ملكة الاستنباط، لماذا؟ لأن أصول الفقه -وقد تكلمنا في الدرس السابق على أن هناك فرقًا شديدًا بين أن تكون عالما بمصطلحات الفن وبين أن تكون عندك الدربة على استعمالها ومثَّلنا لذلك-.

فإذن، قراءة أصول الفقه تُنمي لديك ملكة الاستنباط، هذه لها فوائد:

أولها: أنها تجعلك -أقل ما يمكن- أرقى من المقلد؛ لأن المقلِّد هو العامي الذي لا يدخل بالإجماع -كما قال أبو عمر بن عبد البر في (جامع بيان العلم من فضله) وذكرها الخطيب في (الفقيه والمتفقه) وذكرها ابن القيم في (إعلام الموقعين)- أن المقلد لا يُعد من أهل العلم.

إذن، إذا أردت أن تكون طالبًا للعلم فلا بد أن تخرج من هذا عن طريق تعلمك للأدوات التي تمكنك من الذهاب إلى الكتاب والسنة من أجل أن تعرف دلالة هذا الكلام الشريف وكلام الله وكلام رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على المطلوب منك، لا بد أن تتعلم.

هذه النقطة تؤدي بنا إلى نقطة أخرى: أن أصول الفقه هي التي تضبط سوق الفتوى الجاهلة التي انتشرت.

نحن الآن أمام سُعار، أمام هيجان، حقيقة كأن الناس –هؤلاء الذين يتكلمون الآن بالفتوى إلا من رحم ربي ممن يزعم بأنه يستطيع أن يأتي بالأشياء الجديدة– كأننا أمام {حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ * فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ}، ليس لها ضابط تطلق الفتاوى من غير عنان، تطلق الفتوى من غير وجود قواعدٍ تستند إليها.

ومن هنا أفتح الباب الذي أردت أن أنبه عليه، ذكرنا في الدرس الفائت بأن الأئمة الأحناف –رحمة الله عليهم– ولهم فوائد عظيمة، في أنهم استنبطوا الأصول من أين؟ من أين استنبط الأحناف الأصول؟ من فروع الإمام، هذا يدل على ماذا؟ يدل على أن الإمام كان لديه أصول، كليات يرجع إليها لولا وجود هذه الكليات ما اكتشفوها.

إذن، إذا أردت أن تفرق بين المفتي الصحيح والمفتي الباطل، بين الفقيه الصحيح والفقيه الباطل، وما قاله شيخ الإسلام: "فإن المرء إن لم يكن لديه أصول وقواعد يعود إليها فإن خطأه أكثر من صوابه".

إذن، الأصل هو أن يكون عندك أصول، ليس شرطًا أنك تكثر من الفروع إن لم يكن لديك أصول تعود إليها، فحينئذ أنت لا تستحق أن تسمى مفتيًا؛ لأن المفتي شرطه أن يكون عالم، وقلنا العالم شرطه ألا يكون مقلدًا، وإذا لم يكن مقلدًا إذن فلديه أصول يعود إليها.

فإذن، أيها الإخوة الأحبة علمتنا طريقة الأحناف مسألة مهمة، وعلمنا كلام الأئمة أنه يجب على كل طالب علم أن يكون لديه أصول يعود إليها؛ لأنه ليس المهم أن تحفظ الكثير من الفروع تضطرب لديك ولا تعرف كيف توفق بينها.

طبعًا لأنه الآن الفقه في أذهان الناس محصور في مسائل: إن حضر الشتاء فالجمع وإن حضر البرد فالمسح على الخفين وإن حضر الحج... والمسائل معدودة.

لكن هذا ليس هو الفقه، والدليل أنه إذا نزلت نازلة ترك الناس الفقه والدليل وكلام الفقهاء وذهبوا إلى ما استحسنته عقولهم، ما رأيك يا شيخ؟ فيتكلم الشيخ كبائع بندورة –ليس بائع البندورة الذي جلس مع يزيد ابن هارون– رأينا بائع البندورة في الزمن الأولي أين جلس أولًا وأخذ العلم عن يزيد بن هارون وأصبح عنده الأدب الإسلامي والعقل المسلم المتفتح الأول ذهب بعدها لبيع البندورة.

لكن هذا مسكين، هذا أصلًا ما مر على الدراسة ولا الكتب ولا قرأ ومع ذلك تجد أن طريقة الفقيه حين يتحدث عن هذه النازلة وهذه المسألة هي نفس وعين طريقة من يتكلم فيها من العوام، وبعض العوام أذكياء أدركوا أن المسألة فيها قولان فسهل جدًا طالما فيها قولان والأحب إلي كذا؛ لأنها تحقق المصلحة.

إذن، هو يستطيع أن يقول كل مسألة فيها قولان والمسألة هذه أفضل لأنها تحقق المصلحة، أليس هذا هو تخريج عامة ما يقع لفقهائنا من نوازل؟ هذا تخريجهم، المسألة فيها أقوال وخير الأقوال ما ناسب المصلحة والمصلحة كذا.. لكن أين المصلحة الملغاة وغير الملغاة وبأن المصلحة تقدم وتؤخر هذه لا وجود لها ولا ضوابط فيها.

ولذلك أول ما يعلمنا أصول الفقه أن نضبط طرق الاستدلال، يعلمنا كيف نستدل وبالتالي يعلمنا بمفهوم المخالفة كيف ندرك خطأ الأخر، مرات قلوبنا لا تطمئن لقول، لكن لا نعرف كيف نرد عليه، لماذا؟ لأننا لا نعرف طرق الاستدلال، نرى أنه يخالف السنة، عجيب.. هذا كلام لا نعرفه أو أن قلوبنا لا تطمئن إليه، حتى هذا الاطمئنان القلبي موجود في أصول الفقه، يا شيخ؟ نعم موجود.

يعني هل يوجد في أصول الفقه مرجح اطمئنان قلبي؟ موجود أنك تذهب له وتنظر ما مرتبته في الدلالة ومرتبته في قوة الدليل، وهل هو ملزم لك فقط أم ملزم لغيرك إلى آخره.. حتى هذه يبحث فيها أصول الفقه.

وبالتالي فإن دراسة أصول الفقه تقوي لديك ملكة الاستنباط التي تضبط عندك الوقوع في الخطأ وتضبط كذلك عند الآخرين سعار سوق الفتوى، الدليل وغير هذا وهذا حديث يرد وحديث يقبل.. كل هذا لا يعرفون مناهج العلماء الأقدمين فيها، ولما سمعوا من علماء أن الشافعي قد أخطأ لذا فهم يستطيعون أن يقولوا بأن الشافعي قد أخطأ، وعندما يقولون بأن الإمام أحمد ثرب وشدد النكير على أبي ثور نسطيع نحن أن نقول ذلك عن عالم كما قال الإمام أحمد عن ثور، وهكذا.

وأحمد بن حنبل عالم وأنا عالم، كان لديه رأيه وأنا لي رأيي، وإذا كانت المسألة أراء أنا عالم أيضًا ولي تجارب في الحياة هذه هي المسألة الأولى.

المسألة الثانية أن قراءتنا لأصول الفقه هي تنمية لعقولنا، ليس فقط ملكة الإستنباط لا، قلنا بأن أصول الفقه شقه الأول هو العقل ولكن نقصد بالعقل هنا العقل المهتدي والعقل الفطري، علماؤنا الأقدمون يجعلون العقول عقلين: عقل طبيعي فطري وعقل صناعي، ما الفرق بينهما؟

العقل الفطري هو الذي يقول بالمسلمات التي عليها بقية الناس، يقرها الناس ويرونها سليمة، ولو خوطب بها الإنسان قبل طروء العقل الصناعي -لأن العقل الصناعي فيه ما هو باطل وما هو صحيح- فإنه يسلم لها، وهذا دليله هو إجماع البشرية عليه، البشرية تجمع عليه إذا خوطبت به لذا يقال له عقل فطري.

والفطرة -وإن كان هذا ليس معناها الدقيق- لكن الفطرة هي أصل الخلقة فطر الناس عليها، ماذا؟ أي أوجد أصل خلقتهم عليها، ولذلك إذا قرأت أصول الفقه قراءة صحيحة نما لديك عقلك حتى فيما لا تحتاج إليه، لماذا؟ لأنه في الحقيقة أصول الفقه هو علم الحياة، أنت عندما تبحث في قضية أن الوجود في ما يحتاجه الإنسان ينقسم إلى ثلاث مراتب: ضروريات وحاجيات وتحسينيات. هذه مسألة تخضع لها الفقهيات فقط أم تخضع لها كل الحياة؟ قد يقول أحدهم هذه مسألة فطرية، نعم هي فطرية، حتى لا تصل لدرجة أن يلغى عقلك بالنص؛ لأنه هناك أناس نراهم.. المشكلة بعض الكلام تقريراته العلمية سهلة والناس يقرونها وفي التطبيق تجد أسوأ، وهذا ما قلناه، بعض الناس تجاوز حد العقل.

عندما نقول الكافر لا يقبل هذا الكلام يقول لك وهل أنا كافر لا بد أن أقبل لأني مسلم، لأننا قدمنا في المقدمة كلام ابن تيمية الذي قاله الغزالي من قبل "أن النقل لا يأتي بمحالات العقول"، نحن الآن قبلناها مثل قضية الأكثرية والأقلية، البعض من جماعتنا اليوم ألف فيها وكأنها منهج من مناهج التوحيد، فبمجرد أن يقول أحد بالأكثرية فقد تجاوز قنطرة الإسلام إلى الكفر، وليس قنطرة الكفر إلى الإسلام، مجرد كلمات تطلق اليوم صارت حدًا.

هذا على ماذا يدل؟ يدل على غياب الإسلام أم غياب العقل؟ غياب العقل، والمسلمون والله من نظر إليهم -ليس للعوام، وإنما للعاملين في الإسلام وخاصة ممن يرفع شعار النقل ويرفع شعار العودة للسنة- والله ثم والله من نظر إليهم من علن رأى أنهم قد تجاوزوا العقل ولم يدخلوا في النقل؛ لأنه لا يمكن أن يكون النقل خارج العقل، لا يمكن أن يأتي النقل بما لا يدركه العقل أم يأتي بمحال العقل.

الشيخ يقول نحن نمرن عقولنا وهذا كلام أبي يعرف الفرق، نعم أبيك يعرف الفرق بين الضرورات والحاجيات والتحسينيات، لكنه حين يدخل للمسجد يخلع عقله كما يخلع حذاءه، مشكلة المسجد عندنا أن كل واحد منا يدخله كأنه داخل لعالم الأساطير، والدخول للعمل الإسلامي والفقه الإسلامي كأنه دخول لعالم الخيال الذي نفلت من العقل.

والدليل كما ترون الجماعات الذين يقال لهم إسلامية ومجاهدة وما إلى ذلك، فترى منهم من الأقوال ما تقول عجبًا، وسهل جدًا طبعًا قضية تلبيس الفعل بلباس النص، هذا قدر عليه الخوارج.

واليوم حتى أوباما يتكلم بالإسلام، أعظم الكفر قد يُلبس بلباس الإسلام؛ لأن هناك زندقة لم يقل بها إبليس من قبل، وإبليس لو اتُّهم بها لقال أعوذ بالله، أنا كافر صحيح ولكن ليس لهذه الدرجة لأن الله قال: {يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ} في قوله -تعالى- في سورة الأنعام: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ} التقدمة هنا لماذا؟ القاعدة التي قالها سيبويه وقال علماؤنا، هذه القاعدة التي قالها سيبويه في الكتاب، تزول الجبال ولا تزول هذه القاعدة وهي قال سيبويه: "فإن العرب لا تقدم مذكورًا على مذكور إلا لأهميته" -هذه احفظوها-، فلما قدم الله الإنس على الجن هنا دل على ماذا؟ من الذي يوحي أكثر؟ من الذي أفسد أكثر؟ الجن أم الأنس؟ الإنس، وقال: {زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا} .

إذن، الذى نراه في الحقيقة أن الناس يتكلمون الآن كلامًا خارج النطاق، ما الذي يضبط عقله؟ وإن ضبطنا النص، وضبطنا طرق الاستدلال وعرفنا طرق الخلاف، تعلمنا؛ لأنه من كتب الأصول -وهذا الكتاب (الموافقات) ليس فيه- وبعض الكتب اهتمت به أشد من غيرها، وهو الجدل.

في كتب الأصول هناك باب في آخر أبواب الأصول يسمى الجدل، وبعض أهل العلم صنف فيها مصنفات خاصة، وهو كيفية الجدل.

فالجدل مهمة من مهمات العلماء، ضرورة لا بد لها، سواء كانت خارج الصف المسلم مع الكافرين والزنادقة وغيرهم، أو داخل الصف المسلم في داخل مجادلة العلماء بين بعضهم البعض في المسائل الفقهية وغير ذلك.

فالجدل لا بد أن يُتعلم، فهذا من طرق تنمية العقل، وكذلك من طرق هذا الذي رأيناه الكلام على المصلحة، هذه المصلحة الشرع اعتبرها أم لم يعتبرها؟ مما يضبط هذا تعلم الأصول.

إذن، الأصول الفقهية تقوي لديك ملكة العقل، العقل هذا تُثَوِّرُه، تُثور معانيه الفطرية أولًا وإن أدخلت عليه شيئًا من العلوم الصناعية كانت مضبوطة ولذلك، صحيح أنه كان أكثر من كتب في الأصول المتكلمون، لكن كذلك صحيح أنه كان أكثر من وقف أمام الزنادقة المتكلمون.

أترون المعادلة؟ المعادلة أنه صحيح كان أكثر من كتب في علوم الأصول هم المتكلمون لكن كذلك عليك أن تعترف أن أول سدٍّ كان يقف أمام الزنادقة هم المتكلمون، إذن هذا العلم يقوي لديك الملكة العقلية المطلقة.

المسألة الثالثة من فوائد هذا العلم هو أنه يقرب المعاني لتتحد في أذهان المجتهدين، هذه المسألة في الحقيقة والوقت ضاق لكنها مسألة مهمة، وأنا لا أريد أن أطول في المقدمات حتى ندخل في الكتاب ولكنها مقدمات مهمة.

انتشر عند المتأخرين –وصارت للأسف كأنها مقررة– بأنه ما من مسألة فقهية إلا وفيها خلاف، وكأن النص جاء من أجل الخلاف، وهذا غير صحيح.

كما أنه لما جاء شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله–، ولأن شيخ الإسلام لو قيل أين تخصصه لقيل مفسر –يعني أين عرف في عصره؟ بالتفسير– ففي مقدمة التفسير، ماذا أراد أن يقول؟ هو الذي علم الناس وجود خلاف النوع وخلاف التضاد، ونفس القضية في الفقه لأنه في الحقيقة الفقه ليس اهتمامه كالتفسير، لذلك هو في مسائل الفقه في مذاهب الفقهاء لم يأخذها من مشايخها، إنما أخذها من كتبهم، من أين أخذ مذهب الشافعي؟ من كتب الشافعية ومن أين أخذ مذهب الأحناف؟ من كتب الأحناف.

وأصحاب المذاهب يرصدون العلماء من خارج مدرستهم، من أين يأخذون؟ من أي الكتب؟ ما هي مراجعهم؟ وهذا رُصد، رصد لشيخ الإسلام من أين مصادره من مذهب الأحناف؟ من أين كذا ..إلخ، ولكنه باعتباره حنبليًا أصيلًا، نشأ حنبليًّا، فإنه أراد أن يبين هذا الخلاف، هذه له.. وعلى أصحاب المذاهب أن يُعرفونا بهذا، وهذه مهمة من مهماتهم ولا بأس

أن أُعيد ما قلته في مجالس متعددة بأن سبب نشر فوضى ترك المذاهب -على غير معنى التقليد- هو أن أصحابها لا يفقهونها، لا يعرفونها، وهذه من المسائل التي إلى الآن لم تُجلى.

شيخ الإسلام ابن تيمية لما جاء لمذهبه قال: "ما تعددت به أقوال المذهب إنما هي فتاوى وليست أقوالًا."

إذن، هو أراد أن هذا المذهب مستوعب ربما في كثير من مسائله المذاهب الأخرى -انتبهنا لهذا؟ يعنى المذهب تجد فيه أقوالًا تستوعب المذاهب الأخرى- وما ذُكر فيه مما اختص به سميت بالمفردات -يعني الذي انفرد فيه عن بقية المذاهب-، وإلا فعامة ما في المذاهب الأخرى الفقهية موجودة في المذهب الواحد، في مذهب أحمد، فيقول بأن هذا ليس اختلاف -كما في مسألة التفسير- ليس اختلاف تضاد إنما اختلاف تنوع واختلاف فتوى، هذه قراءته لما تغير من كلام الإمام في المسألة -السبب الأغلب هناك أسباب أخرى- ولكنه يقول -هذا هو رصد لمذهبه- السبب هو أن الحادثة كانت تتغير فتتغير لها الفتوى، فعدها تلاميذه أقوالًا متعددة، كل واحد أخذها مجردة.

هذه المسألة أنتم تعرفونها بأن المطلق لا يؤخذ إلا من كلام رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وهذا ما سنبينه وهذه المسألة سنتكلم عنها وهو هل السبب يخصص المعنى؟ انتبهوا الناس منتشرة عندهم عبارة صحيحة وهو العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، لكن ينسون أن هناك خلاف، هل السبب يخصص المعنى أم لا؟ الشافعي يقول نعم وأنا أميل إلى قوله فيم سيأتي من شرح إن قدر الله هذا.

ويقول شيخ الإسلام بأن بعض أهل العلم من المتقدمين -قبل المذاهب- حاول أن يجمع مسائل الخلاف التي كانت بين الفقهاء الأقدمين فلم يجدها تجتمع إلا في جزء واحد، كراسة مسائل معدودة لأنه في الحقيقة كان الناس يفقهون التفريق بين ما هو فتوى وبين ما هو فقه، فيذكرون المسألة التي اختلف فيها الفقهاء ولكن لا يذكرون المسائل التي اختلف فيها المفتون.

هذه مقدمة وإن شاء الله أكملها في الدرس القادم لأنها مهمة جدًا.

الدرس [٣]

لا زلنا في المقدمات النافعة -إن شاء الله تعالى- في شرحنا لكتاب (الموافقات) للإمام الشاطبي -رحمة الله عليه-.

وأنا من الناس الذين لا يحبون الإطالة في المقدمات إلا إذا كانت علمية، وكذلك لا أحب الإطالة في المقدمات التي فيها يعني الكثير من المحامد وغيرها، وكأن الشيخ -وهذا أنبه عليه- يريد رد المقدمات فيتكلم ويتكلم، فأما السامع يريد أن يدخل في المسألة التي جاء من أجلها، ولكن ما نحن فيه مقدمات علمية تنفع في تجلية المراد وكيفية الدخول وكيفية معالجة كتب السلف والتراث، وأنا بالنسبة لي أعتقد بأن هناك نقصًا شديدًا في كيفية معالجة كتب التراث وكيفية قراءتها، والمقصود كيفية قراءة مناهج أصحابها.

تراث المناهج ليس المهم أن تقرأ المعلومة فيها ولكن أن تتعلم كيفية إنتاج هذه المعلومة، كيف أُنتجت هذه المسألة، هذه قضية تتميز بها كتب التراث، وثانيًا أن العلماء لم يكونوا يعجبون من وجود المادة فيها، كانوا يعجبون كيف أُنتجت هذه المادة، كيف صيغت هذه المادة، كيف حصل هذا الموضوع في ذهن كاتبه، كان هذا ما يشغل العالِم عندما يقرأ كتاب أخيه.

ويتمايز العلماء في هذا الباب، ولذلك لا بد أن نقرأ كتب التراث قراءة جديدة، وبلا شك أن كتاب (الموافقات) هو من الأصول اللاحقة للمطالع الأولى التي أنشأت العلوم، ولكن له ميِّزات نحن ذكرناها.

وصلنا إلى.. هذه قضية وإن شاء الله إذا قدّر الله أن نتكلم في ما يسمى بفن القراءة كيف نقرأ كتب السلف، لكننا نتابع اليوم ما شرعنا فيه حتى ننتهي، واليوم -إن شاء الله- ننهي هذه المقدمات ليكون الدرس الرابع هو بداية القراءة لكتاب الإمام الشاطبي. كنا وقفنا عند نقطة مهمة وهي من فوائد تحصيلنا لعلم الأصول، هذه الفائدة تتعلق بكيفية تقريب الأمة.

لما تكلمنا في الفائدة الأولى وإيقاف ما حصل من فساد منهجي فيما يسمى الاجتهاد، السوق الفقهية أصابها الفساد -الفساد يعني الافتراق- وبالتالي تجد أن الرجل يتقيّد بالنص إلى درجة الظاهرية المقيتة، وتجد أن الرجل يتحلّل من النص إلى درجة الزندقة، وكلاهما يزعم أنه يجتهد، هذا يعني أن الأمة قد افترقت وصار الافتراق بينها كبير جدًا.

أصول الفقه بعد أن قلنا بأنها تضبط هذا المجال الفقهي، من فوائدها أنها تُقرِّب وجهات النظر؛ لأن العلماء الذين يعرفون ضوابط الاجتهاد حين يُذَكَّرون بما تؤول إليه أقوالهم الشاذة يرجعون.

الفرق أيها الإخوة بين الجاهل والعالم أن العالم حين تناقشه يستطيع في بداية الأمر أو بعد مقدمة أو مقدمتين يستطلع الانحراف الذي سيؤدي إليه قوله فيرجع، العامي تجبهه بالمشكلة يقول لك: "ما هي المشكلة؟ ما الغلط؟ ما الموضوع؟ لو قلنا هكذا ماذا سيحدث؟" فلا يعرف؛ لأن العامي والجاهل كأنه من يمشي في الصحراء بلا علامات، فقد يتردى به الطريق إلى جبل وقد يتردى به إلى سبع وقد يتردى إلى مفازع مهلكة وهكذا، ليس عنده علامات.

الفقيه مضبوطٌ بهذه العلامات، يستطيع أن يضبطها ويستطلع أي قول يؤدي إلى هذه الفوضى وهذه المفسدة، يؤدي إلى تناقض مع مقرر يقيني مجمع عليه، فينضبط.

وهذا الفرق بين طالب العلم والجاهل، هذه الآن لا تعرفها، تعرفها عندما يصبح لديك الملكة الفقهية، عندما تُحدث الناس، فأنت تستطيع أن تعرف هذا رجل يعني يسرح ويمرح، ما شاء الله الفضاء عنده واسع، لا يوجد ضوابط وليست عنده خطوط طول ولا خطوط عرض وليس عنده حد أقصى ولا حد أدنى ولا مَطالع يسرح، يتكلم بالكلمة ويتكلم بعد ذلك بناقضها، فهذا تجده ليس فقط في جلسات العوام، تجده حتى في خطابات الفقهاء الذين يتصدرون الفتوى، كلام غير مضبوط يتكلم وأنت تتعجب أين يذهب هذا؟ ما هي ضوابطه؟ لا وجود لها، فبالتالي إذا تعلمنا أصول الفقه نقرب الخلاف، نقرب المسائل ما بين حرامٍ ومكروه وليس بين واجب وبدعة.

يعني انظروا هذا الخلاف الشاذ والحاد في مسألة غطاء وجه المرأة في السوق الفقهي، تجد أن هناك من يوجبه وهناك من يرى أنه بدعة مثل الزنادقة، وبعض من ينتسب للفقه يقول أنه بدعة كشيخ الأزهر، ما هو سبب هذا الخلاف الحاد؟

أن يأتي الخلاف بين من يقول أنه واجب ومستحب هذه مسألة منتظرة، فيها وجهة نظر -يعني مجال للنظر- والخلاف ليس كبير لكن أن يأتي بين مُوجِب وبين مُبَدِّع، هذا يدل على أن السوق منحرف، يدل على أن الأصول غائبة، وبالتالي إذا تعلمنا أصول الفقه رجعنا إلى قواعد الأوائل، والأوائل الخلاف بينهم كان يسير.

الآن الذي ينتشر عند الفقهاء المعاصرين لأنهم يقرؤون كتب الفقه، فيقولون لا يوجد مسألة إلا وفيها خلاف، وحتى في المسائل التي يجب أن يكون فيها الاتفاق: كالمسائل في الصلاة التي كان يصليها النبي -صلى الله عليه وسلم- خمس مرات في اليوم والليلة ويصليها في أصحابه، ثم يأتي بعد ذلك هذا الخلاف الشديد بين الناس.

لم يكن هذا الخلاف بين الصحابة قط، الخلاف حدث بعدهم ولهم أعذارهم -ليس هذا وقت الكلام عن هل هناك أعذارًا أو ليست هناك أعذار- ولكن الآن إذا تعلمنا أصول الفقه لم نختلف فيما هو فيه نص أنه أصل، كما تكلمنا في قضية الحجاب أن النص موجود أن المرأة كانت تلبس على وجهها، متفقين فيه.

الآن أصول الفقه يعلمنا ما هي دلالة هذا الفعل أو دلالة هذا القول ..إلخ، فالخلاف يسير بين دلالة مشيرة إلى الوجوب أو دلالة مشيرة إلى الاستحباب، لكن اتفقنا على الأصل، فحينئذ أصول الفقه تضبط هذا الخلاف وتقرب وجهات النظر، والناس الآن عندها مشكلة، يعني كيف تتحد الأمة، كيف نقرب وجهات النظر في الأمة؟ هذا لا يمكن إلا أن نضبط عقلها.

تكلمنا في الدرس الفائت بأن أصول الفقه لا تضبط الناحية الفقهية فقط ولكنها تضبط العقلية، وبالتالي الخلاف الذي تجدونه في ساحة العمل لإعادة الإسلام وفقه الدعوة وفقه الحركة وإلى غير ذلك، هو مجرد ظل لمدى الشذوذ ومدى الانحراف في فقه المسائل الفرعية، هذا يُنتِج هذا.

فلذلك نحن في أصول الفقه نريد أن نقرب الناس وأن تصبح الأمة قريبة فيما يتحاور فيه الناس -يتحاورون في كيفية أدائها: هل هذا أقرب أم هذا ..إلخ- لكن الوجهة واحدة، هذا الذي يضبطه أصول الفقه: أن نتعلم كيف تُصبح هذه الجملة -حين نتكلم عن جملة فقهية أو عبارة فقهية- تصبح كأنك تتكلم بنفس الوضوح والحدة هل أضع يدي على النار أو لا أضعها؟ هل أشرب هذا الماء أو لا أشربه؟ بهذا الوضوح.

فالفقه مضبوط وليس في انعزال من الناحية الفقهية في مجال والناحية الحياتية في مجال آخر، هذا لا ينفع، هذا لا يمكن أن تصلح به الحياة، يجب أن نُدخل أصول الفقه في حياتنا -وأقصد بها قبل أن تكون في الحياة العامة وهو مطلوب- أن ندخلها في حياتنا ما يسمى الدعوية الحياتية.

إحياء الدين، كيف نتعامل مع الواقع من خلال إحيائنا للدين، لإحياء الدين في هذا الواقع، إذن هذا هو أصول الفقه.

وأنا تكلمت في الدرس الفائت عن بعض ما يحتاجه الفقيه في المذهب الواحد كيف فيه الخلاف، وبالتالي نفس الشيء، كيف يصبح الخلاف في داخل المذاهب المختلفة قريب بين العلماء.

النقطة الرابعة أو الخامسة لا أدري، في فوائد أصول الفقه وهو مهم جدًا وهو أنها تعلمنا كيفية التعامل بالنوازل، كيف نتعامل مع النوازل.

الآن أيها الإخوة الأحبة، الحياة.. أنا مما أعجب منه واقع الأمة، الحالة الواقعية معقدة، الواقع معقد، وإذا كان الواقع معقدًا، فيحتاج إلى دواء معقد -انتبهوا هذه نقطة مهمة — وإذا كان الواقع معقدًا فلا ينفع معه الدواء البسيط، من الذي قرأ في الطب النبوي لكلام ابن القيم؟ هذه قاعدته -عليه رحمة الله- ماذا يقول ابن القيم في الطب النبوي؟ يقول: "لما كان أكل الناس قديمًا ساذجًا غير مركب" هذه كلمته، كان الطعام زمان تمر، لبن لحم انتهى الموضوع، أو خبز شعير، لا يعقد الأطعمة، لا يخلط فيها البزورات والبهارات ويخلط هذا بهذا لا يخلط، فكان هذا الطعام غير المركب لا ينتج مرضًا مركبًا، فيُنتج مرضًا بسيطًا ساذجًا فإذا كان المرض ساذجًا بسيطًا غير مركبٍ، فبالتالي لا يحتاج إلى الأدوية المركبة، يحتاج للأدوية البسيطة.

كان في القديم الواحد لما يمرض يعطونه نعناع، يعطوه عسل، يعطونه ميرمية وتنحل المشكلة، لماذا ينفع هذا الدواء الساذج غير المركب؟ لأن منتج هذا المرض بسبب البساطة وعدم التركيب فاحتاج إلى هذا، صحيح؟

فقال ابن القيم: "لما تعقدت الأطعمة تعقدت الأمراض فيجب أن تُركّب الأدوية"، لهذا نشأ علم تركيب الأدوية، لازم نحط نسبة من هذا ونسبة من هذا..إلخ، فتجد في الدواء الواحد، لا يصلح أن تأخذ ميرمية لازم تاخذ الميرمية وشوية عسل وعليها شوية لا أدري ماذا وكذا ونخلطها، ما سبب إنتاج الدواء المركب؟ هو أن الواقعة مركبة.

الآن الواقع مركب، ودائمًا الحياة الشرعية الفقيهة -وهذا سنتعلمه- هذه قاعدة الآن نكتبها وهذه من القواعد التي تُعرفك بمسائل كيفية إنشاء المصطلحات، القاعدة تقول أنه عادة -إلا في مسألة واحدة فقط من خلال جمعي لكل ما قيل- أن التعريف الفقهي -يعني المصطلح الفقهي- هو تقييد للتعريف اللغوي.

التعريف اللغوي له معنى مفتوح، ماذا يفعل التعريف الفقهي؟ يقيده، كلمة الزكاة كلمة مطلقة تطلق على النماء، أي نماء في الدنيا هو زكاة، لكن الزكاة في الشريعة، ماذا؟ نماء شيء معين، الزكاة طهر في اللغة، فهو طهر مطلق فتأتي الزكاة في الشريعة تقيدها.

فلذلك هذه دائمًا هذه قاعدة من قواعد العلوم أن التعريف الفقهي مقيد من التعريف اللغوي، هذه قاعدة، فقط وجدت في شيء واحد إن جاز -وإن كان ابن تيمية يرى أن هذا مطرد حتى في الإيمان- إلا في مسألة الإيمان، على أساس أن الإيمان في اللغة يعني التصديق والشرع يعني أوسع من التصديق، وشيخ الإسلام يقول: "أن مادة التصديق ليست هي مادة الإيمان".

-أحد الطلاب: بس هذه الملاحظة يا شيخ تعيدلنا ياها تعليق الإيمان-

الشيخ: نعم، يقول بعض من يقول هذه القاعدة، فقط هذه القاعدة في قضية تقييد المصطلحات اللغوية لتُنشئ مصطلحًا شرعيًا، هذه مطردة إلا في تعريف الإيمان، على أساس الإيمان ما تعريفه في اللغة؟ قالوا الإيمان التصديق، فقالوا: ولكن الإيمان في الشريعة أوسع من التصديق في القول والعمل، وشيخ الإسلام في كتابه (الإيمان الكبير) لو طبقنا ما قال لوجدنا أن القاعدة مطردة حتى في موضوع الإيمان؛ لأنه يقول بأن التصديق مادته لا تُجزئ كلمة الإيمان، لا تجزئها في اللغة، كلمة الإيمان كلمة في صياغاتها، في دلالتها، حتى في حرفها الذي تتعدى به.

الحرف الذي تتعدى به هو من حروف المعاني، هذه يسمونها حروف المعاني، وهذا من أعظم ما ينتجه أصول الفقه حروف المعاني، يعني يقول الدارسون بأن حروف المعاني... هل تعرفون ما هي حروف المعاني؟ الفرق بين الحرف الهجائي وحرف المعنى؟ يقول الحرف الهجائي أنت حينما تقول: بسم الله، الباء هذا حرف هجائي لا دلالة له، السين لا دلالة له، الألف لا دلالة له، فهذا حرف هجائي لكن حروف المعاني، مثل حروف الجر؛ لأنها تحمل دلالة باقترانها، فيها دلالة: من إلى عن على حتى الغاية ..إلخ، هذه ما اسمها؟ حروف المعاني.

يقول الدارسون -وهذه كلمة لمشايخ البلاغة- بأن الأصوليون في حروف المعاني أكثر دقة وجلاء وبلاغًا من الكتب اللغوية، وحتى نرجع لا نريد أن نبعد كثيرًا حتى نبقى فيما نحن فيه، لكننا نعود إلى المسألة التي نحن فيها، قلنا هذه قاعدة من

القواعد المهمة، دائمًا هذه عليك أن تطرد فيها وموضوع الإيمان، هذه الآن تكلمنا أنها ليست بشيء، بأن المصطلحات الفقهية مقيدة من المعاني اللغوية.

الآن نرجع إلى ما نحن فيه بأن أصول الفقه التي بين أيدينا إنما تفيدنا في النوازل وقلنا بأن الواقع معقد –انتبهوا لهذا– الواقع اليوم معقد، تشتبك فيه مصلحة الإسلام العامة ومصلحة المرء الخاصة، تشترك في الحقوق مع البناء، هذه أعقد ما تجابه الدعوات ولذلك أعقد عمل جاء به نبي قبل محمد –عليه الصلاة والسلام– هو موسى لماذا؟ لأن مطالبه كانت جامعة لأمرين، وهذا ما نعانيه اليوم وهو أن تشرح الحق في جانبه المطلق مع مطالبة حقك، واضح؟ يعني أن تكون أنت جامعًا لأمرين في كلامك عن الحق باعتباره مطلقًا، وثانيًا أن تطالب بحقك فالمطالبة بالحقوق تؤدي للمنازعة –المحاقّة– كلامك عن الحق المطلق، أصلًا النفس لا تقبله فحينئذ تتعقد المسألة.

يأتي نوح –عليه السلام– وليس بينه وبينهم أي منازعة في أي شيء من أشياء الدنيا ولا يطالبهم بأي حق قد سلبوه منه من قبل كاعتباره نوح نبي –عليه السلام– يأتي يقول: "اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا" انتهى. فهي قضية غير معقدة، القضية لا يتشرك فيها شيئان، القضية فقط هي بسيطة لشيء واحد وهو التوحيد "اعبدوا الله" وكل الأنبياء كذلك.

لما جاء موسى –عليه السلام– جاء ليقول لفرعون، يقول له: "اعبد الله وأعطيني وبني إسرائيل" فطالبه بحق التوحيد وطالبه بمنازعة في مسألة تتعلق بمصالح فرعون ومشاكله المالية وسلطان ومُلك.. إلخ.

هذه قضية صعبة جدًا اليوم نحن نعانيها، بين أن ندعوا إلى الحقوق وندعوا إلى الدين إلى التوحيد إلى الإسلام المطلق، وبين أن نطالب بالحقوق، فحينئذ سوف يقال لك رغم أنفك بأن التوحيد الذي تدعو إليه إنما اتخذته وسيلة من أجل كذا وكذا وكذا، وهذا ما اتُّهم به موسى –عليه السلام– {وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ} واضح؟

فالواقع أن هذه الصورة من صور التعقيد التي نعيشها، حين أنت تعمل عملًا تريد أن تخدم به الدين فيتناقض هذا الفعل مع مصلحة جماعة أخرى –أمة أخرى– ويقال لك: "الله يرضى عليك ابحث لك عن ساحة غير هذه لتشتغل فيها، هنا أنت تخرب علينا" هذه صورة من صور التعقيد الموجودة.

فالواقع معقد وأكثر مما نظن، والناس يقرؤون المآلات باعتبار التجارب، المآلات متى تنشأ؟ الإنسان الذي عنده فقه المآل متى ينشأ؟ بعد التجربة.

ونحن في هذا من أبعد الناس، في بداية الدعوات الناس لا يعرفون المآلات، طبعًا الفقه السلفي المعاصر أنشأ لدينا قضية هذه العبادة، وكل شيء عندنا عبادة بالمعنى النسكي -ما شاء الله نحن مراجعين حالنا جماعة موحدين والمسألة الفقهية عندنا سهلة، تطبق النص وأنت مغطي على عينيك ومستسلم للأمر الإلهي- وهذه مسألة مريحة.

الناس والحمد لله عندهم نص يطبقونه من غير النظر إلى الواقع على ما تكلمنا في الملاحظة السابقة أن الناس يريدون إنشاء الواقع الذي يلائم النص وليس البحث عن النص الذي يلائم الواقع أو الذي يعالج الواقع فالمسألة معكوسة لدينا في عقولنا، وبالتالي كل شيء عندنا عبادة بالمعنى النسكي التربوي.

هذا كلام صحيح، كل شيء عبادة، حتى الأكل والشرب عبادة لكن المعنى النسكي هل هو معقول المعنى أو غير معقول المعنى؟ العلة تدرك أو لا تدرك؟ هذا نحن عندنا نسك، كل شيء عندنا هو فقط النص والنص والنص، وما شاء الله العجيب أنه لا يوجد في تاريخ الأمة فترة قدِّس عند أتباع هذا الدين النص كهذا العصر، ومع ذلك كان المنتج كله على الضد مما يريدون عجيب!

ولذلك نشأ فقه الغرائب فينا عندما نقول افعل ولا تنظر إلى النتائج! جاءتنا كي تمسح بقايا العقل عندنا -لا ليس بقايا العقل، حتى بقايا الاعتبار فيما وقع- الآن خلاص، في الأول أسقطنا العقل والنظر في البحث، وبعد ما وقعت النتائج قلنا المهم العمل ولا تنظر للنتائج، فالنتائج على الله، معقول؟ لهذه الدرجة؟!

الآن القاعدة التي نفهمها نحن أنّ العامل لدين الله، موفق أو غير موفق؟ الذي يعمل مع الله؟ موفق؛ لأن الأصل قليل من العمل الصحيح مع الله ينتج أكثر مما ينتج الكثير في غير العمل مع الله.

فالغريب جدًا أن نشتغل مع الله عملًا كثيرًا وتأتي نتائج عكسية، ويقول لك: الله أراد هذا يا أخي.

كيف تتلاءم هذه المقدمة مع المقدمة الثانية؟ لماذا هذه النتائج العجيبة جدًا في العمل مع الله وأنت تعتبر نفسك بأنك تشتغل بطريق صحيح؟ لأن طريقتك صحيحة ووسيلتك صحيحة ومخلص وعامل، الله لم يرد يا أخي. ولماذا أراد عند الآخر الذي هو لا يعمل مع الله؟ فهذا ضد القاعدة التي نعتقدها ونرددها بأن المسلم موفق، العمل فيه البركة ولا ما فيه البركة؟ المسلم الأصل فيه البركة ولكن –حتى أننا ذهبنا للأسف بعد أن أسقطنا قيمة التفكر.. هناك نص في (الرسالة) وكذلك ذكره ابن جرير الطبري– ليتني أستطيع أن أصنع منه طعامًا ليأكله الناس فيدخل في عقولهم كما يدخل الطعام في أبدانهم فيصبح جزء من عقله ومن تفكيره، أن الاجتهاد وإعمال العقل يعادل إعمال النص؛ لأنك أنت مبتلى بأمرين –المسلم الله ابتلاه بأمرين– الابتلاء الأول أن يطيعه: {آمَنَّا}، أخذ النص فأطاعه، لكنه مبتلى –مبتلى بمعنى مكلف ليس بالمعنى الآخر– فأنت مكلف بطاعة النص وثانيًا أنت مكلف بإعمال العقل، يعني مبتلى بالاجتهاد.

هناك قضية وكبيرة جدًا، هناك تعظيم للنص وهذا هو المطلوب، ولكن النص لا يبنى على الفراغ لا بد من اجتهاد –الاجتهاد يعني لا بد أن تشغل عقلك– وكفرك بالماديات التي يقررها النص هو كفرٌ بالشرعيات.

أنا سأضرب هنا أمثلة واضحة ولكن الحقيقة المسألة أعظم من ذلك، لو واحد جاء وقال مكة، مكة هل هي خبر جغرافي أم ليس خبر جغرافي؟ –خبر جغرافي أي يحدد المكان– هذا الخبر الجغرافي جزء من الفقه، ولو أن واحد كفر بهذا الخبر الجغرافي ما هي النتيجة؟ لو قال هذه مكة ليست مكة، يكفر أم لا؟ يكفر؛ لكفره بخبر جغرافي –فانتبهوا، أصبح الخبر الجغرافي إيمان–.

وراء هذا الكلام الذي أضرب بالمثل الواضح، نشوف بعدين إلى أي درجة الناس يكفرون بما هو سنني ثم يعطلون النظر إلى النتائج بحجة أننا نعمل والباقي على الله والحمد لله.. إلخ، هذا هو الذي يعمله المزارع الذي ينظف الأرض ويزرعها وكل شيء وبعد هذا يقول أنا عملت والباقي على الله، لكن العمل الواقعي أعقد من ذلك.

إذن، هذا التعقيد في الواقع يعني أن يكون هناك فقه مركب. طيب الفقه الساذج؟ جدتك كانت أكبر طبيبة في الجرير، وهي الطبيبة المعالجة لكل شيء، طيب عندما تعقدت الحياة، جدتك صارت تنفع أم لا؟ تخلفت علومها مسكينة.

فإذن، الفقه حين يكون لواقع غير مركب تكون المسائل بسيطة سهلة، فهذا الفقه المركب يحتاج إلى طبيب وصيدلي، الصيدلي القديم كيف كان؟ كان هو الذي يركب الأدوية ويصنعها صناعة مركبة دقيقة متوازنة تلائم المرض، هذا هو ما ينبغي

أن يكون عليه الفقيه اليوم، يجب أن يكون طبيبًا صيدليًا على الطريقة القديمة وليس على طريقة اليوم، فالصيدلي اليوم يعني بياع فاتح دكان يبيع ويشتري.

فاليوم واقعنا يحتاج إلى فقهاء أشد هذا هو المطلوب، إلى فقهاء أعظم مما كان في الأوائل، لكن النتيجة كما ترون، يعني نحن سرنا إلى التعقيد وتخلَّف العلم الملائم له.

كان هنا السؤال: ما هو المطلوب في أمتنا؟ المطلوب في أمتنا دائمًا أن تبني وكما في الفقه، يقول عمر ابن الخطاب فيما معنى كلامه -رضى الله تعالى عنه- قال: "ننتج للناس من قضايا بمقدار ما ينتجون من نوازل" يعنى كل ما جابوا شيء نعالجه، فالناس في حياتهم يتلقون في إنتاج المشاكل، وبالتالي يجب على الأمة أن تعادلها في ترقية البناء العلمي.

نحن من أين أتينا بهذا؟ أتينا به بالنظر كذلك إلى تاريخ الأمة، الأمة كانت ساذجة -يعني غير مركبة-.

تعالوا مثلًا إلى علم اللغة، كان ساذجًا؟ ومسألة العربية ما هو التمييز وما هو الحال وما هو الفعل؟ حتى هذه المصطلحات لا يعرفونها ولكن لغتهم كانت سليقة، بعد هذا لما دخلت على الأمة العجمة أُنتج علم يرد عليها.

ولما جهل الناس البلاغة باعتبارها ذوقًا فطريًا في داخل نفس العربي ماذا فعلوا؟ كتبوا في البلاغة وأصلوها فأنتجوا علومها، وهكذا ينبغي كلما صار في الناس شيء من الحوادث أنتج العلماء لها ما يعادلها.

لكن صار انقطاع في الأمة، الأمة وقفت عند حال وهو إنتاج المنتج كما هو وصياغة الكلام بعبارات جديدة أو بوجه جديد أو في الحقيقة السرقات، تتعجبون بعد تقريبًا القرن السادس والسابع الهجري، بعده قلما تجد إبداعًا جديدًا، هو فقط إعادة ما هو عليه، حتى إن بعضهم لينقل الكتاب كاملًا.

واليوم ما شاء الله الإبداع رهيب! تفسير ابن كثير له اثنا عشر مختصرًا!! هذا يدل -الحمد لله- على أنه الأمة في تقدم في رقي! يعني ابن كثير يقول للناس رجاء اتركوني أنا حتى لم تقرئوني؛ من كثرت ما اختصروه!!

هذا هو الإبداع الجديد اليوم، يعني قديمًا لماذا المختصر؟ -أنا أنبه تنبيهات، صحيح هي هوامش داخل كل مسألة، لكن أنا أتكلم بمقدار الغياب العقلي في الأمة- المختصر قديمًا كان من أسبابه العظمى هو ضخامة الكتاب، يعني الكل قال أن ابن

جرير ألف ١٥٠ ألف ورقة، ينقضي العمر ولا نقرؤه فاختصروه للناس قليلًا، فتفسير ابن كثير مختصر وتفسير ابن جرير له مختصر.

اليوم تحمله في كمبيوتر صغير وتحط تفسير ابن كثير وابن جرير الطبري والأندلسي وتضع التفاسير كلها في داخله، ومع ذلك يوجد من يختصره، لماذا الاختصار؟! فهذا هو مقدار علوم الناس في هذه النوازل الحادثة التي تدلكم على أننا لا نستحق أن نسمى مجددين.

التجديد يبدأ بقتل الماضي بحثًا وليس قتل الماضي اختصارًا واستهزاءً بالعلوم وتموية لها..إلخ.

إذن، أصول الفقه قراءته وتعلمه وهو إحياءٌ لملكة الفقه ليحصل عندنا القدرة على البحث في النوازل، النوازل العظيمة التي نحتاجها اليوم، عالم معقّد، اليوم إلى الآن يبحثون في غُسل الجمعة.

آن الأوان لينتبهوا لمقدار إدراك الفقهاء لما حصل للأمة ولما دخل فيها من جهالات، ما هي القدرة العظيمة التي استطلعها الإمام أحمد في قضية خلق القرآن؟ ويذهب إلى أنه من قال أن {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} مخلوقة فقد قال أن الله مخلوق!! هذا فقه عظيم، أنه أدرك مآل هذا القول أين يؤدي، ولذلك هذه المقالات تسري في الناس، الإبداع، التفرقة النكدة، اليوم هناك فصال نكد بين من يسمى الفقيه والمفكر، المفكر يتكلّم في أعلى قضايا الدين والفقيه مسكين ما زال يتكلم في القضايا السابقة، وكلاهما لا يستخدم أصول الفقه في شيء؛ لأن الفقيه مقلِّد والمفكر قارئ إنتاج الآخر، وبالتالي أصول الفقه هي تضبط الفقيه في النظر في النوازل وتضبط المفكر لإجابته على حوائج العصر التي تتعلق بالمسائل التصورية الدينية التي يتكلم فيها المفكر.

هذه بعض الفوائد التي يمكن أن نجنيها في قراءتنا لأصول الفقه.

المسألة الآن التي ندخل فيها وهي تاريخ أصول الفقه، كيف نشأ هذا العلم؟ هذا العلم لا شك أنه ملكة موجودة في نفس أصحاب النبي –صلّى الله عليه وسلّم– لماذا؟ –هذه تفتح لنا فصلًا مهمًا جدًا– فصل ما هي أصول الفقه؟

هذه المسألة لا يتكلم فيها الأصوليون كثيرًا، تجدها في (الإحكام) للآمدي تجدها في العبارة، -(المستصفى) ذكرها متفرقة- والمعاصرون لم تكلموا فيها أشياء كثيرة، يعني لا أعرف بحثًا كتب في أصول أصول الفقه.

وهذه أصول الفقه كان ملكة عند أصحاب النبي -صلّى الله عليه وسلم-، يخاطبهم النبي بالعبارة الشرعية العربية فيفهمونها، لكن ما هي مكونات هذه الملكة؟

أول مكون من مكونات ملكة أصول الفقه هو اللغة العربية، هذه اللغة الشريفة الجليلة، هذه ميزان عقلي، أنا لن أفتح هذه النقطة؛ لأنها في الحقيقة لو فتحتها ربما تحتاج إلى درسين أو ثلاثة -وننتبه لهذه النقطة- وهي أن اللغة ميزان عقلي وهذه ليست كلمتي، هذه كلمة السيرافي في مناظرته مع يونس متّى التي نقلها أبو حيان التوحيدي، انتبهوا هذه مناظرة أرجو أن ترجعوا إليها -وهي متوفرة وعندكم الكتب والإنترنت وشيخ جوجل- وهي مناظرة جليلة تبين أن أئمتنا -سبحان الله- كانوا يفهمون أن اللغة العربية ميزانٌ عقلي.

يعني الآن نتواصل بالكلام بالإشارة وممكن باللغة لو خلطنا شوية لغة إنجليزية مع كلمات غير مفهومة فممكن أن نوصل المراد؛ لأننا وصلنا إلى درجة الجهالة العظيمة بأن اللغة هي وسيلة للإبانة فقط ولتوصيل المعلومة، مع أن هذه ما يسمى اليوم بالمذاهب اللغوية وعلى رأسها البنيوية، تقول الحداثة المعاصرة، يقولون بأن اللغة ليست وسيلة حتى للإبانة ولا للتعارف، نعم يقولون هذا وفقط نمر عليها سريعًا لأن هذه النقطة، أكرر أن اللغة هي ميزانٌ عقلي -انتبه للكلام هذا- هذه كلمة عظيمة جدًا.

حصلت مناظرة بين يونس ابن متّى المنطقي العظيم في عصره وبين إمام من أئمة اللغة اسمه السيرافي، ما الذي يضبط عقلك حين تتكلم؟ هل يضبطه -يا سلام ما أروع هذا الكلام، أئمتنا عظماء- هل يضبطه منطق ما يقال له المناطقة في قضية قواعدهم، في قضية أصولهم، أم أن اللغة هي التي تضبط عقلك؟

المهم الحوار جرى، وهي إحدى طرق الجدل على المنتج، ما الذي ينتجه العربي حين يتكلم وما الذي ينتجه المنطقي حين يتكلم؟ قالوا طيب، المنطق هل جعلكم شيئًا واحدًا؟ يعني أنت منطقي نصراني، أنت نصراني، وهذا مسلم وفلان مشرك وفلان كذا، المنطق لم يجعلكم على ديانة واحدة في معرفة الرب!

فلما كان منتجه أدى إلى هذا التعارض، فدل على أنه لا يصلح ميزانًا للعقول، واضح؟

طب كيف اللغة ميزان عقلي؟ –نحن طبعًا لو واحد قال لواحد أريد أن أذبحك، الناس يقبلونها منه– لأنه أصلًا مش ميزان عقلي –بدي أذبحك يعني ممكن يضربه بالحذاء، ممكن يضربه كف هي ذبحه مش هيك؟ وممكن يذبحه صحيح، بدو يمسكو يحطه ويضحي فيه ويذبحو!

وممكن يضربو بالسبته، بالحزام فتجد هذه الكلمة كل واحد عنده ميزان، لكن بتذبح، وهي كلمة عربية، ولذلك لما فقدنا ميزان أنفسنا في داخلنا في تحديد هذه المعاني، فقدناه في كلماتنا –أي واحد يقول بدي أذبحك لابنه مثلًا، ويُفهم منها بدرجات متباينة. في العربية هل هو مقبول؟

ليس مقبولًا؛ لأن ميزان فطرة المرء في داخله هي التي تنتج الكلمة المناسبة، فانظر إلى هذا الحوار اللي جاي في العقل كيف هو يضبط ما يريد، لما يتكلم الكلمة هو ضابط لها، ويعرف ما يريد.

الكلمة لما خرجت كيف أُنتجت؟ نشأت من علم واضح صريح جلي في داخل متكلمه، بحث فيها، كل هذا يتم في لحظات؛ بسببٍ مراد. بحث فيها عن كلمة مناسبة تلائم ما يريد من وضوح ما في نفسه من المراد وبعد ذلك أنتجها. هذا الإنتاج حينئذٍ عملية جديدة متعلقة بالصرف، متعلقة بالنحو متعلقة.. إلخ.

إذن، اللغة العربية هي ميزان عقلي، هذا مش كافي الكلام بس لأقول لكم بأن اللغة العربية عند العرب هي ميزان عقولهم، اليوم هذه مذمة هي مادة –انتبهوا هذا كلام شريف هذا مش كلامي لو كلامي أقول لكم أنا بتفلسف عليكم، هذا كلام أئمتنا– لما كانت أعظم مَلكات العرب هي اللغة كانت نفوسهم هي أعظم النفوس فكانوا هم أحق الناس بنزول القرآن عليهم.

بمعنى لو قيل لك ما هي الخصال التي أهلت العربي لينزل عليه القرآن ليقود العالم؟ خلاصة ما عنده هو أنه عربي! شيخ الإسلام عنده كلام رائع لا بد أن أذكره، يقول بأن: "أسماء الشعوب تتلائم مع نفوسها" أسماءها تتلائم.. أنتم أحرار، تلذذتم به، لم تتلذذوا به، شأنكم عاد راجعوا حالكم، يقول بأن: "العربي خصلته الإبانة".

إذن مادة العربي التي حصل بها الاجتباء والاصطفاء الإلهي هو أنه عربي، أنه مبين، وهذه الأمة العظيمة.. هذه الإبانة – معنى ذلك مش رح يكون فيها منافقين كثير– بمعنى أنهم واضحين، بمعنى أن نفوسهم التي تنشأ الإبانة لم يكن فيها الوساخة، بمعنى أنهم شجعان بمعنى أنهم كرماء، هذه خصالهم.

هذا شعاره واحد بأنه مبين، عربي. فقال شيخ الإسلام: "إن أسماء الأمم تتلاءم مع فطرتها ونفوسها، وتربيتها". العربي عنده الإبانة فهو عربي، قال والفُرس من الفَرس والفَرس هي الغرور والكبر وهذا عندهم، وقال بأن الروم الرَوم وهو الختل والمخادعة ولكن عندما نقول كلمة الضحكة الصفراء جاءت من بني الأصفر، عنده قدرة أن يضحك في وجهه ولا يضحك في باطنه، هذا مش عند العربي لأنه عنده إبانة، واضح؟

فقال الروم من الرَوم وهو المخاتلة وهذا فيهم وهم أئمتها وهكذا.

ولذلك لما نعظم الأمة المسلمة أو أصل مادة الأمة المسلمة وهم العرب؛ للغتهم لا نعظمهم إلا لوجود هذه اللغة التي أولًا قلنا أنها ميزانٌ عقلي ثم قلنا أنها الآن هي كلمة مدحية، لما تقول أنت عربي بمعنى أنه الممدوح، لماذا؟ على ما تقدم من الكلام من غير تكثير لأن هذا في الحقيقة ينبغي أن تُنشأ له دورات ليس فقط مرور سريع؛ ليفهم العربي أنه حين يفقد لغته يفقد وجوده. لأنه إن فقد لغته؛ فقد القرآن وفقد السنة وفقد وجوده وفقد أنه عربي، بمعنى فقد أنه كريم، فقد أنه شجاع، فقد أنه عنده الإحساس.

يا قوم الإنسان الذي يفارقه عن الآخر هو إحساسه بالكلمة التي تبعث فيه المراد، وأعظم ما خُلقت من أجله هو أن تتلقى كلمة الله في أذنيك، ثم قلبك ولو لم تكن ذواقًا مستجيبًا للكلمة لما كنت مستجيبًا لأمر الله. وذاك لما الناس يتكلمون عن العرب الذين كفروا بالنبي –صلى الله عليه وسلم–، تصوروا لو أن كلام الله نزل على غير العرب، شو بدو يصير فيه؟ هم لا يحسون به لا يشعرون به!

عشان هيك الأمم السابقة ممكن يكون واحد، اثنين، عشرة، خمسة عشر نسمة، يكون النبي معه الرجل والرجلان، لكن لأن هذه الأمة فيها مادة الإحساس بالخطاب الإلهي، كلمة بمعنى أنك أنت إنسان بالكلمة، إن لم تعرف هذه الكلمة وأنها

تدخل في نفسك فتحركك التحريك المراد لدرجة الموت أو درجة إفناء المال كله أو درجة البكاء -أن تبكي لهذه الكلمة- أو درجة الشجاعة والبعث تبعث فيك كل طاقاتك الإنسانية لتنتج، فأنت لست إنسانًا.

إذن، كلما قويت فيك هذه المعاني قويت إنسانيتك، قوي إسلامك، قوي دينك، قويت استجابتك لأمر الله، وكلما ضعفت كلما ذهبت إنسانيتك، لهذا يقولون لك: إنسان بليد، بمعنى أنه لما تكلمه، بالكلمات لا يستحيب لها، لماذا لا يستجيب؟ لأن الكلمات ليس لها أثر في نفسه.

هذه مقدمة ولكن على الهامش، ليست هي المراد من البحث، المراد من البحث: كيف أنشأت اللغة العربية علم الأصول. هذه مسألة مهمة جدًا تحتاج إلى قراءة أول من كَتب في علم الأصول وهو الإمام الشافعي، من أجل هذا لما قلت في الدرس الفائت بأن الإمام الشافعي بهذا المنهج الذي كتب فيه الأصول أعيى من بعده فبدأ فيه من القمة. العلوم الأخرى تنشأ ساذجة كما قلنا، مش هيك؟ علم الأصول نشأ في القمة. من أجل هذا تعجب، ووالله لو قلت لكم تجاوز العدد أكثر من مئة فقط لأقف.. ما هذه الكلمة الجليلة الشريفة التي قالها الشافعي في مقدمة (الرسالة) البيان، ما البيان؟

وكأن مدخل الوجود، مدخل العقل، مدخل القرآن، مدخل السنة هو أن تعرف البيان، فالبيان يعني اللغة، لأنها الإبانة عن مراد الله، القرآن إبانة عن مراد الله، السنة إبانة عن مراد رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

هذه الكلمة والله أعجب منها، ولو قلت لكم أني مئات المرات أرجع للرسالة فقط لأقف عليها وأقف فقط كما يقف المرء أمام جبل عظيم يملأ نفسه لا يستطيع أن يتكلم عنه؛ لأنه عظيم، ليس شيءً جزئيًا.. هو شيء عظيم، ماذا يقول؟ كلام عظيم وانتهى الموضوع.

كيف نشأ هذا؟ فأول ما يُنشئ علم الأصول هو اللغة، اللغة أنشأته من أجل هذا.. -نفسر التفسيرات اللازمة- في العام اللغة في الخاص اللغة، هذا الحرف كيف ينشئه؟ هذا الحرف ما معناه؟ لماذا يتقدم هذا على هذا؟ قلنا كلمة سيبويه التي قال عنها أهل اللغة تزول الجبال ولا تزول وهكذا، أول منشئ لعلم الأصول، أصل لأصوله، ونحن قلنا أصل لعقلك وأصل لعربيتك وأصل لإنسانيتك، هو أن تكون صاحب أذن واعية. أيش يعني؟ تستجيب، تعرف مذاقات الكلام.. إلخ.

فإذن أول أصل لأصول الفقه هو اللغة العربية، الأصل الثاني، -وهذا مهم- الكلام الأول كلام عام، هذه تُقيد، وهو: معرفة علاقة المخاطِب بالمخاطَب، كيف تنشئ هذه النقطة مفهوم أصول الفقه.

لأنك لو اقتصرت فقط على الكلام الأول، وشاعر يقول لشاعر، أب يقول لابنه، زوج يقول لزوجته لما أنتجنا أصول الفقه، لكن لما علمنا أن المخاطِب هو الله وأن المخاطَب هو الإنسان وأن العلاقة بينهما هي علاقة رب مع عبده -كل هذا ينتج كلمه يستخدمها علماء الأصول وهي كلمة الاستعلاء- هذه كلمة مهمة، وهو أن علاقة المخاطِب بالمخاطَب هي علاقة الاستعلاء.

هذه العلاقة تنتج أصول الفقه لأنها تنتج الواجب، الحرام، المستحب، حتى المباح؟ سنبين حتى المباح.

فإذن وجود العبودية هذه هي أول وسيلة على ما تكلمنا في اللغة، ثانيًا أن نعرف معنى ما نخاطَب به على جهة التعبد تنتج أصول الفقه، كيف؟ مثل المراتب الخمسة، مثلًا هذا أنت مسؤول عنه يوم القيامة، أنت محاسب عنه، كيف أن الصحة تُنتج في العقود الأثر وتنتج في العبادات الإبراء.

ما الذي ينتج هذه العبارة؟ لأن الصحة في العقود يعني الأثر المترتب عليها والصحة في العبادات تنتج الإبراء، إذن هذا الذي يُنتج أصول الفقه ليس فقط الخطاب ولكنه نوع الخطاب، نوع الخطاب يعني هناك عبد ورب ويكفي إلى هنا، هناك الآن الشيء الثالث الذي ينتج أصول الفقه وهو -يعني أريد أن أسميها لأنها يدخل فيها أشياء كثيرة "التاريخ"- وأقصد أول التاريخ هو سلوك النبي -صلى اللهُ عليه وسلّم-، سلوك الصحابة، كيفية فهم الصحابة لكلام النبي -صلى الله عليه وسلّم- ولكلام الله، هذا كله أنا أُدخله في التاريخ.

هذا الذي قلته لكم، هذه هي ثلاثة أركان تنتج أصول الفقه.

وهذه في الحقيقة لم يتكلم عنها العلماء وهي تحتاج إلى دروس خاصة، وكأن من الأماني التي لم تحصله الكتابة فيها بل التفريع لها والنظر فيها لأنها الحقيقة لم.. هناك أصول دخيلة، أولًا المنطق، وزعم بعضهم أن المنطق أصل من أصول الفقه هذا كله كلام لا قيمة له ولا نريد أن نقف عنده؛ لأنه في الحقيقة تطويل وكذا وأنا ربما تكلمت عنه في ورقات أخرى.

المنطق هذا لا ينبغي أن يكون في أصول الفقه قط، هناك عندنا العقل الفطري والعقل الفطري موجود في داخل اللغة العربية، أما العقل الصناعي فهو غريب وأجنبي ولا ينبغي أن يدخل في أصول الفقه قط ولا الصحابة لم يحتاجوا إليه -رضي الله تعالى عنهم-هذا تقريبًا ما يدخلونه في أصول الفقه وهكذا..إلخ، ونكتفي إلى هنا، بقي المنطق ندخله في علم الكلام.

عندنا مسألة كنت أريد أن أنهيها هو تاريخ أصول الفقه لكن ننتهي إلى هنا إن شاء الله وبارك الله فيكم وكنت أريد أن أنتهي اليوم من المقدمات لكن في الدرس القادم سنمر عليها سريعًا لأننا سنشرحه خلال كلامنا عن كتاب الشاطبي فيصبح واضحًا وبينًا.

وبارك الله فيكم وجزاكم الله خيرا والحمد لله رب العالمين.

أسئلة ما بعد الدرس:

– السائل: بالنسبة للمعنى اللغوي: {فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا}

في مسألة التصديق هو الإيمان قال –سبحانه تعالى-: {وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا}، مؤمن لنا يعني مصدق لنا، يعني من السطح فقط شيخ الإسلام يرد أن الأصل اللغوي لكلمة الإيمان لا يتوافق مع التصديق وأنا أريدكم في كثير من المسائل أن ترجعوا بأنفسكم إلى مواطنها، فاذا وجدتم مشقة أشرحها، لكن تعلموا أن تقرؤوها في مواطنها يكون أكثر رسوخًا في عقولكم إن شاء الله.

– السائل: ذكرت أن الواقع معقد وهذا ينتج فقه مركب...

سؤالك يدخل فيما يحتاجه الفقيه، ماذا يحتاج الفقيه؟ لا يمكن لفقيه أن يدعي الفقه في مسألة من النوازل دون أن يقرأ مثيلاتها في السابق ويقرأ ما يقاربها في المنتج الجديد، الأمثلة كثيرة لما أنتج شيخ الإسلام الكلام عما يسمى الطائفة الممتنعة ماذا احتاج لينتج هذا النمط أو هذه القاعدة؟ لا يوجد فقه جديد بمعنى أنه لم يكن قد سبق له ما يشابهه، هذا لا وجود له.

ويعجبني ابن القيم في (إعلام الموقعين) حين يأتي إلى المناظرة الشديدة بين الظاهرية وبين أهل القياس، وهذه أجل ما في كتاب (إعلام الموقعين) وهي المناظرة الطويلة التي وصل إليها إلى أنه لا يستطيع أن يفصل فيها، هو يقول بالقياس لكن هنا يأتي بنقطة يقول: هذه حجة الظاهرية، هل يزن القياس؟ هذه مبنية على ماذا؟ أهل القياس يبنون هذه القاعدة هل يزن القياس على قاعدة أن الحوادث تتجدد –انتبه لهذه النقطة– فلما كانت الحوادث تتجدد، لا بد أن يصير هناك حوادث جديدة لم يقل بها الأوائل، أليس كذلك؟ فحينئذ نحتاج إلى القياس.

الآن أنت دخلت إلى المصنع –الكلام السابق في الأدوات– لكن الآن أنت دخلت في المصنع، فقال القياسيون فلما كانت الحوادث تتجدد؛ احتجنا إلى القياس لأنه في النهاية قالوا أن النصوص متناهية والحوادث غير متناهية.

الظاهرية ماذا يردون عليهم في هذه؟ يقولون هذا غير صحيح، الحوادث وإن تجددت صورتها إلا أن عللها واحدة، والعلل التي حدثت في القديم هي العلل نفسها التي تحدث في الجديد، ومن عبارات الأصوليين، وهذه تُقرأ من كتب الأوائل، فهناك تسمى العلة الفاعلة وهذه مهمة، العلة الغائية، العلة الصورية والعلة المادية.

العلة الفاعلة هو الإنسان.. يقولون بأن الحوادث وإن تجددت صورتها إلا أن مادتها واحدة، فما احتجنا إليه في القديم نفعله الآن؛ لأن العلة واحدة والصورة مختلفة.

هذا ما قاله ابن القيم ومال إليه لأن دعوى التوسع في القياس على ما يريده القياسيون في قاعدتهم أن الحوادث لا تتناهى وأن النصوص تتناهى، هذا غير صحيح.

قليل من الناس يعلم أن كتاب (الصفدية) كتاب أصول ويناقش فيه مسائل لا تجدها إلا فيه.

الدرس [٤]

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه، والصلاة والسلام على رسول الله.

نبدأ أيها الإخوة الأحبّة اليوم الدرس الرابع في شرح كتاب الإمام أبي إسحاق الشاطبي (الموافقات)، واليوم نبدأ بقراءة مقدمة كتابه، والتي تسمى عادة المقدمة أو الخطبة، وأنا أنبه على أمور يسيرة في موضوع المقدمة:

أولاً: بأن فن المقدمة هو فن إسلامي أنشأه الإسلام، وهو إحدى صياغات القرآن لعلوم هذه الأمة؛ كل علوم الأُمَّة مستقاة من القرآن، لم ينشأ علمٌ في هذه الأُمَّة إلا وأساسه القرآن، حتى هذا الفن الذي يسمّى بالمقدمة أو الخطبة في بداية الكتب والتصنيفات إنما منشأه أدب القرآن، وطريقته أن نقرأ الفاتحة في بداية الأمر، وهذه السورة العظيمة السبع المثاني، وأنتم ترون كأن الفاتحة هي خطبة ومقدمة كتاب ربنا، حتى إن بعض العلماء وهو الشيخ محمد عبد الله دراز يقول: كأن الفاتحة هي ورقة الاستدعاء؛ لَمّا الواحد يروح يقدم طلب لشيء يقدم ورقة استدعاء، فكأن الفاتحة هي كذلك.

فإذاً فن المقدمة لم ينشأ في أُممٍ سابقة قبل الأُمَّة الإسلامية؛ فالذي أنشأه هو القرآن: الفاتحة، ثم أدى إلى هذا الاستدعاء المقدمة الغزيرة العظيمة الجليلة ثم يدخل بعد ذلك الكتاب، **هذا واحد**.

الشيء الثاني: فيما يتعلق في قراءتك المقدمة:

يجب عليك أن تقرأ مقدمة أي كتاب تريد أن تقرأه، ولأن المقدمة في نفس الكاتب عند القدماء – لا أتكلم عن المعاصرين – تشكل الأمور التالية:

في كتاب (أساس البلاغة) للجرجاني ذكر لنا فائدة عظيمة في أول كتابه: بأن مقدمات المصنفين والعلماء إنما هي مكان إبراز قدراتهم الكتابية والعلمية، ولذلك تجد في المقدمات، عادة تجد فيها الغزارة، اللغة الراقية، الإبداع في البلاغة

وفي الصياغة، وتجد هذا جلياً في مقدمات كتب الأوائل، فإذن هي إن قرأتها – قرأت المقدمات – ارتقت معالمك وملكاتك العلمية في معرفة كلام الأوائل لأنها تكون كالشعر الراقي لكنه نثر.

الأمر الثالث: أن المقدمة هي التي تبيّن مراد الكاتب – يفصح فيها عن مراده – ما الذي يريده من هذا الكتاب؟ فتكتشف أنت في المقدمة الإمام، تكتشف المصنف، ماذا يريد، أي شيء هذا الكتاب يريده، لماذا كتبهُ؟
والعلماء إمّا أن يكتبوا المقدمات قبل كتابة الكتب، لأنه حينئذٍ يريد أن يكتب كتاباً واضحةُ المعالم إليه في ذهنه، والكتابة ليست كذلك في جملتها.

هو يبدأ ويكتب والمعالم الكلية واضحة في ذهنه، لكنه بعد أن يدخل في الكتابة، الكتابة هي التي تأسره و تسيره – وهذا شيء مهم – كأنه حين يكتشف شيئاً تفتح له طريقاً آخر فيدخل فيه وهذا الطريق يتفرع إلى طريق آخر وهكذا، ولكن المعالم الكلية تكون واضحة، وكثير من أهل العلم يكتبون المقدمات بعد الانتهاء من الكتب وتكون هذه المقدمة كاشفة لكل ما في الكتاب.

المقدمات تفنن فيها أئمتنا كما تقدمنا لأنها مكان إبراز قدراتهم العلمية وصياغتهم اللغوية، حتى إن بعض المقدمات فاقت المصنفات.

وُضعت المقدمات لكتب فصارت هذه المقدمة هي الشهيرة وهي المعروفة وفاتنا الكتاب، وأشهرها في هذا الباب هي (مقدمة ابن خلدون). لَمّا أراد ابن خلدون المؤرخ أن يكتب كتاباً في تاريخ العرب والعجم والبربر جعل مقدمةً للتاريخ، هذه المقدمة الآن أخذها الناس فصارت علماً وكتاباً مستقلا، وكتاب (التاريخ) لابن خلدون قلما يرجع إليه إلا للمتخصصين، وأمّا المقدمة فهي مشتهرة فصار فيها علمٌ خاص فيها.
فالقصد أنك لا يجوز لك أن تدخل إلى الكتاب حتى تقرأ المقدمة.

نشأ بعد ذلك علم **الفهرس**، وهناك كتاب (الفهرس) لابن النديم، وللذكر التاء في الفهرس أصلية؛ التاء «الفهرست» وهي كلمةٌ فارسية.

نبدأ ...

وسترون من خلال الطريقة التي نقرأ بها هذا الكتاب أننا سنقف على المعالم، فقط المعالم، وعليكم أن تقرؤوا ما تحت هذه المعالم من كلمات شارحة ومن أمور بينة واضحة حتى نتعلم بهذه الطريقة ليس شيئا واحداً، هو أن نقرأ الكتاب ويشرحه آخر، لكن كذلك أن نتعلم كيف نقرأ نحن، علينا أن نسمع ونقرأ، نسمع بأذنٍ واعية ونقرأ بقراءةٍ جدلية علمية نتعلمها من خلال هذه الجلسات.

هذه المقدمة – للإمام أبي إسحاق – هي التي تجعلني أقول أن الشاطبي قرأ (الرسالة)، هذا التطابق ما بين مقدمة أبي إسحاق ومقدمة الرسالة من الصعب علي أن أقول أنه توارد أفكار، من الصعب أن أقول هذه الكلمة، ولذلك أركان المقدمة عند أبي إسحاق في كتاب (الموافقات) هي أركان المقدمة عند الإمام الشافعي في (الرسالة)، وأنا أطلب منكم لمن عنده كتاب (الرسالة) أن يقرأ المقدمة ليجد أن ما سنقرأه في مقدمة أو خطبة كتاب (الموافقات) هي نفس الأركان، صحيح أنها صيغت ووشحت بعبارات أخرى لكن المعاني واحدة، المعاني واحدة تماما بتطابقٍ يكاد يكون تام.

بسم الله ... اقرأ:

"بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم"

هنا لا بُدَّ أن ننبه على نقطة قبل أن نشرع ببيان كلام المصنف –رحمة الله عليه– بعض المحْدَثين ألزم الكتّاب والمصنفين من أهل الإسلام بأن يفتتحوا كتبهم بخطبة الحاجة، وهذا غير صحيح. خطبة الحاجة الأولى أن تكون فقط في الخطب الكلامية، أما في الكتب فلا نعرف عالماً في تاريخ الإسلام يلتزم في كتبه بخطبة الحاجة النبوية، هذا دل على أن هذا الإلزام غير صحيح.

الشيء الثاني في قوله: "**بسم الله الرحمن الرحيم**" (فقط "بسم الله الرحمن الرحيم")، في غير القرآن لا تقال إلا في الكتب والرسائل، وأمّا هذه "الرحمن الرحيم" فلا تذكر في أي ذكر آخر، سواء عند الأكل، سواء عند دخول البيوت،

وهكذا، فقط: بسم الله، وأما في المصنفات فلا بد من: بسم الله الرحمن الرحيم، وهي مأخوذة من السنة النبوية في رسالة النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل كما تعلمون.

"الحمد لله الذى أنقذنا بنور العلم من ظلمات الجهالة، وهدانا بالاستبصار به عن الوقوع في عماية الضلالة، ونصب لنا من شريعة محمد ﷺ أعلى علَم وأوضح دلالة، وكان ذلك أفضل ما مَن به من النعم الجزيلة والمنح الجليلة وأناله"

إذن أولاً في المقدمة يمدح العطاء الإلهي في العلم، ويجعل أن عطاء ربنا إلى هذه الأُمَّة (العلم) هوأَجلُّ ما يعطى في هذا الوجود، وهذا صحيح، فإن الأنبياء لم يورثوا درهماً ولا ديناراً ولكن ورثوا العلم، فأعظم ما أعطيت هذه الأُمَّة من الكرامات الإلهية – وهي أفضل الأُمم – هو العلم، والعلم الذي يحصد به ما ذكره الإمام، وخاصة الخروج من ظلمات الجهالة وكذلك الضلالة.

"فلقد كنا قبل شروق هذا النور نخبط خبط العشواء، وتجري عقولنا في اقتناص مصالحنا على غير السواء؛ لضعفها عن حمل هذه الأعباء، ومشاركة عاجلات الأهواء"

هذه الجملة هي نفس كلمة الإمام الشافعي في (الرسالة) يريد أن يبين حال هذه الأمة قبل بعثة محمد ﷺ وقد فصل فيها هناك وذكرها هنا.

النقطة الثانية في هذه الجملة هي أنها خلاصة كتاب (الاعتصام) للشاطبي، وفيها بيان أركان أسباب الانحراف وهما ركنان، وهو هنا يذكر هذين الركنين. وفي (الاعتصام) تكاد تكون الصفحات الأولى كلها شرح لهذا الكلام، وهو أن الضلال يأتي من أمرين، مجموع في قوله في سورة النجم: {إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ}.

الضلال كله مجموع في هذين الأمرين، فالظن (الجهل)، والجهل أنواع.

والثاني ما هو؟ الهوى. ولا يمكن افتراقهما؛ الجهل لا يفترق عن الهوى، فالمرء حين تغلب شهوته هواه لابد أن يجهل في أبواب الاختيارات العلمية، والقرارات العقلية يخطئ فيها، ولو سأل سائل لماذا ضل فلان عن العلم فاعلم أن السبب هو الهوى.

ولا أريد أن أرجعكم لما أكتب ولكن في (صبغة الله الصمد) بيّنتُ هذا مفصلاً. لا تلتفتوا إلى أكاذيبهم في تلبيس الهوى لباس العَقلانية، هذا كذب لا وجود له، الله ﷻ في القرآن لم يجعل لهم أي حجة عقلية، الذين يعادون دينه كل أسباب فسادهم هو الهوى، هذه هي القضية، هذا الكشف، هم يحاولون أن يقولوا: لا، نحن نمارس ممارسة عقلية سليمة. كل هذا كذب.

"على ميدان النَّفس التي هي بين المنقلبين مدار الأسواء؛ فنضع السموم على الأدواء مواضع الدواء، طالبين للشفاء، كالقابض على الماء ولا زلنا نسبح بينهما في بحر الوهم فنهيم، ونسرح من جهلنا بالدليل في ليل بهيم، ونستنتج القياس العقيم، ونطلب آثار الصحة من الجسم السقيم، ونمشي إكباباً على الوجوه ونظن أنا نمشي على الصراط المستقيم..."

يكفي هنا، اقرأ من "فبعث الأنبياء.."

"...فبعث الأنبياء لا في الأمم، كل بلسان قومه من عرب أو عجم، ليبين لهم طريق الحق من أَمَم، ويأخذوا بحُجزهم عن موارد جهنم، وخصّنا معشر الآخِرين السابقين بلبِنة تمامهم، ومسك ختامهم؛ بمحمد بن عبدالله"

هذا مأخوذٌ من حديث كما تعلمون، أن النبي مثّل نفسه مع الأنبياء كمثل رجل بنى بيتاً ثم ترك موضع لبنة وقال أنا هذه اللبنة.

---

[1] للإطلاع على الكتاب: مع صبغة الله الصمد؛ على خُطى التراجعات والتخذيل ... محواً.

هذا الحديث فيه فوائد عظيمة وجليلة، أكتفي بواحدةٍ حتى تعلموا سر هذا الأمر وهو أن الخواتم هي الأجمل؛ الأوائل هي الأشق والخواتم هي الأجمل. ولذلك مثّل النبي نفسه بخاتم اللبنات التي يكتمل بها البناء، ولذلك آخر الأمور هو أجمل الأمور وأعظم الأمور، وكأن هذه الخاتمة هي المقصد الذي بُني من أجله البيت، كأن البيت بُني من أجل هذه الخاتمة، حتى توضع هذه اللبنة الجميلة فلا يدخل الناس في البيت ويقولوا البيت جميل لولا أن وضعت هذه اللبنة، فإذا وُضعت اكتمل البناء – انتبهوا لهذا –، عندما يدخلون البيت، وكأن البيت بعدم وجود هذه اللبنة غير موجود لأن حُسنَه مفقود؛ حُسن هذا البيت مفقود لعدم وجود هذه اللبنة، وهي لبنة، كأن البيت لا وجود له من غير هذه اللبنة فهي ضرورية مع أنها هي الخاتمة.

وذلك الشيء، أي شيء في الوجود سواء كان من المعاني، سواء كان من الأشياء والمخلوقات الكونية الأخرى فهذه إنما تكون فاعليتها باكتمالها – فاعليتها لا بُدَّ أن تكتمل – وإلا فإنها فاقدة للفاعلية.

لو أنت عندك سيارة ومهما حصّلت في هذه السيارة من أجزاء لها ثم تركت المقواد مثلاً فكأنها غير موجودة، وهكذا لو ضربت بأمثلة كثيرة في أعضاء الإنسان، لوجدنا كأن السيارة غير موجودة مع أنها موجودة، ولكن هذا الشيء الذي هو آخر شيء يكون فيه الجمال والتمام، انتبهوا لهذا في حياتكم، قد يعمل المرء عملاً طويلاً، شاقاً، متعبا، فيأتي إلى آخر المرحلة ويكسل ويضعف كأنه ما صنع شيئاً.

هذا الكلام الذي قاله هو كذلك يؤكد أن الرسالة بين يديّ الشيخ أبي إسحاق، لأنها من كلماته – الشاطبي – /.

"ومسك ختامهم محمّد ابن عبد الله الذي هو النعمة المسداة والرحمة المهداة والحكمة البالغة الأمية والنخبة الطاهرة الهاشمية؛ أرسله إلينا شاهدا ومبشرا ونذيرا"

نعم يكفي، واضح الكلام؟ اقرأ فنحمده سبحانه والحمد نعمة منه مستفادة..

"فنحمده سبحانه والحمد نعمة منه مستفادة، ونشكرُ لهُ والشكرُ أول الزيادة، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له"

نعم هنا، هذه الجملة، وهي كذلك تؤكد أن الشيخ يكتب بين يدي الرسالة، أنا أؤكد هذه لأنها مهمة. هذا الحمد العظيم الجليل الذي كتبه الشافعي في (الرسالة) أذهل العلماء، وبيّن فيه أن حمدنا لله عظيم فهو نعمة منه، ولولا هذه النعمة ما حمدنا ربّنا. فهذه النعمة تحتاج إلى حمد، وهذا الحمد الثاني - لأنه نعمة - يحتاج إلى حمد. فكأن المرء مأسور للحمد، ومن هنا تأتي المعاني التي لا تخطر على بال المريد، ولا على بال طالب العلم إلا بالتفكر، وهو أننا لا نستطيع أبداً أن نبلغ في الحمد المبلغ المطلوب، لأن كل حمدٍ يحتاج إلى حمد، فأنت مأسورٌ للنعمة، مأسورٌ لها؛ لن تجزيها أبداً. هذه النعمة أنت لن تجزيها أبداً مفهوم الكلام؟ هذه كلمات الشافعي.

النقطة الثانية: هذا الحديث الذي بين ايدينا من الإمام الشافعي وغيره، وحديث الرجل الذى يتنازع أكثر من ثلاثين مَلك في رفع حمده لله في الصلاة دل على أن الحمد فن عقلي وعلم قلبي. ليس فقط - وهنا نقطة - رواية، حمد الله ليس فقط رواية ونقل، إنما حمد الله فنٌ عقلي وله ارتباطٌ قلبي، بمعنى أن للمرء أن يتفنن، *يتفنن بالمفهوم العلمي*، يعني نقول على العلم فن لأن كلمة الفن هو كل منتج إنساني ذكي، هذا هو معنى الفن، ولذلك تسمى العلوم فنوناً، فنجد أن النبي ﷺ لَمّا قام الرجل من ركوعه فقال: "الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه ملئ السماوات وملئ الأرض وملئ ما شئت من شيء بعد عدد خلقك ورضا نفسك وزنة عرشك ومداد كلماتك"، فقال: من الذي قالها؟ فالرجل خاف ثم في الثالثة قال: أنا، قال لقد تبادرها كذا وكذا، أكثر من ثلاثين ملكاً - ووقف العلماء عند هذا العدد، لماذا؟ بعضهم قال الملائكة بعدد الكلمات التي قالها، وردوا عليهم قالوا: وردت بألفاظ أخرى إلى آخره - فتنازعها الملك، فدل على أن الحمد ليس مقيداً بالرواية، بل هو باب للسباق؛ كلما سبقت فيه كنت مقدماً.

وكذلك في هدي الآخر عظيم وجليل يدلنا على أن الخلق - أي الوجود - أعظم من العبارة، والناس في هذا يقلبون، دائما يقولون: الشعر أبلغ وكأن الشعر أبلغ من الواقع، ويبالغون وكأن عبارات الشعراء أكثر من الواقع، لكن مع المعاني القلبية تعجز الألفاظ عن حمل هذه المعاني، والدليل هو حديث الحمد أن النبي ﷺ لما يُدعى إلى الشفاعة العظمى فيقول: ((فيفتح الله عليّ من الحمد ما لم يفتحه على عبد قط)) واضح الكلام؟

فدلّ على أن الحمد ماذا؟ ميدان سباق، أن يحمد المرء أي لما يقول الرجل في الحديث - الذي صححه بعضهم - ((الحمد لله كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، فقالت الملائكة كيف نكتبها؟ فقال اكتبوها كما سمعتموها وأنا أجزيه بها يوم القيامة))؛ هذه اتركوها لي. فدلَّ على أن الحمد ميدان سِباق، شوف هذه الكلمة العظيمة: كما ينبغي لجلال وجهه، فهذا هو حمد الذات الذى يسميه العلماء: الحمد لـ«الجميل الاختياري». تعرفون الفرق بين الجميل الاختياري وغيره؛ الجميل الاختياري الذي ليس فيه عطاء للحامد، هذا الجميل اختياري.

يعنى أنت عندما تقول لك الحمد يا ربّنا، لك الحمد لجلال وجهك، هذا الجلال العظيم في وجه الله هل يرب عليك شيء منه، هل يأتيك شيء منه؟ لا، هو محمودٌ لذاته.

ولكن أن تحمده – انتبهوا -، لعطائه لك فأنت تقول الحمد لله على هذا الشيء: ((إن الله يحب العبد إذا أكل الأكلة أن يحمده عليها وإذا شرب الشربة أن يحمده عليها))؛ هذا حمدٌ أقلُّ مرتبةً من الحمد الأول.

الحمد الأول هو أن يحمد المحمود لشيء فيه، له تعلق بذاته، وبعض العلماء بماذا فسر الحمد؟ قالوا الحمد هو الثناء الحسن على الجميل الاختياري، وقالوا بأن الجميل الاختياري هنا ليفترق عن الشكر، فإن الشكر لا يكون إلا لسبب «الجميل المتَعدّي»، يسمونه الجميل المتَعدّي، يعني جاء شيءٌ من الخير من جهة المحمود إلى الحامد؛ جاء خير فأنت تشكر، هذا فقط.

لكن الحمد يأتي على هذا المعنى، وهو على الجميل المتعدي وعلى غير المتعدي الذي يسموه الجميل الاختيارى واضح؟ مع خلافهم في هذا التعريف لكن هنا...

واضح الكلام أيها المشايخ؟ والكلام عن حمد الله يطول، فإن أعظم ما يُسكن غضب الرَّب هو الحمد، ولذلك **أعظم العبادات** في هذا الوجود هي الاستغفار والحمد.

هذا شرحه يطول ولكن ننبّه هنا عليه بإن المرء يُسكن غضب ربه – كما في الحديث: لقد غضب ربي اليوم غضبة لم يغضب قط مثلها – فما الذي يُسكن غضب الرَّب جلّ في علاه؟ هو حمدهُ. ولذلك أعظم العبادة هي الحمد، وسمّى الحمد دعاء في الحديث، وأفضلُ الدعاء الحمدُ لله ، الدعاء هو طلب العطاء وكأن الحمد هو أعظم أبواب العطاء – وهذا هو الصحيح – الحمد هو أعظم ما يجلب على العبد العطاء الإلهي: {لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ}.

بس هنا يكفي وهذه النقاط التربوية المهمة التي تنشط القلب لمعرفة الله. لماذا الله يحب الحمد، يحب الثناء؟ فأنت تعرف نفس ربك، تعرف ماذا يحب وماذا يكره. طيب فهذه كلمته، –وانتبهوا لكلمته– قال: "فنحمده سبحانه والحمد نعمة منه مستفادة" أي تحتاج إلى حمد.

"كل ذلك ليتفرغوا لأداء الأمانة التي عرضت عليهم عرضاً، فلما تحملوها على حكم الجزاء"

المقصود بحكم الجزاء أي أنهم تحملوها على حكم الاختيار، يتحملونها على معنى الجزاء أي يتحملونها على معنى الاختيار، الذي يكون بفعلها – أي الأمانة – وأدائها لهم جزاء (عطاء)، وبتركها يكون جزاء أي عذاب ومنع.

وهذه أردت أن أقف عليها لأنها قد تُشكل على البعض.

"حُمِّلوها فرضاً، ويا ليتهم اقتصروا على الإشفاق والإباية، وتأمّلوا في البداية خطر النهاية، لكنهم لم يخطر لهم خطرها على بال، كما خطر للسماوات والأرض والجبال، فلذلك سمي الإنسان ظلوماً جهولاً"

الآن أساس فساد العمل الإنساني: الظلم والجهل، وأما الظلم فما له تعلق بالفعل وأما الجهل فما له تعلق بالتصور؛ أساس العمل الإنساني يقوم على هذين الركنين: ظلوماً جهولاً. هذا الجمع في القرآن بَين الأشياء؛ هذا علم عظيم وأكثر ما تجده في كلام ابن القيم، الشكر، الحمد، الظلم، الجهل، تجد ابن القيم في كتبه يتفنن فيه، يُبدع في هذا الباب. لماذا جمع بين الظلم مع الجهل؟ لماذا قال: {وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا}؟ العدل للحكم، الصدق للخبر، هنا أساس الفساد: الظلم والجهل، الظلم في ماذا؟ في العمل، طبعاً الإنسان يظلم نفسه، يظلم أبناءه، يظلم دينه، يظلم نبيه وهكذا، والجهل هو أساس فساد التصورات العقلية.

"يعني هل هذا مصداق حديثه ﷺ القضاة ثلاثة؟"

واحد للمعصية وواحد للجهل، نعم يدخل في هذا بلا شك، فلذلك سُمِّيَ الإنسان ظلوماً جهولاً، لكن هنا قوله: "كل ذلك ليتفرغوا لأداء الأمانة"، بمعنى أنه جعل الأمانة التكليف.

"وكان أمر الله مفعولاً؛ فدل على هذه الجملة المستبانة شاهدٌ قوله {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ}"

قوله "وكان أمر الله" هنا الأمر القدري المقصود، مفعولاً أي واقع، كان أمر قدري مفعولاً لا راد له.

"فسبحان من أجرى الأمور بحكمته وتقديره، على وفق علمه وقضائه ومقاديره؛"

إذن هنا دائما يأتي أولا العلم والحكمة: {حَكِيمٌ عَلِيمٌ}، ثم تجد القدرة على أداء هذا العلم أن يوقعه موقعه والحكمة التي قدرها فلا بد من إيقاعها. ولذلك لابد من القدرة عليها، ولذلك تجد دائماً العليم الحكيم وتجد العزيز الحكيم، وبعدها تأتي إن الله على كل شيء قدير، هذه تكثر بها الآيات.

"لتقوم الحجة على العباد فيما يعملون، {لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ}"

فقط هنا نبدأ بنقطة يسيرة، قوله تعالى: {لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ}

هذه لا تعني خروج أمره – الذي يُعبّر عن ماذا؟ عن فعله وعن قوله –، لكن هذه لا تعني – انتبهوا، هذا كلام مهم – **لا تعني خروج أمره عن حكمته**، لقوله تعالى {إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاط مُسْتَقِيم}. مع أن ربنا لا يُسأل عمل يفعل ومتكبر وكل ما هو غيرَه عبيد له، إلا أنه سبحانه وتعالى في كبريائه وفي عزته لم يُخرج نفسه من أن يفعل وأن يقول الحق؛ لذلك قال: {إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاط مُسْتَقِيم}، وكأنه جل في علاه ألزم نفسه بالحق، يعني الله جلَّ في علاه لا يسأل عما يفعل، لكن هل يفعل خارج إطار الحكمة؟ لا..

نحن ما شاء الله اليوم كل ما تحرر المرء من سلطان الآخرين أعطى لنفسه الخروج من الحكمة، بمعنى أنه يقول لا أُسال أنا، لا أحد يسألني، فيجوز لي أن أفعل ما أشاء، فإذا كان ربنا جلَّ في علاه – وهو رب العبيد – ألزم نفسه أن يكون على صراط مستقيم، فهذا ادعى لنا أن نلتزمه.

"ونشهد أن مُحَمَّداً عبده ورسوله، وحبيبه وخليله، الصادق الأمين، المبعوث رحمة للعالمين، بمِلةٍ حنيفية، وشِرْعةِ الحاكمين بها حفية، ينطق بلسان التيسير بيانُها، ويعرِّف أن الرفق خاصيتها والسماحَ شأنها؛ فهي تحمل الجمّاء الغفير ضعيفاً وقوياً"

هنا يتكلم فقط عن مميزات هذه الشريعة العظيمة وهي أولاً رحمةً للعالمين وهي مُيَسّرة، "ينطق بها لسان التيسير بيانها" يعني أنها ميسرة، وكما قال سبحانه وتعالى: {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ}، وقوله تعالى: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا}

قوله "وهي تحمل الجماء الغفير": وهو العدد الكثير.

"ضعيفاً وقوياً": الكل له مكانه في هذه الشريعة، لا يخرج عنها أحد، المكلف العظيم له مكانته، صاحب المال تَسعُه، الفقير تسعه، القوي تسعه، الضعيف تسعه..وهكذا

"وتهدي الكافة فهيماً وغبياً، وتدعوهم بنداء مشترك دانيا وقصيّاً، وترفق بجميع المكلفين مطيعاً وعصياً، وتقودهم بخزائمهم منقادا وأبياً، وتُسوي بينهم بحُكم العدل شريفا ودَنِيّا"

يكفي هنا، يبين هنا هذا الاتساع. اقرأ من "أمّا بعد.."

"أمّا بعد؛ أيها الباحث عن حقائق أعلى العلوم، الطالب لأسنى نتائج الحلوم، المتعطش إلى أحلى موارد الفهوم، الحائم حول حِمى ظاهر المرسوم؛ طمعا في إدراك باطنه المرقوم، معاني مرتوقة في فَتقِ تلك الرسوم؛ فإنه قد آن لك أن تصغى إلى من وافق هواك هواه"

هنا ينبّه الشيخ بطرق الأقدمين، يا إخواني هذا مهم جدا، وهذا قلته ربما لكم مرة، **أن العلماء يخفون علومهم،** هذه مهمة جدا، وفي الرسالة هذا الكلام، هذا كلام العرب، يقولون كلما كان الكلام مُلَذَّذا خفيا كلما كان بليغا.

ولذلك أعظم ما في القرآن ما هو، متى تتمتع بالشيخ الذي يتكلم، متى؟ هل إذا حدثك عن الجواهر البينة الواضحة؟ لو أن رجلاً تكلم معك في مسألة في آية من آيات كتاب الله وتكلم بها عن ظاهرها تقول هذا كلام عامي، لأنها بيّنة يدركها الجميع، الناس يمشون واللؤالئ فوق الأرض ويجلبونها لأنها فوق الأرض، متى يتمايز الناس؟ يتمايزون عندما يُخرجون المكنون، عندما يُخرج الرجل المكنون، الداخل، تشعر أن لها إشعاعا خاصا وجمالا مميزا، وبها يتمايز كذلك المستنتِج لأنه ادركها، التقطها.

فهذه الطريقة، اليوم صاحبنا يكتب الكتاب ويقول لك انتبه، انظر إلى جمال ما قلت، ولأنه يعرف مستواه، يعرف مستوى الناس، كأنه يريد أن ينسب على كل جوهرة ألف راية ليقول انظروا انظروا، وهذه ليست طريقة الأوائل.

طريقة الأوائل إخفاء معانيه بالعبارات الملغزة، فكلما لغَّز العالِم عند الأوائل، كان هذا أدعى لتسميته عالِما ولتسميته مميزاً.

القصد: هذه مذكورة في كتب العلم، ولذلك هو هنا أراد أن يقول لنا بأن هذا العِلم – ما شرحناه في الدرس الفائت – يجمع أجلَّ شيئين في الوجود: الشيء الأول وهو الهداية الربانيّة (النص)، والشيء الثاني أن هذا العلم يجمع العقل كما أنه يجمع النقل، وشرحنا هذا في الدرس، وقلنا أن علم أصول الفقه هو العلم الذي يجمع هذين الأمرين جمعا جليا، واضحا، بينا، وهو العقل والنقل. انظر إليه ماذا يقول هنا:

"أمّا بعد؛ أيها الباحث": كلمة أمّا بعد لا أريد أن نقف عندها، في كتب مشروحة، هي الكلمة يقول بعض أهل العلم هي فصل الخطاب الذي أوتيه داوود، ويعربونها إعرابات طويلة، ويكون ما بعد الفاء: "فإن" عادة لأنها شرطية ..إلخ.

"وأن تطارح الشجى..": نعود إليها لنرى هذا المعنى الذي قلنا، وهو أنه أراد أن يقول بأن هذا العِلم يجمع حقائق أعلى العلوم الطالب لأسمى نتائج الحلول، واضح الجمع بينهما؟ إذن يجمع النص المنقول والعقل الصحيح البين.

"وأن تطارِح الشجى مَن مَلكهُ – مِثلك – شجاهُ"

فإنه أولا يقول: قد آن لك أن تُصغي إلى من وافق هواكَ هواهُ، هنا طبعا المقصود بالهوى العلم، ليس المقصود بالهوى معناه المذموم.

"وأن تطارحِ الشجى مَن مَلكهُ – مِثلك – شجاهُ": عادة الشجي ما معناه؟ الشجي يطارح الشجي، يعني أن الشجى كما في الشعر: "إن الشجى يبعث الشجى يا أم مالك"، يعني كما يقول الناس الفلاحون عندنا، قديما كان إذا مات رجل اجتمعت النساء وبكين، فالناس يقولون هي لا تبكي الميت، هي تبكي ميتها، لكن الذي ذكرها بالميت هو الميت؛ فالشجى يبعث الشجى، الألم يبعث الألم، والذكرى تبعث الذكرى، فالشجى يبعث الشجى يا أم مالك. لأنهم عابوها لماذا تقف على كل قبر، فقالت كلها قبر مالك، كل القبور هي قبر مالك، لا أعرف إلا مالكاً؛ لَمّا أمر على مقبرة فيها ٢٠٠ قبر، فكلها قبر مالك، فإن الشجى يبعث الشجى يا أم مالك.

"وتعوّدَ – إذ شاركتَه في جواه – محل نجواه"

هنا هذا ما يُسمّى «الجناس»، والجناس أنواع، هناك الجناس المطابق والجزئي..إلخ، هذه مسألة في البلاغة ليس هذا وقتها، لكن ما معنى الجوى هنا؟ ما معنى الجوى الأولى؟ الجوى هنا الألم.

يقول المتنبي: "مالنا كلنا جوى يا رفيق"، يعني مالنا كلنا متألمين، مالنا كلنا تعبانين..إلخ.

فيقول: "وتعوّد إذ شاركته في جواه" اي في ماذا؟ في ألمه وشكواه، فيما يشغله، تعود إذ شاركته في جواه محلَّ نجواه، بسبب أن جواك هو جواه، ألمك هو ألمه، فحينئذ تصبح موطن سره حين يناجي، انت وإياه كأنكما تتناجيان.

"حتى يبث إليك شكواه، لتجري معه في هذا الطريق من حيث جرى، وتسري في غبشه الممتزج ضوؤه بالظلمة كما سرى"

نعم هنا المقصود بالسرى هو المشي ليلاً، فتمشي أنت في هذه الظلمة حتى تتبين الحق.

"وعند الصباح تحمد إن شاء الله عاقبة السُّرى"

هناك كما قلنا هذه الكلمة – انتبهوا – الكلام هو إبانة عن ما في نفسي، ما الذي في نفسي؟ وكأنه يريد أن يقول بأن ما أخوضه في هذا الكتاب هو استطلاع لمعالم الظلمة في هذا الباب، وهو أصول الفقه. انتبهوا، كأنه يريد أن

يقول: أنا هنا اريد ماذا؟ أن ادخل في الدهاليز، في السراديب المظلمة، غير البينة، والخفية في هذا العِلم، صحيح؟ عبارته واضحة، يقول: "وتسري في غبشه" يعني تمشي في ظلمة الليل، في غبشه. ضوؤه بالظلمة ممتزج، هناك أشياء واضحة بينة، وهناك أشياء خفية.

وهذا الذي أراده، هناك بالفعل مواطن يقف عندها الشيخ وفيها كلام كثير للأصولين، لكنه يقف عندها مستطلعا الحق فيها، وعند الصباح لما تصل إليها وقد أضاءت وتجلت بضوئها عندئذ يحمد لك الناس سراك؛ لماذا سَرَيت يحمدونه، يقولون والله رجل راح وجاب، طلع بدري وجاب اللي بيدو إياه.

"فلقد قطع في طلب هذا المقصود مَهامِهَ فيحاً"

هو يريد أن يبيّن حاله، يتكلم عن نفسه. رأيتم؟ هذا من الفوائد؛ لا يستطيع أن يتكلم عن نفسه في الكتاب، وفي الحقيقة المقدمة فيها هذا النَّفَس، كأنه يقول بأنه كان هذا العلم من أشق العلوم عليه، ثم ارتاضه وروّضه حتى صار مقدماً فيه. هذه طريقة الناس التي تفهم أنه هذا علم مهم، لأنه لو لم يكن مهماً فأعرض عنه واتركه واذهب إلى ما تستطيع، لكن لما كان هذا العلم مهماً، فإنه بذل.. هو كأنه يشكو أن هذا العلم كان شاقاً عليه ثم ارتضاه حتى روضه؛ ذهب إليه مرةً بعد مرة، وجالس وقرأ و..حتى جعله ملكة عنده، فقد قطع في طلب هذا المقصود هذه الفيحاء.

"وكابد من طوارق طريقه حسنا وقبيحا، ولاقى من وجوهه المعترضة جهما وصبيحا"

الجهم هو المتجهم يعني، وصبيحاً المبتسم.

"وعانى من راكبته المختلفة مانعا ومبيحا"

المقصود عقله هنا، وعانى من راكبته: دابته، ودابة المرء في خلل العلوم ما هي؟ ما هي دابتك في العلوم التي تمشى بك فتكِل وتقوى وتنشط؟ العقل.

"فإن شئت ألفيته لتعب السير طريحاً، أو لما حالف من العناء طريحا، أو لمحاربة العوارض الصادة جريحاً؛ فلا عيش هنيئاً ولا موت مريحاً."

واضح؟ هذه شكوى. ما الذي رآه المسكين..

"وجملة الأمر في التحقيق: أن أدهى ما يلقاه السالك للطريق فقدُ الدليل" أيوه! المشكلة هو أن المرء قد تأتيه المعلومة، قد تأتيه القاعدة فيفهمها، لكن الموضوع ليس هذا؛ هذا بعض العلم بل قد يكون هو أقلُّه: تأتي إليك القاعدة العلمية فتفهمها، هذا هو الذي يبحث عنه الناس. في الحقيقة هذا بعض العلم بل أقله. المطلوب هو معرفة دليلها وكيف جاءت. حين تعرف أصل الشيء فأنت قد ملكته، أمّا مجرد أن يكون الشيء عندك حاضراً وواضحاً وبيّناً ولا تعرف كيف تأصّل ولا كيف نشأ وما هو دليله، هذه مشقة.

هذا علم، الناس الآن يتكلمون عن هذه النهايات وكيف هي، ويحفظونها ولا يعرفون كيف نشأت وبهذا لا تكون لعقولهم دَربة، لا تتدرب عقولهم. العقل يتدرب لا بإدراك الشيء ولكن بمعرفة تكونه –كيف تكون –، وهذا الذي كان من مَهمات قراءة كتب الأوائل وبها يتمايزون.

نسمع أن الربيع المرادي قرأ (الرسالة) أكثر من مئة مرة أو أكثر أو أقل. الرسالة الآن نجلس، أربع أو خمس دروس ممكن نشرحِ ما فيها من أمور ويدركها الطالب الصغير، أي طالب علم مبتدأ تُعرفه ما فيها، لكن لماذا يقرؤها؟ من أين جاءت، كيف جاءت؛ ولذلك الأستاذ شاكر في كتابه (أباطيل وأسمار)، وبيّن هذا كذلك في كتاب لعله (نمط صعب ونمط مخيف)، تكلم عن ما هو المنهج العلمي، وقال بأن المنهج العلمي – وهذه من الفوائد الغزيرة له – لا بد من تناول المادة، وتحدث عن ما قبل المنهج ولا أريد أن أتوقف عندها وهي مهمة، ولكن أنت تعرف العالِم مما يقرره وكيف نشأ. إن علِمت كيف نشأ علِمت أن الرجل هذا لما قرأ ألف كتاب، لما قرأ شِعر الجاهليين، لما قرأ أدبهم وخطبهم، ثم غاص فيها غَوْصَ المدقِّق، الباحث، التعب، حتى أدرك سرها: كيف هذه اللغة، كيف جمَع المتماثلات، وكيف فرَّق بين المفترقات، بماذا تميز هذا، كيف العرب يكتبون هذا الكلام...إلخ. هذا هو الذي ينتج العلوم.

الآن القراءة كلها تتحدث عن الجواهر البيّنة التي يعرفها الناس، الغوص في الداخل هذا ضعيف. ومن أعظم الغوص في العلوم أو القواعد أو كل العلوم، أن تعرف كيف تكَوَّنت، ما الذي أنشأها؛ حين تعرف منشأها تعرف مقدار علم العلماء السابقين.

يعني هذا الإمام الشافعي يقول عنه الأصمعي: "أخذت شعر الهذليين عن فتى في مكة اسمه إدريس الشافعي" أصلاً الشافعي / كان أمره أمر الأدب والشعر، فجمع الشعر وتلذذ به ثم بعد ذلك أنتج هذه الرسالة. قرأ القرآن القراءة العلمية الواعية، وقرأ علم لكلام – كان الشافعي بصيراً به لكنه لم يتعاطاه – وهكذا.

فإذاً أنت مطلوب منك أن تعرف كيفية إنشاء الجملة العلمية، كيف نشأت في نفس هذا العالِم، وإذا ما أدركت هذا تبقى واقفا على الظواهر، عند الساحل يا مسكين.

"وجملة الأمر في التحقيق أن أدهى ما يلقاه السالك للطريق فقد الدليل، مع ذهنٍ لعدم نور الفرقان كليلٍ"

إذاً هما نوران: نور القابِل ونور الفاعل، كما يسميه المناطقة، واضح؟ لا بُدَّ من نورين، لا بُدَّ من نور البصر – أن تكون مبصراً – ولا بُدَّ من نور الخارج؛ إذا لم يكن هذان النوران معك أو أحدهما مفقود فأنت لن تستطيع المشي، لن تستطيع أن تبصر شيئاً. فلا بُدَّ أولا أن يكون بصرك صحيحاً، ولا بُدَّ أن يجد معك النور الخارجي، واضح الكلام؟ لا بد من حقين، هذا لا بُدَّ أن يكون نظيفا، لكن هنا نقطة – اسمحولي – العقل عند أهل السُنّة كما يقول الحاسمي – له كتاب في هذا الباب – وكما يقوله الشافعي، ويقوله أحمد، وهو اختيار الحسن الأشعري، أن العقل عندنا – أهل السُنّة – مَلكة، وبمعنى مَلكة ماذا هو؟ فقط قوة لتلقي الشيء، للتلقي، لا ينتج، العقل لا ينتج، العقل ليس مادة الإنتاج، وهذا خلاف طبعاً المعتزلة وخلاف الفلاسفة.

الفلاسفة يقولون بأن – حتى أنهم يقولون: «العقل الكلي»، نظرية الفيض الأفلاطونية تقول بأن العقل هو الذي يُنتج العلوم، العقل هو الذي ينتج. ويقولون طيب، من أين جاءت العلوم للعقل؟ قال: عن طريق الفيض من العقل الكلي؛ العقل الكلي المقصود عندهم به هم الله. وهذه العبارات هي عبارات جاهلة. فالعقل الكلي فاض على العقول بالعلوم، فالعلوم تُنتِج.

طيب؛ كيف تنتج في حياتنا؟ يقولون بأن العلم تذكُّر والجهل نسيان، يعني أنت لما تأتيك المعلومة فتتذكر ما أخذته من خلال صدمة النسيان التي حدثت لديك عند تلقي العقل الجزئي –وهو أنت– من العقل الكلي؛ هكذا يقولون.

كل هذا باطل، العقل لا ينتج، في سورة البقرة دلّنا على أن العِلم تلقي في قوله سبحانه وتعالى: {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا}، فدلّ على أن الإنسان كما قال في سورة النحل: {وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا} وهكذا آدم، خرج إلى الوجود لا يعلم شيئا، الله أعطاه العلم، أفاض عليه؛ فهذا هو العلم.

وهذه قضية تربوية العلماء أخذوها في أبوابها المهمة، فالقصد من ذلك أننا عندما نقول عقل نظيف، إيش معنى عقل نظيف؟ يعنى عقل قارئ، يعني عقل متلقي، يعنى عقل عالِم، قرأ وقرأ وقرأ حتى أنتج علماً سليماً سديداً، فهذا العقل العلمي الحقيقي، يكون نظيفا، فيأتيه نور الهداية والقرآن فيُعْمِلُها؛ يحلل هذا القادم إليه من النور الإلهي. نعم

فإذن قال "مع ذهن لعدم نور الفرقان كليل"، إذن فَقْد الدليل هو فقْد العقل، هذا هو الموت، وهو أن يكون فاقدا للهداية الربانية، فاقدا للعقل السديد.

"وقلب بصدمات الأضغاث عليل"

وهذا هو الهوى، الجهل ثم جاء الهوى.

"فيمشي على غير سبيلٍ، وينتمي إلى غير قبيلٍ، إلى أن منَّ الرب الكريم، البر الرحيم، الهادي من يشاء إلى صراط مستقيم؛ فبُعثت له أرواح تلك الجسوم "

هذا هو، بدأ يبين أن هناك مَنٌّ إلهي، وهذا الحديث ليس عيبا: أن يتحدث المرء عن العطاء الإلهي ترغيبا، وهذه هي طريقة الصحابة؛ عندما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "خذوا مني قبل أن تفقدوني"، إن هاهنا لعِلماً، هل هو ليس متأدباً بأدب القرآن في عدم التزكية؟ {فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى} لا، لكن عندما يجهل الناس رجلاً لا بُدَّ أن يبيّن نفسه، ويوسف عليه السلام قال: {اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ}، وهناك أسباب متعددة لماذا يضطر

المرء لأن يقول: أنا هنا، أنا أفهمها، هذه لي، هذه أنا صاحبها، "أنا جذيلها المحكك" كما قال سعد بن عبادة ﷺ عندما طلب الخلافة: "أنا جذيلها المحكك، أنا رجلها."

فيجوز للرجل أن يفعل ذلك في أوقات متعددة أهمها: هو عندما لا يعرف الناس من هو، ويرى الجهل في هذا الباب الذي عنده، فيقول للناس: أقبلوا عليّ، تعلموا مني، خذوا مني، كما قال مؤمن آل فرعون، ماذا قال؟ {يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِي}، **هذه مهمة**، ما قال اتبعوا الحق، بل قال اتبعوني؛ الحق صار رجلاً، اتبعوني، هذه مهمة. وسليمان عليه السلام قال: {قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي}.

فالقضية ليست كما يزعم العَلمانيون أو بعض المشايخ المتأثرين بهم أو الجهلة الذين لا يعرفون دين الله بأنهم يجعلون الحق مطلقاً كأنه ماشي، لا. موسى جعل شخصاً يقول: {اتَّبِعُونِي أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ}، جعل الحق مربوطاً فيه، في شخصه، هذه ليست تزكيةً مذمومة.

المرء يضطر لأسباب كثيرة أن يقول للناس: اتبعوني، خذوا مني، أنا الذي أعرفكم الحق، أنا الذي عندي الحق، لكن هذه الكلمة لا بُدَّ أن يكون قد سبقها ثقة بالله، وثقة بما هو عليه، استخارة لربنا، وتطلع له شمس العلوم بنور، يتبنى الناس فقط؛ خذوا مني، اقبلوا هذه النصيحة، اتبعوني.. وهذا مهم.

فحديث المرء عن النعم الإلهية لأسبابٍ متعددة، هذا ليس من المذموم، وهو أن يتحدث عن نفسه أن الله أحيا هذا العقل الميت بأن قذف فيه روح العلم وصار من العلماء فيه يتحدث عن نفسه؛ هذا ليس من المذموم كما قلت لأنه من طرق مرغبات الناس في هذا العلم.

"فبعثت له أرواح تلك الجسوم، وظهرت حقائق تلك الرسوم، وبدت مسميات تلك الوسوم؛ فلاح في أكنافها الحق واستبان"

أَرَأيتم؟ انتبهوا. هنا يتحدث بتلذذ، انظر إلى العبارة، كأنها حتى العبارة صار فيها السهولة والجمال بخلاف ما كنا نقرأ، صحيح؟

عليك أن تتذوق الكلام، الكلام ذوق، ميزان، كيف تتحدث هناك وهنا وهكذا، كالعاشق، هو متضايق وجالس إذا سمع صوت عشيقته فتراه يرتاح ويبدأ يضحك، وهكذا، الكلام هكذا، الكلام هو إبانة عما في نفس المتكلم، وكلما تعلمت القراءة كلما فهمت الناس؛ تعرفهم بجلسة واحدة.

والله يا إخوة – هذه نصيحة –؛ والله ما رأيت في حياتي أعجب ممن يُخدع بالكذاب. هذا دلالة على أنك أنت ضعيف؛ المشكلة ليست في الكذاب أنه يخدعك، المشكلة ليست في المخادع كيف ضحك عليك، المشكلة فيك أنت لأنك لا تعرف الناس، لا تعرف الكلام كيف يُركَّب، كيف يُبنى، كيف يقال. أنا أتكلم حتى عن العامي، لا تظنوا أن العامي بعيدٌ عن هذا، هو كذلك أسير لكلماته. الناس يعرفون هذا.

"فلاح في أكنافها الحق واستبان، وتجلى من تحت سحابها شمس الفرقان وبان، وقويت النفس الضعيفة وشجع القلب الجبان، وجاء الحق فوصل أسبابه وزهق الباطل فبان"

هل – هذه زائدة – القافية لها دور في المعاني؟ بلا شك، فإن المرء لو أراد أن يكتب عن جمال لا بد أن يُطلق فيها النَّفس، وهو يتلذذ بحرف النون، هذا له علم آخر لكنه له حديث في البلاغة وحديث في الشعر، واقرأوا (نمط صعب ونمط مخيف) حين يشرح الشيخ شاكر – تعرفون كتاب (نمط صعب ونمط مخيف)؟ هذا للشيخ شاكر، مهم جداً – وشرح فيها – القصيدة المنسوبة تأبط شراً – وبيّن فيها أنها ليست لتأبط شراً ولكن لابن أخته، كما ذكرها أبو تمام في الحماسة، فيقول أن البحور تُحدد المعنى، الناس يختارون البحر الذي يلائم المعنى.

"هذه الفقرة الأخيرة يا شيخ تدل على أنه كان خائفاً من .."

أنا اتكلم عن هذه النون الجميلة لم تكن موجودة، الآن بدأ يستخدمها كأنه يمضغ اللبان.

"فأورد من أحاديثه الصحاح الحسان، وفوائده الغريبة البرهان، وبدائعه الباهرة للأذهان؛ ما يعجز عن تفسير بعض أسراره العقل"

يكفي إلى هنا، لا أريد أن يمر علينا رفع العلامات عن هذه الكلمات ومعانيها والوقت قد أخذنا.

وجزاكم الله خيراً وبارك الله فيك.

أَسْئِلَـة

- العبادات أليست توقيفية؟

نعم، كانت في ذهني وما أردت أن أقف عندها العبادات توقيفية ولكن هذه العبادات اجتهادات الناس فيها، مثال: أليست الأربطة – من الرباط – هو عمل تعبدي؟ ومن الأعمال العظيمة.

أن يبدع في الرباط كيف هو، هذا عمل إنتاجه سهل، وكلما أبدع فيه كان خيراً، كلما أبدع فيه ليصد الأعداء أو ليعمل فائدة في هجوم الأعداء – لأن هذا هو فائدة الرباط –، فكلما أحدث فيه حدثاً حسناً كان له الأجر الحسن، فلذلك أنا أردت في هذه النقطة أن أبيّن – في مجموع كلامي – بأن الحمد ميدان سِباق، وذكرت الأدلة حتى نتوقف عليها، وهذا دل على أن الحمد، المرء يحمد الله بما شاء: بعد وقوفه من الركوع – والنبي كان يطيل هذا من مواطن الإطالة التي ضيعها الأئمّة في هذا الزمان وهو إطالة الصلاة بعد القيام من الركوع – يقف فيحمد ما يشاء والناس يحمدون، لهم محامد كثيرة، فلو تفنن فيها لكان حسناً على أن يكون عالماً بما يقول وليس جاهلا للكلام. فهذا دلَّ على الجواز بأن القيام يكثر فيه الحمد و لكن أفراد الحمد هذه يتسابق فيها العباد.

- الجملة (حتى ظهر محض الإجبار في عين الأقدار)؟

المقصود هنا بمحض الإجبار هو الفرض الإلهي.

- بعضهم اتهم الشاطبي أنه كان يخاف ورغم أنه كان في بداية مهده إلا انه جاء بشيء جديد فقال أنه تجرأ وكتب؟

في الحقيقة هذا كلام من لا يعرف (الموافقات)، (الموافقات) ليس فيه شيء يصادم العصر، وإنما جرى مجرى العلماء وهذه تحتاج إلى نقطة.

لماذا يكتب العلماء الكتب؟

وهذه نقطة مهمة. تُحصر مقاصد العلماء في أمرين:

الأمر الأول: أن يجري مجرى العلماء: يريد أن يدخل في زمرة العلماء فيكتب الكتب ليقول أنا منهم: هذه رسالتي للدكتوراه حتى أدخل في العلماء، فيكتب فيها؛ وهذا هو الأكثر في المصنفات. وهذا ليس مما يذم، بل هو يريد أن يقول أنا عندي هذا ويكتب في هذا الفن فالناس يقرؤونه ويعرفونه مرتبته فيدخل في زمرتهم، إذن فالمقصد الأول وهو الدخول في زمرة العلماء.

المقصد الثاني: وهو الإجابة عن النوازل والحوادث والمسائل التي تقع فيجيبها، والأولى - المقصد الأول - تغلب على كتب ابن القيم، هو يريد أن يقول هذا عندي استفيدوا، خذوه، لذلك لا تجد كتبه شيء تناقش وتصدم الآخر ليس فيها هذا الشيء.الصنف الثاني: ابن تيمية، كتبه أغلبها هي مشاكل. يأخذ الكتب ليرد عليها، ليبيّن، ليحارب، هذه هي أغلب كتبه: إما رسائل وجهت إليه، (التدمرية) (الواسطية) هذه كلها رسائل وجهت إليه، (درء تعارض العقل والنقل) هو رد على (أساس التقديس) للرازي، أرسلوا إليه كتاب للرافضي فرد عليه في كتاب (منهاج السنة)، وهكذا.

الشاطبي لا يحارب في كتابه، وإن كان يريد أن يقول: هذه أشياء جديدة، والحق أن عصره وعصر شيوخه كان فيها المحاولات الجليلة لحصر العلوم على طريقة القواعد. القرافي في كتبه سواء (الفروق) أو غيرها إنما يريد أن ينشئ علم الأصول على طرائق القواعد، وكذلك هو جرى هذا المجرى في كتابه (الموافقات).

(الموافقات) لا يحارب فيها غيره لكن يبيّن ويناقش ولا يخرج عن كلام العلماء أبداً.

- هل أخفى ما أخذ من ابن تيمية؟

في الحقيقة أنا استبعد هذا، بعض المحققين للشاطبي نُصح بأن يُدخل في هامش الكتاب المقارنة بينه وبين ابن القيم وابن تيمية. في الحقيقة لا يوجد أي أثر فيما علمت، وقرأت هذا الكتاب مرات، وأنا قرأت المجموع مرات، وأعرف شيخ الإسلام، أعرف عبارته، ولو وضعت بين مائة عبارة أعرف أن هذه للإمام ابن تيمية، وأنا أجزم لكم أن

(الموافقات) ليس فيه أي أثرٌ لا لابن القيم ولا لابن تيمية أبداً. بل هو قارئٌ لكتب الأقدمين إنا ذكرت لكم (الرسالة)، قد نحضر (المستصفى) ونبين لكم بعض المواطن، فهو المستصفى بين يديه ويصيغه كأنه يشرحه بطريقة ذكية عالمة واعية، وهذا ليس من إنتاج المنتَج، لا، بل هذا إبداع جديد، فيه الجدة وهكذا العلوم تبنى بعضها على بعض.

جزاكم الله خيراً.

الدرس [٥]

"وجملة القول في التحقيق أن أدهى ما يلقاه السالك للطريق فقد الدليل، مع ذهن لعدم نور الفرقان كليل، وقلب بصدمات الأضغاث عليل؛ فيمشي على غير سبيل، وينتمي إلى غير قبيل، إلى أن من الرب الكريم، البر الرحيم، الهادي من يشاء إلى صراط مستقيم؛ فبعث له أرواح تلك الجسوم، وظهرت حقائق تلك الرسوم، وبدت مسميات تلك الوسوم؛ فلاح في أكنافها الحق واستبان"

قد يرى القارئ أن هذا عند الأوائل، أدهى ما يتهم به كلام السابقين، قد يرى الناظر المبتدئ الشادي شدواً جديداً ان هذا من قبيل فقط البلاغة اللفظية وليس تحتها شيئاً من العلوم ولا شيئاً من المنفعة وهذا اتهام باطل لكلام الأوائل لا يجوز أن يخطر لنا على بال. حتى في كلام الأدباء وفي كلام اللغوين والنحوين، يجب علينا أن ننظر تحت هذه الكلمات. العربي متهم بأنه يكثر الكلام على المعنى الواحد، ويأتي هذا المعنى الواحد بكلامٍ متعدد ولكنه واحد، هذا هو المتهم به وهذا اتهام باطل. صحيح أن المعنى قد يشترك فيه فرسان الكلام، قد يأتونه من جوانب متعددة، ولكن اختلاف اللفظ – هنا نقطة – **ولكن اختلاف اللفظ عند القدماء هو للمعاني الجديدة.**

وأول من يعلمنا هذا هو القرآن؛ فترى القصة الواحدة تأتي في مواطن متعددة، ويظن الظان بأن هذا من التكرار، والقرآن ليس فيه تكرار قط. وينفي علماؤنا في القرآن الترادف؛ كثير من علماء التفسير منهم ابن تيمية / ينفون الترادف، ما معنى الترادف؟ يعني الكلمة تأتي عقبها كلمة مثلها لا تزيد في المعني قط، هذا باطل.

لَمّا يقول "بسم الله الرحمن الرحيم"، لا بُدَّ للقارئ يبحث عن هذا. يقول الأستاذ محمد قُطب / عن أخيه سيّد بأن سبب عودته للقرآن هو خصومة لغوية أدبية بينه وبين أقرانه في هذه القضية، أقول أن الأستاذ محمد قُطب ذكر عن سبب هداية سيد قطب وعودته للقرآن – هذا المسألة –، فإن خصومة نشأت بينه وبين أقرانه الأدباء، وكان له مشاركة في الأدب ومعدود على مدرسة عباس العقاد، يقول بأن سبب عودته هو هذه المسألة :قالوا له بأن اللغة هذا هو شأنها، فعاد للقرآن من أجل أن يثبت نظريته بأن هذا الترادف غير وارد في لغة العرب، لا بد أن تبحث، حتى الحرف، يعنى حتى لما يأتي حرف واو في سورة الزمر بين حشر الكافرين وبين حشر المؤمنين فهذا الواو، ما هي؟ لا بُدَّ أن تحتها

علم وفهم، فتأتي القصة تكاد تكون متطابقة في دلالتها العامة، لكن تحتاج الكثير من المعاني. قصة مثلاً آدم عليه السلام في البقرة، على أي وجه؟ في الأعراف، على أي وجه؟ في ص، على أي وجه؟ وهكذا...

قصة موسى عليه السلام كم مرة تكررت؟ لا بُدَّ أن في تكررها معاني جديدة لا بد أن نبحث عنها. هذه القضية يجب أن تكون من مُسلّمات قراءتك لكتب السلف، هذه يجب أن تكون قضية حاضرة، وأنت تقرأ لا تقرأ كأنك تعد الرمل، بل تقرأ كأنك تختبر الجواهر؛ فرق، كأن هذا رمل لا قيمة له وفرق أن هذه جواهر تختلف، لها مقامٌ آخر، وهكذا.

وهنا هذا الذي أنشأ علم البلاغة: التقديم والتأخير..إلخ، ولما كتب الشيخ عبد القادر الجرجاني كتابه (أسرار البلاغة) طبّق الزمخشري هذه العلوم والقواعد على القرآن في كتابه (الكشّاف)، ولذلك كتاب المحمود جار الله الزمخشري (الكشّاف)، مع أن علماء أهل السُنّة أكثر الناس تحسساً من المعتزلة ولا يقبلونهم، إلا أن هذا الكتاب صار مرجعاً لهم في هذه القضية، في قضية البلاغة القرآنية. ما معني البلاغة؟ لماذا هنا أطال؟ لماذا هنا قصر؟ لماذا هنا قدم؟ لماذا هنا أخّر؟ وهكذا، لماذا أضاف هذا الحرف؟ لماذا لم يضف ذاك الحرف؟ لماذا تغيرت الكلمة، انفجرت عن غيرها؟ وهكذا. فهذا باب ينبغي أن ننتبه له.

أنا أريد أن أقف عند البلاغة في هذا الباب، انظروا إلى كلمة الشيخ التي قراها حبيبنا، انظر إليها، قال: "وينتمي إلى غير قبيل، إلى أن من الرب الكريم، البر الرحيم، الهادي من يشاء إلى صراط المستقيم" هذا التكرار لأسماء الله هذا تكرار العالِم الذي يريد أن يمدح الرب، هذا تكرار مهم، يريد أن يمدح الله عز وجل، فانظر إلى هذه "الرب الكريم، البر الرحيم، الهادي من يشاء إلى صراط مستقيم"، قال: "فبعثت له أرواح تلك الجسوم"، ما المقصود بالجسوم هنا؟ المقصود بالجسوم هنا كلمات الأصول في كتبها، هذا المقصود؛ فكانت هذه الكلمات في كتب الأصول مجرد جسوم، فهو يقرأها وهو لا يدري ما فيها من أرواح، ما هو أرواح تلك الجسوم؟ أي كلمات الأصول في كتب الأصول، ما هي أرواحها؟ أي معانيها، انظر إليه.

نحن على فكرة، أردت أن أنبّه أن لا أسئلة في الدرس، هذا مهم، ثم إذا انتهينا إن شاء الله نأتي، لأن هذا يضيع كثير من الوقت.

فيقول – عليه رحمة الله – "فبعثت له أرواح تلك الجسوم" أي بانت له المعاني الخفية الكامنة في تلك الكلمات في كتب الأصول، "وظهرت حقائق تلك الرسوم"، الرسم ما هو؟ الرسم ما هو ظاهر، الرسم هو الظهور، الرسم في اللغة الظهور (الارتفاع)، وذاك، يقال لكل شيء ارتفع وبان له الرسم، فيقول: "وظهرت حقائق تلك الرسوم" هذه الرسوم كان فيها معاني فظهرت له، ظهرت له تلك المعاني، فيقول: "وبدت مسميات تلك الوسوم" مسميات: نفس القضية، وسوم: الوسم هو العلامة، فبدت حقائق تلك الوسوم، بمعنى أنها بانت له وظهرت تلك العلامات.

"فلاح في أكنافها الحق واستبان، وتجلى من تحت سحابها شمس الفرقان وبان، وقويت النفس الضعيفة وشجُع القلب الجبان، وجاء الحق فوصل أسبابه وزهق الباطل فبان "

هنا أنا أن أنبه على قضية الهمة والإرادة في القراءة. العلماء القدماء كثيراً ما تعبوا في شيء حتى بان لهم وظهر، وهذا يدلُّ على أن هذا العلم لا يأتي إليك على صفحة من ذهب ولا يأتي إليك ذليلاً. هذا العلم، علوم الشريعة ووسائل الشريعة كاللغة وغيرها هذه علوم غنية وكريمة؛ ولذلك قال الله ﷻ عن القرآن: {فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ}، مكنون أي مخفي، فمن يُظهره؟ الذي يبحث. فهذا الدين وكتبه وعلومه لا تظهر هكذا، الآن يريد الناس أن يُعطَوا برشان، يعطوا حبة دواء فيأخذونها فيشفون من الجهل، يريدون هكذا. الناس الآن يأتي يذهب إلى الصيدلية، يقول له اعطني كتاب (صحيح البخاري)، فيأخذها حبة ويشربها فيصبح حافظاً للبخاري عالماً لمعناه.. إلخ .هذا هو جهل الناس اليوم، فإذا قلت لهم: اتعب، يقول أنا لماذا أتعب؟ هذا شيء سهل، وهكذا. فكأن الدين اليوم صار عند الناس مهاناً، لا يبذلون له.

العلماء القدماء لم يأتهم هذا العلم لأنه سهل عليهم وصار صعباً علينا، لا، لا، صعب عليهم، وصعب عليهم وقد بذلوا جهدهم وأوقاتهم وأجسامهم وتعبوا وكلوا حتى في جمع مادته. انظروا إلى هذا الفرق بيننا وبينهم، هذا فرقٌ كبير؛ أولاً هم تعبوا في جمع المادة، ثم تعبوا في فهمها، ثم تعبوا لتسهيلها من أجل أن يُفهموها غيرهم، هذه المراحل الثلاثة . نحن جمع المادة الآن لا قيمة له، لا وجود له، ما في جمع للمادة، المادة موجودة، كانوا يرحلون المفازات العظيمة من

أجل أن يسمعوا الكلمة ويجالسوا الشيخ ويطارحونه في العلم ويطارحهم فيه، أو يسمعون حديثاً أو يسمعون كتاباً يذهبون إليه.

ومن أجل هذا نشأت حالةٌ اجتماعية تُسمّى الرحلة في طلب العلم، هذه كانت حالة اجتماعية، يرحلون في طلب العلم ليسمعوا، نحن اليوم هذه الحالة، هذا المبدأ لا وجود له. المادة موجودة ما شاء الله، تذهب للسوق تشتري كتابا، لا تذهب للوراق ثم تذهب إلى الشيخ فتقرؤه عليه، المادة موجودة اليوم. فهذا من التسهيل الذي أراد بعده الناس – حين حصل لهم سهولة جمع المادة – أن يفهموها كذلك بالسهولة نفسها. الناس حينئذٍ يبقون في الجهل.

القصد أن نبيّن بأن العلماء السابقين لم يحصل لديهم العلم بالسهولة التي نتصورها، لأنهم كانوا علماء في العربية فيعرفون، لا، لا، أو لأنهم كانوا لهم جينات خاصة بعض الناس يتصور، لا ما في. العلم هذا غالي وكريم ومكنون، فيجب النبط، الاستنباط، يجب الفحر عليه، التعب: هذه الجملة لم أفهمها، هذا الموضوع لم أفهمه، فعلي أن ابذل جهدا من أجله، لا أتركه، أبذل جهدا حتى يرتاد أمره... طيب...

" وجاء الحق فوصل أسبابه، وزهق الباطل فبان، فأورد من أحاديثه الصحاح الحسان"

هنا طبعاً لا يقصد بالصحاح الحسان الأحاديث النبويّة، ولكن يقصد الأحاديث التي في هذا العلم، أي أحاديث العلماء. نعم..

"وفوائده الغريبة البرهان، وبدائعه الباهرة للأذهان؛ ما يعجز عن تفصيله بعض أسراره العقلُ، ويقصر عن بث معشاره اللسان"

هذه قالها الشافعي من قبل، وهذا ضد ما يعرفه الناس من كلام العرب، وأنا ذكرت هذا في تعليقي على الحمد، ولكن الآن أبيّنه تبيينا مهما، أنا أريد فقط، لماذا أقف كثيرا؟ لن أقف كثيرا فيما سيأتي وسيكون البحث عن مواضيع العلوم .هنا الكلام في المقدمة عن طرائق العلماء وعن قراءة كتبهم وعن طريقة تصنيفهم، لأن هذه المقدمة هي كاشفة للأحوال، كاشفة لأحوال الإنسان، كاشفة لأحوال المجتمع، كاشفة لأحوال العلوم كما ترون. الشافعي له كلمةٌ عظيمة ترددت هنا على لسان الشيخ أبي إسحاق / أنه قال إن هناك من المعاني في القلب ما لا يستطيعه اللسان الإبانة عنها.

يعني، هذا الشافعي الذي قال أهل اللغة أنه حجة في الكلام، ولهذا قالوا أن الشافعي يحتج به، فلما عاب بعض أهل العلم عليه بعض كلمات كقوله: "ماء الملح" مثلاً، قالوا هذه ليست في العربية، ردوا عليهم قالوا اسكتوا، لأنه قالها فهي حجة، فالشافعي يحتج به. ويكفي كلمة الأصمعي أنه أخذ شعر الهذليين عن فتى من قريش في مكة اسمه محمد ابن إدريس الشافعي. فالشافعي، هذا الرجل العظيم الذي قال عنه إمام الأدب الجاحظ، قال عنه قرأت في كلام هؤلاء النبغة فلم أر أحدا يقول مثل قول هذا الرجل، أو في معنى الكلام، كأنه يقول: كأنه ينثر الدر.

انظر الناس لا يتمتعون فقط في العلوم، يتمتعون في صياغة العلوم، كيف صيغت، وكلما أبدع الرجل في صياغتها كان عالما. طيب. الشافعي يقول أن هناك من العلوم في قلبه ما يعجز اللسان عن الإبانة عنها، هذه المعاني هي التي تُرَقِّي الإنسان وتجعله ينظر إلى الحياة أولاً نظرة حقيقة لأنه يتلذذ بما في صدره، ثانياً، أنا لا أريد أن أقول، أن أصل إلى ما وصل إليه الصوفية نعوذ بالله بأن المعاني على خلاف الشرع وهذا ذلك، هذا غير صحيح. هذه المعاني هي معاني إيمانية عظيمة، ومعاني معرفية عظيمة، وبالتالي هذا ما يصيب العلماء من الحزن أن الناس لا يفهمون. وهو يتألم، يأتي إلى الناس يتكلمون وهو يتألم، فهمتم الكلام؟ يتألم لأنه يعرف هذه المعاني في قلبه، ولما يريد أن يشرح يجدون كلامه ليس عليه الدليل لأنهم لم يفهموه، وهو قد عجز عن الإبانة.

تتصوّروا المشكلة أين هنا؟ مضاعفة: هم هذه الكلمات لا تصل إليهم وهو يعجز عن الإبانة، يحاول أن يقرب إليهم المعنى، هذا هو؛ هذه تصنع الغربة. والغربة – خذوا هذه الكلمة – قَدَر العلماء الربانيين. هذه الكلمة يجب أن تفهموها في سير علمائنا، الغربة ليست الغربة التي يقع فيها الفتنة بينه وبين الناس والبلاء، لا، ليس هذا. هذا موجود وأغلب علماؤنا وقعوا في هذا في آخر عمرهم؛ في آخر عمرهم أصابهم البلاء من الناس ومن الأقران، وهذا تفكرت فيه كثيراً، لماذا؟ لماذا في آخر عمر ابن تيمية يموت في السجن لماذا؟ لماذا البخاري في آخر عمره يموت في خرتنك، قرية ليس فيها أحد، متألماً من أهل بلده يكاد أن يكون مطروداً، لماذا يقع هذا؟ ففكرت في هذا والله كثيراً ثم بان لي معناه – أو أظن أنه بان لي معناه – وهو أن الله ﷻ يريد من هؤلاء العلماء أن يصيبوا شيئاً من الحالة النبوية عند الممات.

أن يموت العالم شهيداً هذه انتهينا منها: يموت شهيداً، وهؤلاء لهم مقاماتهم، لكن كيف يحقق العالم الذي يموت بغير شهادة، كيف يحقق بعض معاني النبوة عند الممات، كيف؟ هذه هي. ما من نبيٍّ – يقول البعض أن هذا خروجٌ

عن الكتاب، هذا ليس خروجاً عن الكتاب، هذا يعلمكم كيف تقرؤون كلام العلماء ويعلمكم كيف تفهمون أحوالهم وكيف كتبوا كتبهم؛ إن لم تعرف نفسية المتكلم فأنت لم تعرف شيئاً، الكتاب هو ظل نفسيته كما أنه ظل عقله، هذا مهم أن تعرف أن الكتاب هو كاشف لنفس الكاتب قبل أن يكون كاشفا لما يدور في عقله – أعود إلى النقطة التي نحن فيها، ما من نبيٍّ لا جميعاً إلا وقد خُيِّر بين الدنيا والآخرة، وهذا في الحديث الصحيح. كلهم جاء لهم الملك وطلب منهم هل تريدون الحياة أو الموت؟ فعندما يحضر قدر الله يختار الأنبياء كلهم الموت، وهذا وقع مع سيد الأنبياء وحبيبنا ونبينا وإمامنا المصطفى ﷺ فقد خُيّر، كما في الحديث الصحيح، أنه وقف على المنبر وقال عبد خُير بين الموت والحياة فختار لقاء ربه فبكى أبو بكر، تعرفون القصة. فكيف يحصل العلماء على هذه المرتبة أو شيئاً منها؟ الله يبتليهم عند الممات بحيث يكرهون الدنيا ويتمنون الموت، وهذا معنى من معاني النبوة عند الموت .مفهوم الكلام هذا؟ الإبانة أي أن يفهم المرء – هذه غربة – ثم الغربة أن يتكلم بهذا فيريد أن يوصل إليهم المعنى فيعجز، هذه تصنع الغربة. هذا معنى غربة العلماء بالنسبة لعلومهم بخلاف ما تقدم من غربة البلاء الذي يقع من غربة الجهلة عليهم. هنا فقط ماذا قال؟ شرح هذه الكلمة وهو قوله: "ما يعجز عن تفصيل بعض أسراره العقل"، هو فهمها، لكن هو فهمها فَهْم الاحساس القلبي وتلذذ بها، شعر أن فيها المعاني، كيف هي في داخل عقله يكاد أن يرتبها فتنطرد، لا تتلاءم، فتعود إلى القلب. انتبه إلى ما قاله: "ويقصر عن بث معشاره اللسان" لأنه هو أصلاً في العقل يكاد لا يُصاد، لأن العقل صيد، يصيده، اخذه ما امكن من المعنى، ولكنه يتفلت من العقل إلى القلب وبعد ذلك كيف يبين عنه في اللسان؟ عجز اللسان، هكذا يقول علماء اللغة، علماء البيان، أسياد الكلمة، يقولون هذا فعليك أن تفهمها، عليك أن تقرأ كتب أهل العلم على هذا المعنى :أن هناك من الهوامش ما يضرب عليه العالم ضرباً رقيقاً ويعود، لأنه لا يستطيع أن يخوض فيه، وبعضهم يعترف، تقرؤون لابن القيم مثلاً في مثل التوبة – ذكرتها مرة لكم – يقول: عندي شيء لا أستطيع أن أبيّن عنه، لا أقدر، لا أستطيع، يعجز اللسان عن الإبانة عنه، ولو بَثَثْتُه بكلامي ربما فُهِم على معنى آخر من الضلال، يهرب، يقول لا أريد أن أورط نفسى فيه. طيب، أكمل.

"إيراداً يميز المشهور من الشاذ، ويحقق مراتب العوام والخواص والجماهير والأفذاذ، ويوفي حق المقلد والمجتهد والسالك والمربي والتلميذ والأستاذ"

هذا — انتبهوا – هذا هو من تربية القرآن لعلمائنا، هذا هو. إذا دخل المرء على مائدة القرآن لا يمكن أن يخرج منها بغير فائدة، كان عالما نحريرا عاقلا مدركا، أو كان عيياً جاهلاً، لا يمكن أن يخرج بغير فائدة، فالذي يدخل على الطعام – ومائدة الرحمن وهي القرآن – فيدخل عليه، فكل يصيب منه مقدار فهمه، حتى الذي يدخل — انتبهوا – على القرآن لا يريد معرفةً سوى أن يردد على لسانه كلام الرب جل في علاه يخرج منه بفائدة، كما يدخل الأعجمي عليه، فيقرؤه، فيقرأ القرآن فيعطيه القرآن هذه اللذة العظيمة التي يحسها في قلبه.

هذا هو فنٌ أدركه علماؤنا فتكلموا كلاماً: إذا دخل عليه العالم رأى فيه جمالاً خاصاً وأنواراً لا يدركها إلا هو، يرى هذا، والجاهل يدخل عليه فيقرأ كلاماً عاماً يردده، ونحن بلا شك من المرتبة الثانية، هذا بلا شك فيه، والناس في هذا الزمان، هذه مرتبتهم، مهما علت هذه مرتبهم، فقط يأخذون الظواهر والكلمات البينة، لا يغوصون في المعنى الأول. فالقصد من هذا أن العالِم الحق هو الذي إذا جلس إليه الجاهل أخذ منه الفائدة، لا يخرج بغير فائدة، وإذا دخل عليه العالِم يخرج منه بفائدة، وكلا يخرج وقد أخذ منه شيئا من حاجته. واضح؟ وهذا الذي قاله.

وعلماؤنا – يعني العلماء السابقين – ألفوا في هذا لمراتب الناس: في الفقه ترى (بداية المجتهد ونهاية المقتصد)، وهذا الكتاب يضع أن هذا مرتبته فقط بداية المجتهد، وذاك أقامه غير ما قام الرسالة التي كتبها أبي زيد القيرواني. الرسالة لماذا كتبتها يا أبا زيد؟ قال: كتبتها، كتب هذه الرسالة – وهي فقه المالكية وفيها من العقائد – كتبها للأطفال، حتى يحفظوها للأطفال، لماذا كتبها؟ لانتشار الزندقة، الباطنيون، القرامطة الإسماعليين، غلبوا على المغرب وصار لهم سلطان فأراد أن يحمي الأولاد فكتب هذه الرسالة. انظر، هذا عطاء العلماء في كل باب، لا يتركونه، رحم الله علمائنا. تفضل...

"على مقاديرهم في الغباوة والذكاء والتواني والاجتهاد والقصور والنفاذ، وينزل كلاً منهم منزلته حيث حل، ويبصره في مقامه الخاص بما دق وجل، ويحمله فيه على الوسط الذي هو مجال الاعتدال، ويأخذ بالمختلفين على طريقٍ مستقيم بين الاستصعاد والاستنزال؛ ليخرجوا من انحرافَي التشدد والانحلال، وطرفَي التناقض والمحال؛ فله الحمد كما يجب لجلاله، وله الشكر على جميل إنعامه وجزيل إفضاله. ولمّا بدا من مكنون السر ما بدا ووفق الله

الكريم لما شاء منه وهدى لم أزل أقيد من أوابده، وأضم من شوارده تفاصيل وجملاً، وأسوق من شواهده في مصادر الحكم وموارده مبيّناً لا مجملاً"

هنا يكشف لنا الشيخ رحمه الله، يكشف لنا طريقة تأليف كتابه، وهذه إحدى طرق تصنيف العلماء، بل تكاد تقول بأن الكتب العظيمة من مصنفاتهم جرت على هذا المعنى. وهو يقول أنني هكذا كنت افعل؛ الأوابد هي النادة، معنى الأوابد: النادة، وهي خلاف المدجنة، إذا ند البعير قيل عنها أوابد، يقال لحيوانات الغابة التي لا تدجن أوابد، واضح؟

فهو يقول بأنني كتبت هذا الكتاب على طريقة الجمع، يعني هو لم يجلس ليصنف الكتاب تصنيفاً حاضراً في ذهنه ويكتب فيه، وإنما كان على مدار سنين، ولو كشف لنا كم مكث في تاريخ الكتاب لكان حسناً. وهذا يدل على أنه جمعه جمعا متفرقا. يخطر علي باله الموضوع فيكتب فيه، يستمع من عالِم نكتة علمية فيجمعها ويضعها، وهكذا حتى تكّون لديه هذا الكتاب. والعلماء يمكثون السنين الطوال في الكتاب الواحد. لا تظن أنهم جمعوا بسهولة؛ الامام البخاري بدأ جمع كتابه (التاريخ الكبير) وعمره ١٦ سنة. هذا الكتاب المبهر العظيم في ١٦ سنة بدأ يجمعه: يكتب، يجمع وهكذا. العلماء كانوا يبذلون السنين الطوال في جمع كتبهم، وليس كما نتصور اليوم :جلس على المائدة وبدأ يكتب وهكذا.. لا، لا، هذا لا وجود له. وهو يقول: "لم أزل أقيد من أوابده، وأضم من شوارده تفاصيل وجملاً، وأسوق من شهواده في مصادر الحكم وموارده مبيّنا لا مجملاً، معتمداً على الاستقراءات الكلية، غير مقتصر على الأفراد الجزئية، ومبينا أصولها النقلية بأطراف من القضايا العقلية" **هنا هذه ضع تحتها خط لأنها مَيزة هذا الكتاب** . وكتب الأصول عامة قلما.. أنا في الحقيقة لم أرَ في كتب أصول المتقدمين احتجاجاً – انتبهوا لهذا حتى تعرفوا كتب الأصول – لم أرَ في كتب الأصول المعروفة والمشهورة احتجاجاً – إلا في (الفقيه والمتفقه) موجود في (جامع بيان العلم وفضله) لأبي عمر ابن عبد البر موجود، ولكن أتكلم عن الكتب المشهورة – لم أجد فيها قط احتجاجا على أصل من الأصول بالنقل. ما معني هذا؟ معناه عندما يتكلم العالم عن مسألة أصولية، هل يحتج لها بالنقل؟ الأغلب لا وجود لهذا أبداً. فمن ميزة هذا الكتاب أنه يحتج للأصول بالفروع، –الفروع وهو النصوص، واضح؟ هذه قضية مهمة.

وليت عالماً نحريراً ينشط لهذا؛ وهو أن يُخرّج الأصول على الفروع، كما خرج الحنفية أصولهم على فروع إمامهم؛ كيف يحتج للأصول بالكتاب والسُنّة. ونحن ذكرنا في الدروس السابقة بأن من أصول الأصول –ما هو؟ – الكتاب

والسُنّة، واعتضنا عنهم بكلمة "التاريخ" لتكون أوسع، بعد ذلك هو يقول: "غير مقتصر على الأفراد الجزئية، ومبيّناً" أي ماذا؟ أصول الفقه "أصولها النقلية بأطراف من القضايا العقلية" وهذا ما تقدم أن أصول الفقه جمع لهذه النوعية.

" حسبما أعطته الاستطاعة والمنة، في بيان مقاصد الكتاب والسُنّة، ثم استخرت الله تعالى في نظم تلك الفرائد، وجمع تلك الفوائد، إلى تراجم تردها إلى أصولها"

المقصود بالتراجم: عناوين الأصول، تراجم يعني فصول جامعة للمعاني الواحدة، وضعها تحت فصل واحد، ويضع لها عنوانها المبين لها.

"وتكون عونا على تعقلها وتحصيلها؛ فانضمت إلى تراجم الفصول الفقهية، وانتظمت في أسلاكها السَّنية البهية؛ فصار كتاب منحصر في خمسه أقسام:

طيب هل هذا يكشف لنا شيئاً؟ هذا سؤال سهل لكن ينبغي نقف عنده. عندما تكلمنا عن المقدمات، هذه تدل على أنه كتب هذه المقدمة قبل الكتاب أو بعده؟ بعده .تدل أنه كتب هذه المقدمة بعد أن انتهى من الكتاب. وهنا قلنا ان المقدمة قد تُكتب قبل وقد تُكتب بعد الكتاب.

"الأول: في المقدمات العلمية المحتاج إليها في تمهيد المقصود"

لماذا قلت مرة أن مشايخنا لا يفوتون شيئا. يقول، لما يكتب العلماء مثلا" :فأما بعد، فإن هذا الكتاب" – انتبهوا–، الناس يتساءلون: أنت تكتبها قبل أن تكتب الكتاب، فلم تقول : "فإن هذا الكتاب"؟ وفهذا من كلام الله، {الم ۝ ذَلِكَ الْكِتَابُ}، أي كتاب؟ فيقولون – لهم تخريجات جميلة في هذا –، يقولون أن مجرد حضوره في الذهن كاف للدلالة عليه والإشارة إليه، واضح؟ أكمِل، هذا فقط من منافع قراءتنا للمقدمات.

"والثاني: في الأحكام وما يتعلق بها من حيث تصوّرها والحكم بها أو عليها، كانت من خطاب الوضع أو من خطاب التكليف"

هذا سنشرحه. أنتم لا بُدَّ أنكم عرفتم أن الأحكام الشرعية تقسّم إلى أحكامٍ وضعية وأحكام تكليفية، هذا معروف ويأتي إليها إن شاء الله.

"والثالث: المقاصد الشرعية في الشريعة وما يتعلق بها من الأحكام"

وهذا هو الذي ينشط أغلب القارئين والباحثين له، لهذا الكتاب. لماذا ينشط لكتاب الموافقات؟ لهذا البحث الثالث، وهو المقاصد وقد تكلمنا فيه.

"والرابع: في حصر الأدلة الشرعية وبيان ما ينضاف إلى ذلك فيها على الجملة وعلى التفصيل، وذكر مآخذها، – أي وذكر أصولها – **وعلى أي وجه يحكم بها على أفعال المكلفين. والخامس: في أحكام الاجتهاد والتقليد، والمتصفين بكل واحد منهما، وما يتعلق بذلك من التعارض والترجيح والسؤال والجواب"**

في الحقيقة هذا هو أجّل ما في علوم الأصول، وللأسف هو أقل ما يُبحث فيه في علوم الأصول. هذا الترجيح والجمع، هذا أجّل ما في علم الأصول ولكنه لأنه لا ينقضي – انتبهوا لهذا، وهذا أقدمه الآن لعله لا يطول بنا العمر فنُتِم الكتاب فنصل إليها، لكن نسأل الله أن نتمه – هذا أجل ما يُنشط له في علم الأصول، وهو أقل ما يُبحث فيه،بل ربما لا يتعدى الصفحة والصفحتين من كتب الأصول ثم يسكتون. لماذا؟ لأنه لا ينتهي. لا يوجد أبداً قُدرة أن يجمع عالِمٍ كيفية الترجيح لدى علمائنا، هذه لا تنتهي: كيف يرجح هذا الحديث على هذا الحديث، يمكن أن نقول الصحيح على الضعيف، يمكن أن نقول الناسخ على المنسوخ... إلخ. لكن أن تنتهي، هذه لا تنتهي. وهنا كأنهم يقولون هذا علمك أيها المجتهد، فقط أنت اقرأ كيف رجح العلماء وأنت رجح، قد يأتي لك ترجيح آخر، هذا علمك، هذا الآن هو شأن عقلك وقلبك، هذا هو شأن قدرتك، هذا دورك. كأنه يقول: علمتك القواعد والآن جاء دورك، اركض !أنت تدربت الآن اركض، أنا أتركك في الساحة وحيداً، هذا هو عملك، لا يكون معك الشيخ، واضح؟ كالذي يُدرب من أجل المباراة، فيدربه حتى ينزله في الساحة، في هذه الساعة يقول له هذا شأنك، دبّر حالك، انتهى دوري. فهنا تأتي تطبيقاته. ولذلك لا تنتهي فهي متروكة له. وهو من الصعب، وقد فكرت – العبد الفقير – هل يمكن أن يُجمع؟ فوجدت أن هذا لا يمكن أن تنتهي، لا يمكن أن يضبط، وربما لو جمعها جامع من كلام السلف في الترجيحات ربما يقربها إلى المبتدئين من أمثالنا، لكن على الجملة هي فن العلماء. واضح الكلام هذا؟

"وفي كل قسم من هذه الأقسام مسائل وتمهيدات، وأطراف وتفصيلات؛ يتقرر بها الغرض المطلوب، ويُتقرب بسببها تحصيله للقلوب. ولأجل ما أُودع فيه من الأسرار المتعلقة بهذه الشريعة الحنيفية سميته ب (عنوان التعريف بأسرار التكليف)"

هذا هو اسم الكتاب، وهنا مبحث يتعلق بعلم التحقيق. ولأنها من مشاكل التحقيق لا أتكلم عنها كثيرا ولكن أنصِبُ عليها دليلاً وأنصب عليها علامة، وهو" :عنوان الكتاب". تجدون أن الكتب المطروحة في الأسواق على أيدي المحققين اليوم، تجد الكتاب الواحد له أسماء، وحتى هذا، يعني مثلا المشهور لهذا الكتاب هو (الموافقات في أصول الشريعة)، من أين أتى بكلمة "أصول الشريعة"؟ هذه زيادة من المحقق. لم يُرد الكاتب أن يضع الموافقات على هذا. سنرى لماذا وضع كلمة «الموافقات». فهناك أبواب علمية لمعرفة أسماء الكتب. أول ما يصار إليه، إلى المقدمة، لأن المقدمة قد يُذكر فيها اسم الكتاب. مرات الكتاب بين أيدينا ولا نعرفه اسمه، فيقع الاختلاف. فأول ما يُعرف به ماذا سمى الإمام كتابه وقد يظهر هذا في المقدمة، واضح؟

وأسماء الكتب فنون العلماء. وكما قلنا عن قضية المقدمة أنها مهمة لأمرين، قلنا الأمر الأول أنها مكان من أجل إبراز قدرة العالم، مش هيك قلنا؟ وهي كاشفة لنفسيته. فكذلك العناوين، لها أسرارها عند العلماء. المهم ماذا أراد الإمام؟ قال: "عنوان التعريف بأسرار التكليف"، التعريف بماذا؟ التعريف بالأصول، أسرار التكليف :كيف يدرك المرء بهذه الأصول أسرار التكليف.

"ثم انتقلت عن هذه السيماء بسند غريب، يقضي العجب منه الفطن الأريب"

الآن هو يريد أن يبيّن لنا لماذا غيّر العنوان.

"وحاصله أني لقيت يوما بعض الشيوخ الذين أحللتهم مني محل الإفادة، وجعلت مجالسهم العلمية محط للرحل ومناخا للوفادة"

المناخ هو ماذا؟ من أناخ، قام، لهذا في الحديث: " مِنى –المعروفة– مُناخ لم سبق" وهذا عند أهل العلم دليل على عدم جواز البناء فيه والتملك.

"وقد شرعت في ترتيب الكتاب وتصنيفه، ونابذت الشواغل دون تهذيبه وتأليفه؛ فقال لي: "رأيتك البارحة في النوم، وفي يدك كتاب ألفته فسألتك عنه، فأخبرتني أنه كتاب (الموافقات)، قال: فكنت أسألك عن معنى هذه التسمية الظريفة، فتخبرني أنك وفقت به بين مذهبي ابن القاسم وأبي حنيفة"

هنا المالكية ينسبون مذهب مالك لابن القاسم، لأن ابن القاسم هو من نقل فقه مالك إلى الغرب، وعند المالكية: مالكية المشارقة ومالكية المغاربة، وهذا يعرفه أصحاب المذهب، وهم بينهم ترجيحات. القصد أن المغاربة أخذو فقه مالك من ابن القاسم . نعم

"فقلت له: لقد أصبتم الغرض بسهم من الرؤيا الصالحة مصيب، وأخذتم من المبشرات النبوية بجزء صالح ونصيب؛ فإني شرعت في تأليف هذه المعاني، عازما على تأسيس تلك المباني، فإنها الأصول المعتبرة عن العلماء، والقواعد المبني عليها عند القدماء"

هل الكتاب، نحن لم نقرأ الكتاب، لكن هل حقاً أن الكتاب على هذا؟ أنه توفيق بين مذهبي الحنفية والمالكية؟ ثانياً لماذا فقط الحنفية والمالكية؟ تعجبون إذا قلت لكم أن ابن قُتيبة في كتابه (المعارف) ذكر أن مالكا من أهل الرأي، وهذا عجيب، لأن المشهور أن مالكا من مدرسة أهل الحديث. ولكن دعونا نقف –وهذه مسألة في الأصول ومن قواعد معرفتنا لأصول العلماء، انتبهوا لهذا –لو رأينا الصراع بين الأثر على المعنى الذي يدخل فيه كلام النبي ﷺ وكلام الصحابة وكلام التابعين، هذا معنى الأثر، لو أن رأينا القسمة بين الأثر وبين القياس — انتبهوا –، من الذي يضَيق باب الأثر **لأسباب،** ومن الذي يوَسّع الأثر لأسباب؟ كيف؟ من الذي يوسع دائرة الأثر ومن الذي يضيقها بين الأئمة الأربعة؟

على هذا تستطيعون أن تقولوا أن هذا العالِم من أهل الرأي، لأنه ضيق دائرة الأثر، وتقولون أن هذا العالِم أثري – مش أثري على جهة المدح والذم، أثري الناس يقولونها بمعنى رجل مطلع على الكتاب والسنة، وهذا الكلام الفارغ الذي يقولونه اليوم الذي يتاجرون به والشعارات – ولكن إذا ضيق العالم دائرة الأثر، بمعنى أنه وسع دائرة القياس والرأي.

طيب، هل مالك ممن يوسعون دائرة الأثر أم يجعلون على الأثر قيوداً أشدّ من غيرهم؟ ممن يوسع دائرة الأثر ولا يجعل عليها هذه القيود. هذه هي الحسبة

إن تفكرتم وجدتم أن مالك ممن يضيق الأخذ بالأثر، بماذا يضيق؟ لا رفضاً له، ولكن لوضع قواعد شاقة في الأخذ منه.

يعني يا مالك لماذا لا تأخذ بحديث أهل العراق؟ قال: "حديث أهل العراق عندنا بمنزلة أهل الكتاب"، ويقول إذا جاوز الحديث الحارتين ذهب مخه، الحارتين يعني المدينة. فهو رجلٌ إذاً.. هذا تضييق دائرة الأثر.

من أجل هذا لما جاء الشافعي وقال كلمة – هذه فائدة من ابن تيمية، هذه النقطة (الكلمة) فائدة من ابن تيمية – قال الشافعي لأحمد قال: "إن صحّ عندك الحديث شامياً كان أو عراقياً أو مصرياً" ولم يذكر المدني، هذه فائدة من ابن تيمية، يقول: ولم يذكر الشافعي لأحمد كلمة الحديث المدني، لأنه متفقٌ عليه، ما فيه خلاف، ولَمّا قال شامياً لأن هناك قيود للآخرين عليه، ولما قال عراقياً لأن الآخرين لهم قيود عليه، بخلاف الحديث المدني فليس عليه قيود. فإذن مالك ضيق أووسع دائرة الأثر؟ ضيق. عندما يرد مالك بعض الأحاديث لأنها ليست من عمل بلده، ليست من عمل أهل المدينة: "ليس عليه أهل بلدنا"، عندما يُسأل عن العقيقة فيقول بدعة، لماذا يا مالك؟ لأنه ليس عليه أهل بلدنا. لما يرد حديث (البيعان بالخيار ما لم يتفرقا)، ليس عليه أهل بلدنا. وابن ابي ذئب شد النكير على مالك في هذه المسألة.. إلخ، ليس هذا موطنه.

فإذاً ضيق مالك، فإذن هو في الحقيقة من أهل الرأي لأنه ضيق دائرة الأثر، و معاصر مالك – أبو حنيفة – كان كذلك، فأبو حنيفة كان كذلك؛ انظر إلى تقييداته في الأخذ بالأثر، تقييدات شديدة: إذا لم يوافق الأصول، إذا هذا الحديث لم يوافق القياس، إلى غير ذلك. ترون قلة الأخذ بالأثر لأصولهم ولأسبابٍ علميةٍ عندهم.

جاء الشافعي ليصنع التوازن، ومن أجل هذا – انتبهوا –، لو سأل سائل لماذا ألف الإمام الشافعي كتاب (الرسالة) لكان هذا الجواب؛ وهو أنه لما رأى هذا التضييق على الأثر لأسباب عند الطرفين، وذهب، ورأى أن هذا ينبغي أن يُفتح، الناس لازم تنفتح على بعض، لازم أهل الرأي وأهل الحديث والمشاكل يللي بينهم لازم تفتح في مجال،

فجاء ووسع دائرة الأثر. ولذلك الشافعي كان من أهل الأثر لأنه وسع دائرة الأثر وقلل القياس، وقال عنا لقياس إنه كأكل الميتة عند فقد الطعام" – مش هيك؟ هذه كلمته –، فلما يفقد الأثر (الحديث) نذهب إلى القياس، وأي حديث يصح من أي طائفة أخذناه. الإمام أحمد حتى زادها وذهب إلى ما لم يذهب إليه الشافعي وقال: "الحديث الضعيف أحبُّ إلينا من الرأي"؛ وسع. وصار قول الصحابي حجةً، لماذا؟ يقللون الرأي، يبعدون عن الرأي، أسلم لنا وأسلم لديننا. فإذن، هاتان دائرتان.

الآن بماذا اجتمع مذهب مالك مع مذهب أبي حنيفة؟ اجتمعا بهذه القضية والتي تكلمنا عنها. ولذلك لم تأت في الرؤيا، لم يذكر الشافعي ولا غيره، فالمشكلة بين هاتين الطائفتين ممن لهما شديد نظرٍ في البحث وفي الأثر، وشدة تقييد في أخذها، ولا شك أن الشافعي صنع هذا التوازن – عليه رحمة الله – بين هؤلاء وبين هؤلاء، *وأعظم ما أنتجه الشافعي* هو أنه أولغ العقل (أدخل العقل جوا) من أجل عقلنة النص. هذه عبارة ممكن الناس يستنكرونها مني ولكنها حقيقة؛ لأن – انتبهوا، كيف عقلنة النص – ليس على طريقة المحْدَثين من الزنادقة ومن أهل البدع، لا، ولكن على طريقة الناس المهتدين. وهذه مسألة مهمة جدا، مسألة حتى لها تعلق بعلم العلل.

للأسف انتشرت اليوم بدعة عظيمة، هذه البدعة هي قولهم بأن *الحديث لا يُعَلَّل من جهة المعنى*، وأين دائما نظر في المحدثين في رد الحديث؟ في السند. فإذا جاء آتٍ وقال أرد هذا الحديث لمعناه، عدُّوه من أهل البدع. وهذه فرية كبيرة، فرية بلا مرية كما يقولون؛ فإن من أعمال السلف العظيمة هو رد الحديث بالمعنى، ولكن ليس على طريقة المعاصرين أن يُرد للمعاني الباطلة. واضح الكلام؟ الآن نرجع إلى الشافعي، ماذا فعل الشافعي؟ كان أهل الرأي يردون الحديث استحسانا، لأنه لا يوافق الرأي، هذا الحديث يقول: القياس لا يقبله، يعني القياس لا يقبل هذا الحديث، ماذا يفعل الشافعي إن صح الحديث؟ يذهب إلى عمق معناه ليجعل معناه هو العقل، **ولا يجعل للعقل تسليماً دون إدراك؛** لا يجعل عقلنة النص مجرد أنه يقول: هذا هو الحق وانتهى، لا، يُجري الحديث على معنى العقول التي تقبله، حتى لو أنه خوطب بغير نص أو بغير قال رسول الله ﷺ لعلِم العقل أنه صحيح؛ هذا هو الشافعي.

ولذلك قال الإمام أحمد كلِمته، قال: كانت أقفيتنا بيد أهل الرأي. هل يردون الحديث؟ يقولون كيف تأخذ الحديث؟ هذا الحديث متناقض، هذا الحديث يناقض هذا الحديث، لا يتوافق مع حديث آخر، فكيف تأخذونه

والتضارب بينهما واضح؟ لابد أن يُرد أحدهما. فأهل الرأي مساكين ساكتين، يقولون يا جماعة هذا الطريق صحيح، كيف تردونه؟ لكن يسكتون. هذه طريقة من التعبّد مقبولة، لكنها ليست طريق العلماء الربانيين، ليست طريق الفحول، واضح؟

ولذلك أعظم العلماء هو من أدرك النص تعبّداً لله ثم أدركه من جهة العقل أنه هو الصواب، واضح؟ هذا ليس سهلاً. اليوم أحاديث كثيرة تسوق بين الناس ويأتي المبتدع فيردها من جهة العقل، ولكن العقل الباطل. وانتشر هذا فصار مجرد بحث في النص من جهة العقل، صار بدعة. وكثير من الحقائق العلمية – وهذه نقطة مهمة أرجو أن تُفهم – تركها المتعبدون وأعرضوا عنها وجعلوها باطلة بسبب توغل أهل الباطل فيها وبسبب رفع أهل الباطل هذه الحقائق شعارات لهم، وأفسدوها. يعني الكلام عن المصلحة اليوم، لما أحد يتكلم عن المصلحة في في الفقه كأن يأتي منكَراً من القول وزوراً. مثال قضية الأصوات، أن نعد الأصوات؛ لأنها سمة أهل الديموقراطية والمبتدعة فكأنها جريمة أن نعد الأصوات، مع أن النبي ﷺ فعل ما هو أقل منها في إدراك المعاني والحقائق وهي القرعة، وقال الشافعي "القرعة قمار" فأظهر له حديث للنبي ﷺ في القرعة في الرجل الذى أعتق خمسة أو ستة من عبيده بعد أن مات – ولا يجوز أن يُعتق أكثر من الثلث – فأقرع بينهم النبي ﷺ جعل (اثنين، اثنين، اثنين) ثم أقرع بينهم فهذه قرعة. في الدلالة على الحق قرعة، فهل القرعة أكثر دلالة في معرفة الصواب في عد الأكثرية أو الأقلية فيما فيه مجال للرأي؟ نحن لم نتكلم عن الأكثرية في مقابل النص، فالأكثرية في أعمال قدرية، ما دخلها، من يُعتق؟ لا بُدَّ أن نعتق الثلث وليس كل العبيد، "الثلث والثلث كثير"، فالنبي أقرع بينهم، فيما هو حق، في أعمال إدارية وأعمال تنظيمية وهكذا. فصارت بعض الأعمال – لأنها من أعمالها البدع – صارت عندنا باطل، منها هذه المسألة وهي أن نعقلن النص: النص نتكلم عليه من جهة العقل أو نرد نصاً لأن الدين لا يقبله؛ يعني، أضرب لكم مثالاً مهما هو تصحيح حديث المطهرة، يعني لا يجوز في ديننا –انتبهوا– لما نقرأ حياة الصحابة مع الرسول ﷺ، لا نجد أن الذين يتبركون به هم كبار الصحابة، يعني لا نعرف أن أبا بكر تبرك من النبي من بدنه، ولا نعرف أن عمر تبرك من بدنه، مع أنه مشروع، التبرك بآثار النبي ﷺ أمر سُنّي وجائز ومستحب، لكن لا نعرف أن كبار الصحابة قد فعلوه، ولا نعرف أن كبار الصحابة يوماً طأطؤوا فقبّلوا قدم النبي ﷺ مع أن بعض الصحابة قَبّلوا قدم النبي ﷺ وهو مشروع، ولا نعرف أن كبار الصحابة قد قَبّلوا يده، لم يرد هذا وإنما معروف أنه قد حدث أن قُبلت يد النبي ﷺ من قِبل جارية أو من قبل أعرابي يقدم، إلى آخره، فإذاً لَمّا نقرأ هذا فتكون لدينا قاعدة ثم يأتي شيخ كائن من كان فيصحح حديث الميضأة ، وهو "أن النبي ﷺ كان يذهب إلى ميضأة

الناس فيتبرك من آثار وضوئهم"، فيأتي واحد ويحسنه ويصحح هذا الحديث من جهة السند! هذا باطل، باطل أصله من أوله لآخره باطل لا يصح، أن النبي صلى الله عليه وسلم العظيم يذهب ليتبرك من آثار أتباعه! أين هذا؟ بالمقدمة التي تكلمنا فيها فإذا ردَّ هذا الحديث على المعنى كان مصيباً الرجل، وكثيرا ما رد العلماء –انتبهوا هنا أنا لا أريد أن أفتح الباب لأنه باب ضيق وباب علمي دقيق هذا في المصطلح، صحيح في المصطلح ولكن أذكره الآن – لا بُدَّ من وجود علة في السند. يأتي شيخ وبده... يعني انتبهوا لهذا الإجرام! إجرام في دين الله لأنه كلام عن ذات الله، فيصحح الشيخ حديث الصورة: (إن الله خلق آدم على صورته) ويُرجع الضمير إلى الله! نعوذ بالله، ثم بعد ذلك يقول لا نمثل ولا نشبه، يعني هو يريد أن يقول: إن الله خلق آدم على صورة الله، قال: من غير تشبيه! شو سويت إنت! ويصحح الحديث، هذا حديث باطل، مكذوب وسبب الحديث ينفي هذا المعنى باطلا، هذا جهل على الله، هذه يهودية هذه، أن الله خلق آدم على صورة الله، سبحان ربي العظيم! ثم بعد ذلك يقول ولا نشبه ولا نمثل، أي شيء أعظم، ما أبقيت أنت في التشبيه حتى لا تكون فيه! فهذا باطل، الآن انتهينا، واضح هذا؟ نقدنا الحديث من جهة المعنى، لكن لا يجوز – انتبه – أن نرد حديثاً من جهة المعنى دون أن نُدرك علته في السند، حينئذ تأتي البطولة، يأتي البحث الشديد، مش الطريقة اللي اليوم في التصحيح والتضعيف، لا، هنا يأتي دور علم العلل الحقيقية وهي البحث والتنقيب: أين جاء الخطأ في هذا الحديث، وموجود، في السند موجود أخطاء، لكن النظر السطحي لسند الحديث هو الذي أوقعهم في تصحيحه، يقولون حديث صحيح وسنده.

وهذا هو شأن علم العلل وهو الإتيان بالحديث الصحيح الذي يبدو لأول وهلته على هذا المعنى لكن فحين البحث والتنقيب نجد أنه معلول، واضح؟ فعلمنا – هنا صار العكس– فعلمنا علة المتن لما دل عليه علة المعنى.

طيب، أكمل شيخ ، المهم هنا لماذا هذه كلها في شرحه لماذا اختار هذين المذهبين في التوفيق بينهما..

"فَعَجِبَ الشَّيْخُ مِنْ غَرَابَةِ هَذَا الِاتِّفَاقِ، كَمَا عَجِبْتُ أَنَا مِنْ رُكُوبِ هَذِهِ الْمَفَازَةِ وَصُحْبَةِ هَذِهِ الرِّفَاقِ"

هذه كلمة رائعة، صحيح؟ يعني مين أصحابه ها يا مشايخ، من هؤلاء أصحابه؟ أصحابه هم هؤلاء العلماء، يناقشهم يتكلم معهم، حضور، إخواني هذه طرائق علمائنا، ابن تيمية وعمره ثماني سنوات يقول كنت أرى الرازي في المنام فأناظره! يعني المنام عادة، من الأمور الكثيرة، هو مما يشغل نفس المرء، صحيح؟ فالله يعطيه في المنام من المبشرات ما يبين حاله على الجملة أو يشغل نفسه فالله يعطيه، فانظر لهذا الشاب كيف شغله في النهار فكيف يأتيه الأمر في

المنام، فهكذا، فهؤلاء رفاق يقوم إليهم كما يقوم المحدث يذهب إلى الرجال يتعامل معهم. كان سليمان ابن الشيخ محمد بن عبد الوهاب كانوا يقولون عنه هو أعرف برجال الحديث من أهل بلده! هو يجلس مع أهل بلده، كيف حالك يا أبو فلان وبس، لعدم خوضه في حياة الناس، هو مشغول في كتب الرجال، في كتب الحديث، فهو يعرفهم أكثر من معرفته بأهل بلده، وهكذا .هذا هو العالم الذي من يرتفق؟ من أصحابه؟

"لِيَكُونَ – أَيُّهَا الخِلُّ الصَّفِيُّ، وَالصَّدِيقُ الْوَفِيُّ – هَذَا الْكِتَابُ عَوْنًا لَكَ فِي سُلُوكِ الطَّرِيقِ، وَشَارِحًا لِمَعَانِي الْوِفَاقِ وَالتَّوْفِيقِ، لَا لِيَكُونَ عُمْدَتَكَ فِي كُلِّ تَحَقُّقٍ وَتَحْقِيقٍ، وَمَرْجِعَكَ فِي جَمِيعِ مَا يَعِنُّ لَكَ مِنْ تَصَوُّرٍ وَتَصْدِيقٍ؛ إِذْ قَدْ صَارَ عِلْمًا مِنْ جُمْلَةِ الْعُلُومِ، وَرَسْمًا كَسَائِرِ الرُّسُومِ، وَمَوْرِدًا لِاخْتِلَافِ الْعُقُولِ وَتَعَارُضِ الْفُهُوم"

يعني هنا من الرجل لا بُدَّ أن يظهر تواضعه، يقول: هذا الكتاب لا يغني عن غيره، واحد من هذه الكتب التي تعينك لا يغني عن غيره، واضح؟ وليس فيه تبجح وليس في تكبر.

"لَا جَرَمَ أَنَّهُ قَرَّبَ عَلَيْكَ فِي الْمَسِيرِ، وَأَعْلَمَكَ كَيْفَ تَرْقَى فِي عُلُومِ الشَّرِيعَةِ وَإِلَى أَيْنَ تَسِيرُ، وَوَقَفَ بِكَ مِنَ الطَّرِيقِ السَّابِلَةِ عَلَى الظَّهْرِ، وَخَطَبَ لَكَ عَرَائِسَ الْحِكْمَةِ ثُمَّ وَهَبَ لَكَ الْمَهْرَ"

يعني يأخذه من غير جزاء..

"فَقَدِّمْ قَدَمَ عَزْمِكَ؛ فَإِذَا أَنْتَ بِحَوْلِ اللَّهِ قَدْ وَصَلْتَ، وَأَقْبِلْ عَلَى مَا قِبَلَكَ مِنْهُ؛ فَهَا أَنْتَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ قَدْ فُزْتَ بِمَا حَصَّلْتَ ، وَإِيَّاكَ وَإِقْدَامَ الْجَبَانِ ، وَالْوُقُوفَ مَعَ الظَّنِّ وَالْحُسْبَان"

إخواني العلم يحتاج إلى شجاعة، و ما معنى الشجاعة؟ يعني أن تدخل فيه، يصبح بينك وبينه تحدي، العلم، يصبح بينك وبينه تحدي، لأني أريد أن أدخل فيك وأريد أن أملكك، يصبح العلم ملك لك قابضاً له، لا يحتاج العلم من كان جباناً لا يستطيع أن يتكلم في العلوم فلا يخوض فيه يبقى طول عمره يقرأ، ويقرأ قراءة المستمع دون أن يجادل، وهذه لا تُحصِّل علماً، لا بُدَّ بعد قراءة ما، ومرتبة ما –وبعد أن تتمكّن وبعد أن تقرأ ما تقرأ من العلم – بعد ذلك عليك أن تقف على كلام الناس، مهما كانوا، منتقداً أو مفسّراً أو مبيّناً أو راداً أو شارحاً، القصد: بأنك تحتاج إلى الشجاعة، العلم يحتاج إلى الشجاعة، واضح؟

"وَإِيَّاكَ وَإِقْدَامَ الْجَبَان، وَالْوُقُوفَ مَعَ الظَّنِّ وَالْحُسْبَانِ وَالْإِخْلَادَ إِلَى مُجَرَّدِ التَّصْمِيمِ مِنْ غَيْرِ بَيَانٍ، وَفَارِقْ وَهَدَ التَّقْلِيدِ رَاقِيًا إِلَى يَفَاعِ الِاسْتِبْصَار، وَتَمَسَّكْ مِنْ هَدْيِكَ بِهِمَّةٍ تَتَمَكَّنُ بِهَا مِنَ الْمُدَافَعَةِ وَالِاسْتِنْصَار"

هذه أصعب مدافعة، لأنه صار الآن في حرب بينك وبين العلم.

"إِذَا تَطَلَّعَتِ الْأَسْئِلَةُ الضَّعِيفَةُ وَالشُّبَهُ الْقِصَارُ ، وَالْبَسِ التَّقْوَى شِعَارًا"

نعم هذه إخواني، هذه من ميزات علوم الدين، كل العلوم في الأُمم السابقة وكل العلوم المادية التي يتعامل بها الناس هي علومٌ ظاهرة لا تحتاج إلى استخارة، لا تحتاج إلى نور رباني، لا تحتاج إلى تقوى، أنت تعرف وهكذا الناس يخوضون فيها فيفوزون، ولكن العلم في ديننا لا بُدَّ فيه من التقوى، وإنه لا يَذِل لك هذا العلم ولا يُمكنّك من نفسه حتى تطلبه لله، وحتى تنوي فيه النية التي يراد بها العلم عادةً وهي نية التعبد لله، كل كلمة في هذا العلم يجب أن تزيدك قرباً إلى الله، وكلما عصيت كلما فاتت منك، كلما عصيت الله أفلتت منك، ولذلك لا بد من التقوى، لا بُدَّ من العبادة، فإن العلماء في تاريخنا لم يكونوا على شكل هؤلاء الناس الذين ترونهم اليوم، كان العلماء في تاريخنا هم أهل التقوى لأنهم يدركون أن هذا العلم – وقد حصّلوا – أن هذا العلم يقربهم إلى الله، يريدون أن يفهموا على الله، أن يفهموا على رسوله، يريدون أن يتقربوا إلى الله، فكلما ازداد العلم لديهم كلما قربهم إلى الله أكث، ولذلك هذا الفارق بين علم السلف وعلم الخلف، هذا من الفوارق، أن العلم عند السلف كان يصنع التقوى والعلم اليوم على ما ترون، وهذه تحتاج إلى شرح ولكن يكفي هنا الآن.

"وَالْبَسِ التَّقْوَى شِعَارًا، وَالِاتِّصَافَ بِالْإِنْصَافِ دِثَارًا، وَاجْعَلْ طَلَبَ الْحَقِّ لَكَ نِحْلَةً، وَالِاعْتِرَافَ بِهِ لِأَهْلِهِ مِلَّةً"

الله أكبر! فقط أريد أن أنبه، قرأت كتاب الله فلم أجد أهل العلم، أهل العلماء، كلمة العلماء ارجعوا إليها، اجمعوها، وقد ذكرت هذا: {وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ} إلى آخره، {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ}؛ كل كلمة علم في القرآن موطنها الدار الآخرة، كل كلمة علم – يعني أهل العلم – في القرآن موطنها الدار الآخرة، ارجعوا إليها وحققوها هذا تجدوه إن شاء الله بيّناً واضحاً. نعم..

"لَا تَمْلِكْ قَلْبَكَ عَوَارِضُ الْأَغْرَاضِ، وَلَا تُغَيِّرْ جَوْهَرَةَ قَصْدِكَ طَوَارِقُ الْإِعْرَاضِ، وَقِفْ وَقْفَةَ الْمُتَخَيِّرِينَ، لَا وَقْفَةَ الْمُتَحَيِّرِين"

يا سلام والله هذه يعني تحتاج درس خاص! وقفة المتخير لا وقفة المتحير، فإن وقفة المتخير هي وقفة العالم، الذي يدرك الأشياء على حقيقتها فيختار منها الحق، ويختار منها الأصوب، وأمّا المتحير فلا يعرف الذي بين يديه، هو موجود ولكن لا يعرفه، لا يعرف كيف يميّز ولا يرجّح ولا يقدّم ولا يؤخّر..

"وَقِفْ وَقْفَةَ الْمُتَخَيِّرِينَ، لَا وَقْفَةَ الْمُتَحَيِّرِينَ، إِلَّا إِذَا اشْتَبَهَتِ الْمَطَالِبُ"

المطالب ما هو المقصود بها؟ شوف هذا الشرف للعلم، إذا اشتبهت العلوم، المطالب هي العلوم ..

"

وَلَمْ يَلُحْ وَجْهُ الْمَطْلُوبِ لِلطَّالِبِ، فَلَا عَلَيْكَ مِنَ الْإِحْجَامِ وَإِنْ لَجَّ الْخُصُوم"

أيوا، شيء لا تعرفه، ابتعد عنه حتى يلين لك، وإن تكاثر فيه الناس أنت لا تعرف، ولا تقول كيف لا يكون لي مقال! وهنا يأتي دور كلام السلف في قولهم لا أدري وعدم إجابتهم للمسائل، هذه التقوى.. هذه التقوى.

"فَالْوَاقِعُ فِي حِمَى الْمُشْتَبِهَاتِ هُوَ الْمَخْصُوم"

المخصوم المقصود به ماذا؟ المخصوم المقصود به المغلوب.

"وَالْوَاقِفُ دُونَهَا هُوَ الرَّاسِخُ الْمَعْصُومُ"

إذاً الوقوف عما لا تعلم وتقول لا تعلم هذه طريقة أهل الرسوخ، شيء لا تعرفه: لا أدري.

"وَإِنَّمَا الْعَارُ وَالشَّنَارُ عَلَى مَنِ اقْتَحَمَ الْمَنَاهِيَ فَأَوْرَدَتْهُ النَّارَ، لَا تَرِدْ مَشْرَعَ الْعَصَبِيَّةِ"

نعم، أيوا، إياك... لا ترد، المشرَع ما المقصود بالمشرَع؟ المشرع المقصود به النبع، فلا ترِد مشرَع العصبية إياك! تختار تمشي على الطريقة اللي هي أنا فلان تابع لفلان فتقلده، هذا لا ينفع في علومنا هذا ليس علم، فلا ترد مشرع

العصبية، إياك أن تدخل طريق العلم من باب التقليد ومن باب القبلية، لأن هذه طريقة اليهود، القرآن نبهنا إليها {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا..}، هذه باب اليهودية، أنا لا أخذ إلا من هذا الطريق، هذه طريق اليهودية. نعم...

"وَلَا تَأْنَفْ مِنَ الْإِذْعَانِ إِذَا لَاحَ وَجْهُ الْقَضِيَّةِ"

يقول الشافعي هنا، يقول الشافعي: "ما ناظرت أحداً قط فقبِل الحق إلا هِبْته." تريد أن تعرف عظمة نفسك عند الله وقيمتك عند الله: هذا هو الامتحان، إذا جاءك الحق أذعنت له في مواطن تنازعُك نفسك عن هذا الإذعان، فهذا يعلمني، كيف اهتدي إليها ولا أعرفها أنا؟ كيف تأتي من خصومي وأقبلها؟ وهكذا. وهذه موانع اتباع الحق بعد ظهوره، فإذن تريد أن تعرف قيمتك عندك الله، انظر لهذا، هذا هو البلاء لأنك إن قبلت الحق فأنت قد قبلت أمر الله، وبمقدار تعظيم الله في قلبك بمقدار قيمتك عند الله، كلما عظمت الله في قلبك كلما علمت مكانتك. فلذلك الحق يأتيك اذعن، اخضع له !حتى لو جاءك من عدوك.

"ولا تأنف من الإذعان إذا لاح وجه القضية أنفة ذوي النفوس العصية، فذلك مرعى لسوامها وبيل - مرعى السوام: مرعى الدواب السائمة -**وصدود عن سواء السبيل.**

فإن عارضك دون هذا الكتاب عارض الإنكار، وعمي عنك فيه وجه الاختراع والابتكار"

أيوا، هنا نقف، وكنت أتمنى أن ننتهي من المقدمة، انظر إليه هنا، هو يشير –لمح- لميزات هذا الكتاب، وهذا ذكرناه، أن هذا الكتاب مبدَع في طريقة تصنيفه، و بعض مباحثه، فلذلك هو يقول: ستجد هنا إبداعا وابتكارا لم تعرفه من كتب الأصول، هو يقول هذا ويريد أن ينبه على هذا المعنى فانتبهوا له. وهذا يدل على أن العلوم بفنونها وبصياغتها تجارب للإبداع، لا يقف عندها واقف على معنى التقليد، نعم" :وعمي عنك فيه وجه الاختراع والابتكار"

"وغر الظان أنه ما سمع بمثله"

للأسف بعض الناس: "ما سُمع بمثله" يعني لينكر،والصواب أني أسمع بمثله إن كان حقا فهو العلم.

"ولا أُلف في العلوم الشرعية الأصلية أو الفرعية ما نسج على منواله أو شكل بشكله."

وهذا ميزة الكتاب، أنه لا ينفع في المعاهد العلمية؛ المعاهد العلمية تريد التعريفات بسرعة وهكذا ليحفظ الطلبة، وهنا لا يوجد تعريفات، عليك أن تقرأ جملة لتفهم ما يريد، وهذا لا ينفع في التدريس عند الطلاب المبتدئين، ولذلك هذا الكتاب هو للعلماء.

"وحسبك من شر سماعه"

هذه من كلمات العرب وأمثالهم، حسبك من شر سماعه، يكفيك أنك سمعته، لا تخوض فيه، تشارك فيه وتجالس أهله، لا، بل حسبك من شرٍّ سماعه، يكفي، أنا أسمعه ثم أعرض عنه.

"ومن كل بدع في الشريعة ابتداعه، فلا تلتفت إلى الإشكال دون اختبار"

الإشكال بمعنى المشكل.

"فلا تلتفت إلى الإشكال دون اختبار، ولا ترم بمظنة الفائدة على غير اعتبار، فإنه بحمد الله أمر قررته الآيات والأخبار، وشد معاقده السلف الأخيار"

هذا يريد أن يدعم نفسه هو، وأن مصدره الكتاب والسُنّة، والحمد لله.

"ورسم معالمه العلماء الأحبار، وشيد أركانه أنظار النظار"

يقال: الحَبر، والحِبر، يصحان، يعني لا تنكروا لو قال حِبر القرآن، يصح، والحَبر يصح، كلاهما يصح فهي تدل على المعنى الذي تعرفونه.

"وإذا وضح السبيل لم يجب الإنكار، ووجب قبول ما حواه والاعتبار بصحة ما أبداه والإقرار، حاشا ما يطرأ على البشر من الخطأ والزلل، ويطرق صحة أفكارهم من العلل، فالسعيد من عدت سقطاته، والعالم من قلت غلطاته."

وهذه يجب لازم نضع تحتها خطوط وتبقى في أذهاننا: "السعيد من عدت سقطاته، والعالم من قلت غلطاته"، هذه كلمة تحفظ، ومعناها واضح بين، وهي تنتشر في تاريخنا وفي علمائنا انتشار الهواء في الأرض، يعني تستطيع أن تتكلم أي كلمة فلا يخرج منها لإلا هذا المعنى، أيُّ نفَس تتنفسه فيه مواطن العلم إلا وفي هذه الجملة، انتبهتم لهذا؟ "فالسعيد من عدت سقطاته، والعالم من قلت غلطاته"، فلا يعاب على العالم غلطاته، ولكن يعاب عليه كثرة الغلطات، فلا يعاب على المرء إن سقط، ولكن يعاب عليه أن يكثر السقوط.

"وعند ذلك، فحق على الناظر المتأمل إذا وجد فيه نقصا أن يكمل، وأن يحسن الظن بمن حالف الليالي والأيام، واستبدل التعب بالراحة، والسهر بالمنام."

الباء دائما تدخل على المستبدل به، الناس تعرف، العرب لا يعرفونها ولكن الباء تدخل على المستبدل به لا المستبدل، هذا واضح؟

فيقول هذا يحسن الظن بالرجل الذي حالف الليالي والأيام أي شغلها وملأها، ومعنى حافها أي تواطأ معها. واستبدل التعب بالراحة، فالراحة هي المستبدَل به، والتعب هو المستبدَل، الذي أخذه، قال "والسهر بالمنام" أراد أن يعتذر لأن هذا الكتاب قد بذلت فيه هذا الجهد العظيم.

"حتى أهدى إليه نتيجة عمره، ووهب له يتيمة دهره."

وهذا هو شأن أهل العلم، يعني يكفيني هذا، ولا يعرف عنه.. له كتب متعددة ولكن اشتهر بهذين الكتابين عليه رحمة الله مع (الافادات) و(الاشادات) وغيرها لكنه اشتهر بهذا الكتاب وكفى في الإجابة في كتاب (المعرب) للونشريسي الكثير من فتاوى النوازل لأبي إسحاق الشاطبي، وهذا الكتاب جليل، هذا كتاب لا يجوز للرجل أن يكون عالما في هذا الزمان دون أن يقرأ هذا الكتاب، كتاب (المعرِب) للونشريسي، هذا جمع فيه نوازل العلماء المالكية، وهذا يُعرفك كيفية كتابة النوازل، والمالكية لهم إبداع عظيم في هذا الباب، فاقوا فيه غيرهم، أي تصنيف كتب النوازل. والنوازل ما معناها؟ هذا سيأتي. هو (الشيخ) هنا له فقط سطر واحد ربما نقف عنده درساً كاملاً، وهذا الذي سيشرح فيه

النوازل نبين فيه كيفية بحث النوازل، واضح؟ ولكنه هنا يقول: هذا كتابي، انتبهوا. نعم. والكتب كالأولاد؛ أليست هذه هي الكلمة المشهورة، كتب المرء كالأولاد، كلهم أبناؤه، لكن لا بد أنه تعب فيه وهذا الكلام.

"فقد ألقى إليه مقاليد ما لديه."

أي: وضعت فيه كل ما عندي.

"وطوقه طوق الأمانة التي في يديه، وخرج من عهدة البيان فيما وجب عليه"

أي خلاص، أنا خرجت من العهدة أمام الله، بينتُ. نعم.

"وإنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه"

هنا أريد فقط قراءة صغيرة، لم تروا الشيخ قال: قال رسول الله، وهذا يسمى عند أهل البلاغة بـ"الاقتباس"، هل يجوز أو لا يجوز؟ ليحتج المجيز بهذا الموطن، فقط أقف عند هذا ولا أريد أن أطيل فيها، فلم يقل: قال رسول الله لكنه أجراه كأنه داخل كلامه، فهذا يبين جواز الاقتباس لمن يجيزه، وأنا أجيزه مع شروطه.

"جعلنا الله من العاملين بما علمنا، وأعاننا على تفهيم ما فهمنا، ووهب لنا علما نافعا يبلغنا رضاه، وعملاً زاكياً يكون عدة لنا يوم نلقاه، إنه على كل شيء قدير، وبالإجابة جدير. وها أنا أشرع في بيان الغرض المقصود، وآخذ في إنجاز ذلك الموعود، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم"

الحمد لله رب العالمين، وجزاكم الله خيراً، أطلنا عليكم قليلاً لكن لا بأس حتى ننتهي من المقدمة، والحمد لله رب العالمين.

أَسْئِلَة

تفضل...

- ذكرت لنا كلمة الشافعي عن المعاني التي في القلب وهل يستطيع اللسان الإبانة عنها وذكر كذلك..وذكر كذلك في المقدمة" ما يعجز عن تفصيله بعض أسراره العقلُ، ويقصر عن بث معشاره اللسان، إيه دخل في بعض تعريفات الاستحسان يللي يقول البعض أنها دليلٌ ينقطع في ذهن المجتهد أو يعسر عليه التعبير عنه...

إنما هنا الكلام على المعاني، ما تكلمنا به من كلام الشافعي وأبي إسحاق هو كلام عن المعاني، فهل يصح هذا في الأحكام؟ هذه واحدة. ثانياً هناك – والشيخ يذكره هنا ويذكره عامة كتب الأصول – وهو اطمئنان القلب بما لا يستطيع الإبانة عن دليله، لكن اطمأن إليه. هل يجوز أو لا يجوز؟ هذا من أدلة الفقه، ولكنه دليل متأخر لمن قال به. أي: لا يصار إليه في أول الباب، بل لا بُدَّ من أن يكون متأخراً فيما يطمئن إليه قلبه وهو ملزم له ليس ملزماً لغيره، أو ملزم لمن وثق به لا ملزماً لكل أحد. لأن الناس لا يخاطبون بالمعاني القلبية ولا بالاطمئنانات النفسية، بل يخاطبون بالكتاب والسُنّة، فهذا فرق والله تعالى أعلم.

- ما السر في رفض أحاديث أهل العراق عند الإمام مالك؟

المشكلة يصنعها.. هذه قاعدةٌ لا بُدَّ أن نفهمها: المشكلات عند العلماء – انتبهوا، ليس دائماً – تصنع العلم؛ فإذا أقام الله بلاء لقوم يحبهم وهم أهل لهذا البلاء – قدرة بدنية – أو كان البلاء في مسائل العلم، فيكون عندهم القدرة العلمية عليه، كان هذا البلاء رحمة من الله عليهم، لينشئ لهم علما خاصاً.

وهذا ما حدث في أهل العراق، فإن الحديث في أهل العراق كثُر فيه الوضاعون، الحديث المدني لا يُعرف في أهل المدينة الوضع ولا في أهل الحجاز، لا يعرف أو يذكر في يوم من الأيام:والله هذا وضع، كثر الوضع في أهل العراق بكثر الفتن، طيب، هذا بلاء، هل نزل على علماء أَم نزل على جهلة؟ على علماء.

فمن هنا نشأ علم الصناعة الحديثية في العراق، فكان أبرز الناس فيه هم أهل العراق، ولذلك تجد علم العلل.. الصناعة الحديثية، هذه الكلمة الجامعة التي فيها العلل وفيها المصطلحات وفيها نقد الرجال، وفيها وفيها... إلخ، هذا علم برز فيه أهل العراق فصاروا أئمة له، لماذا؟ لأنهم أهل البلاء فيه؛ فلما ماكثر الوضع والكذب والخطأ في أهل العراق رد مالك حديثهم، فارتاح؛ قال هذا العلم يكفيني. ولا شك أنه يكفيه، لا شك أنه كان يحوي علماً كثيراً وأحاديث كثيرة وإن كان في رسالة الليث بن سعد – عليه رحمة الله – لمالك ما ينبهه إلى خطأ قاعدته، تقرؤون هذه الرسالة موجودة في (إعلام الموقعين) وذكرها بعض المالكية في كتبهم: رسالة الليث إلى مالك، وبينهما مودة، وهناك إكرام وشوية حلويات وطيب، فأراد مالك أن يزوج ابنته، فطلب منه الزعفران فأرسل له وقر بعير مما طلب.. المهم، ولكن رسالة ليث تبين لمالك خطأه في هذا الباب وأن علم الصحابة قد انتشر ولم تختص به بلدٌ دون بلد. هذا الذي أراده الليث في هذه الرسالة. فالقصد أن مالك لماذا رد أحاديث العراق؟ لأمرين: الامر الأول لأن الوضع والخطأ والكذب كثر فيهم ولأنه يرى الاكتفاء بما عليه أهل المدينة وأن هذا حق وأن علم المدينة يكفي؛ لهذا رده.

جزاك الله خيراً

– هل كلمة اهل العلم في القران موطنها الدار الاخرة؟

نعم، افتح القرآن، ارجعوا إلى المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، فيذهب إلى كلمة أهل العلم والعلماء، تجد أن موطنها هو الدار الآخرة. وتستطيعون أن ترجعوا لهذا في آية سورة النحل، فقد ذُكر أهل العلم فيها، وفي سورة فاطر كذلك ذكر فيها أهل العلم، والروم: {وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}، وغيرها، فتجد أن كلمة أهل العلم موطنها الدار الآخرة، وهذا دليل على أن العلماء هم الذين يعلمون حقائق هذا الوجود، وأكبر حقيقة هو أن كل شيء مرده إلى الله وأن كل ما يعمله المرء أو يعتقده المرء أو يقوله المرء، فإنه محاسب عليه يوم القيامة، وأن أهل العلم هم الذين تحضر إليهم القيامة بكل ما فيها عند كل موطن وعند كل إجابة،عند كل سؤال.. إلخ. وهذا فقط لبيان أن العلماء هم الربانيون، لا يسمى العالم عالما في دين الله حتى يكون تقياً عابداً، وتعرفون كلمة الإمام أحمد يقول: "محدّثٌ ولا يقوم الليل؟" اليوم ما شاء الله نصلي الصبح جماعة جيد.

– هل الحديث الضعيف الذي ذكره، هل هو مشابه الحسن عندنا؟

نعم، يقول شيخ الإسلام في تفسيره لكلمة أحمد: "الحديث الضعيف أحبُّ إلينا من الرأي" فيقول: هو الحسن، وأنت تعرف الكلام أهل عن الحسن أصلاً، الكلام عن الحسن يحتاج تفصيل فهو حديث فيه رقة، لا يأخذونه أصالة وذهاباً إليه، يأخذونه عندما تشتبه. يعني مثلاً أحاديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أغلب تفصيلات الأحكام أُخذت منهم.

– حديث: (خلق آدم على صورته) ماهو توجيه الصورة؟ هناك ناس وجهوها على أن الله له يد ونحن لنا يد ولكن ليست كيده...

نعوذ بالله، الصورة صورة، صورة، يعني هذا تأويل مثل تأويل التبليغي لَمّا جبت أحد قال كيف يقاتل جاب معنى آخر لكيف يقاتلون عشان يهرب من القتال؛ فهو يتكلم عن صورة، لا يتكلم عن معنى ولا عن لفظ مشابه، يتكلم عن صورة، ثم يريدون أن يثبتوا لله الصورة. أثبت لله الصورة ليس عندي مشكلة أن تقول لله صورة ليست كصورتنا، أمّا أن تأتي تقول أن الله خلق آدم على صورة الرحمن.

على كل حال الحديث باطل حتى من جهة السند، وهذا إذا أردتم أكلمكم فيه يوماً، هو باطل من جهة السند، وهذا الحديث – صورة الرحمن – انفرد به راوٍ كان إذا جلس للعلماء لم يكتب إلا أطراف الحديث. لأنه أهل الحديث عندهم مشكلة، لأنه مرات كثيرة لا يكتبون الحديث كاملاً، يكتبون طرفه لأنهم يريدون السند ولا يريدون المتن؛ المتن ليس مشكلة، يأتي بعدين، أو يحفظونه و ينقلونه من كتب غيرهم.. إلخ، المهم السند لأن السند هو الذي يجعل لديهم صفة السماع، هي التي ترفع شأنهم أن عندهم حديث. فكان هذا المحدث يكتب الحديث بالطرف وبعدين بحث عن معنى يكمله فأخرجت معه هذه، هذا هو سبب خطأ هذا المحدث.

القصد أن هذا حديثٌ باطلٌ من جهة المعنى، لا يمكن تصوّره على طريقة الكتاب والسُنّة، لا يمكن.

وجزاكم الله خيراً.

الدرس [٦]

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله.

اقرأ...

"بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه ومن والاه.

مقدمات المؤلف: المقدمة الأولى إن أصول الفقه في الدين قطعية لا ظنية، والدليل على ذلك أنها راجعة إلى كليات الشرعية وما كان كذلك فهو قطعي"

طيب نقف هنا هذه المقدمة، بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، هذا هو الدرس السادس من دروس شرح كتاب أبي إسحاق الشاطبي (الموافقات).

نقول وبالله التوفيق: هذه المقدمة التي بدأ بها الشيخ رحمه الله تدلنا على أمورٍ مهمة وينبغي الاعتناء بها:

أولاً: معرفة كيفية قراءة كتب التراث، أنا أريد من قراءتنا لهذا الكتاب أن يكون مفتاحاً لنا في قراءة الكتب وليس فقط لهذا الكتاب، ولكن لتكون القراءة مفتاحاً لنا لقراءة كتب التراث جملةً، فهذه المقدمة تفيد هذا المعنى وهو أن هناك ثمة مصطلحات وعبارات وطرق استدلال يستخدمها سلفنا في كتبهم، وهذه تحتاج إلى معرفة ودَربة لا بُدَّ أن نعرفها؛ أن نعرف المصطلحات التي يتعامل بها علمائنا في كتبهم لأن المصطلحات هي مفاتيح الكتب. إن لم نعرف المصطلحات التي يستخدمها العلماء في الإبانة عن ما في أنفسهم من علوم فإن كلامهم يبقى مغلقاً، فلا بُدَّ أن نعرف المصطلحات. هذه المقدمة مليئةٌ بهذه المصطلحات.

ولذلك أمامنا خياران، إمّا أن نطوي هذه الصفحات فلا نقرأها لأننا إن لم نفهم هذه المصطلحات فسنخوض حينئذٍ في شيء لا نعرفه وبعد ذلك نرغي في الكلام وكذا دون أن نفهم مراد المؤلف، وإمّا أن نضطر أن نقف عند هذه

المصطلحات فنشرحها ليحصل بهذا الشرح التصوّر الصحيح، حتى نتصوّر؛ العلماء يتكلمون يريدون الإبانة عمّا في أنفسهم، ما هي المادة التي يستخدمونها واسطةً للإبانة عما في أنفسهم؟ هذه المصطلحات، فلذلك لا بُدَّ أن نقف عندها وربما يحتاج هذا إلى وقت قد نقف عنده قد نطيل أو لا نطيل هذه مسألة، هذا واحد.

ولذلك أكرر بأن الرجل أو طالب العلم الذي يريد أن يفهم كتب السلف لا بُدَّ أن يقف عند هذه المصطلحات حتى يتعلمها، ولا نقول كما يقول البعض بأن هذه طرق قديمة وبائدة، فهذه تقولها بعد أن تستوعبها، بعد أن تفهمها وتريد بعد ذلك أن تُنشئ أسلوباً سهلاً، طريقاً بيّناً غير ما استخدموه، لك ذلك، الأساليب ليست حصراً على وقتٍ دون وقت ولا يجوز لأحدٍ أن يحصر الأساليب التي يتم بها الإبانة، العلماء، فهذا واحد.

الشيء الثاني: هذه المقدمة، لذلك سنجد قبل أن نأتي إلى الشيء الثاني، سنجد كلمة **اليقين الظني**، **الكليات**، **الجزئيات**، **الاستقراء الكلي**، **الاستقراء الجزئي**، وهكذا، هذه كما ترون مصطلحات يستخدمها أهل العلم وأهل الأصول أكثر الناس استخداماً لها، وهي من قواعد من مصطلحات التي تبيّن عما يفكر به هؤلاء العلماء.

النقطة الثانية في هذه المقدمة – واجب تعوها وأنتم تقرؤونها –: الإمام أبو إسحاق الشاطبي أفاض في ذكر العلماء الذين سبقوه في بحث هذه المسألة، وهذا يدلنا على مصادر علم هذا الشيخ في هذه المسألة. ستجدون أنه ذكر المازري، ذكر الباقلاني، ذكر الجويني، وأفاض في الرد عليهم وفي إبانة ما يقولون، فهذا يبيّن لنا مصادر ومظان العِلم الذي كتب فيه، وهذا مهم. فلا بُدَّ أن تعرف من أين أتى العالِم بهذا الكلام، هذه الطريقة مهمة.

وهذا كذلك يوجب علينا شيئاً مهماً وهو أن نعرف هؤلاء العلماء، أن نقرأ لهم، انظروا كيف العلم يجرُّ إلى العلم كما أن الهداية تجرُّ إلى الهداية كما أن الضلال يجرُّ إلى الضلال؛ فأنت عندما يأتي شخص ويقول من هو المازري، أين قال، وماذا قال؟ عندما يذكر الجويني ماذا قال وأين قال؟ فأنت هذه النقطة تذهب بك إلى مواطن أخرى، وهذا الموطن يذهب بك إلى موطنٍ آخر وهكذا. فلذلك لا بُدَّ أن نعرف العلماء الذين تكلموا في هذا.

وهذا كتاب – كتاب الشاطبي – كتابٌ متأخر بالنسبة لأصول الفقه و بالتالي الشاطبي مرَّ على قناطر من أهل العلم قد سبقته وتكلَّمت في المسألة وهو يناقشها، هذه النقطة الثانية، فهمنا؟

النقطة الثالثة: هذه المقدمة ستوجب علينا وجوباً لا مفرَّ منه بأن نناقش ما نقرأ وأن نجادل ما يقوله العالِم ولا نُسَلم له، سنضطر أن نقف، سنضطر بعد في هذه المقدمة أن نناقش المتكلم، أن نناقش المؤلف وأن نعرف مراده، ثم بعد ذلك نميز ما نقبله بالأدلة وما نرده بالأدلة، وهذا أمر مهم في قراءتنا لكتب العلماء، وهذا ما سميته لكم مرة بـ«القراءة الجدلية»، يعني أن نقرأ، إذاً عرفنا ماذا يقول العالم، عرفنا مصطلحاته، خضنا فيها، وصلنا إلى مراده، عرفنا كيف تشكّل هذا الأمر، عرفنا الخلاف فيها؛ صار لنا أن نقف بعد ذلك لنناقش ما يقول، فهمنا هذه المقدمة.

هذه النقاط الثلاثة مهمةٌ جداً لفهمنا لهذه النقطة.

بدأ الشيخ هنا – عليه رحمة الله – في المقدمة الأولى بعد أن ذكر القسم الأول، قال: مقدمة أصول الفقه القطعية، الشيخ هنا تجاوز ما اعتاد عليه المؤلفون في أصول الفقه لأن كتابه ليس للمبتدئين. وهو قال بأنه ناقش، كما رأينا في المقدمة أنه كتب ما كان يعن له من أبحاث عند قراءته لهذا العلم وعند مباحثته لهذا العلم لأقرانه من العلماء، ذكر هذا في المقدمة. إذاً هو لم يجر في هذا الكتاب ما جرى عليه المصنفون في أصول الفقه، لأن عادة المصنفين في أصول الفقه هو أن يَشرعوا بالتعريفات. ما هي أصول الفقه؟ فيعرفونه تعريفاً تركيبياً أو تعريفاً لقبياً على طرائقهم، ونحن لن نخوض فيها لأنه لم يخض فيها، ومن أراد أن يعرف ما هي أصول الفقه تعريفاً تركيبياً، ما معنى أصول – هذا يعني تركيب مركّبة تركيب إضافي أصول والفقه – ما هي الأصول، ما هو الفقه؟ و تعريفاً لقبياً أو عَلمياً ما هو معنى أصول الفقه بهذا التركيب، فهذا لن نخوض فيه إلا بمقدار ما يعيننا على فهم مراده.

ما هي أصول الفقه؟ هو يقول هنا: أصول الفقه قطعيّة، فعندنا هاتين الكلمتين: كلمة «أصول الفقه» لأن هذا مركّب تركيب إضافي، وعندنا «القطعي» ما معنى هذا الكلام؟

أصول الفقه الناس يختلفون في تعريفه، ولكن أوسع التعاريف له هو ما قاله الرازي وقاله البيضاوي وغيرهم على أن: أصول الفقه هي «الأدلة الإجمالية»، ما المقصود بالأدلة الإجمالية؟ يعني النظر في الأدلة باعتبارها أدلة وليس باعتبار فروعها. عندما نقول الأدلة الإجمالية؛ يعني القرآن لا بما فيه من أحكام ولكن باعتباره مصدراً من مصادر الأدلة التي تُبنى عليها الأحكام؛ ما هو القرآن، كيف تفهم دلالته؟ هكذا نظر.

فإذاً نفهم الكتاب، نفهم السُنّة، ما هي السُنّة، نفهم القياس، نفهم الإجماع، وهكذا. فالأدلة الإجمالية.

طيب هل هناك شيء آخر؟ إذن أصول الفقه هي الأدلة الإجمالية ومعرفة كيفية الاستفادة منها؛ كيف نستفيد من هذه الأدلة الإجمالية، آلية الاستفادة من هذه الأدلة الإجمالية، وثالثاً حال المستفيد يعني المجتهد.

وبعضهم يرى فقط أنها هي الأدلة الإجمالية ويكفي، وغيرهم الطوفي والشوكاني يقولان أن أصول الفقه هي مجرد القواعد التي يحتاجها الفقيه عند الاستنباط، هي القواعد، وهذا – انظروا – بعضهم قال كما السبكي: أصول الفقه هي فقط الأدلة الإجمالية، لكن الطوفي و الشوكاني يقولون: كيفية الاستفادة منها فقط، واضح الكلام؟

إذاً عرفنا ما هي أصول الفقه على الجملة، إمّا القواعد التي يحتاجها يعني كيفية الاستفادة منها هذا كلام بعضهم، أن أصول الفقه هي كيفية الاستفادة من الأدلة وهي التي أشاروا إليها بقولهم: هي القواعد التي يعتمد عليها أو يرتكن إليها الفقيه في اجتهاده. بعضهم قال هي فقط معرفة الأدلة الإجمالية، يعني معرفة الكتاب والسُنّة وهكذا والنظر فيها.

والجمع هو الصواب، يعني هذا هو الأصوب بما ما هي أصول الفقه.

طيب، الآن عرفنا ما هي أصول الفقه، فما هو القطعي وما الذي يقابله؟

القطعي، معنى القطعي هنا ليس إلا في طرق – هو يناقش هنا، سنرى بعد ذلك أن مقصوده بالقطعي أي بالثبوت وليس بالدلالة، وهذا يكفي –، يقول أن القطعي يقابله عندهم الظني، بأن هذه الأصول أي القواعد التي يستخدمها أو يُعمِلها الفقيه في الاستنباط، هذه القواعد يقول: يقينية.

وإذا قلنا بأن الأدلة الإجمالية لمن يُدخلها، فيقول: بأن الأدلة الإجمالية هذه يقينية، اليقيني بمعنى ما لا يمكن للمرء دفعه، لا يجوز دفعه، لماذا؟ إما على جهة الاضطرار وإما على جهة الثبوت – هذا مهم –. كيف يثبت اليقين؟ كيف يثبت اليقين للعلوم؟ إمّا أن يثبت على جهة الاضطرار وإمّا أن يثبت ..

الآن ما معنى أن يثبت على طريق الاضطرار؟ عندما يقولون من أدلة العقل أن الكل أكبر من الجزء، هل يحتاج هذا دليل؟ لا يحتاج إلى دليل لأن هذا الحكم – هذا حكم عقلي – لأن هذا لا يمكن دفعه، إذاً هو اليقين، ما معنى لا يمكن دفعه؟ لأنه ثبت في الفطر بالاضطرار.

عندما نقول بأن الإنسان جائز الوجود، ما معنى جائز الوجود؟ أي يمكن تصور وجوده وممكن تصور غير وجوده، الآن هذا يقع {هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ}: الموت والحياة اضطراراً يوجبان هذا الحكم، الإنسان يمكن أن يوجد وممكن ألا يوجد، واضح؟

يقولون: الله واجب الوجود؛ لأنهم لا يتصورون الوجود بدونه، ما معنى؟ أنه لا يمكن دفعه.

إذاً بمَ يثبت اليقين؟ بالاضطرار، أو إيش قلنا؟ إمّا أن يثبت بالاضطرار اليقين وإمّا أن يثبت بأدلة اليقين، الاضطرار الأول ما احتجنا إلى أدلة.

كيف أدلة اليقين؟ هناك عند العلماء أدلة تُعتبر يقينية مثل الاستقراء الكلي؛ الحكم الكلي المستنبط من جميع أفراد الجزئي، هذا يقول يقيني، واضح؟

فإذا كان الدليل يقينياً كان العلم المنتج منه يقينيًا.

إذاً بمَ يثبت اليقين؟ إمّا بالاضطرار بما لا يمكن دفعه، وإما أنه ثبت بطريق اليقين، إيش طريق اليقين؟ عندهم أدلة يقينية.

طيب، ما هو الذي يقابل اليقين؟ الظن.

هنا نتكلم فقط عن طرق الثبوت وليس عن دلالة الثبوت، واضح؟ ماذا يفيد هذا من دلالة؟ هذا موضوع آخر، نتكلم هنا فقط بما تثبت العلوم.

الظن عندهم ما لا يكون قطعياً ما لا يكون يقينياً، يمكن للنفوس أن تدفعه، واضح؟ يمكن للنفس أو للعقل للإنسان أن يدفعه، أخبرته بخبر فيمكن أن يقبله ويمكن أن ينازع فيه.

طبعاً من الأمور المهمة جداً أريد أن أنبه عليها هنا، بأن مثلا من اليقينيات منع وجود الشيء في مكانين في حال، أنا سأذكر هذه لفائدة، يقولون: من اليقين – يذكرونها في كتبه هذه المناطقة – يقولون من اليقين عدم جواز وجود الشيء في مكانين في حال، في نفس الوقت الشيء نفسه، وأجازه الصوفية.

وهذا يفتح لكم باباً من أبواب معرفة فساد العقل في داخل البيئة الإسلامية، إلى أي درجة وصل الجانب الغنوصي في أُمّتنا وهم الأغلب من الصوفية وغيرهم، إلى القول بمحالات العقول، مش هيك الولي بكون عندك وبكون بالحج وبكون قال لك رآه في عدة أماكن، فهذا فقط... بعده أنتم خذوا بعده ما تريدون من أن تفهموا أن المذاهب الغنوص كيف غزت...

الغنوص، ما هو الغنوص؟ مذهب إنساني يدعو إلى المعرفة عن طريق الكشف، لأن المعارف إمّا أن تنشأ بالعقل وإمّا أن تنشأ بالنقل، ويقولون: الغنوص ينشأ بالكشف. – سؤال: هذه مذاهب صوفية؟ – نعم الصوفية المقصود به الصوفية.

إذاً ما الذي يقابل اليقين؟ هو الظن، ما هو الظن؟ هو ما يجوز للعقل دفعه أو ما لم يكن دليله يقينياً، فهمنا هذا؟

هذه من العبارات المستخدمة، من العبارات المستخدمة التي سنراها: الاستقراء، الاستقراء يقسّم إلى قسمين عند أهل العلم، وهذا من العلوم المهمة، الاستقراء دليل عند أهل العلم يستخدمونه في العقائد، في الفقه، في النحو، الاستقراء – بين قوسين – هو الذي أنتج علوم الإسلام.

الآن عندما يُقسّم – في العقائد مثلاً – عندما يقسّم علماؤنا التوحيد إلى أقسام، والتوحيد هو شيء واحد «لا إله إلا الله»، لكن عندما يقسمون المخاطِب والمخاطَب به، يقولون يُقْسم إلى توحيد ربوبية وتوحيد إلهية أو توحيد عبادة ، من أين حصل هذا التقسيم؟ بالاستقراء، واضح؟

عندما قال، من قال بأن النحو أنشأه علي بن أبي طالب بقوله: بأن الكلام اسم وفعل وحرف، ما الذي أنشأ هذا؟ الاستقراء؛ يعني استقرأ كلام العرب فوجده ينحصر في هذه المسميات، في أنه اسم، إمّا أن يكون اسماً الذي تتكلم به، وإمّا أن تتكلم بحرف وإمّا أن تتكلم بفعل، فجملة العرب لا تعدو أبداً عن هذه، هذا ما الذي أنشأه؟ الاستقراء.

وهكذا العلوم؛ عندما يأتي ويقول الواجب في الشريعة، الواجب في الصلاة إذا تركه المرء ينشئ كذا، أن الركن ينشئ كذا، أن هذه أركان، ما الذي أنشأ هذا؟ الاستقراء.

فإذاً الاستقراء هو ركن العلوم جميعها، وعند العلماء الاستقراء يقسّم إلى قسمين: استقراء كلي، واستقراء جزئي، الاستقراء الكلي: يُنشئ اليقين وهو دليل لا ينقضه إلا جاهل عند جميع الأُمم، الاستقراء الكلي دليل ينشئ اليقين ولا يرده إلا مجنون، إلا جاهل.

يعني لما الناس الآن يقولون – مما نستدل به – ما الذي أنشأ، قلنا أن توحيد الإلهية يقسّم إلى توحيد النُسك وتوحيد الولاء والبراء وتوحيد الحكم والقضاء والتشريع، هذا استقراء. لَمّا يأتي واحد ويقول: هذا تقسيم بدعي، نقول له: أنت مبتدع. لأنه يقول: لم يقل به السلف، نقول: السلف أنشأوا قواعد العلوم ولم يحصروا العلوم، العلماء ما حصروا العلوم، ولذلك أنشأوا لنا ما يسمّى بـ«توحيد الأسماء والصفات»، من أين أتيتم به؟ الاستقراء، وأنشأوا له علماً خاصاً به، وهكذا.

ولذلك علماؤنا علمونا قواعد الاستنباط وأهمها هو الاستقراء، ولم يحصروا لنا العلوم ولا المصطلحات، المصطلحات لا تنتهي والعلوم وأفرادها لا تنتهي، وإنشاء القواعد والأنماط لا ينتهي، هذا لا ينتهي هنا يأتي دور العالِم.

فعندما يأتي يقول لك: من أين أتيت بهذا؟ هذا جهل، اسأله: هل استقرأت؟ فإذا استقرأه وقدم له، أمّا أن يقول: لم يقل به الأوائل، هناك كل العلوم لم يقل بها الأول.

طيب، إذاً الاستقراء هو دليل يقيني ينشئ اليقين ولا يرده إلا جاهل، الآن ما هو «الاستقراء الكلي»؟ هو — انظر – ما هو الاستقراء؟ – هذا هنا مهم جداً هذا، هنا هذا بدك تنظفه – الاستقراء هو قراءة، الاستقراء هو من القراءة، إذاً هناك قراءة، ما هي هذه القراءة ؟ هو إدراك النُّظُم الجامعة للأشياء، أنت قرأت معاني الأشياء فأدركت اتفاقها على معنى ، هذا هو الاستقراء.

لكن انظر إلى عظمة علمائنا في استخدام كلمة القراءة لهذا المعنى، إذن القراءة هنا عند علمائنا هي النظر وهي البحث والاستنباط. كلمة قرأ لا تعادل كلمة تلا، ولذلك قال الله ﷻ: {سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى}. القراءة هي استيعاب ما يتلى عليك، استيعابه، ادراكه، فانظر هذا من عظمة علمائنا.

الاستقراء، ما معنى الاستقراء؟ يعني قرأت أفراد المجموعة التي بين يديك جميعها، جميع أفرادها؛ كأن تريد أن تعرف ما هو الإنسان، فقرأت جميع الإنسان فوجدت فيه صِبغة جامعة له، هذه القراءة التي هي قراءة مستوعبة تامّة لجميع الأفراد ومدرِكة لحقائق هذا الذي قرأته، ونظرْتَ فوجدت فيه شيئاً جامعاً؛ هذا هو الاستقراء الكلي. واضح الاستقراء الكلي؟

أنا أحضر لك حبات تمر فأقول لك: أعطني شيئاً جامعاً لها، فأنت تنظر فيها قراءةً، ما معنى القراءة هنا؟ النظر والبحث والتدقيق، قرأتها فوجدتها أنها مثلاً كلها فيها صفة البياض فقلت هذه بيضاء، هذا استقراء كلي، هذه صفة تجمعها، صفة البياض، هذه تجمعها صفة الحلاوة، وهكذا.

فالاستقراء الكلي هذا لا ينكره إلا جاهل، وهذا الاستقراء الكلي بقاؤه يعني بقاء العقل الناظر فيه متفتحاً، ما دام موجود في عقل متفتح تبقى القراءة قائمة في كل العلوم وفي كل الأشخاص وفي كل الجماعات وفي كل الأحداث، هذا الذي يجعلك تقرأ الظواهر، هذه ظاهرةٌ عجيبة، فأنت تبحث فيها في داخلها لترى ما هو الخط الجامع الخيط الجامع لخرزها .طيب، إذا يقابل الاستقراء .. فهمنا الاستقراء الكلي؟ مفهوم.

الآن يأتي «الاستقراء الجزئي»، الاستقراء الجزئي: أن تقرأ أغلب ما بين يديك من الأفراد؛ عندك أفراد لم تقرأها كلها قرأت أغلبها فهذا عند أهل العلم بعضهم لا يراه دليلاً وبعضهم يراه دليلاً ظنياً، يعني لا تستطيع أن ترده رداً كلياً ولا تستطيع أن تقبله قبولاً كلياً، فيبقى في مجال الظن الراجح لأنك قرأت الأغلب، وهذا يسميه بعضهم اليوم الإحصاء، وإلى آخره، له أسماء جديدة، فهذا عندنا الاستقراء.

فالذي ينشئ – هنا سنرى – أن الإمام الشاطبي الذي أنشأ لديه اليقين هو الاستقراء، الذي أنشأ لديه اليقين في أصول الفقه هو الاستقراء، وهكذا يقول، سنرى نحن، واضح؟

إذاً فسّرنا معنى كلمة أصول الفقه، ماذا؟ قطعية، تكلمنا عن الأدلة اليقينية والأدلة الظنية، الاستقراء الظني والاستقراء القطعي.

ثالثاً: الشاطبي يفتح لنا أنواع الأحكام، هذا في باب عند المناطقة والمتكلمين، لكنه يستخدمها فنحن على وجه الاضطرار، كما قال المتنبي: قَلِق كأن تحته الريحُ، احنا هيك مضطرين شو بدنا نسوي.
قلت بسبب الاضطرار، على الاضطرار أن ندخل هذه العلوم.

يقول الشاطبي /: يستخدم تلك العبارات منها أنواع الأحكام، ما هي أنواع الأحكام في الوجود؟
يقول علماؤنا الأقدمون: بأن الأحكام ثلاثة:

أولاً:الحكم الشرعي؛ وهذا معروف، ما تعلق بالحلال والحرام والأحكام الخمسة المعروفة.
إذاً أولاً الحكم الشرعي – الأحكام ثلاثة في الوجود –، ما هو الحكم؟

الحكم هو – بهذا المعنى ما هو الحكم؟ – مُقرَرات الشيء، المقررات التي يطلقها المرء على الشيء؛ إمّا أن يطلق على الشيء حكماً شرعياً؛ حلال حرام ، وإمّا أن يطلق عليه حكماً عقلياً، والأحكام العقلية عندهم ثلاث، أنا أقدم هذه المقدمات حتى نقرأ المقدمة بسهولة وبيسر فنفهم ماذا يقول الشيخ، وأنا قلت هذا لا تجدونه بعد ذلك، هذا مضطرين إليه في الابتداء وإن شاء الله بعد ذلك تجد الأمور أسهل من ذلك بكثير، لكنها مقدمةٌ ضرورية، وهي مقدمةٌ نافعةٌ لنا لفتح هذا الباب حتى نفهمه، حتى نعرف كيفية قراءة كتب تراثنا وسلفنا.

إذاً عندنا إمّا الحكم الشرعي وعرفنا أقسامه أو سنعرفها، وإمّا الحكم العقلي؛ والحكم العقلي إمّا أن يكون عندهم واجب أو جائز أو مستحيل، وهذا تكلمنا عنه الآن، الحكم الواجب: ما لا يردّه العقل ويؤمن به على وجه الاضطرار.
المستحيل لا يكون، كما ضربنا أمثلة في اجتماع ضدين معاً في حال، اجتماع ضدين معاً في حال – مش هيك بقولوا هاي عبارة مهمة –: اجتماع ضدين معاً في حال أغرب ما يأتي على العقال، واضح يا مشايخ؟

لكن نحن بنجمع وما شاء الله لأنه نحن عندنا ولاية والولاية كسرت كل القواعد!

المهم، فالمستحيل مثلاً أن يكون الجزء أكبر من الكل، هذا مستحيل، وضربنا هكذا.

ما يناقض الواجب في الأحكام العقلية هو المستحيل، والجائز هذا جائز أن يكون وجائز أن لا يكون.

وها هنا نقطة – هذه نهتم بها أنا أضعها لأهميتها لأننا سنستخدمها كثيراً – ما أجازه العقل لا يعني أن تجيزه العادة والوجود، **ما أجازه العقل لا يعني أنه جائز الوجود**، – أيوا؛ هذه احفظوها لأننا سنحتاج إليها كثيراً – كثيراً ما يكون في العقل جائزاً، ممكن العقل يجيزه، لكن في الوجود لا يمكن وجوده لعدم وجود أدواته ولا أولياته، ولذلك الناس

يضعون الاحتماليات الكثيرة ويقول العلماء: هذه احتمالات عقلية يعني يمكن للعقل أن يتصور وجودها لكن في الواقع لا يمكن أن تكون موجودة، فالعقل في تصوراته أوسع من الواقع.

الآن عندنا الأحكام العادية، نفس الحاجة، الأحكام العادية التي تنشأ - ماهي الأحكام العادية؟ - التي تنشأ عن طريق الملاحظة؛ النار تحرق، - هذا الثالث - الأحكام قلنا ثلاث: أحكام شرعية، أحكام عقلية، أحكام عادية تنشأ عن طريق الملاحظة.

الآن عرفنا مصطلحات الشيخ التي يستخدمها بين يديه.

هنا الشيخ يَجْبَهُنا - يجبهنا أي يضرب جباهنا - مواجهة فيقول: أن أصول الفقه قطعية، فهمنا الآن واضح الكلام؟ عبارته واضحة.

من أين أتيت يا إمام بهذا؟ الناس نازعوه وهو نازع الناس، قبل الشيخ هناك من نازع هل أصول الفقه قطعية؟ الشيخ يريد أن يقر أنها قطعية، ما الذي تريده بالقطعية؟ هل الأدلة التي يقولها الأصوليون - الأدلة الإجمالية - قطعية؟ أم أن هناك ما هو قطعي وهناك ما هو مختلف فيه؟ خلينا نوحّد العبارة، إلا إذا أراد شيئا آخر. يمكن لنا أن نقول: الشيخ يريد شيئاً آخر، لكننا حين نتعامل مع الألفاظ التي بين يدينا نجد أن الشيخ لم يُصب فيها؛ لأننا إذا قلنا بأن أصول الفقه هي القواعد التي - على قاعدتنا، الطوفي والشوكاني وغيره - أن أصول الفقه هي القواعد التي يستخدمها الفقيه في استنباط الحكم الشرعي، هذه قواعد لا يوجد إلا القليل متفق عليه، أو يوجد ما هو متفق عليه ويوجد ما هو مختلف فيه.

لنأتي إلى دلالة العام، لنأتي إلى علاقة العام بالخاص، لنأتي إلى القاعدة: هل يبدأ الفقيه بالجمع بين الأدلة أَم في ترجيح النسخ أولاً؟ وهو قول أحد الأقوال دون الآخر، هذه هي القواعد التي يستخدمها الفقيه في الاستنباط ومختلف فيها، فمِن أين إذا وقع الاختلاف — ها! وقع الاختلاف، احنا شرطنا لَمّا قلنا قطعية: ما لا يمكن للعقل دفعه - فإذا وقع الاختلاف فمن أين جاءت القطعية هذه من أين؟ واضح؟

وإذا حملناها، أي الشروط – شروط المستفيد على التفسير الأول – فوجدنا أن هناك شروطاً للفقيه غير متفقٍ عليها؛ حِفظ كتاب الله، الشافعي يشترط للفقيه للمجتهد أن يكون حافظاً لكتاب الله، خالفه آخرون قالوا: يكفي أن يعرف أماكن آيات الأحكام فيرجع إليها، وهكذا، فمن أين جاء القطع؟

هناك إذاً الصواب، وهذا قول أستاذنا فتح الدريني عليه رحمة الله يقول – وهو من أعلم الناس في هذا العصر بالموافقات الشيخ الدكتور فتحي الدريني – كان يقول: بأن أصول الفقه منها ما هو قطعي؛ مثلاً كقولنا: إن القرآن الكريم دليل، إن السُنّة دليل، إذاً هناك في أصول الفقه ما هو قطعي، وهناك ما هو ظني.

هناك نقطة يسلّم لها أبو إسحاق الشاطبي، وسنقف عندها لأهميتها وبشرح إن شاء الله مسهب لها، فنتابع، واضح الكلام؟ انتهينا من هذه الكلمة.

"إن أصول الفقه في الدين قطعية لا ظنية، والدليل على ذلك أنها راجعة إلى كليات الشريعة وما كان كذلك فهو قطعي"

الآن، ما المقصود بكليات الشريعة؟ بمعنى، كليات الشريعة هي القواعد التي أنتجها الاستقراء الكلي، واضح ما هي الكليات؟ هي القواعد التي أنشأها الاستقراء الكلي.

لو أردنا أن نعرف مثالاً، لقلنا مثال: أن الأمر يفيد الوجوب، هناك من يقول: هذه أخذت باستقراء كلي، وهناك من ينازعهم يقول: هناك من الأوامر في القرآن ما لم تكن كذلك... إلخ.

فالقصد بأن الكلية ما هي الكلية؟ الكلية هي القاعدة الجامعة لكل أفرادها، ما الذي أنتج القاعدة؟ الاستقراء، الذي أنتج الكلية، وهي القاعدة الجامعة التي ينتظم فيها جميع أفرادها، الذي أنتجها الاستقراء.

هنا لأنه سيعود، فقط أنا أنبه لما سيعود إليه، هذه الكليات – انتبهوا – وهذه من طرق البحث للأقدمين وتعمقهم وإكثارهم لها، هذه الكليات ما التي أنتجها؟ لما قلنا: الاستقراء لجميع الأفراد، إذن من الذي أنتج الكلية؟ الجزئي، بأي

آلة وصلنا إليها؟ عن طريق الاستقراء. لكن كيف نتجت الكلية؟ بالجزئي، إذن من الذي سابق الكلي أم الجزئي في هذا الباب؟ إذن الجزئي هو الذي سبق الكلية.

ومن هنا هذا يدخلنا في الفرق ما بين القواعد الأصولية والقواعد الفقهية، واضح؟ فالقواعد الأصولية سابقة على الجزئيات حاكمة عليها، والقواعد الفقهية تالية للفرعيات - تحتاج إلى شرح ولكن نكتفي الآن بها - القاعدة الأصولية سابقة على الفرعي، بل لم يُنتج الفرعي إلا بإعمال القاعدة الأصولية.

يعني عندما نقول —انتبهوا— بأن الصلاة فريضة لأن الأمر يفيد الوجوب فإن الله قال؛ "الأمر يفيد الوجب" استخدمناها من أجل إنتاج الحكم الفرعي أن الصلاة واجبة لقوله تعالى: {وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ} فلما كانت أمراً والأمر يفيد الوجوب دلَّ على هذا الحكم، هذه قاعدةٌ أصولية، فالقاعدة الأصوليّة سبقت، سابقة للفرعي.

لكن القاعدة الفقهية لَمّا نقول: (لا ضرر ولا ضرار) هي حديث نبوي، أو لو جئنا بقولنا: الشك لا يبطل اليقين أو اليقين لا يزول بالشك، هذه قاعدة فقهية مش قاعدة أصولية، من أين نتجت؟ من استقرائنا لفروع فقهية، فإذاً كانت القاعدة الفقيهة تالية على الفرعية، واضح؟ والقاعدة الأصولية حاكمة على الفرعية، قد سبقتها.

فيقول هنا: "والدليل على ذلك أنها راجعةٌ إلى كليات الشريعة" لَمّا كانت كليات الشريعة - صارت هكذا العبارة - ولَمّا كانت كليات الشريعة قد أنتجها الاستقراء الكلي فهو دليلٌ يقيني كانت قطعية، لأنها أنتجت من قطعي.

"بيان الأول ظاهر بالاستقراء المفيد للقطع"

صار الآن الكلام واضح؟ أنها كلية فأُنتجت عن طريق الاستقراء الكلي المفيد لماذا؟ هذه كلمة القطع مثل كلمة اليقين، واضح؟ فصار الكلام الآن واضحاً بيّناً إن شاء الله تعالى، "بيان الأول ظاهر بالاستقراء المفيد للقطع"، نعم...

"وبيان الثاني: من أوجه: أحدها: أنها ترجع إمّا إلى أصول عقليّة، وهي قطعيّة "

هنا نقف قليلاً وهذا ما أريد أن أقوله. بلا شك أن الشيخ هنا في هذا الموقف هو مُنتَج كلامي، هو يقول كلام صحيح ولكن على الجملة هنا الشيخ منتج كلامي، وهذا للأسف نشأ في عصر كثر فيه الهجوم على الشريعة، وبالتالي نشأ ما يسمّى بـ«الدليل العقلي» و«الدليل النقلي»، وهذه أصلاً تحتاج إلى دروس وتحتاج إلى بيان، ولا يكفي ما يقال ما تسمعونه: العقل يوافق النقل، هذه كلماتٌ سهلة الآن أن نقولها، لكن كيفية إنتاج هذه المواد العلمية في تاريخ أُمّتنا له ظروفه.

ولكن ما يهمنا الآن، أننا لا ننكر بأن الحكم العقلي مفيد للقطع، بس على أي شرط؟ على ما اشترطنا عليه أن الحكم العقلي قد أفاده الاستقراء الكلي، واضح؟ مش هيك قلنا؟ أن الحكم العقلي يفيد القطع بشرط أن يكون أنتجه الاستقراء الكلي لأنه هي قضية عقلية هذا، بماذا أفدت؟ عن طريق العقل، بماذا أخذت هذا الحكم؟ عن طريق الاستقراء الكلي آمنا بهذا. لكن المصيبة في أن المقابل له – وهو الحكم الشرعي – بهذا القطع الذي حمله الحكم العقلي صار الحكم الشرعي عند من تكلم به لا يفيد هذا القطع واليقين، لا يفيد. وصاروا على القسمة التالية بأن الدليل الشرعي ظني جملةً، لماذا؟ إما أن يحملوه على الظن من جهة الثبوت، وإما أن يحملوه على جهة الظن من جهة الدلالة.

هذه الثنائية المقيتة والصراع بين ما هو عقلي وما هو نقلي هو الذي أنشأ ما يُسمّى بالتأويل، مفهوم؟ هو الذي أنشئ ما يُسمّى بالتأويل، الذي سماه ابن القيم "طاغوت"، سماه طاغوتاً، لماذا؟ يقول بأن الشريعة، ممكن القرآن تقول: القرآن قطعي بلا شك في ثبوته، لأنه مستفاد من جهة التواتر، والتواتر عندهم دليلٌ يقيني لا يمكن الطعن فيه، في أنه نزل من الله إلى آخره، ولكن ما هي دلالته؟ يقولون بأن -هنا انتبه لهذه النقطة وهذه إن شاء الله نأتيها عند الكلام على العام والخاص وغيرها من الألفاظ لكن نقف عليها لأهميتها هنا – يقولون بأن: عامّة الخطاب العربي على مستوى الظاهر، أرجو أن تفهموها وستحل إليكم إشكال كثير وتعرفكم بطريقة كلام علمائنا في هذه الفترة، الأوائل لا يتكلمون بهذا، ليس عندهم هذا.

بماذا حُملت المعاني الإلهية بماذا حُملت؟ في كلام رسول الله ﷺ، في القرآن بماذا حملت؟ حملت باللغة؛ الذي حمل المعاني الإلهية لنا لتصل إلينا عن طريق اللغة، قالوا :اللغة عامتها في مستوى الظاهر، والظاهر دلالته على المراد ليست يقينية. أين الذي يُنشئ اليقين في الدلالة؟ قالوا هو النص وليس الظاهر.

ما الفرق بين النص والظاهر؟ هذا لو أن هناك دراسة للفقه مستوعبة لكان الجواب سهلاً أقف عنده، الظاهر: ما كانت دلالته على المراد دلالة مقدَّمة مع احتمال وجود الآخر، والنص: ما كانت دلالته على المراد مفردة لا يشاركه غيره فيه. ومثال ذلك لو مثلنا أن المعنى للكلمة كالكرة، فإنك تنظر إلى الكرة فتجد أن عامتها على لون واحد لكن قد يشارك هذا اللون ألوان أخرى في جهة يسيرة منها، مفهوم الكلام؟ عندنا كرة لونّاها بالسواد، أبقينا جزء يسير منها لوناه بالبياض أو لوناه بالبياض وأحمر وأزرق إلى آخره، فهذا هو الظاهر. النص لا، جئنا إلى الكرة ولوناها جميعا بالسواد، فدلالة الكلمة على المراد في النص دلالة واحدة لا يوجد غيرها. دلالة الظاهر على المراد دلالة أغلبية لكن قد يشاركها، واضح الكلام؟

فلمّا قالوا بأن عامّة العربية – هذه كلمة الجويني – فلما قالوا بأن عامة اللغة العربية دلالتها الظاهر لا النص كان احتمال وجود التأويل فيها قائما، واضح؟ ممكن تؤول.

ولَمّا نعود نقول، قال: لما كانت العربية دلالة ألفاظها على المراد في مستوى الظاهر فدل على إمكانية التأويل، نعيد العبارة بطرق مختلفة ودالة على شيء واحد.

طيب؛ إذاً الأحكام العقلية عندهم أحكام ماذا؟ يقينية، والآن جئنا للشرع، دعك أن القرآن إفادة اليقين أنه متواتر، نتكلم حتى على دلالته فالآن الدلالة أغبها ظني، إذن أغلبها ماذا؟ أغلبي، ظني غالب. إذن من الذي يقوى؟ اليقيني أم الظن الغالب؟ اليقيني.

وبالتالي كان واجباً على أي اعتراض بين البرهان – الآن بديش أتوسع البرهان، سآتي إليه – أي اعتراض بين العقل والنقل وجوب التأويل، بندور على هذا الجزء في داخل هذه الكرة وإن كان ضعيفا ليتوافق مع العقلي؛ هذا الذي أنشأ التأويل، واضح الكلام؟

هذه كلمات المتكلمين من أئمتنا العظماء، الذين دافعوا عن الشريعة في وقت هجوم الزنادقة، لكن للآخرين كلام – الذين ابتعدوا عن تعظيم الشريعة – هؤلاء معظمين للشريعة كما ترون ويعني هم يريدون نصرة الشريعة ولكن عندنا ناس ذهبوا أبعد من ذلك، تجدون كلامهم قد غزا بعض المعظّمين للشريعة؛ وهو أن القرآن دليلٌ خطابي والعقل دليل...، هذه كلمات يجب أن تعرفوها، هذه جزءٌ من قراءتنا للتراث، إذا كنت لا تعرف الألفاظ، واحد بقول طيب ليش مغلبنا، نقول: خلص طيب، لا تقرأ كتب التراث، سَكّر عليها، فنحن مضطرين ليس لأن هذه العلوم وليس لأن المنطق هو علوم الإسلام، لا نقول هذا. علوم الإسلام بريئةٌ من هذا، ولكننا حين نقرأ التراث لا بُدَّ أن نمر على هذه المصطلحات، و العلماء يتعاملون بها وحتى المشايخ السلفيين يتعاملون بها، أنت لَمّا تذهب لابن القيم تجد هذه: البرهاني واليقيني والقطعي والظني والعقلي، تجد هذه الكلمات.

أحد الإخوة كنا نقرأ يوماً في (إعلام الموقعين) فمرةً مررنا على القياس العقلي وقياس العلة، قال لي: والله ما بعرف غير القياس المذكور بكتب الفقه، وهو يقرأ كتاب رجل سلفي أصيل ومضطر أن يعرف ما معنى هذه الكلمات وهذه المصطلحات، هذا مهم جداً، خذوها تُتعبنا قليلاً لكنها بعد ذلك تفتح لنا الأبواب، الراحة في قراءة الكلام دون أن يعترضنا معترض.

النقطة الثانية: الذين ابتعدوا أكثر من هؤلاء في إهانة الشريعة، ولم يقصدوا، المتكلمين كما ترون نصروا الدلالات العقلية أو البراهين العقلية كما يسمونها على الشريعة، على وجهٍ ما، ونشأ التأويل المصيبة والطامات فيه.

والكلام كله على قضايا الأخبار الغيبية وليس في الأحكام. الآخرون ابتعدوا قليلاً عن موطن هذا التعظيم أو قل تعظيمهم بحيث قالوا منكرا من القول وزورا، وهو أن الخطاب القرآني وهو دلالة خطابية، القرآن دلالة خطابية، هذا

كلام الفلاسفة وبعض من تعلق منهم ممن تنشّق بالفلسفة ولو كان فقيهاً، وأن أدلة العقول برهانية، هنا نشأ ماذا عندنا؟ نشأ مصطلحان: مصطلح البرهاني ومصطلح الخطابي.

مصطلح البرهاني، البرهان ما هو؟ البرهان هو تركيبات العقول وأدلتها هذه أدلة عندهم ماذا؟ برهانية معنى برهانية أي مقطوعة لا يجوز ردها قطعية لا يجوز ردها، وأما خطابية، كيف خطابية؟ قالوا بأن كلام المناطقة والفلاسفة كلام لأصحاب العقول، والقرآن والسنة كلام موجه للعوام فهو خطابي، ما هي أدلته؟ أدلته التخويف والترغيب – أيوا؛ شفتو وين وصلت؟ – أدلته ما هي أدلته؟ أنه يخوف ويرغب وهذه مما تصلح للعوام خطابية، واضح الكلام؟

وهذا مأخوذ من كلام أرسطو في تقسيمه لأساليب الخطاب، أرسطو هو الذي قالها، قال: هناك خطاب برهاني وخطاب خطابي؛ خطابي يستخدم الترغيب والتشويق ولكن لا يستخدم العلوم ولا البرهان العقلي، والعقل في مباحثه، أدلته برهانية يستخدم التي لها أصحابها، واضح الكلام؟

هل الكلام هذا صحيح؟ نعوذ بالله، والله أعلم بمن خلق، والله عز وجل ما من قضية في الكتاب إلا وهي مُقامة على معنى من معاني الحق {وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ} ولذلك أدلة القرآن هي أدلة العقول السليمة وكذلك سائقةً للنفوس السليمة، يكفي هذا الآن.

قلنا بأن القرآن، هذا من مهمات القرآن، إمّا أن يجرد الكلام تجد الكلام في كلام الناس إمّا أن يجرد على العاطفة وهذا الكلام الصوفية وكلام العوام إمّا أن يجرد عن العاطفة بدون العقل، وإمّا أن يجرد بما يزعمون أنه العقل بلا عاطفة، والقرآن الكريم جامع للأمرين يعطي العقل أقصى ما يريد من أدلة، ويملأ النفس أقصى ما تريد من تشوف وتخوف.

الكتاب للشاطبي ليس كله هكذا لا تخافوا، لكن هذه مضطرين أن نتعامل مع هذه المقدمة، وكان باستطاعتي أن أقول دعكم من هذا الكلام لا قيمة له في أصول الفقه ولكن ستبقى في قلوب بعض طلب العلم الحسرة كل من نظر إليها قال: إيش هذا، بينة واضحة نتعب يوم يومين ولكنها تريحنا إن شاء الله فيما يأتي من كتب، أي كتب أخرى

تجدون هذه الكلمات، حتى في كلام السلف حتى في كلام ابن تيمية في كلام ابن القيم هذه الكلمات موجودة، هذه طرائقهم في بحث العلم وفي علوم أخرى عندما أنت تفتح كلام ابن تيمية في الرد على المتكلمين هذه كلماته، يعني حتى وأنت تقرأ لرجل سلفي فيما يقول، أو لرجل سُنّي فهو يستخدم هذه العبارات لأنها أسلحة عصرهم هذه أسلحة عصرهم.

هل يقول قائل: أين أسلحة ..، لا يمكن أن تقيم الحق اليوم حتى تفهم الحق على ما كان عليه الأوائل، وهل هذا فيه فائدة لنا؟

والله أنا كان في قلبي أن أتكلم آثار هذا الكلام على واقعنا، ولكن ليس هذا وقته، تفضل يا شيخ: " البيان الثاني من الأوجه أحدها: أنها ترجع - أي أصول الفقه —

"أنها ترجع إمّا إلى أصول عقلية وهي قطعية، وإما إلى الاستقراء الكلي من أدلة الشريعة، وذلك قطعي أيضاً"

إذن ها هنا نقطة تضعونها فيما تَقَدَّم من المقدمات التي ذكرتها، بأن أصول الفقه إيش قلنا؟ هو العلم الجامع للعقل والنقل، وجدتموها الآن هذي صارت واضحة.

أن أصول الفقه، يقول: إما أن ترجع إلى أصول عقلية وإما إلى استقراء كلي من أدلة الشريعة، فإذن أصول الفقه هي جامعة - انتبهوا أصول عقلية وانتهينا منها - يقول هي إلى كليات، إلى استقراء كلي من أدلة الشريعة.

إذن في الحقيقة لا يمكن للمرء أن يكون عنده أصول الفقه على استواء حتى يكون - شوف انتبهوا - حتى يكون جامعاً لفروع الشريعة، هل هذا كافي؟ شو بقول هو؟ دعكم من الدليل العقلي تعالوا وتأملوا الدليل النقلي شو بقول - انتبهوا إليها هذه العبارة مهمة - استقراء كلي.

استقراء كلي في ماذا؟ في أدلة الشريعة. إذاً ماذا يحتاج؟ الأدلة. يحتاج إلى أن يكون قارئاً لفروع الشريعة، هذا واحد، أن يكون عالماً علوم الشريعة والنصوص بين يديه، الفروع بين يديه، كتاب الله بين يديه، السُنّة النبوية بين يديه، الفقه الذي قال به الصحابة بين يديه، هل هذا يكفي؟ هل هذا يصنع من أصولياً؟ يصنع من عالماً لإنشاء الأصول؟

الآن الأُمَّة أُمّتكم تعرف الكلام، يتكلمون بالكلام لكن هل يستطيعون معرفة ما عرفه علي بقوله: الكلام اسم وفعل وحرف، هذه تحتاج إلى ماذا؟ عندما جاء الخليل بن أحمد الفراهيدي وقال بأن الشعر العربي محصور في هذه البحور، هذا كيف؟ الناس يحفظون الشعر في عصره يعرفون هذه الأفراد، لكن كيف أنشأ الكليات من الجزئيات؟ هذا هو.

هذه عبقرية البناء الإسلامي، هذه هي عبقرية العقل الإسلامي الذي لا يوجد له مثيل في العالم قط ولا في التاريخ الإنساني قط، وهي القدرة على إنشاء العلوم من مواد متعددة وكثيرة جداً أن ينشأ منها علمٌ جامعٌ لها، فقوله :الكليات المأخوذة من أدلة الشريعة؛ إذن الرجل الأصولي لا بُدَّ أن يكون عالماً لأدلة الشريعة، قادراً على نظمها في سلسلةٍ واحدة لا تختلف، واضح الكلام؟ احفظوا هذا لا تضيعوه.

"قال : ولا ثالث لهذين إلا المجموع منهما"

إذاً الأصول إمّا أن تأخذ من دليل عقلي وإمّا أن تؤخَذ من دليل كلي استقرائي، وإمّا الجمع بينهما ولا ثالث لهما.

"والمؤلف من القطعيات قطعي وذلك أصول الفقه"

تكلمنا عن هذا.

الآن هذه انتبهوا، أنا لا يهمني أن تحفظوا فقط العبارة، يهمني أن تعرفوا كيف ينشأ العلم، إذاً —انتبه – أقول مرة ومرات: أقام البرهانَ أولاً على دليل ما يقول، هل هذا كافٍ؟ لا بد أن يُنشئ النقض لما يعارض، هذه طريقة علمائنا، أن ينشئ الدليل على ما يقول، والدليل عند علمائنا يقسم إلى قسمين: دليل استشهاد ودليل اعتضاد. أنا لو بقيت في

هذه المواضيع في الصفحة الواحد سنة ما عنديش مشكلة لأن هذا مهم جداً، بعدين تقرأ الكتاب لحالك ما عنديش مشكلة.

الأدلة عند علمائنا إما أولا: أدلة استشهاد، أو أدلة اعتضاد. دليل الاستشهاد: هو الذي ينشئ الحكم، الاعتضاد: هو الذي يقوي الحكم. هل هذا كافي؟ *لا بُدَّ من وجود نقض المعارض*، واضح الكلام يا مشايخ؟

بمعنى أنك استدللت على المسألة واستشهدت لها بدليل قوي يُنشئ الحكم، بعدين قويتها من هنا وهنا، بعدين بعد ذلك هناك لا بُدَّ أن ينشأ في ذهنك أو في ذهن السامع بعض الاعتراضات، فلا بُدَّ أن ترد عليها .ومن الجهل بمكان ومن الانحراف بأجلى صوره هو أن يأتي العالم لينقض القاعدة بالنظر إلى دليل الاعتضاد أو بالنظر إلى الدليل النقض – وهاي بساووها اليوم أغلب المشايخ بتعاملوا معها وللأسف.

يأتون إلى الأدلة فيبتعدون عن دليل الاستشهاد ويتعلقون بما ذكره المثبِت على جهة التقوية والاعتضاد فيزعمون أنهم قد نقضوا الدليل، هذه طريقتهم.

وهذه طريقة العقّاد، مشهور بها العقاد في كتبه، ومشهور فيها شيخ معاصر من غير ذكر أسماء، ومشهور فيها أغلب المشايخ، تجد الشيخ كتب المسألة ألف فيها فيأتي ويقول: "ومما يدل على بطلان قوله أنه قال: .."، يذهب لماذا؟ يذهب إلى أدلة الاعتضاد، هو ذكرها مسكين من أجل أن يقوي مسألته يعرف أنها ضعيفة ما لو استقلت، فيقول انظر وما الدليل على أنه قال؟ انظر لقوله، وهذا منقوض وهو ذكرها، شايفين، مفهوم؟

أو يأتي إلى الدليل المعارض فينقض بعضه الذي ينقض.. يعني الدليل المعارض قد يكون فيه شيء يتعلق بالمسألة وشيء لا يتعلق بالمسألة، فهو يرد على ما تعلق بها من نقض فيأتي ليثبت ما لم يكن له تعلق بالمسألة في النقض، واضح الكلام؟

هذا يفعله مشايخنا، أذكياء في هذا ويفعلونه ولا يأتي ليناقش أصل المسألة ولا ما قاله في الدليل الأصلي، فيتعلق بالفروع أو ما تعلق بها من أجزاء ليست أصلية فيها، واضح الكلام؟

هذا يحتاج إلى أن تقرأوا كتب الردود وكتب المشايخ والكلام الذي يخرج في الإنترنت والكلام لما ينقضوا العلوم، كلها، أغلب ما ينقض مما يتعلق بالاعتضاد، وهذا كذلك جهل عند البعض في أنه يبدأ في أدلة الاعتضاد دون أن يذكر دليله الذي يستشهد به، أصلا ما الذي أقام المسألة؟ اذهب إليه أقمه بعد ذلك تذهب، وهذه طرقهم في البحث وطرقهم في النقض.

ماذا يقول الشيخ هنا؟ الثاني إيش؟ الآن ذهب الشيخ إلى نقض المعترض ما لو كانت غير كذلك فما الذي سيكون؟

"وَالثَّانِ : أَنَّهَا لَوْ كَانَتْ ظَنِّيَّةً؛ لَمْ تَكُنْ رَاجِعَةً إِلَى أَمْرٍ عَقْلِيٍّ؛ إِذِ الظَّنُّ لَا يُقْبَلُ فِي الْعَقْلِيَّاتِ ، وَلَا إِلَى كُلِّيٍّ شَرْعِيٍّ لِأَنَّ الظَّنَّ إِنَّمَا يَتَعَلَّقُ بِالْجُزْئِيَّاتِ"

هذه شرحناها ما أريد أن نقف عليها، خلاص واضحة؟ يقول: الظن يتعلق بالجزئيات بالطرق التي تعرفونها إمّا أنها: الظني دليله ظني الذي بما يُسمّى حديث الآحاد، وإمّا أنه منشَأ من الظاهر والظاهر لا يفيد إلا الظن، هذا الكلام .

"اذْ لَوْ جَازَ تَعَلُّقُ الظَّنِّ بِكُلِّيَّاتِ الشَّرِيعَةِ؛ لَجَازَ تَعَلُّقُهُ بِأَصْلِ الشَّرِيعَةِ لِأَنَّهُ الْكُلِّيُّ الْأَوَّلُ"

الآن هذا الذي قلناه هل نحن نقره عليه؟ لا، لا نقره عليه، ولكن نحن نتكلم هذه طرائقهم في إثبات المسألة.

"إِذْ لَوْ جَازَ تَعَلُّقُ الظَّنِّ بِكُلِّيَّاتِ الشَّرِيعَةِ؛ لَجَازَ تَعَلُّقُهُ بِأَصْلِ الشَّرِيعَةِ لِأَنَّهُ الْكُلِّيُّ الْأَوَّلُ"

بأصل الشريعة يعني بأدلتها.

ما هو الكلي الأول؟ أصل الشريعة يعني الكتاب والسُنّة.

"وَذَلِكَ غَيْرُ جَائِزٍ عَادَةً "..

هنا قوله عادة لماذا؟ ليبين لنا من أين نتج الحكم؛ هل هو من العاديات أم من العقليات أم من الشرعيات.

"وَأَعْنِي بِالْكُلِّيَّاتِ هُنَا: الضَّرُورِيَّاتِ، وَالْحَاجِيَّاتِ، وَالتَّحْسِينِيَّاتِ"

هنا هذه من قواعد الشريعة أن الأحكام إمّا أنها ضرورية وإمّا أنها حاجية وإمّا أنها تحسينية، وهذا ليس داخلاً في الأحكام الشرعية فقط، هذه في العقلية والعادية والحياتية، هذه مما ضربنا أمثلة، ضربنا في ذلك أمثلة مما هي فائدة أصول الفقه أنها تنتج العقل النظيف السديد في ترتيب حياة المرء، فإنه يجعل هناك أشياء ضرورية في الحياة هناك حاجية هناك تحسينية.

هنا نقطة: هنا لما نتكلم أشياء ضرورية وأشياء حاجية وأشياء تحسينية، واضح؟ عندما يقولون ما هي الضرورية؟ ضرورية الدين، ضرورة النفس ضرورة المال، وما هي الحاجية؟ السكن، الزوجة... إلى آخره، التحسينية هو مما لو فات لم يؤثر كثيراً. لكن هنا نقطة – انتبهوا هذا مهم – هل الشيء الواحد، الشيء الواحد نفسه، منه من هو أجزاؤه ضرورية أو أجزاؤه حاجية أو أجزاؤه تحسينية؟ ما من شيءٍ في الوجود إلا وهو داخل تحت الضروريات أو الحاجيات أو التحسينيات، ما من حكمٍ شرعي إلا وهو خاضعٌ لقانون الضروريات والحاجيات والتحسينيات، وما من شيءٍ واحدٍ في الوجود ولا من حكمٍ شرعي مفروضٍ علينا أو مخاطبينَ به إلا وهو مكوّنٌ من هذه الأركان الثلاث، واضح الكلام؟

الصلاة فيها ما هو ركن وشرط، ومنها ما هو واجب ومستحب – هذا داخل فيها – الصلاة وهي ضروريةٌ من ضروريات الدين ولكنها فيها نفسها ما هو ضروري وكذا، وهكذا، البيت منه ما هو ضروري لوجوده ومنه ما هو حاجي ومنه ما هو تحسيني وهكذا.

فكل شيءٍ في الوجود وكل حكم شرعي مخاطبين به إمّا أن يكون خاضعاً إمّا يسمى ضروري أو حاجي أو تحسيني، وكل شيء فيه هو مكون من أجزاء ضرورية أو حاجية أو تحسينية، لا بأس.

"وَأَيْضًا لَوْ جَازَ تَعَلُّقُ الظَّنِّ بِأَصْلِ الشَّرِيعَةِ؛ لَجَازَ تَعَلُّقُ الشَّكِّ بِهَا، وَهِيَ لَا شَكَّ فِيها "..

هنا الشيخ، وهذه والله تحتاج إلى وقفة وإن كان الوقت يضيق ولكن قوله " :وَأَيْضًا لَوْ جَازَ تَعَلُّقُ الظَّنِّ بِأَصْلِ الشَّرِيعَةِ لَجَازَ تَعَلُّقُ الشَّكِّ بِهَا " في الحقيقة هذه مخاطبات – أنا في ظني بعد القراءة والاستيعاب لها – هذه مخاطبات بعيدة عن واقع النفس البشرية.

وإن شاء الله لَمّا نأتي إلى حديث الآحاد وإفادة الظن إن شاء الله أفصّل لكم فيها، لأن القول بأن ما ينشئه الدليل الظني يمكن وجود الطعن فيه هذا في الحقيقة مجرد تصوّر عقلي.

نتكلم نحن عن نفسنا، القضية تتعلق بنفس؛ يعني نفس مطمئنة إليه، نفس غير مطمئنة إليه، ناس تقبله على جهة اليقين، نفس تقبله على جهة الظن الغال، نتكلم هنا عن ماذا؟ نتكلم عنا، عن نفوس، والنفوس لها أحوالها ولها ظروفها ولها الكلام عليها، وأؤجله إن شاء الله، أؤجّل هذا البحث فيما يأتي من كلامنا على حديث الآحاد .نعم، الثالث...

"أَنَّهُ لَوْ جَازَ جَعْلُ الظَّنِّيِّ أَصْلًا فِي أُصُولِ الْفِقْهِ؛ لَجَازَ جَعْلُهُ أَصْلًا فِي أُصُولِ الدِّينِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ بِاتِّفَاقٍ فَكَذَلِكَ هُنَا؛ لِأَنَّ نِسْبَةَ أُصُولِ الْفِقْهِ مِنْ أَصْلِ الشَّرِيعَةِ كَنِسْبَةِ أُصُولِ الدِّينِ وَإِنْ تَفَاوَتَتْ فِي الْمَرْتَبَةِ؛ فَقَدِ اسْتَوَتْ فِي أَنَّهَا كُلِّيَّاتٌ مُعْتَبَرَةٌ فِي كُلِّ مِلَّةٍ، وَهِيَ دَاخِلَةٌ فِي حِفْظِ الدِّينِ مِنَ الضَّرُورِيَّاتِ"

لأنها تحتاج إلى وقفة مطولة نقف إلى هنا، وبارك الله فيكم وجزاكم الله خيراً، ونسأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن ينفعنا بما تعلمنا، وبارك الله فيكم، والحمد لله رب العالمين.

أَسْئِلَة

- الشاطبي اجتهد في إثبات أن الأدلة القطعية - الشيخ: الأدلة ولا قواعد أصول الفقه؟ - الطالب: القواعد، يعني يقابل بها أهل المنطق مثلاً؟

لا، هنا هذه المسألة مما حصل فيها خلاف وهو سيذكر ما قاله أن ثلاثة قبله خاضوا فيها خوضاً متوسّعاً، وهو الباقلاني والجويني والمازري، اثنان مشارقة والمازري مغربي، خاض فيها على هذا المعنى، وفي النهاية هو يريد أن يدخل فيها كما دخل فيها هؤلاء.

وأنا في ظني وأعتقد أنه لم يخض فيها إلا ليقول هذا رأيي، وإلا فإفادتها في أصول الفقه أجنبية، ولكنه يقول أنا أدخل معكم فيما دخلتم فيه وهذا علمكم وأنا لي فيه قول، وهذه قلنا من إحدى أسباب الكتابة في العلوم وهو أن يكون الرجل مشاركاً فيما قالوا فيه فقط، وإلا فهذه في الحقيقة كما سيأتي فلن نحتاج إلى هذه المقدمة قط في قراءتنا لكل كتاب الشاطبي (الموافقات)، لن نحتاج إليها لكنه خاض فيها واضطررنا إليها بفائدة هذه المصطلحات التي تتردد كثيرا في كتب سلفنا، فقط وإلا لو لم يكن هذا لقلنا هذا الكتاب اختصّ بها ولا ضرورة لها ومشينا لنستفيد ولنصل إلى مواطن أصول الفقه الحقيقية.

الدرس [٧]

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، نعم يا شيخ أين وصلنا معك المقدمة الأولى...

نعم كنا مع تقريرات الإمام أبي إسحاق – رحمة الله عليه – بأن أصول الفقه قطعية، وقد تقدمت مقدمات مهمة أرجوا أن تُراجع لأهمية هذا الفصل، ولا أريد أن أعيد، قد يرجع إليها إن شاء الله، وقلنا بأن الأدلة عند العلماء، الأدلة تقسم إلى ثلاثة أقسام: أدلة استشهاد، وأدلة اعتبار، وأدلة نقض الاعتراض، نعم... كما قلنا، تفضل يا شيخ، ماذا يقول لنا الشيخ؟ في الثالث بعد أن تقدم أنها ترجع إمّا إلى أصولٍ عقلية وإمّا إلى استقراءٍ كلي إلى آخره ثم قال لو كانت ظنية وهذا نقض الاعتراض، والآن الثالث، تفضل...

"والثالث :إنه لو جاز جعل الظني أصلاً في أصول الفقه؛ لجاز جعله أصلاً في أصول الدين، وليس كذلك باتفاق، فكذلك هنا؛ لأن نسبة أصول الفقه من أصل الشريعة كنسبة أصول الدين، وإن تفاوتت في المرتبة؛ فقد استوت في أنها كليات معتبرة في كل ملة، وهي داخلةٌ في حفظ الدين من الضروريات"

في الحقيقة لو أردنا فقط أن نقتصر على هذا الذي قاله الشيخ أبو إسحاق هنا، لعلمنا بأن أصول الفقه عنده هي تقسيمات معتبرة عندهم في تقسيمات الشريعة، وهي الضروريات والحاجيات والتحسينات فقط، وليس هذا الإطلاق الذي يجبهنا به أبو إسحاق – عليه رحمة الله – في بداية كلامه أن أصول الفقه قطعية، فإن – كما تقدم – عندما نقرأ هذه الكلمة، ونقرأ بأن أصول الفقه قطعية، نعود إلى تلك الأدلة الإجمالية، لأن هذا هو تعريف أصول الفقه، أو القواعد كما قال الطوفي، القواعد التي يستند إليها الفقيه في استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية، قواعد الأصول، بهذا رأينا، ولا يمكن أن نوافقه في هذا القطع العام، لا يمكن أن نوافقه بأن كل مسألة من قواعد أصول الفقه هي قطعية لا يمكن. لأن الكثير من القواعد الأصولية مختلف فيها، فحين تكون قطعية، وقلنا بأن القطعي إنما ينشأ، إمّا لعدم قدرة العقل، إمّا لأن العقل يقبلها إضطرارًا فلا يقدر على دفعها ولا إحداث الشبه فيها وإمّا لأن

أدلتها قطعية، فحين يوجد الخلاف دلَّ على انتقاض القاعدة الأولى بأن العقل نقضها لوجود المخالف، لكن حينما جئنا إلى هذه الكلمة من أبي إسحاق التي تقدم قراءتها الآن نعلم بأنه أراد من أصول الفقه عنده هي التقسمة، هي القسمة، أو التقسيمات المعروفة بما يقال له بالضروريات والحاجيات والتحسينات، هكذا. وهذا يعني قصرٌ لأصول الفقه، قصر لأصول الفقه.

الآن نأتي إلى مسألة مهمة جدًا، وأنا أريد أن أنبه عليها وأن تحفظوها لأنها إحدى مفاتيح العلم لديكم، وهي مما فات الناس هذه الأيام، طلبة العلم، هذه القاعدة فاتتهم، أريد أن أنبه عليها، أن أقف عندها لأهميتها، وأريد أن تكون عندكم نبراسًا، وهذه القاعدة تقول بأن **قوة الدليل تعادل مرتبة المدلول** .هذه قاعدة، وهذه، نَشر ما يقال لهم بـ«المتعلمون الجدد» أو «السلفية الجديدة» أو «الظاهرية الجديدة» نشرت خلافها، ماذا تعني هذه القاعدة؟ تعني بأن الأدلة تختلف وتتفاوت مراتب ثبوتها، هذا واحد.

النقطة الثانية في هذه القاعدة التي تقدمت بأن العلوم مراتبها متفاوتة. إذًا الأدلة مراتبها متفاوتة، العلوم مراتبها متفاوتة. لا يجوز لنا –هذا مما يوحي به كلام الشاطبي– ومن لم يقرأ كلام الأوائل تدقيقًا يخطئ فيها، لأننا نقول بأن مرتبة الدليل عليها أن تعادل مرتبة المدلول، فإذا كان المدلول عظيمًا في الدين، يجب أن ترتفع مرتبة ثبوت الدليل، وإذا قلت مرتبة المدلول في الدين قَلَّت مرتبة ثبوت الدليل، كيف نطبق هذه القاعدة؟ عندنا العقائد، لا يجوز لأحد أن يقول بأن مرتبة العقائد في الدين هي كمرتبة الفروع، لا يجوز لأي أحد أن يقول بأن مرتبة التفسير – انتبهوا الآن سأبيّن لماذا – لا يجوز لأحد أن يقول أن مرتبة التفسير هي كمرتبة الفروع الفقهية، والآن سنبين، هذا سنبيّنه لأن هذه قاعدة مهمة، ومن لم يفقهها أخطأ كثيرًا. من هنا هذه العلوم التي ترونها الآن :صحيح السيرة النبوية صحيح التفسير، هذه كلها انحرافات عن مناهج السلف، هذه لم تكن هي طريقتهم. السيرة النبوية، لأن الفقه المستنبط منها ليس هو الفقه المستنبط من أحاديث الأحكام، بل الفقه المستنبط من السيرة النبوية أوسع وأكثر مدى من الفقه من الأحاديث التي يستنبط منها أحاديث الفقه، فلذلك ينبغي أن نوسّع دائرة ثبوت الدليل، والدليل على هذا: لنرى، المفسرون على ماذا يعتمدون في كثير – بغير الروايات – على ماذا يعتمدون في أغلب تفسيرهم؟ على اللغة. فهل ترون الحديث المرسل – وهو من أقسام الحديث الضعيف – أو الحديث الذي فيه راوٍ لا يصل لدرجة الكذب ولا النكارة بل هو رجلٌ يخطئ،

هل ترون الرجل الراوي لهذا الحديث أو هذا الحديث الذي ثبت بهذا الطريق الضعيف عند العلماء هو أقل قوةً مما يرويه اللغوي في تفسير لفظ من الألفاظ، أو شعر من الأشعار؟

ولذلك ينبغي على طالب العلم أن يتعامل مع النصوص الشرعية الواردة لنا من السلف، أن يتعامل معها جميعًا ولكن أن يضع كل واحد من هذه الأحاديث أو هذه الروايات فيما تدل عليه، الآن عندما نأتي إلى مالك، هذا النجم العظيم، الذي كان يتشدد أشد تشدد في قبول أحاديث الأحكام، لماذا يمدح سيرة موسى بن عُقبة؟ وعامة أحاديث موسى بن عقبة في السيرة أحاديث مرسلة، لماذا يأتي الإمام الأول عروة بن الزبير ليجمع السيرة فلا يتحقق من ...؟ ابن الزبير حين يروي أحاديث الأحكام التي يريد أن يستفيد منها الفقيه - يستفيد هو منها ومن يليه من الفقه - فلا يرويها إلا على جهة الإتصال، من أين أخذها؟ وعامة أخذه معروف من خالته أمنا عائشة ل، لكن عندما يأتي إلى السيرة لا يهتم بأن يرويها بسندٍ أو بغير سند، لماذا؟ لماذا يفعل هذا؟ يفعل هذا لأنه يعلم بأن دلالة السيرة فيما يراد منها أوسع مما يراد من أحاديث الفقه والأحكام، ولذلك هذه تسمحوا فيها لأنه يراد من هذه السيرة التربية، يراد منها العظة، لا يريد منها معرفة الحلال والحرام، فإذا جاء إلى الحلال والحرام تشدد في الحديث، ولكنه إذا جاء إلى ما هو أوسع من هذا توسع فيه.

الآن عندما نأتي إلى الإمام البخاري - عليه رحمة الله - لماذا يروي، هل الإمام البخاري، وهذه من جهالات الأطفال وطبعًا لا يقول بها العلماء ولا المبتدئون، ولكن تنتشر في نفوس الناس، يظنون مثلاً أن مسلم هو أوثق كشخص - باعتباره شخصاً، هذا مسلم، الإمام مسلم بن الحجاج - يعتبرونه أوثق من الإمام أبو داوود والدليل أن كتابه أكثر صحّة من سُنن أبي داوود، مع أن أهل العلم والشادي لهذا العلم، أي علم الحديث، يعلم أن الإمام أبا داوود عليه رحمة الله أكثر إتقاناً للعلل من الإمام مسلم. نعم، أبو داوود أكثر إتقاناً لعلم العلل من الإمام مسلم بن الحجاج - عليه رحمة الله - فلماذا يأتي هذا الإمام الجهبذ العظيم أبو داوود - عليه رحمة الله - ويروي في سُننه، في كتابه الذي قالوا فيه من كان عنده سُنن أبي داوود فكأن في بيته نبيٌّ يتكلم. لماذا يروي الأحاديث الضعيفة أو ما شابهها؟ لماذا يروي الأحاديث الصحيحة أو ما قاربها من الحسن أو ما كانت قريبة منها، لماذا يفعل ذلك؟ لأن الفقيه لا يمكن أن يستغني عنها. ولذلك هذه القاعدة يجب العمل بها .يقولون ما الفرق بين العقائد والأحكام؟ هذه قسمة غير صحيحة، هناك فرق بين العقائد والأحكام، هناك فرق بين الأحكام والتربية، هناك فرق بين التربية وبين غيرها.

لماذا يأتي الإمام البخاري الذي نقح كتابه (المسند الصحيح) بحيث لا يروي فيه إلا الطبقة العليا من الصحة، ثم يأتي إلى كتابه (الأدب المفرد) فيروي فيه الضعيف لماذا؟ هل هي خيانةٌ للأُمَّة أن يروي فيها الضعيف، أم لأنه أراد من هذا الكتاب الأدب، والأدب يُتسمح فيه في ذكر هذه الروايات وهذه المراتب، واضح الكلام؟ وهذه تحتاج إلى شرح، ولكن أقف عليها بنصب الراية فوقها فقط، أقول انتبهوا فإنه ينبغي على طالب العلم أن يبحث عن ما يراد من النص، فحينئذ يأتي إلى طرق توثيقه أو ما يعادله من الثبوت، من هنا الذين يضحكون على كتاب حياة الصحابة، في الحقيقة الجهل هو الذي يضحك عليهم، والعلم هو الذي ينبذهم، فإن كتاب حياة الصحابة مثلاً فيه أحاديث منكرة ينبغي أن يخلى منها، الأحاديث المنكرة هذه لا، كما قال الإمام أحمد /: "المنكر منكر"، ما معنى الحديث منكر؟ أي هو ضعيف ويخالف الصحيح، هذا لا يمكن أن نثق به، حديث أخطأ فيه عالِم، علينا أن نقول أخطأ، لكن الضعيف يُحتاج إليه في وقت، هذه كلمة الإمام أحمد، انتبهتم؟ المنكر منكر والضعيف يحتاج إليه في وقت، انتبهنا إلى هذه النقطة؟ فأن يأتي أحد يقول صحيح السيرة النبوية، ما شاء الله كل شيء الآن صحيح، يريدون الصحيح، أين بقية السيرة؟ هل هذه السيرة التي فيها الضعيف أو ما يقاربه والحسن وما هو أدنى من الحسن ولكنه ليس بمنكر، هل علينا أن ننبذها؟ الأحاديث المرسلة وهي عند أئمة الحديث هي أحاديث ضعيفة، علينا أن نرميها؟ هذا جهل، واضح الكلام؟

الإمام أبو جعفر الطبري – عليه رحمة الله –يعرف أن محمد بن حميد الرازي ضعيف، يعرف شيخه، وهو يعرف أكثر منك، لا تأتي لتتعالم عليه، وتقول أنت رويت عن رجل ضعيف فأنا أضعف حديثك، هو يعرف، ولكن يعرف أنه نافع، الإمام نافعٌ، هذا نافع في كتب التفسير وفي رواية التفسير .الإمام أبو جعفر الطبري هو إمامك وإمام إمامك بل أنت لا تعدل أن تكون تلميذًا عنده، يعرف أن حديث علي بن أبي طلحة عن ابن عباس مرسلة ولم يره، لكنها هي أوثق منه حين يقول الأصمعي عن لفظة أنها عربية صحيحة، واضح الكلام؟ انتهينا منها؟ من أين أتينا بهذه الجملة من كلام الشاطبي، ماذا يقول عليه رحمة الله؟ والثالث أنه لو جاز جعل الظني أصلاً في أصول الفقه لجاز جعله أصلاً في أصول الدين، وليس كذلك بالاتفاق وكذلك هنا"، أنا ابتعدت كثيرًا لأصل لهذه النقطة، أنه يريد أن يقول ما كان أصلاً ينبغي أن يعادله في الدليل، فيقول هو لما كانت أصول الدين قطعية، فأصول الفقه قطعية، فما كان داخلاً في الأصول فهو قطعي، هذه قاعدته. هل الأمر كذلك؟ الأمر ليس كذلك بلا شك، فإن أصول الدين المقصود بها عند أهل العلم هي العقائد، صحيح؟ أصول الدين ما هي؟ العقائد. يسمونه الفقه الأكبر، أصول الدين، والمتأخرون يظلمونه فيسمونه علم الكلام، ويسميه أهل العلم بالعقيدة :العقيدة كذا، العقيدة الطحاوية، العقيدة السفارينية إلى

آخره، فأصول الدين ليست هي أصول الفقه، لأن أصول الدين هي البناء وهي القاعدة. بخلاف أصول الفقه فإنها القاعدة التي ينبني عليها الفروع، هذه كلمته لكننا استفدنا منها فائدة بأن الأشياء إذا تساوت مرتبتها العلمية ينبغي أن يتساوى دليلها، واضح الكلام؟ هذا الذي استفدناه من أبي إسحاق الشاطبي – عليه رحمة الله – اقرأ يا شيخ، يقول هنا لأن نسبة أصول الفقه، هنا أريد أن أنبه على نقطة، لأن نسبة أصول الفقه من أصل الشريعة كنسبة أصول الدين وإن تفاوتت في المرتبة فقد استوت في أنها كليات معتبرة في كل ملة، في الحقيقة، هذا "في كل ملة"، ينبغي أن نقف عندها قليلاً ليس كثيرًا، وهو – هذه نحفظها كذلك – أنا أعطيكم القواعد لا يهمني أن تعرفوا الفروع، الفروع تستطيعون قراءتها بأنفسكم وحفظها والتنبه لها، ولكنها كذلك من مَهمات قراءتنا لكتب سلفنا، في الحقيقة، إن **كثيرًا مما كُتب من كتب السلف كان في ذهن واضعيها وضعُ قواعد العلم جملة في الوجود، وليس في العالم الإسلامي فقط**، *انتبهوا إلى هذه النقطة*، أكررها وأقول بأنه في أذهان علمائنا عندما كتبوا كتبهم، وخاصة ما يتعلق بالأدلة ومراتبها والعلوم ومقاماتها، كان في أذهان هؤلاء العلماء وضع قواعد العلوم جملةٌ للوجود، وليس فقط لعلوم الإسلام. وهذه في الحقيقة تدل على وصول هذا العلم – أي الكتابة في علم العلوم – فقه العلم، هذه نقطة تسمى عند المعاصرين تسمى فقه العلوم، واضح؟ أو يسمونها نظرية المعرفة، لأن علمائنا لم يكتبوا علومهم فيما يتعلق بقواعد العلوم، لم يكتبوها من أجل علوم الإسلام فقط، وإنما كانوا يتكلمون عنها على أساس أنها قواعد العلوم جملة في كل الوجود، فانتبه إلى كلمته هنا، يقول :فقد استوت – أي علوم أصول الدين وعلوم أصول الفقه – في أنها كليات معتبرة في كل ملة، واضح هذه الكلمة؟ فقط في كل ملة عليك أن تضع تحتها ألف خط، لتدلك على أن علماءنا لم يستوعبوا علوم الإسلام فقط، بل استوعبوا علوم الأمم السابقة، فقد استوعبوا فقه العلوم جملة، فقه العلوم كلها، واضح الكلام يا شيخ؟ تفضل يا أخي...

قال وهي داخلة في حفظ الدين من الضروريات بمعنى أن أصول الفقه كلية وهي داخلة في حفظ ضرورية من ضروريات الوجود وهو الدين، ضرورية، لأن أصول الفقه تحفظ ضرورية من ضروريات الدين، وضرورية من ضروريات الحياة وهو الفقه، نعم...

"وقد قال بعضهم: لا سبيل إلى إثبات أصول الشريعة بالظن؛ لأنه تشريع، ولم نتعبد بالظن إلا في الفروع، ولذلك لم يعد القاضي ابن الطيب من الأصول تفاصيل العلل، كالقول في عكس العلة، ومعارضتها، والترجيح بينها وبين غيرها، وتفاصيل أحكام الأخبار، كأعداد الرواة، والإرسال؛ فإنه ليس بقطعي. واعتذر ابن الجويني عن إدخاله في الأصول بأن التفاصيل المبنية على الأصول المقطوع بها داخلة بالمعنى فيما دل عليه الدليل القطعي، قال المازِّريّ: وعندي أنه لا وجه للتحاشي عن عد هذا الفن من الأصول وإن كان ظنياً، على طريقة القاضي في أن الأصول هي أصول العلم؛ لأن تلك الظنيات قوانين كليات وضعت لا لأنفسها، لكن ليعرض عليها أمر غير معين مما لا ينحصر .قال: فهي في هذا كالعموم والخصوص"

هنا لا بد من وقفة، قلنا في بداية شرحنا – انتبهوا إلى هذا – قلنا في بداية الشرح لهذه المقدمة أنها تكشف لنا مصادر الشاطبي في كتابه، وهنا الشيخ، هل أراد أن يقول قرأت، ها أنا قد قرأت، ويحق له ذلك، والآن سنبين كيف للشاطبي أن يفتخر بأنني قد قرأت، أنا الآن سأبين، وهذه مَهمة جليلة لا يمكن أن يكتشفها المرء من النص، لا بُدَّ أن يعود إلى هذه الكلمات التي ترددت في هذه الجمل اليسيرة التي قرأناها. أولاً مصادره، لقد ذكر الإمام الشاطبي – عليه رحمة الله – في هذا النص القليل ذكر ثلاثة من العلماء؛ ذكر أولاً أبى الطيب أي الباقلاني، وذكر الجويني، وذكر المازَريّ أو المازِري كلاهما يصح.

تقدم في المقدمات التي قلنا إن شاء الله أنها نافعة بأن أصول هذا الفن أربعة كتب –أصول الفقه– أن أصوله أربعة كتب، أولها كتاب (البرهان) للجويني، ثم (المستصفى) للغزالي، ثم (العُمَد) للقاضي عبد الجبار الهمداني، العُمَد، ثم (المعْتَمَد) لأبي حسين البصري، هكذا يقول ابن خلدون في مقدمته، يقول: وهذه أركان هذا الفن وأصوله. لا يهمنا أن نعود لا للعمَد لأنه أصله مفقود وغير موجود، وأمّا المعتَمَد فموجود، و كلاهما لرجلين معتزليين لا نريد أن نبحث فيهما، لكن ما يهمنا هنا، كتاب (البرهان) يا مشايخ، يعتبر كتاب البرهان هو أساس هذا الفن بالنسبة للمتكلمين. هذا الكتاب، كتاب (البرهان) يقول عنه السُبكي، – انتبهوا – يقول تاج الدين السبكي في طبقات الشافعية أن هذا الكتاب لغز الأُمَّة، – هذه عبارته – انتبهوا، ويكرر هذا اللفظ مرتين، هذا هو مفتاح، عندما يأتي الشاطبي ليقول: أنا قرأته، وأنا أناقش، فإنه لهذا المعنى الذي سأذكره. يقول السبكي تاج الدين السبكي، – أعيد وأكرر – يقول في كتابه (طبقات الشافعية) في موطنين، إن كتاب (البرهان) للجويني – أي الابن، وهو المسمى بإمام الحرمين – لأن هناك

الجويني الأب الذي شرح الرسالة وغيرها، وحين يطلق الجويني إنما يطلق على الابن، أبي المعالي الجويني، يقول بأن كتابه (البرهان) لغز الأُمَّة، انظر إلى هذه العبارة، ثم ذكر هذه الكلمة في ترجمة المازَرِيّ، حين يمدح المازَريّ، – أو أسهل قل مازِريّ هم يقولونها بالفتح والكسر وهي نسبة إلى مدينة في جزيرة صقلية، التي كانت ديار الإسلام فحدث ما حدث – ثم يقول تاج الدين السبكي في ترجمة المازري مع أن المازري هل هو شافعي أم مالكي؟ المازري مالكي، يقول عنه المازري، وهذا رد على أحدهم ممن أراد أن يجعل المازري له شذوذات في المذهب المالكي، يقول عنه القاضي عياض عن المازري بأنه أفقه أهل زمانه، واضح؟ هذا المازري إمام مالكي يقول عنه القاضي عياض المالكي أفقه أهل زمانه، قلت: قال تاج الدين السبكي في موطنين بأن كتاب (البرهان) للجويني لغز الأمة، في ترجمة أبي المعالي الجويني، وفي ترجمة المازري فإنه قال – هنا المدخل – فإنه قال إنه نشَط، مع كلمة، نشِط – هذا الإمام المازري لشرح هذا الكتاب أي (البرهان) و كونه نشط لشرح هذا الكتاب دل على أنه إمام عظيم لأن هذا الكتاب هو لغز الأمة، واضح الكلام؟ هذا هو المفتاح، لا تستطيع أن تفهم، – انتبهوا إخواني – الكتب ليست إشارة ولا دلالة على كلام علمي بحت، يجب عليك أن تقرأ كلام أهل العلم أن هذا الكلام ظل العالم، ظل نفسيته، هذا الكتاب (البرهان) الذي سماه تاج الدين السبكي بلغز الأُمَّة ومدحه وقال عنه كلمة عظيمة، وقال بأن هذا الكتاب مفخرة الشافعية، يحق للشافعية أن يفتخروا بأن هذا الإمام كتبه، وأنتم تعرفون الجويني له كتابان في الأصول، هذا الكتاب (البرهان)، وهو مطبوع، والثاني هو؟ (الورقات) مشهور الورقات، يقول بأن هذا الكتاب مفخرة وهو كتاب، قال: صاغه على غير مثال، ونشط فيه إلى مجادلة الفحول، حتى إنه فيه رد على أبيه، وقال هذه زلة من الشيخ، وناقش الأشعري ورد عليه، وناقش شيخه الباقلاني ورد عليه، وتكلم فيه كلامًا غريبًا، ومن فوائد كتاب (البرهان) أنه جمع لنا فيه أقوالاً في علم الأصول ذهبت، هذه الكتب لا نعرفها، إنما ذكرها في هذا الكتاب، هذا الكتاب (البرهان) حميت نفس الجويني فيه على مناقشة مالك، ولذلك لم يشرح هذا الكتاب (البرهان) للشافعية إلا الأئمة المالكية ومنهم المازري، فالمازري شرحه في كتاب سماه لم يصل لا يعرفه اسمه (الإملاء على البرهان)، أو (التعليقات على البرهان)، بأسماء مختلفة، واضح؟ السند الآن عرفناه، أبو الطيب الباقلاني مالكي ولا شافعي؟ يقول أنه كان يفتي على المذهبين والأشهر أنه مالكي، هو شيخ من؟ هو شيخ الجويني، والجويني هو الذي علّم الغزالي الأصول، ولما كتب الغزالي كُتبه قال الجويني ليته صبر حتى أموت فقد دفنني في حياتي، هكذا كلمة مشهورة عنه. لكن الغزالي اعترف، الغزالي في كتابه (المنخول) – وهو من كتب الأصول – اعترف أنه أخذه من كتاب (التقريب والإرشاد) للباقلاني واعترف في كتابه (المستظهري) وهو من فضائح البطانية لأنه ألفه للخليفة المستظهر فسماه (المستظهري) وسموه (فضائح الباطنية) أو (فضائل المستظهرية)، قال: أخذه، اعترف في كتابه

(الإحياء) وليس في مقدمة الكتاب، اعترف في كتاب (الإحياء) بأنه أخذه من إمامه الجويني. ومع هذا الاعتراف إلا أن الجويني شعر أن الشيخ قد مسح اسمه، وليس كذلك، القصد: إذاً عرفنا سلسلة هذه الكتب؛ أولاً: الباقلاني، الجويني، الغزالي، المازري، المازري لا يقيم شأنا للغزالي، ولذلك ألف كتاباً في بيان انحرافات (الإحياء)، ولكنه نشط لكتاب (البرهان) الشاطبي إذاً كان لا بُدَّ أن يعلن أني قرأت هذه الكتب، الآن فهمنا هذا المقصد، وصلنا؟

لا بُدَّ أن يقول بأنني قرأت – هذا الذي يهمني أولاً – قد يقول قائل: هذا ليس شرح للعبارة، لكن عليك أن تعرف لماذا ذكر هؤلاء، لماذا ذكر الباقلاني ثم ذكر الجويني ثم ذكر المازري في خوضهم في هذه المسألة، انتهينا، فهمنا هذه الصور؟ فهمنا هذا الواقع العلمي؟

نتابع، الآن هو يقول: بأن – أين ذكره لذلك "لم يعد القاضي ابن الطيب من الأصول تفاصيل العلل"، الآن عرفنا أين ذكرها؟ في كتاب (التقريب والإرشاد)، الباقلاني ذكر هذا في (التقريب والإرشاد). هل الشيخ الشاطبي أبو إسحاق – عليه رحمة الله –قرأ (التقريب والإرشاد)؟ لا ندري، لأنه في الحقيقة في (البرهان) يناقشه، والمازري يناقشه، فلذلك قد يكون أخذها من المصدر وقد يكون أخذها من الراد والشارح.

يقول: "لم يعد القاضي ابن الطيب من الأصول تفاصيل العلل" في مسألة القياس والعلل، التفاصيل فيها العلل تقسم لأقسام متعددة.

"كالقول في عكس العلة" هذا كله في القياس.

"ومعارضتها" هو يريد أن يقول بأن أصول الفقه هناك من قال بأنها ظنية لوجود الاختلاف، ولذلك لأن الباقلاني لم يعد هذه المسائل للخلاف فيها، لم يعدها من أصول الفقه، لماذا؟ لوجود الخلاف، واضح المعنى؟ أن القاضي الباقلاني – عليه رحمة الله – أخرج هذه المسائل من أصول الفقه، لماذا؟ لأنها مسائل مختلف فيها فلم يعدها من الأصول لأنه يرى بأن أصول الفقه قطعية، هذا من؟ الباقلاني.

نحن لم نقف الآن على ترجمة الباقلاني، هذا لكم، يعني ترجمة الجويني سبعة وخمسين صفحة تقريبا في (طبقات الشافعية)، ولماذا نشط إليها السبكي؟ لأنه إذا أردت أن تعرف – هذا من هوامش المسائل – تلك المماحكة والمنافسة والمناظرة العلمية بين السبكي وشيخه الذهبي فانظر إلى ترجمة الجويني، واضح؟ لأن الذهبي في (سير أعلام النبلاء) ترجم للجويني ترجمة الناقد، واضح؟ وأشياء مثل ما نسب إليه، وعابوا عليه على

الجويني أنه قال – هذه في مناقشة نقلوها عن المازري في مناقشة الجويني – عابوا عليه أنه قال: أن الله يعلم الكليات ولا يعلم الجزئيات، وهذه في الحقيقة كفرٌ وردّة، ولكن لا يقولها الجويني، لم يقلها، ومن أخطاء الذهبي أنه أخذها مسلمّة ولم ينظر إلى أصلها، وهذا يؤخَذ على الذهبي في بعض المرات، ولكنه كذلك إذا جئنا إلى الجهة الأخرى فإن السبكي، هذا الأشعري الشافعي مُعَظّم للجويني فهو يدفع به دفعاً إلى صدارة العلوم بلا معارضة، جيد.

قال: "والترجيح بينها وبين غيرها، وتفاصيل أحكام الأخبار" إيش تفاصيل أحكام الأخبار؟ يعني السنة؛ قبولها وردها وهناك مختلف في هذه المسائل كأعداد الرواة، والإرسال؛ فإنه ليس بقطعي الاختلاف فيها.

قال: "واعتذر ابن الجويني – واضح الآن واضع الثاني – عن إدخاله في الأصول بأن التفاصيل المبنية على الأصول المقطوع بها داخلة بالمعنى فيما دل عليه الدليل القطعي" هذه مماحكة عقلية، نحن نتكلم عن الأصول، قال : داخلة بالمعنى: أي في الجملة.

"وقال المازري" وصلنا إلى هنا... اقرأ شيخنا، أكمل...

"قال المازري : وعندي أنه لا وجه للتحاشي عن عد هذا الفن من الأصول وإن كان ظنيا – أي المسائل التي تكلم بها الباقلاني –، **على طريقة القاضي في أن الأصول هي أصول العلم؛ لأن تلك الظنيات قوانين كليات وضعت لا لأنفسها، لكن ليعرض عليها أمر غير معين مما لا ينحصر. قال: فهي في هذا كالعموم والخصوص.**

طيب أكمل، واضح الكلام؟ قال – أي المازري – **قال : ويحسن من أبي المعالي أن لا يعدها من الأصول؛ لأن الأصول عنده [هي الأدلة، والأدلة عنده] ما يفضي إلى القطع، وأمّا القاضي؛فلا يحسن به إخراجها من الأصول على أصله الذي حكيناه عنه. هذا ما قال"**

الآن هو وفق بينهم؛ إذا أدخلتها من الأصول على معنى ففي الحقيقة الكتاب، يعني مضطر أرجع لـ(البرهان) مرة بعد مرة، لأنه جرأ على مخالفة الشافعي، تعرفون أول كلمة قالها الشافعي ما هي في كتاب (الرسالة)؟

أبوه شرح (الرسالة)؛ أبوه لأبي المعالي الجويني شرح (الرسالة)، وكتب كتاباً في الفقه، له كتاب (الخلافيات) بدأ، بكتاب (الخلافيات) وبدأ فيه بحديث، لجهله في علم الحديث وروى حديثاً مضطرباً معلولا وقال: رواه الشيخان، لما وصلت الرسالة لأبي بكر البيهقي – إمام الشافعية في عصره في الشرق – لما قرأها وهو يعرف قيمة الجويني – أنا بتكلم

عن أبيه لأبي المعالي – فأرسل رسالة موجودة شهيرة بين أهل العلم، فأرسل له رسالة فكف الجويني – أي الأب – عن تكملة الكتاب، فضيحة يعني! – خليك في مسائل الكلام والعقليات كأنه يقول هذا خير لك.

القصد بأنه وفق هنا بينهما، لكن الجويني في (البرهان) عندما جاء إلى البيان قال: البيان هو الدليل. الشافعي قصر الدليل في (الرسالة) على اللغة التي هي مدخل لفهم النص، الجويني لم يقبلها قال :والبيان هو الدليل، والدليل قسمان: سمعي وعقلي. ولعل الإمام ابن تيمية في (الصفدية) عندما تكلم عن هؤلاء – عن الذين يدخلون المنطق – كأنه يشير إلى الجويني في ذلك.

هذا كلام المازري، يقول يحسن بأبي المعالي ألا يعدها من الأصول على قاعدته؛ لأن الأصول عنده هي الأدلة، والأدلة لا بد أن تفضي إلى القطع، والقاضي فلا يحسن به إخراجها من الأصول لأنه يعتبرها داخلة في المعنى على أصله الجواب، إذن هو يميل هنا إلى كلام من قال أنها قطعية. نعم.

"والجواب: أن الأصل على كل تقدير لا بد أن يكون مقطوعاً به لأنه إن كان مظنوناً تطرق إليه احتمال الإخلاف، ومثل هذا لا يجعل أصلاً في الدين عملاً بالاستقراء"

يعني هو الآن يريد أن يرجعنا إلى الإلزام الذي قال به في الثالث، مش قال في الثالث بأن هذا منزلته كمنزلة أصول الدين، هو يريد أن يرجعنا إليها، وليس الأمر كذلك كما قلنا .

"والقوانين الكلية لا فرق بينها وبين الأصول الكلية التي نص عليها"

إذاً يقول: القوانين الكلية المستنبطة في علم الأصول كالأصول الكلية التي نص عليها الشارع، على قاعدته.

"ولأن الحفظ المضمون في قوله تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}"

لكن أنا يعجبني، هنا مسألة مهمة في كلام الشيخ الشاطبي، يعجبني هنا كلمة مهمة جداً وهو: أنه كما حفظ الله لنا الدين – هذه ضعها في عقلك – كذلك حفظ لنا أصول استنباط الأحكام من هذا الدين. عندما نقول الدين يعني الكتاب والسُنّة. الناس يتكلمون على أن المحفوظ هو الكتاب والسُنَّة: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}، فهذا

جيد، لكن هذه كلمة من الشاطبي تستحق أن تكتب وأن ترعى وأن تنشر، وهو أنه كما تكفل الله لنا بحفظ الذكر – أي الكتاب والسُنّة – كذلك تكفل لنا بحفظ الأصول التي تستنبط منها الأحكام من الكتاب والسنة، هذا ما يشير إليه الشاطبي، كلامه واضح.

ويعني هل هذه أخذت من ..، أشعر فوراً لما أقول هذه الكلمة يذهب عقلي فوراً إلى كلمة الشافعي في (الرسالة)، ما هي كلمته؟ قال:"كما أنه لا يحيط بالحديث إلا نبي فكذلك لا يحيط بلغة العرب إلا نبي"، واضح؟

هذه لماذا قالها الشافعي؟ ارجعوا إليها، قالها لفوائد عظيمة عنده في الرسالة، قال: "كما أنه لا يحيط بالسنة والحديث إلا نبي فكذلك .." فورا هذه، لأن العربية هي أصول الفقه لهذا الدين، فلذلك مثّل بها في الحديث الذي لا يحيط به إلا نبي.

قال: "ولأن الحفظ المضمون في قوله تعالى:{إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}إنما المراد به حفظ أصوله الكلية المنصوصة"

هل هذا صحيح؟ أم أن في الحقيقة {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ} بكلياته وفروعه؟ بلا شك أن الفروع كذلك محفوظة.

"إنما المراد به حفظ أصوله الكلية المنصوصة "

شوفوا الذي تعرفونه لم أقف عليه، يعني الرد على هذه الجملة وكذا، هذه تعرفونها ومشهورة وما شاء الله تسمعونها من الدروس والخطباء، فلا أقف عندها، لا تقل أني أعرضت عنها هذه لأنها مشهورة، والمشهور الوقوف عنده مضيعة للوقت، واضح؟

"وهو المراد بقوله تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ} أيضاً، لا أن المراد المسائل الجزئية؛ إذ لو كان كذلك لم يتخلف عن الحفظ جزئي من جزئيات الشريعة"

وهو كذلك؛ لأنه لم يتخلف عن الحفظ جزئي من جزئيات الشريعة، يعني الحفظ سابغ للجزئيات والكليات.

"وليس كذلك؛ لأنا نقطع بالجواز"

هنا الشاطبي يبدع في كل كتابه! وهذه إن شاء الله سنقف فيها فيما سيأتي، يُبدع لاحتجاج بالقدر على الشرع، يبدع، هذه ضعوها هكذا عنوان عندكم وإن شاء الله سأقف عندها كثيرا في ما يأتي من المقدمات التالية لأنه يتكلم عنها، يتكلم عن التفريق بين ما هو قَدَري – أي ما هو حكمٌ قَدَري في الكتاب – وما هو حكمٌ شرعي، يتكلم عنه.

وهذه من الأمور التي تعلمتها من الشاطبي، الشاطبي فتح لي في هذا الباب ما لم يفتحه غيره من المعاني في باب القدريات والشرعيات، وهو يحتج بها كثيراً – الشاطبي – في كتابه، وإن شاء الله يأتي وقتها فلا تستعجلوا. نعم تفضل.

"وليس كذلك؛ لأنا نقطع بالجواز "

إذن هو يحتج بالقدر على المعنى.

"ويؤيده الوقوع؛ لتفاوت الظنون، وتطرق الاحتمالات في النصوص الجزئية، ووقوع الخطأ فيها قطعاً"

أيوا، هو كأنه يريد، الآن إحنا بعدنا عن فهم الشاطبي، كأننا أخذنا في بداية الكلام بأن الحفظ للجزئي المقصود الحفظ في الوجود جملةً — انتبهوا – ما الفرق بين الأمرين؟ أُنبّه وأشرح:

كأننا فهمنا من كلام الشاطبي في الابتداء بأنه يريد أن يمنع وجود الحفظ للجزئيات جملةً في عين التاريخ، فرددناه وقلنا أخطأ، صحيح؟

قلنا أخطأ بأن الجزئيات في الشريعة موجودة.

ثم تبيّن لنا الآن أن الشاطبي لا يعني هذا في كلامه، لا يعني هذا إنما يعني بأن الحفظ للجزئي ليست لكل أحد.

نعم هي لا تفوت، لأن الأمة معصومة من الإجماع على الخطأ، لكن أفرادها قد يخطئون.

فهو يقول: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} ولو صح هذا المعنى لكانت الشريعة محفوظة عند كل أحد بجزئياتها ولم يقع فيها الخطأ، ولا اعتورتها احتمالات الظنون وأخطائها، واضح الكلام؟

هذا هو قوله، وهذا المعنى لا يتطابق مع المقدمة التي أراد أن يبني عليها، صحيح؟

هذه لا تتطابق مع المقدمة التي أرادها في الابتداء. نعم.

"فقد وُجد الخطأ في أخبار الآحاد وفي معاني الآيات؛ فدلَّ على أن المراد بالذكر المحفوظ ما كان منه كليّاً "

طيب هل الكلي كذلك يمكن أن يخطئ فيه العالم؟ الكلي يمكن أن يخطئ فيه العالم، والدليل اختلافهم في كثير من الكليات، نعم.

"وإذ ذاك يلزم أن يكون كل أصل قطعياً. هذا على مذهب أبي المعالي ، وأما على مذهب القاضي؛ فإن إعمال الأدلة القطعية أو الظنية إذا كان متوقفاً على تلك القوانين التي هي أصول الفقه؛ فلا يمكن الاستدلال بها إلا بعد عرضها عليها، واختبارها بها، ولزم أن تكون مثلها، بل أقوى منها، لأنك أقمتها مقام الحاكم على الأدلة، بحيث تطرح الأدلة إذا لم تجز على مقتضى تلك القوانين."

تجري وتَجُزْ يصح. نعم.

"فكيف يصح أن تجعل الظنيات قوانين لغيرها؟"

كل هذا إعادة لما تقدم بأن القوانين الحاكمة يجب أن تكون قطعية ولا يجوز أن تكون ظنية، وإلا لترتب على الظني أن يكون فيه ظني زائد. نعم.

"ولا حجة في كونها غير مرادة لأنفسها حتى يُستهان بطلب القطع فيها"

يعني هنا يرد على من قال بأنه لا يجب أن تكون قطعية لأنها ليست مرادة لنفسها، ولكن مرادة لاستخدامنا لها في الفرعيات. نعم.

"فإنها حاكمة على غيرها؛ فلا بد من الثقة بها في رتبتها، وحينئذ يصلح أن تجعل قوانين، وأيضا، لو صح كونها ظنية؛ لزم منه جميع ما تقدم في أول المسألة، وذلك غير صحيح، ولو سُلم ذلك كله؛ فالاصطلاح اطرد على أن المظنونات لا تُجعل أصولاً"

الرجل حينئذٍ انتهى إلى شيء وهي قضية الاصطلاح، ورأيتم أن المناقشة العقلية لم تُفض إلى شيء فانتهى إلى هذه القضية، وهو أن الاصطلاح – نضع هذا تحت فن الاصطلاح – إذاً هو علّق الحكم على الاصطلاح، هل ترون أن هذا نافع فيما سيأتي من أصول الفقه؟ ليس بنافع في شيء، ولو أنه طبق ما يأتي من قواعده التي ستأتي بأن هناك من أصول الفقه ما هو أجنبي عن أصول الفقه، يعني وضعه بعضهم في أصول الفقه وهو أجنبي، لا ينفع في مسائل الفقه، لو أنه طبقها على هذه القاعدة لأراحنا.

لكن العلماء لا بُدَّ أن يقولوا: أنا قرأت – هذه مهمة جداً – وليس هذا بعيب.

فالاصطلاح اطرد على أن المضمونات لا تُجعل أصولاً، أيوا...

"وهذا كاف في اطراح الظنيات من الأصول بإطلاق، جرى فيها مما ليس بقطعي تفريعا عليه بالتبع، لا بالقصد الأول ".

هنا لو العبارة من يقرأها بلفظ آخر؟

"فما جرى فيها مما ليس فبقطعي فمبني على القطعي تفريعا عليه بالتبع، لا بالقصد الأول."

أكمل نعم.

"المقدمة الثانية: إن المقدمات المستعملة في هذا العلم والأدلة المعتمدة فيه لا تكون إلا قطعية، لأنها لو كانت ظنية لم تفد القطع في المطالب المختصة به، وهذا بين، وهي :أولاً"

هنا المقدمة الثانية هي عين المقدمة الأولى، هو يتكلم هناك عن أصول الفقه، هنا يتكلم عن أدلة أصول الفقه، فلماذا، هو الآن ماذا يريد؟ هو فقط أن يُفرّع.

قلنا: بماذا ينشأ القطعي؟ إما لاضطرار العقول لقبوله لعدم القدرة على دفعه، وإما للأدلة القطعية، هو قال ماذا؟ أن أصول الفقه قطعية، إذن ماذا ينبغي أن يقول بعدها؟ إن أدلة أصول الفقه قطعية، واضح الكلام؟

لما قال في الابتداء: إن أصول الفقه قطعية، إذن هنا من أين جاءت القطعية؟ لأن أدلتها قطعية، واضح، هذا بين.

"إمّا عقلية "

ونفس الكلام الأدلة هنا، الكلام عن المقدمات المستعلمة والأدلة المعتمدة عليه، فإما أن تكون عقلية

"كالراجعة إلى أحكام العقل الثلاثة: الوجوب، والجواز، والاستحالة. وإمّا عادية، وهي تتصرف ذلك التصرف أيضاً؛ إذ من العادي ما هو واجب في العادة أو جائز أو مستحيل، وإمّا سمعية، وأجلها المستفاد من الأخبار المتواترة في اللفظ، بشرط أن تكون قطعية الدلالة أو من الأخبار المتواترة في المعنى، أو المستفاد من الاستقراء في موارد الشريعة".

إذاً هنا، تكلمنا عن الدليل العقلي، تكلمنا عن الدليل العادي، والسمعية بما يفيد اليقين عنده، وهذه إن شاء الله لأنها تحتاج إلى نفس طويل فنشرع فيها في وقت آخر، ولكن الآن أقف موقفا يسيرا فيها.

إخواني، نأتي إلى مسألة مهمة جداً، وهي على قاعدتنا في شرح ألفاظ العلماء في كلامهم، ما هو محط اليقين والظن والنفس؟ – انتبهوا لهذه النقطة – أين مكان اليقين والظن؟ هو النفس القلب. هل اليقين له حدٌّ يُعرَف به؟ وهل الظن له حد يعرف به؟ لا من جهة الأدلة، نحن الآن اتفقنا أنهم يقولون بأن الدليل القطعي يُنشئ اليقين، مش هيك؟

أنا لا أتكلم هنا من جهة الأدلة، أتكلم من جهة وجوده على الحقيقة في النفس، في القلب، هل له حد؟ أَم أن هذا أمرٌ نسبي؟ أمرٌ نسبي. يعني ما هو الحد الفاصل في نفس كل واحدٍ منا بين ما هو غالب على ظنه وبين ما هو يقيني؟ ما هو يقينيٌّ في النفس ألا تنشأ عليه السؤالات التي تزعزعه في حين؟ حتى لو كان دليله يقيني، والدليل أن كل واحد فينا مؤمن متيقن بصدق الرسول ﷺ، مؤمن متيقن بأن الله عز وجل هو المستحق للعبادة، ألا تنشأ في نفسه من نوازغ الشيطان؟ كل واحدٍ فينا يعرف هذا، كل واحد فينا تنشأ في نفسه أسئلة.

فما هو حد اليقين إذن؟ وما هو حد غلبة الظن؟ غلبة الظن الذي ينشئه الدليل الظني، واليقين هو الذي ينشئه الدليل القطعي، لكن لما كان مرجعه أولاً إلى النفس، هذا واحد، دلّ على أن هذا ليس له أي اعتبار.

هو كلام علمي يردده العلماء من أجل أن يقرروا فيه قواعد أو يردوا فيه على المخالفين، ولكنه في واقع الأمر في نفوس العلماء ليس على مرتبة واحدة، بل هو أمر نسبي، هذا واحد.

النقطة الثانية يا مشايخ، وهي مهمة جدًا، هذا الدليل منه ما هو قطعي، ومنه ما هو غير قطعي، هل هو باعتبار العلوم؟ أنا أختصر هنا، أختصر أمشي فيه مشيًا سريعًا، هل هو باعتبار العلوم أو باعتبار ثقة الناظر فيها؟ بمعنى، عندما يأتي واحد من المتكلمين ولا يعرف أصول المحدثين في الحكم على الحديث، لا يعرف أصوله، فهو ينظر فيها نظرة الأجنبي عنها، وبعد ذلك يحصل لديه شيء من الثقة، أنها علومٌ صحيحة، فيحكم على الحديث أنه إذا اتصل إسناده بنقل العدل الضابط عن مثله من أول السند إلى منتهاه بأنه يسمح بأن يكون هذا الحديث مقبولا ولا يُرد، لأنه حديث صحيح. هذا بالنسبة للأجنبي عن الحديث، لكن عندما يأتي المحدث الذي خبِر النصوص، واشتغل فيها من نعومة أظفاره، فيأتي إليه الحديث، الذي حصل به الظن عند الأجنبي، كم يحصل عنده من اليقين – عند هذا المحدث – عندما يأتي حديث مثل إنما الأعمال بالنيات، وهو حديث فرد غريب! عندما يأتي المحدث، رجل خبر النصوص، عرفها، عنده القدرة على تمييزها في أدق خفاياها، عندما يأتي للمحدث فيقول له ما تقول في هذا الحديث ماذا أفاد عندك ؟ أفاد عندك الظن أم أفاد عندك اليقين، ماذا يجيب؟ يقول أفاد اليقين، ماذا يرد عليه الآخر؟ بما حصل عندك اليقين؟ يقول حصل عندي اليقين بما أعلم من هذا العلم، وبما مارست في هذا العلم من أساليب حتى أمحص، فأنت تأخذ منه يقينه الذي حصل به لما مارس به هذا العلم، والآخر يأخذ به الظن لأنه فقط جرب فيه القواعد العقلية التي يعملها في هذا الفن، وهو التفريق بين ما هو آحاد وما هو متواتر، إذًا لنعد إلى القاعدة، وهو أن اليقينيّ والظنيّ هي مسألة اعتبارية، وهذا هو شأن العلوم إخواني، أن الظني واليقيني وأن القطعي والظني هذه أمور اعتبارية تعود إلى أمرين، الأمر الأول: إلى ثقتك بالعلم الذي تمارسه، وهذه يفترق فيها الناس بين مبصر عالمٍ بها وبين أجنبي عنها، وتختلفُ في الشخص الواحد كذلك في ظروف متعددة، حيث ربما يغزوا اليقين الشبه فتنزل المرتبة، ثم تقوى المرتبة في مكان آخر وهكذا، ولذلك إن من أوائل ما ينبغي أن يدرس لدى طالب العلم إخراج هذه الكلمة من العلوم، مع أنها مقدِّمة للعلوم، مقدمة لكُتب ما يسمى بفقه العلوم عند علمائنا في كتب الأصول لابد أن تقرأها، إلا أنه على الحقيقة بأنها مقدمة ينبغي أن تزال، وأما آثارها السيئة في تاريخ أمتنا، فنؤجل البحث فيها، واضح الكلام يا مشايخ ؟ هذه قفزة كبيرة أليس كذلك؟ وخطيرة لكن لا بأس، عندما نجد علماء، عندما نجد أن الذين وضعوا هذه القواعد لم يُعملها. يعني يا فقيه.. يا أصولي ما هي فائدة الأصول؟ الفقه، وعندما نذهب إلى الفقه، لا نجد لها وجود، فما هي فائدتها؟ وعندما نذهب إلى العقائد، تجد أن لها وجود، لكن وجود سيء، وذاك بردِّهم حديث الآحاد في العقائد! فعلينا حين إذن أن نسقط هذه الكلمة، فالكلام عن الظني واليقيني بالنسبة لعلوم الشريعة هو علم أجنبي، كما تقدم من الكلام،

مقاطعاً: ما كملت يا شيخ ، ذكرت أن هناك أمرين...

ذكرت الأمرين، ذكرتهما، الأمر الأول بأن الظني واليقيني يختلف من إنسانٍ إلى آخر في حاله هو، في أحواله، الإنسان في نفسه بأحواله المختلفة والمتعارضة وذكرنا الأمر الثاني وهو: أن ثقة المرء بالعلوم تختلف، صحيح؟ طيب، أكمل الشرح...

"فإذًا الأحكام المتصرفة في هذا العلم لا تعدوا الثلاثة، الوجوب والجواز والاستحالة، ويلحق بها الوقوع أو عدم الوقوع، فأمّا كون الشئ حجة أو ليس بحجة فراجع إلى وقوعه كذلك، أو عدم وقوعه كذلك".

هذه ضعوا حولها، هكذا يعني انتبهوا إليها في حياتكم، هنا يأتي، مهمات العلماء، أنا قلت كلمة في هذا اليوم لعلها هي أجل ما قلته في هذا اليوم، بأن –هذه الكلمة هي تبع لما تقدم– بأن الشيء صوابه أو عدم صوابه من الوقوع أو عدم الوقوع – انتبه إلى هذا – لا يكفي قضية أن تثبته العقول، لأن قد تكلمنا في درس فائت بأن احتمالات العقول لا تنهتي قلنا، لا نهاية لها، ولكن الصواب والخطأ بما يتعلق، بالوقوع وعدمه، هل تذكرون أن هذا له علاقة؟ كما تقدم من الذين يريدون أن يثبتوا صواب الأمر حتى لو كانت عاقبته سيئة، تذكرون لَمّا تكلمنا.. عن الذين يريدون أن يقولوا علينا فقط أن نعمل ،و كيف تكون النتيجة، لا قيمة لها، وإذا وقعت على عكس ذلك!.... وهكذا تكلمنا عن هذه النقطة فيما تقدم من دروس فائتة، الآن الشيخ ينبهنا إلى قضية تهمنا كثيرًا، وهي بأن الواقع دليل الصحة، قلنا يا جماعة بأن أصول الفقه تنظف عقولنا، خلينا ناس سننيين، ليس فقط في فهمنا للشريعة فيما هو صحيح وخطأ بالنسبة إلى النص، لكن كذلك بالنسبة إلى عقائدنا، بالنسبة إلى تصوراتنا، العبرة بالوقوع وعدمه لا بجماله في الذهن! ولا باحتمالات الرائعة في العقل! انتبهوا لهذه النقطة.

إيش يقول الشيخ ؟ وأمّا كون الشيء. ياريت نحفظها، فأما كون الشيء حجة أو ليس بحجة فراجع إلى وقوعه كذلك أو عدم وقوعه كذلك، إيش صار

طبقها على أحوال المسلمين وشوف، أكمل يا شيخ...

وكونه صحيحًا أو غير صحيح راجع إلى الثلاثة الأول، أي كونه واجباً أو جائزًا أو مستحيل نعم...، **وأمّا كونه فرضًا أو مندوبًا أو مباحًا أو مكروهًا أو حرامًا، فلا مدخل له في مسائل الأصول من حيث هي أصول، فمن أدخلها فيها فمن باب خلط بعض العلوم ببعض**، لكون هذه الأحكام هي في الفروع ليست في الأصول، نعم اقرأ ، نقف عند المقدمة الثانية، **المقدمة الثالثة، الأدلة العقلية إذا استعملت في هذا العلم، فإنما تستعمل مركبة على الأدلة السمعية، أو معينة في طريقها أو محققة لمناطها أو ما أشبه ذلك، لا مستقلة بالدلالة**، توقف يكفي إلى هنا، لأن في الحقيقة هي تحتاج إلى شرح موسع، لا نقدر عليه الآن ...

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

أَسْـئِـلَـة

- يا شيخ ذكرت ترتيب العلماء: الباقلاني، الجويني، المازري، لماذا لم يذكر الغزالي؟ تجاوزه الشاطبي، حضرتك قلت أنه يكاد يكون شرح المستصغر..

نعم، لم أتجاوزه إذا أخطات في اللفظ ...

مقاطعاً: ليس أنت...

لكن هنا لم يدخل الغزالي في كتبه في هذا المبحث، هذا المبحث القطعي، في قضية أصول الفقه وعدم قطعيتها، كتب الغزالي عارية عنها، يعني لو قرأنا في المستصفى لن نجد هذا المبحث، واضح؟ لكن هو أفادنا بمراجعه، لكن هل الغزالي حاضرٌ هنا؟ الجواب، هل الغزالي حاضرٌ عند الشاطبي عند كتابه الموافقات؟ هو معظّمٌ له، ومن أجل صور التعظيم أنه كان يستدل بالغزالي، انتبهوا، وحين يُستدل بالرجل دلّ على عظمته، وكلام العلماء يقولون يُستدل له ولا يستدل به، فأن يأتي الشاطبي ليستدل بالغزالي، وخاصة في (الإحياء)، ينقل كثيرًا من (الإحياء)، إحياء علوم الدين للغزالي، الشاطبي كما سنرى ينقل كثيرًا ويستدل به، وخاصة حين يجعل للأحكام مقامات بتفاوت العاملين، واضح يا مشايخ؟ هذه قاعدة الصوفية تستخدمها وهي قاعدة صحيحة؟ أن المقرب لا يليق به ما يليق بالسابق، والسابق لا يليق به ما يليق بالعابد، والعابد لا يليق به ما يليق بالمقتصد، وهكذا، فهذه يستدل بها كثيرًا الشاطبي من كلام الغزالي في الإحياء، فهو معظم للغزالي في الإحياء، وكأنه في الحقيقة. أنا قلت بأن البرهان أكثر من شرحه المالكية، لا أعلم أن البرهان شرحه أحد من الشافعية، والسبب بأنه شدد كثيرًا بالرد على مالك فانتصفوا لمالك ، وكذلك بأن الكتاب امتحانٌ عقلي لمن شرحه كما تقدم في الكلام، وكأن كتاب الإحياء في المغرب كان في زمن كتاب الشاطبي معظمًا، وأنتم تعرفون لا يمكن للمرء أن يستدل بشيء أمام أناس، إلا إذا كان هؤلاء الناس يعظمون هذا المستدل به.. أليس كذلك؟ بلا. ولذلك كأن كتاب الإحياء كان معظما في المغرب، مع أنه عندما دخل المغرب في زمن المرابطين، طبعًا الغزالي معروف كتب كتابه وأرسله فعظمه المهدي بن تومر لأنه كان صوفياً معتزلياً، لكنه في زمن المرابطين حرقوه، وأراد الغزالي أن يذهب إلى المهدي بن تومر ولكن بلغه موته فلم يذهب إليه، ولكنه حُرق، والمازري رد على الغزالي، ولكنه في زمن الشاطبي وهو زمن متأخر عن هؤلاء، فلابد أن كتاب (الإحياء) كان معظمًا في المغرب.

- يا شيخ انتا ذكرت جملة تستدل منها تقول هي براعة الشاطبي وإبداعه في القدريات والشرعيات، فهل من القدريات فهم القدريات بالاستعانة على فهم الشرعيات تفسير قوله تبارك وتعالى ولن يجعل الله للكافرين للمؤمنين سبيلاً...

هذا سيأتي، يعني أنتَ وصلت، وسنقف عند هذه الكلمة عندما يقول بأن ما جرى مجرى العادة، هنا عندما يأتي إلى النص، أن ما جرى مجرى العادة والسنة، وهذا ما سنبينه بالتفصيل، يقول بأن ما جرى مجرى العادة والسنة يجب علينا أن نحمل عليه الكتاب السنة، واضح؟ وسيأتي إن شاء الله...

مقاطعاً: هذا ما ورد في التفسير؟

سيأتي هذا بالتفصيل إن شاء الله، وأنا أجلت البحث فيه لأني أعرف هذا الموطن من كلام الشاطبي، وهو أنه يقيم شأنًا كبيرا للقدريات في ضبط فهم المفسر للنص...

مقاطعاً: تؤيده يا شيخ في هذا الكلام؟

نعم بلا شك، وأمّا تفسير الآية وعدم تفسيرها فسيأتي إن شاء الله...

مقاطعاً: يا شيخ أنت قلت بأن هذه العلوم وأن هذه القواعد في استنباط العلوم نافعة في كل ملة، فإذا كانت نافعة في كل ملة فلماذا يخرج لنا مثل المثال اللي انتا ضربته أنه المحدث الذي يتعامل مع النصوص العلمة في بيان صحة الحديث أو عدمه يخطيء أكثر من المجرب

لم أفهم.. يعني عندما نأتي احنا قلنا...

مقاطعاً: يعني هذه القواعد العلمية في تصحيح الحديث وكده يكون الإنسان أقل مرتبة من الإنسان المجرب في علم الحديث...

بمقدار دخول العلم ملكة في نفس العالم، يكون إعماله لهذا العلم، والذي يقف فيه على الشط، حينئذن لا يأخذ منه إلا الألفاظ والرسوم، يعني الآن عندما نقول بوضوح بأن علم الحديث هو علم الحياة، لأنه يتعلق بماذا؟ بتوثيق النصوص، توثيق الأخبار، بل أشد من ذلك وهو معرفة الرجال، وتتبعهم، علم عظيم جدًا، وسميناه إنتاجًا اجتماعيًا، أليس كذلك، ألم نقل بأنه إنتاجٌ اجتماعي، بمعنى أنه علم الحياة، عندما نقول بأن الأصول هو علم الحياة، فهو علم حياة لكل الجوانب.

يعني لا يكفي إعمال القواعد العلمية؟

في ماذا؟

في أي علم، يجب أن تكون هناك ملكة للدارث والباحث؟

بلا شك. ولا يمكن للمرء أن يُعمل القواعد العلمية إلا بوجود ملكة، لكن ما الذي يحدث؟ وما الذي حدث؟ هذه تحتاج إلى دراسة اجتماعية، لكن ما الذي حدث؟ بلا شك أن هناك فصام، ونكد، فصام نكد، في أمتنا، وذلك لدخول الصوفية فيها، وشأنها هو شأن عالم الفضاء عندما يعبد البقرة، ألا تتعجب من هذا الرجل؟ الذي يكون عالمًا بالذرة وعالمًا بالفضاء أو مهندسًا عظيمًا ومع ذلك يعبد البقرة! إذاً العقل الإنساني – وهذه قاعدة أردت أن اكتبها في (فن القراءة) – وهو أن العقل الإنساني يتجزّء، وذلك لضلال العلوم، يعني كيف الإنسان يكون عالم ذرة ويعبد البقرة؟ كيف! إذًا عقل الإنسان يتجزأ، ممكن يكون بصيراً في الطبيعيات وجاهلًا في الإلهيات، الآن كيف! تتعجب كيف يكون الرجل عاقلا بمثل درجة الإمام الجويني ثم يكون صوفيًا!؟ ألا تعجب من رجل أن يكون عاقلا كالغزالي بل يذكر الإمام ابن تيمية عنه أنه ربما يكون من عقلاء التاريخ، ثم يكون صوفيًا! يؤمن بالكشف. العقل البشري يتجزأ، هذه مشكلتنا، ولو أننا –هذه كلمة قلتها سريعًا في الدروس الأولى، ما أدري أكانت مسجلة أم غير مسجلة، لكن قلتها لكم، بأن **شرط المستفيد من العلوم هو أن تتحد العلوم لديه**، قلتها؟

قلتها نعم يا شيخ...

شرط الاستفادة من العلوم أن تتحد العلوم لديه، فإذا اتحدت العلوم، أنت تعجب، رجل عندما يتكلم في الإلهيات تراه سلفيًا، عندما يأتي إلى أصول الفقه تجده متكلمًا؟ لماذا؟ لأن العقل البشري يتجزأ، والصواب أن العلوم قواعدها واحدة – هذه قضية مهمة –، بل هذا من هداية القرآن يا أستاذ. ألا ترى بأن الله – لو رأيت نظام القرآن – ألا ترى بأن الله في كتابه قد بنى الشرعيات على الطبيعيات؟ والدليل اقرأ سور القرآن الطويلة، ترى أن القرآن يأتي إلى ذكر الخلق الإلهي وما فيه من سُنن، وفجأة يقفز إلى ذكر الشرع والأنبياء والرسل، وهذا بين في الكتاب، ولو أردت في جلسةٍ كاملة أن نقرأ الكتاب في هذا المعنى لوجدته في صور القرآن كثيرًا ما يأتي، بل إنه يضرب الأمثال الكونية المبصرة المتفق عليها ليثبت بها صحة الأحكام الشرعية التي جاء بها، والأحكام الشرعية المقصودة هي الكلية، أي اليوم الآخر إثبات الإلهية، إثبات صدق الرسول، إثبات صدق الكتاب، إلى آخره، اذن دل على أن العلوم ماذا؟ العلوم لها قواعد واحدة، والعقل والإنسان الذي يريد أن ينجوا في هذه الدنيا وأن يُبصر ما عليه الناس فعليه أن تتحد العلوم لديه في القواعد الواحدة، ولو طبق المرء القواعد العلمية الصحيحة في علم على العلوم الأخرى لأصاب وأنجز الكثير من الخير، والله تعالى أعلم.

جزاكم الله خيرًا، وبارك الله فيكم، والحمد لله رب العالمين.

الدرس [٨]

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، هذا هو الدرس الثامن من دروس شرح الموافقات للإمام أبي إسحاق الشاطبي – عليه رحمة الله –، تفضل يا شيخ اقرأ... المقدمة الثالثة..

"المقدمة الثالثة: الأدلة العقلية إذا استعملت في هذا العلم، فإنما تستعمل مركبة على الأدلة السمعية، أو معينة في طريقها، أو محققة لمناطها، أو ما أشبه ذلك، لا مستقلة بالدلالة، لأن النظر فيها نظر في أمر شرعي، والعقل ليس بشارع، وهذا مبينٌ في علم الكتاب، فإذا كان كذلك، فالمعتمد بالقصد الأول الأدلة الشرعية، ووجود القطع فيها على الاستعمال المشهور معدوم، أو في غاية الندور أعني في آحاد الأدلة، فإنها إن كانت من أخبار الآحاد فعدم إفادتها القطع ظاهر، وإن كانت متواترة فإفادتها القطع موقوفة على مقدمات جميعها أو غالبها ظني، والموقوف على الظني لا بُدَّ أن يكون ظنيًا، فإنها تتوقف على نقل اللغات وآراء النحو، وعدم الاشتراك وعدم المجاز، والنقل الشرعي أو العادي، والإضمار والتخصيص للعموم، والتقييد للمطلق، وعدم الناسخ، والتقديم، والتأخير، والمعارض العقلي، وإفادة القطع، مع اعتبار هذه الأمور متعذر، وقد اعتصم من قال بوجودها بأنها ظنية في أنفسها، لكن إذا اقترنت بها قرائن مشاهدة أو منقولة فقد تفيد اليقين، وهذا كله نادر أو متعذر."

الحمد لله جزاكم الله خيرًا، *هذا أفسد قولٍ في هذا الكتاب*، هذا القول هو أفسد قولٍ، وهو أفسد ما في هذا الكتاب، وهذا المبحث، تشير عبارة الشيخ أبي إسحاق إلى أنه كتبه على جهة التقليد بمن تقدم، ولا تتعجبوا من هذه الكلمة، فإن هذه المقدمات العقلية التي أفادها الشيخ هنا مأخوة من علم الكلام ومن تقريراته، وأضرب لكم مثلاً لما يُتعجب منه من أثر المتكلمين على الأصوليين ومما أحدثوه، لما كتب الإمام أبو محمد بن قدامة المقدسي – عليه رحمة الله – كتابه الأصولي المشهور (روضة الناظر)، فإنه جعل له مقدمة أخذها أخذًا كاملاً مع شيء من التغيير من (المستصفى) للغزالي، وأبو محمد بن قدامة المقدسي أثري، ومن العائبين على أبي الكنانة، ولذلك عاب عليه بعض الحنابلة هذا الصنيع، كيف يأتي إلى هذه المقدمة المنطقية، والتي لا تفيد شيئًا في علم الأصول إلا ما قرره الغزالي في (المستصفى) كما سنذكر، كيف أتى بها وهو رجل أثري، بمقدمة لا تفيد في علم الأصول؟ اعتذر عنه بمعاذير. ولكن لتروا أن صياغة العلوم في تاريخنا كانت محكومةً باتجاهٍ ما، وخاصة ما نحن فيه، أي علم أصول الفقه، فإنه محكوم في كثير من مقداماته إلى علم

الكلام، وإن كان أبو إسحاق الشاطبي تبعًا للغزالي في (المستصفى) – هذه من الغزالي مأخوذة من الغزالي – أنه عاب على الأصوليين إدخال مسائل عقلية منطقية بما تعلق بعلم الكلام ولا علاقة لها بأصول الفقه، هذه ستأتي، يقول أن كل مسألة لا تفيد في استخراج الأحكام الشريعة فهي أجنبية، لا يجوز أن ندخلها في علم الأصول، لكن الغزالي كتابه (المستصفى) أجبر الناس على هذه المقدمة، وهي المقدمة الكلامية في قضية مسائل العلم، وما هو العلم، ما هي أدلته، وماذا تفيد هذه الأدلة، وقال في المقدمة – أي مقدمة (المستصفى) – قال كلامًا بأن هذه المقدمة ليست خاصة لعلم الأصول، بل هي نافعة لكل العلوم. الناس الآن قد يسمعون، ويعيبون على هذا الكلام المتكلم، لأن الغزالي من المتكلمين، يعيبون عليه هذه المقالة، فماذا يصنعون بابن حزم الذي ألف كتابًا في هذا الباب، سماه (تقريب حد المنطق)، وقال فيه أشد مما قال الغزالي، واضح؟ وقال بأن هذه المقدمات المنطقية هي لازمة لعقل المرء في أي علم خاضه، وكذلك قال الغزالي من بعده. والقصد بأن هذه القضية التي بين أيدينا هي قضية كلامية، فيها الخوض الذي تقرر بعد ذلك أنه على غير الصواب، سنبينه، واضح الكلام؟ هذه مقدمة إذًا كلامية.

ما الذي يريد أن يقوله الشيخ؟ لنرجع إلى عباراته، فقط أنا تكلمت بأن هذه المقدمات للأسف صارت فرضًا على من كتب في علم الأصول كما تقدم من المثال، مثال أبي محمد أبو محمد المقدسي، وهو الذي قال عنه ابن تيمية: ما دخل الشام بعد الأوزاعي أفقه من أبي محمد.

عنوان المقدمة الثالثة هذه التي قرأها الشيخ، عنوانها كما كتبها بعضهم بقوله، الأدلة السمعية لا تفيد القطع بآحادها بل باجتماعها، وبدأ بكلام جيد ثم لما استدل له وشرحه، رأينا كلامًا غير صحيح.

يقول: – ننتبه لكلامه لنشرحه حتى نفهمه فهمًا سليمًا – يقول :الأدلة العقلية إذا استعملت في هذا العلم، فإنها تستعمل مركبة على الأدلة السمعية، لماذا يا أبي إسحاق؟ السبب لأنه يقول العقل ليس بشارع، وهذا مبين في علم الكلام.

في علم الأصول، تُبحث مسألتين إحداهما جليلة والثانية أجنبية، أما الجليلة فمن هو الحاكم؟ لأننا نتكلم عن الحكم، خطاب الله تعالى للمكلفين، الحكم الشرعي، فلما نقول حكم فمن حكم؟ ومن هو المحكوم؟ إلى آخره؛ إذًا هناك

مبحث: من هو الحاكم؟ هذا مبحث جليل، جيد. لأنه يعرفنا من هو الحاكم، فلابد أن يُبحث. العلماء حين يتكلمون بكلمة، لابد لهذه الكلمة أن تُستوفى نظرًا، لكن كون كلمة، يعني عندما يتكلمون عن العلم، لابد من تجلية معنى العلم، لا بُدَّ من معرفة طرقه، لابد من معرفة هذه الطرق وإفادتها للقطع واليقين، هذه طرق أهل العلم في التصنيف، لا يتركون كلمة دون أن يبيّنوا حدها، حدها يعني تعريفها، لأنهم قالوا بأن العلوم حقها التصورات، والأخبار حقها التصديقات. ما هو واجب الأحكام؟ ما هو واجب العلم؟ هو التصوّر، ما هو واجب الخبر؟ التصديق. فإذًا هم يريدون أن يصوروا للقارئ الناظر معنى الكلام، أن يدخل هذا الكلام في تصوره ويفهمه، إذًا المبحث الأول الذي يُبحث في علم الأصول له تعلق بهذا الكلام الذي قاله أبو إسحاق ألا وهو من هو الحاكم، هذا قلنا مبحث جيد؛ الآن المبحث الآخر وهو ما دور العقل، هذه المسألة مرتبة على المسألة التالية، وهي هل الأشياء والأفعال يُدرك حسنها وقبحها بالعقل؟ واضح؟ وهي التي تُسمى بمسألة التحسين والتقبيح، ما معنى التحسين والتقبيح يعني الحكم، ما معنى التشريع - انتبهوا لهذه الكلمة احفظوها -، التشريع: تسمية الشيء قبيحًا ورفع حكم الحسن عنه، أو تسمية الشيء حسنًا ورفع وصف القبح عنه، فهمنا هذه الكلمة، ما معنى التشريع يا مشايخ؟ التشريع يعني عندما واحد يشرّع بأن يقول عن هذا قبيح وهذا حسن، وبالتالي يترتب على القبح التحريم، ويترتب على الحسن الحل أو الوجوب أو الاستحباب، واضح الكلام؟ هذا التحسين والتقبيح.

فالناس على خلافه في هذه المسألة، الشيخ يقرر هنا مذهب الأشاعرة، أبو إسحاق - رحمة الله عليه - يقرر هنا مذهب الأشاعرة، وهذا بحسب ما جلاه شيخ الإسلام ابن تيمية على الخصوص، وابن القيم - عليه رحمة الله - أن هذا غير سديد؛ ما هو مذهب الأشاعرة في المسألة، ما هو؟ يقولون بأن العقل لا دور له في التحسين والتقبيح البتة، ولا يجوز أن يُدرك ولا أن يعمل العقل الحسن والقبح، وإنما التحسين والتقبيح عند الأشاعرة شرعيان ولا دور للعقل. قابلهم في الجهة الأخرى المعتزلة، قالوا بأن التحسين والتقبيح عقليان. بلا شك هذا يترتب عليه شيء، يترتب عليه نتيجة، يقول المعتزلة بأن التحسين والتقبيح عقليان، رتبوا على هذه المقدمة فيما نسب إليهم بأن المرء معاقب قبل ورود الشريعة، لأن العقل يستطيع أن يدرك القبح والحسن، واضح؟ ما دام العقل يدرك الحسن والقبح إذًا المرء محاسب قبل ورود الشريعة.

أنا هنا أضع قوس مهم جدًا، لقد تبين أن كثيرًا مما نسب إلى هذه المذاهب البائدة يحتاج إلى تحقيق، فقط ضعها في كل ما سأقوله في نسبة الأمر للأشاعرة والكرامية وما شابه ذلك، لأن كثيرًا - انتبهوا - مما نسب إلى المذاهب

البائدة، التي ذهبت كتبها، أنه مرتب على اللزوم، كيف يعني؟ ينظر الناظر إلى مذهب القوم فيجده يقول قولاً فما هو لازمه؟ فيرتبه، ويقول وكذلك يقولون كذا، كما في هذه المسألة البينة، لا نريد أن نتوسع، هذه لها أمثلة كثيرة، هذه المسألة التي بين أيدينا هي من هذا النوع، ويقول المعتزلة أن التحسين والتقبيح عقليان، ما لازم ذلك؟ أن المرء معاقب. إذًا العقل هو الذي يحسن ويقبح، وبالتالي هو الذي عليه، فهذه اللازمة هل قالوها في كتبهم أم لا؟ الله أعلم، هذه تحتاج إلى تحقيق، لكن أصحاب المذاهب الذين كتبوا في مصنفاتهم المذاهب الكلامية قالوا هذا عنهم، وبعد التحقيق وجدت كثيرًا، حتى أن شيخ الإسلام يعلق على بعض من نسب إلى الكرامية أقولاً يقول هذا لا أعرفه عنهم، هناك مسألة في الإيمان المنسوبة إليهم، وهي أن الرجل إذا أسلم بقلبه ولم يسلم بلسانه يعدونه مسلمًا، يقول هذه لم أجدها، لا أعرفها عنهم. وهكذا المعتزلة وجدنا أمورًا كثيرة، يعني مثلا منتشر بين الناس أن المعتزلة ينفون عذاب القبر، وهذا غير صحيح، القاضي عبد الجبار في المغني وهو بين أيدينا طُبع يُثبت عذاب القبر، معتزلي ويثبت عذاب القبر، ويستدل بالآية التي في سورة غافر {أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ}... الآية. القصد بأن علينا أن نحترز من هذه المسألة، ولكن نذكرها على ما يذكره أهل كتب مصنفات الفرق.

نعود للمسألة، إذًا الأشاعرة قالوا بأن التحسين والتقبيح شرعيان، العقل لا مدخل له، هذه كلمة أبي إسحاق التي بين أيدينا صحيح؟ والمعتزلة يقابلونهم، يقولون التحسين والتقبيح عقليان، رتبوا عليها كذا. الصواب: هل العقل يستطيع أن يدرك الحسن والقبح؟ الآن أسأل سؤالا هو الذي يُوجب إجابة واحدة؛ بما علم الصحابة العقلاء العظماء في عقلهم، بما علموا صحة النبوة؟ بالعقل؛ ذلك بأنهم قالوا كما في حديث جعفر -مع الكلام عليه-، لكن بما استدل جعفر على صحة نبوة محمد ﷺ أمام النجاشي؟ بأنه يدعوا إلى المكارم، كلمة المكارم هذه بما تدرك قبل الإسلام؟ تدرك بالعقل، بالفطرة. فإذًا كثير مما حُسِّن وقُبِّح في الشريعة يُدرك بالعقل، هناك أمور لا تدرك بالعقل، والتي تسمى عندها بأنها لا تعلل، غير معقولة المعنى، مثل العبادات والنُسك يسمونها غير معقولة المعنى، نستسلم لها، لكن تحليل الزواج وتحريم الزنا هذا يدرك عقليا، تحليل الصدق وإجابه أنه واجب، وتحريم الكذب، هذا العقول تدركه والناس يدركونه. فالصواب أن الحسن والقبح يمكن إدراكه بالعقل، بل يدرك بالعقل لكن اللازمة التي التزمها المعتزلة أو نُسبت للمعتزلة بأنهم يعذبون قبل ورود الشريعة، الشريعة تردهم، هذا هو القول الذي يجمع الصواب من الجهتين .**إذًا ما هو قول أهل السُنّة في هذه المسألة؟** أن التحسين والتقبيح يُدركان بالعقل، لكن التأثيم لا يكون إلا بالشرع؛ {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً}.

الآن انتهينا، الآن لما نقرأ كلام الشاطبي نُدرك كلامه، هذا واحد، النقطة الثانية التي عليها مدار كلام الشاطبي كما رأينا..لأنه سيكون من طرقنا أن نقرأ العبارة التي قالها على وجه ربما لا يُفهم لوجود التوجيز فيه، لوجود كلمات مبهمة فيه، لوجود كلمات التي تحتاج إلى تفصيل، بعد التفصيل نقرأ الجملة فتصبح هينة، سهلة، مفهومة. ولذلك قال : فالمعتمد بالقصد الأول الأدلة الشرعية، هذه نقطة، ووجود الناس بعد أن قال: بأن النظر فيها نظر في أمر شرعي، قال: والعقل ليس بشارع، هل هذا صحيح؟ هنا قلنا أن العقل لا يشرع، بمعنى لا يجوز أن يُقال عنه الحكم، لا يجوز أن يُقال عنه هذا حكم الله إلا بالدليل لأنه لا يترتب عليه إلا ما قاله الله: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً}. لكن الآن نأتي للكلمة الثانية التي تكلمت عنها في الدرس الفائت، والآن نقف عندها، ليتبين لنا أن هذه الكلمة غير صحيحة، وهذه الكلمة مأخوذة من أهل الكلام، هذه الكلمة التي سنقرأها الآن كلمة الجويني في (الغياثي)، بحثت عنها في كتابه (البرهان) لم أجدها إلى الآن، وهو أصل الأصل الذي تكلمنا عنه، هل هي موجودة في (المستصفى)؟ لا أذكر أني قراتها في (المستصفى)، لكن أنا أعلم أن هذه الكلمة التي سيقولها الشاطبي هنا موجودة في كتاب (الغياث) لمن؟ لأبي المعالي الجويني، واضح؟

ماذا يقول الشيخ؟ – انتبهوا – فالمعتمد الأول: الأدلة الشرعية، جيد، لأننا نريد أدلة سمعية، ووجود القطع فيها – انتبه – هنا هذه الكلمة من الشاطبي تفيد عدم القبول، أنا عندي هذه الكلمة تفيد أني قلتها على ما يقولون، هل تأملتها؟ هل أخالفها؟ هذه الكلمة – وهي أن الأدلة السمعية لا تفيد القطع، انتبه – ما هو الدليل السمعي؟ يعني البيان اللغوي العربي، هذه احفظوها، لأنها هي التي تفسر الكلام الذي بعده، الكلام الذي بعده مرتب على هذه الكلمة. يقول بأن الأدلة السمعية لا تفيد القطع بل تفيد الظن، ثم جاء ووضع بين ظفرين – احنا الآن مع كتاب مغربي، فنقول بين ظفرين، أنتم تقولوا بين قوسين، هنا بين ظفرين هكذا يقول المغاربة ظفر وظفر، نحن مع كتاب مغربي نحترمه – ثم جاء إلى كلمة يقول هذه العهدة ليست علي، هذه من القراءة التي ينبغي أن تستوعبها في حديث المؤلف معك؛ الكاتب الآن جلست معه، يحدثك، يتكلم معك، قال أنا بريء من هذه العهدة – انظروا إلى كلمته – إيش قال يا شيخ؟ ووجود القطع فيها على الاستعمال المشهور، يريد أن يقول أبو إسحاق: هكذا يقولون، وهنا أنبه على مسألة، وهي ضغط الواقع على العالم، هناك ظروف يكون فيها العالم في بيئة مغلقة على قول واحد، الخروج عنه صعب، ليس جبنًا، ولكن لأنه يفكر، إذا فكر فيه من جهة نفسه رآه على غير السمعي فيما فكر فيها. لكن كيف لهذا العالم أن

يخالف هذه الجموع من العلماء الذين سابقوه والذين عاصروه في هذه المقالة؟ كيف؟ لذلك أنا هنا أريد أن أبني شيئاً، عندما يأتي مؤلف ويقدح في عقيدة سيّد قُطب، لأنه قال بأن أحاديث الآحاد لا توجد في الاعتقاد، من أين أتى بهذه الكلمة؟ سيد قطب رجل لم يدرس الشريعة، هو درس دراسة لغوية في دار العلوم، والدرعميون، يعني اسم دار العلوم، إيش؟ درعمي. والدرعميون اهتمامهم في اللغة ومباحثها أكثر من اهتمامهم بالمسائل الشرعية، فهو لم يدرس المسائل الشرعية، هجرها منذ مدة طويلة، منذ أن رحل من بلدته إلى القاهرة، السؤال؟ لو أراد أن يتكلم هذا الرجل أو غيره في مسألة من مسائل الدين من أين يأخذها؟ من بيئته. فإذًا سيّد قُطب ليس قارئًا للشريعة على طريقة ابن تيمية، يعني حتى الآن إذا تُركنا من غير كتب بن تيمية ومن غير كتب ابن القيم لكان حالنا على حال أهل بلدتنا لا نعرف غيرها، وإذا تكلمنا، تكلمنا بما أجمع عليه الناس في عصورنا لا نعرف غيرها، واضح الكلام؟ وهذا يفسر ما قلناه في بداية المقدمة وهو ضغط الواقع على العالم، والدليل أنَّ أبا مُحَمَّد بن قدامة وضع مقدمة عقلية لماذا؟ لماذا وضعها؟ مع أنه نقلها نقلاً تامًا من (المستصفى) وغير بعض الكلمات، ربما ضاقت عليه بعض الكلمات فغيرها فقط، وعابوا عليه لماذا فعل ذلك؟ لأن هذه هي البيئة، هذه هي بيئة الناس، بيئة العلماء ذلك الظرف في تلك المرحلة، فهو محكومٌ بها رغم أنفه. وعندما يأتي واحد يقول ما هو هذا؟ كيف نفسّر أن النبي ﷺ سُحر؟ يقول العلماء في عصره: هذا حديث آحاد ولا يجوز في الاعتقاد فمردود، انتهت، انحلت المشكلة. هو يقول قوله، فهذا لا يُعاب عليه، إذا لم يُعب على العلماء، فكيف يُعابُ على رجلٍ لم يتخصص تخصصهم ولم يسلك مسالكهم في العلم؟ يمشي يقول هكذا قالوا لي، ما هو الدين يا مشايخ؟ هو أخذ الدين، فهو من هذا الباب متبع أو مُقلّد، ففي هذا الباب محمود أنه اتبع الدين، لأنه هذا هو الدين الذي يعرفه. القصد: ها نحن أمام الشيخ أبي إسحاق وهو يقول ليست العهدة عليَّ، على المشهور، لماذا؟ –انتبهوا – لماذا هذه حجتهم؟ لماذا يقولون بأن الأدلة السمعية ظنية؟ لماذا؟ – الظنية تفيد الظن لا تفيد القطع، تكلمنا عن القطع واليقين والظن في درس سابق– لماذا؟ لوجود تلك العوارض في داخل علم البيان، في اللغة في نفس اللغة، لا يتكلم الشيخ أبو إسحاق عن الطريق الموصِل للنص، وهو قضية حديث آحاد، وحديث الآحاد يمكن وقوع الخطأ فيه، فإمكانية وقوع الخطأ ترفع عنه حكم اليقين وتدخله في عالم حكم الظن، و*إنما* هنا يشرح ويطيل عبارة أبي المعالي الجويني هنا وغيره: لماذا الأدلة السمعية؟ لأنها لغة عربية، واللغة العربية هذه محترزاتها، نقرأ هذه المحترزات الآن ونفهها، واضح هذا الكلام؟

نقرأ هذه المحترزات من كلام الشاطبي، قال ووجود القطع فيها على الاستعمال المشهور معدوم، طيب إذًا هنا، القرآن يقيني أم يقيني الثبوت، إذًا هو لا يتكلم عن الطريق، عن الثبوت، هو لا يتكلم عنه – انتبهوا –، لأن القرآن

مجمعٌ عليه عند أهل الملة أنه يقينيُّ الثبوت، إذًا لما يقول :والقطع في الأدلة السمعية على المشهور معدوم، إذًا يتكلم عن ماذا؟ دلالة، نعم ما شاء الله.

قال معدوم أو في غاية الندور أعني في آحاد الأدلة، إذًا هو آحاد الأدلة بمعنى أنها قد تجتمع هذه الآحاد فتشكّل ماذا؟ فتشكّل يقينًا. لكن آحاد الأدلة ليس معناه أحاديث آحاد، فإنها إن كانت من أخبار الآحاد فعدم إفادتها القطع ظاهر، فعدم إفادتها القطع في الثبوت ظاهر، وقلنا في الدرس الفائت هذا من أفسد الكلام، واضح؟ ولذلك هناك مبحث في (الباعث الحثيث) نقل فيه كلام أهل العلم: هل أحاديث الصحيحين تفيد القطع أم لا؟ أتفيد القطع أَم لا؟ وخص أحاديث الصحيحين، قال :لأنها قد احتفت بها القرائن، وقلنا في الدرس الفائت بأن اليقين والثبوت أمرٌ نسبي، اليقين والظن أمرٌ نسبي يعتري المرء الواحد في ظروفٍ متعددة، وقلنا ثانيًا بأن هذا عائدٌ إلى ثقة المرء في علمه.

ولذلك يمكن حديث آحاد عند أهل الحديث يفيد القطع واليقين أن رسول الله قد قاله، لماذا؟ لما احتفت به من قرائن .والصواب أن حديث الآحاد حجة بنفسه إن صح مع ما قررنا. هذه المقدمة أطلت فيها لأننا إن شاء الله إذا جئنا لكتاب حياة الصحابة بينتها بالتفصيل، وقلت بهذه الكلمة بأن الواجب على طالب العلم أن يعادل المرتبة لما يُراد بها من الدليل، مرتبة الدليل يجب أن تكون متساوية مع المدلول وما يراد به؛ فعدم إفادتها القطع ظاهر وإن كانت متواترة –هنا طعن في الطريقة –وإن كانت متواترة فإفادتها القطع موقوفة على مقدمات جميعها أو غالبها ظني، يعني الكلام على ماذا؟ على النص، ماذا يعتري النص؟ واضح الكلام؟ قال: فإفادتها القطع – أي المتواترة – موقوفة على مقدمات جميعها أو غالبها ظني، أي حديث عن المتن، حديث عن اللغة، والموقوف على الظني لابد أن يكون ظنيًا كما قلنا، الدليل لماذا يفيد القطع؟ لأن الدليل قطعي، لماذا يفيد الظن؟ لأن الدليل ظني. الآن صارت سهلة ماذا قال :فإنها أي هذه الأدلة السمعية وإن كانت يقينية الثبوت إلا أنها تتوقف على نقل اللغات، هذه اللفظة ماذا تفيد؟ نقول تفيد كذا، من أفادك بأن هذه اللفظة تفيد كذا، قال اللغة، من نقل اللغة؟ ظني، هذا واحد. واضح الكلام؟

قال: فإنها تتوقف على نقل اللغات، وآراء النحو، والنحو أيضًا عليه مشاكل، وعدم الاشتراك، الاشتراك – انتبهوا – هو: إفادة اللفظ أكثر من معنى، هل هو على سبيل التناوب أَم على سبيل الاجتماع، واضح الكلام ما هو التناوب والاجتماع؟ هنا على سبيل التناوب وليس الاجتماع، كيف؟ اللفظ مشترك – هذا يأتي في مباحث علم الأصول –ما

هو اللفظ المشترك؟ هو ما أفاد أكثر من معنى **على سبيل التناوب** –مهمة على سبيل التناوب –، لفظ مشترك هذا بمعنى يفيد هذا ويفيد هذا، ولابد من التناوب، فإذًا اللفظ لم يفد قطعًا معنى واحد، إنما أفاد أكثر من معنى، اثنين ثلاث أربع، ومن هو هذا الاختيار لأنه بين هذا المتعدد صار ظنيًا، واضح الكلام؟

لن يكون الشرح بهذا الاتساع فيما يأتي فلا تتعبوا، لا تقولوا إذا أخذت الجملة كل هذا الشرح الطويل، لكن حتى ندقق في كلام أهل العلم، ولو شئت لقلت اتركوها.

قال: وعدم الاشتراك وعدم المجاز، المجاز عندهم هو نقل اللفظ عن ظاهره، شرحنا معنى الظاهر لما ضربنا مثلاً بالكرة، قلنا بأن اللفظة شبهناها بالكرة، فيها لون غالب وألوان أخرى صغيرة ليست غالبة، في التأويل يخرج –هذا كلامه– يذهب الناظر إلى النص فيخرج من المعنى الظاهر – وهو الغالب – إلى معنى موجود في داخله محتمل بشرط القرينة، ليس تلاعبًا، هذا هو المجاز عنده. ولذلك المجاز لابد أن تعلموا ما هو الظاهر، أن الظاهر هو المعنى الغالب للفظ، كيف يغلب؟ هذه طريقة أخرى: يقولون بالمعنى الغالب؛ إما بكثرة الاستعمال أو بأصل الوضع أو بما يطرئ على الذهن ابتداءً عند إطلاقه، كيف يتم الظهور؟ كيف يتم معنى أن هذا هو «اللفظ» الظاهر في اللفظ؟ كيف؟ إمّا بكثرة الاستعمال، إمّا بأصل الوضع وهذه يقول فيها شيخ الإسلام: "من عرفكم بأصل الوضع" إلى آخره نقاش التأويل ليس بابنا الآن، ولكن نشرح العبارة.

إذًا الظاهر يثبت عندهم بكثرة الاستعمال، أو بأصل الوضع، أو بما يطرأ على الذهن إبتداءً، يقول شيخ الإسلام: "هذا اللفظ المحتمل في الظاهر حين خوطب به العربي فوقع في عقله الابتداء فهو الظاهر"، عندما يقول رجل رأيت أسدًا يخطب؟ ما هو أول شيء خطر على بالك ؟ أنه رجل، هو يقول هذا الظاهر، فهو يقول ليس الظاهر بأصل الوضع أو بكثرة الاستعمال، ليس هذا موطننا ولكن ننبه عليه، المهم هنا يضع الاعتراضات التي تمنع حصول اليقين في اللغة، واضح؟ اعتراضات المتكلمين على أن اللغة لا تفيد القطع، هذه هي؛ أولاً موقوفة على نقل اللغات وآراء النحو، عدم الاشتراك، عدم المجاز، ما الفرق بين الكناية والمجاز؟ المجاز كالاشتراك، كيف؟ قلنا على سبيل التناوب في الاشتراك، لا يصيرون معًا في وقت واحد، القُرء لفظ مشترك لا يمكن أن يطلق في حال واحد على معنين، لا بُدَّ أن يفيد الطهر أو يفيد الحيض، أمّا إفادة الحيض والطهر في وقت واحد فهذا ممتنع، كذلك المجاز؛ المجاز لا يجوز أن يكون اللفظ حاملاً

للحقيقة والمجاز في نفس الوقت، لأن ما الذي يقابل المجاز في اللغة؟ الحقيقة، فلا يجوز أن تجتمع الحقيقة مع المجاز، هكذا يقولون.

الكناية لا، الكناية كالمجاز لكنها يمكن حمل الكلمة فيها على الحقيقة والمجاز، مثال ذلك: لما قلت أنت رأيت أسدًا يخطب، أنت هنا أولتها لأنه ماذا؟ رجل، هذا هو المجاز، لكن لو قال رجلٌ كثير الرماد، هو كثير الرماد حقيقة، يعني إيش الرماد؟ أي من النار، موجود حقيقة، وإنما أفادت الكرم، فقد خرجت إلى المجاز وهو الكرم وأبقت الحقيقة موجودة، هذه هي الكناية، هذه كلمة مليئة ولكنها كلمةٌ لا بُدَّ أن تعرفها، ونحن على طريقتنا، ماذا نصنع؟ وإلا فقد قلنا بأن هذا الكلام غير صحيح وشرحناه، المهم لا نريد أن نشرح كثيرًا لكن نمشي بسرعة، ما هي اعتراضات المتكلمين على عدم إفادة اللغة اليقين، بل أغلبها هو الظاهر، يقول: على المجاز والنقل الشرعي أو العادي والإضمار والتخصيص للعموم كما هو معروف، لا أريد أن أقرأ كل الكلام، فما هو المضمار، والتخصيص للعموم يجعل العموم ظنيًا، عندما يقول لك كل من أكل هذا فهو آثم، ثم يأتي تخصيص لأحد، والأمثلة كثيرة في الخصوص والعموم، من أكثر ما وجد، حتى قال بعضهم ما من عموم في القرآن أو السُنَّة إلا وقد خصص، فاذن العموم هو إطلاق اللفظ – إيش الفرق بينه وبين الاشتراك –، إطلاق اللفظ على جميع أفراده في حال واحد، وليس على التناوب: كل، جميع، ال الاستغراقية، إلى آخره. فهذا يخصص، فإذا خصص دل على أن إفادة العموم لجميع أفراده، ظني أم يقيني؟ ظني لخروج مخصص. قال: والتقييد للمطلق، واضح هذا، سيأتي في أبواب الأصول، وعدم الناسخ، هل هذا ثابت أم منسوخ؟ ووجود النسخ يرفع عنه حكم اليقين، والتقديم والتأخير والمعارض العقلي، هذه المشكلة، هذا الكلمة : "المعارض العقلي" ليتنا نستطيع أن نمسحها، وفتح هذا الباب – الذي هو المعارض العقلي – هو الذي فتح باب التأويل في العقائد، مثل المعتزلة ينفون صفات الله؟ يقولون لأن الصفات غير الموصوف، فتعدد الصفات يعني تعدد القديم، والقِدم عند المعتزلة هو أخص خصائص الربوبية، الصوفية عندهم الغنى أخص خصائص الربوبية، وأخص خصائص الربوبية عند المتكلمة هو القِدم، فإذا تعدد القدماء يعني تعدد الآلهة، ولما كان الوصف غير موصوف فتعدد الصفات دل على تعدد القدماء فهذا هو العقل، فحينئذ الصفات لا يجوز نسبتها إلى الله حتى لا يتعدد القدماء، هذا كلام المعتزلة. كلام الأشاعرة، لماذا تنفون الصفات الاختيارية (صفات الفعل)؟ لماذا تؤولونها على معنى الإرادة فقط؟ على معنى الإرادة القديمة لماذا؟ قالوا: لأن حدوث الإرادة، – إيش أخص خصائص الربوبية عندهم قلنا؟ القدم –، فحدوث الحوادث، الآن متى أراد الله أن يتكلم، إذًا حدث شيء في نفس الإله، هذا الحدوث يدل على أنه مخلوق، لأن كل حادث عندهم مخلوق، اذن حدث مخلوق في

ذات الإله، وهذا ممتنع، فنفوا الصفات الاختيارية التي لها تعلق بالإرادة يفعلها الله متى شاء ويتركها متى شاء كالكلام والإحسان والغضب، الله يغضب لفعل الفاعل، ويفرح لفعل الفاعل إذا أطاعه، وإذا عصى غضب، فالغضب حادث بالإرادة، والإرادة إذا فسرناها عندهم على معنى الحدوث أنها لم تكن ثم صارت، فدلَّ على حدوث الحوادث في ذات الله، وهذا ممتنع عندهم، إذاً الصفة ممتنعة. ما كل هذا؟ كل هذا معارض عقلي، كل هذا باطل،" قصد؟" هذه الكلمة: "المعارض العقلي" إلى جهنم وبئس المصير، نعم. كلام واضح أظن لو قرأها أحدكم بمفرده لقال لماذا يشرحها الشيخ، وإفادة القطع مع اعتبار هذه الأمور متعذر وقد اعتصم من قال بوجودها بأنها ظنية في أنفسها، يعني الآن كأن الشيخ في حالة ضيق، كأنه مقيد بأسوار، واضح الكلام؟ يعني نريد أن نعرف نفسية الكاتب. قال: وقد اعتصم من قال بوجودها بأنها ظنية في أنفسها لكن إذا اقترنت بها قرائن مشاهدة أو منقولة فقد تفيد اليقين وهذا كله نادر أو متعذر. سؤال: نحن قلنا: الباقلاني، الجويني، الغزالي، المازري، ثم قفزنا قفزة لأنه في الحقيقة ليس بينهم تعاصر، قفزنا قفزة إلى الشاطبي الذي بين أيدينا، هل المازري يقول بأن أحاديث الآحاد تفيد القطع؟ الجواب نعم. ولذلك بعض المعاصرين جاء لهذه الكلمة للمازري لأنها مالكية، وجاء ببعض نصوص المالكية أن المازري ليس مالكيًا صافيًا، له اختياراتٌ خرجت عن المذهب وأمّا مدْح المعاصرين له ومدح الأئمة فيفوق هذه الكلمة ولا شك أنه لم يكن مقلدًا، اقرأ يا شيخ..

"وإنما الأدلة المعتبرة هنا المستقرأة من جملة أدلة ظنية تضافرت على معنى واحد حتى أفادت فيه القطع؛ فإن للاجتماع من القوة ما ليس للافتراق، ولأجله أفاد التواتر القطع، وهذا نوع منه..."

واضح الكلام؟ يعني هو يريد أن يصل بأن الأدلة السمعية بآحادها ظنية، اجتمعت هذه الأدلة السمعية على معنى أصولي أو على قاعدة أصولية فصارت مفيدة للقطع واضح؟ هذا الذي يريد أن يقوله، وهذا الذي جعل أهل الكلام يقولون بما يسمّى بالتواتر المعنوي واضح؟ التواتر المعنوي هو ورود معنى في أحاديث متعددة ليست مشتركة في ألفاظها وليست مجتمعة في ألفاظها، كمن يقول عذاب القبر كيف أثبتموه؟ قال أحاديث عذاب القبر كلها ظنية لكنها أفادت القطع باجتماعها، ما يسمى بالتواتر المعنوي، يعني تواتر معناها في الأدلة.

"فإذا حصل من استقراء أدلة المسألة مجموع يفيد العلم؛ فهو الدليل المطلوب، وهو شبيه بالتواتر المعنوي، بل هو

كالعلم بشجاعة علي ﷺ وجود حاتم المستفاد من كثرة الوقائع المنقولة عنهما. ومن هذا الطريق ثبت وجوب القواعد الخمس؛ كالصلاة، والزكاة، وغيرهما قطعا، وإلا فلو استدل مستدل على وجوب الصلاة بقوله تعالى: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ} أو ما أشبه ذلك؛ لكان في الاستدلال بمجرده نظر من أوجه..."

واضح الكلام؟ يريد أن يقول بأن إفادة وجوب الصلاة بهذا الدليل - وهو لغوي - مع وجود ما تقدم أنه بعيد ولكن لَمّا احتفت بها قرائن صارت معتبرة، قلنا بأن هذا الكلام لا نعتبره ولا نقيمه، وإن شاء الله إذا يسر الله في درس قادم أقرأ لكم نصوص الأئمة في الرد على هذا الكلام لكن عليكم أن تفهموه. نعم.

"لكن حف بذلك من الأدلة الخارجية والأحكام المترتبة ما صار به فرض الصلاة ضروريا في الدين..."

هو لا يريد أن يقول بأن الوجوب ثبت بها، الوجوب ثبت بهذا النص ولكن إفادة الضرورية، بمعنى أن تصل بدرجة القطع واليقين، واضح؟ لأنها لم تثبت بدليل يقيني بحسب الإفادة اللفظية لها.

"لا يشك فيه إلا شاك في أصل الدين. ومن ههنا اعتمد الناس..."

انتبهوا، كلمة ضروري كاليقين، لَمّا نقول ثبت ضرورةً أي ثبت يقينًا، قلنا اليقين يثبت إمّا باستقرار النفس عليه وإمّا بإفادة الدليل عليه، باستقرار النفس، لا تستطيع دفعه. ولذلك قالوا هذا من المعلوم من الدين بالضرورة، وما معنى الضرورة؟ يعني لا يطلب له دليل، يقول أين الدليل؟ تقول ثبتت الضرورة، ولكن لا شكَّ أن هذه الضرورة ثبتت بالأدلة، لكن أن يقول أعطني دليلك لها هذا جهل، لماذا؟ صارت ثابتة على وجه الضرورة، نفهم هذه الكلمات، الناس يقولونها ولا يعرفون معناها...

"ومن ههنا اعتمد الناس في الدلالة على وجوب مثل هذا على دلالة الإجماع؛ لأنه قطعي وقاطع لهذه الشواغب..."

هذه كلمة ضعوا تحتها خط، ولتبقى في أذهانكم لأننا سنقف عندها وقفة طويلة في الإجماع، وهو أن الإجماع، بغض النظر عن من أنكره وشغّب عليه كالشوكاني ومن سبقه، فالإجماع دليلٌ يقيني، مع أنهم عابوا على الإمام الشافعي أنه لم يذكره في الرسالة عندما ذكر الأدلة، في الرسالة لم يذكر الإجماع / وذكر القياس، قال بعضهم لأنه مستقر في

الأذهان دليله، وقالوا كيف ذكر القياس ولم يذكره! المهم هذا موضوع آخر، ولكن هذه الكلمة هي ما نحتاجها اليوم، اليوم الإجماع هو الحصن الذي ينبغي أن يُتقى به للدخول في الدين والتلاعب فيه، وما يسمونه اليوم بأن هناك أشياء متفق عليها وأشياء مختلف عليها وعلينا أن نعمل بالمتفق عليها، الذي ينبغي أن ننطلق منه في حوار مع أي أحد، ودخول الإسلام أو الخروج منه أو الاجتهاد وتوسعه وعدم فتحه إلى آخره، كله محصن بالإجماع واضح الكلام؟

ولذلك جاء حسن الترابي، وأنا آسف أني هنا أقول وأعلق الكلام لكن سنشرحه فيما يأتي، جاء حسن الترابي من أجل أن يهدم ما استقرّ عليه الإجماع وناقش الإجماع مناقشةً عقلية حتى فتح فيه الباب، وصار الإجماع عنده هو البرلمان. في رسالة أصولية، ولذلك هم دعوا إلى تجديد أصول الفقه، وأرادوا بتجديد أصول الفقه، هو ما قلنا في المقدمة من فتح أبواب الأدلة، اسمها الأدلة المشرعة بإدخال المصلحة فيها، مطلقة بغير ضابط، ولكن مِن معارك هؤلاء لتدمير الفقه الإسلامي والشريعة هو «الطعن في الإجماع». واحد يقول إيش فائدة الإجماع؟ الإجماع فائدته أنه به يُتقى هدم الفقه الإسلامي، من أجل هذا قتل المرتد تلاعبوا به، مع أنه مجمع عليه، وهنا تلاعبوا بقضية غطاء الوجه مع أنه مجمع عليه، فغطاء الوجه مجمع عليه إما مستحب أو واجب، يعني مقيد بين أمرين فلا يجوز أن تحدث أمرًا ثالثًا وهكذا، أمور كثيرة منها قضية إجماع الملة بالقرآن على أنه {لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ} إلى آخره، واضح؟ وكيف يدخلون إلى الإجماع؟ هذه الكلمة أنا أعلق عليها الآن بسرعة ولكن سنأتي إليها، يدخلون إلى الإجماع بطرق عجيبة جدًا وهو أن الإجماع نفسه – من كلام حسن الترابي يقول – بأن العلماء استأثروا بالإجماع، هو يقول لا بد من تجديد أصول الفقه، يقول ثانيًا ما هو معنى الإجماع؟ هو اتفاق علماء، جاء لكلمة علماء، هذه من أين أتوا بها؟ الأصل: كل المسلمين، ولَمّا كان كل المسلمين كيف نعرف آرائهم؟ هذا صعب كيف نحصي آرائهم كلهم؟ فلا بُدَّ أن نختار مندوبين، هؤلاء المندوبون إن اتفقوا على أمر فهو الإجماع. ثم جاؤوا هل الإجماع يمكن أن ينشأ من غير نص؟ نُقل عن الشافعي أنه قال: "ما رأيت إجماعًا إلا وله نص إلا المضاربة"، ومع ذلك هذه الكلمة ردوا عليها قالوا بأن المضاربة مجمعٌ عليها لأنها من ضمن الشركات التي أباحها الشارع من العقود التي أباحها الشارع فهي مجمع عليها، بل دل أن الصحابة كان عامة تجارتهم هي المضاربة، واستدلوا بأن النبي ﷺ قبل الهجرة حين كان يعمل في مال أمنا خديجة ل كان يعمل في مالها بالمضاربة إلى آخره، ثم جاؤوا وقالوا الإجماع يمكن أن ينقض النص، واضح؟ وبالتالي فعلوا ما فعلوا وقالوا ما قالوا لإلغاء الجهاد الهجومي وهو جهاد الطلب مع أنه مجمع عليه، وما تَقَدَّم من قضية الربا إلى آخره. القصد أن هذه الكلمة ضعوا تحتها خط، قال ومن ههنا اعتمد الناس في الدلالة، الناس المقصود بهم الفقهاء طبعاً وليس بائعي البطاطا، ومن هاهنا اعتمد

الناس على وجوب مثل هذا على دلالة الإجماع وهو قضية إفادة الضرورة، من ضروريات الدين، قال :لأنه قطعي وقاطع لهذه الشواغب.

"وإذا تأملت أدلة كون الإجماع حجة، أو خبر الواحد أو القياس حجة؛ فهو راجع إلى هذا المساق"

ما المقصود؟ المقصود بأن أدلتها إذا انفردت ظنية وباجتماعها صارت يقينية، هذا كلامه، نريد فقط أن نجمع كلامه مع الكلام الذي تَقَدَّم.

"لأن أدلتها مأخوذة من مواضع تكاد تفوت الحصر، وهي مع ذلك مختلفة المساق..."

هذا لتواتر المعنى.

"لا ترجع إلى باب واحد؛ إلا أنها تنتظم المعنى الواحد الذي هو المقصود بالاستدلال عليه، وإذا تكاثرت على الناظر الأدلة عضد بعضها بعضاً، فصارت بمجموعها مفيدة للقطع؛ فكذلك الأمر في مآخذ الأدلة في هذا الكتاب، وهي مآخذ الأصول؛ إلا أن المتقدمين من الأصوليين ربما تركوا ذكر هذا المعنى والتنبيه عليه، فحصل إغفاله من بعض المتأخرين؛ فاستشكل الاستدلال بالآيات على حدتها، وبالأحاديث على انفرادها؛ إذ لم يأخذها مأخذ الاجتماع، فكر عليها بالاعتراض نصاً، نصاً، واستضعف الاستدلال بها على قواعد الأصول المراد منها القطع، وهي إذا أخذت على هذا السبيل غير مشكلة، ولو أخذت أدلة الشريعة على الكليات والجزئيات مأخذ هذا المعترض؛ لم يحصل لنا قطعٌ بحكمٍ شرعي البتّة؛ إلا أن نشرك العقل، والعقل إنما ينظر من وراء الشرع؛ فلا بد من هذا الانتظام، في تحقيق الأدلة الأصولية..."

الكلام واضح، لا نريد أن نقف لأنه واضح، يريد أن يقول بأن الذين يناقشون أدلة مسائل الإجماع واليقين على انفراد غير صحيح، فيجب أن ينظروا إليها جملة واحدة، وقلنا أن الأدلة أصلاً هي للاستشهاد والاعتضاد ورد الاعتراض أو نقضه.

"فقد اتفقت الأُمَّة، بل سائر الملل، على أن الشريعة وضعت للمحافظة على الضروريات الخمس، وهي: الدين، والنفس، والنسل، والمال، والعقل.."

هذه كلمة نقف فقط مسحة خفيفة لأنها هي من مباحث هذا الكتاب، هي جزءٌ كبيرٌ متعدد، بل تكاد هذه المسألة تعادل ربع الكتاب، لكن من أول من صاغ هذه العبارة؟ هو الغزالي بقوله أن كل المِلل، "فقد اتفقت الأُمَّة بل سائر الملل" – قلنا بأن هذه عبارة لا تستشيعوها لأن علمائنا إذا كتبوا في مقدمات العلوم كتبوا للمسلمين ولغيرهم، لعلوم العالم أجمع– "فقد اتفقت الأُمَّة بل سائر الملل على أن الشريعة وضعت" هذه كلمة الغزالي، هل قالها أحدٌ قبله بهذا الجمع وبهذا السياق في الضرورات الخمس؟ الجواب لا.

نعم ظهر في كلام شيخه فيما سيأتي – الجويني – قال كلامًا جميل جدًا كلمته المشهورة: "من لم يتأمّل أو ينظر في مقاصد الشريعة فاته معنى الحل والحرمة"، وقال عن المقاصد وقال عن الضروريات ولكن لم تجتمع بهذا النظم، وأول كتاب تكلم في هذا الباب هو كتاب (محاسن الشريعة)، وهذا كتاب قديم أظن من الرابع الهجري كتب عن محاسن الشريعة، المقصود به الكلام عن هذه الضروريات التي جاءت الملة أو الشريعة بها، ثم هذه الكلمة شاعت حتى صارت هي أصل هذا العلم، لكن الغزالي له الفضل في صياغتها على هذا المعنى، وقال: "وسائر الملل" وترجعون إلى المتأخرين دائمًا يستخدمونها ولابن تيمية عليها احترازٌ يسير نتكلم عنه عندما يأتي...

"وعلمها عند الأُمَّة كالضروري، ولم يثبت لنا ذلك بدليل معين، ولا شهد لنا أصل معين يمتاز برجوعها إليه، بل علمت ملاءمتها للشريعة بمجموع أدلة لا تنحصر في باب واحد، ولو استندت إلى شيء معين لوجب عادة تعيينه، وأن يرجع أهل الإجماع إليه، وليس كذلك؛ لأن كل واحد منها بانفراده ظني، ولأنه كما لا يتعين في التواتر المعنوي أو غيره أن يكون المفيد للعلم خبر واحد دون سائر الأخبار، كذلك لا يتعين هنا لاستواء جميع الأدلة في إفادة الظن على فرض الانفراد."

انتبهوا، هذه الكلمة التي سيقرأها الشيخ هي التي تكلمنا عنها في الدرس الفائت انتبهوا لها، انتبهوا إلى كلام الشيخ حين يعود إلى الناس، إلى نفوسهم لأن القطعي والظني أمر نفسي فبالتالي هو أمر نسبي، انتبهوا، تأملوا هذه الكلمة، يقول:

"وإن كان الظن يختلف باختلاف أحوال الناقلين"

يمكن أن ينقل لك رجل فيُفيدك اليقين ويمكن أن ينقل لك ثلاثة فلا يفيدونك وأربعة وخمسة ولا يفيدونك إلا الظن، بل ربما ترد آحاد كلامهم جميعًا؛ عشرة خمسة عشر عشرين ترد كلامهم، فيأتيك رجل واحد فتصدق كلامه أفضل منهم، في أحوال من هذا يعرفه أهل الفن، قد يأتيك حديث من طريق رجل فتثق به أنه الصواب لعلمك به أو لعلمك بكلام المتكلم. هذه الكلمة ضروري نفهمها، واحد يعيش مع رجل عشر سنين، أو عشرين سنة فيخبر كلامه ويخبر أفكاره ويخبر كيف يفكر وكيف يحكم، فلو ذهبت فارقته فجائك رجل قال هذا الرجل الذي كنت عنده قال كذا وكذا أتصدقه إذا كان على خلاف ما خبرت منه؟ لا تصدقه. ولذلك هذا المعنى هو الذي كان ينشأ، هذه الكلمة في علم الحديث مهمة، جهل بها الناس كثيرا هذه الأيام، ولذلك كان من كلام من خبر حديث النبي ﷺ أن يردَّ معناه ثم يبحث عن سنده؛ يقول هذا الكلام لا يخرج من النبي، أنا أعرف كلام النبي، لماذا؟ لكثرة معايشته له، ولا يعرف غيره، هذا رجل إذا دخل السوق أغلق أذنيه حتى لا يستقر في قلبه كلامٌ غير كلام النبي ﷺ فهو يعيش مع النبي ﷺ، أهل الحديث هم أهل الرسول، وإن لم يصحبوا نفسه أنفاسه صحبوا، واضح؟ عايشوه، فتجده يقول أنا أعرف النبي هذا الكلام لا يخرج منه ولم ينظر في السند بعد، ثم يبحث في السند فيجد له علة، لأنه لا يوجد حديث معلول متنًا إلا وفي السند مقال، هذه قاعدة، ولذلك هذه ننتبه لها.

"وإن كان الظن يختلف باختلاف أحوال الناقلين، وأحوال دلالات المنقولات، وأحوال الناظرين في قوة الإدراك وضعفه، وكثرة البحث وقلته، إلى غير ذلك."

هذه هي السكين التي يخفيها الشيخ أبو إسحاق في هذا البلوى، واضح؟ هذه الكلمة هي التي يتستر بها في الأسفل، وضعها ورماها وتوكّل على الله، واضح؟ الكلام الأول هو كلام المتكلمين، وقال هكذا الأمر مستقر وهكذا يقولون، ثم في آخر الكلام يقول وإن كان الأمر يتعلق به اليقين والظن بأحوال الناقلين وهذا الكلام ليس على هذا البتة في ما تقدم، واضح؟ هذه كلمة أبي إسحاق انتبهوا إلى هذا الإمام الجهبذ، تعرف أن المعركة مستمرة ووضعها لأن في نفسه شيء من هذا الكلام كله، نعم أكمل.

"فنحن إذا نظرنا في الصلاة؛ فجاء فيها: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ} على وجوه، وجاء مدح المتصفين بإقامتها، وذم التاركين لها، وإجبار المكلفين على فعلها وإقامتها قياما وقعودا وعلى جنوبهم، وقتال من تركها أو عاند في تركها."

إذًا هو الآن أجمل لنا ما ورد من أدلة مختلفة تحت هذا الباب، الأمر الأول قال مدح المتصفين بإقامتها وذم التاركين لها، وإجبار المكلفين على فعلها وإقامتها قياما وقعودا وعلى جنوبهم وقتال من تركها أو عاند في تركها؛ جمع لنا كيف صيغت الآيات والأحاديث في قضية الصلاة ... قارئ القرآن والسُنّة وقد تشرب وتشبع بها واضح هذا، كأنه يريد أن يقول هذا كل ما ورد في الكتاب والسُنّة عن الصلاة، واضح؟ من هنا فإن الكلمات الجامعة تدل على المفردات المجموعة، المفردات المجموعة كيف جمعها الإمام، هذه طريقة الكبار من العلماء.

"إلى غير ذلك مما في هذا المعنى، وكذلك النفس: نهي عن قتلها، وجعل قتلها موجبا للقصاص متوعدا عليه، ومن كبائر الذنوب المقرونة بالشرك كما كانت الصلاة مقرونة بالإيمان، ووجب سد رمق المضطر، ووجبت الزكاة والمواساة والقيام على من لا يقدر على إصلاح نفسه، وأقيمت الحكام والقضاة والملوك لذلك، ورتبت الأجناد لقتال من رام قتل النفس، ووجب على الخائف من الموت سد رمقه بكل حلال وحرام من الميتة والدم ولحم الخنزير، إلى سائر ما ينضاف لهذا المعنى، علمنا يقينا وجوب الصلاة وتحريم القتل، وهكذا سائر الأدلة في قواعد الشريعة."

ألا تحسون هذه أنها كلمات ثقيلة؟ وهو أراد بهذا أن يبين لنا ضروريات الدين بالتمثيل بالصلاة، وأراد أن يبين لنا ضرورة حفظ النفس بحرمة القتل، هذا تمثيل، لكن كما ترون هذه كلمات عظيمة موجودة بأفراد متعددة يدل على أنه قد استوعبها – عليه رحمة الله –، ولذلك صدق من قال أظنه الشيخ عبد الله الدراز، أنا لم أقرأ المقدمة في هذه المرة ما أردت أن أتأثّر بأيِّ كلامٍ سابق، يعني أنا جئتكم ولم أقرأ أيَّ مقدمةٍ مما قرأته من مكة بعدها، أظنه هذا عبد الله الدراز، الله أعلم أنها له، ولا أريد أن أقرأ حتى لا نتأثر، ففي الحقيقة أنا تعلمت شيء أن لا تقرأ النقد حتى تقرأ الكتاب، اكتبوا هذه القاعدة، لا تقرأ نقد الكتاب قبل أن تقرأ الكتاب، لأن نقد الكتاب يصنع لك الطريق الذي يجب أن تسلكه في الكتاب وهذا خطأ، وهو يرسم ذهنك كيف تمشي في الكتاب، لا تفعل هذا، اقرأ الكتاب حرًا طليقًا متأملًا سالكًا في دروبه على ما يؤدي إليه عقلك ونظرك وإحساسك وتمهلك فيه بعد ذلك تقرأ للآخرين ماذا يقولون فيه، فقد تجتمع معهم وقد تختلف معهم، ولكنك بهذه القراءة تكون قد صنعت منهجًا خاصًا بك، واضح الكلام؟ هذه مهمة، فأنا

جئتكم حقيقة لم أقرأ المقدمة بالرغم من أني قرأتها قديمًا، المهم نرجع إلى هذه النقطة، يقول عبد الله الدراز، إن شاء الله هو، أرجوا أن لا أكون قد نسيت، يقول أحدهم من مقدمي هذه الشروح يقول: كأن الكتاب والسُنّة أمام هذا الشيخ الجليل، أمام الشيخ أبي إسحاق قد ارتوى من الكتاب والسُنّة، هذا شاهد لكلامي، نعم أكمل.

"وبهذا امتازت الأصول من الفروع.."

ما هي الأصول؟ هي النظر في الفروع، هل كافي هذا لحسن النظر فيها؟ لا بُدَّ من النظر في معناها، لابد من تقسيمها من سبعها وتقسيمها بجمع المتفِقات وإخراج المختلفات وهكذا. الأصول هي أرقى من الفروع، الفروع أساس لها لكنها إعمال العقل في الفروع، واضح؟ وبهذا امتازت الأصول عن الفروع يا شيخ. نعم أكمل..

"وبهذا امتازت الأصول من الفروع؛ إذ كانت الفروع مستندة إلى آحاد الأدلة وإلى مآخذ معينة، فبقيت على أصلها من الاستناد إلى الظن، بخلاف الأصول؛ فإنها مأخوذة من استقراء مقتضيات الأدلة بإطلاق، لا من آحادها على الخصوص..."

ولَمّا كانت – نختم الآن – ولَمّا كان علم الأصول كذلك، كان إخراج الرسالة من الإمام الشافعي، وهي النظر كما تقدم في علم الأصول الذي هو قمة ما يصل إليه الفقيه وقمة ما يصل إليه المحدث، وقمة ما يصل إليه الفقيه بأن يكون أصوليًا. وهذه لا تتأتى إلا لمن جمع السُنن وكان له عقل ثاقب ينظر فيها نظر المتمكن منها البصير بها الجامع لها، كان كتاب الشافعي كالسحر عند علماء عصره.

وعلى فكرة كتبه وهو شاب. وبهذا نختم، والحمد لله رب العالمين، وأنا أقول لا تخافوا ما سيأتي أسهل لكن هذه الكلمات لا بُدَّ من المقدمات، هكذا هي مقدمات الأصول كلها عقلية وهذا علم لا يتعلم اليوم، لا وجود له داخل المدارس الشرعية ولا في المدارس الأكادمية وبذلك يكون فيه الصعوبة على الطالب المبتدئ الشادي له، والحمد لله رب العالمين.

أَسْئِلَة

- يا شيخ هل نستطيع أن نقول أن العبارات التي أوردها الشيخ أبي إسحاق في نهاية الفقرات الأخيرة هي ردٌ على المتكلمين؟

يعني هو لم يرد ولكنه كما قلت أخفى أنه هذا كلام لا يقبله على الدلالة، فقد تكلم عن نفس اليقين وأنه يتعلق بمن يسمع وبمن يتكلم، واضح؟ وهكذا، وهذه هي أصل القضية في مسألة اليقين والظن.

نعم ما هي أسئلة الشباب في البالتوك؟ كم عدد الحضور اليوم؟

ثلاثين.

ثلاثين ما شاء الله

- يا شيخ لَمّا تكلمت عن المجاز والكناية ذكرت كما يقولون يعني هذا ما تعتقده؟

لا بلا شك أن الكلام، سؤال هل في القرآن والسُنّة مجاز؟

فهذا مبحثٌ واسع لا ينبغي هذا الإطلاق الذي يطلقه الناس اليوم، لا مجاز في القرآن! بهذا الإطلاق، أو قول الآخرين المجاز هو أساس القرآن، أو هو الأساس النظري فيه؛ فهذا غلط، كلاهما غلط علينا أن نفهم ماذا يقول أهل البلاغة لأنهم حين يتحدثون عن المجاز يتحدثون عنه برُقي وأن المجاز هو أجمل ما يتكلم به المتكلم، وأحسن ما يأتي به، والمجاز عندهم أوسع مما نحن نتهم به القائلين في موضوع العقائد، واضح؟

ولذلك ينبغي النظر في نظر العلماء ونظر المبصرين، فلذلك قلت كما يقولون، حتى لا يساء به أني أقول بالمجاز مطلقًا كما يقولون، ولكني كذلك لا أنفي المعاني التي يقولها أهل البلاغة من معاني المجاز أنها موجودة في الكتاب على معنى التجميل له والتزيين له، بهذا المعنى. ولكن لا بد من النظر إلى معنى المجاز، لأن معنى المجاز عند أهله – أهل البلاغة – متسع وما المناقش فيه ردًا وما تعلق بأسماء الله وصفاته، واضح؟

فهذا مبحثٌ كبير لا ينبغي أن يطلق فيه لا النفي المطلق ولا الإثبات المطلق، والله تعالى أعلم، نعم.

- يا شيخ في درس أو درسين تكلمت عن الاستقراء الكلي أو الجزئي ممكن توضحها شوي؟

الاستقراء الكلي والاستقراء الجزئي، الاستقراء هو الحكم الكلي الجامع للأفراد، فهو حكم كلي يجمع أفراد المنظور فيه.

عندما نقول إنسان، حيوان، عندما نقول حديد، واضح؟ فعلينا أن ننظر إلى أفراد هذا النوع جميعًا، وحينئذ نخرج بحكم، هذا الحكم يسمى حكم كلي، واستقرأناه، هنا أنا نبهت وأنبه إلى عظمة علمائنا في تسمية هذا النظر وهو نظر عقلي وإعمال عقل سموه استقراء مأخوذ من القراءة، فدل على أن كلمة القراءة عند العلماء ليست هي التلاوة، وليس هي الأماني، كما قال تعالى: {لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ} عند بعض أهل العلم الأماني معناها القراءة، يعني القرآن أو كتابهم صار عندهم مجرد تلاوة، فقط إجراء الحروف على اللسان، هذا أمر تعبدي له أجر، لكن القراءة عند علمائنا هي ماذا؟ هي النظر، ومن هنا شيخ هذا العصر في القراءة هو الأستاذ محمود شاكر، كان يرفض أن يضع كلمة تحقيق على الكتب التي يعمل عليها، كما في (طبقات فحول الشعراء) إلى آخره، الكتب التي حققها، يعني أنا أقول حققها، قال أنا هجرت هذه الكلمة لأنها كلمة المستشرقين، وهجرتها وهجرت معناها، وسب عليها السب اللازم ثم استعاض عن كلمة «تحقيق» التي تستخدم من قبل الناس في إخراج الكتب من عالم المخطوطات إلى عالم المطبوعات بكلمة «قرأه»، وهذا يدل على عظمة الرجل في فهمه لمعنى «قرأ»، فأنت لما تنظر في ايش قرأه"؟ أنت تنظر فيه قرأه يعني أنه تأمله تأمل العاقل وبحث فيه بحث الناظر المتأمل، واضح الكلام؟

فهذا هو الاستقراء، فإذا قرأت جميع أفراد النوع كان استقراءً كليًا، وإذا قرأت أغلبها كان استقراءً جزئيًا، الاستقراء الكلي يفيد القطع والاستقراء الجزئي يفيد الظن عندهم، ولا يفيد القطع. هل هو دليل أو غير دليل؟ مختلف فيه عند أصحاب هذا الفن.

جزاكم الله خيرًا وبارك الله فيكم والحمد لله رب العالمين.

الدرس [٩]

فصل

وينبني على هذه المقدمة معنى آخر، وهو أن كل أصل شرعي لم يشهد له نص معين، وكان ملائما لتصرفات الشرع، ومأخوذا معناه من أدلته؛ فهو صحيح يبنى عليه، ويرجع إليه إذا كان ذلك الأصل قد صار بمجموع أدلته مقطوعا به؛ لأن الأدلة لا يلزم أن تدل على القطع بالحكم بانفرادها دون انضمام غيرها إليها كما تقدم؛ لأن ذلك كالمتعذر."

جزاكم الله خيرًا، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، هنا لا بد أن نقف عند طريقة الشيخ ومنهجه في عامة هذا الكتاب، لأن الشيخ مبني كتابه يكون على التفريق بين الجزئيات والكليات، بين الخصوص والعموم، هذه قضية مهمة. لو تأملنا في الكتاب كله من أوله إلى آخره وأردنا أن نجمعه في خيط واحد لرأينا أن الخيط الجامع لهذا الكتاب – أي كتاب (الموافقات) – هذه المسألة، وهي أن الشيخ يريد من قارئ كتابه والناظر فيه أن يفرق بين ما هو جزئي وما هو كلي وما هو خاص وما هو عام، ولذلك من مباحث هذا الكتاب الجليلة كما سيأتي هو أنه يفرق بين الحكم الموجه للفرد والحكم الموجه إلى الجماعة، هذه المسألة مهمة وأظن أن الشيخ أبا إسحاق قد انفرد بها وهي أنه يقول أن الشيء ربما يكون مستحبًا إذا وُجه إلى الفرد ويكون واجبًا إذا وجه إلى المجموع، وكذلك نرى نحن ههنا أنه يفرق بين ما هو... البحث هنا الذي يتكلم عنه الشيخ يتكلم عن الأدلة، لا يتكلم عن المدلول، لو تأملتم في كلامه وهو بين واضح فإنه يتكلم عن الأدلة ويقول بأنه الأدلة ليست هي التي نص عليها الشارع إنفرادًا .نحن نعلم أن الدليل الأول الذي انبثقت منه الأحكام وانبثقت منه الأدلة كذلك هو الكتاب، والكتاب هو الذي دلنا على السُنّة، والكتاب هو الذي دلنا على الإجماع كما يقول الشافعي /، والكتاب هو الذي دلّنا على المعروف والعرف وهكذا، وكذلك أعلمنا الشافعي في الرسالة بأن الكتاب هو الذي دلنا على القياس؛ فإذًا الدليل الأول هو الكتاب لم يدلنا فقط على الفروع والأحكام، لكنه دلنا على الأدلة، هذه بينة واضحة. الآن هو يقول بأن الدليل قد لا نطلبه من دليل انفرادي جزئي، بل ربما لاحظنا هذا الدليل على طريقة ما تقدم، ما الذي تقدم؟ تقدم بأن – هو رأيناه يبني، الشيخ هنا يبني كتابه – قال بأن أصول الفقه يقينية وبالتالي فأدلة أصول الفقه يقينية، ثم ناظر بأن الأدلة الظنية لم تُعتمد باعتبار انفرادها لكنها لَمّا جمعت هذه الأدلة الظنية ارتقت إلى درجة اليقين، هكذا يبني هو. الآن يريد أن يقول هل هناك ثمة أدلة أخرى يمكن أن تنشأ على هذا

المنوال؟ ما هو المنوال؟ بأن ننظر إليها منفردة فلا تكفي، أن ننظر مجتمعة فتكفي، هذه قضية مهمة. ولذلك إذًا أنتم ترون أن الشيخ من بداية الكتاب حتى سنرى في نهايته أنه يعتمد على هذه القاعدة، وهي التفريق بين ما هو جزئي وما هو كلي، وأن للجزئي أحكامه وبأن للكلي أحكامه.

وأنا أريد أن أستغل، يعني لا أريد فقط أن تفهموا هذا الكتاب قراءة بإنتاج علمائنا السابقين فقط، عليكم أن تطبقوا هذا في واقعكم العملي، وممكن لنا أن نستفيد فائدة، والفوائد في فتح هذا الباب العلمي الجليل، وهو ما يسمى بقوانين الفرد وقوانين الجمع، هذه ربما تروها خارجة عن الأصول لكن لما تقدم في الفوائد الأولى بأن من مهمات علم الأصول أن تنتج عقلاً سُننيًا في فهم الحياة – هكذا قلنا –، وهذه من المهمات التي ينتجها التفريق بين ما هو جزئي وما هو كلي، ما هو خاص وما هو عام. هل هناك قوانين للفرد وهناك قوانين للجماعة؟ هل يمكن أن تختص الجماعة بقوانين لا تتلاءم مع الفرد؟ يتكلمون، هناك بحث في علم النفس يسمى بعلم النفس الاجتماع أو علم نفس الجماعة، ويسمونه «سكيولوجية الجماهير»، وهذا علم لا يُبحث في داخل بيئتنا الإسلاميّة بيئتنا العربية، والسبب أن الجماهير لا قيمة لها لوجود مستبد، صحيح؟ لا قيمة للجماعة لا قيمة لها. فلوجود المستبد الديكتاتور الطاغية فإنه يلغي الجماعة، لمجرد وجود كلاب حوله نابحة وعاضة، فإنه لو أن الجموع هذه كلها كانت ضده لا يهمه، فهو لا يحتاج إلى رضاها؛ ولذلك ليس من المهم ان ندرس هذا العلم بخلاف البلاد التي يحتاج فيها فرعون إلى الجماعة كما احتاج فرعون موسى عليه السلام إلى الجماعة عندما قال: {ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ}، فحتى فرعون قديمًا كان يحتاج إلى الجماعة، يحتاج إلى الملأ. اليوم فرعون لا يحتاج، فرعون العرب والدول الإسلامية لا يحتاج حتى لهذه الجموع، واضح؟ لا يحتاج لها، فحوله مجموعة من الكلاب، فهم يقتلون من يريد، ويعضون من يريد، وينبحون على من يريد، ويهزون ذيولهم لمن يريد وهكذا. فهذا العلم لا أهمية له في بلادنا، لكنه مهم بالنسبة إلينا نحن الدعاة.

وكذلك العلم قد ينشأ بطريقة عكسية؛ بمعنى قد يكون فهمك للواقع مَدخلاً لفهم كتاب الله، وقد يكون فهمك لكتاب الله مدخلاً لفهم الواقع، وهذه ضربنا بها مثالاً في علم الحديث، صحيح؟ أنا أريد أن أُنمي لسامعي هذا الكلام – إن كان يرى في كلامي شيئًا من الأهمية – أن ينموا عقله في هذا الاتجاه، وهو اتجاه معرفة حياتنا ومعرفة كتابنا، لا أريد فقط جمالاً لفظيًا، نستيطع أن نخوض في المطلقات والكليات ما شئنا، كما يتكلم الشعراء والأدباء في شعر الشعراء.

قلنا في درس سابق بأن كبار المحدثين قد ينشأ لديهم التعليل في السند بسبب نفور قلوبهم من المتن، صحيح؟ وهذه نفس القضية وقد يكون النظر في المتن تاليًا عن النظر في السند، وهذه الطريقة المألوفة، الطريقة المطروقة، لكن طرائق الكبار قد تخالف هذه الطريقة، وهي طريقة علمية سديدة لا يفزع إليها إلا الكبار، قلنا هؤلاء هم الذين تشربوا حديث رسول الله ﷺ، وهذه من هذه أيضًا. هذه من هذه أيها المشايخ وهو أنه يمكن أن تفهم كتاب الله بعد أن رأيت الواقع والسُنن، فأنت تبحث بعد أن أدركت هذه السنن الواقعية وتأملتها ودرستها – أي درست هذه الظاهرة وهذه السُنّة – أن تبحث عنها في كتاب الله فتجدها، واضح؟ يعني الشافعي قرر الإجماع ثم بحث عن الدليل، وهكذا. وهناك الطريقة المطروقة أن يفهم المرء كتاب الله فهمًا سديدًا فحينئذ يفهم الواقع فهمًا سديدًا، وقد يُخطأ في فهم كتاب الله فحينئذ يصدمه الواقع؛ وهذا عامّةً ما يقع فيه المشايخ والجماعات الإسلامية: يفهمون كتاب الله وسُنّة رسول الله ﷺ فهمًا غير سديد فيصدمهم الواقع، الواقع أقوى، النص يمكن تأويله؛ الله ﷻ حمى كتابه من العبث والتغيير والتبديل والتحريف، لكنه لم يحم كتابه من التأويل ومن الفهم على غير المراد، هذا لم يحمه كما في آية سورة آل عمران: {هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ} فهذا يقع.

القصد؛ الآن نأتي إلى النقطة التي بدأنا منها وهي نقطة مهمة بأن للجماعة قوانين وسنن تخالِف هذه السنن ما عليه الفرد، وقلنا بأن هذه تُسمّى عند البعض «سكيولوجية الجماهير»، يعني مثال ، أضرب لكم مثال عما يقولونه، وهذه لها وجه نظر سديدة يمكن أن نجد، بل أنا ممن أقول دائمًا هذه موجودة في كتاب الله وفي حياة النبي ﷺ من ذلك أن خطاب الفرد يغلب عليه العقل والاستدلال والنظر الصحيح وربط المقدمات مع النتائج. يعني عندما أنت تحاور رجل في جلسة، تحاوره بطريقة علمية وتقدم له المقدمات السديدة لتصل معه إلى النتائج، فتتعامل معه بطريقة علمية، لكن هل هذا ينفع مع الجماهير؟ يقولون بأن الجماهير لا يصح معهم الخطاب العقلي، لابد من رفع المثال (النموذج) ولابد من خطاب العاطفة، يعني لما تتكلم مع الجماهير لا بد أن تغلب العاطفة على العقل، وبخلاف ما لو خاطبت الفرد، هكذا يقولون؛ فحينئذ علمنا بأن خطاب الفرد يختلف في بعض الجوانب عن خطاب الجماعة، هل هناك ضرورة لهذين الخطابين؟ الجواب نعم، فإن موسى عليه السلام طلب من فرعون أن يكون النزال بينه وبين السحرة يوم الزينة، وإنما أراد هذا عليه السلام وهم أرادوا هذا، وقيل للناس {هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ۝ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ}، هم أرادوا هذا وحضروا نفسية الناس: {لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ} بهذه المقدمات، وهذا ممكن ونحن رأينا قول القرآن {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً}، علمنا أن دخولهم ليس لقوة الخطاب لكن

لغلبة المثال، الغلبة. والدليل على هذا ما ورد في صحيح البخاري بأن العرب في الجزيرة كانوا يرقبون لمن الغلبة للنبي ﷺ أَم للقريش، ينتظرون لمن الغلبة ليدخلوا في طاعته، ولَمّا مات النبي ﷺ وانتقل إلى الرفيق الأعلى ارتدت العرب لأنهم ظننوا أن المثال الغلبة قد ذهبت. فإذن الفرادة والفرد لا يغلب عليه هذا، إنما يغلب عليه الخطاب العلمي، ومن هنا تكلمنا في درسٍ سابق أشرنا إليها بأن القرآن هو كتاب الفرادة؛ القرآن في خطابه العلمي هو خطاب الفرادة، وهذا بين، تكلمنا عنه في درس سابق.

القصد أيها الإخوة الأحبّة بأن الأساس الأقوى والأبرز في كتاب الإمام الشاطبي هنا بين يدينا هو التفريق بين ما هو جزئي وما هو كلي، بين ما هو خاص وبين ما هو عام، وهذا بحث مهم نحن فقط نرفع العلامات عليها لننتبه إليها.

هنا يحضر الإمام الشاطبي قضية مهمة جدًا، هذه تكلم فيها العلماء على جهة التمثيل، وهو يبرزها هنا على جهة التأصيل. العلماء قديمًا تكلموا عن التمثيل بما تثبت الأدلة، فقالوا، لما جئنا إلى كتاب (الرسالة) مثلاً ونحن نستشهد به كثير باعتبار هذا الكتاب قد أرسى كيفية التفكير الأصولي والمنهج الأصولي، رأيناه يستدل على القياس، لكنه لم يُعْلمنا بمنهجية هذا الاستدلال؛ هنا الإمام الشاطبي / يبيّن لنا تأصيل الاستدلال للأصول، أي التي يسمونها بـ«الأدلة الإجمالية». نحن نعرف ونعلم كيف يُستدل على الأحكام التفصيلية، صحيح؟ نعرف هذا: من أين نأخذ الأحكام الفرعية في الصلاة وغيرها، لكنه هنا ينبهنا إلى كيفية الاستدلال بالأصول؛ قد يسأل سائل يقول: الأصول لا بُدَّ من الأدلة اليقينية، هو يحضرنا لهذه المسألة، وهو في هذا الكتاب إنما يريد أن ينبه إلى ما يسمى بالمصلحة المرسلة عند المالكية، هو يهيئ القواعد والأسس من أجل أن يقول من أين جئتم بالمصلحة المرسلة؟ هو يهسء لها هنا، واضح؟ فعبارته الآن بينة يقول: بأننا يمكن أن لا نجد نصًا صريحًا كما تقدم في التواتر المعنوي، يمكن أن لا نجد صريحًا في التدليل على المصلحة المرسلة لكن هذه المصلحة فاشية في قضايا كثيرة، واضح؟ هذا معنى كلامه.

يقول، وينبني على هذه المقدمة، أي التي تقدمت وهي المقدمة الثالثة بأن الأدلة السمعية لا تزيل القلب بأحادها بل باجتماعها يقول بأن كل أصل شرعي، لا يتكلم عن الفروع يتكلم عن الأصول، لم يشهد له نص معين أي خاص، وكان ملائمًا لتصرفات الشرع، هذه أيها الإخوة الأحبة، هذه كلمة وهي قوله: وكان ملائمًا لتصرفات الشرع، هذه الكلمة أيها الإخوة الأحبة تسري في كل الأحكام الشرعية، هذه نضع تحتها خطًا مهمًا لأنها إحدى قواعد الفقه، إحدى قواعد التفسير، إحدى قواعد اللغة، هذه قاعدة مهمة وهي أنه ينبغي لكل من أراد أن يفسر كلامًا لمتكلم، عليه أن يعرف

نفَس هذا المتكلم، ولذلك من قواعد التفسير أنه يجب عليك أن لا تقرأ اللفظة لوحدها، ولا بما دلت عليه اللغة، بل يجب عليك أن تقرأ هذه اللفظة في عموم كلام المتكلم لتعرف كيفية استعمالها، واضح الكلام؟ هذه مهمة، وهي إحدى قواعد الفقه، وهذا الذي يسمونه بوجود الجامع الذي يرتكز عليه الفقيه، كيف علمنا -فيما تقدم- كيف علمنا أصول الحنفية؟ كيف علمنا؟ دلت طريقة الأحناف في استنباط أصول أن العلماء لهم قواعد يعودون إليها، لكنك حين تقرأ كلام رجل فتراه لا جامِع لكلامه من القواعد والأصول دل على أنه ليس من العلم في شيء، ليس من العلم. أي رجل يتكلم كلام، إذا أردت أن تعرف مستوى علميته أو مقدار علميته فلا تنظر إلى ما يقول، ولكن انظر إلى الجامع الذي يجمع كلامه؛ فإن وجدته يعود إلى أصل جامع فاعلم أنه على بينة مما يتكلم، وإذا وجدته يومًا بالشمال ويومًا بالشرق يومًا مغربي ويومًا مشرقي فاعلم أنه رجل ليس في العلم شيء حتى لو أصاب فإنه لا جامع للعلم .وهذا قاله، تقدم كلام شيخ الإسلام بن تيمية في هذا: فإن الذي لا أصل له ولا قواعد له يكون خطأه أكثر من صوابه. وهذا الذي عابوه على ابن حزم، ومرةً أردت أن أجمع القياس في كتاب ابن حزم، فخرج معي شيءٌ كثير، هو من العائبين على القياس لكنه يستخدمه في مواطن كثيرة، وهذا مما عابوه؛ قالوا أن الرجل أن أصوله ليست بَيِّنة في فروعه، بل إن بعض الظاهرية انتقد ابن حزم أن أصوله لا تتلاءم – هذا بعض الظاهرية الذين هم على منهجه –، عابوا عليه أن كثيرًا من فروعه لا تتلاءم مع أصوله، وهذا أمر مهم جدًا ينبغي أن ننتبه له.

فالقصد؛ الآن عندما نأتي إلى كلمة زينة، هذه الكلمة موجودة في القرآن، فحين نفسرها، في قوله: {وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا}، فبعض أهل العلم يجعل الزينة هي الثياب الظاهرة، وبعض أهل العلم يجعل الزينة هي نفس البدن – أي بعض أجزاء البدن – وهي الوجه والكفين، هذه لا بُدَّ أن نعود إلى الزينة في الكتاب لنعرف كيفية استخدامها في القرآن حتى نفهمها على طريقة صحيحة، القصد – انتبهوا لهذه الكلمة– هذه الكلمة لا ينشأ مدلولها – انتبهوا – في نفس ناظرٍ لكلام أحد من الناس أو لكلام أي أحد من المتكلمين من عالم الغيب أو من عالم الشهادة إلا بعد أن يستوفي القراءة كاملة، واضح الكلام؟ هل هذا أمر سهل؟ هذه كلمة سهلة أن نقولها لكن إعمالها يستغرق الحياة، واضح؟ ولذلك انظر إليه ما يقول: وينبني على هذه المقدمة معنى آخر، وهو أن كل أصل شرعي لم يشهد له نص معين "قال" :وكان ملائمًا لتصرفات الشرع، كيف يعرف تصرفات الشرع، الجواب عندكم، تصرفات الشرع بأن يكون الرجل ممتلئًا حفظًا وإدراكًا وفقهًا لتصرفات الشرع. المقصود بتصرفات أي أحكام الشرع، قال: ومأخوذًا معناه من أدلته، مأخوذا معناه من أدلته على ما تقدم فهو صحيح يبنى عليه ويرجع إليه، هو يمهد لنا، الشيخ هنا يمهد لنا ما هي

الأصول التي لا تسألوني عن أفرادها، لأنها منتشرة في أحكام الشرع، أقرأ يا شيخ..، هنا فقط كلمة، قال: إذا كان ذلك الأصل قد صار بمجموع أدلته مقطوعًا به لأن الأدلة لا يلزم أن تدل على القطع بالحكم بانفرادها دون انضمام غيرها إليها كما تقدم لأن ذلك كالمتعذر.

"ويدخل تحت هذا ضرب الاستدلال المرسل الذي اعتمده مالك والشافعي"

الاستدلال المرسل كما تعلمون بأن المصلحة عندهم تقسم إلى تقسم إلى ثلاثة أقسام، هي المصلحة المعتبرة، المصلحة الملغاة، المصلحة المرسلة. أمّا نسبة المصلحة المرسلة للشافعي فخطأ من الإمام، لأن الشافعية والشافعي لا يرون هذا، لا يرون المصلحة المرسلة، وقد تكلم في هذا الغزالي كثيرًا في (المستصفى) أنتم ترون – هنا أنبه على نقطة مهمة – لأن المهمة لدي هنا أن نقرأ المنهج لا أن نقرأ الأفراد، الأفراد يمكن أن يلخصها رجل في كتيب، هذه المعلومات وهذه القواعد يلخصها رجل في كتيب فيدرسها لتلاميذه في جلسات محدودة لكن ما يهمني هنا هو المنهج، هذه قضية مهمة كما تروا: كيف يبني العلماء كتبهم وأحكامهم وتقريراتهم. بعض الناس يريدون أن يقفزوا إلى هذه الكتب دون المرور على الكتب التي تُأسس لهذه المصطلحات وتُبين معانيها؛ يعني الآن واحد يقول لك لا تقرأ في (المستصفى)، لا تقرأ في (البرهان) للجويني، للذكر أن أحد الإخوة نبأني – لأنني غائب من سنيني طويلة عن المكتبات وعن الإنتاج – فأحد الإخوان أرسل لي يقول بأن (شرح المازري) مطبوع على البرهان للجويني، وأرسل لي رابط لكن ضاق الوقت عن النظر فيه، فقط، وهذا عذري، سنين، هناك أطنان خرجت خلال هذه السنين، والمرء بعيدٌ عن موارد الطباعة والكتابة.

أقول إن بعض مَن.. وهذا فَتْق يُفتح للطعن في التراث، والكلام في كتب السلف، أنتم ترون الآن أننا ما من كلمة يقولها الشاطبي إلا ولا بد أن نعود إلى واسطة في فهمها صحيح؟ وهذا فقط لا أريد أن أقف عندها كثيرًا لكني أنبه عليها، وقد تقدم الكلام عليها تلميحًا والآن أقف عندها تصريحًا، فأقول بأن الطعن في وسائط الكتب التي هي مفتاح كتب السلف هو طعن في كتب السلف، لا تصل إليها؛ عندما قلنا بأنك لا يمكن أن تفهم (إعلام الموقعين) دون أن تمر على كتب الأصول التي بُنيت على الطريقة التي نعيبها اليوم، وهي طرق المتكلمين وغيرها، لا يمكن. هذه مصطلحات لا بُدَّ أن تمر عليها، وأن تفهمها، وأن تعلمها، فإن قطعتها كأنك قطعت السُّلم والدرج الموصل إليها، وهكذا. رأينا نحن في الدرس الفائت أن جملةً من كلام الشاطبي كم احتجنا إلى شرحها، عندما تكلمنا أن الدليل السمعي ظني، هكذا قال، ووضع الاحتمالات التي جعلته ظنيًا، هذا لا يمكن أن تفهمه حتى تكون قد مررت على الوسائط الموصِلة لهذا المعنى؛

فالآن يأتي واحد ويقول عليك أن تقرأ (الموافقات) دون أن تقرأ الكتب التي تُذم أنها من كتب المتكلمين، لا يمكن أن تصل إليها؛ لذلك أنتم ترون أننا لا بد أن نمر على (المستصفى)، لا بد أن نمر على كتب الرازي وهكذا نعم، تفضل يا شيخ.

"ويدخل تحت هذا ضرب الاستدلال المرسل الذي اعتمده مالك والشافعي"

قلنا بأن الشافعي على الصحيح لا يقول بالاستدلال المرسل، وأكثر مَن اعتمده هو مالك وأبو حنيفة، وقد تقدم بأن الشيخ أراد في كتابه هذا أن يجمع مذهب مالك الذي سماه مذهب ابن القاسم، وقلنا بأنه سمي بهذا الاسم عنده لأن المالكية المغاربة عمدة ما أخذوه من مذهب مالك عن طريق المدونة لابن القاسم، واضح؟ وقلنا بأن المالكية يقولون بمذهبين في المذهب، أو بقولين أو بمنهجين في المذهب، وهو منهج المشارقة والمغاربة، والمغاربة هم الذين أخذوا المدونة فيعتمدون على النصوص وتصحيحها وتدقيقها، وأما مذهب المشارقة فيعتمد على القياس، على الفرع والبناء عليه، وإمام من أخذ عنه المغاربة هو ابن القاسم، لأجل هذا نُسب المذهب إليه. وأما من اشتهر من المشارقة فهو عبد الوهاب القاضي المالكي الذي خرج من بغداد يشكوا بخل أهلها وصرامة أهلها في الغريب وغير الغريب؛ خرج في جنازة مع عبد الوهاب المالك القاضي، سُمي قاضيًا لأنه صار قاضيًا في مصر، خرج من بغداد ففتح الله عليه الدنيا، خرج من بغداد فخرج أهل بغداد يشيعونه فقالوا يعز علينا فراقك، فقال يعز عليكم فراقي والله لو وجدت في بلدكم رغيفين في النهار ما خرجت. المهم، هذه طريقة الناس يبكون العالم والشيء إذا فُقد فإذا حضر استقلوا قيمته، تفضل.

"فإنه وإن لم يشهد للفرع أصل معين؛ فقد شهد له أصل كلي، والأصل الكلي إذا كان قطعيا قد يساوي الأصل المعين، وقد يربو عليه بحسب قوة الأصل المعين وضعفه، كما أنه قد يكون مرجوحا في بعض المسائل، حكم سائر الأصول المعينة المتعارضة في باب الترجيح، وكذلك أصل الاستحسان على رأي مالك، ينبني على هذا الأصل، لأن معناه يرجع إلى تقديم الاستدلال المرسل على القياس، كما هو مذكور في موضعه."

هذه كلمات معبأة (ضخمة) لأن تحتها الكثر من الكلام، ولو أردنا أن نقف عندها الآن في هذا المبحث لما وجدنا كلامًا عندما نأتي إليها، لكن لابد أن نقف عندها وقوفًا كافيًا لنفهم معناها.

المصلحة المرسلة تكلمنا عنها، بأن الشارع اعتبر مصالح أقام لها الدليل وأوجب على المكلف أن يعتني بها، صحيح؟ هذه المصالح يجب أن تُعتبر، وهي المصالح التي تخضع للضرورات الخمس، هذه المصالح يجب أن تخضع، وهناك مصالح ملغاة الشارع لم يعتبرها ومنها: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ}، هذه المنافع الشارع ألغاها، ونحن نعلم أن منافع الميسر عند العرب لم تكن للغالب ولا للغانم، يعني بعض الناس يظن أن المصلحة كانت قديماً - وهذا ينبغي أن نفهمه -، بعض الناس يظن أن لاعب القمار كان إذا غلب أكل المال الذي غلب به، وهذا غير صحيح، لم يكن هكذا، لم يكن هذا سمة العرب، كانوا يلعبون القمار فالغانِم والغالِب يطعم الفقراء هذا المال، نعم، فهذه مصلحة كما ترون! مصلحة عظيمة، ولكن الشارع لم يُقمها -انتبهوا-، وما هي مصلحة الخمر؟ لم تكن هناك مصلحة - كما يظن البعض -، الأولية هي مصالح ولكنها بعيدة، بعض الناس يظن أن مصلحة الخمر هي في بيعها وفي شرائها أي في الربح المترتب على التجارة بها، هذا غير صحيح، هذه ليست منفعة الخمر الأولى، منفعة الخمر الأولى عند العرب هي الكرم، ولذلك نهى رسول الله ﷺ عن تسمية العنب كرمًا لأن العنب هو أصل الخمر فسماه العرب كرْمًا لأن شارب الخمر يُصبح كريمًا، ينفق ماله؛ فهذه أول مصالح الخمر، فهمتهم؟ وهذا كثير من الناس لا يعرفونه أما أهل العلم فيعرفونه؛ فمنفعة الخمر في الكرم، ومنفعة الميسر في إطعام الفقراء، وكلاهما في إطعام فقراء وأنتم تعرفون قصة أسد الله حمزة رضي الله عنه، عندما شرب الخمر فغنته الجارية بالشعر فقام إلى جمل علي ذبحه فأكله فبكى علي رضي الله عنه، القصة.

إذاً فهذه منافع الخمر عندهم، والميسر لم يكن يأكلونه، عيب، هذا لا يعرفه العرب، أن إذا ربح المرء في القمار أكل المغنم هذا لا يعرفونه؛ فهذه كما ترون مصلحة ومنفعة عظيمة، لكنها مصالح ملغاة لم يقمها الشارع، ألغاها. اليوم لو أطلقنا هذه المصالح عند المشايخ، أنتم ترون.

كذلك مصلحة حفظ النفس، هذه مصلحة ملغاة في جانب مصلحة نشر الدين وحفظ بيضة الإسلام والحفاظ على الإعراض، هذه مصلحة؛ لو أن رجلاً مات في سبيل الحفاظ على أرضه هو محمود، ولو أن رجل خاف ذهاب المال ففرط في عرضه لكان مذمومًا، صحيح؟ فهذه مصالح. إذن ربما تستقل المصلحة فتلغى لا قيمة لها - كما رأينا في الخمر والميسر - وربما تكون مصلحة مقابل مصلحة، فحينئذ يأتي دور الشارع في التمييز، وذلك كما سنبيّن في كتاب المقاصد للإمام الشاطبي بأنه يقول بأن الإجماع منعقد على أن ضرورة الدين أولى من كل ضرورة، بحيث أن المال يذهب في سبيل

الدين، والنفس تذهب وهكذا، تذهب كل الضرورات مقابل حفظ الدين، واليوم الدين أين مرتبته في المصالح المعتبرة عند الفقهاء؟ هو آخر الضرورات التي يعتنى بها.

والقصد بأن هذه الجملة من كلام الشاطبي / معبأة بالعلم، عندما نتكلم عن المصالح لا بُدَّ أن نفصل فيها، لا بُدَّ أن ننظر فيها نظر الفقهاء، لا بُدَّ أن ننظر فيها نظر الشرع، ولذلك هو يرسي أن ثمة مصالح مرسلة، الذين يخالفون بأن المصالح المرسلة لا وجود لها – وها هنا أنبّه على نقطة – يقولون بأن هذه المصالح المرسلة إن أنتم قد اعتبرتموها، يعني الذين يثبتون المصالح المرسلة يقولون بأنكم اعتبرتموها في ظرف من الظروف، إذن أنتم أعدتموها إلى مصالح معتبرة. وهنا لا بُدَّ من مسألة، كما رأيتم هنا في هذه الحالة بأن الأصول قد اختلفت، لكن قد اتفقوا في الفروع، وهنا يأتي دور أن *الأصول في مرات كثيرة لا تحسم الخلاف*، وإنما يكون الخلاف فيما يتعلق في الفروع كأنها مُطلقة، واضح؟ يعني قد يتفق فقيهان قد اختلفا في الأصول في مسألة، وقد يختلف فقيهان في مسألة فرعية وقد اتفقا في الأصول، وذلك بَيِّن كثيرا، هذا كثير جدًا في كلام أهل العلم، يعني ذلك أنه لا بُدَّ من النظر إلى الأصول وإلى الفروع هذا واحد.

النقطة الثانية ما هو الاستحسان؟ أنتم تعلمون أن أول من أطلق لفظ الاستحسان هم الأحناف وجاء الشافعي وأبطله، مع أنه ذكر في كتابه (الأم) في أكثر من ثلاثة مواطن :أستحسن هذا، استحسن هذا. وأفسد ما يُقال بأن الشافعي لم يكن يقصد الاستحسان الذي قصده الأحناف، هذا أفسد ما يقال، لأن الشافعي لو كان بعيد الموطن، بعيدًا عن كتب الأحناف، بعيدا عن رجالهم لجاز هذا؛ هذا بعض كلام الدارسين وهو كلام غير محكم وغير سديد، عندما يقول الشافعي /: من استحسن فقد شرع، والاستحسان تلذذ وقول على الله بغير علم، هل كان يتكلم عن الاستحسان الذي هو عند الأحناف؟ الجواب نعم، لأن هناك من حاول أن يقول بأنه يقصد الاستحسان شيء آخر، هذا غير صحيح. الشافعي كان عالمِا بما يقوله الأحناف، عالمِا بما يقوله محمد بن الحسن الشيباني، وقد قابله وجالسه، واحترمه وقدره؛ وعامّة.

هنا فائدة، هذه ذكرها الأستاذ الشيخ عبد الرحمن المعلمي في كتاب (التنكيل)، هذه من فوائده، قال بأن عامة من ذُكر في كتب الشافعي على وجه المناظرة دون ذكر اسمه إنما هو محمد بن حسن الشيباني واضح؟ عندما تقرأون في (الأم)، عندما تقرأون في (جماع العلم)، فإنه يذكر مناظرات كثيرة –الشافعي – وهي مناظرات رائعة وقوية والشافعي لا

يذكر اسم المناظر له، يقول إن عامة هذه المناظرات كانت تجري مع الفقيه الحنفي تلميذ أبي حنيفة -رحمة الله عليه- وهو أقربهم إلى الأثر، وهو محمد بن الحسن الشيباني /. يقول الشيخ عبد الرحمن المعلمي: "وإنما أعرض الشافعي عن ذكر اسمه على جهة الإخلاص"، أي بدافع الإخلاص، لأنه لو أنه ذكر محمد بن الحسن الشيباني لكان عظيمًا، والشافعي عند أهل العراق ليس بمحمد بن حسن الشيباني، ليس على مرتبته، فإنما لا يذكر اسمه، لأنه لو قال الصغير - وليس الشافعيُّ بصغير، لكن هذه مراتبهم عند رجل شاب وعند شيبة - لو ذكر محمد بن الحسن الشيباني لكان في ذلك تعظيمًا لنفسه، واضح الكلام؟

والقصد بأن الاستحسان الذي عابه الشافعي في كتابه إنما هو الاستحسان الذي قال به الأحناف في عصرهم، ما هو الاستحسان؟ تكلم الأحناف، وهم أصحاب القول فيه، وهم المبرزون والرافعون لشأنه، قالوا فيه أقوالاً كثيرة، يعني هم لم يتفقوا على قول فيه، ولكن جملة مقالاتهم تجتمع في هذا التعريف: أنه **إعراض الفقيه عن دليل جليّ إلى دليل خفيّ**، ما هو الاستحسان عندهم؟ هو إعراض الفقيه المجتهد من دليل جليّ إلى دليل خفي. الدليل الجلي هو ما ينبغي أن يُسلك عادةُ في الطريق، لكن يقول: لوجود قرينة تمنع إعمال المطروق إلى دليل آخر غير مطروق هي التي ألجأتنا إليه، ويمثلون أمثلة كثيرة لن نخوض فيها ووجدت كلامًا لابن تيمية / في شرح الاستحسان هو أصوب ما وجدته، ووجدت أن الإمام ابن القيم / في كتابه (إعلام الموقعين) يشرح هذه الجملة، جملة قالها ابن تيمية، شُرحت في عامة أو أغلب كتاب ابن القيم (إعلام الموقعين)، ما هي؟ ما هو الاستحسان؟

يقول بأن الاستحسان عند الأحناف أنهم - هذه الآن تفهمونها إذا تأملتم هذه -، أنهم ينشئون قاعدة فقهية من حديث - صحيح أو ضعيف ليست مشكلة -، أنهم ينشئون قاعدة فقهية من نص ثم يجلعلونها أصلاً يردون إليه الفروع الأخرى الواردة في نصوص أخرى، واضح الكلام؟

يأتون إلى نص يستنبطون منه قاعدة فقيه ثم يردون الأحاديث الأخرى التي في *ظنهم* تخالف هذه القاعدة. أنا أمثل بمثال واحد لأنه ليس هذا فقط، حتى نمر على هذه الكلمات بوعي، ولذلك أنا كما وعدت، أن هذا الكتاب لا يصلح أن يكون للمبتدئين لكنه يكون في المرتبة الثانية أو الثالثة، لكن حتى يمشي معنا الجميع في مستوى واحد.

يقول الأحناف مثلاً نهى رسول الله ﷺ عن بيع المعدوم، ابن القيم / يقول أصلًا ليس في ذلك حديث، إنما هم يقولون بأنه هناك نصوص تدل على أن رسول الله نهى عن بيع المعدوم جعلوها أصلاً، ثم جاؤوا لنصوص أخرى تُخالف هذه القاعدة فجعلوا إما رد هذه النصوص لأنها تخالف هذه القاعدة – هذا هو الاستحسان – أو أنهم أَوَّلوها وجعلوها على خلاف الأصل؛ من هنا ذموا ومدحوا.

مثال الذي ضربنا نهى رسول الله عن نهي المعدوم، جاؤوا إلى الإجارة، قالوا إن الإجارة هي بيع المعدوم – نحن نقول قولهم، إن صح أو لا يصح هل الإجارة بيع أو ليس بيع هذا ترجعون إليه في (إعلام الموقعين)، تجدونه بينًا واضحًا مشروحًا –، قلنا بأن هذه العبارة التي قالها ابن تيمية شرحها ابن القيم في (إعلام الموقعين) بأمثلة كثيرة، لعلها تستغرق أكثر من ثلثي الكتاب.

يقولون بأن الإجارة – انتبهوا هنا – الإجارة بيع المعدوم، هم أخذوا بهذه الإجارة وخالفوا القاعدة حينئذ مُدحوا، وقال من قال بأنهم أخذوا بالحديث الضعيف على خلاف القياس، واضح؟ هذا مدح؛ لكنهم ذُموا عندما جاؤوا على أحاديث كثيرة تخالف هذه القاعدة فردوها، فمُدحوا من جهة على أنهم يأخذون بالحديث ما كان على خلاف القياس، وذُموا لأنهم ردّوا أحاديث خالفت هذا الأصل الذي بنوا عليه؛ هذا هو الاستحسان كما يشرحه ابن تيمية /، واضح؟ ولذلك هو الآن يريد أن يقول بأن الاستحسان ... طيب، تقدم مني القول بأن الشافعي / استحسن في كتابه(الأم)، وقد جمعت هذه النصوص من كتاب (الأم) أنه قال "استحسنت"، فجمعتها. لماذا قالها؟ هل قالها على الوجه الذي ذمه، هل قالها على وجه آخر هذه مسألة أخرى. وأنا هنا أضع شعارا وقاعدة عليك أن تبقيها في ذهنك دومًا وأنت تنظر في الأصول وفي الفقه، **قد يضع العالم القاعدة ويُخطئها في مواطن، أو يخطئ فيها في مواطن**، أما قولي بأنه يخطئها أي تفوته وهو الذي وضعها وهو الذي استنبطها، وهذا أمر بين هذا من الصفات التي هي لازمة للبشر، أن الإنسان لا بُدَّ أن يخطئ لماذا؟ لقول ربنا ﷻ في الحديث القدسي: (العزة إزاري والكبرياء ردائي)، فلابد أن ينكسر كل إنسان بخطء، وهذا من دلائل عجز الإنسان. نعم، هو سيشرح الاستحسان في الجزء الرابع وإلى غير ذلك والمصلحة ستأتي كذلك مفصلة في كلام الشيخ /. اقرأ...

"فإن قيل: الاستدلال بالأصل الأعم على الفرع الأخص غير صحيح؛ لأن الأصل الأعم كلي، وهذه القضية المفروضة جزئية خاصة، والأعم لا إشعار له بالأخص؛ فالشرع وإن اعتبر كلي المصلحة، من أين يعلم اعتباره لهذه المصلحة الجزئية المتنازع فيها؟"

هنا فقط ما معنى كلام الشيخ، يقول الاستدلال بالأصل الأعم على الفرع الأخص غير صحيح؛ نحن نعلم أيها الإخوة الأحبّة بأن الخصوص خروج على العموم صحيح؟ والجمهور وقولهم الصواب بأن الخصوص يقيني والعموم ظني، لأن العموم بسبب دخول الخصوص عليه خرج من يقينية دلالته على كل أفراده، صحيح؟ خرج منه الخصوص، فدلالته على كل أفراده لن تتم، لن تقع، فإذن دلالته ظنية. فإذن الخصوص له أحكامه التي تخالف العموم، واضح الكلام هنا؟

ومما يذكره العلماء في هذا الباب وهو ما يسمى كثيرًا بـ«حادثة الأعيان»، وهذه هل لها وجود أو ليس لها وجود؟ هذا يأتي شرحه، هل هناك شيء يسمّى «حادثة عين»؟ الصواب لا وجود له، لا وجود لشيء يسمى حادثة عين، وهذا سنبينه في موطنه.

فالقصد بأنه يقول بأن العام وقد خرج منه الخاص فلا يصح أن يُستدل به على الخاص، عموم قد خرج منه الخاص، فدلَّ على أن العموم لا يصلح دليلاً لما خص، هذا كلامه، نعم.

"فالجواب: أن الأصل الكلي إذا انتظم في الاستقراء [يكون] كليا جاريا مجرى العموم في الأفراد"

إذاً هو يريد أن يقول بأن الخاص منتظِم في العام لأنه لم يخرج عنه، واضح؟ هناك عموم فيه أفراد، هو الصورة التي تخيلها المعترض بأن هناك خصوص خرج عن العموم، صحيح؟ وهو يقول لا، هذا خاص لا زال منتظمًا في داخل العموم، لماذا؟ لأن العام قد نشأ بالاستقراء لهذه الأفراد الخاصة، واضح؟ بما نشأ العموم؟ هل نشأ ابتداءً أم نشأ تبعًا؟ بما نشأ العموم، الكلي، هنا الذي سماه كليًا؟ بما نشأ؟ نشأ بالاستقراء. الاستقراء لماذا؟ للأفراد، هذه الأفراد هي التي سميناها خصوصاً، واضح الكلام؟ فكان الأصل الكلي قد نشأ بهذه الفروع، فلا يجوز أن ينقلب عليها، نعم.

" أمّا كونه كلياً؛ فكما يأتي في موضعه إن شاء الله"

واضح ما هو الذي يأتي في موضعه؟ أن الاستقراء إيش؟ كلي، وأن الاستقراء يقيني وأن الاستقراء ينشأ من الفروع، واضح؟ نعم.

"وأمّا كونه يجرى مجرى العموم في الأفراد؛ فلأنه في قوة اقتضاء وقوعه في جميع الأفراد، ومن هنالك استنبط لأنه إنما استنبط من أدلة الأمر والنهي والواقعين على جميع المكلفين؛ فهو كلي في تعلقه، فيكون عاما في الأمر به والنهي للجميع."

واضح هذا الآن الكلام واضح، نعم.

"لا يقال: يلزم على هذا اعتبار كل مصلحة موافقة لمقصد الشارع أو مخالفة، وهو باطل"

هو يريد أن يقول ليست كل مصلحة معتبرة؛ باستقرائنا لنصوص الشارع وجدنا أن هناك مصالح ملغاة، غير معتبرة، لا يقيم لها الشرع اعتبارًا أمّا استقلالًا لا يقيم لها، مثل النشوة واللذة، واحد يقول كيف؟ الخمر ينشأ لذة، واحد يقول أنا من مصلحتي اللذة، نقول أن هذه مصلحة لا قيمة لها في الشرع، الشارع ألغى هذه اللذة، لأن هذه اللذة ناتجة عن الخمر، الناس يتلذذون بها يقول: لا أريد أشربها أمام الناس أنا أجلس في بيتي وأتلذذ بها نقول هذه مصلحة ملغاة، وإما أن تكون هذه المصلحة ملغاة لأنها تعارض ما هو أعلى منها، نعم. هناك مصالح ملغاة لأصلها، لذاتها لا قيمة لها، وإما أن هناك مصالح ملغاة لوجود ما هو أكثر اعتبارًا منها، نعم.

"لأنا نقول: لا بد من اعتبار الموافقة لقصد الشارع"

هنا هذه الكلمة ضعوا تحتها خط، هذه هي التي أنشأت فقه النيات، هذه الكلمة، هو ليس الذي أنشأها، هذا العلم أنشأه من قبله، تكلم فيه العز بن عبد السلام في (قواعد الأحكام)، تكلم فيها، تكلم فيها ابن الحاج في (المدخل)، تكلم فيها علماء كثر، وهو فقه النيات؛ وأول ما يُقام له من فقه النيات: يجب أن توافق مقصد الشارع حتى أن يصح أن تسمى عبادة، واضح؟ لا يجوز أن يُطلق على فعل أنه تعبدي حتى يقوم به المكلَّف على جهة مقصد الشارع، هل هذا موجود؟ موجود .يشرحه الشاطبي في المقاصد، واضح؟ إذًا هذه كلمة انتبهوا لها لأنها غزيرة ومهمة ومليئة بالشروح التي سيقوم بها الإمام فيما يأتي من الكلام، يقول وهو باطل؛ لأنا نقول: لا بُدَّ من اعتبار الموافقة لقصد الشارع، طيب هذه

ما دخلها فيما نحن فيه؟ لأنه لا يمكن للمرء أن يُمايز بين ما هي مصلحة معتبرة ومصلحة ملغاة إلا بالنظر إلى مقصد الشارع؛ مقصد الشارع هو الذي يحدد المقاصد المعتبرة والمصالح الملغاة، وهنا يأتي كلام ابن القيم – عليه رحمة الله – بأن الشرع لا يُمكن أن يُدرك إلا بعد أن يعلم العابد والمكلف والمجتهد نَفَس الرب – هذه كلمات ابن القيم –، يقول بأن أسماء الله وصفاته هي التي تعلمنا شرعه وفِقه الشرع، هذه نقطة مهمة، واضح؟

هل هذا يمكن أن يدلنا على أقدار الله؟ الجواب نعم؛ حين تعلم نفس الرب، تعرِف أحكامه فيما يحب ويكره، وحينئذ تعلم كذلك فيما يقع من المقادير، نعم، أو أن تَعلم حكمة المقادير، وهذا أظن ذكرته في حكمة الابتداء ما عرجت عليه قليلاً، نعم يا شيخ.

"لأن المصالح إنما اعتبرت مصالح من حيث وضعها الشارع كذلك، حسبما هو مذكور في موضعه من هذا الكتاب بحول الله..."

الرجل يعني من بداية الكلام، لم يدخل في المصالح، لكن كما ترون أنه *يُدمر ما عليه مفهوم المصلحة القائم على مفهوم اللذة والمنفعة*، واضح؟

من الابتداء، الشيخ بريءٌ مما يقوله الجهلة في مفهوم «المصلحة النفعية» القائمة على اللذة وعلى «المنفعة المطلقة» كما يريدها الغربيون، كما يريدها العَلمانيون، الشيخ أبو إسحاق الشاطبي يفترق عنهم ابتداءً، يقول بأن المصلحة هي ما وافقت مصلح الشارع. المصلحة عند الغربين ما هي؟ هي ما وافقت مصلحة العامِل، هذا على قاعدة آدم سميث : دعه يعمل دعه يمر، وهناك مذهبٌ اسمه «مذهب اللذة» معروف وهو أساس حركة الغرب اليوم، مذهب المنفعة المطلقة وهي أساس تحليل الربا، أساس تحليل بيع الخمر، إلى آخره، وهو الحروب القائمة على الجاهلية.

بهذا نكتفي اليوم، بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا، والحمد لله رب العالمين.

أَسْـئِـلَـة

---

[٢] آدم سميث(٥ يونيو/حزيران ١٧٢٣- ١٧ يوليو/تموز ١٧٩٠) فيلسوف أخلاقي اسكوتلاندي ومن رواد الاقتصاد السياسي. اشتهر بكتابيه الكلاسيكيين: نظرية الشعور الأخلاقي (١٧٥٩) ، والتحقيق في طبيعة وأسباب ثروة الأمم (١٧٧٦)، والذي عرف فيما بعد بـ[ثروة الأمم]، ويُعتبَر رائعة آدم سميث، وأول عمل يتناول الاقتصاد الحديث.

أحد عنده سؤال؟

أنا يا شيخ.

تفضل.

ذكرت أنه قد يضع العالم القاعدة ويخطئها في مواطن أو يخطئ في مواطن، ذكرت من أسباب مدح الاستحسان عند الأحناف أنه قد يخالف قاعدته.

لا، الاستحسان عندهم قد، لماذا يمدح الأحناف؟ لأنهم يرون أن، عندما يأتي مثلا الشعراني ينقل عن ابن حزم في كتاب (الطبقات الكبرى)، أنه يقول بأن الأحناف يأخذون بالحديث الضعيف على خلاف القياس، ويستدل بهذا الكلام على أنهم أخذوا بحديث بطلان الصلاة بالقهقهة، وهو على خلاف القياس؛ القياس أنه لم ينقض وضوءً، يقول بأن القهقهة في الصلاة ينقض الصلاة، آمنا، لأنها انشغال بغير ما فرضت له، لكن لماذا ينقض الوضوء؟، على غير القياس، فلو أن رجلاً قهقه خارج الصلاة هل ينتقض وضوئه؟ فإذا ليس ناقض للوضوء، أخذوا بحديث مكحول، ومكحول من صغار التابعين، ومرسله ضعيف جدًا، فأخذوا به، فيُمدحون في هذا الجانب أنهم أخذوا بالحديث الضعيف على خلاف القياس، ويُذمون عندما يردون أحاديث صحيحة على خلاف القياس مثل حديث المِصراة، ما هي المِصراة؟ هي الرجل الذي يبحث درع شاته أو درع نعامه، فيحبسها ثم ينزلها إلى السوق على أنها حلوب فيشتري الرجل يحلبها أول مرة يخرج منها الحليب، ثم لا تعود إلى الحليب، فهذا حديث يقول: الشاري بالخيار، إما أن يُمضي البيع أو يرجعه مع صاع من تمر، يقولون هذا على خلاف القياس، الأحناف يقولون هذا على خلاف القياس، لأن الحليب مثلي أو قيمي، فإمّا أن يعيد ما أخذه وإمّا أن يعيد قيمته، فالصاع لا يعادله، فردوه، ردّوا هذا الحديث. انظر إليهم، ردّوا حديثاً صحيحاً لأنه يخالف القياس، وأخذوا بحديث ضعيف وهو على خلاف القياس، وهذا هو وجه الاستحسان، يذمونه من جهة ويمدحونه من جهة.

ولا شكَّ أن من أسباب وجود الاضطراب عند الأحناف أن هناك من الفروع ما قالها الإمام وهي لا تلتئم مع الأصل الذي أخذوه من بعض نصوصه، هذا موجود، هل هذا لوجود أصل آخر غائب عند الإمام، أم لغير ذلك؟ هذه مسألة عندهم، نعم.

- يا شيخ العالم قد يُخطِّئ القاعدة،

لا يُخطِّئ قد يُخْطِئها، ما معنى يُخطِئها؟ أي لا يُعْمِلِها أي ينساها...

مقاطعاً: أو يُخْطِئ بها...

أو يُخْطِئ بها أي يطبقها على غير طريقة سديدة هذا يمكن...

الأصول ليست معادلة رياضية؟

هذه كان ينبغي أن نقدمهما وهي مقدمة في العلوم، هذا السؤال الذي سألته هو إحدى مقدمات العلوم المهمة في علوم الشريعة؛ القول بأن علوم الشريعة علوم رياضيات هذا لا وجوده له، وينقضه قوله ﷺ: (من اجتهد فأخطأ، ومن اجتهد فأصاب)، فهذه ليست علوم رياضية: واحد زائد واحد يساوي اثنين، هذا حينئذ يسقط.

إذًا أنتم نسيتم حين قلت بأن الله كلفنا بأمرين: أن نُعمل النص، وكلفنا بالاجتهاد؛ فكونه قد كلفنا بالاجتهاد إذًا هناك شيء اسمه اجتهاد، **انتبه**، وجود شيء اسمه اجتهاد يعني وجود احتمال الخطأ والصواب. هل هذا الكلام يرفع اسم العلم عن علوم الشريعة؟ هذا من أجهل الجهل؛ العلوم قواعد موجودة، **لكن من مقاصد الشرع أن يبتلينا** – انتبه –، فهمنا أنه لَمّا ابتلانا فجعل لنا هذا القدر أن نخطأ ونصيب، وأن نعيد مرة وأن نناظر فيأتينا الحق، ومعنا الباطل، ومعنا الخطأ، فنرجع إلى الحق، هذا من الابتلاء الإلهي؛ فعلينا أن نعرف مقاصد العلوم لنعرف وِجهتها، واضح الكلام؟

- ذكرت أنت شيخنا أنه لا وجود لحالة التعيين...

هذه نؤجلها؛ بعض العلماء يقول هذه حادثة عين، ويقصدون أنها إمّا لم تُفهم – لا نفهمها ولا نلغي بها القاعدة – ، وإمّا أن يقولون أنها لها ظروف لم تصل إلينا؛ هذه لا وجود لها.

انتبه لهذا، العالم قد يقولها: "أنا لم أفهمها"، هذا له ذلك، لكن لا يوجد في الشريعة شيء جهلته الأمة جمعاء؛ لأن قد يقول العالم أنا لم أفهمها وتبقى القاعدة عندي وهذا حديث لم أفهمه فلا أبالي، لكن وقد جهله لا بد أن يكون قد فقه غيره، وستأتي في الحقيقة ستأتي، لا يوجد حادثة عين، حادثة عين يعني أنها على غير جمع المتماثلين.

الشريعة كما قال شيخ الإسلام بن تيمية وكما قال ابن القيم وقال أهل العلم سوى الظاهرية: **الشريعة جاءت بجمع المتماثلات وردّ المتناقضات**، هذه قاعدة؛ فالعالم، يرى أن هذه لا تلتئم مع المتماثلات فيقول حديث عين ويريح نفسه، وغيره يعمل فيها النظر، وهذا باب فتحه الإمام الشافعي يسمى باختلاف الحديث: كيف يوفق العالم بين الجزئي والكلي، وبين الجزئي والجزئي، وبين الكلي والكلي.

- هذه القاعدة يمكن اعتبارها كما الأفعال التي قام بها النبي ﷺ واعتبروها خاصة بالنبي ﷺ أنها حوادث فردية؟

الأصل هو العموم، السائل يقول هل هذا إحدى توجيه بعض أفعال النبي ﷺ أنها خاصة له؟ الأصل هو العموم، الأصل أن أفعال النبي ﷺ جرت منه على مجرى التشريع، ولكن هناك من الأمور ما دلّت على أنها خاصة بالنبي ﷺ؛ فإما تعرف بالنص عليها، كما نصّت سورة الأحزاب على، التي تعرض نفسها على النبي ﷺ بغير مهر وهكذا، وإمّا بالفعل مثل الزواج بأكثر من أربعة، من فعله ﷺ ومنعه من غيره وهكذا، إمّا أن تدل على هذا أن يأتي نص فيبيّن وإمّا يدل بالاستقراء والنظر.

- صلح الحديبية والموافقة على الشروط (...)

الشافعي يمنع تكرار شروط صلح الحديبية بعد النبي ﷺ *لا على جهة أنها خاصة بالنبي*، هذا كلامه في (الأم)، لا على جهة أنها خاصة بالنبي ﷺ بأنه يوحى إليه وفعلها على جهة الوحي فلا يجوز، لكنه أجراها على معنى خصوصية الحدث بأن القرشي لا يمكن أن يفتك بابنه حين يرجع إليه، يعني هو يقول بأن النبي ﷺ عندما قال: يرد الذي يرجع إلينا من غير إذن وليه، فقال لأنهم كانوا أحرص الناس على أبنائهم وعلى أهليهم، فإنهم لا يفعلون ما يفعل الكفار في زماننا، لو أنه رد إليهم مسلم لقتلوه، أو لعذبوه عذابًا مهلكًا رادًا من دينه على دينه، هذا قوله على كل حال، ولذلك لا يجعله على جهة الخصوصية للنبي ﷺ، ولكنه يجعله على جهة خصوصية الحال الذي نشأت به المعاهدة، نعم.

- يسأل الأخ مشتاق وليس الشيخ، يقول بأننا تحدثنا في الدرس الفائت، عن التواتر والآحاد وما ترتب عليه عند الأصوليين وعند المتكلمين في مسائل التوحيد والعقائد، ما ترتب عليه من نتائج في المستدَّل له، بأنهم جعلوا القطعي للعقائد، باعتبار أن العقائد قطعية ويقينية ولا يجوز فيها الظن، وبالتالي لابد من دليل يقيني لها.

أولاً مبحث التواتر والآحاد، لو أنه بقي خاصًا في علم الحديث، وهو بيان أنواع الأحاديث؛ لأن مصطلح علم الحديث يبحث في أنواع الحديث، وقد يُذكر في الحديث وصفٌ لا قيمة له فيما يترتب عليه من علوم، مثلاً، لو جئنا بالحديث المسَلسَل فهذه لا قيمة لها علميًا، هي من مزينات، وكذلك لو جئنا بالحديث المتواتر وأحاديث الآحاد، هل لها قيمة علمية؟ ربما يقول بأنها عند الترجيح أن المتواتر يُقدم على الآحاد، ربما، لكن أن يقال بعد ذلك أكثر من هذا، فهذا الذي نريد أن نقف عنده الآن فقط بما يسمح به الوقت وبما يسمح به الجهد.

أيها الإخوة الأحبّة أريد أن أقولك لكم شيئًا مهمًا جدًا، أن تضعوه في أذهانكم، في دراستكم إذا تفرغتم لهذا العلم، وهو أن التاريخ – هذه نقطة أرجوا أن تقرأ وأن تكتب –، أن التاريخ هو ما يثبت صدق العلوم من عدمها؛ وقد تقدمت كلمة الشاطبي *بأن الصحة تتعلق بالوجوب وأن البطلان يتعلق بعدمه*، وهذا لو طبقناه فيما هو أكثر من ذلك يُنشئ لنا قاعدة علمية تضبط لنا علومنا، وهو: ما الذي يثبت صدق القاعدة؟ ما الذي يثبت عدم صدقها؟ هو التاريخ. التاريخ منهج مهم وهو منهجٌ قرآني، كما قال الله عز وجل: {وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ}، ماذا قال بعدها؟ {فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ}، هنا التاريخ، هذا التاريخ. يستدل القرآن بتاريخ النبي ﷺ على صدق الدعوة فدل على أن التاريخ يُستدل به في منهج القرآن.

هذه نقطة مهمة الرجاء إخواني الرجاء أن تهتموا لها، يعني مثلاً أنا أكرر هذه الكلمة، أنا ما يهمني في هذه الدروس هو المنهج، فإن ترسخ لديكم منهج انطلقتم للأفراد في الحياة، للأقدار في الحياة وما فيها من أحوال، في الشرع وما فيه من نصوص، فحينئذ يصبح صوابكم أكثر، وهذا ما يجعل المرء داخلا في أهل العلم. مثلاً، كيف نستطيع أن نثبت كذب توراة؟ لا يوجد لنا إلا التاريخ أولاً، التاريخ هو الذي يثبت كذبها. ما هو المنهج في قراءة الإنجيل؟ هو التاريخ؛ أن نقرأ تاريخه، ما هو المنهج في إثبات صحة القرآن، ما هو؟ هو قراءة تاريخه؛ لو قرأنا تاريخ القرآن منذ النبي ﷺ إلى يومنا هذا لثبت لنا أن هذا القرآن هو عين ما قرأه النبي ﷺ على أصحابه. مثال آخر، لا بأس أن نقف عند هذه لأنها مهمة، لو أنكم فقهمتم هذه اليوم وكانت هذه إحدى هذه المسائل التي استقرّت في عقولكم لأخذتم اليوم كنزًا عظيمًا، عندما جاء طه حسين ونفى الشعر الجاهلي وقال بأنه شعرٌ منحول، بما استدل العلماء على بطلان ما قاله؟ هو التاريخ؛ حتى إن أحدهم قال له: إن هذه الكلمة هي التي تثبت صدق القرآن وتثبت كذلك بطلان الكتب الأخرى وتثبت صدق الشعر الجاهلي وتثبت بطلان الدعوى أنه منحول كيف؟ عندما يدخل علم ما، أو رواية ما في عصر مظلم، لا نعرف فيه حركة هذا العلم، ولا كيفية وجوده، هنا يظهر الشك في هذا العلم؛ يعني مثلاً، نحن عندما نأتي للتوراة نجد أن مئات من السنين ما بين السبي البابلي إلى عودتهم من السبي البابلي لا وجود للتوراة، هم يعترفون أن التوراة كانت مفقودة، هذه الفترة التاريخية مظلمة، الظلام يعني أن هناك صناعة، أن هناك خفاء، أن هناك فاعل، أن هناك فئران تلعب، أن هناك شر يتحرك؛ عندما تكون في العَلن يعني أنها بينة نستطيع أن نحكم عليها، القرآن لم يدخل هذه لم يكن في لحظة من

اللحظات على معنى الخفاء، الأمة تقرأه منذ أن قرأه الرسول -صلى الله عليه وسلم- إلى يومنا هذا، لم يحصل في يوم من الأيام أن اختفى القرآن أو ذهب في حقبة تاريخية مظلمة لا نعرف كيف تحرك فيه حامله. وقالوا مما قالوا في الشعر الجاهلي، نحن لا نعرف هذه الفترة، متى كانت هذه الفترة كانت خفية في كلام أهل العربية في الشعر؟ حين دخل الشعر في لحظة مظلمة لا نعرفها، لا يتلوها الناس لا يعرفونه، حين يقولون بأن هذه قد ظهر لنا ما خفي علينا من شعر امرئ القيس مثلاً، لا وجود لهذا، هذا هو التاريخ؛ لماذا أقول هذا، لأستدل على ما يأتي، وهذا الكلام يا أستاذ مشتاق حين نفهمه نطبقه في الحديث المتواتر، كيف؟ على وجه آخر، ليس على الطريقة التي تقدمت من الذكر ولكن على طريقة أخرى من الاستدلال في التاريخ، كيف؟

متى نشأ، متى يستطيع طالب العلم أن يحكم على حديث بالتواتر؟ متى؟ إذا جعلنا التواتر شرطا علميا لقبول رواية ما فمتى اشترطتم هذا؟ هل هو شرط حاضر في كل مراتب الرواة؟ حتى يصل لرسول الله ﷺ، أَم أنه وصف – أي التواتر –، وصفٌ متأخر فبالتالي هو شرط متأخر؟ فكروا في هذا السؤال. إذا فكرتم في هذا السؤال علمتم بأن شرط التواتر لحصول علمٍ ما هو شرط حادث، فلما كان حادثًا دل على أنه منبوذ مرفوض، لأنه – كما تَقَدَّم – لأن التاريخ ينفي أن يكون شرطا في وقت من الأوقات.

هل هذا الجواب يكفي؟ أنا لا أريد أن أفصّل في الجواب لأني سأترك إعمال هذه القاعدة لكم في باب التواتر والآحاد، أتركها لكم، وإن شاء الله مَن فهم هذه القاعدة يستطيع أن يطبقها، يستطيع أن يخرج بها كنتيجة يتكلم فيها العلماء في الباب، والله تعالى أعلم وبارك الله فيكم.

- الأخ أيمن يقول: كيف نوفق، يقول كيف نوفق بين كلام الشيخ في درس سبق عن ضعيف السيرة وأنه لا يؤخذ منه أحكام، وذكر أيضًا وجود الحديث الضعيف في سنن أبي داوود بأن الفقيه لا يستغني عنه، فكيف نوفق بين هذا وهذا؟

الجواب: بأن أصول الأحكام، جيد هذا السؤال، لكن لا أستطيع أن أزعم أني أجيبك الآن إجابة تامة، وإن كانت حاضرة وإن شاء الله سأبينها إذا قدر الله – في كل شيء إذا قدر الله ما أدري كيف –، ولكن سأعطيكم الآن فقط كما وعدتكم علامات تستدلون بها، إن أصول الأحكام لا يستدل لها إلا بالصحيح، ولكني أقول كما قال أحمد والضعيف يُحتاج إليه في وقت، أو يحتاج إليه في حال؛ عندما نثبت أن الأصل موجود، كأن نثبت مثلاً ماذا قال النبي ﷺ في الركوع

هذا نثبته، فيأتي حديث ضعيف يبين لنا عدده، يبين لنا مقداره، كم كان الرسول ﷺ يقوله هذا حينئذ يُحتاج إليه في وقت؛ أثبتنا الأصل، ولكن الحديث الضعيف الذي لا يشتد ضعفه أي ليس فيه كذاب، وليس هو منكر، لأنه كما قال أحمد -رحمه الله-: "المنكر منكر"، بمعنى الخطأ لا ينبغي أن يؤخذ، بل ينبغي أن يرد، والذي عُرف عنه، ما معنى منكر أنه خالف أو ثبت أنه قد أخطأ فيه، هذا ما يُطلق عليه منكر عند القدماء، فهذا لا يؤخذ به هذا يرد، لكن بين يدينا حديث حكم أهل العلم بأنه ضعيف لوجود راو له ضعيف فقط، هل هذا يُستدل به في وقت؟ نعم يعمل به في وقت ولا ينبذ البتة لحاجتنا إليه؛ ولذلك قالوا بأن الضعيف يحتاج في الموازين، يحتاج إليه في المواقيت، يحتاج إليه في المقادير، وهذه طريقة العلماء القدماء أنهم لا يتركون حديثا البتة ولا ينبذونه البتة لوجود ضعف فيه، وأسهل طريقة هي طريقة الإمام ابن تيمية / وهو أنه يقول بأن الحديث الضعيف في كلام أحمد يُقصد به الحسن، الذي قال عنه المتأخرون، الحسن، وهذا يُسلّم لشيخ الإسلام كثيرًا، لكن لا يُسلم إليه تسليمًا تامًا، لأن الحسن - هو يقول شيخ الإسلام - لا يُعرف عند الأوائل إنما نشره الترمذي، والصواب أن الحسن معروف قبل الإمام الترمذي /، وهذه مسألة طويلة أرجوا أن يُسأل عنها أهل مصطلح الحديث، وإذا قدر الله في دروس لمصطلح الحديث نشرحها إن شاء الله بتوسع والله تعالى أعلم، بارك الله فيكم.

أظن أن الوقت الآن تم لنا، ولذلك لطول هذا الأمر وحاجتنا إليه، واليوم مرت علينا هذه اللفظة كما رأيتم، موجودة في الكلمة، ووالله لما مرت أردت أن أقف عندها كثيرًا لكن وجدت الوقت لا يتسع، فأبشروا إن شاء الله أفتتح بها في درسي القادم، جزاكم الله خيرًا وبارك الله فيكم.

- (...)

هذا أشرت إليه في شرحي لكلمة الشيخ أبي إسحاق / في أن الواجب موافقة قصد الشارع، أريد أن أوسع الدائرة لا بأس جزاك الله خيرًا على هذا السؤال، نوسع الدائرة، نقول بأن العابدين لهم درجات؛

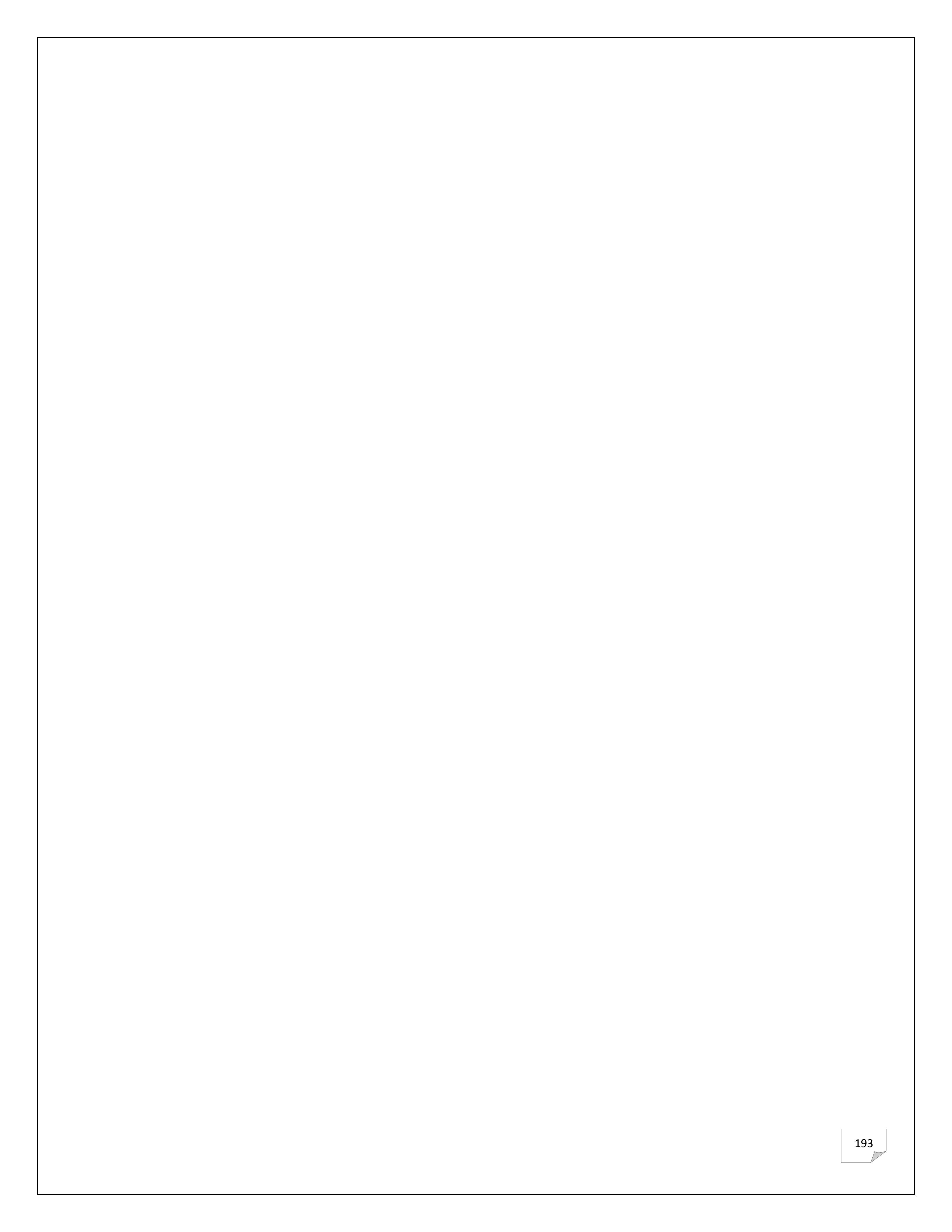
الدرجة الأولى هي درجة التسليم، درجة التسليم والقبول والعمل، يعني الله أمرنا بها فأنا أسلم لأمر الله، هذه درجة العابدين في مرتبتها الأولى، وهذا هو الذي به يدخل المرء الإسلام ويدخل كذلك في مرتبة العابدين، لكن هناك مرتبة أعلى ومعرفة دليلها كما يقولون، لكن أعلى درجات العابدين هو *معرفة الحكم مع إدراك حكمته*، ولذلك، إذا أردت،

لماذا؟ لأنك إن فهمت حكم الله مع معرفة حكمة الله فيه كنت فقيهًا، وهذا الذي ميز الصحابة ﷺ عن غيرهم، أنهم فهموا حكم الله، وفهموا حكمته فيه، وبالتالي فهموا الحياة؛ ما فيه خير لهم فيفعلونه وما فيه إصابة لمراد الله يُقبلون عليه، وما فيه شر لهم وما فيه مخالفة لمراد الله يبتعدون عنه، ولذلك تجدون شرح هذا جليًا في كتاب شاه ولي الله الدهلوي (حجة الله البالغة)، تجدون هذا بينًا فيه، وقد تكلم المشايخ قديمًا عن أسرار التشريع، أسرار، ورأيتم أن الإمام الشاطبي سمى كتابه)عنوان التعريف بأسرار التكليف)، الأسرار، لابد من النظر إلى حكمتها، إلى مصالحها؛ وتجدون الحكيم الترمذي له (أسرار الصلاة)، تجدون للآخرين هكذا. كلمة سر هذه يعني معرفة ما يُبنى له الشيء، هذه كلمتهم، يقولون سر الشيء، إدراك سر الشيء أي إدراك ما بُني له هذا الشيء؛ ولذلك معرفة الحكمة هذا ليس إجابة على كلامك لأنك قصرت المقاصد على العلة، والصواب أن المقاصد أوسع من العلة، فلا بد من نظر إلى الحكمة، لأن الحكمة أوسع وبابها أعلى، بل إن القياس – وهو قياس العلة – قياس قليل في الشريعة، قياس العلة قليل في الشريعة، القياس الأغلب والأعم والذي يستخدمه أغلب الفقهاء هو قياس الدلالة، وهذا إن شاء الله نبينه في القياس، وقد ذكره الجويني في (الورقات)، ولذلك من درجات العابدين، بل هي أعلى درجات العابدين أن يدرك المرء الحكمة، لماذا يدرك الحكمة؟ لأن إدراك الحكمة هو أدراك لمقصد الرب. لماذا أراد منا هذا؟ وأريد أن أنبه على نقطة نبه عليها شيخ الإسلام، وهي بها تلتقي كلمة التكليف مع المقصد، هذه من أسرار كلام العلماء قديمًا، يقولون بأن التكليف يصل إلى درجة الكَلَف، ما هو الكَلَف؟ الكلف هو شدة التعلق، فانظر إلى التكليف أنه نشأ أولاً بالأمر والنهي ثم انتهى هذا الأمر والنهي إلى ماذا؟ إلى التعلق، وهذا هو المطلوب، وهو أن يقوم الرجل بالعبادة لأنه يحبها، وليس على جهة التكليف الذي فيه المشقة والتعب، ولذلك يرفض شيخ الإسلام /، يرفض كلمة التكليف، ولو رأينا أن كلمة التكليف تنتهي إلى كلمة الكَلف، لما كان لشيخ الإسلام اعتراض، وذكر مَن جمع المنهيات اللفظية وجعلها من المنهيات أن يقال هذا تكليف، أي فيه مشقة وكلفة، ولو أنه نظر إلى أن نهايته هو الكلف، لكان في ذلك حلٌّ لهذا الاعتراض، وهو ليس فقط تكليفا أي ما فيه كلفة، ولكن إلى ما نهايته الكَلَف وهو التعلق والمحبة.

هم يقولون بأن الشارع لم يأت قط بالتكليف، بكلمة تكليف، أتى بالنور، أتى بوحي، أتى بروح، أتى بهداية، هذه الألفاظ التي تدل على أن القلب يحبها حين يكون مبصرًا، مهديًا، طاهرًا، أبيضًا، نقيًا، وهذا صحيح، ولكن بداية الأحكام يأخذها المرء على جهة الأمر والنهي، ولذلك لما جاء الرجل إلى النبي ﷺ قال إن أكره الإسلام، قال: أسلِم وإن كنت كارها، فإن النفوس في بداية الطريق تُحمل حملاً على الطاعة، لأنها غير مُرَوَّضة، لأنها شموس، فبعد ذلك تجد اللذة فتُقبل على العبادة على جهة الطاعة، وهذا الذي قاله ﷺ: (أفلا أكون عبدًا شكورًا) وذلك بأنه يقوم بالعبادة على

جهة الكَلَف، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: "أرحنا بها يا بلال"، وكما قال -صلى الله عليه وسلم-: "حُبب إلي من دنياكم الطيب والنساء"، ثم قال: "وجُعلت قرت عيني في الصلاة" هذا هو الكلف، وهو خروج من التكليف على جهة المشقة إلى جهة الكَلف، وهذا سبيله -يا شيخ مشتاق وللجميع- هذا سبيله أولاً: العلم، ما هو العلم؟ هو إدراك حكمة التكليف، إدراك حكمة الأمر، وهذا أوسع من باب العلة. أظن أني قد أجبتك، وصحيح أنه ليس إجابة مباشرة، لكنها أوسع، أمّا قولك بأن الشارع - هنا أنبّه إلى نقطة علمية - لم يُعلمنا العلة في أحكامها، الجواب: هذا غير مطلق، فهناك من العلل ما هو منصوص عليها، ولذلك بعض الظاهرية كداوود الظاهري، يرى أن القياس في العلة المنصوص عليها قياس صحيح لأنه إعمال لعلة كما قال تعالى: {إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ}، فالعداوة والبغضاء هنا أقامها الشارع، فلا بُدَّ من اعتبارها ولا بُدَّ من البناء عليها، وهكذا؛ فكلمة أن الشارع لم يعلمنا العلة غير صحيح، إنما نَصَّ عليها في بعض الأحكام وأقام لها الأمارات في أحكام أخرى، ولما نقول أقام لها الأمارات هذا يُعيدنا إلى القاعدة الأولى التي تكلمنا عنها وهو أن الله ابتلانا بالاجتهاد، فهناك من الأحكام ما أقامها عل جهة الأمر المباشر، وهناك من الأحكام ما أقام لها الأمارات التي تستدعي الاجتهاد لندرك مراد الرب فيها، والله تعالى أعلم.

وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.



الدرس [10]

"فصل. وقد أدى عدم الالتفات إلى هذا الأصل وما قبله إلى أن ذهب بعض الأصوليين إلى أن كون الإجماع حجة ظني لا قطعي؛ إذ لم يجد في آحاد الأدلة بانفرادها ما يفيده القطع، فأداه ذلك إلى مخالفة من قبله من الأُمَّة ومن بعده، ومال أيضا بقوم آخرين إلى ترك الاستدلال بالأدلة اللفظية في الأخذ بأمور عادية، أو الاستدلال بالإجماع على الإجماع، وكذلك مسائل أخر غير الإجماع عرض فيها هذا الإشكال فادعى فيها أنها ظنية، وهي قطعية بحسب هذا الترتيب من الاستدلال، وهو واضح إن شاء الله تعالى."

جزاك الله خيرًا وبارك الله فيكم، ابتداءً أنا سأؤجل الجواب عن الاقتضاء واللزوم إلى وقته، لأن الحكم الشرعي يتضمّن لفظ الاقتضاء وبه يتم التفريق بينه وبين غيره، فأنا وعدت الإخوة أن يكون ابتداء هذا الدرس بالتفريق بين الاقتضاء واللزوم، وأنا أعتذر لأن هذا له مبحث قادم، فلا نريد أن نقدم الأشياء قبل ميقاتيها، خاصة ونحن في هذه المسائل التي يسعى جاهدًا الإمام أبو إسحاق الشاطبي – عليه رحمة الله – إلى تأصيلها وإلى بيان ما عرض لها من إشكال ليرده.

لما تقدم الكلام من الشيخ / إلى أن القطعي قد لا يثبت بدليل قطعي على الانفراد، بل يثبت القطعي بدليل ظني على وجه الاجتماع، هذا الذي تقدم من كلامه، وأن الظني إذا كثُر حتى ارتفع إلى درجة القطعي، صار هذا الدليل لا يُبحث في آحاده، لا يبحث في آحاده بل يبحث بمجموعه، فلما كانت الأدلة الشرعية موافقة – كما تَقَدَّم – الأدلة الشرعية التي لم ينص عليها الشارع، نصًا –كما يقول هو، أو كما يقول من رد عليهم–، لما كانت هذه الأدلة الشرعية – أي الإجمالية وليس الأدلة الشرعية الفرعية –، لما كانت الأدلة الشرعية الإجمالية قد لا تثبت بآحاد قطعية، لكنها تثبت بمجموع يؤدي إلى القطع وجب اعتبار هذه الأدلة القطعية، ونبّه إلى خطأ من قال بأن هناك من الأدلة الإجمالية في أصول الفقه من لا تصل إلى درجة القطع واليقين، ذلك لأنهم اعتبروا أنها مأخوذة من أفراد ظنية، فنقول هذا خطأ، لأنها أولاً أُخذت من مجموع هذه الأفراد الظنية فشكلت اليقين، أو أنها وافقت –كما تقدم في لفظه – وافق تصرفات الشرع، ولا يعرف تصرفات الشارع إلا بالاستقراء، هذا ما تقدم، صحيح؟ لا يعرف تصرفات، – ما المقصود بتصرفات الشارع؟ يعني مقاصده، مقاصده الكلية – وهذه لا يمكن إدراكها إلا بالاستقراء، لا بد أن نعرف هنا ما الذي أراد وما الذي أراد

وهكذا، هذه تصل إلى درجة القطع، أريد هنا أن أقف وأقول بأن هذه المباحث لو أعرض هنا طالب العلم فإنها لا تُشكّل – في هذا العصر – لا تشكّل لديه نقصًا لكنه يحتاج إليها لزومًا حين يمر على بعض هذه الألفاظ في أمثال الفقه ومسائل الأصول، أنا أنبه على هذه النقطة لأهميتها ولأننا فيها، في هذا الباب، ولذلك نحن نبحث هذه المسائل لأنها ضرورة في قراءة كتب أئمتنا، وقلت لكم وأكرر هذا، حتى أن الإمام أبى محمد بن قدامة المقدسي قد اضطر إلى وضع هذه المقدمات في كتابه (روضة الناظر)، ولما جاء بن بدران الدمشقي لشرح (روضة الناظر) لابن قدامة ذكر الخلاف في هل أثبتها أبو محمد أم أزالها، لأن هناك بعض المخطوطات تدل على أن هذه المقدمات في العلم أزالها أبو محمد، ولا أعتقد أنه أزالها، أعتقد أن الحنابلة أزالوها وليس أبو محمد هو الذي أزالها، لكن هذه نقطة.

النقطة الثانية وهي أن بعض الإخوة قال بأن موضوع اليقين والظن يحتاج إلى بحث ويحتاج إلى قدر زائد عن الذي تقدم من الكلام حولها، لو فرغنا لهذه النقطة بوقت كثير ربما ننتهي من هذ الموضوع، نحن نبحث هذه المسائل لا على وجه التسليم لها، ولكن الواجب على طالب العلم أن يذكرها على الوجه الذي كتبها صاحبها، وأن نفهمها، وأن لا نُعرض عنها لضعفنا في فهمها، لأن البعض يُعرض عن قراءة هذه المقدمات لأنه لا يستطيع إدراك مراد أهل العلم فيها، ولذلك يعرض عنها، وهذا جانب ضعف. وهذا كتاب بين أيدي الناس لا يمكن أن تعرف مقصد صاحبه ولا طريقة صياغته ولا إدراك أفراده حتى تقرأه من بدايته؛ واحد يقول اقرأ لنا، لنقرأ ماذا ينفعنا من المقدمات، ماذا ينفعك من الموافقات؟ الذي ينفعك من الموافقات لتقرأه كله، لتعرف كاتبه، وتعرف نَفسه وتعرف مراده، وتعرف ألفاظه حتى تقرأ الكتاب كله.

ولو وقفنا قليلاً عند موضوع الظن واليقين فهي من المباحث التي أنا أشرت إلى أنها نسبية، بل أثبت بأن أدلة اليقيني التي يعتمدونها – بالنسبة للمتواتر – لما تكلمت قلت أنها لا تصلح، لكن لم يقف عندها بعض طلبة العلم ممن يسمعون للدروس، لم يقف عندها موقفًا متأملاً تامًا، وقلت بأن الظني واليقيني، الظني نتكلم هنا عن الظن الغالب، لا نتكلم عن الظني الذي هو مردود، والذي هو شك، فيه الشك، لا نتكلم عن هذا الظن، الظن المذموم أو الظن المرجوح كما يسمونه هذا لا نتكلم عنه هنا، المرجوح مردود، ولكن لا يعني أن يُرد بالكلية فقد يأتي يوم يقوى هذا الظن المرجوح ليكون راجحًا، وهذا الذي يقوله أهل العلم في الحديث الضعيف الذي لا يشتد ضعفه، يقول قد هذا الحديث يقوى بالنظر إلى رجاله وتقويتهم بعد أن كان عند الناظر فيه أن أحدهم أو أن بعضهم فيه ضعف، لكن قد يُغير رأيه.

فينتقل من الحكم عليه بالضعف وهو ظن مرجوح، أي هذا، المقصود به أن الحديث، وليس فعل الناظر فيه أي أن ظنهم راجح أن هذا الحديث يفيد الضعف الظن المرجوح لأنه ضعيف، ولكن ينظر فيه مرة أخرى فيقوى لديه الحديث وهذا يقع، لكن نحن نتكلم هنا عن الظن الراجح الذي يقوى فيَصل لليقين أو يصاب، بماذا؟ هل يصاب بالشك؟ لا يصاب بالشك، ولكن يكون هناك احتمال قبول الشك، هذا هو الفرق، ما هو الفرق بين اليقيني والظن الراجح؟ ما هو الفرق؟ الفرق أن اليقين اعتقاد جازم لا يقبل الاعتراض، وإذا عُرض عليه الاعتراض نفر منه، لا يسمعه، وهذا يقع في ما يقع على الحقائق، ويقع كذلك على الجهالات؛ فإن اعتقاد – الاعتقاد، والاعتقاد هو عندهم يقيني – فإن الاعتقاد عند كثير من الناس ليس مبنيًا على أدلة يقينية، هو عنده جازم به فإذا جاءه من يعرض عليه الشك ويعرض عليه نقيض ما يعتقد نفر منه لا يستمع له، وهذا اعتقاد جازم، وهذا الذي يسمونه اليقين، واضح الكلام؟ هذا الذي يسمونه اليقين، لكن السؤال هنا — انتبهوا – هل هذا اليقين نشأ بدليل يقيني الجواب؟ لا.

هل هذا اليقين لدى صاحب الاعتقاد الباطل نشأ بدليل يقيني؟ الجواب: لا، لم ينشأ بدليل يقيني؛ فإذًا ليس شرط اليقين في نفس المعتقد أن ينشأ بدليل يقيني، من أجل هذا قلنا بأن اليقين إما أن يكون بنسبته إلى فاعله وإما بنسبته إلى الدليل الذي اعتمد عليه، واضح الكلام؟ هذا قلناه، هذا الكلام تقدم وهو أن اليقين إما بالنظر إلى معتقِده فهو يقين لديه، يسمى يقين، لماذا؟ لأنه عنده لم ينشأ من جهة النظر، ما نشأ لا من جهة النظر ولا التفكر، واليقين عندهم – عند المتكلمين أو المناطقة أصحاب الميزان كما يسمون أنفسهم – ينشأ بدليل يقيني، فإذا نشأ بدليل يقيني فهو عندهم اليقين.

الآن ما هو الظني؟ هل هو اعتقادٌ جازم ظني غالب؟ هو اعتقاد جازم لكن الشرط الذي ذكرناه في اليقين متخلف، وهو أنه إذا عرض عليه الاعتراض أصغى إليه، تأَمَّله، هذا هو الفرق. ما هو الفرق بالنسبة إلى الناظر، ما هو الفرق بين اليقيني والظني؟ أن اليقين بالنسبة إلى المعتقد لا يسمع، هو اعتقاد جازم، وعلم مجزوم به في نفسه لكن لا يقبل عنده الاعتراض؛ إذا عرض عليه الاعتراض أعرض عنه ولم يصغ إليه، وهذا يكون في الحق والباطل، هكذا قلنا، ثم نقول بأن الظن هل هو جازم؟ هو جازم لديه لكنه يقبل الاعتراض؛ فإذا عرض عليه الاعتراض أصغى إليه، وكما قلنا في الأولى، فإن المتكلمين، أو المناطقة، أو أصحاب الميزان كما يسمون أنفسهم كما قلنا، أو أصحاب النظر، أو أصحاب الجدل

كما يسمون أنفسهم – هذه أسماء تطلق على هذا العلم الذي نتكلم فيه –، اليقين ينشأ بدليل يقيني، والظني ينشأ بدليل ظني، انتهينا.

هذه الأسس التي أقاموا عليها هذا نحن تكلمنا عنها باختصار، ولكن هنا ننبه بأن هاته الأسس التي أقاموا عليها هذا البناء في التفريق بين الظني – الظني الراجح – وبين اليقيني قلنا أنها غير صحيحة، أساسًا غير صحيح، فلا وجود لهذا الحدّ الفاصل، وقلنا كالتالي: بأن الظني واليقيني نسبي – يتعلق من شخص إلى شخص –، وقلنا بأن الأدلة ليست بهذا الميزان – انتبهوا – قلنا أن الأدلة التي يسمونها يقينية والأدلة التي يسمونها ظنية ليست بهذا الميزان عند أهل العلم، وخاصة فيما نحن فيه وهو الشرعيات – نحن في أي باب؟ في الشرعيات –، ليس بهذا الميزان الذي وضعوه وخاصة في مسألة التواتر، وخاصة في مسألة اليقين؛ القرآن، لأنهم أهل الإسلام لا يشكون فيه بأن كل حرف فيه هو كلام الله، لكن، هذا التواتر، وهذا الآحاد، هذا التفريق قلنا بأنه لا ينسجم مع تاريخ الإسلام – هذه إحنا اعتمدناها مهمة –، لا تنسجم مع تاريخ الإسلام، كيف؟ قلنا بأن التواتر والآحاد مسألة متأخرة لا تفوت عند الأوائل؛ لو أن صحابيًا – وهو ابن عبّاس – وعامّة أحاديث ابن عباس ب أخذها من الصحابة؛ ابن عبّاس رضي الله عنه صحابيٌّ صغير، متى جاء إلى الإسلام؟ متى دخل السماع من النبي ﷺ؟ بعد فتح مكة كما تعلمون، صحيح؟ إذن من أين ابن عبّاس ب جاء بهذا العلم الغزير؟ جاءه من السمع، هل سمع كل حديث يتعلق بمسائل الاعتقاد، سمِعها تواترًا أم ربما سمعها من الواحد؟ وهو الأغلب أنه سمعها من الواحد أو الاثنين، هل هذه تحصل اليقين عنده؟ يجب أن تُحصل اليقين عنده وليست متواترة، صحيح؟ هكذا. طيب لما يأتي تلميذ ابن عبّاس العطار / فيأخذ حديثًا من ابن عبّاس، هل يأخذه على جهة التواتر أو على جهة الآحاد؟ الآحاد، فمتى إذن نشأ التواتر؟ إذن في وقت متأخر، هذا بيّن، متى نشأ التواتر والآحاد؟ في وقت متأخر نشأ التواتر؛ يعني ممكن بعد عطاء ممكن أن نجد تواترًا، لكن على الأغلب حتى هذه المرتبة لم نجد فيها تواترا، حتى هذه المرتبة الطبقة الرابعة أو الثالثة لا نجد فيها تواترا، صحيح؟ لأن عطاء قد يأخذ منه تابعي صغير، يأخذ منه.

فإذن هنا، لما أسقطنا هذا الوجود – وهو الدليل الذي ينشئ التواتر، الدليل سقط هنا خلاص – إذاً هذا التفريق لا وجود له فيما يسمى في الشرعيات، لا وجود له؛ ومن هنا قلنا بأن التواتر، بأن مسألة اليقيني والظني مسألة حادثة، قد يسأل.. هنا قبل أن آتي لماذا سآتي لننتهي من هذه النقطة الأولى.

النقطة الثانية: قلنا بأن اليقين والظن – وهذا الذي أشار إليه الشاطبي فيما تَقَدَّم – أن اليقيني والظني والظن الغالب والظن الذي يصل لليقين، هل له فقط تعلق بالعدد، أم له تعلق كذلك بالراوي؟ هنا نتكلم عن الدليل، ووجدنا أهل الحديث يستيقنون من أحاديث وردت على جهة الآحاد، لأن الوقت عندهم يوصلونهم، يوصلون الثقة بأهل الحديث بهذا المعنى، قد تَرِد من اثنين، ثلاثة – وهذا كله آحاد – فتصل إلى درجة اليقين، وقد تأتي أحاديث من عشرات الطرق فلا يصل إلى درجة اليقين الذي أوصله؛ فليست العبرة.. هنا ننقض قضية الطريقة والتواتر، بأن العبرة ليست في العدد، ولكن نوع الراوي يؤثر على المعتقد، هل هو يقيني أم ظني، صحيح؟

ثالثًا :قلنا بأن خبرة الناظر في الكلام في الرواية لها دور في الحكم على الحديث، وهذا تقدم من الأمثلة، قلنا بأن الناظر في حديث النبي ﷺ العالم بتصرفاته وما يقضي به لو جاءه حديث من ثقة فيرده، لأنه يقول: أنا أعرف هذا الرجل لا أقبله، إذن ليست العبرة بالعدد، ولكن كذلك بنوع الرواية وما هي فيه، صحيح؟ انتهينا من هذا، هذا لا بد منه. ولذلك مسألة الظني واليقيني في الشرعيات ليس لها الآثار التي يريدها المتكلمون، ما هو أثرها؟ أثرها فقط في مسائل الشرعيات، فيما نحن فيه من أصول الفقه، في قضية واحدة وهي الترجيح، لكن قد يعترضه، وهذا الترجيح قلنا مسألة لا تنتهي لأجل هذا لم يتكلم فيها العلماء إلا كلامًا يسيرًا فقط، صحيح؟ لو نقدم التواتر على الآحاد يُقدمها الترجيح: هذا حديث متواتر، هذا حديث آحاد، فنرد؛ إذا تم التعارض الكلي ولم نستطع التوفيق كما يقول ابن خزيمة – رحمه الله– وغيره من العلماء، وهذه الكلمة أشبه بكلام الشافعي /: "ائتوني بأي حديثين يظهر بينهما التعارض فأنا أوفق لكم بينهم"، هذا علم اختلاف الحديث، علم مشكِل الحديث – كما يسميه المتأخرون –، أو يسمونه اختلاف الحديث، واضح؟ ومشكل الحديث كذلك تسميةٌ قديمة، هكذا سماه أبو جعفر الطحاوي /:مشكل الحديث. لكن إذا ظهر للناظر تعارض كلي بين متواتر وبين آحاد فالمرجِّح المتواتر، نرجح المتواتر. لو جاء حديث وجاءت آية، فالآية مقدمة، ليس فقط على جهة ارتفاع الرتبة أن القرآن أعلى رتبةً، ولكن حتى على جهة التواتر وجهة الآحاد، واضح؟

ومن أجل هذا نقول بأن آثار هذا العلم (الظني واليقيني) على الفقه ليس له أهمية، أما في العقائد فحينئذ نستطيع بأن نجزم بأن آثار الظني واليقيني في مسألة العقائد – في الفقه قليل، كما رأينا قليل –ولكن في العقائد نستطيع أن نجزم ونقول بأن آثار هذا العلم –وهو التفريق بين الظني واليقيني– كان سيئًا كان سيئًا، لماذا؟ نحن في الشرع، في الفرعيات،

الاستدلال بالعقل قلَّما يوجد، هكذا قلنا في بداية الدروس، قلنا في مسائل الغرعيات والفقهيات لا مدخل للعقل، يتفق الفقهاء على أنه لا مدخل للعقل في التحليل والتحريم، هذه انتهوا منها، لكن هذا العقل في مسألة العقائد له الحضور الواسع والأقوى، ولذلك كل حديث عندهم من الآحاد يخالف ما استقر عليه البرهان – إيش البرهان؟ يعني الدليل العقلي– فهو عندهم مردود أو مؤول. ومن هنا نشأ التأويل، وهنا ليس التأويل يعرِض للحديث الضعيف أو لأحاديث الآحاد، لا يعرض لحديث الآحاد بل ليعرض للقرآن على جهة أن الدلالة السمعية – كما تقدم في كلام الشاطبي – دلالة ظنية بسبب الاعتراضات على البيان اللغوي واضح الكلام؟

يعني الآن عندهم هذا القرآن يقيني في ثبوته، لكنه في مجموعه ظني في دلالته ظني في أغلبه، لماذا؟ لأن اللغة، لأن عامة اللغة هي دلالتها دلالة الظاهر، والظاهر دلالته على المراد ظنية، هذا تقدم الكلام، شرحنا، لن نريد أن نخوض فيه أكثر، ولذلك هذا الذي فتح باب التأويل عند الذين يعظمون النصوص، يعني الأشاعرة. يقول شيخ الإسلام، – له قاعدة جميلة وهذه بلا شك يحتاج الناظر فيها إلى التأمل وإلى قراءتها بأفرادها في تاريخ الأُمَّة –، يقول إن الأشاعرة أقرب إلى الحق في السمعيات، أبعد عن الحق في العقليات، إن الأشاعرة أقرب إلى الحق في السمعيات وأبعد عن الحق في الكونيات، وإن المعتزلة أقرب إلى الحق في الكونيات، وأبعد عن الحق في السمعيات. ما معنى هذا الكلام؟ لا شك أن الأشاعرة في مسائل القضاء والقدر فسادهم كبير، ويكفي أن نعلم أنهم – يكفي هذه، هذه النقطة كافية للدلالة على هذا المعنى – ويكفي أن نقول بأنهم يسقطون الأسباب، لا يعترفون بالعلل ولا الأسباب في العقليات، لا يعترفون، وهذا غريب منهم. ابن حزم منسجِم في إلغائه العلة في أفعال الله، هو يقول – هذا ابن حزم كما في (الفصال) –، يقول أنه لا يجوز أن تُعلل أحكام الله، وبالتالي قال بنفي القياس. الأشاعرة قالوا بأن أفعال الله لا تُعلل ولكنهم أثبتوا القياس، وينفون الأسباب، ما هو السبب؟ الآن نحن نقول أن النار سبب الإحراق، إن النار هي سبب الإحراق، وهذا اعتقادنا، وهذا الذي دلت عليه آيات القرآن، ودلت عليه آحاديث النبي ﷺ، وإن القتل سبب الموت، هم قالوا لا، هذا السبب ليس هو الذي يُنشئ المسبب ولكنه علامة على وجوده، هل النار سبب الإحراق؟ لا، ولكن وجود النار علامة على وجود الإحراق لكن ليس بينهما ارتباط، ليس بينهما سبب ومسبب. هذا كيف نفهمه؟ قد يقول قائل إننا لا نفهمه، نقول لك مما يقال ولا حقيقة تحته معقولةٌ تدنوه من الأفهام: الكسب عند الأشعرية، هذا مما يقال، إن مشكلة الأشاعرة أنهم يتكلمون كلامًا لا يفهم، وقال: "مما يقال ولا الحقيقة عنده معقولة تدنوه من الأفهام الكسب عند الأشعري والحال عند البهشمي وطفرة النظام"؛ ملناش فيهم، ولا طفرة النظام ولا الحال، يسمون الصفات أحوالاً، والطفرة عندهم خروج

الشيء مرة واحدة، عند النظام – بس باختصار حتى نفهم البيت –، طفرة النظام يقول كل الأشياء، حتى لا تحدث الإرادات المتكررة في ذات الله فحدثت الأشياء كلها دفعة واحدة ولكنها تبرز إلى الوجود حالا بعد حال: طفرة النظام، والبهشمي يعني أبو هاشم، أبو هاشم المعتزلي إمامٌ من أئمّة الاعتزال يقول إننا لا نسميها صفات نسميها أحوالاً، واحد يقول كيف؟ نقول هم قالوا، مما يقال ولا حقيقة عندهم معقولة تدنو من الأفهام. نفس الشيء قضية الكسب، ما هو الكسب عند الأشعري؟ هو قريب فيما نتكلم عليه، قضية السبب والمسبب، ما هو الكسب عندهم؟ بأن الإنسان لا يعمل عمله، لماذا؟ لأنهم لا ينسبون له الإرادة؛ الإنسان لو نسبنا إليه الفعل لكان خالقًا له، هكذا قالوا، ولذلك ما ينسب إليه؟ ينسب إليه كسبه وهو قلبه فقط، القلب فقط، أما العمل هو لا يعمله، كيف؟ مما يقال ولا حقيقة له، نفس الكلام: كيف أن النار لا تحرق ولكن الاحراق عند النار، هذا على هذا المعنى.

المعتزلة يربطون السبب بالمسبب ، إيش قال شيخ الإسلام؟ قال المعتزلة أدنى إلى الحق في الكونيات (العقليات)، لكن ما هي مشكلتهم؟ مشكلتهم أنهم في الشرعيات يقولون أن الإنسان يخلق فعله، ثم يقولون في قضية النار والاحراق إن الله لا يقدر أن يخلق نارًا لا تحرق، ويحكمون بالطبيعة على فعل الرب، لأنهم في الشرعيات ايش؟ الشرع هنا نسبة الفعل إلى الله، أمّا في عالم السُنن ليس لنا دخل في تفسيرها، عالم السنن أن النار تحرق وهي سببه، هذا هم فيه أقرب للحق، لكن عندما يفسرون هذا بالنظر إلى خلق الله يخطئون فهم أبعد في الشرعيات، واضح كلام شيخ الإسلام؟

فالأشاعرة ماذا يقولون؟ هم أبعد في العقليات، يقولون النار لا تحرق لكنها علامة على وجود الإحراق، علامة، تدلنا هذه على هذه لكنها ليست هي السبب، واضح؟ هذا خطأ في عالم الكونيات، ولكنهم لماذا فعلوا هذا؟ تعظيمًا للرب حتى لا ينسبوا فعلاً في الوجود لغير الله، ولذلك هم أقرب في الشرعيات، واضح الكلام؟ واضح الآن الكلام، بس لماذا ذكرنا هذا؟ ذكرنا هذا لنقول بأن –هذه فقط فاتحة ومنفذ لنقول– بأن الأشاعرة أقرب في التعظيم، ولذلك هم يعظمون النصوص، لا يأتي إلى النص فيقول أنا أريد أن ألغيه، بل هو يثبته لكنه يؤوله، فهم أقرب، قلت هذه الكلمة لأقول بأن الأشاعرة يؤولون، والعلماء يقولون هذا التأويل نوع من الإبطال، لكن المعتزلة يُبطلون، ينفون دلالة هذا النص في نسبته إلى الله؛ عندما نقول إن الله عَزَّ وَجَلَّ يسمع يقولون يعني يخلق السمع، فهم نفوا الصفة، هذا إيش؟ إبطال للصفة من أساسها، وذاك هم أبعد في الشرعيات، لأن الكلام عن الغيب، أبعد في السمعيات، واضح؟ هم أبعد في السمعيات.

الأشاعرة يقولون لا، الله ﷻ يُحب، هل الله يحب يا أشاعرة؟ نعم يحب، لكن ما معنى يحب، إرادة الإحسان إلى غيره،للمطيع، أما الحب في نفس الرب باعتبارها صفة لله، لا وجود لها، إذا ما هي؟ هي إرادة، يرجعونها إلى الصفات السبع، فهنا الإرادة يقولون، يعني هم في السمعيات يعظمونها، هذا الذي أردت أن أقوله. إذن هم يقولون بأن الله ﷻ يحب، الألفاظ يثبتونها لكن حين يسألهم سائل ما هو تفسيرها، يقولون.. الذي يفهمه العامي والإنسان العربي لو قال الله يحب، فهو معنى أن صفة الحب.. في صفة الحب لها علاقة بالذات، وأنها صفة في هذه الذات الإلهية صحيح؟ هم يقولون لا، هذا لا وجود له، لأن الحب ضَعف، ما هو الحب؟ يقولون هو إرادة الإحسان إلى المطيع، فهو يريد أن يحسن إليه لأن الإرادة يثبتونها، حتى الإرادة هل يثبتونها على الوجه الصحيح؟ لا، ليس على الوجه الصحيح، هذا ليس درس، هو درس في العقائد ولكن حتى نفهم الكلام.

إذاً آثار الظني واليقيني في العقائد – نرجع إلى أول الطريق –، إن آثار التفريق بين الظني واليقيني في العقائد، الحقيقة، مفسِدة، واضح؟ آثارها في الفقه وجدناها قليلة، ولكن الآثار العظيمة وجدنها في العقائد.

الآن نأتي إلى ما شرحه، انتهينا الآن، لا يأتي أحد يقول لم أفهم اليقيني والظني، لا يوجد أكثر من هذا تفصيلاً، نأتي إلى ما أراده الشيخ، يقول بأن الإجماع وجد من أهل الأصول من جعله دليلاً ظنيًا لأنه عنده لم يثبت بدليل يقيني، ونحن رأينا أن الإجماع.. لماذا الإجماع؟ هم لا يرون الآية تشير إلى الإجماع دلالةً صريحة: {وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى}، لا يرونها صحيحة، ولذلك دلالة ظنية، ويأتون إلى الأحاديث: (لا تجتمع أمتي على ضلالة) فهو حديثٌ ظني وهكذا، الأحاديث التي تُذكر في الإجماع، حديث النبي ﷺ: (لا تزال طائفة من أمتي)، الأمة لا تجتمع على ضلال، موجود عصابة حق تقول الحق دائمًا، دلالة على أنها لا تجتمع على ضلال، فدل على أن الإجماع حجة، يقول هذه أدلة ظنية، فلما كانت ظنية كان الإجماع ظنيًا، هو يقول لم ينتبهوا إلى ما تقدم من أن الأدلة الظنية قد اجتمعت فصارت يقينية، هذا الذي يريد أن يقوله. والحق أن نفي الإجماع والتشكيك فيه هي، يعني من شر ما يقع فيه الأصولي والفقيه، لأن نفي الإجماع أو التشكيك فيه شر ما يقع فيه الفقيه، وللأسف يعني اليوم البعض يمارس نفي الإجماع مع إثباته في كلامه. لا نعلم الآن، لا نعلم أحدًا من أهل الأصول يُصرح بأن الإجماع ليس حجةً، لا نعلم لا يقدرون، لكن هل يمارس كثير من الفقهاء نفي الإجماع؟ نعم، والدليل أنهم يخرجون باجتهادات فقهية تخالف الإجماع، مثل قولهم بأن الدم طاهر إلا دم الحيض مثلاً كما يقوله الشوكاني، هذا ضد الإجماع، وتجد أنهم يتعلقون بكلمة الشافعي، – كلمة الشافعي

وليست لأحمد ابتداءً وإن كانت اشتهرت لأحمد - وهو قولهم: - هذه للشافعي - "من ادعى الإجماع فقد كذب لعل الناس اختلفوا"، ويتعلقون بها، هذه سنأتي إليها في الإجماع، سنأتي إليها، ولكن للأسف تجد أنهم ينكرون قتل المرتد، وهذا في الإجماع ونجد أنهم يشككون في رجم الزاني المحصن وهو رد للإجماع وهكذا. ولذلك أنا قلت لكم في درس سابق وأكرره وسنشرحه في كتاب الإجماع بأن الإجماع هو الحصن الأول الذي يحيط بالشريعة ويمنع فيها العبث، يمنع عن الشريعة العبث، الإجماع، نعم، هذا ما قاله عن الإجماع وسنأتي إليه وأنواع الإجماع كله سيأتي ولكن هنا يمثل لقضية اليقيني والظني.

"المقدمة الرابعة: كل مسألة مرسومة في أصول الفقه لا ينبني عليها فروع فقهية، أو آداب شرعية، أو لا تكون عونا في ذلك؛ فوضعها في أصول الفقه عارية."

هذه القاعدة أو المقدمة الرابعة اشتهرت من كلام هذا الأصولي الجهبذ: أبو إسحاق الشاطبي، وهي كلمة، هذا الذي قاله الشاطبي، هذه كلمة شرح من الشاطبي لكلمة قيلت في (المستصفى)، هذه الكلمة كان ينبغي على كل ناقل لها مادحًا بها كتاب أبي إسحاق الشاطبي (الموافقات) أن يجعل الفضل في هذه الكلمة لأبي حامد الغزالي /. والغزالي مع أنه كتب في مقدمة (المستصفى)،- الآن نريد أن نبرأ الغزالي وهو له حق علينا إذا علمنا شيئًا بهذا المعنى -، فإن الغزالي في مقدمة كتابه (المستصفى)، في مقدمة (العلوم) التي قال إنها مقدمة لكل العلوم، لازمة لكل العلوم، قال بأن هذه المقدمة، التي قلنا فيها الدرس هذا ودرس سابق بأن بعض الفقهاء ممن لا علم له بالمنطق، ولا علم له بالفلسفة ولا اشتغال له أخذها وهو أبو محمد بن قدامة المقدسي / في كتابه (روضة الناظر)، مع ذلك إن الغزالي قال في هذه المقدمة، هذه المقدمة التي وضعها في مقدمة كتابه (المستصفى) قال عنها أنها غير ضرورية للأصوليين، ولكنه يقول إن الفطام عزيز، شيء جرى عليه، ما معنى الفطام عزيز؟ يعني رجل متعود على هذا الكلام من الصعب أن نفطمه ونمنع عنه هذا العلم، فلما كان الأصوليون شأن أغلبهم هو الكلام، من الصعب أن لا يذكروا هذه المقدمة في كتبهم، فلذلك أنا ذكرتها وأصلتها على قاعدة إرضاء ذلك الرضيع الذي لا يستطيع الفطام عن هذا العلم، واضح الكلام؟

وهو يقول، - الإمام الغزالي / في (المستصفى) - إن كثيرًا من مسائل الأصول هي أجنبية عن أصول الفقه، ولذلك وضْعُها في أصول الفقه ماذا؟ قال إنها عاريَّة، يعني علينا أن نُعري منها أصول الفقه، واضح الكلام؟ هذه كلمة الغزالي.

هنا أنبّه على نقطة؛ ما المقصود بأصول الفقه؟ هي الأدلة الإجمالية، الأدلة الإجمالية التي يستفيد منها الفقيه لاستخراج الفقه، صحيح؟ لكن هنا الشيخ هنا أبو إسحاق زاد عن الفقه قضية، وضع تحتها خط انتبهوا إليها، انتبهوا إليه ماذا يقول، يقول إيش؟ **أو آداب شرعية**، صحيح أن الآداب الشرعية لا يدخلونها في الفقه ولكنها هي من مَهمات هذا الدين، والتي يحتاج إليها، - المقصود آداب شرعية - يحتاج إليها المسلم، لكن هل يمكن أن ندخل الآداب الشرعية في الفقه؟ الجواب نعم، أليس كذلك يا مشايخ؟ بلى، إن الآداب الشرعية يمكن بل هي داخلةٌ في الفقه، لأن هناك من الآداب ما هي واجبة، ومن الآداب ما هي مستحبة، يعني هو الآن، جعل الآداب.. يقول هنا كلمة، أقرأ لكم كلمته لتنظروا فيها نظر..، يقول: **كل مسألة مرسومة**، مرسومة أي موضوعة، **قد رسمت**، رسمت أي كتبت، **في أصول الفقه لا ينبني عليها فروع فقهية وآداب شرعية**، الآداب الشرعية لاستخراجها من النصوص الإجمالية لابد من أصول الفقه، أليس كذلك؟،بلى، لكن هل الآداب الشرعية لا تدخل في الفروع الفقهية؟ تدخل فيها، لأن المقصود بالفروع الفقهية أي الخاضعة للأحكام الخمسة. فهناك من الآداب ما هي واجبة، يعني الآن الشرب واقفًا أو الشرب جالسًا، هناك من أهل العلم من يرى أن الشرب واقفا للشارب حرام، وهذا الذي أميل إليه، ما لم يكن هناك حاجة، هذا الذي أميل إليه، مثلاً، لباس الحذاء، أن تلبسه باليمين، أن تلبسه جالسًا، هذه آداب، هناك أداب ما هي واجبة، وهناك أداب ما هي مستحبة، وهناك ما يقال بأنها آداب، أي على جهة الإرشاد، وهذه المرتبة من مراتب الفقه يتركها الأصوليون لكنها موجودة في الفقه، واضح؟ قد يدخلونها في المستحب لكنها بلا شك أن الفقهاء القدماء يذكرونها، والشافعي في (الأم) يُكثر منها، أن هذا من الآداب الشرعية.

حسنًا، اقرأ يا شيخ، هنا نكمل.

"والذي يوضح ذلك..."

إذًا هناك من المسائل الكلامية التي يذكرها الأصوليون في كتبهم ليست لها فائدة في الأصول، لا ينتفع منها الفقيه لاستخراج الأحكام الشرعية، نعم...

"والذي يوضح ذلك أن هذا العلم لم يختص بإضافته إلى الفقه إلا لكونه مفيدا له"

ما هي الإضافة؟ هي التقييد، الإضافة هي، ماذا تفيد الإضافة في العلم العربي؟ الإضافة تفيد التقييد، لأن المضاف يكون مطلقًا فتأتي المضاف إليه لتقيده، فالإضافة تفيد التقييد، واضح يا مشايخ؟ واضح؟ نعم. تقول جدار، فأيُّ جدار؟ لكن حين تقول جدار محمد، حين تقول بيت فأيُّ بيت؟ مطلق، لكن تقول بيت محمد، فقد قيدته، فإذًا ماذا؟ الإضافة تقييد. فحين نقول الأصول يدخل فيها أي أصول تفيده هذه الكلمة في اللغة لكن حين أضفناها إلى الفقه قيدت أن المراد أن نبحث في الأصول التي لها تعلق بالفقه، واضح؟ وهذا معنى الكلمة إذ يقول بإضافته إلى الفقه إلا لكونه مفيدًا له، نعم...

"ومحققا للاجتهاد فيه، فإذا لم يفد ذلك؛ فليس بأصل له، "

يعني أنه لا يدخل في الفقه لأنه لا يقيد به نعم...

"ولا يلزم على هذا أن يكون كل ما انبنى عليه فرع فقهي من جملة أصول الفقه، وإلا أدى ذلك إلى أن يكون سائر العلوم من أصول الفقه، كعلم النحو، واللغة، والاشتقاق، والتصريف، والمعاني، والبيان، والعدد، والمساحة، والحديث، وغير ذلك من العلوم التي يتوقف عليها تحقيق الفقه"

الآن هو يريد أن يقول – انتبهوا لكلمته – يقول ولا يلزم، اللزوم هو هنا باختصار، *اللزوم هنا ما لا ينفك عنه*، اللزوم ما لا ينفك عنه، نقول هذا شيء لازم في هذا الباب: لا ينفك عنه، والفرق بينه وبين الاقتضاء في بعض نواحيه أن الاقتضاء **يوجب**، يكون الاقتضاء قبل الشيء اللزوم تبع له، هذه إجابة مختصرة عما سيأتي، ماذا يقول، يقول لازم الشيء تبعًا له، لكن لما يكون مقتضى الشيء، يكون قبله، هو الذي اقتضاه وأوجده، لكن هذا ليس كافيًا، هذا فقط فيما نحن فيه، ليس كافيًا للتفريق بين الاقتضاء واللزوم، ولكن فيما نحن فيه هنا مقتضى الشيء يكون قبله، لازم الشيء يكون ما لا ينفك عنه بعد، فهنا ما لا ينفك عنه فهو لازم، لا ينفك عنه، فيقول هنا ولا يلزم، إذن نحن جعلنا انفكاكه، أخرجناه عن اللزوم، **ولا يلزم على هذا أن يكون كل ما انبنى عليه فرع فقهي من جملة أصول الفقه**، الآن عندما يتكلم الشارع عن القلة، (إذا كان الماء قلتين لم يحمل الخبث)، هذه مسألة فقهية، وهي معرفة القلة،هناك ععرفة تتعلق بالحساب والمكاييل لكن هذه ليست من أصول الفقه، هذه لها علاقة بعلمك بالمساحة، بعلمك بالمكاييل عند العرب، فليس لها علاقة بأصول الفقه، واضح؟ ولكن أن تعلم.. واضح الكلام؟ هذا الذي يريد أن يقوله، طيب إذا بلغ

الماء قلتين، يأتي فقيه، وهنا مسألة، فلو جاء حديث على خلاف اللغة والنحو، لو جاء، لو تصورنا حديثاً هكذا، ويوجد، ولذلك يرى أهل العلم، لماذا يحب أهل العلم رواية الكشميهني للبخاري، لأنه هو الذي ضبطه على أصول اللغة، لأن الكشميهني هو الذي ضبط (صحيح البخاري) على أصول اللغة لأن هناك روايات.. المحدث لا يجب أن يكون لغويًا، فقد يخطئ الراوي في لفظة فيحملها على هذه الرواية، فهل يقبل النحوي هذا؟ لا يقبل النحوي هذا فيضبطها. القصد أن هذا ليس لها علاقة بأصول الفقه، لكن أن يأتي فيقول الفقيه بأن الدلالة المستفادة منه – انتبهوا – ، أحاديث ضربنا به المثل، (إذا كان الماء قلتين فلا يحمل الخبث)، قال الشافعي: دلَّ هذا على أن ما دون القلتين يحمل الخبث لزومًا، هل هذا الفهم الذي قاله الشافعي، هذا بالمنطوق أم بالمفهوم؟ هذا بالمفهوم، الحديث يقول إذا بلغ الماء يتكلم عن ظاهر، إذا بلغ الماء قلتين لا يحمل خبث، لا يحمل خبث يعني عادة وأغلب إذا وضع الخبث، فإذا بلغ الماء وإذا كان الماء أقل من قلتين دلَّ على أنه حمل الخبث لزومًا، فإذا وُضع قليل من نجاسة أو كثيرها تغير الماء أو لم يتغيّر؟ إذا كان الماء لم يبلغ قلتين فإنه يكون نجسًا، هذا الفهم له تعلق بالأصول أو لا؟ له تعلق بالأصول واضح الكلام؟

"وينبني عليها من مسائله، وليس كذلك؛ فليس كل ما يفتقر إليه الفقه يعد من أصوله، وإنما اللازم أن كل أصل يضاف إلى الفقه لا ينبني عليه فقه؛ فليس بأصل له "

هو الآن، انتبهوا إلى هذه الكلمة، انبتهوا، وأرجوا أن تتأملوا إلى كيف يستخدم الشيخ هنا المنطوق والمفهوم، يقول وليس كذلك، فليس كل ما يفتقر إليه لأنه تقدم إيش قال؟ قال الذي يوضح ذلك أن هذا العلم لم يُختص بإضافته إلى فقه بكونه مفيدًا له، أضيف إليه لأنه مفيد له، يقول هنا فليس كل ما يفتقر إليه الفقر يعد من أصوله، هنا أخرج، هنا في الفقه، يعني الفقيه لا بد حين يتحدث عن مسألة أن يشرحها لهم، يقول قلتين ما هي، كم كميتها بعصره، فهذا من الفقه أن يبين هذا؛ فيقول هذا ليس من الفقه، ليس من أصول الفقه، أن يكون الرجل عالمِا بالمكاييل ليس من أصول الفقه، ولكنه من الفقه، أن يكون عالماً بالمكاييل، يعني عندما يأتي، عندما يقول الفقيه عن بنت لبون، فهو لا بد أن يعرف ما هي بنت لبون ولماذا سميت بنت لبون، عندما يقول حقة، واضح؟ فعليه أن يعرف، لكن معرفة هذه ليست من أصول الفقه، هي علم آخر، تحتاج إلى علم آخر، يقول هنا فليس كل ما يفتقر إليه الفقه يعد من أصوله، واضح، قال: وإنما اللازم أن كل أصل يضاف إلى الفقه لا ينبني عليه الفقه فليس بأصل له، أنا أثبت القاعدة لكني لا أثبت عكسها، كمل يا شيخ.

"وعلى هذا يخرج عن أصول الفقه كثير من المسائل التي تكلم عليها المتأخرون وأدخلوها فيها؛ كمسألة ابتداء الوضع"

إيش هو ابتداء الوضع؟ هذه مسألة تتعلق باللغات، ليس لها تعلق بأصول الفقه، لكنها لها تعلق باللغة. الآن لما جاؤوا إلى الحقيقة والمجاز، هذه لها تعلق باللغات ولها تعلق بهذا الباب وهو المجاز، لأن المجاز والحقيقة هي التي عليها الكثير من الكلام؛ العرب يقولون بأنه لا تقع البلاغة إلا في المجاز، وبهذا لما كان كلام العرب أغلبه في البلاغة فكلامهم مجازي، ما هي الحقيقة – أي أصل الوضع – يقولون الحقيقة هي أصل الوضع، والمجاز هو ما حُمل عليه هذا اللفظ على غير حقيقته لوجود قرينة، واضح؟ طيب هذا أصل الوضع كيف نفهمه؟ كيف نفهم أصل الوضع؟ حينئذ وقع الخلاف. ما هو أصل الوضع؟ هنا وقع الخلاف، هذا واضح؟

كيف نفهم أن هذا أصل الوضع وليست هذه الذي استخدمها الفقيه؟ أنا هنا أنبه على مسألة مهمة، وهي خارجة لأن الوقت انتهى في الدرس لكني أريد أن أفتح لطاب العلم المجد فائدة لو سَبح في كتب التراث لا يخرج بهذه القاعدة بالنص، لكن يخرج بهذه القاعدة بالفهم، وهي تتعلق بطريقة استخدامك للمعاجم، وهذه غير ما نحن فيه، لكنها فائدة مهمة جدًا، أرجو لطالب العلم أن يهتم لها، طالب العلم المجد الذي له اعتناء بكلام العرب، بشعرهم، بأدبهم، ولها كذلك فائدة، والآن سأذكر مثالاً أخطأ فيه كثير من أهل العلم، حتى في الحديث، حتى في القرآن. أنا ضربت لكم مثالاً لماذا يستخدم الشارع لفظ الظني في مواطن اليقين؟ قلت لكم هذه فائدة، وأنا أنبه عليها الآن، لماذا يستخدم الشارع اللفظ بدل اللفظ في مواطن نحن لا نجزم ونذهب إلى تفسيره باللفظ الحقيقي الأول؟ لماذا يستخدم كلمة عسى، ويقول ابن عباس أن عسى في القرآن موجبة، لماذا يستخدم كلمة عسى التي فيها الترجي، ولا يستخدم كلمة فيها اليقين بأن يقول موجب أن ما بعد عسى واقع يقينًا، فلماذا يستخدم عسى؟ هذا شرحته في (تفسير سورة الإسراء) . لماذا يستخدم كلمة الظن في موطن اليقين؟ عندما يقول: {الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُواْ رَبِّهِمْ}، وهم على يقين، يعتقدون، الذين يقولون، الذين يؤمنون، الذين يوقنون أنهم ملاقوا ربهم، لماذا لا يقول هذا؟ طبعًا يعتقدون لا يوجد منها لا في القرآن ولا في السنة، هي كلمة محدثة للتصور العلمي، هذه خارج الدرس لكنها مهمة، أنا أقف عندها لأهميتها لأنها تتعلق بكلمة هنا جاء إليها الشيخ، وأعتقد أن الدرس قد انتهى ولكني أريد أن أنبه عليها.

---

[٣] للإطّلاع على الكتاب: تفسير سورة الإسراء

إن الشارع لا يستخدم لفظةً في القرآن ولا في السنة، لا يستخدمها إلا لوجود معنى في استخدامها؛ المؤمن عنده اليقين أن القيامة ستقوم وأن العبد ملاق ربه، لكن السؤال متى ستقوم القيامة؟ متى سيلاقي ربه؟ هذا لا يعرفه، فلما كان في الاعتقاد شيء لا يَجزم به المعتقِد كان لا بد من استخدام لفظ يشير لهذا المعنى، واضح؟ واضح الكلام؟

لَمّا كان في الاعتقاد، - الاعتقاد هو الفعل، وماذا كذلك؟ وكذلك هو الشيء الذي يعتقده، هو فعل يقين على شيء يؤمن به - لما كان هذا الشيء الذي يؤمن به يُداخله الشك متى يكون، ومتى يقع؟ فكان لابد من استخدام اللفظ الذي يحمل هذا الظن، واضح الكلام؟ وعلى ذلك كلمة عسى، شرحتها ارجعوا إليها في هذا، لكن ليست هذه هي التي أردتها في أصل الوضع، لكن هذه منهج -هذه أقولها- طالب العلم في قراءة المعاجم..أنا ما قلت القواميس مثل ما تقولون أنتم، لأن القاموس لا يفيد، هذا المعنى في المعاجم، القاموس مثل القاموس المحيط، والقاموس هو ثبج البحر، البحر هو ماذا؟ ثبجه، يعني عمقه وكبره وسطه وأعلاه وعظمته، فقاموس، القاموس المحيط يعني البحر العظيم اللجج المحيط. والناس أخذوا كلمة القاموس لما سمى به الفيروزبادي كتابه (المعجم) فظنوا أن القاموس هو اسم للمعجم فصاروا يقولوا قواميس، قاموس قاموس، قواميس وهو ليس كذلك، واضح الكلام يا مشايخ؟ فالقاموس كلمة خطأ، وإن كان بإمكانك أن تقول، كأن تأخذ كتابًا فتقول درء تعارض العقل، درء، وواحد يقول الموافقة، فيسمي العلم الموافقات، هو لم يسمي العلم الموافقات، هو سمى كتابه (الموافقات)، لكن لم يسم أصول الفقه الموافقات، فيأتي واحد ويقول الموافقات إطلاقًا على أصول الفقه، هذا خطأ، هو اسم كتابه، فاسم كتابه القاموس، واسم معجمه القاموس، واضح الكلام؟ لكنها كلمة، الناس يقولون قديمًا خطأ منتشر خير من صواب مهجور، غير صحيح طبعًا، لأنه الآن الناس ليسوا عبرة وليسوا مقياسًا.

أرجع إلى طريقة استخدام المعاجم، تقولوا أنتوا القواميس؟ وهو أن -هنا يتكلم عن أصل الوضع- إن البعض يظن أن المعاجم اللغوية الكبيرة الواسعة شاملة لمعنى اللفظ في اللغة، وهذا غير صحيح؛ فيذهب مثلاً إلى (لسان العرب)، يذهب إلى (شرح القاموس)، الفيروزابادي شرح (تاج العروس في شرح القاموس) للإمام الزبيدي - عليه رحمة الله -، شرح هذا، هذه تقريبًا أوسع الكتب، فيذهب فيوجد إذا قرأ بيتًا من الشعر ووجد كلمة، فيريد أن يعرف معناها، يذهب إلى هذه الكتب فيبحث لزومًا في نفسه أنه سيجد المعنى المراد في هذا البيت في داخل هذا الكتاب، هذا غير صحيح؟

الآن أذكر مثال مهم جدًا، أنا ذكرته ربما تكون هذه فائدة لطالب العلم أكثر من غيرها، فماذا يفعل؟ يظن أن ما ورد في المعاجم شامل لما استخدمته العرب في هذه اللفظة، وليس كذلك أقول، ليس كذلك، لأن المعاجم تذكر لك أصل الكلمة عند العرب، ما هي أصلها عند العرب، لماذا يستخدموها؟ ثم يعرج على ما يقاربها من الحقيقة لا من المجاز، ولا يقترب ..ولا يستطيع كتاب قط من المعاجم أن يستوعب استخدام العربي لهذه اللفظة، لا يوجد كتاب، لا يستطيع أحد أن يحصيها. تريد مثالًا حتى نفهم هذه القواعد، أنا ذكرت القواعد انتهيت منها، هذه تحتاج تأمل ودراسة وبحث حين تقرأ الشعر العربي وكلام العرب والقرآن والسُنّة ستجد هذا جليًا. ما هو المثال الذي يحضرني؟ لزومًا وراء هذه القضية هو حديث أن النبي قد هجر، هذا حديث صحيح، ولما تذهب إلى المعاجم تجد اللفظ قبيح أن يوصف به النبي ﷺ، اللفظ قبيح، يقول قال كلامً فجرًا، أو هجر الرجل في كلامه، وكأنه قال شيئًا سيئًا، وكيف نثبتها؟ كيف يقولها صاحبي، كان من كان؟ نحن ننفيها عن عُمَر أن عُمَر لم يقلها، ولم يقلها صحابي على هذا المعنى قط، لأنه لو قالها صحابي مهما كان، بل لو قالها منافق لقتله الصحابة؛ فيتيه المشايخ فيها، كيف هجر؟ ماذا يقولون؟ وهذا لو أعملوا هذه القاعدة العلمية التي هي لا تنشأ إلا في دراسة – لا أقول استقرائية – لكن هي قراءةٌ واسعةٌ قليلاً، سيجد هذه القاعدة مطبقة. وأنا للعلم قد استفدت هذه القاعدة من شيخ أهل التحقيق في هذا العصر الشيخ محمود شاكر، ولكنها فتحت أبوابا كثيرة من الفهم.

كلمة هجر، الهجر هو الترك، واضح؟ هجر ترك، انتقل من شيء إلى شيء، وهذا مطلق، ولكن العرب غلب على استخدامهم أن الرجل هجر في كلامه أي ترك ما ينبغي أن يقال إلى غيره فصار هذا المعنى هو الغالب في كلامهم، أن رجلاً قال كلامًا لا ينبغي أن يقال لأنه كان ينبغي أن يقول كذا فقال كذا فهجر، هجر الذي ينبغي أن يقال إلى ما لا ينبغي أن يقال، أليس كذلك؟ ومن أين كلمة "هجر" الرجل في كلامه، هي كلمة، إن أطلقت كلمة الهجر هي الترك، لكن هنا حال ما استخدموها على المعنى في هذا اللفظ غلب عليهم هذا المعنى أنه هجر كلامًا لا ينبغي أن يقوله إلى كلام لا ينبغي أن يقوله، فصار فُجر الكلام فُحشه، واضح الكلام؟

لكن الآن لَمّا يقول رجل هجر: قال ما لا يحبه لأنه هجر الذي يحبه، هجر، لكن لما تذهب للمعاجم إما أن تذكر لك حقيقة اللفظ أو ما غلب استخدامه في كلام المتكلمين من العرب، فيقول هُجر الكلام إلى آخر، لكن لماذا لا نقول

الرجل هجر في كلامه؟ لماذا؟ ما معناها؟ أي ليس الذي ينبغي أن يقال ولكن، على هذا المعنى يمكن ولكنه هجر الذي يحبه من الكلام، أو من غيره من عدم الكلام إلى شيء لا يحبه وهذا الذي أراده الصحابي، أن الصحابي أراد أن يصف أن النبي ﷺ هجر في كلامه، أي هجر ما يحبه إلى ما لا يحبه فقال هجر، هجر النبي لأن الناس أرغموه، صاروا يتكلمون كلام فقال لهم تقولون كذا، فأنا سأقول كذا، يقول هجر النبي، اتركوه. لأن اللفظ "هجر" هذا أصله فلماذا تحمله على بعض معانيه؟ يجب أن تحمله على المعنى الملائم للقصة، الحدث، الملائم الرجل، وهذا الذي حدث مع النبي –صلى الله عليه وسلم–، بل لو قال قائل على المعنى هجر ما ينبغي –هذه، ينبغي بمعنى الأفضل ما هو الأفضل– لأن النبي ﷺ مخير بين ما هو أفضل وما هو جائز وما هو من الفضل، هذه مراتبه جائز، لا يفعل النبي ﷺ الباطل أبدًا، ولا يفعل الشر، هذا قوله لعبد الله بن عمرو يقول (فإني لا أنطق إلا حقًا)، لا ينطق إلا الحق، ولا يهجر النبي ﷺ طيب الكلام إلى فحشه، هذا أعوذ بالله لا يتصور، لكن هل يهجر النبي –صلى الله عليه وسلم– ما هو أفضل ومقامه الأعلى إلى ما هو أدنى؟ يهجره لموجب، وهذا الذي أراده النبي ﷺ، هذا الذي أحبه أن يكون موقفه والشيء أن يترك الأمة لتختار ما كتب الله لها أن تختار –وهو الحق– ليحصل لهم الفضل.

لماذا ترك الله ﷻ الأمم أن تختار يوم عيدها في أسبوعها؟ ليعرف فضلها؛ فاليهود اقتربوا من الحق، النصارى ضلوا، ولكن العرب لوحدهم، الصحابة لوحدهم اختاروا يوم الجمعة، هم اختاروا الفضل، فوقع لهم من القدر ما يحبه الله ليعرف الفضل ووقع من النبي ﷺ اختيار الحليب، اللبن دون الخمر فقال لو اخترت الخمر لغوت ليقع القدر الملائم لما يحبه الله ليعرف فضل هذه الأمة، لأن فضل هذه الأُمَّة يعرف بفضل نبيها، واضح الكلام يا مشايخ؟

فلما النبي ﷺ أراد أن يترك الأُمَّة، فلما اشتدوا في الخصام قال هاتوا كتاب أكتبه، فقال هجر النبي، أي ترك ما هو أفضل لهذه الأُمَّة إلى ما هو جائز، أن يكتب لهم، طيب فقال هجر اتركوه، اتركوه على ما هو عليه، واضح الكلام؟ وهذه ... على هذا يفهم كلام عمر؟ هي لم تثبت عن عُمَر، لم يثبت في أي رواية أن عُمَر قد قالها، لكن لو قالها لكانت فضيلة لأن هذه ليست من العيب في شيء، وكثيرًا ما عُمَر رضي الله عنه ما فهم النبي ﷺ أنه يريد أن يفعل شيئًا على غير مراده، وهذا عمر كان يقول غضب النبي، وهكذا يوجد قصص كثيرة نعرض عنها الآن، ولكن عُمَر رضي الله عنه كان إذا رأى من النبي ﷺ إقدام على أمر لا يحبه، لأنه ترك من الأفضل إلى ما هو جائز، كان عمر رضي الله عنه يتدخل، واضح الكلام؟

الحمد لله رب العالمين، وبارك الله فيكم وجزاكم الله خير الجزاء، وقفنا عند كلمة الوضع، واضح معنى الوضع؟ معنى الوضع أي أصل الوضع اللغوي وهذا الذي يقابله المجاز لأنه حمْل على غير أصل الوضع كما يقول أهل البلاغة واللغة.

جزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

أَسْـئِـلَـة

شيخ سامحنا الطريق سيء

أنا سامحوني أن أحضرتكم، كنت أريد أن أعتذر هذا اليوم، ولكن من حضر إلى البيت فهذا جيد، ومن لم يستطع الحضور، وحضر عن طريق البالتوك حتى يذهب الجليد وتذهب مشقة الطريق فهذا خير ولا بأس في ذلك إن شاء الله تعالى فأرجوا العفو أني حملتكم عن المجيء اليوم، مشايخنا سامحونا اليوم جزاكم الله خير، أنتم سامحونا بارك الله فيكم...

هو يقول لكم أنه كان تقطيع البالتوك لكن احتفظوا بالتسجيل حتى يوضع في البالتوك.

بعد الصورة إضافة إلى الهاء، والسؤال: هذا الضمير المتصل "الهاء" تعود على ماذا؟ فجاء بعض الرواة مخطئًا، بعض الرواة وليس في البخاري، الذي أخطؤوا في نسبة الهاء، بإضافتها أنها هي المقصود بها الله، هذا هو الخطأ، ولذلك الحديث ليس في البخاري: (إن الله خلق آدم على صورة الرحمن)، هذا ليس في البخاري، هذا حديث باطل، مردود على راويه، وقد أخطأ فيه، ثم أخطأ من قال بمعناه: إن الله خلق آدم على صورة الرحمن ثم قال لا نشبه، وقد شبه، لا يمكن، هذا لا يُقبل.

وهذا الذي قلته لما ضربت المثل في قضية الكلام المتعارض الذي لا يقبله العقل، وها أنا أريد من الإخوة الأحبة أن يراجعوا كلام سيبويه في أقسام الكلام، حتى قال: "إن من أقسام الكلام ما هو كذب وخطأ ولا يقبله العقل، وذلك قوله إني سأشرب البحر البارحة"، فهو لا يستطيع أن يشرب البحر لا البارحة ولا غدًا ولا.. ثم قال: "سأشرب البحر"، وهذه إضافة إلى المستقبل، ثم نسبها بقوله البارحة، وهذا من نوع الكلام: إن الله خلق آدم على صورة الرحمن، ثم يقول لا أشبه، هذا من هذا النوع، لأنه شبه ولا شك في كلامه.

ولكن هذا الحديث ليس في البخاري، لست ممن يجرؤ على تضعيف ما لم يضعفه الجهابذة من العلماء، ولو ضعفت حديث البخاري، ولا أعرف هذا أنا، ولا أقول أن كل ما في البخاري كل لفظة فيه هي لرسول الله ﷺ حقًا، لكني أقول إن كل حديث في صحيح البخاري له أصل صحيح، ولكن مثلاً حديث أنس في الإسراء والمعراج أن النبي ﷺ أسري

وعرج به منامًا، وهذا في البخاري: "منامًا"، هذه خطأ من الراوي، خطأ، مع أن أصل الحديث الصحيح، وهو الإسراء والمعراج، صحيح، ولكني لا أجرؤ أن أقول شيئًا لم يقله، هذا قاله العلماء لم أقله أنا، أنا أنقل كلام العلماء الذين قالوا إن صحيح البخاري هو أصحّ كتاب بعد كتاب الله ﷻ، لكن لا يصل إلى درجة أن كل لفظة فيه صحيحة كما هو القرآن، لكن هذا الحديث أكرر إن الحديث المنسوب للنبي ﷺ في نسبة الصورة إلى الرحمن هذا الحديث ليس في البخاري وهو غلط من الراوي، وأمّا الحديث الصحيح الذي في الصحيح وهو أن الله خلق آدم على صورته وسبب الحديث يبين من هو المقصود، وهو إن الله خلق آدم على صورة الفتى المضروب، لأن النبي ﷺ مر على رجل يضرب فتاه على وجه، فلما أكرم الله آدم وصورته بأن أسجد له الملائكة كان ينبغي أن نكرم ما أكرمه الله، وهو الوجه عدم الضرب وعدم الضرب على الوجه، فقال النبي ﷺ إن الله خلق آدم على صورته، أي على هذه الهيئة التي أكرم الله عز وجل بها هذا الفتى، والله تعالى أعلم.

وجزاكم الله خيرًا وبارك الله فيكم.

- ألا تظن أن قولك إن اليقيني والظني نسبيان يفتح هذا القول، يفتح باب الرأي...

الجواب: ليته فعل ولكنهم بهذا القول أرادوا أن يجعلوا الشريعة تابعة لمنطقهم، وتابعة لموازينهم العقلية، وبهذه القاعدة وقع الناس في أمرين، الأشاعرة على الوجه الذي قلته لكم وهو التأويل، والمعتزلة على القاعدة التي قالوها من الإبطال والتحريف، وأمّا هذا القول اليقيني والنسبي فالعلماء كلهم يجتهدون، أما القول بأن الظني واليقيني إذا قلنا بأنهما نسبيان يفتح باب الرأي فالحقيقة أن نسبة الظني إلى الشريعة هو الذي جعل - انتبهوا - الفقهاء يقولون بأن عامة الفروع الفقهية ظنية، هم الذين قالوا بفتح باب اليقيني والظني، قالوا إن عامة المسائل الفقهية ظنية، وهذا للأسف فتح بابًا عند الزنادقة، فتح بابًا من الشر بأن يتهموا الشريعة بعدم الثبوت والتقلب، والآن تجدون أن بعضهم يحمل هذا الكلام على المحمل السيء وهو التالي بأنه لا يوجد مسألة من مسائل الفقه إلا وفيها خلاف، ولا يوجد حديث إلا وفيه خلاف، ولا توجد آية إلا وفيها خلاف، ما الذي فتح هذا الباب؟ فتح الباب هو الظني واليقيني، لكن عندما نقول بأن هذا الباب هو باب شر وعلينا أن نغلقه وأن ما جاءت به الشريعة مما فهمه العلماء وجب المصير إليه على القواعد العلمية دون إرجاعها إلى قواعد خارجة عن الشريعة، القول بالظني واليقيني خارج عن الشريعة، جاءت من الآخرين، ومن قرأ في كتب أرسطو في تمييزه بين الأدلة الشعرية المثالية وبين الأدلة البرهانية العقلية، هو الذي أدخل هذا الباب، لسنا نحن،

فهي قادمة من الخارج، ولما نقول بأن اليقين يحصل لدى الفقهيه في المسألة لوجود حديث جزم به المحدثون أو إن المحدثين يجزمون بحديث ورد عن طريق إمام ثقة، يعني حديث عبد الله بن مسعود: (يُجمع ابن آدم)، هذا حديث آحاد، هذا الحديث الذي به يثبت علمائنا القدر، عن عبد الله بن مسعود، هذا حديث آحاد ومع ذلك المحدثون على يقين أن رسول الله قد قاله، بل إن بعضهم رأى رسول الله ﷺ في المنام وسأله عن هذا الحديث فقال أأنت قلته يا رسول الله؟ قال نعم أنا قلته، وكان بحضرة أبي بكر وعُمَر في المنام، فهذا المحدث على يقين أن رسول الله ﷺ قد قاله مع أنه حديث آحاد، ولذلك فتحوا بابًا – أهل الحديث – في المصطلح وهو إفادة الصحيحين للقطع، ما معنى القطع؟ اليقين، مع أن عامة أحاديث الصحيحين أحاديث آحاد، وإنما دعاهم لهذا إغلاق الباب على أهل الكلام بهذا الذي تكلموا فيه، والصواب أن إغلاق هذا الباب – وهو اليقيني والظني – هو فتح لباب العصمة للنصوص النبوية وللقرآن الكريم، وهذا يكفي إن شاء الله. جزاكم الله خير الجزاء، هنا السؤال انتظروا هنا، سؤال لأحد الإخوة.

– حضرتك ذكرت أنه يوجد أحاديث ليست على أصول اللغة، المقصود في الرواة طبعًا...

نعم هذه كلمة، موجود هذا البحث عند أهل العلم بأن بعض الرواة لضعفهم في اللغة يروون.. وغلب على كثير من الرواة، أنهم من أهل العجم، فلذلك قد يخطئ الراوي في اللفظة على أصول اللغة، قصدي إما في الاشتقاق أي الصرف، وإما في الإعراب، فالصواب هو إرجاعها على أصول اللغة ما لم يكن هذا اللفظ تحتمله اللغة، قد يكون قد ورد على بعض لغات العرب، ولكن هل يصحَّح الحديث على أصول اللغة؟ الجواب نعم، فعله علماؤنا، وهذا الذي ذكرته في الاستدلال بما قدموا إحدى روايات البخاري على غيرها لأنها ضُبطت على جهة اللغة، وهذه هي الرواية التي يحبها أهل العلم، وهي الرواية التي اعتمدها القسطلاني وليس العسقلاني، القسطلاني في شرحه لصحيح البخاري، ولذلك لما طبع (فتح الباري) وضعوا على الترويسة فوق رواية القسطلاني وليس الرواية التي اعتمدها في الشرح العسقلاني، ولذلك أنت تجد مرات في شرح...، وهذا يعرفه المبتدئ حتى، يعرفه حتى المبتدئين في قراءة صحيح البخاري يجدون أن اللفظ في الحديث شيء والرواية التي يشرحها ابن حجر شيء آخر، فيها لفظ آخر ولكن هذا مما يحتمله، ولكن أتكلم عن أخطاء الرواة فقط، نعم يا شيخ؟

هل بقي شيء؟ أعتقد يكفي اليوم من الأسئلة.

وبارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين، وجزاكم الله خيرًا على الحضور، السلام عليكم ورحمة الله.

الدرس [١١]

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، والصلاة والسلام على رسول الله.

هذا هو الدرس الحادي عشر من دروس شرح كتاب الإمام أبو إسحاق الشاطبي المعنون بـ(الموافقات) أو (عنوان التعريف في أسرار التكليف).

وصل الشيخ – رحمه الله – إلى المقدمة الرابعة، وهي إخراج المسائل الأجنبية عن أصول الفقه التي يبحثها كثير من المتأخرين في كتب أصول الفقه. فإن كتب الأصول، أصول في الفقه، لأنها تتعلق بالأصول – هي أصول الفقه – فإن الفقيه قد يحتاج إلى علوم، ويظن الناظر أن هذه العلوم بسبب حاجة الفقيه إليها أنها من الأصول، فالفقيه حين الاستنباط يحتاج إلى اللغة، ولكن اللغة ليست من أصول الفقه، الفقيه يحتاج إلى تفريعات فقهية تتعلق بالخلاف ولكنها ليست من أصول الفقه، وهكذا. هم يقولون بأن المقدمات العقلية والتي تتعلق بالعلم يحتاجها كل إنسانٍ وكل عالمٍ في أيّ علمٍ من العلوم، وبالتالي الفقيه يحتاجها، لكنها ليست من أصول الفقه، وهكذا.

ثم ضرب الشيخ أمثلة في بيان ما تقدم؛ وهو أن هناك من المباحث التي يبحثها الأصوليون في كتب أصول الفقه ما ليس من الأصول، وضرب مثالاً عن مسألة ابتداء الوضع، وتكلمنا عنها، والآن إلى المسألة التالية.

ونحن نلاحظ هنا أيها الإخوة الأحبّة أن الشيخ يبني كتابه، فأول ما بحث في الكتاب هو إثبات القواعد التي بها يوجب على الناظر في هذا العلم أن يحترم هذا العلم وأن يُسلّم له، وذلك بجعله أن أصول الفقه قطعية، وهذا، اليوم لا حوار فيه ولكنه في وقت متقدم كان فيه كلام كثير، لأن الطعن في أصل الشريعة إنما يتم بالطعن في فروعها، فالزنادقة لا يستطيعون الطعن مباشرة إلا في ظروف ظهورهم وقوتهم وقهرهم لأهل الدين، فإنهم لا يستطيعون الذهاب إلى أصل الشريعة لإبطالها، ولكنهم يذهبون إلى فروع الشريعة لإبطال هذه الفروع ليعود الإبطال على الأصول.

وهذا نجده اليوم، هذا اليوم واضح، ما عاشه الناس في زمن انتشار الزندقة في القرن الثامن والسابع الهجري والتاسع الهجري، هذه الأوقات التي غلب فيها الزنادقة سياسياً وعسكرياً وانتشروا كذلك بدُعاتهم، وسبب انتشارهم غلبة الرفض – لا بُدَّ أن ننتبه لهذا – سبب انتشار الزندقة غلبة الرفض، فهؤلاء لما أرادوا إبطال الشريعة كان مما تكلموا فيه الكلام عن الفقه وأنه ظني.

واليوم يقال بألفاظ قريبة، بل هي تفسير لما تقدم، يقولون: أيُّ دينٍ تريدون؟ أيُّ فقهٍ تريدون؟ هل تريدون السلفية أَم تريدون المذهبية؟ هل تريدون قول فلان أَم قول فلان؟ هل تريدون قول الشيعة أَم قول السُنّة؟ لأن هذا كله عندهم إسلام، هم لا يُفَرّقون بين الرافضة والسُنّة إلا بأنها مذاهب داخل الدين الواحد، وهكذا، هل تريدون قول الشيخ فلان أَم قول الشيخ فلان؟ فلما لم تُبيّنوا أي دين ينسب إليه الإسلام حقاً، كان هذا الاختيار باطلاً، هكذا يقولون، وهذه هي الطريقة. ولذلك الشيخ معذور بل مصيب في إعادة الأمر إلى نصابه.

صحيحٌ أننا تكلمنا عن اليقيني والظني بما يبطل إعمال الشريعة، تكلمنا عنها في الفقه، تكلمنا عنها في العقائد، لكنها كانت ضرورية في عصرهم، لماذا ضرورية؟ لأنها تبطل شغب الزنادقة.

والشيخ – هنا انتبهوا –، علماؤنا تُعرف درجة علمهم بطريقة بنائهم لكتبهم، ليس بما يذكرون فيها فقط من أفراد ومسائل، لكن كيف يبنون كتبهم، هذه مهمة جدا، كيف يبنون، ما هي طريقة بناء الكتاب، وبهذا يفاضلون بين الأئمة بطريقة بناء الكتاب. فأنتم ترون الشاطبي في المقدمات تكلم عن هذه، في طريقة بناء الكتاب تكلم بطريقة علمية، واضح؟

ثم لَمّا انتهى من هذا جاء إلى التصفية، بعد أن أثبت القاعدة جاء ليُصفي هذا العلم مما علق به، وذلك لأن المعترض سيُدخل في اعتراضه مسائل ليست من العلم، بُحثت في كتب الأصول ليتخذها تشغيباً، ليتخذها وسيلةً، تشغيباً من أجل إبطال هذا العلم، فهو قال هذه مسائل عارية، هذه مسائل ليست من هذا العلم.

والشيخ الشاطبي في طريقة بنائه الكلي - هذا الجزئي كما نرى، في المسألة الواحدة المقدمات - نراه كذلك في بنائه الكلي لكتابه يبنيه بناءً علميا لأن كتابه (الموافقات) يُقسّم إلى كم كتاب؟ يقسّم إلى أربعة أقسام. يا مشايخ؛ القسم الأول هو الأحكام، القسم الثاني هو المقاصد، القسم الثالث هو الأدلة، والقسم الرابع هو الاجتهاد وما يتعلق به من المجتهد وغيره ...إلخ، واضح؟

لماذا قَدَّم - انتبهوا هنا نسأل - لماذا قَدَّم الأحكام؟ يعني الأحكام هل هي تقسّم إلى قسمين أحكام تكليفية وأحكام وضعية، والأحكام التكليفية إلى أقسام خمسة إلى آخره، وبدأ بقسم المباح، ولا بُدَّ أن ننتبه لهذا.

وهنا يأتي الفرق بين ما يسمونه بـ«العقل الذَري» و«العقل الكُلي»، ويُسمّى في العسكرية بين «الاستراتيجية» و«التكتيك»، ويسمّى في الأصول «الجزئي» و«الكُلي»، هذه كلها قواعدُ العقل يحكمها؛ إذا دخلت في الكتاب واستغرقت في فروعه — انتبهوا - إذا استغرقت في فروع الكتاب قد لا يُفتح لك باب الفهم في إنشائه الكلي؛ لا بُدَّ أن تنظر إلى الكتاب بعدة اعتبارات، منها أن تنظر كيف يبنى في بنائه الجزئي يعني فروعه في داخل كل مسألة، وعليك أن تنظر في بنائه الكلي كيف بُني. وهذا يستفاد من أهل العلم في تفسير القرآن؛ قد يقال لك ما هي أفضل طريقة في تفسير القرآن؟ هي أن تنظر إلى الآية وإلى الكلمة وإلى السورة وإلى موضع ذلك كله باعتبار فرعه وباعتبار ما هو أكبر من الفرع إلى الكلي. يعنى أنت تأتي إلى الآية، عليك أن تدرس أولاً أفرادها، كما نفعل الآن نحن ندرس أفراد كلماته، هذا قد يستغرقك، لا بُدَّ أن تربط هذه الكلمة بغيرها، ولا بُدَّ أن تربط هذه الكلمة بالآية كلها، لا بُدَّ أن تربط هذه الآية بسابقتها وسياقها، لا بُدَّ أن تنظر إلى هذه الآية باعتبار موضعها من السورة، لا بُدَّ أن تنظر إلى هذه الآية باعتبار ما ورد من مثيلاتها في القرآن، ثم تنظر إلى السورة باعتبار موقعها من القرآن، وهكذا، فهمتم؟

فالكتاب نحن الآن نحلل ألفاظه، لكن هذا عليه ألا يستغرقنا في النظر إلى ما نتكلم عنه، رأينا الآن؟ نشرح الأفراد، ثم نشرح الجزء المكون لهذه الأفراد، ثم نشرح ما هو أعلى من الجزئي الذي يُكوّن الكُلي لهذا الجزئي، ثم ننظر إلى الكتاب باعتبار كله.

مثلاً الآن تَقَدَّم أن هذا الكتاب أنه بدأه بعد المقدمات، ما هو أول كتاب فيه؟ الأحكام، لماذا؟ لأنه أراد أن يقول إن أسرار التكليف، فلا بد أن نعرف التكليف، ما هو التكليف؟ التكليف هو الأحكام، ولا بُدَّ أن نعرف مقاصدها، فمقاصد الأحكام، لا يمكن أن نعرف مقاصد الأحكام حتى نعرف الأحكام، ثم لا بد أن نعرف دليل هذه الأحكام، أدلتها، ثم لا بُدَّ من النظر إلى طريقة استنباط هذه الأحكام الفرعية؛ من إلى النظر إلى الفاعل وهو المجتهد، إلى قوانينه وشروطه، فلا بد من النظر في الاجتهاد.

أرأيتم كيف قد بُني الكتاب؟ كما يبني علماؤنا الفقه؛ لماذا يبدأون بالطهارة؟ لأن أعظم عبادة هي الصلاة، لا بُدَّ منها، والطهارة لا بُدَّ لها من المياه، وهذا عامّة الفقهاء يبدأون بماذا؟ بالمياه، بكتاب المياه، ولكن المالكية تبعاً لمالك في الموطأ يبدأون كتبهم بالآذان؛ لأن الصلاة لا تثبت إلا بدخول الوقت وعلامة دخول الوقت الآذان، وهكذا.

لماذا بدأ الشاطبي في الأحكام الخمسة بالمباح؟ والتعريف المشتهر في زمانه وزماننا أن الحكم هو: أولاً: خطاب الله تعالى للمكلفين بالاقتضاء، والتخيير يأتي ثانياً، لكنه لماذا بدأ بالاختيار، بالتخيير؟ لماذا بدأ بالمباح؟ لأن المباح هو أصل الأحكام، لأن المباح هو أصل، أول شيء أصل، واضح أيها المشايخ؟ وهكذا. وهذا لا يمكن أن تفهمه إذا كنت ذَري النظر، فلا بُدَّ أن تكون جزئي وذري النظر، لا بُدْ، وإلا لا تفهم الكُلي، لا يمكن فهم الكُلي دون فهم الجزئي، لا يمكن.

والآن يأتي الشيخ إلى بعض ... وهنا نذكر مسالة: علماؤنا يُمثّلون في كتبهم ولا يفصّلون، ولذلك يقولون: هنا للتمثيل لا للتفصيل، وهذا شيءٌ مهم في التربية؛ يعطيك المثال وأنت بعد ذلك عليك أن تبني على هذا المثال إلى غيره، يتركونك هكذا. هذا ما قلناه في بداية الكلام ما قاله الشافعي ورده الإمام الطبري – عليهما رحمة الله – بأن الله ابتلانا بماذا؟ ابتلانا بالنص وابتلانا بالاجتهاد، هذا هو، فهمنا؟

ترون القواعد هنا؟ نحن نريد أن ننمي هذا، هذا نريد أن نحركه، لا بُدَّ أن ننمي هذا العقل، فالتمثيل من أجل أن يؤصل لك المسألة، ثم لا يفصل، يقول: التفصيل أين هو؟ أنت.

الأول هو النص، الثاني هو الاجتهاد، واضح الكلام؟ العلماء يمثّلون ولا يفصّلون.

الآن نأتي ذكرنا مسألة الوضع، ونأتي إلى المسألة الثانية، نأتي إلى التمثيل: الثاني في المسائل التي عدها الشاطبي عارية (أجنبية) عن أصول الفقه.

"وعلى هذا يخرج عن أصول الفقه كثير من المسائل التي تكلم عليها المتأخرون وأدخلوها فيها؛ كمسألة ابتداء الوضع، ومسألة الإباحة هل هي تكليف أم لا"

هذه عندي – وأنا لست إلا مردد لما يقولون –، ولكنها عندي خطأ في التمثيل، هي خطأ في التمثيل من وجه: هل بحثُ مسألة [الإباحة، هل هي تكليف أم غير تكليف] من أصول الفقه، لماذا؟ لأنها متعلقةٌ بتفسير ما سميناه بـ«الحكم الشرعي»؛ الأصوليون يأتون إلى الحكم الشرعي، هو خطاب الله تعالى للمكلفين بالاقتضاء أو التخيير، فأين تدخل هذه المسألة التي بين أيدينا – وهي هل الإباحة تكليف أم لا–، تدخل في بحث: هل هي من خطاب الله أَم ليست من خطاب الله؟ لأن هناك كلام غير سديد لكنه موجود، لماذا تكون الإباحة هي حكم تكليفي؟ والإباحة تخيير، فهمتم؟ هذا هو أصل المسألة عندهم، يقول الإباحة تخيير، والإنسان له أن يشرب الشاي وأن يشرب القهوة، اليوم القهوة مُجمع على إباحتها، لكنها لما دخلت ديار الإسلام اختلفوا فيها، ومن نظر في (الدرر السَنية) لأئمة الدعوة النجدية وجد هذا الخلاف، أن هناك خلافا كان ضعيفًا ولم يعد هذا الخلاف هل القهوة حلال أم غير ذلك، واستحبها بعض أهل العلم كعبد الغني النابلسي لأنها تعين على السهر، على قيام الليل. وعبد الغني النابلسي كما تعرفون هو رجل صوفي وكان يصرح ويصرخ بوحدة الوجود، ويصرح، ليس عنده خفاء، لا يلعب ألعاب المتقدمين، بل كان يصرح. القصد؛ فأنت بالخيار، تشرب القهوة أو تشرب الشاي، الخيار مسألة تعود إلى إرادة المكلف، فكيف تكون حكماً شرعياً؟

بهذا المعنى، في بحثها أنها هل هي خطاب الله أم ليست من خطاب الله، إذن هي مسألة تتعلق بالأصول من هذا الوجه، لكنهم ربما أرادوا أن هذه المسألة هل هي تكليف أو غير تكليف تعود إلى ما يسمى اليوم بفلسفة العلوم، أو كما يسميه فقهاؤنا قديمًا بـ«فقه العلوم»، والحق أن هناك من بعض أهل العلم، مَن عد أصول الفقه هي فلسفة الإسلام، مع الاعتذار والملاحظات التي يضعها علمائنا على كلمة فلسفة، لأنهم يقولون الفلسفة إنتاجٌ عقلي والإسلام

ليس كذلك، الإسلام هو دين الله، ما معنى الدين؟ قالوا هو وضعٌ إلهي، الدين يُعرّفه أهل العلم بأنه وضعٌ إلهي، ومن الذي وضعه؟ الله. الدين وضعٌ إلهي سائقٌ لذوي العقول السليمة إلى ما فيه خيرَيْ الدنيا والآخرة، هكذا يعرفون الدين. يقولون الفلسفة إنتاج عقلي وأمّا نحن فلسنا في خيار إلى أصول علومنا، وإن اختلفنا في الفروع، لكن أصل مرجعنا لا الفِكر ولا العقل، أصل المرجع هو الكتاب والسُنّة، فلا يوجد فلسفة، هكذا يقولون، ولا شكَّ أن ما يُسمّى بـ«الفِكر الإسلامي» هذا هو منطلق بحثه ويبتعدون كثيرًا عندما تكون عن الفِكر الإسلامي، هل يوجد فِكر إسلامي أَم لا يوجد فِكر إسلامي؟ بعضهم ينفي وجود فِكر إسلامي، ليس فقط فلسفة، يقولون الفِكر الإسلامي هو إنتاجٌ إنساني فلا يجوز أن يُنسَب للإسلام، وهكذا.

لكن هناك بعض المعارف والعلوم، هناك بعض حقول المعرفة تدخل في الفكر الإسلامي، ولا يمكن إدخالها في أي باب قديم من أبواب العلوم؛ يعني الآن العلوم التي بها يُرد في أسرار التكليف الذي يتهم به الإسلام، من أين تأتون بأدلة؟ لماذا أنتم تقولون أن الإنسان حر في اختياره؟ لماذا تقتلون المرتد؟ ما هي فلسفة الميراث؟ وما هي أسرار – الكلمة القديمة هي ماذا؟ أسرار – ما هي أسرار الـ... وهكذا، فهذه يدخلها الناس كثيراً فيما يُسمّى بـ«الفِكر الإسلامي» ولا مشاحة بالاصطلاح إلا إذا عُلم أن مقصده على غيره.

واليوم تجدون أن المفكرين، – وهذا شيءٌ زائدٌ عمّا نحن فيه – لكن تجدون المفكرين اليوم يخوضون في قضايا يخاف ويجبن عليها الفقيه، وهي تتكلم في الفقه، لا يمكن أن يأتي المفكّر بما يُسمّى بالفِكر حتى يكون فقيهاً، لكنه يأتي إلى الفقه فيلوص فيه، يلعب فيه، يلعب في الفقه من أجل أن يوافق ما يُفكّر فيه، وهذه طريقةٌ غير سديدة نراها ونعرفها. القصد، نرجع؛ فهم يقولون أن الاختيار إرادة للإنسان، يعني هي ليست تكليفاً، والحق أن البحث في هذه المسألة هي مسائل الأصول، بل في الحقيقة هذه المسألة هي من أَجَّل مسائل المباح، والشاطبي مع أنه... وهنا أريدكم أن تفتحوا القوس الذي قلته لكم وربما البعض لم يستوعبه فيما تقدم وهو أنه ربما يقول الشيخ القاعدة ويخطئ فيها، ألم نقل هذا؟ وربما يقول الشيخ القاعدة ويخطئها، أليس كذلك؟ هكذا قلنا، وهذه منها، الشاطبي جعل هذه المسألة أجنبية عن أصول الفقه، وهي أول مسألة بحثها في المباح، هذه المسألة هي أول مسألة قد بحثها الشاطبي في المباح، إذن هو وضع القاعدة وأخطئها، لماذا؟ لما تقدم بأن الفطام ماذا؟ الفطام عزيز أو شديد كما يقول الغزالي، الغزالي هذه كلمته في (المستصفى)، فإن الفطام شديد؛ يعني الناس هكذا جروا، وهو لا يستطيع أن ينفك عما جروا عليه، واضح الكلام؟

فإذاً هل المباح هو من خطاب الله؟ الجواب: لا بُدَّ أن نبحث هذه المسألة لأن هناك من أخرجها من خطاب الله فإذن هي بحث من مباحث الأصول، هذا بين.

وأمّا كيفية الرد أنها من خطاب الله، نحن نقف هنا لئلا نمشي لأن هذه المسألة ستأتي في المباح، ولا نريد أن لا يشدنا الكلام – مع جماله –. في الحقيقة إن الكلام عن المباح هل هو تكليف أم لا، في الحقيقة، من جماليات المباح، من مباحث جميلة في هذا العلم، بحث رائع، التي بها – انتبه إلى هذه النقطة – التي بها تعرف تكييف الحكم الشرعي، إيش؟ بحْث، إيش تكييف الحكم الشرعي؟ نؤجله. تكييف، مسألة تكييف، هذه لفظ الأحناف، الأحناف عندهم كلمات في كتب أصول الفقه لا تجدها عند غيرهم، هذه كلمة تكييف هم – الأحناف – أبناء بكورتها، تكييف الحكم الشرعي، هذه المسألة جمالها في أنها تفتح ذهن الناظر والباحث فيما يُسمّى بتكييف الحكم الشرعي، تفضل يا شيخ.

"ومسألة الإباحة هل هي تكليف أم لا، ومسألة أمر المعدوم،"

هل يأمر الشارع بالمعدوم أَم لا؟ هذه كذلك من المسائل التي نبحثها، لا نريد أن نقف على كل كلمة، ربما يستغرقنا، ولكن نضع ما فيه فائدة، نعم.

"ومسألة هل كان النبي ﷺ متعبدا بشرع أم لا"

متعبَّدًا أو متعبِّدًا يصح الوجهين، أنه متعبِّد أو أن الله تعالى تعبَّدَه بشرعٍ سابقٍ أَم لا؟ كذلك هذه مسألة لا دخل لها بالأصول...

"ومسألة لا تكليف إلا بفعل"

يعني هل يكلف المرء بغير فعل؟ هل هناك تكليف بغير الفعل؟

"كما أنه لا ينبغي أن يعد منها ما ليس منها"

هذه القاعدة كما قلنا لكم – أرجع – من أين أخذها الشيخ الشاطبي؟ أخذها من (المستصفى)، أخذها ووضعها الشيخ أبو حامد الغزالي، وضعها وضعاً ظاهراً في مقدمة كتابه (المستصفى)، حتى هذا الكلام هو أتى عليه بتفصيل، بشيء من التفصيل أكثر من أبي محمد الغزالي، نعم.

"ثم البحث فيه في علمه وإن انبنى عليه الفقه؛ كفصول كثيرة من النحو، نحو معاني الحروف"

هل نبحث معاني الحروف، هذه من علوم الآلة، من علم الآلة. هل تعرفون ما هي معاني الحروف؟ الحروف تقسم إلى قسمين: حروف هجائية التي تتكون منها الكلمة التي لا تفيد معنى بذاتها وليس لها أي معنى، ولكن العلماء كذلك هذه لا يتركونها، ماذا تفيد {ص} لَمّا يقول الله: {ص وَالْقُرْآنِ}؟ فيأتي أهل العلم فيقولون {ص} حرف خصومة، وهو أبجدي وهجائي، يسمونه ويطلقون عليه معاني. وهذا يا مشايخ لا وجود له في تاريخ البشرية إلا عند العرب، هذا النظر والبحث والغوص في أسرار الأشياء هذا لا وجود له، ومن ذلك هذا؛ هذا الحرف ماذا يفيد؟ ماذا يعني؟ كيف هو؟ فلما يأتي علماؤنا يقولون ص حرف خصومة، وسورة ص في الخصومة – كما ذكر هذا الزركشي في (البرهان في علوم القرآن) –، حرف وخصومة وسورة ص خصمان، يتصور المحراب، وهكذا. مع أنه حرف هجاء، وحروف الهجاء لا تفيد معنى، وأما حروف المعاني فهي الحروف التي.. الحرف عندهم لا يعني الحرف، كما يقول الكلمة، الحرف عند أهل النحو كما تفيد الكلمة، الكلمة قد تفيد الكلمة المفردة وقد تفيد الجملة الدالة على معنى، تقول التوحيد، **لا إله إلا الله** كلمة، كلمة التوحيد. والكلمة لما تتكلم تقول: هذه كلمة باعتبار إفرادها، أليس كذلك؟ كذلك الحرف، يُقصد به حروف الهجاء إذا استقل الحرف بمفرده، ويقصد به الحرف الذي يحمل معنى في داخل الكلام (ذا معنى)، كحروف الجر، هذه لها معاني.

فهو قد أطال، مَن أكثر من أطال في ذكر حروف المعاني في كتابه؟ هو الشوكاني؛ الشوكاني وقف عند حروف المعاني واستطرد فيها. هناك كتب مستقلة ألفها علماؤنا الأقدمون في حروف المعاني، ماذا تفيد الحروف؟ مَن، مِن، ماذا تفيد من؟ حتى، لعل، وهكذا، هذه لها معاني. فهذه لا تُبحث في كتب الأصول وإن كانت ضرورية للفقيه، الفقيه ضروري له.

يعني عندما يبحثون... هذا كان له أن يُدرس في أصول الفقه في المرتبة الأولى، لكننا نذكره على سبيل التذكير أو التعليم لمن لم يمر على أصول الفقه في الابتداء. عندما يقول: {ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ}، "إلا" تفيد الغاية، – الآن هنا يبحثون – تفيد الغاية إلى الليل، فهل ما بعد حرف الغاية يدخل في المذكور أو لا؟ هذه مسألة من مسائل الفقه، من قرأ هذه المسألة في الصيام، وجدها؛ هل الليل يدخل أو لا يدخل؟ هل "إلا" تفيد الغاية؟ فهل ما بعدها يدخل فيها؟ ويمثلون، – انتبهوا، هذا هو العلم يمد بعضه بعضاً –، أولاً، يُنظر إلى العربية، ولكنهم يستدلون على ما يختلفون فيه من العربية بما بُني على العربية، وهو القرآن والسُنّة.

يعني عندما يأتي مخالفٌ في مسألة في النحو فيقول أن بعدها داخل فيما قبلها، فيرد عليه الآخر فيقول: وهل الليل داخل في صيام الصائم؟ يقول لا، يقول كيف؟ وهنا يقول: {ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ}، هو الأصل أن يحتج باللغة على القرآن، وهنا احتج بالقرآن على اللغة، وهكذا. وهذا هو أمر العلوم، لا بأس يا مشايخ.

"وتقاسيم الاسم والفعل والحرف"

نعم، وهذه كذلك من علوم الآلة...

"والكلام على الحقيقة والمجاز، وعلى المشترك والمترادف والمشتق وشبه ذلك"

لكن هل بحث هذه الألفاظ ومعانيها من أصول الفقه؟ الجواب نعم. لأنك عليك أن تعرف ما هي هذه الأمور، هنا الألفاظ مشتركة في اللغة، ولكنها موجودة ومبحوثة في كتب الأصول، على أساس أن هناك الاشتراك وهناك على الاشتراك، وهل يمكن إطلاق اللفظ المشترك في حالين معًا؟ هل هو على التناوب؟ أو يمكن إدخاله على المعنى العام؟ نعم.

"غير أنه يُتكلم من الأحكام العربية في أصول الفقه على مسألة هي عريقة في الأصول، وهي أن القرآن الكريم ليس فيه من طرائق كلام العجم شيء، وكذلك السنة"

الشيخ أبو إسحاق الشاطبي، لا أدري ماذا أقول، لكني أريد أن أقرب ما في قلبي، أنه التف لفة جميلة، هي أشبه بقفزة الجمباز في فنونها، في فنها وذكائها، واضح؟ لماذا؟ انظر أول شيء، هو يتكلم عن مسألة أصلاً هي من مَهمات مسائل (الرسالة) للشافعي، هذه المسألة من مهمات مسائل (الرسالة) للشافعي، واضح يا مشايخ؟ لكنه كيف التف، كيف قفز هارباً من المشاكل؟ قال هذه الكلمة، قال: هل في القرآن والسُنّة من طرائق العجم؟ – انتبهوا –، يقول هل.. وهي عريقة في الأصول، عريقة لأنها بحثت في أول كتاب في الأصول، عندي أن كتاب (الرسالة) للشافعي فيه سر العربية أكثر مما فيه من سر الأصول – انتبهوا إلى هذا –، عندي أن (الرسالة) للشافعي فيه من أسرار لغة العرب أكثر مما فيه من مسائل الأصول.

وأنا قلت كلمة ما أدري في أي كتاب، نقلت كلمة عن الشافعي –رحمه الله– في (الرسالة) في حكمه على لغة العرب، وقلت لو جاز أن يُسجد لغير كلام الله لكان السجود لهذه الكلمة من هذا الإمام؛ وله كلمات في إدراك سر العربية وإدراك كلام العرب ومجاريه ما يبهر العقول، وهو بهذا فذ في اللغة، كما أنه فذ في الأصول، كما أنه فذ في الفقه، سبحان ربي الأعلى كيف يعطي جل في علاه، لكن، وهو يقول، أين هذه القفزة – مع الاعتذار، أنا بحثت عن كلمة، هذه هي التي خرجت معي، يعني إذا عابها أحد له الحق ولكني لا أجد غيرها –، هو يقول: وهي أن القرآن: قلت قفزات العلماء في المسائل وكيفية اختيارهم للألفاظ، هذا لا يمكن.. – هذا ما يهمني، أن تفهم هذا، هذه المسألة؛ كيف يقفز العالم وكيف يضع الكلمة، وكيف يترك مسألة إلى مسألة، هذه لا يمكن أن تفهمها حتى تكون قارئاً لِمَا قبلها من كلام العلماء، هذه هي القراءة المستوعبة، وليس المقصود من قولي فيما تقدم من قراءة المستوعبة هي أن تقرأ فقط الكتاب كاملاً، بل أن تقرأ هذا الفن كاملاً، هذه نقطة. فقولنا لعالم كيف يقفز، هذه ينبغي أن تنتبه لها، هذه لا يمكن أن تعرفها حتى تكون بصيرًا كيف تكلم العلماء فيها، ولن تجدها حتى عند العلماء الكبار، وإذا أردت أن تعرف كثيراً من الأمثلة في هذا فعليك بتفسير بن كثير. تصور، كيف يقفز الشيخ، كيف يترك الأقوال المشهورة، لأن فيها من المعاني لا يحب أن يُظهرها للقارئ في عصره ولا ما بعد عصره، يُعرض عنها، كأنها غير موجودة، ويأتي إلى القول الذي يختاره مميتًا للآخر كأنه غير موجود. أكثر من يستخدمها من؟ قلنا.. أو أكثر ما يمثل له الحقيقة، العلماء كلهم يستخدمونها، فابن كثير هذا يستخدمها فهو يصلح للتمثيل فيما نحن فيه، وهذا لا يمكن – أقول وأكرر لتحفظ – هذه لا يمكن أن تفهمها حتى تكون عالمِا بالمسألة، ولذلك هنا الشيخ ماذا قال؟ مع أن المسألة العريقة – ها انتبهوا –، مع أن المسألة العريقة التي تستحق هذا الوصف من الشاطبي ليست هي هذه المسألة، المسألة العريقة في كلام العلماء قديمًا

-العريقة أي القديمة-، هي مسألة أخرى؛ التي في (الرسالة) غير هذا، لكن انتبهوا إليه، هو يقول: **وهي أن القرآن ليس فيه من طرائق كلام العجم شيء...**

هذه يا شيخ أبو إسحاق، هذه المسألة لم يبحثها، هو يعلم هذا، هذه ليست هي المسألة التي دار حولها الخلاف وجَرت بها عقولهم حتى تعِبت ثم انتهوا بعضهم إلى الحيرة والترك وأنها ليست في المسائل في شيء ولنتركها. المسألة التي تبحث فيها هي مسألة: [هل في القرآن والسُنّة من غير العربية؟]، أمّا الطرائق فهم على اتفاق. فهمتم الفرق بين كلمته وبين ما هو مبحوث عراقةً؟ المبحوث عراقةً في كلام الشافعي أنه ينفي أبداً أن يكون في القرآن خاصةً أيُّ كلمة غير عربية، هو يتكلم في هذا. وحينئذ رد عليه الآخرون وقالوا موجود كلمات.

الشافعي احتجّ بأمور عجيبة، احتج بسعة كلام العرب، أن هذه كلمات.. هل أنتم أحصيتم أولاً كلام العرب؟ وهذه استفاد منها علماؤنا بعد ذلك؛ وهي قضية: "من أين أتيت بهذا؟"، لو خالفك مخالف كيف تحتج عليه؟ أين هذا؟ من أين جئت بهذا الكلام؟ الشافعي قال -كما تَقَدَّم وذكرنا هذه الكلمة -، قال بأنه لا يوجد أحد أحاط بلغة العرب إلا نبي، - هذه ذكرناها -، لا يوجد أحد أحاط بلغة العرب إلا نبي، فلمّا يأتي ويقول "سندس" هذه ليست عربية، أنت.. هناك من كلام العرب ما لم يصل إلينا، هذا بالاتفاق، هذا باتفاق عندهم.

كم يُستخدم اليوم من كلام العرب، من كلام المعاجم؟ لا يُستخدم خمسة في المائة. نحن في كلامنا في كلام الناس اليوم لا يستخدم خمسة في المائة من كلام المعاجم؛ وكلام المعاجم لم يستقصي لغة العرب، لا أتكلم عن المعاني كما تكلمت في الدرس الفائت، ارجعوا، قلنا أن المعاني كثيرة لا تحيط بها المعاجم، إنما الكلام هنا عن الألفاظ أن هناك كثيراً من الألفاظ لم يصل إلى أول من جمع لغة لعرب، لم يسبق.

فلذلك يقول الشافعي، هذا مستحيل، هذه كلمتي، وهو معناه أنه لا يحيط بلغة العرب أحد، كما أنه لا يستطيع أن يحيط بأحاديث النبي -صلى الله عليه وسلم- أحد، المقصود به الأسانيد وأمّا المعاني فهي بينة، وكذلك لغة العرب، المعاني بينة، لكن أين هم من..؟ كيف تأتي وتقول أن "سندس" ليست عربية؟ قل هي ليست من لغة قريش، على رأس العين، قل هي ليست من لغة طيب، على رأس العين، لكن ما أدراك أن هناك من العرب من قالها؟ واضح؟

لذلك الشافعي في هذا، ما رأيته في الكتاب - ولا حتى في تقريراته الأخرى - يشد بهذا النَّفس كما شد في هذه المسألة، بل في الحقيقة يكاد يحكم على الرجل بالخروج من الإسلام والزندقة، وأنه إهانة. إهانة؛ هل تجدون هذه صحيحة؟ وأنه من الإهانة لكلام الله أن يكون فيه غير لغة العرب. كأنه يقول أن العربية لا تستطيع أن تستوعب مراد الله، ونحن نعرف كلمة ابن خلدون، نعرفها؟ إيش يقول ابن خلدون —رحمه الله-؟ له كلام عجيب يقول:"لماذا لم يأتي الإعجاز والتحدي في الكتب السابقة قبل القرآن؟" هذه عجيبة، هذه عجيبةٌ من أئمتنا، قال: "لأن اللغات السابقة لم تصل إلى حد الكمال الذي يستوعب الإعجاز، ولَمّا بلغت العربية حدّ الكمال كانت مستوعبةً للإعجاز"؛ الإعجاز معنى، والمعنى لا بُدَّ له من متن - متن يعني ظهر، يعني حامل -، هذا الإعجاز معنى، شيء مفهوم، يُدرك، لا بُدَّ له من حامل. هذا الإعجاز إعجازٌ يتعلق باللفظ، فهذا لا يمكن أن يُحمل وأن يأتي الإعجاز حتى يكون محمولاً على ما يليق به من الكمال. ما الذي يحمله؟ العربية الشريفة. ولَمّا كانت اللغات السابقة لم تصل إلى حد الكمال فكانت عاجزةً أن تحمل الإعجاز، واضح الكلام؟

ماذا نقول؟ هذا هو الذي هو يمات من أجله، هذا هو الذي جعل.. هذه الأذواق عند علمائنا التي كانت تُسهرهم الليالي في البحث عنها، مثل ما قال الزمخشري:

سهري لتنقيح العلوم ألذُّ لي	من وصل غانيةٍ وطيب عناق
وتمايلي طرباً لحل عويصة	أشهى وأحلى من مدامة ساقي
وصرير أقلامي على أوراقها	أحلى من الدوكاء والعشاق

وفي النهاية ماذا يقول؟

أأبيت سهران الدجى وتبيته	نوما وتبغي بعد ذاك لحاقي

هذه المعاني هي التي جعلت العلماء يعيشون سر الحياة، والكلمة هي سر الحياة؛ لأن الكلمة هي آلة المعنى، والمعاني إن لم تُدركها لم تدرك شيئا، أجَّلك الله كان الذي لا يدرك المعاني كالدابة، فقد يدرك الشعير والقمح ويضع رأسه أو يتركها. طيب أين نحن؟

إذاً هنا الشافعي بحث هل القرآن فيه غير لغة العرب - أمّا أن القرآن لم يأت فيه شيء من غير **طرائق** العرب هذا متفق عليه ولا يجوز لأحد أن يخالفه -، ولكن الناس اختلفوا، هل يوجد أو لا يوجد، وبعد الشافعي لم يُقِّر له كثير من

العلماء بأن القرآن ليس فيه كلام غير عربي، وبعض العلماء أخذ كلامه، ولا شك أن من قرأ الشافعي وكلامه أقر له، ومن قرأ لغيره يُمكن أن يصل إلى منتصف الطريق معه؛ ما هو منتصف الطريق معه؟ هو أن هناك.. – انتبهوا لهذا، لا بأس أن نتوسع وإن كانت على غير ما نحن فيه ثم نمشي، ترون الكلام كثير يُمشى فيه عندما تأتي تمشي لغيرها –، قيل لأعرابي ماذا تسمون ماء الطعام عندكم؟ قال "السخيم"، قال: فإذا برد؟ قال: لا نتركه حتى يبرد! هذه كلمة قد تبدوا طرفة في أولها لكنها علم في منتهاها؛ وهو أن الإنسان لا يُنشئ من الكلمات إلا ما كان له وجود حاضر في عالم كونه، أو موجود حاضر في معاني عقله. لماذا؟ الكلمات لا قيمة لها لا وجود لها؟ ماذا يعني هذا الشيء؟ وهذا يفتح شيئًا لماذا أخفى ربنا عنا بعض أسمائه؛ لو ذُكرت لا نفهمها، واضح؟ لو ذُكرت هذه الأسماء لا نفهمها ثم لا نفهم موجبها، لا نفهمها، فأُخفي عنا هذا، واضح؟ هذا أُخفي عنا.

فهذه الكلمة التي قالها هي التي أصَّلت هذا المعنى.

هناك في الغرب كلمات، لو قلت الشرف بمعنى العرض، هذه من الصعب أن تجدها، تحاول أن تقاربها لتفهمها، لكن أن تأتي إلى هذه اللفظة، لو أردت أن تذهب إلى كلمة تصيب هذا المعنى تماماً لا تجد كلمة واحدة، فلذلك لما كان هذا غير موجود في حياتهم فغير موجود في ألسنتهم. – سيغضب أهل البالتوك والتسجيل الآن – لماذا قلت هذا؟ لماذا هذه الكلمات؟ هذا المبحث لماذا؟ لأنه مما يمكن أن يتكأ عليه من قال أن هناك كلمات في القرآن غير عربية، وأقصد ليس في الأفعال، ولا المصادر ولكنها الأسماء، كيف؟

الآن أنتم من أين تأخذون اسم الشيء؟ ممن هو في بيته؛ تذهب إلى بلد، تذهب إلى استراليا، تذهب إلى أمريكا تجد فيها ثمرة لا تعرف في بلدك، فأنت تأخذ اسمها منهم، لأنك أخذتها منهم، فتأخذ اسمها معهم. نعم، تُحور الكلمة لتتلاقى مع كلامك، يعني لأن الناس لا يأخذون الكلمة كما هي حتى في نطقهم، الناس في نطقهم الكلمات لا بُدَّ أن ينطقوها على مجرى كلامهم، والدليل أنك إذا قرأت رواية، لو قرأتم رواية العرب للحروب الصليبية تجدونهم قد غيروا الأسماء – أسماء القادة – إلى ما يوافق لغة العرب، لو قلت "الباطريارك" العربي ال"ر" مع ال"ر" هذه شديدة على لسانه ولا تقبل، فلا بُدَّ أن يقول بطريك، وهكذا، وهذا موجود، هذا في كل الأمم، كل الأمم تحوّل الأسماء إلى ما يوافق اللفظ؛ الحاء لا ينطقها الإنجليزي، فلا بُدَّ أن يقول حرفاً آخر بدلاً منه وهكذا.

فالقصد بأن العرب **ربما** - هذا مما يجيز - ربما أن العرب لما جاءتهم أشياء من خارج جزيرتهم أخذوا معها الأسماء، فهم لا يعرفونها، من أين للعرب أن يعرفوا معنى السندس - أي الحرير الناعم -؟ من أين يعرف هل هو عنده حرير أصلاً، يستورد الحرير فيأخذ اسمه معه، ناعم وخشن، استبرق ناعم، الحرير الخشن. فربما يأخذها لكنه قطعاً يُحَولها إلى لغته إلى طريقته. هذه يمكن أن نحتج بها، لكن كما رأيتم الكلمة فتحت لنا أبواباً كثيرة؛ فالشيخ هنا المسألة العريقة ليست هي ما تعلق بطرائق كلام العرب والعجم، لكنها المسألة العريقة تتعلق بالألفاظ العربية وغير العربية. تفضل يا شيخ.

"وهي أن القرآن الكريم ليس فيه من طرائق كلام العجم شيء، وكذلك السنة، وأن القرآن عربي والسنة عربية، لا بمعنى أن القرآن يشتمل على ألفاظ أعجمية في الأصل أو لا يشتمل؛ لأن هذا من علم النحو واللغة، بل بمعنى أنه في ألفاظه ومعانيه وأساليبه عربي، بحيث إذا حقق هذا التحقيق سلك به في الاستنباط منه والاستدلال به مسلك كلام العرب في تقرير معانيها ومنازعها في أنواع مخاطباتها خاصة"

إذًا الشيخ يريد أن يقول بأننا.. هذه مهمة، صحيح هي قليلة لكنها مهمة جداً وهو أنه لا يجوز لأحد - هذه الجملة احفظوها من كلام الشاطبي، هذه لأن الشاطبي سيأتي نافذاً إلى معنى عظيم فيما سيأتي بانياً على هذه المسألة، الآن أذكرها -:

يريد أن يقول الشاطبي -عليه رحمة الله- بأنه لا يجوز لأحد أن يفسر - انتبهوا، هذا معنى كلامه هنا - بأنه لا يجوز لأحد أن يفسِّر كلام الله ولا سُنّة النبي إلا على ما جَرَت به لغة العرب وفَهِمها من نزل عليهم القرآن ومن خطبوا بالسنة، لا يجوز؛ ولذا يقول: {أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا}، ولكن ماذا في سورة الرعد؟ {وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا}، لا إله إلا الله. ممكن نستفيد منها ما خالف فيه ابن تيمية في كتابه (إيضاح الدلالة في عموم الرسالة).

من مسائل الفقه، وهي من مسائل الأصول - يا مشايخ، اليوم ما في شرح للموافقات، اليوم المسائل كلها طائرة، لكن هو يبني لنا وأرجوا أن أتخلص من هذه الطريقة حتى نمشي، حتى نستطيع أن نمشي في الكتاب -، من مسائل أصول الفقه: هل مزاج العرب في معنى الكلمات التي تتعلق بالمزاج -هذه نشرحها -، هل المزاج العربي هو حاكم فيها؟

لَمّا الشرع يقول لنا حرم عليهم الخبائث؛ كلمة الخبائث والطيبات كلمةٌ تعود في أصلها إلى وضع الشرع، فالشرع هو من يُقرر ما هي الطيبات وما هي الخبائث، هذا متفق عليه، فالشرع يقول أن لحم الحمير الأهلية من الخبائث، لا تأكلوه، يقول لنا الشرع أن لحم الخنزير من الخبائث، لا تقربوه، انتهينا. لكن هناك من المأكولات والأطعمة ما هي عند العرب من الخبائث ولم يأتِ نص فيها، فهل نرجع إلى مزاج العرب في أخذ أحكامها؟ هذه مسألة.

قال الشافعي نعم، قال نرجع إلى ما كانت عليه العرب، لأنهم خُوطبوا بهذا الكلام واستقر في قلوبهم أنه يخاطبهم بالخبائث التي يعرفونها والطيبات التي يعرفونها. الجمهور قالوا لا، وشيخ الإسلام في كتابه (إيضاح الدلالة في عموم الرسالة) يميل إلى قول الجمهور، وأنا أميل إلى قول الشافعي أن الله خاطب العرب بكلماتٍ لها وقع في أذهانهم على معنى معين فهم يفهمونه.

طيب، لماذا قلنا هذا الكلام؟ الشيخ هنا يقول بأننا يجب علينا أن نُجري كلام الله على طرائق العرب. طيب هنا طرائق العرب والأمزجة، ماذا تريد بها يا إمام، ماذا تريد يا شيخ يا أبا إسحاق؟

هو يقفز الآن إلى المسألة القادمة – ستأتي معنا – وهو أن هناك تفسيراتٌ جديدة للكتاب والسُنّة لم يعهدها من خوطبوا بالكتاب والسُنّة، فليست من العلوم في شيء، ويجب حمل الكتاب والسُنّة على مجرى ما فهمه من خوطبوا به، مثل ماذا؟ الشيخ الشاطبي هو أول من قال وصَرّح بنفي الإعجاز العلمي في القرآن؛ يقول العرب خوطبوا بهذا، ما فهموها، إذن لا يجوز لنا أن نبحث عنها نحن، هذا معنى كلامه؛ ما فهموها، ليست عندهم هذه التعمقات، فلذلك إذا ذهبنا إليها ذهبنا إلى ما لم يفهمه من خوطبوا بالكتاب والسنة؛ هذه هي قاعدة الشاطبي التي يبني عليها فيما يأتي من الكتاب.

أنا بحثت المسألة، بدأت فيها في قوله تعالى: {وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا}، حكمًا، هو ليس هنا الكلام فقط عن اللفظ، ولكنه كلام عن الحكم أنه حكمٌ عربي، هل هذا تعظيم لشأن العرب على غيرهم؟ الجواب نعم.

هذا يدخلنا في مسألة بحثها ابن القيم في كتابه (الهدي)، يبحثها ابن القيم في أول كتابه (الهدي)، إذا عظم الشارع شيئاً – وهذه المسألة أصلاً موجودة بين الأشاعرة والمتكلمين وماذا يقول أهل السُنّة إلى آخره –، هل إذا عظم الشارع شيئًا من جهةٍ كان أصله الذي وُضع فيه معظمًا؟ يعني، بدن النبي –صلى الله عليه وسلم–، هل بدن النبي –صلى الله عليه وسلم– يختلف عن بدننا؟ والله قد عظم بدنه، فيقول الشيخ ابن القيم: نعم. هل تربة مكة تختلف عن تربة الأرض في أصل خلقتها وجاء الشرع ليبين هذه الفضيلة لا ليُنشئها بالأحكام دون الأصل الوضعي (الأصل الخلقي)؟ يقول نعم، لأنها معظمة في خلقتها.

ولذلك الآن يسأل الناس يقولون هذه عنصرية، نقول ليست عنصرية لأن للمرء فضلٌ في أصله، ولأن للإنسان فضلٌ في أصله، وللأشياء فضل في أصلها، ولكن كذلك هناك فضل في ماذا؟ فيما اكتسبه، فيما يكتسبه. هل هناك ممن ينتسبون لأهل البيت من لا يستحق أن يُخلع من الرِّجل؟ الجواب نعم. وهل هناك من هو أعجمي من حقه أن يوضع على الرأس الجواب؟ نعم، هذا لا دخل له، لأن {إن أكرمكم عند الله اتقاكم} لا تُلغي أن الخِلقة من النوع الواحد تتفاضل. ويكفي هذا، لا نريد أن نزيد ولكن {وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا}، لماذا قال حكماً ولم يقل لفظاً، ولم يقل كلمة، ولم يقل لغة؟ هذا لأنه يتكلم عن الحكم. ويكفي إلى هنا.

ولذلك يقول بحيث إذا حُقق هذا التحقيق – يعني إذا قيل بأن كلام الله يجب إجراؤه على مجرى كلام العرب – فإذا حُقق هذا التحقيق سُلك به – انتبهوا – سُلك به في الاستنباط، سُلك به في القرآن والسُنّة والاستنباط مسلك العرب في تقرير معانيها. كيف العرب؟ لو جاء أعرابي أصيل لم تدخل فيه العجمة وقيل له على ماذا يدل هذا الكلام لأعلمك كما يعلمك الفقيه. لكن هل هذا يكفي؟ لا. لأنه خطاب الله فلا بد من كلام آخر وهو حديث النبي – صلى الله عليه وسلم– الذي يفسره.

ولذلك ما قال ابن عباس؟ قال: "تفسير القرآن على أربعة أوجه: أولاً كلام لا يُخطئه أحد – يعلمه الناس، العرب يعلمونه –، وكلام يعلمه العالم – وهو المقصود به الذي يعلم السُنّة –، وكلام يعلمه العلماء، وكلام لا يعلم معناه أحد" – ويقصد به التأويل –، ليس هناك في القرآن معنى خفياً، لكن هل هناك في القرآن كيفيات لا نعلمها؟ تأويل وكيفيات؟ هذا موجود. لو سألت عن يوم القيامة متى هو، هذه كيفيات وتأويل لا نعلمها، لكن هل تعلم ما فيه من

معاني؟ الجواب نعم. لما يتكلم القرآن عن العنب في الجنة هل تعلم معناها؟ الجواب نعم. لكن هل تعلم كيفياتها؟ لا نعلم كيفياتها، فليس في القرآن –كما يقول ابن عبّاس–، ليس في الجنة من الدنيا إلا الأسماء.

وهناك كلمة، يقول شيخ الإسلام في كتبه – وذكرتها في مسألة المنافقين، في مبحث المنافقين، ذكرها شيخ الإسلام ونقلتها – يقول أن التعريف لا يُحتاج فيه إلى كلام العرب وقد فسره القرآن والسُنّة، لا يحتاج فيه، لكن هل يحتاجه العالم؟ يعني لا نحتاج إليه في الأحكام، لكن هل يحتاجه العالِم؟ كيف خرج هذا اللفظ من أصل كلام العرب بهذا المعنى فارتقى إلى كلام الله وكلام رسوله؟ هذا لا بُدَّ منه. كيف جاءت الصلاة؟ لماذا اختيرت كلمة الصلاة دون غيرها؟ لماذا اختيرت كلمة الزكاة لهذا المعنى الشرعي من كلام العرب دون غيرها مع اتساع كلام العرب؟ فهذا لا بُدَّ للعالم منه، بل هو من مُزينات علمه يا مشايخ، نعم. فيقول هنا:

"مسلك كلام العرب في تقرير معانيها ومنازعها في أنواع مخاطباتها خاصة؛ فإن كثير من الناس يأخذون أدلة القرآن بحسب ما يعطيه العقل فيها"

انتبهوا لهذه الكلمة، هذه قالها ابن العربي، هنا تكتبونها هذه الكلمة أنا أنقلها بالمعنى وإذا قدر الله أحضرها لكم بلفظها، يقول: الفقه يُستدل به بالألفاظ – لا بُدَّ الألفاظ – والمقاصد بالعقول، أو العلل. إذاً عندنا ألفاظ وعندنا علل، إذا أردت الفقه من أين تأخذه؟ من الألفاظ، من البيان، ولكن إذا أردت العلل من أين تأخذها؟ من العقول.

فأصل الوضع بالعلل، وهي المقاصد، ولكن مراد الخطاب هو الفقه، ولذلك هنا ينبهنا إلى أن كثيرًا يأخذون أدلة القرآن بحسب ما يعطيه العقل فيها، هل هذه تفتح؟ هذه عندي تفتح باب ما يسمى بالتفسير الإشاري، فالأصل هو أن لا يُفسر القرآن إلا بما يقتضيه البيان، لا بما يقتضيه العقل؛ يعني عندما يأتي واحد يقول {يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ}، فالبيان يقتضي أن الأرض هي الأرض. لكن لو أن واحدا أن يستفيد منها تفسيراً إشارياً: يوم تُبدل أرضية قلوب المعصية إلى أرضية قلوب الطاعة تشرق عليها الأنوار، نقول له هذا تفسير بالعقل، تفسير إشاري لا يُلتفت إليه، ولكن ليس هذا هو مراد الأئمة. قال:

"لا بحسب ما يفهم من طريق الوضع"

المقصود بالوضع أي اللغة، لأنهم يقولون اللغة معروفة بالوضع في كلام العرب، هكذا جرى مجرى العرب، وفي ذلك فساد كبير وخروج عن مقصود الشارع، وهذه مسألة مبينة في كتاب المقاصد والحمد لله.

الحقيقة أنا لجمت نفسي عن تفسير ما تحت هذه الكلمات من معاني كثيرة حتى نمشي، لأنها في الحقيقة هذه من سلاح السني والفقيه في إيقاف تلعُّب الزنادقة والفقهاء المعاصرين؛ واحد جالس ليعطي الأحكام الشرعية، إذا أعطاها من جهة العقل وتقريراته اختلف الناس وكثر الخلاف والشقاق، أليس كذلك؟ ولكن حين يعود للنص فإنه يجمع الناس.

"فصل: وكل مسألة في أصول الفقه ينبني عليها فقه؛ إلا أنه لا يحصل من الخلاف فيها اختلاف في فرع من فروع الفقه؛ فوضع الأدلة على صحّة بعض المذاهب أو إبطاله عارية أيضاً، كالخلاف مع المعتزلة في الواجب المخيّر، والمحرم المخيّر؛ فإن كل فرقة موافقة للأخرى في نفس العمل"

الشيخ يريد أن يقول بأن هناك من المسائل – انتبهوا –، يقول إن هناك كثيراً من المسائل التصورية لا ينبني عليها خلاف ولا نتيجة في فروع الفقه، والخلاف تتعلق أقرب ما يكون مما يُسمّى بعالم العقائد فقط، هكذا يتصور، لكن لا ينتج عليها خلاف فقهي بين أحد، كلهم قد اتفقوا على الفرع، بأن الواجب المخير في النهاية، هو هكذا خطاب الله، لكن هل هذا الواجب المخير كيف كان وضعه قبل خطاب الشارع، هذه مسألة لا قيمة لها ولا تأثر في الخلاف، وهكذا.

"وإنما اختلفوا في الاعتقاد"

اختلفوا في الاعتقاد يعني التصورات.

"وإنما اختلفوا في الاعتقاد بناء على أصل محرر في علم الكلام"

إذاً هي من مسائل علم الكلام وليست من مسائل الأصول.

"وفي أصول الفقه له تقرير أيضاً، وهو: هل الوجوب والتحريم أو غيرهما راجعة إلى صفة الأعيان، أو إلى خطاب الشارع؟"

هذه مسألة في الحقيقة لا قيمة لها، لا يترتب عليها حتى فائدة عقلية، وهي مسألة: هل الوجوب والتحريم وغيرها هو خطاب إلى صفة الأعيان أو إلى خطاب الشارع؟ وهذه أقرب ما تكون إلى مسألة التحسين والتقبيح العقلي قد تكلمنا فيها، لا نريد أن نقف في هذه المسائل كثيراً، ليست أصلاً من أصول الفقه وليست من مصطلحاته.

"وكمسألة تكليف الكفار بالفروع عند الفخر الرازي، وهو ظاهر"

هذه طريقة العلماء، هل مسألة تكليف العلماء بفروع الشريعة لا ينبني عليها فقه؟ هو رفَع القلم عن نفسه والحساب وقال كما..، لماذا لم يقل عند فلان وفلان فيما تقدم من الأمثلة، لماذا جاء هنا وقال كما هو عند الرازي، لأنه في الحقيقة هو يعلم أن هذه المسألة بُني عليها بعض مسائل الفقه. الفخر الرازي صاحب كتاب (المحصول)، وكتاب (المحصول) أشبه ما يكون بشرح (المستصفى)، وفيه تطويل ومن أراد أن يعرف – وهنا أُنبّه، لا بأس لأن هذا لطاب العلم الجد والمجتهد والذي هنا يبحث بحاجة إليه –، لا أنصحه ب(المحصول) ليخرج بنتيجة، إنما ليعرف المسائل فقط، لأنه يفصل فيها، ولكن الفخر الرازي في محصوله ينتهي في أغلب مباحث الأصول للحيرة والشك، في أغلب المسائل لا يخرجك يبدأ يقال لك المسألة ويرد عليها ويرد على الرد ثم يقول لك وأنا لا أدري في حيرة، وهذا موجود في (المستصفى)، لأنه أصلاً شرح (المستصفى)، لكن الحيرة عند الرازي أكثر من الغزالي، أكثر، طبعًا الغزالي متقدم عن الفخر الرازي، واضح الكلام يا مشايخ؟ ولك أن تقرأه لتعرف المسائل فقط، أمّا أن ينتهي بك، وأولى لك ألا تدخل فيما يرد ويرد عليه، فإن قيل، هذه الفنقلة. فإن قيل، هذا علم الجدل، الفنقلة هو علم الجدل ومن هو سيدها؟ الزمخشري، فالفنقلة تنسب إلى الزمخشري: فإن قيل قلنا، فإن قلنا: الفنقلة، واضح يا مشايخ؟ فكتاب (المحصول) لا ينصح به للمبتدئ ولا حتى لصاحب منتصف الطريق، بعد أن تنتهي الكتب لا بأس أن تذهب إليه لتعرف ماذا يقولون، لا بأس، ولكنه كثير الشك والحيرة.

وهنا جاء إلى أن الرازي أدخل هذه المسألة: "مخاطبة الكفار بالفروع"، والصواب أن هذه المسألة فيها بعض مسائل الفقه، ومثال ذلك، أي تكليف الكفار بفروع الشريعة، لو سألك سائل – وهذا السؤال يُطرح في رمضان كثيراً – رجل يصوم ولا يصلي، لا يمكن أن تجيبه حتى تعرف هذه المسألة. والجواب، لو قال قائل – وهذا قولي، لأننا نتكلم

الآن ليس تبنيًا لمسائل الفقهية – لو قال قائل: "لا أجر له إلا أنه سقط عنه إثم ترك الصيام لو تركه"، وأظن أن هذا هو الجواب الصحيح – لكن خلينا هكذا: "فإن قيل"، فنقلة –.

فإن قيل إن الجواب – وفي رمضان ينتشر هذا السؤال – فإن قيل بأن الصائم غير المصلي ليس له أجر، هذه أول مقدمة، لماذا؟ لأنه من ترك صلاة العصر فقط حبط عمله، فهو تارك للصلاة، صحيح؟ انتهينا منها، ولأنه كافر عند كثير من أهل العلم فلا يُقبل منه والكافر لا يقبل منه عمل، طيب، والثانية كيف قلناها؟ لماذا قلناها؟ وهي: وليس عليه إثم ترك الصيام ما لو تركه، لأن هذا هو مبعثها، لأن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة. هل الكافر يُعاقب يوم القيامة على كفره وترك الصلاة والزكاة؟ الجواب نعم: {إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ}، {قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ * حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ} صحيح؟ فقد ذكر فروعًا وأصولاً، أمّا الأصول فهو كفره بيوم القيامة، وأمّا الفروع فهو تركه الصلاة. فإذًا هم مخاطبون، فلذلك لأننا نقول أن الفريضة لها قوتها، أليس هكذا يعرفونها؟ وهذا تعريف بالعاقبة: لها قوتها، قوة الأجر بالفعل، والإثم ما لو تركها، أليس كذلك؟ يعني لو فعلها له أجر، وماذا كذلك؟ ذهب عنه الإثم ما لو تركها، ذهب عنه الإثم وحصل له الأجر، فنقول عن الصائم لأنه صام – لأن المسلم يصوم لخطاب الله، والكافر تارك الصلاة، لماذا يصوم؟ –، هذا النوع من الناس – وهو الكافر على الصحيح من أقوال أهل العلم لكنه يُنسَب إلى الإسلام –، لماذا يصوم الناس؟ استجابة لأمر الله، الله أمرهم، ورسول الله –صلى الله عليه وسلم– أخبرهم بأنهم لا بُدَّ أن يصوموا، فهم يصومون لله مع كفرهم فيذهب عنهم إثم ترك الصيام ما لو تركوه. من أين عرفنا هذه المسألة؟ من هذه مسألة [مخاطبة الكفار بفروع الشريعة].

إذاً هناك مسائل تدخل في هذه المسألة، قال: **وهو ظاهر**، نعم. تفضل أكمل.

"وكمسألة تكليف الكفار بالفروع عند الفخر الرازي، وهو ظاهر؛ فإنه لا ينبني عليه عمل، وما أشبه ذلك من المسائل التي فرضوها مما لا ثمرة له في الفقه. لا يقال: إن ما يرجع الخلاف فيه إلى الاعتقاد ينبني عليه حكم ذلك الاعتقاد من وجوب أو تحريم، وأيضا ينبني عليه عصمة الدم والمال، والحكم بالعدالة أو غيرها من الكفر إلى

ما دونه، وأشباه ذلك، وهو من علم الفروع؛ لأنا نقول: هذا جار في علم الكلام في جميع مسائله؛ فليكن من أصول الفقه، وليس كذلك، وإنما المقصود ما تقدم"

هنا فقط يقول بأن الاعتقاد بأن هذا واجب، والاعتقاد بأن هذا حرام، وما ينبني على هذا الاعتقاد - أي من بأنه واجب - يجب على المرء أن يعتقد بوجوب الصلاة، ينبني عليه عصمة الدم والمال، فمثل هذه المسائل - وإن كانت من الفروع - لكنها ليست كذلك، يقول ليست من الأصول، يكفي إلى هنا.

اليوم أطلنا عليكم جزاكم الله خيراً، نسمع أسئلة الحضور في البيت هنا عندنا ثم نسمع أسئلة الإخوة في البالتوك، جزاكم الله خيراً والحمد لله رب العالمين.

تفضلوا، هل من سؤال فيما نحن فيه أولاً.

أَ سْـئِـلَـة

- *بعض الناس من الكفار ليسوا مخاطبين ولكنهم محاسبين على فروع الشريعة"*

يسأل الشيخ يقول إن بعضهم يقول بأن الكفار ليسوا مخاطبين بفروع الشريعة لكنهم محاسبون، هكذا؟ لو وافقناهم – وليس في ذلك ظلم– نحاسبهم على ما لم يُكلفوا به؟ ألا ترى أن هذه الكلمة يضرب عجزها بصدرها. هنا يقول أنا لا أخاطبك – يعني خطاب الله التكليف –، أنا لا أكلفك لكني أحاسبك عليه. وعلى كل حال؛ الله —سبحانه وتعالى– هو الحكم العدل ولا يعاقب إلا بذنب يستحق والله تعالى أعلم.

- الدين وضعٌ إلهي...

هذا يتكلم عن الإسلام، لأن الدين في الحقيقة على المعنى اللغوي هو ما دان به المرء، يعني يتكلم عن الإسلام، هذا ما عرفه به صاحب (الكليات والتعريفات)، قال – وهو تعريفٌ جميل رائع، انظروا إلى هذا –: "وضع إلهي سائق لذوي العقول"، وأزيد عليها والبصائر إلى ما فيه خيري المرء الدنيا والآخرة، وضع إلهي سائق دافع لأصحاب العقول إلى ما فيه خيري الدنيا والآخرة.

- الأخ يسأل أيها الإخوة سؤالاً لم أفهمه على الوجه الصحيح، يقول إن من يسمع الشيخ وما يُقال في (الموافقات) لا يفهم منه إلا أن أصول الفقه لا تفيد إلا المصطلحات وبعض الأمثلة...

أظن في هذا إجحاف، الذي أردناه من قراءتنا لهذا الكتاب هو أن نُخرج أصول الفقه من هذا الباب، ومن هذا المكان، وهو أن نخرج أصول الفقه إلى أن تكون عملاً واقعًا وأن تكون مدبرة لعقل المرء في جميع حياته، لكن مازلنا نحن في أول الطريق، ولو جئت أيها الأخ الحبيب السائل، لو جئت إلى رجل يضرب في الأرض ليبني بيتًا، فإنك لا تدري ما يفعله،بلا ترى إلا رجلاً ربما يتهمه من لا يعرف قدره ولا يعرف طريقته، إلا أنه يكسر الحجارة، ويضرب في الأرض يحفر فيها، لكن بعد ذلك عندما يأتي البناء ونضع القواعد ثم يرتفع، تعرف البيع، ولكن نحن ها هنا على طرائق العلماء لنعرف مناهجهم، هذا ضروري جدًا، الناس لماذا يعرضون عن كتب السلف؟ لماذا لا يتلذذون بها؟ لماذا لأنها لأن هذه

الكتب لها مفاتيح، نعم يا مشايخ، كتب أهل العلم لها مفاتيح. لا بُدَّ أن نعطي طالب العلم مفاتيحها ليتلذذ بها، ونحن كما ترون أن هذه القراءة أظن إلى الآن تشعرون باللذة معها مع كلامهم مع نفوسهم، كأن الشيخ أمامنا يعلمنا، كأن الشيخ أبا إسحاق –رحمه الله– يعلمنا، يناقشنا، نقرأ في عقله، نخوض في إنتاجه الذي بذل عمره فيه، (الموافقات) هو كتاب الشاطبي، الكتب الأخرى هي تدور حوله، الشاطبي هو (الموافقات)، وتعرفون (الاعتصام) لم يتمّه الشيخ، فنحن نخوض مع إمام من أئمتنا كبير من كبرائنا، كما ترون أنه رجل استوعب من قبله، أليس كذلك؟ هو وبنى وأظهر شخصه فيه، هذا واحد. الشيء الثاني أنكم ترون أننا نحاول جاهدين – لأن هذا الشيء جديد لا يدرس في المدارس ولا المعاهد ولم أعلمه من أحد–، فنحن نحاول أن نخرج الأصول من كونها إلى علوم كلامية إلى أنها علوم الحياة، نحن نمثل بأمثلة، وكذلك لنتعلم الأصول التي نحارب بها الزندقة المعاصرة، هذا ترونه، هذه هي الفوائد أنتم ترونها، لكن بلا شك أن هذه المقدمات هي مقدمات الأصول، فيها ما يعالج مشاكل عصر الإمام، ونحن نستخدمها لما يعالج مشاكلنا، قد يجد المرء فيها المشقة في هذا، لكن إن شاء الله فيها منفعة، ومع ذلك أنا أعتذر إذا كان الأخ لم أفهم سؤاله، فأنا على استعداد إن شاء الله، لكن هذا هو الذي فهمته وهذا الذي أجبته.

- *الأخ صلح أو عاد صياغة سؤاله، هو يقول بأن من قرأ (الموافقات) واستمع إلى الشرح عِلم أن كتب الفقه الجديدة المحدثة بأنها فقط تقدم المصطلحات...*

هذا قد تَقَدَّم الكلام عليه وهذا صحيح، فإن كتب المعاصرين وأشهرها كتاب الشيخ عبد الوهاب خلاف، ثم كتاب عبد الكريم زيدان (الوجيز في أصول الفقه)، وهكذا. هذه كتب فقط – كما قلت – تعرف ما معنى المصطلحات، لكن نحاول أن نخرج من هذا ليصبح هذا العلم علم الحياة، كما قلت وأقول دائما علما الحياة: أصول الفقه والحديث؛ تحتاجها في كل حياتك، ولذلك أنا أصررت في بداية الكلام أن علم الحديث وأصول الفقه مظهر عقل الأمة كما ترون.

وأنا أقول بأن مقدمة العلوم التي تكتب في أصول الفقه هي مقدمة علوم الحياة، هي تصلح لكل الحياة، وهكذا أرادها واضعوها، هم قالوا بأنها ليست لأصول الفقه فقط ولكن لعلوم الحياة كلها، وأسأل الله أن ينفعنا وإياكم.

ويا مشايخ إن وجدتم خطأ فقوّموني، وإن وجدتم ضعفاً فبيّنوا لنا، ولكن هذا هو جهد المقل، والحق أقول لكم بأنني أحاول أن لا أطرق ما هو مطروق، يعني الشيء المطروق والمبحوث في الكتب والذي يفيض فيه الناس، هذا موجود تستطيعون أن تسمعون الأشرطة، تقرؤون الكتب، ولكني أحاول جاهدًا أن أخرج عن هذا الأمر إلى غير ذلك، ثم ما يعده الناس عيباً من الاستطراد أنا أعدّه فضيلة، لأنه بهذا يكتشف طالب العلم اتصال علومنا، كيف أن هذه العلوم متصلة، كيف أن العقل واحد بالنسبة للعلوم، ينتجون بنفس المادة، بنفس المادة ينتجون فقها وأصولاً وتفسيراً ولغة، وتجد أن هذا الدين قد أنتج عقلاً كليًا بالنسبة للحياة كلها، ولذلك أنت تعجب لماذا الصحابي الجليل، لماذا أفاده القرآن – ليس هدايةً شرعية فقط–، لكن لماذا أفاده كذلك أحكاماً قَدَرِيّة، لماذا؟ أين العجز؟ أين نحن من هذا؟ لماذا؟ هذا السؤال عظيم هذا، لماذا أنتج الصحابي العظيم الذي فتح الدنيا وينتج عندنا فقط ألفاظ ومصطلحات تضيع الطالب، لماذا؟ لأن العلوم خرجت عن مسارها ولم تعد تذهب إلى ملكة الإنسان لتقويها هذا واحد. ثانياً، لماذا كانت علوم السلف تنشئ عابداً، تقياً، ذاكراً للدار الآخرة، وعامّة العلوم وكثير من العلوم التي دخل فيها العقل والكلام صارت تنتج عاهة، كلاً، كلاً على عالمنا، لماذا يأتي فيلسوف يُقال عنه الكثير – وهو الآمدي – ليكتب في الأصول؟ لماذا صار المعتزلي يكتب الأصول؟ هل لأن هذا العلم لا ينتج عابداً لا يُنتج تقياً؟ نحن نريد أن نحاول، نحارب أن نقدم هذا العلم لينتج إنساناً عدلاً، صحيحاً سليماً سوياً في إدراك الشرع وإدراك القَدَر، وكذلك تنشئ إنساناً عابداً خائفا من ربه ذاكرا للدار الآخرة، وهكذا، نحاول. ومع ذلك المسألة كبيرة، والقضية قد نصيب وقد نخطئ، قط نقطع واحد في المائة من الطريق، بل خطوة واحدة في مسافة الألف ميل، ومع ذلك حاولنا، يعني نسأل الله أن يكتبنا ممن يجتهدون؛ فالمجتهد في ديننا، المجتهد حتى لو أخطأ هو خير من المقلد الذي يصيب، واحد متعجب ويقول تعجيب، هل المقلد الذي يصيب أقل درجة من المجتهد المخطئ؟ الجواب نعم؛ لأن العلماء اتفقوا على هذه الأمور، وإن كان الحديث ضعيفاً رواه الترمذي وغيره: (مَن قال في القرآن بِرَأْيِهِ فأصاب فقد أخطأ)، لأنك، لأن هذا رجل قال في العلوم من غير بابها، ومثله من قال في العلوم من غير بابها –أي من هذا المعنى– من قال في العلوم من غير نظر، هو يقول الحق كذا، لماذا تقول الحق كذا؟ لأن فلان قال، هذا من غير بابها. كمن قال في القرآن بعقله ذهب إلى غير المورد، – المورد العقل هنا– ذهب إلى رأيه، إلى هوى، هذا غير المورد، كذلك ذهب إلى قول غيريه من غير دليل هذا من غير المورد فقد أخطأ، لكن، أخطأ. هنا الخطأ بمعنى الإثم، قد أثم.

ولكن المجتهد الذي يتقي ربه ويبذل وسعه في إصابة الحق ويأخذ الطريق من بابه فإنه يأخذ الأجر وإن أخطأ، وهكذا، نحن نحاول في هذا الأمر، وأنا أقول لكم بأن... إذا أردت هذا لعامة المسلمين كما ترون، ترون أن قادة بعض الجماعات لا يخرجون من كونهم محامين، من كونهم أطباء، لماذا؟ وتجدون من فيهم رجل دَرس الأصول ولا يسبق سبق المحامي ولا يسبق سبق الطبيب، وتجده متأخر، لماذا؟ هل العلة في الشرع الذي درسه أم العلة في أنه لم يدرس الشرع، أو أنه أتى الشرع من غير بابه؟ لماذا، لماذا يحق للطبيب والمفكّر.. وعامة من يشتغل في تحقيق كتب التراث من الأطباء، وعامة قادة الحركات من المحامين، هذا عجيب، عجيب.

وإذا جئنا للشيخ يقول هذا ليس من فنك، ليس هذا عشك يا حمامة فادرجي، هذا ليس من فنك، أنت عليك فقط أن تخطب الجمعة، على طريقة إذا دخلت الجمعة فاخلع عقلك عند حذائك وادخل اسمع للخطيب. وبالفعل هو؛ مرات تتعجب، تسمع محاضرة فتجد خطاباً ما، مبْنياً، يحاول أن يخاطب عقلك، ثم تُغير الموجة فإذا شيخ يتكلم، تشعر أن الكلام بدأ يخرج عن حد العقل إلى حد التسليم من غير وعي، من غير وعي، مشكلة هذا.

فنحن نريد أن نخرج من هذا، هذا من باب، وهو إصلاح العالَم بما فيه من قدرة. ولا يقول أحد من أنت حتى تصلح العالَم، أنا لا أصلح العالم، لا أحد يستطيع أن يصلح العالم، لكن يستطيع أي أحد أن يُشعل شمعة في الظلام، هذا واحد.

الشيء الثاني أن هناك طامة فيما يُسمّى بـ«التيار الجهادي» الذي إذا انتسبنا إليه أو لم ننتسب إليه، هذا قدرنا الذي نحن فيه، كما ترون نحن أودى بنا الجهل والكلام العام الذي يتقنه العامي، أودى بنا إلى المصائب والطامات، فكفى، علينا أن نضع، علينا أن نوقف هذا الأمر، وسببه الجهل، سببه الرئيس – أو الرئيسي، يصح الرئيس أو الرئيسي –، سببه الجهل.

وعامة ما رأيت أن الفساد يأتي من فساد الأصول، والذين دعوا الأُمَّة للاجتهاد، فتحوا باب الاجتهاد.. طيب أنت لما تقول لرجل عليك أن تسبح ألا تعطيه الآلة؟ ألا تعلمه؟ قالوا لهم اجتهدوا ولم يعطوهم آلة الاجتهاد، لم يُعرفوهم قبل أن يقولوا لهم اذهب إلى الكتاب والسُنّة؛ لتصل إلى الكتاب والسنة تحتاج إلى زمن، إلى آلة، آلة تكون بيدك

لتذهب إلى هذا الكنز العظيم لتستخرج منه. ماذا سماه علماؤنا؟ استنباط، نبط، تعرف النبط شو؟ الفلاحين في فلسطين يقول انبط يا ولدي انبط، ألا تسمعونها؟ يعني احفر. فالاستنباط الحفر، نعم هذا مصدرها: نبط، ضرب، حفر، اجتهاد، إعمال عقل، أنتم ترون نحن الآن نتكلم عن كلام العلماء.

والله يا إخوتي – وهذه أقولها دائمًا وربما يعني يذكرون أني قلتها قبل عدة أسابيع أو الأسبوع الفائت – والله إن وصلنا إلى مرتبة أن نفهم فقط كلام العلماء في هذا الزمن والله قد نجونا، فقط كلام العلماء، وأمّا هؤلاء الحمير – أعتذر –، والبقر الذين يسبون أئمتنا والله لا يفهمون كلامهم. لا تقولوا فهموه وردوا عليهم، الراد يعني فهم واستوعب وبنى عليه وانتفى عنه، الحق أنهم لا يفهمون كلام الأئمة ولا وجه استنباطهم، هم لا يعرفون شيئاً؛ فجاء من جاء وقال لنا اذهب إلى الكتاب والسُنّة. أين آلة النبط؟ أين هذا العقل؟ هذا العقل عند علمائنا غريزةٌ يا قوم، لا يوجد شيء اسمه عقل في ديننا، في الكتاب والسُنّة لا يوجد كلمة العقل أبدًا، وكل أحاديث العقل موضوعة، معروف من وضعها، ارجعوا إلى كتب الأحاديث تجدون: واضع أحاديث العقل فلان، معروف، فلا يوجد كلمة العقل. هناك فعل العقل: {يَعْقِلُوْنْ}، ذلك لأن العقل غريزة، ولا يملك علمًا ولا يملك حكماً، لا يملك العقل، العقل يملك الحكم وهو الميزان بما يوضع فيه العلوم، لماذا تحشي علوم ويُقَدِّم ويؤخِّر، لا بُدَّ تقوي غريزتك، غريزة، انتبهوا لكمة غريزة، وليس هو شيء مستقل ولا كلام يذكر عقل، لا يوجد شيء اسمه العقل، ما العقل؟ لكن يعقلون يستخدم عقله فيما وضع فيه، أو ما وضع له العقل.

القصد أننا جاءوا إلينا، وقالوا اذهب.. جاءوا وقذفوا الأُمَّة بكلماتٍ كبيرة، ليست دعوى التقليد، أترون، الناس فهموا إمّا أنك تدعوا إلى الاجتهاد أو أنك تدعوا إلى التقليد، هكذا وضُع الناس بين خياريين في ثنائية نكدة ظالمة.

هل ترون ندعو التقليد؟ هل ترون نأخذ كلامهم ولا نفهمه ولا نبني عليه؟ لكن أنت لا تفهم الكلام، فجاءوا وقالوا كلمة أحمد لعالِم، لا تقل بقول بفلان ولا بقول فلان واذهب للأحاديث وخذ من حيث أخذوا، هم الذي أخذوا، هؤلاء الذين أخذوها هكذا، جاءوا مثلنا؟ جاءوا من الشوارع؟ متربيين، واحد منهم لو قيل له مسألة في النحو تصدع رأسه وقال بعدني أنا أكره اللغة العربية، هذا هو الإنتاج، هذا الذي يدرس في المدارس، .... التوجيه عندنا

فيكون قد مر باللغة التي كرها ثم يأتي ويقول أن مجتهد في مسألة، أنا فقيه مسألة، وأنا آخذ من حيث أخذوا، سبحان الله.

أنت في دين الله وعلوم الآلة التي هي واجبة للاستنباط أنت كالأجنبي، هل يجوز أن يقال للإنجليزي اذهب، والذي لم يسمع للعربية قط، اذهب للقرآن والسُنّة فخذ من حيث أخذوا؟ نحن أسوأ منهم، نحن في فهمنا للعربية أسوأ، خذ من حيث أخذوا!!، فيأتون ويضربون لك أمثلة بالأحاديث التي قال عنها الإمام ابن عباس – وهناك وجه من التفسير لا يجهله أحد إذا خوطب به –: (فَإِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمْ الْمَسْجِدَ، فَلَا يَجْلِسْ حَتَّى يَرْكَعَ رَكْعَتَيْنِ)، مفهوم؟ مفهوم، خلاص، هذا هو دين الله. بالله عليكم هذا هو دين الله؟ هذا هو الفقه في دين الله؟ هذه هي المسألة؟ هذا هو الذي يسمى فقيه؟! ثم: (فَإِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمْ الْمَسْجِدَ، فَلَا يَجْلِسْ حَتَّى يَرْكَعَ رَكْعَتَيْنِ)، أليس فيها مسائل اجتهاد؟ طيب، إذا دخل في وقت النهي كيف يجمع بين هذا الأمر وبين هذا الأمر؟ أليس فيها خلاف؟ ألا يحتاج إلى أصول؟ ألا يحتاج إلى بحث؟ ألا يحتاج إلى حديث آخر ليعمله في هذا الوقت؟ كيف يعمله؟ فرموا الأمة، ولا يقل أحد لم يردها هؤلاء، نعم لم يردها، لكن الواقع أثبت أن رغم أنوفهم وقعوا فيها، فصار الجهلة يجتهدون، الجهلة اليوم يجتهدون في أعظم قضية وهي قضية الإيمان والكفر، القضية التي يتعلق بها القتال، تتعلق بها الدماء، تتعلق بها الفروج، وهذا كله، و مررت في هذه الحياة طويلة وقصيرة وقابلت ورأيت علة العلل هو الجهل في هذا الباب، وهو الجهل في أصول الفقه، لا أريد أن أقول أن الأُمَّة جيدة في علم الحديث، لا، كلهم يفتحون وتعرفون من أين يأخذون ويسرقون، تعرفون، والذي يفهمونه في علم الحديث هو مجرد أبجديات يعرفها أي أحد لو خوطب بها؛ لو أحضرت رجلاً منه الشارع لا يعرف من الدين، في أسبوع واحد يعرف من علم الحديث ومصطلحه كما يعرف هؤلاء، لا يزيد، فلذلك تعدوهم علماء حديث، ليس هذا بالعلم الهين، لكن الجهل الأكبر وجدت أنه ناشئ من الأصول، يعني معرفة مراتب الأدلة؛ لا يعرفون مراتب الأدلة، لا يعرفون دلالة الألفاظ، لا يعرفون هذا كيف يتعارض.

وهنا قريباً إن شاء الله، قريباً مائة في المائة الصفحة الأولى وأقل من الصفحة الأولى فقط سطرٌ واحد للإمام الشاطبي لو أردت أن تخوض فيه يستوعب الفقه كله، سطر واحد: كيف أن الفقه هو عالَم التناقضات، فيه تدخل عالم التناقضات تبحث عن رأس خيط لتسلكه، ثم كيف تفك الخيطان المتعارضة وتجمع الخيطان متوافقة وهكذا، واحد يقول صعبت المسألة علينا لأن الفقه سهل جداً، النبي –صلى الله عليه وسلم– خاطب الصحابة ففهموا، ماذا أقول؟

في على لساني كلمات كبيرة أخجل أن أقولها، خاطب **الصحابة، الصحابة،** خاطب من بلغوا في فهم الخطاب أعلى درجات الفهم في تاريخ البشرية لِما تنطق به ألسنتهم، هناك إجماعٌ عند أهل اللغة يا مشايخ، أن الذين نزل عليهم القرآن هم أعظم العرب فهماً لكلام العرب وقدرةً على معرفة جلاله وشريفه من ضعيفه وسقيمه، هذا أبو بكر وعمر، هذا العصر (الجيل)، أبو سفيان، أبو جهل، أبو لهب، هؤلاء هم أعظم العرب في تاريخ العرب جميعاً، أعظم العرب في قدرتهم على نقض كلام العرب، ثم يأتي يقول: النبي –صلى الله عليه وسلم- خاطب الصحابة، وهكذا، يعني تعجب، يتكلم وهو لا يعرف، وأشق العلوم اليوم عند طلاب المدارس الأكاديمية كما يسمونها هي ماذا؟ هو مفتاح العربية وهو النحو، النحو هو المفتاح الأول، يعني هناك درجات لتصل إلى أن تفهم وجه ما يقولون، ما تقوله العرب من البلاغة، وأول الباب ما هو؟ هو النحو، وهؤلاء لا يعرفونه، وهكذا، رأينا هؤلاء كما ترون أعجز ما يكون في أصول الفقه، أعجز ما يكون، لا يعرفون مراتب الأدلة، لا يعرفون دلالة الألفاظ، لا يعرفون كيف العمل المتناقضات، لا يعرفون.

والسبب أنهم هونوا الأمور بأن – انتبهوا – لهذه النقطة، أنهم هونوا العلوم، لا بتطويعها على أذهان السامعين والطلبة، ولكن هونوا العلوم بأن جعلوها مُهانة في قلوب وعقول طلبة العلم، هذا فرق، كما ترون، نحن نفسر الحمد لله، يعني حتى المبتدئ يستطيع أن يفهم الكلام، يراجعه مرة مرتين فيستطيع، لا أظن أن طالباً يسمع الكلام ويقل فهمه عن خمسين ستين فالمائة مهما بلغ، هم هونوا هذا العلم بتهوينه ليفهمه، لكن كيف هونوا من العلوم، كيف هونوها؟ بأن جعلوها مُهانة؛ هذا علم كلام، هذا كلام يا راجل للعقلاء، هذا كلام عقلي، ما هذا الكلام؟ وهكذا أسقطوا هذه العلوم بإهانتها في قلوب الطلبة ونفروهم؛ هذه كتب ألفها المتكلمون، وتعجب ممن يقول هذا ثم يمدح علماء الإسلام، وتعجب كيف هؤلاء يقرؤون ابن تيمية، مرحناش على واحد، مرحناش، مقلناش أعجب كيف يفهمون كلام، انتبهوا، لم نقل أعجب ممن يريد أن يفهم كلام الفخر الرازي في (المحصول)، ما قلنا هذا، قلنا لرجل -يعني هم يعظمونه-، أنا أعجب كيف يفهمون كلام ابن تيمية، أعجب، بالله عليكم كيف لرجل يسمى بطالب العلم لم يقرأ (إعلام الموقعين)؟ لم أرتفع، لم أقل (الرسالة)، ما قلت (المستصفى)، ما قلت هذه أصول، قلت فقط (إعلام الموقعين)، وهو كتاب فقط، أنا أعجب كيف هؤلاء، ولا تظنوا أن مجرد النقل لكلمة، فتح الكتاب، لا تظنوا هذا، أنا أعرفهم هؤلاء، أعرفهم، كنت أخاف منهم، لكن لما اكتشفتهم لم أعد ...، أنا كنت أخاف كيف؟ لا بأس أن أطيل لأن هذا من الحياة، كنت أخاف دائماً وفعلاً أرتجف، يكون قد زارني ضيف جديد، في هذا التنقل والحياة، شاب يدخل عليّ فيقول لي ماذا تقول يا شيخ في ما قاله ابن جرير الطبري، أنا لما أسمع هذه الكلمة أرتجف، أقول وقعت يا أبو قَتادة، انكشف كل

غطاءك الذي تتدثر به، هذا رجل قرأ ابن جرير ويسأل، يعني هو في الحقيقة بعد ذلك تكتشف، هو فقط فتح الإنترنت وجد هذه الجملة، مرت عليه الجملة هكذا، سمعها من شريط، وأنت تظن أنه مسكين أبحر في محيط ابن جرير من أوله إلى آخره، فجاء، فالحقيقة كنت أرتجف، بعد الخبرة اكتشفنا أن المسألة ليست كذلك، وهكذا.

إذا تظن أن أحداً يلتقط لك كلمة من الشاطبي فأعجبتك، فأنت تقول طالب، وهذا الذي جعل الناس يسمون أناساً في النت علماء، لأنهم نظروا إلى كلمة جميلة وهكذا، اذهب إليه قل له هذه الكلمة ما هي؟ لا تذهب إلى الكلمات الجميلة التي هي ثمرات منافع عامة، اذهب إلى قواعد العلم، اسأله عنه، اسأل هذا العالم عن هذه القواعد، امتحنه في هذا الباب الذي أراده العالم أن يكون في عقلك، هذا الذي نحن نحتاجه، هذا الذي ندرسه في هذا الأصول، وهو محاولة أن ننقذ أنفسنا، أن ننقذ إخواننا فيما وصلوا إليه، يعني هذا أمر بين واضح لمن مارس هذا الطريق واكتشف ما فيه من أخطاء، واكتشف ما فيه من بلاغة، نحن وصلنا إلى ما ووصلنا إليه بسبب الجهل، وبسبب إهانة كلام العلماء تهويناً من شأنها، وإذهالًا لطلب العلم عن النظر فيها وهكذا.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيراً والحمد لله رب العالمين.

- *الأخ يسأل عندنا هنا في الغرفة يقول: قولنا بأن مرجعنا الكتاب والسُنّة على الفهم الحالي خاطئ؟ يسأل يقول هل قولنا بأن المرجع القرآن والسُنّة على الفهم الحالي، قصده الفهم يعني على الطريقة التي يوقعها الناس...*

أقول له لا شك خاطئة، وأحسن الشيخ في السؤال، قوله خاطئة، لا أدري هل جاءت مجرى القَدَر، أم مجرى التفكُّر، لأن الخطأ هو يستدعي الإثم، لكن الخاطئ لا. الخطأ هو الإثم، خاطئة نعم، آثمة، هي خطأ وإثم، لا بُدَّ أن نقرأ الكتاب والسُنّة على طرائق العلماء، على أصولهم، لا بُدَّ أن نعرف الآلة وأن نتقوى بها لنذهب إلى الكتاب والسُنّة، علينا أن نصل قريباً من الآلة التي ملكها سلفنا حتى اهتدوا بالكتاب والسُنّة على الوجه الصحيح، على الوجه الصحيح، نعم، جزاك الله خير الجزاء.

- *هذا سؤال عجيب، وأتمنى ألا أُسأله قَط في حياتي ولا في هذه الجلسة لمن يريد أن يطلب العلم، سؤال الأخ يقول:*
هل تستطيع أن تجزم أن الإمام الشاطبي أخطأ في عدم إدخال مسألة الإباحة هل هي من التكلف أَم لا في تمثيله لقاعدة طرد الأجنبي عن هذا الفقه...

ما فيه جزم هذا، هذه توريطة، هذا توريط لي، وأنا متطفل على كتاب الشاطبي، ولكن الشاطبي له يد علي، أنا أعترف بهذا، الشاطبي مِمن، يعني أنا ولدت ولادات كثيرة كما يقال في الأدب، فأنا وُلدت إحدى ولاداتي من الشاطبي، أصولياً وُلدت، إحدى ولادات الأصول من الشاطبي، واستفدت منه كثيراً، وله مِنة علي، ولكن حين أخطئ كلاما هكذا فهمته، أخطئ ما فهمته من كلام الشاطبي، وهنا اعتراض.

الاعتراض الأول قد يكون فهمي خاطئاً، أنا خاطئ، قد يكون فهمي مخطئاً فيه، أو خطأ، وقد يكون الشاطبي، طبعه خطأ، للشاطبي كلام آخر، قد يكون الشاطبي وضعها لأمر، وهكذا، لا يوجد هذا الجزم، هذه في تخطئة العلماء، يعني لا أستطيع الإجابة، الله يسعدك، وارحمنا شوي، هذا السؤال يورد المهالك، والحق أن الشاطبي له حضور في القلب وعظمة، ولكني حتى هكذا هو علَّمنا، وهو يرد على العلماء، أنا أرد على ابن تيمية، ولي كتاب أرجو من الله أن أجده في مكتبتي كنت قد بدأت فيه وجمعت مادته وناقشت بعض المسائل انتهيت منها، وهو (الحوار مع الكبار)، كتاب قديم، منذ تقريباً من ستة عشر عاماً أو أكثر، وناقشت فيه كلام الأئمة تصويباً وتخطئةً، وأقول هذا جهدي، وناقشت فيه إمامي وسيدي، وهو سيد كل من درس الفقه وهو الشافعي –رحمه الله–، وخطّئته في مسائل، هل تقول، هل تجزم أنك مصيب أو هكذا؟ لا أجزم بشيء، أقول أنا أريد للتأليف أو للكلام مقاصد، ومن مقاصدي أن أدخل في سلك هؤلاء العلماء.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيراً وأظن أنه الآن قد بلغ الدرس غايته، بارك الله فيكم وجزاكم الله خيراً والحمد لله رب العالمين. وإذا كان للإخوة كلام آخر في غير الدرس، ننهي التسجيل، فلا بأس فالإخوة يقولون يريدون كلاماً آخر، فالإخوة عندنا وعندكم سواء، كلنا إخوة في هذا الأمر.

الدرس [١٢]

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله.

فهذا هو الدرس الثاني عشر من دروس شرح كتاب الإمام أبي إسحاق الشاطبي المعنون بـ(الموافقات). تفضل اقرأ.

"المقدمة الخامسة: كل مسألة لا ينبني عليها عمل فالخوض فيها خوض فيما لم يدل على استحسانه دليلٌ شرعي؛ وأعنى بالعمل عمل القلب وعمل الجوارح، من حيث هو مطلوب شرعا والدليل عن ذلك استقراء الشريعة فإنّا رأينا الشارع يعرض عما لا يفيد عملاً مكلفاً به، ففي القرآن الكريم {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ} فوقع الجواب بما يتعلق به العمل، إعراضا عما قصده السائل من السؤال عن الهلال، لما يبدو في أول الشهر دقيقاً كالخيط ثم يمتلئ حتى يصير بدرا ثم يعود إلى حالته الأولى، ثم قال: {ولَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا} بناء على تأويل من تأول على أن الآية كلها نزلت في هذا المعنى، فكان من جملة الجواب أن هذا السؤال في التمثيل إتيان للبيوت من ظهورها.

والبر إنما هو التقوى، لا العلم بهذه الأمور التي لا تفيد نفعا في التكليف ولا تجر إليه.

وقال تعالى بعد سؤالهم عن {الساعة أَيَّانَ مُرْسَاهَا}: {فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا}؛ أي إن السؤال عن هذا سؤال عما لا يعني، إذ يكفي من علمها أنه لا بد منها، ولذلك لما سُئل – عليه الصلاة والسلام – عن الساعة قال للسائل: ما أعددت لها؟، إعراضاً عن صريح سؤاله إلى ما يتعلق بها مما فيه فائدة، ولم يجبه عما سأل.

وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ} نزلت في رجل سأل من أبي، روي أنه ﷺ قام يوما يُعرف الغضب في وجهه فقال: لا تسألوني عن شيء إلا أنبأتكم، فقام رجل فقال: يا رسول الله من أبي؟ قال: أبوك حذافة، فنزلت. وفي الباب روايات أخر.

وقال ابن عباس في سؤال بنى إسرائيل عن صفات البقرة: "لو ذبحوا بقرة ما لأجزأتهم، ولكن شددوا فشدد الله عليهم."

هذه مقدمة قد يُتم بها المقدمة التي سبقت، لأن يريد الشيخ يريد أن يتمم بها المعنى الذي تقدم عندما قال بأن كل مسألة من مسائل الأصول لا يبنى عليها فرع فقهي أو أدب شرعي فإنها لا تكون من أصوله بل هي عارية عنه.

ثم أتى إلى أن هناك مسائل قد تبدو في الأصل فيها خلاف، لكن أهل الخلاف فيها لا يختلفون في فروعها، والآن أراد أن يتمم هذا الفضل وهذا البناء، فقال هذه المقدمة الجليلة العظيمة المهمة، وفتح لنا فيها أبواباً من العلم، فتح الشيخ أبو إسحاق -رحمه الله- لنا أبوابًا من العلم فيما يسمى بأدب العلم؛ وأدب العلم ليس متعلقاً فقط بالسائل، فإن أكثر من يتكلمون عن آداب العلم إنما يشرحون آداب المتعلم، والعالم له آداب كذلك، وهذا الذي سماه الذهبي -رحمه الله- بسياسة العلم، فإن العلم لا يُؤتي ثماره إلا بسياسة، وهذا الكلام قاله في ترجمة أبي مُحَمَّدٍ بن حزم، علي بن حزم، قال - معنى كلامه -: فإنه من العلم بمكان، لكنه لم يصب سياسة العلم، ولذلك هجر الناس كتابه، وعامله الناس بما عامل غيرهم؛ شن عليهم الحروب فشنوا عليه الحروب، وذلك لخطئه في سياسة العلم، فالعلم له سياسة.

وكثيرٌ من أهل العلم ماتوا ولم يستفد الناس من علومهم، ليس لأنهم أقل من غيرهم في العلم، لكن لخطئهم في سياسة العلم، واضح الكلام؟

وهذا ما سنذكره فيما يسميه السكّاكي في (مفتاح العلوم) يسميه بجواب الحكيم، يسميه - هذا الذي يتكلم عنه الشيخ هنا - يسميه السكّاكى صاحب (مفتاح العلوم) الذي شرح فيه علوم البلاغة، وهو من أفضل كتب علوم البلاغة، سمى هذا بجواب الحكيم، وهو يتعلق بالبديع، يتعلق بإحدى أقسام البلاغة وهو البديع.

هنا يقول: "كل مسألة لا ينبني عليها عمل"، إذاً لا بُدَّ لهذا المسائل التي يُبحث فيها، لا بد أن يكون المقصود فيها التعبّد. المقصود بالعمل ماذا؟ التعبد.

هناك مسائل لا ينبني عليها تعبّد، وكيف لو سأل سائل: - هنا مسألة مهمة - كيف يعرف طالب العلم المسائل التي يُبنى عليها التعبد - أو العمل كما سماه الشيخ هنا- والمسائل التي لا يُبنى عليها عمل أو تعبد؟ فالجواب هو: اعتناء الشرع بها؛ فإذا اعتنى الشارع بمسألة علمية دل هذا على أن الشارع أراد بها التعبّد، وقد يخطئ الناس في فهم هذا كثيرًا،

يخطئ الناس كيف؟ أولا: بأن هناك مسائل يظنونها من الشرع، وهي قد اعتنى بها الشارع ولكنهم حين يتفكّرون لا يجدون أي فائدة منها في مسألة التعبّد، وهذا خطأ.

مثلاً لو جاء واحد: ما فائدة أن نبحث عن الملائكة؟ ما فائدة اعتقادنا بالملائكة؟ وقد يأتي جاهل ويقول: بأن هذا فقط أمرنا الله به امتحاناً وابتلاءً، وهذه الكلمة لا أريد أن أسمعها على المعنى الذي يقوله الناس. هذه الكلمة لا أريد أن تخطر على بالك قطّ، وهي كلمة: أن الله يريد أن يبتلينا فقط للابتلاء لمجرّد الابتلاء دون وجود الحكمة الكامنة في الابتلاء، هذا فساد كبير.

وذلك كقولهم إن الله –عز وجل– ذكر أموراً في القرآن لا نعرف معناها، فلماذا ذكرت إذن؟ وقد أُمر: {لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ} ما معنى التدبّر؟ أول درجة من درجات التدبّر هو الفهم، هو أن تفهم المراد، وإلا لا يقع بعد ذلك ما وراء هذه الكلمة من معاني عظيمة عميقة.

فيقول لك: إنما ذكرها الله امتحاناً لنا، وهذا جهل، وإن قال به من قال، لا تقل لي: قال فلان، هذا غلط، العلماء الكبار والمحققون لا يقبلون هذا الكلام. لماذا وقع هذا؟ وقع ابتلاء وحكمة الابتلاء فقط، والامتحان لنا.

نحن الآن نتكلم في مسائل العلم وكذلك في مسائل العمل، ولكن هنا نحن نقرر مسائل العلم، لا يوجد مسألة من مسائل العلم ذُكرت لنا في كتاب ربّنا وفي سنة نبيّنا –صلى الله عليه وسلم– من أجل فقط مجرّد الابتلاء الذي لا حكمة وراءه في شيء، لا، لا يوجد.

ولذلك هنا نعود إلى مسألة مررنا عليها قليلاً عندما أحلناكم إلى كتاب (حجّة الله البالغة)، وقلنا بأن الشرع وراءه الأسرار والحِكم والمعاني، يُدركها من يدركها ويخطئها من يخطئها. أولا عليك أن تتعلم حكمة التكليف، هذا من الأمر المهم.

إذن نحن لا نعلم مسألة في كتاب ربّنا إلا ويترتب عليها منفعة في عبوديتك لله، لا يوجد، ولما ذكرت مرةً لإخواني قلت: لماذا حجب الله عنّا أسماءً له في عالم الغيب؟ قلنا هنا لماذا؟ والسبب هو؛ هي نافعة في عالم التعبّد الإلهي المطلق، ولكن هل هي نافعة في تعبّد الإنسان؟ الإنسان لا ينتفع بها في تعبّده، ولو خوطب بها لا يفهمها، ليس لأنها في عالَم العِلم المطلق غير نافعة، هذا لا يقوله أحد، ولكنّها لتعبدّنا نحن، لحال أجسامنا، لحال عقولنا لحال قلوبنا لا نستطيع أن نتعبّد بها، فالله حجبها عنّا، ولو كان فيها معنى من معاني التعبّد بالنسبة إلينا لذكرها الله.

ولو كان – هنا يأتي الكلام – ما قالوه صح – أي أن يتعبّدنا لمجرّد الابتلاء دون إدراك الحكمة ومعنى هذا الابتلاء –، لقال لنا هذه الأسماء وذكرها لنا، وقال: عليكم أن تعتقدوها ولا تفهمون معناها، واضح أيها المشايخ؟ واضح هذا الكلام؟

هذا ينبغي أن يكون في أذهاننا، الكثير يفعله اليوم، لا تدري، نعم، لا تعرفها إلى الآن، نعم، ربّما يقع الأمر من فعل ربّنا في قدر من أقداره، ربّما يقع على وجه من وجوه القدر لا يُعرف في الابتداء، لكنه يُدرك في الانتهاء، قد يقع هذا، أنت تتعجب، وهذا وقع كثيراً أن العالم لا يدري، يقول: لا بُدَّ لله في وراء ذلك حكمة، لكنه لا يعرفها لأنها مطوية في عالم الغيب، ثم إذا وقعت أدرك الناس حكمة الله فيها.

إذن أولاً: الأصل الذي يُعتنى به في علم الأصول هو ما ترتب عليه تعبد، رجعنا إلى ظلال هذه الكلمة فإذًا علينا أن نعلم، قلنا كيف نعرف أن هذا فيه تعبد وهذا ليس فيه تعبد؟ العبرة بما ذكره الشارع. ولذلك كانت علوم السلف أعظم قيمةً من علوم الخلف، كما قال بن رجب، وهذا عنوان كتابه: (تفضيل علم السلف على علم الخلف)، وذكر أول نكتة علمية في كتابه هي هذه المسألة، أن من دلائل هذه القاعدة – أن علم السلف أعظم – أنه أنتج تعبدا، لما علم السلف ما عندهم من علم ازدادوا تعبداً لله.

أنا هنا أنبه عن نقطة بعيدة الغور، وهي أن بعض أهل العلم – انتبهوا لهذه النقطة، مهمة جدًّا جدًّا –، أنا أتكلم عنها لأني أعرف مواطن الخطر والخطأ في عالم التصورات المعاصرة والقديمة، وهذا نحن نرث أرثا كبيرا، – وهذا تنبيه على ما قاله أبو حامد، بل لو قلت تخطئة لأبي حامد لكان صحيحًا، لكن لا نجرؤ أن نتكلم عن العلماء بهذا الكلام في مجلس علم

وفي حضرة كبار، لكنها تنبيه على ما قال -، لما جاء أبو حامد في مقدمة كتابه (إحياء علوم الدين)، قال بأننا رأينا الفقهاء والمتكلمين وأهل اللغة، رأيناهم أبعد في التعبد عما عليه من لا يعتني بهذا العلم، فعلينا أن نبحث عن العِلم الذي يُنشئ عابدًا متعبدا، وعلينا أن نقتصر على علوم الآخرة، وبهذا جعل هذه القسمة الموجودة إلى اليوم، قسمة ثلاثية، رباعية، عشرية، قل كما شئت، هذه الكلمة: "الفقيه لا يكون عابداً"، هذا ليس لأن الفقه لا يُنتج عابداً وبالتالي علينا أن نذهب إلى علم المواعظ لتنتج عابداً. لأن اليوم الناس كيف يفهمون؟ هذه كلها من إرث هذا الكلام، من الذي يُنشئ متعبدا اليوم؟ هي المواعظ في نفوس الناس، فإذا تكلمت عن القبر أنشأت عبادة، وإذا تكلمت عن الجنة أنشأت عبادة، لكن لو تكلمت عن أحكام المياه وطهارة المياه فإنها لا تنشئ عبادةً، هل هذا صحيح؟ هذا باطل، وذلك لأمور كثيرة جداً، أهمها أن الناس لا يفهمون أن هذا الأمر، حين يستحضِر المرء حكم الله فيه، فيعمله على أنه حكم الله، وحين يفعله تعبداً لله -عز وجل-، يُنشئ من معاني التعبُّد ربما ما يوازي - إن لم يكن أكثر - موعظة المرء بالآخرة وغيره وبعذاب القبر.

ولذلك لا يقال: الفقيه ماذا، انظروا إلى الفقهاء! هذا ليس لخطأ هذا العلم أنه لا يُنشئ تعبدا. هل الصلاة، لما يقول الله: {إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ}، فيأتي واحد ويقول: رأيت رجلاً مصلي فلم تنهه صلاته، ولذلك في الحديث الذي لا يصح - كما قال أهل العلم -: "من لم تنهه صلاته فلا صلاة له"، هذا حديث لا يصح، فحتى جعلوا الصلاة لا قيمة لها في النهي، مع أن القرآن يقرر أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، فلا بد أن نفهم هذا.

إذن كيف نفرق؟ هو هذا، الذي يجعل علم السلف أعظم لأنه يتعلق بما نحن فيه بالباب، وهو أنه أنشأ تعبّداً، وهذا هو سر العلم، وسر العلم قالوه كالتالي: "طلبنا العلم لغير الله، فأبى إلا أن يكون له"، قيل لأحمد: "أطلبت العلم لله؟" قال: "هذا عزيز" ليس هناك أحد، في الابتداء يُطلب العلم لأمور كثيرة، لكن العلم يجذبه، كما أن الصلاة تجذبه، ستنهاه وتأمره، كذلك العلم سيجذبه وينهاه ويأمره.

نرجع إلى الكلام، يقول أن القصد من أصول الفقه أن تُنشئ فقها، وهذا الفقه هو التعبد، فكل مسألة من مسائل الأصول لا تُنشئ هذا المعنى، فهي أجنبية عن هذا العلم، ثم لما شرح هذه الكلمة جاء إلى ما سماه السكّاكي - كما قلت

لكم -، سماه بجواب الحكيم، لماذا؟ أولاً: جواب الحكيم على مرتبتين: إمّا صرفُ السائل عن المهم إلى الأهم، ولا بُدَّ مِن أن يعود إلى المهم، واضح الكلام؟

هذه نحتاج أن نشرحها: هو صرف السائل عن المهم إلى الأهم، وهذا شرطه أن يعود إلى المهم، -أين دليله؟ في الكتاب، الآن نأتي إليه -، وإما صرف السائل عما لا علم فيه ولا أهمية فيه، إلى ما فيه أهمية أو ما فيه علم، هذا هو جواب الحكيم. الله لما قال في كتابه: {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ}، هم سألوا ماذا ينفقون فأرشد إلى المنفَق عليهم، فهذا صرفٌ من المهم إلى الأهم.

طيب، قد يقول القائل هل، وهذه لا بد أن تَنشأ، لا بُدَّ أن تنشأ في نفسك الأسئلة، لا بد، لا تخف، طالب العِلم لا يخاف من الأسئلة حتى لو جاءت من الشيطان، لا يخاف منها، العِلم لا يَهجُر مسائله إلا جاهل أو جبان، والعلم لا ينفع فيه إلا الاقتحام، اقتحم المسائل! كلما ازددتَ دخولا في عالم المسائل والجدل والنظر، كلما ازددتَ تعبدًّا وفهما وإدراكًا، لا تخف.

ولذلك أنا ذكرت في هذا الكتاب المفقود – الذي هو (فن القراءة) -، أنا أكره القراءة الطهرية، القراءة الطهرية هذه ابتعد عنها، ما هي القراءة الطهرية؟ ألا تقرأ إلا للمتدينين. لا يعني هذا أن تجلس عمن يسب الله ويسب رسول الله – صلى الله عليه وسلم-، ليس هذا، لكن الذين يطرحون المشكلات في الدين، أنت طالب علم، لا تخف، وأنت مع القرآن لا تخف، هذا القرآن كلما سألته سؤالَ المحاورِ كلما أعطاك العلم.

فلما قال الله: {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ}، فقد يسأل سائل: هل المنفَق عليهم أهمُّ من المنفَق؟ الجواب: لأن حال السائل كذلك: {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ}، حال السائل، إذا جاءك رجل وسألك ماذا أنفق، فأنت تعلم أنه – الحال يدُّل على – يريد أن يضبط إنفاقه، وإلا لو كان على حالٍ آخر لما سألك، ولما قال أنفقوا فهو ينفق كل شيء، ما عنده من المال يعرف أين يُنفقه، صحيح؟ لكنه يسأل عن الحد، وهذا الذي أجاب عليه القرآن بعد ذلك، هذا تمثيل لما تقدم من قولنا بأن جواب الحكيم هو: إذا سُئل عن المهم أن يتوجه إلى الأهم مع العودة إلى المهم، فلما كان السؤال على هذا المعنى، دَلَّه على ما ينبغي أن يُنفق

عليه، هذا جواب الحكيم، هذا الأهم، وحاله يدل عليه، أين تَمَّ الجواب؟ أين جاء المهم؟ في الآية التي بعدها: {وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ}، طيب ما العفو؟ أتعرفون أصل العفو ما هو؟ العفو هو شَعر الحمار، أصلُه، شعره، هذا هو، العفو هو ما زاد عن الحاجة، ومما لا يتعلق قلبك به، هناك آيات أخرى عن الإنفاق، نحن نعلم لماذا يسأل عن الإنفاق، علِمنا ما هو: {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ}، هنا كان جوابا آخر، وهذه مراتب القرآن، القرآن يأتي بك إلى العدل، ثم يصرِف أمرك إلى الإحسان، ويأتي بك إلى الواجب، ثم يأتي بك إلى ما هو فوق الواجب، وهكذا، فلما كان حالهم كذلك، أجابهم عن حالهم: {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ}، ماذا تنفقون؟ العفو. ما العفو؟ شيء زائد عندك ليست محتاجا إليه، أنفقه، وهذا لا تعلق للقلب به، فهذا هو المعنى.

وأمّا الجواب، وجواب الحكيم كذلك أن تزيده عما سأله، هو سألك عن سؤال وأنت تجيبه عن أكثر من ذلك.

ومِن ذلك: لما سأل الصحابةُ رسول الله –صلى الله عليه وسلم– عن الغزو في البحر أو ركوب البحر، فسألوا أنهم قد يقِّل الماء معهم، فماذا يفعلون؟ فأجابهم رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بأعظم مما سألوا، قال: (هو الطهور ماؤه)، هم ما سألوه عن الطعام، لكن هو قال ماذا؟ (الحل ميتته)، فأجابهم أكثر مما سألوا، هذا من جواب الحكيم، واضح الكلام؟

وهنا، إذا تأملتم كلام الشيخ أنه لم يأتِ بدليل – هذا سوف يهمنا في بناء الكتب وبناء المهمات العلمية اللازمة لطالب العلم، ويُعلمنا طرق فهْم العلماء للمسائل –، هل رأيتم الشيخ عرَّض لمسألةٍ أو دليل فيه الإجابة على سؤاله؟ ماذا قال؟ نرجع إليه، قال:

"والدليل على ذلك استقراء الشريعة"، طيب، ائتنا بدليل، على ما تَقَدَّم في قوله: "كل مسألة لا ينبني عليها عمل فالخوض فيها خوضٌ فيما لا يدل على استحسانه دليل شرعي"، هنا قوله: "استحسان" – قبل أن آتي إلى المسألة التي أردت أن أشرحها –، يدل على استحسانه، إذن هناك علمٌ جائز، وهناك علمٌ مستحب، وهناك علمٌ واجب، فالجائز ما هو؟ الجائز هو مما يتعلمه الناس من أمور الدنيا مما ينفعهم، فإذا تعين عليه طلب الرزق في هذا الباب، صار مستحباً أو واجباً، إلى آخره.

ولذلك من المباح أن تتعلم علوم الدنيا التي تنتفع بها، والتي تزداد بها معرفةً لأشياء في هذه الحياة، هذا لا بأس به، لكن هو يتكلم عن الاستحسان، ماذا قال في كلمته؟ قال: "فيما لا يدل على استحسانه دليل شرعي"، وشرحنا هذا، أننا علمنا الشيء المفيد من غير المفيد، وهو: وجود الشرع الدال عليه.

هنا نَبَّه إلى قضية مهمة، مع أنها ليست من أصول الفقه - وإن كان من الممكن أن ندخلها، سأبيّن هذا -، ماذا يقول؟

"وأعني بالعمل عمل القلب وعمل الجوارح، من حيث هو مطلوبٌ شرعاً"

هم يقولون أن عمل القلب، يتكلمون عن الاعتقاد، وهذا لا مدخل له في أصول الفقه؛ لأنه كلامٌ فيما يتعلق بالمسائل العلمية التصوريّة، واضح؟ ولكن، هل هنالك في الفقه مسائل لها تعلق فقط بعمل القلب؟ نعم، الشيخ حاضرةٌ في ذهنه، وقد تقدم الكلام عليها، وهو الذي سميناه بفقه النيات، الذي قال عنه العز بن عبد السلام -رحمه الله-: "ليت عالماً جلس للناس يعلمهم فقه النية"، فالنية فقه - من مسائل الفقه - وهي من مسائل الإرادات ومسائل القلب.

انظروا إليه هنا: **"والدليل على ذلك استقراء الشريعة، فإننا رأينا الشارع يُعرض عما لا يفيد عملاً مكلفاً به"**

إذن هو هذا الآن يقول: ولما جاء للأدلة، إنما بيَّن لنا أن الشارع - الأمثلة التي قرأها الشيخ في كتاب أبي إسحاق - يقول: أن الأمثلة دالةٌ على أن السائل سأل أمراً، فالشارع رده إلى أمر آخر، هذا المثال الثاني الذي لم نُفَصل فيه لأنه موجود، وهو أنه يأتي السائل فيسأل عما لا أهمية فيه - احنا ضربنا أمثلة في ماذا؟ فيما فيه أهمية -، ثم يجيبه عما هو الأهم، ثم يعود فيه إلى المهم، وضربنا مثالاً عما في جواب الحكيم، وهو أن يزيده في الجواب عما يلزمه، وبقيت الثالثة، الذي هو ترك ما لا فائدة فيه إلى ما فيه فائدة، وهذه هي أمثلة الشيخ، ودلت على المعنى الذي أراده، ما المعنى الذي أراده؟ قال: لما الشارع أعرض عنها كأنه، لماذا يجيبها؟ لماذا يجيبها؟ فلذلك، بإعراض الشارع عنها في الإجابة دل على أنها غير مفيدة.

نحاور؟ نشغل العقل؟ طيب، لماذا أجاب الشارع عن الثلاثة، لو قال قائل: ما فائدة سَوْق قصة أهل الكهف؟ فإن الناس سألوه، ما فائدة هذه القصة؟ هل فيها فوائد يا مشايخ؟

أحد الحضور:(...).

هذه فائدة، ولكنها هذه الثلاثة، والمهاجرين، وآيات قدرة الله، هذه مليئة، ولكننا، طيب.

ضرب لنا مثالاً في قوله: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ}، هذا إن صح هذا الحديث – ولا يصح، هذا الحديث الذي ذكره الشيخ لا يصح –، وهو أنهم سألوه عن الأهلة، معروف شو هي الأهلة؟ وهي حالة القمر، نعم. ولما – انتبهوا –، هل الأصل – هنا يأتينا سؤال –، هل الأصل المصدر أم الفعل؟ نحن نقول: "استهل"، أي بدأ، لماذا؟ لأنه أُخذ من بداية ما يظهر مِنَ الشهر – ما هو؟ الهلال –، فهل الأصل هو الاسم أم المصدر أم الفعل؟ هذا خلاف بين أهل اللغة، فالبصريون يرون أن الأصل هو المصدر، والكوفيون يرون أن الأصل هو الاسم، واضح؟

يعني هل الأصل هو: "بَقَرَ"، بمعنى بقَر هو فِعل الخَدّ في الأرض، الأخاديد، هذا بقر الشيء، بقر يعني خرق، فهل الأصل هذا أم الأصل هو كلمة "بقرة"؟ بقرة لأنها تبقر الأرض أم لأن البقرة تبقر الأرض أي تصنع فيها الأخاديد فأُخذ المصدر وهو "البَقْرُ" أي صناعة الخد في الأرض؟ واضح الكلام؟ هذا خلاف بينهم، هذا لا يتعلق بما نحن فيه. فهل الأصل "الهلال" أم الأصل "استهل"؟

ثم جاء عن الساعة، وهذا قال: {أَيَّانَ مُرْسَاهَا} قال: {فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا}، هل أنت، فيم أنت من ذكراها، أين أنت من ذكرى الدار الآخرة وذكرى القيامة؟ فيما أنت من ذكراها؟ فإنك إن تذكرتها عملت لها، لذلك قال في الحديث: (ماذا أعددت لها؟)، قال: متى الساعة؟ هذا لا يعلمه، فأجابه عما يعلمه وعما يهمه.

وكذلك عندما: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ} ومن ذلك يدخل، وهذا انتهى الآن، هذا الحديث انتهى أمره، وهو أن أشد الناس عذابًا يوم القيامة، رجلٌ سأل فحُرِّم الشيء لمسألته، هذا من أشد الناس عذابا، هذا انتهى الآن، هذا لا وجود له، لأن التشريع قد انتهى.

وثم ذكر لنا قول ابن عباس في قوله تعالى عن صفة البقرة، لأنهم أكثروا السؤال عن صفة البقرة وهذا من تعنتهم، فهم لو أنهم ذهبوا، لأنه قال: اذبحوا بقرة، والبقرة كلمة مطلقة، يصح دخول أي نوع من أنواعها، أو أي فرع من فروعها في المطلق، فلو فعلوا لأجزأتهم، فشددوا فشدد الله عليهم، طبعاً هذا الآن لا وجود له، انتهى هذا، هذا من العلم الذي انتهى، عليك أن تسأل وتتعلم لأن التشريع قد انتهى، التشريع قد تَمَّ وانتهى.

وهنا فائدة أذكرها دائمًا لكم: إن الله –عز وجل– ذكر لنا سبب طلبِ موسى –عليه السلام– لذبح البقرة آخر القصة لا أولها، والأصل أن تُذكر في الأول، لماذا؟ قال: لأنهم انتكسوا فنكّس اللهُ الخطاب لهم، واضح؟ هذا واحد، فلما كان حالهم منكوساً، جاء خطاب البقرة وذكرها منكوساً، هذا قول، وقول ثاني: لأن الله ذَكر القضية – أي قضية سؤال موسى لهم بالذبح –، وهو بيانُ تعنتهم، فلا يهم أن تعرف لماذا سألوا؟ انظر لماذا فعلوا. طيب، أنا كنت أريد ألا نكثر فيما يُكثر فيه من التمثيل، لكننا لا بأس، وهنا الشيء، عادةً قلنا: هل العلماء يذكرون للتمثيل أم للتفصيل؟ قلنا للتمثيل لا التفصيل، العلماء لا يفصّلون، للتمثيل لا للتفصيل.

"وهذا يُبيّن أن سؤالهم لم يكن فيه فائدة، وعلى هذا المعنى يجري الكلام في الآية قبلها عند من روى أن الآية نزلت فيمن سأل"

"الآية قبلها" يعني في ذكر هذا الكتاب، وليست الآية التي في القرآن، يعني: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ}، نعم.

"أحجنا هذا لعامنا أم للأبد؟ فقال ﷺ: للأبد، ولو قلت نعم لوجبت"

وقلنا هذا قد انتهى، لماذا؟ ختم التشريع.

"وفي بعض رواياته: فذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم أنبياءهم."

أيوا، لماذا؟ هل السؤال للعلم ممدوح أو مذموم؟ السؤال للعلم ممدوح، أن يسأل الواحد للتعلم ممدوح، ولكن كان سؤالُ من قبلنا لأنبيائهم على معنى التعنت، على ما وقع من الآية: يسألونه، يسألونه، يسألونه، لماذا؟ ليُعجزوه في السؤال

فيسقط التكليف، أو يعجزوه في السؤال فيشغلوه عما هو أهم، ولذلك نهى ربنا الصحابة أن يسألوه حتى لا يشغلوه، ولو أن النبي –صلى الله عليه وسلم– جالسٌ في بيته، فكل ثانية أو دقيقة يدخل عليه رجل يسأله، يشغلوه عن شأنه فيما ليس فيه أهمية، لكن لو دخل داخِلٌ عليه فسأله في أمر مهم، فإن النبي يمدح ذلك، وقد حدث كثيراً: لما دخلت عليه خولة في سؤالها عن الظِّهار، لما دخلت عليه زينب – زوجة عبد الله بن مسعود – فسألته ماذا تنفق، هل تعطي زوجها من الصدقة أم لا، وهكذا يدخلون.

لكن، تصوّروا أن هذا النبي العظيم، لو وقف الناس طوابير أمامه ليسألوه: من أبي؟ ضاعت لي ناقة فأين أجدها؟ اختلفت مع زوجتي فيما أعمل اليوم، فما هو الأفضل أن أعمل؟ وهكذا ترون، لو تعلمون ماذا يُسأل المشايخ لأدركتم أنه لو جاء نبيٌّ إلى أمة متعنتة أو جاهلة ماذا كان سيعاني.

"وإنما سؤالهم هنا زيادةٌ لا فائدة عمل فيها، لأنهم لو سكتوا لم يقفوا عن عمل فصار السؤال لا فائدة فيه، ومن هنا (نهى ﷺ عن قيل وقال وكثرة السؤال) لأنه مظنة السؤال عما لا يفيد. وقد سأله جبريل عن الساعة فقال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل"

الله أكبر، يعني هذا هو كذلك، ما المسؤول عنها بأعلم من السائل، هذه مما يُخطئه العلماء، وهو قول ابن عُمَر – رضي الله عنهما–: "إذا أخطأ العالِم لا أدري أصيبتْ مقاتله"، خلاص كثُرتْ أخطاؤه، يجب عليك ألا تنسى: لا أدري، لا أدري، لا أدري.

"فأخبره أن ليس عنده من ذلك علم، وذلك يُبيّن أن السؤال عنها لا يتعلق به تكليف"

أي السؤال عن ماذا؟ السؤال عن وقت الساعة

"ولما كان ينبني على ظهور أماراتها الحذر منها ومن الوقوع في الأفعال، التي هي أماراتها، والرجوع إلى الله عندها، أخبره بذلك، ثم ختم ﷺ ذلك الحديث بتعريف عمر أن جبريل أتاهم ليعلمهم دينهم"

السور التي فيها افتتاح ذكرِ أمر الساعة هي ثلاث: {اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ}، {أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ}، {اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ}، وهذه لا تُفهم إلا باجتماعها، ولكل واحدة منها فهم خاص، ومع اجتماعها يخرج فهمٌ عام، واضح الكلام؟ {اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ}، {اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ}، {أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ}، لماذا أتى أمر الله؟ وهنا قالوا جاء بصيغة الماضي للدلالة على المستقبل، وفي ذلك كلام ليس هذا وقته، وفي ذلك كلام، لا نقرهم عليه.

"فصحّ إذاً أن من جملة دينهم في فصل السؤال عن الساعة أنه مما لا يجب العلم به، أعني: علم زمان إتيانها؛ فليُتنبه لهذا المعنى في الحديث وفائدة سؤاله له عنها. وقال: إن أعظم الناس جرماً: من سأل عن شيء لم يحرم فحُرِم من أجل مسألته"

ولذلك كان النبي -صلى الله عليه وسلم- رحمةً لأُمّته، لا يتابِع على أمر مخافةَ الفرض، مخافة أن يُفرض عليهم، ولذلك ترك قيام رمضان في الليل جماعةً مخافة أن تُفرض عليهم، رحمةً بهذه الأُمَّة، ولذلك هو - بأبي هو وأمي - أرحم علينا من أنفسنا، أرحم علينا من أنفسنا على أنفسنا، عليه الصلاة والسلام.

"وهو ما نحن فيه، فإنه إذا لم يحرم، فما فائدة السؤال عنه، بالنسبة إلى العمل؟
وقرأ عمر بن الخطاب {وَفَاكِهَةً وَأَبًّا} وقال: هذه الفاكهة؛ فما الأَبّ؟ ثم قال: نُهينا عن التكلف"

وهنا أريد أن أقف وقفةً يسيرة، وهو أن السؤال الذي سأله عُمَر عن كيفية الأَبّ، مش هيك، متفقين؟ ما هو الأب؟ هو يعرف أنه من الثمار لأن هذا السياق، {وَفَاكِهَةً وَأَبًّا}، هو يعرف، ولكنه يسأل عن الكَيْف، ما هو؟ كيف هو؟ قال: هذا هو التكلف، إذن هو ليس من مهمات العلوم، وليس من ضرورياته، وليس من مستحباته، لا يهم. لماذا؟ لأن المقصود هو حصول الاعتبار، وهذا حاصلٌ عَلِم الأبَّ أو لم يعلمه.

فكيفيات الأشياء الكونية لها فائدةٌ فيما تقدم من مستحبات العلوم أو من جائزه، جائزة أو مستحبة، بحسب حال الرجل، لو أن الرجل مطلوب منه من جهة العلم أن يجيب عن كيفيات حدوث الأشياء، وأن هذا من باب رزقه أو من باب عمله، فيُستحب له، بل قد يتوجب عليه إذا طُلب منه ودُفع له الأجرة، وإذا لم يكن كذلك فهو جائز، من جائز

العلوم، فقال: هذا هو التكلف. هناك الكثير من الفوائد في كلمة عمر نقف هنا، لأن هذا مقصد الشيخ، نحن نعرج قليلا في، – هذا شيءٌ مهم – وهو الحفاظ على الخط الموصل لمراد الكاتب ومراد الجلسة، لكن هذا لا يعني ألا نميل يمينا وشمالا، فقد يقول هذا ميل عن الأصول، هو يريد المثال لهذا الأمر، لماذا تخرج هنا أو هنا؟ هذا كذلك من طرائق القرآن، لو أنك قرأت القرآن على هذا المعنى – وهذا بابٌ أسال الله –عز وجل– بأن يعيينا يوماً أن نشرحه –، هذا ما سميته في (صبغة الله الصمد)، سميته بـ«فتح الأقواس»، العلماء قديماً في علوم الباب يسمونه الاستطراد، وأنا هذه الكلمة ما رأيتها جيدة، بل رأيت بعض أهل العلم لا يحبها، يقول يستطرد، وكأن هناك زيادة، وأنا سميتها «فتح الأقواس»، تعرفون ما فتح الأقواس؟

هذا لا يمكن أن تفهم القرآن – لا يمكن، هذه قاعدة –، لا يمكن أن تفهم القرآن، وأن تتمتع به، وأن تعتبر بما يُذكر فيه حتى تفهم هذه القاعدة، ولا يمكن أن ترى الترابط في القرآن حتى تعرف هذا، بل في الحقيقة – أقولها –، بل لا يمكن أن تفهم شعر العرب حتى تفهم هذه القاعدة، وهي قاعدة فتح الأقواس.

تعرفون ما معنى فتح الأقواس؟ معناها أن القرآن يتكلم عن مسألة، وإن شاء الله في يوم من الأيام نحضر القرآن ونقرأ فيه وحينئذ تفهم. القرآن يفتتح الكلام عن مسألة، فتعرِض له مسألة – تريد أمثلة، هذا يحتاج درس أو لقاء –، القرآن يتكلم عن مسألةٍ هو يريد أن يُنشئها، وهي أصل القضية في هذه السورة، وهي أصل القضية في هذا السياق، فتأتي مسألة من المسائل، فيذهب إليها القرآن، وهذه المسألة قد تعرض مسألة أخرى، فيذهب إليها القرآن، وهذه المسألة قد تفتح مسألة فيذهب إليها القرآن، وأنت ترى كيف هذه الأمور، ثم يعود القرآن بك فجأةً الى القضية الأولى. فهمتم فتح الأقواس؟ هذا فتح الأقواس: القوس في داخله قوس، والقوس المفتوح في داخله قوس، وهكذا، هكذا تفهم القرآن، وهذا أمر مهم.

وأقول أنا ما يهمني هنا القرآن، الحديث ليس فيه هذا، لأن الحديث أصلاً تعرفون أنه من دلائل الحديث الضعيف والموضوع طول الحديث، الأحاديث الصحيحة أغلبها قصيرة، وهكذا لحرص الصحابة عليها، ولطريقة النبي –صلى الله عليه وسلم–، أما في القرآن، فإن هذه طريقة القرآن، وقد تقدم من الكلام أن القرآن جرى في أسلوبه مجرى كلام العرب، انتبه إليها هذه – مش هيك تقدمت هذه في الدرس الفائت –، يعنى أن القرآن جرى مجرى كلامهم، لا في نظمه ولكن

في أسلوبه، النظم مختلف، ليس على طرائق الشعر ولا طرائق الخطب ولا، وإنما النظم مختلف، وإنما هو جرى على مجرى عادتهم في سَوق الكلام ومجراه.

القصد بأن هذه المسألة مهمة، وأكرر أنك لا يمكن أن تفهم القرآن حتى تفهم هذه المسألة، الناس يتعجبون كيف هذا؟ لماذا خرج من هنا وقال هنا؟ هو يأتي إلى الكلمة فيريد أن يذهب فيها فيما يراد بيان عظيم فيها، وثم هذه تفتح في مسائل، ثم تعود إلى المسألة الأولى، وهذه هي طريقة القرآن، وهي طريقة الكبار من العلماء، وهذا الذي عابوه على شيخ الإسلام ابن تيمية، وهي طريقة القرآن. نعم يا مشايخ.

"وفى القرآن الكريم: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي}، وهذا بحسب الظاهر يفيد أنهم لم يُجابوا، وأن هذا مما لا يُحتاج إليه في التكليف"

هذه هنا وقع الخلاف فيها، ما المقصود بالروح المسؤول عنها؟ فالعلماء يتكلمون أن الروح هي التي هي قسيم البدن، أنا ذكرت هذه الكلمة حتى أعطيكم قاعدة وتكتبوها: **فإن قسيم الشيء ليس قِسمه**، فإن قسيم الشيء ليس جزءاً منه، هذه من قواعد أهل العلم، لذلك أنا قلت: فإن الروح ماذا؟ قسيم البدن. يعني ليست جزءاً منه وإنما تقابله، إذا سمعت كلمة «قسيم» ليست «قسم». فالعلماء على أن الروح هي قسيم البدن، يعنى شيءٌ آخر فيما تعلمون من أجزائه، أن الإنسان لا يكون إنسانًا حتى يكون له جسد وروح، فإذا انفصلا ولم يجتمعا ووُجد أحدهما لا يسمى إنسانًا، فهذا واحد.

الثاني، ابن القيم في كتابه (الروح) قال بأن الروح هنا لزوما هي جبريل، ولو أردنا أن نطبق القاعدة التي تقدمت – على شيء من التجوز، أنا الآن أبني، أنا الآن أقول: "تقدمت"، ستجدون الآن أني كثيرا ما أستخدم هذا الكلمة: "تقدمت"، أنا لا أريد أن أشرحها مرة أخرى، وبهذا تبني قليلًا قليلًا–، تقدمت القاعدة بأنه يجب أن تعلم – هذه قلناها يا مشايخ، وإلا نهمزكم –، قلنا: بأنه يجب معرفة الكلمة من خلال ما ساقه القرآن في هذه الكلمة، أليس كذلك؟ قاعدة في التفسير: عليك أن تعرف نَفَس القرآن في هذا الكلام، واضحة القاعدة؟ تقدمت.

قال ابن القيم: فإن كلمة الروح لم تُذكر في القرآن إلا على معنى جبريل –عليه السلام–، وقال: وهذا الأدعى – هذا كلامه وأنا أسوق كلامه – وهذا الأدعى لأنه عدوهم، كما تعلمون الآية في سورة البقرة: {مَن كَانَ عَدُوّاً لِّلَّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ}، من أجل ذلك سألوا، ولكن هذا الكلام أنا لا يستقيم عندي لأمور، ذكرتها في تفسير سورة الإسراء التي فيها هذه الآية، يُرجع إليها.

القصد أنه يقول: {قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي}، عندي أن الروح هي الروح قسيم للبدن، هذا الذي عندي وشرح ذلك يطول، ولكن السؤال: لماذا لم يجبهم؟ {قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي}، عندي أن السبب – وهذا أقتصر عليه هنا –، عندي أن السبب في ذلك أن المرء – أي الخلق، الإنسان – ليس عنده أدوات علم الروح، لأن المرء لا يَعرِف إلا بشيئين، كما قال – هذه لم نتكلم عنها ولو تكلمنها عنها لكان مفهوماً –، وهو أن المرء لا يدرك – الإدراك –، لا يدرك شيئاً إلا بأحد الأمرين: إما بالحد أو البرهان، مش هيك يقولون؟ ولذلك يقولون: العلم يُقسّم إلى تصديقات وتصورات، تصديقات تتعلق بالخبر، وتصورات تتعلق بالإنشاء، هكذا قالوا.

طيب، إذن أنت لا بُدَّ إمّا أن تعرف بالمثال، أو تعرف بالحد، يعنى التعريف، إمّا أن تعرف بالحد أو بالتمثيل – أن تمثل له –، وإمّا أن تعرف بالقياس، وكل ذلك لا يُنشئ فهما إلا بسبب تصورك له. طيب لو الروح، لا يوجد أدوات فهم هذه الروح، كيف ينشأ التصور في داخل العقل؟ كيف ينشأ؟ ليس عندك أدواته، ليس عندك مِسبار خبرتها، الذي يختبرها فيقول لك: هذا تعريفها: كذا وكذا، فينشأ التصور، هذه مثالها كذا، هذه قياسٌ على كذا، هذه قواعد العلم، هذه قواعد إدراك المعلوم، ولذلك الروح لا تصلح لهذه القواعد، ولذلك لم يجبهم عنها، والله تعالى أعلم.

"وروي أن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ملّوا ملة، فقالوا: يا رسول الله حدثنا فأنزل الله تعالى: {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا}، وهو كالنص في الرد عليهم فيما سألوا، وأنه لا ينبغي السؤال إلا فيما يفيد في التعبد لله، ثم ملو ملة، فقالوا حدثنا حديثاً فوق الحديث ودون القرآن، فنزلت سورة يوسف. انظر الحديث في فضائل القرآن لأبي عبيدة."

هناك علم جيد، يعرفه علماؤنا القدماء، وتوسع الناس فيه الآن من باب الوِراقة، تعرفون الوراقة؟ يعني شغل الوراق، يعني يتّكسبوا، الوراقة هذه بتكسب يعني يكتبون، واليوم من باب الوراقة.

وهو مصادر هنا – ولا بأس أن نكتشفها وأن نشير إليها – أن نقول: هذه من مصادر صاحب الكتاب في كتابه، من أين استقى الشيخ كتابه من معلومات، عرفتوا؟ هذا مصادر الكتاب، قديماً كانوا يعرفون وينظرون من أين أتى العالم بهذا الكلام، ما هي الكتب التي رجع إليها؟ واضح؟

وأنا أنبه على نقطة ذكرها الشيخ في (الاعتصام)، لا بأس، هذا كله من الاستطراد يا مشايخ؟ سموه استطرادا لا تسموه فتح أقواس، لأنه يستحق هذا الذي يعيب به الاستطراد، هذا الاستطراد لا يليق، الذين نفوا الاستطراد قالوا: القرآن ليس فيه استطراد لأن كلمة "استطراد" فيها شيءٌ زائد، القرآن ليس فيه هذه الكلمة، من أجل هذا نفوا، فهروباً من هذا الذي قالوه فتحنا الأقواس، هذا من الاستطراد، أين كنا؟ (الاعتصام)، نعم هنا مهمة جداً، في مقدمة (الاعتصام) ذكر الشيخ أبو إسحاق فائدة، قال: أن بعض الناس زعموا أنهم كتبوا كتبهم ولم يرجعوا إلى كتب أهل العلم، وظنوا أن هذا مدحاً لكتبهم، يعني، قال: هذا هو أفسد ما يقال في هذا الكتاب، يعني إذا العالم زعم أنه لم يأخذ كتابه من كتاب، وبناه على وجه الإبداع الذي لم يرجع فيه إلى كتاب، فهذا عجز في هذا الكتاب، وضعف وفساد في هذا الكتاب. لأن البعض يظنها مدحاً، يعني أنه لم يرجع، وهذه التي هو ابن بكارتها، هو الذي أتى بها، والشاطبي ينبه. جيدة؟ تسمى استطرادا أَم فتح أقواس؟

و لذلك قوله: ذكرها أبو عبيد في (فضائل القرآن)، فهذا من مصادره –مصادر الشيخ– وهو يعود إليه، يعود إلى هذا الكتاب (فضائل القرآن) لأبو عبيد القاسم بن سلّام –عليه رحمة الله–، هذا إمام قال أحمد ابن حنبل عنه: "الحق أحق أن يقال، هذا رجلٌ نحتاج إليه ولا يحتاج إلينا"، لأنه لما صنف أو ألف كتابه (الغريب) – أي غريب الحديث –، أخذه أحمد وأحبّه وأمر ابنه عبد الله بحفظه، لأن أبا عبيد إمامٌ في اللغة بلغ فيها شأواً لم يبلغه أحمد، وأحمد بلغ في الحديث مبلغًا أدرك أصلَه أبو عبيد، لا أقول بلغه أبو عبيد، أدرك أصله، يعني الأصل الذي عند أحمد موجود عند أبو عبيد، لكن الأصل الذي عند أبو عبيد في اللغة لم يدركه أحمد، لذلك هو أنصف، وهذا ليس من باب التواضع وغمط النفس، هذا من باب الحقيقة، أبو عبيد القاسم بن سلام هذا إمامٌ عظيم، وأعظم كتب هذا الرجل كتابان، الكتاب

الأول: (غريب الحديث)، وصنفه على وجه لم يُسبق إليه قط، وكل من جاء بعده صراع على منهجه ولا طريقته، والكتاب الثاني الذي انتشر هو كتاب (الأموال)، إيش الأموال؟ الذي يسمونه اليوم وزارة المالية، يعني مصادر الأموال في الدولة الإسلامية، مع أحكام الأموال للأفراد كالزكاة وغيرها، وله اختيارت جليلة، أبو عبيد في كتابه (الأموال) له اختيارات جليلة وعظيمة، وهذا، - ولا بأس أن أذكر هذا هنا -، وهذا كتاب (الأموال) هو أحد الكتب التي جعلتُها في مشروع: [ألف كتاب قبل الممات]، كتاب عظيم، أبو عبيد إمامٌ عظيم، ومن إنصافه أن الشافعي ناظره، واعترف أنه لم يفهم عن الشافعي، اختلفوا في مسألة دور مكة، هل يجوز بيعها وكرائها أو لا يجوز، فالشافعي شد عليه في الكلام، قال: "أنت الذي يزعم أهل خرسان أنك أعلمهم؟"، قال له كلاماً شديداً، ثم قال له: ألم تسمع قوله –صلى الله عليه وسلم-: (ما ترك لنا عَقيل من رِباع أو مال أو دار)؟ فقال أبو عبيد: "لم أفهم كلامه". هذه الجماعة، هذا أبو عبيد، إمام أهل اللغات عند أهل الحديث لا يفهم كلام الشافعي، ثم فهمها، ثم تناظرا في القُرء، أهو الحيض أم الطهر، فكان الشافعي يقول بأن القرء هو الحيض، فانقلب إلى مذهب أبي عبيد فقال: هو الطهر، وانقلب أبو عبيد بِأنْ غيَّر مذهبه بأنْ جعله من الطهر إلى الحيض.

طيب يا مشايخ، لا بأس، هذا استطراد - قال الطالب: هذا أقواس -، نعم، أقواس، متى ننهي هذا الكتاب على هذه الطرقة؟ أحد اليوم سألني: كم ستحتاج من الدروس؟ قلت له اتركها لأيامها، المهم جاء إلى قضية، هذا حديث يا مشايخ لا يصح، وذكره الحاكم في مستدركه كما هو موجود في بعض الروايات، ذكره الحاكم في مستدركه، ولا أريد أن أقف، ولكن قولهم: "ووافقه الذهبي"، وأنا قبل الدرس قلت للأحبة فائدة، لا بأس أن أعرج عليها، وهو أنه يجب على طالب العلم أن يعرف مرتبة الكتاب عند الكاتب، مرتبة الكتاب عند المؤلف، ماذا أراد به، فعامة ما يكتب طالب العلم في بدايته تدريباً وتمرينًا - نعم يا مشايخ؟ -، في بداية الطلب، يكتب كتابه تمريناً، يتمرن، والذهبي لما جاء إلى (مستدرك) الحاكم ليصحح، ليناقشه في تصحيحه، جاء متدرباً، ماذا وراء هذا الكلام؟ وراءه الكثير، نقف هنا. وهذا الحديث لا يصح، والصحابة لا يملون من كتاب الله، لا يقال هذا عنهم، ولا يقال: "حدثنا حديثاً فوق الحديث، ودون القرآن"، فهل سورة يوسف دون القرآن؟ الحديث لا يصح، لكن يكفي إلى هنا، لا نريد أن نطيل.

"وتأمّل خبر عُمَر بن الخطاب مع صبيغ في سؤاله الناس عن أشياء من القرآن لا ينبني عليها حكم تكليفي، وتأديب عُمَر –رضي الله عنه– له"

نعم، هذا واضح، أنه سأل أسئلة من أجل التعجيز والفتنة وما لا فائدة منه، فعالجه عُمَر بالعلم أَم بالضرب؟ بالضرب، وفي ذلك فوائد، ارجعوا إليها.

"وقد سأل ابن الكواء علي بن أبي طالب عن {وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا * فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا} [الذاريات: ١-٢] إلخ؛ فقال له علي: "ويلك، سل تفقها ولا تسأل تعنتاً"

هذه قاعدةٌ نحفظها: **سَل تفقهاً ولا تسأل تعنتاً**، تعنتاً، لها معاني كثيرة، من العنت وهي التعب، أي لا تسأل غيرك لتتعبه فيما لا فائدة منه، أو لا تتعنت في الذهاب إلى معاني لا فائدة منها.

"ثم أجابه؛ فقال له ابن الكواء: أفرأيت السواد الذي في القمر؟ فقال: "أعمى سأل عن عمياء"

لا يصح طبعا هذا الحديث، هي كلها أمورٌ قَدَرِيّة، وإذا أجاب عنها الصحابة أجابوا بما يعملون، إن لم يكن في القرآن، أجابوا بما يعلمون في وقتهم، ولا ينبغي أن تؤخذ على جهة المدح كما يفعل الجهلة، الجهلة الآن يجيبون في مسائل قدرية أن علماءهم وأئمتهم قد قالوها، ويكون العلم قد أبطلها، نعم.

"ثم أجابه، ثم سأله عن أشياء، وفي الحديث طول، وقد كان مالك بن أنس يكره الكلام فيما ليس تحته عمل، ويحكي كراهيته عمن تقدم"

نعم، هذه معروفة عنهم، وقد ذكرها أبو عمر بن عبد البر في (جامع بيان العلم وفضله)، وكراهية مالك ليس بما ليس تحته عمل، ويكفي إلى هنا، وجزاكم الله خيراً لأنه سيدخل في وجوه استحسان هذه القاعدة، ونسأل الله –عز وجل- أن يعيننا أن نغير الطريقة التي نشرح بها، حتى نمشي في الكتاب، على كل حال هذه في أول الأمر، ثم ستجدوننا نسرع إن شاء الله، فإنما نقطع الكتاب قطعاً وطياً.

أَسْئِلَـة

- شيخ تكلمت عن فصل العلم عن العبادة، كثير من القُرّاء ليسوا عُبّاداً، ما السبب؟

ليسوا عباداً؟ المطر، هو هذا هو الجواب، المطر، هل هو نافعٌ للزرع؟ نافع، هو سبب الزرع. طيب، إن سقط على أرض صماء، على صخرة، هل ينفع؟ {وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا}، ولذلك لا بُدَّ من وجود التنوع، لماذا؟ لماذا يقع التنوّع يا مشايخ؟ ليقع الابتلاء، نعم، التنوع حتى في أقدار الناس مع الشرع، ومع أقدار الناس مع أقدارهم، مراتب الناس مع أقدارهم، التنوع للابتلاء، تريدون شرحاً؟ يطول، التنوع من أجل الابتلاء، ولذلك يقع التنوّع، الأصل أن هذا العلم نافع كالماء للأرض، ينفعه في إنبات الزرع، فإنْ رأيت أحدًا لا ينتفع فإنما هو لشر فيه لا للعلم. العلم ينفع، ونفَع علماءنا، وكان الناس يطلبون الفقه، فيكونون عبادًا، وهذا هو شأن علمائنا قديمًا. وأمّا اليوم، فإنهم لا يطلبون، في الحقيقة، من قال لك أنهم عندهم علم؟ هم يعرفون آراءً، ويجلس الشيخ فيهم –كما نراهم –، يجلس الشيخ، فيُسأل فيجيب باستحسانه، وربما يجلس فلا يذكر حديثًا في مسألة فقهية، إذا ذكر في مسألة فقهية يقول: "الناس اختلفوا، وأنا أرجح كذا"، انتهى الموضوع، هل هذا علم؟ هذا ليس من العلم في شيء. وعلى كل حال، فلو وقع علم حقيقي – وقد يقع –، علم حقيقي، من كلام ربنا، من التفسير، من كلام الرسول –صلى الله عليه وسلم– مع الشروح، فلا ينتفع به، وذلك لأن قلبه لا ينتفع بهذا الغيث الرباني، كما لا تنتفع الأرض الصلبة بمطر السماء، هذا باختصار والله تعالى أعلم، نعم.

- شيخ، ما الدليل على أن لله أسماء لم يخبرنا بها؟

هذه مسألة خارجة عن الإطار، جيد، ولكن هو حديث: (اللهم إني عبدك وابن عبدك ناصيتي بيدك ماض في حكمك عدل على قضاءك اللهم إني أسأل بكل اسمٍ هو لك سميته نفسك أو أوحيته إلى أحدٍ من خلقك أو استأثرت به)، هذا الحديث ضعّفه ابن حزم، لأن فيه الوليد بن جمية، ويضعف هذا الرجل ابن حزم، وقد أخطأ، لأن هذا من رجال الإمام مسلم، وفيه المقال يسير لا يصل إلى رد الحديث، فلذلك ابن حزم ينفي أن يكون لله أسماءً غير التسعة والتسعين، مع أن الحديث لا يشير للتسعة والتسعين، فقط إلى تسعة وتسعين اسماً، (إن لله تسعة وتسعين اسماً)، لا على وجه الحصر ولكن على وجه بيان فضلها فيما يأتي، وهو قوله: (من أحصاها دخل الجنة)، فإن الله أخبرنا في الأسماء

أكثر من تسعة وتسعين، أخبرنا نحن أسماء أكثر من تسعة وتسعين، لكن الأسماء التسعة والتسعين هي التي فيها الفضل: من أحصاها، وهذا كلام بعض المحققين كشيخ الإسلام بن تيمية –رحمه الله–،تفضل.

- مسألة فتح الأقواس، اعطينا مثالاً عليها.

يسأل الشيخ ويقول: اعطنا مثالاً، اقرأ ما كتبته.

- من القرآن أقصد...

من القرآن، القرآن، لا بأس أنا أضرب مثالاً هو لما فيه من فائدة:

ما هي الوحدة الجامعة لسورة فصلت؟ هي مراتب الكافرين مع القرآن، {حم ۝ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}، الحديث عن هذا، واضح الكلام؟ وبعد ذلك يفتح الأقواس، تجد أن السورة من أولها إلى آخرها، هو حديث عن هذه القضية، حتى ينتهي: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ}، أي الكافرين، {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ}، فالحديث فقط عن هذا، القضية تلك، لماذا نجد أنه فيها قضايا أخرى؟ على قضية فتح الأقواس، يعني مثال: {حم ۝ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ}، هذه هي ثانية، {وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ}، إلى هذه الآية، وين رحت؟ لا بأس، {وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ}، الحديث عما يتعامل به الأعداء مع القرآن، {فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ۝ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ}، ما دخل قضية الاستقامة؟ هي فتح قوس لقضية ذُكرت وهي قوله تعالى: {وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ۝ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ}، هو رد على قولهم: {فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ۝ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ}، القضية ليست صراع، هم قالوا صراع بيننا وبينك، هم يقولون: هذا صراع بيننا وبينك، ماذا رد عليهم؟ بقوله: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ}، المسألة ليست صراعاً معي، هذا فتح قوس، هذه ليست قضية تتعلق بمراتبهم مثلاً.

قوله تعالى – انتبه –: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ}، هذا كله من باب فتح القوس، {وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ}، فتح قوسا داخل القوس، من هم المشركون؟ قوس داخل القوس، فتح قوساً جديد، من هم هؤلاء المشركون؟ فقال: {الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ}، وفتح قوساً جديداً، ليقابل

من؟ هذا قوس جديد، فتح لنا مَن يقابل هؤلاء المشركين، ماذا قال؟ {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ}، طيب، وهل نقول وين رجعنا على الصورة؟ رجعنا على القضية، لا أريد أن أرجعك على القضية، انظر إليه: {قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ}، كل هذا من الأقواس، ارجع عليها، حتى إذا جاء إلى قوله: {فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ}، كل هذا مِن الأقواس، مِن الذي يسميه البعض استطرادا، طيب، الآن يأتي إليها، وهكذا، تجد كلامًا، كله من هذا الذي تقدم، ثم يعود إلى قوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ}، انظر، صفحة ونصف من القرآن أو صفحتين، وهو من باب الاستطراد، ثم يأتي إلى قوله: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ}، ذهب بكلام – كما شرحنا –، ثم عاد إلى القضية الأولى، إلى المهيع الذي يريده، وهي قضية تعامل الكافرين مع القرآن، واضح الكلام؟ فقال: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ} – هذه مرتبة أخرى –، {لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ}، هذه مرتبة أخرى من مراتب الإعراض عن القرآن، طيب: {وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ}، قال:{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا}، هذا فتح أقواس وهكذا، يكفي هذا مثال، وهكذا، وإذا أردت أن ترى هذا كذلك بيناً فانظر إلى تفسير سورة العنكبوت، قد بينت فيها عمود القضية فيها، وهي الرد على الشبه النفسية، النفسية – انتبهوا –، القرآن أعظم ما يُعالِج: النفس، لأنه في الحقيقة، لماذا هذا؟ لأنه في الحقيقة، إن أعظم ما يعترض قبول القرآن هو النفس، وليس العقل، فإذا خاطب العقل خاطبه قليلاً بالأبجديات والبديهيات، لكن النفس أبوابُها ومساربُها طويلة، كثيرة. سورة العنكبوت تعالج شيئاً واحداً، وهي عوارض النفس المانعة من الهجرة، افتتحت بالابتداء {الم ۝ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا}، وهي من أولها إلى آخرها تعالج قضية الموانع والخوف من الهجرة، موانع النفس التي تعترض الهجرة في سبيل الله، ولذلك هنا وقع الاختلاف فيها في سورة الإسراء، أهي مكية أم مدنية؟ من نظر فيها يجد فيها نفساً مكياً، ومن نظر في ألفاظها وجد فيها ألفاظًا مدنية، فما التوفيق؟ الحقيقة أنها نزلت في المدينة لتعالج رجالاً من أهل مكة، وهذا بيّنته في التفسير، ارجعوا إليه، وهكذا.

القصد أن هذه القضية من أهم ما يجعلك متابعا لما يريده القرآن. انتبهوا يا إخوة، هذه قضية مهمة، إن كل كلمة قيلت في القرآن قيلت في الشعر العربي، أنا أقصد كلام أعداء القرآن، قالوها في الشعر، فزعموا أن الشعر العربي لا وحدة موضوعية فيه، وهذا قالوه في القرآن، لماذا؟ لأن أسلوب القرآن هو أسلوب مجرى كلام العرب، فهم لم يفهموا طرائق العرب في الكلام، فلم يفهموا كلام القرآن، لم يفهموا طرائق القرآن، هكذا...

- الكثير يظن أنه بعض الأمور الحكمة منها فقط ابتلاء: {وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ}

يسأل أخوكم - لمن لا يسمع - يسأل: لما قلت أيها الشيخ -طبعًا المقصود به صاحب أقواس-، لما قلت أنني نفيت أن يكون مجرد الابتلاء بلا حكمة، بلا حكمة علمية، وبلا حكمة عملية، فلا وجود لهذا، يجب عليك أن تذهب أبعد من هذا، قد يقف المرء على شاطيها، على شاطئها، أنا (...) كلامي، وأنا خلاص أُسلم، لم أفهم وأنا أسلم، هذا هل يقع فيه أحد؟ يقع، يقول لا أدري، ولكن أنا أسلم لربي، ولكن الذي هو أعلى منه هو من؟ هو من يبحث وراء ذلك مِن حكم، فقال: كيف نجمع بين هذا القول، وقوله تعالى: {وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ}، هذه أعظم حكمة، لكن أليس فيها حكم أخرى؟ لماذا كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يتوجه إلى بيت المقدس ثم توجه إلى مكة، لماذا؟ أليس في ذلك حكم؟ العلماء ذكروها، ارجع إلى هدي ابن القيم، تجد فيه هذه المعاني، هذا مذكور كثيراً، نعم.

ولا شكَّ أنه لو قال قائل: هل هذه أعظم حكمة؟ لقيل لك إن أمرها كأمر قوله -صلى الله عليه وسلم-: (نِعم الإدام الخل)، تعرف ماذا قال أهل العلم؟ هل الخل هو أعظم إدام؟ أو هو نِعم الإدام في كل حال؟ لا، ماذا قال أهل العلم؟ ابن القيم ماذا قال؟ نعم الإدام عندما خلا كل إدام، واضح؟ عندما خلا كل إدام - لا يوجد غيره -، فنعم الإدام، لكن هو قطعاً ليس خيراً من غيره من الطعام، صحيح؟ وهكذا كذلك.

فلما كان إعراض الناس عن قضية تحويل القبلة، والكلام عليها وما حدث فيها من فتن، كان الجواب عليه، وذلك ليس لأنها أعظم الحكم، ولكن لأنها الموافقة للحال الذي نزلت عليهم هذه السورة، واضح الكلام؟ تفضلوا يا مشايخ.

طيب الآن نسمع لإخواننا إذا عندهم أسئلة في الغرفة، اتفضلوا يا مشايخ، اتفضل يا شيخ مشتاق، الميكروفون لك.

يسأل الأخ يقول:

فيما قرأه الشيخ أبو عمر - هو قال - في قوله تعالى {وَفَاكِهَةً وَأَبًّا}، في قول الفاروق -رضي الله عنه- هذه الفاكهة فما الأَب؟ فقال هذا التكلف، هل سؤال المرء في كتاب الله عن شيء قرأه لم يفد حلاً وتحريماً أو لم يفد عبرة واعتباراً، - وهذه رائعة منه، من السائل -، وإن حاول الشيخ مشتاق أن يبتعد عنها، وهذه كلمة، أنه ربما يُذكر الشيء

من الأمر للاعتبار وليس فقط للحل والحرمة، وهذا أكثر في القرآن، الأكثر في القرآن هو الاعتبار، أكثر من الحل والحرمة، مع أننا نقول بأن قولهم: "آيات الأحكام في القرآن"، هذا لا ينبغي أن يكون على هذا الوجه الذي قالوه، واضح الكلام؟ فإن القرآن حتى الأخبار فيها أحكام، والقرآن كله أحكام، كل القرآن أحكام، من أوله إلى آخره، حتى قصص القرآن عن السابقين فيه أحكام، هذه ننتهي منها، أما إذا أردتم شرحها فلها مكان آخر، فلذلك كلمة الاعتبار رائعة منه، فقال:

هل هذا من التكلف؟

الحق أنني قلت – لو رجعتم إلى الكلام ودققتم – قلت ومن التكلف أن ينشغل المرء بما هو علم جائز أو مستحب عما هو واجب، ولذلك أنا أعتقد أن هذه المرتبة التي وسعت عمر في هذه المسألة، التكلف، لم يقل أنها ليس فيها فائدة، لكنها انشغال عما يجب عليه، عما لا ينتفع به في حياته، في زمانه، فيما تلزمه هو، لكن لو كانت لغيره لكان في ذلك بحث، هذا هو الجواب باختصار والله تعالى أعلم وجزاكم الله خيرًا، والحمد لله رب العالمين والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الدرس [١٣]

هذا هو الدرس الثالث عشر من دروس شرح كتاب الإمام أبو إسحاق الشاطبي، المعنون بـ(الموافقات)، أو (عنوان التعريف في أسرار التكليف)، وكلاهما اسم رائع جميل وله مقصده، كما تكلمنا سابقا، تفضل يا شيخ.

"وقد كان مالك بن أنس يكره الكلام فيما ليس تحته عمل، ويحكي كراهيته عمن تقدم.

وبيان عدم الاستحسان فيه من أوجه متعددة: منها: أنه شغل عما يعني من أمر التكليف الذي طوقه المكلف بما لا يعني، إذ لا ينبني على ذلك فائدة؛ لا في الدنيا، ولا في الآخرة، أمّا في الآخرة؛ فإنه يسأل عما أمر به أو نهي عنه، وأما في الدنيا؛ فإن علمه بما علم من ذلك لا يزيده في تدبير رزقه ولا ينقصه، وأمّا اللذة الحاصلة منه في الحال؛ فلا تفي مشقة اكتسابها وتعب طلبها بلذة حصولها، وإن فرض أن فيه فائدة في الدنيا؛ فمن شرط كونها فائدة شهادة الشرع لها بذلك، وكم من لذة وفائدة يعدها الإنسان كذلك وليست في أحكام الشرع إلا على الضد؛ كالزنى، وشرب الخمر، وسائر وجوه الفسق، والمعاصي التي يتعلق بها غرض عاجل، فإذا قطع الزمان فيما لا يجني ثمرة في الدارين، مع تعطيل ما يجني الثمرة من فعل ما لا ينبغي"

في الحقيقة، أولاً جزاك الله خيرًا، نقول وبالله التوفيق أن القراءة بهذه الطريقة التي سنشير فيها، ربما ينقطع وقت طويل حتى ننتهي من الكتاب، ولذلك أنا أصر على أن هذه المقدمات لا بُدَّ أن تُقرأ كاملة، لأننا لو أتممناها شرحًا سليمًا وافيًا تامًا، لشكلت هذه المقدمات مع الشرح الذي يُنَوه به في هذه الجلسات، لصار عند طالب العلم الكثير من الخير، والكثير من القواعد التي يحتاج إليها، نعم هذا الكتاب تعرفون أنه ليس على طريقة المتون التي تُختصر، فتقرأ كل كلمة مع دلالتها، وما يمكن التوسع فيها بعد ذلك، فهذا كتاب آخر، له مزاج آخر، له صناعة أخرى في كتب الأصول، ولذلك لا بُدَّ أن نقف عند هذه المقدمات، لا بأس، نشرح هذه المقدمات مع قراءة تامة، ثم إذا جئنا بعد ذلك إلى الأبحاث أو الكتب التي ضمنها الإمام هذا الكتاب، ومع ما تقدم الكلام عليها، وهي الأحكام والمقاصد والأدلة والاجتهاد، فربما نقف فقط عند رؤوس المسائل، واضح الكلام؟ وهذا يحتاج من طالب العلم أن يقرأ بنفسه، فإذا عرض له عارض من عدم فهمٍ، أو من اعتراض، أو ما شابه ذلك بيَّناه.

هذه الكلمة التي قالها الشاطبي من قواعد العلوم، هذه التي قرأها أبو عمر، وهو أن الشغل عما يعني من المكلف، الذي طوقه المكلف بما لا يعني، أي لا يفيد، قال: (دع ما يريبك إلا ما لا يريبك)، وعلى قاعدة أن الذي ينبغي أن يُتوجه إليه هو ما فيه نفعٌ في الدنيا والآخرة.

هنا كلمة رائعة نريد أن ننبه عليها – نَبّه عليها الشاطبي، وأُنبّه عليها –، وهي أن في مطلق العلم لذة، واضح يا مشايخ؟ وهو يقول بأن هذه اللذة ليست هي التي تحكم على العلوم بالاستحباب والوجوب وغير ذلك. لكن العلوم كلها لها لذة، لماذا؟ لأسباب متعددة، منها أن النفس البشرية مجبولة على التشوف، لماذا لذة؟ لماذا تستلذ النفوس بالعلم؟

أولًا: لأن هذا يوافق فطرة هذه النفس، فالنفس مفطورة على محبة العلوم، هذا واحد.

الشيء الثاني: لأنه في العلم إجابة فطرة المرء بالتملك. المرء يحب التملك، والنفس تعلم أن أعظم ما يملكه المرء في هذه الدنيا هو العلم، فإذا ملكته ارتاحت.

ثالثًا: لأن – وهذا كثير –، الثالثة هي أغلب ما يُبحث فيه، وهو أن كثيرًا من العلوم، بل إن أغلب العلوم فيها جُموح، فيها شِماس، فإذا ملكها المرء شعر بأنه سيطر على هذا الشُّموس وهذه الجماح، واضح يا مشايخ؟ تقدم الكلام عن هذه النقطة، العلوم فيها شماس، تأبى أن تأتي إليك وأنت نائم، ولا تذل نفسها، هي كالعروس لا يمكن أن تأتي صاحبها إلا أن يبذل لها الثمين، ويبذل لها الكثير، فإذا بذل لها، ذلت له. فالمرء عندما يملك هذه الشموس وهذا الجامح يشعر بالفرح، وهذه لذة عظيمة، ولذلك أيها الإخوة، إن كثيرًا من العلوم التي يحبها المرء، إنما أحبها لأنها صعُبت عليه في الابتداء، وهذا الذي تكلم عنه الشاطبي في المقدمة، لا تنسوه، المرء عندما يسمع شيئا لا يفهمه ويستعصي عليه إدراك مراده، فيبذل له، ويبذل، ويبذل، ويصبح، وإذا كانت له نفس أبية، وصاحبة همة عالية – وشرطُ هذه النفس – لطالب العلم – أن تكون صاحبة همة عالية –، فإذا كانت كذلك ركضت إلى العلم، وهي تركض إليه لتُذلله، بعد أن تذلله تشعر بالفرح ويصبح هناك لذة، اللذة لأنها أتته على استعصاء، كما قلنا على جموح وشماس، وهذا مما يصنع لذة في العلم، وهذا هو بداية العلم، العلم يبدأ بلذة. وقد تقدم الكلام عن كلمة أحمد –رحمه الله–:

"شيء وجدناه في نفوسنا"، عندما سألوه: طلبتم الحديث مع الإخلاص؟ قال: "هذا عزيز، شيء وجدناه في نفوسنا"، إيش يعني؟ لذة. وهذه قسمة الله —عز وجل– في أقداره، يقسم للناس حب المال، يقسم للناس حب النساء، وهكذا، وبعضهم يقسم الله له في فطرته حب العلم، ولا ضرورة لأن نتحدث بعد ذلك عن الأحاديث الكثيرة من قضية البذل لهذا العلم، لهذا الشيء العظيم.

عادة تنشأ اللذة بالموافقة، كالحب، ما هو الحب؟ الحب هو الموافقة، لا يمكن أن يحب المرء شيئًا حتى يكون بينه وبين هذا الشيء موافقة، الحب هو الموافقة، ولذلك قال –صلى الله عليه وسلم–: (الأرواح جنود مجندة فما تعارف – التعارف هو الموافقة – منها ائتلف وما تنافر منها اختلف)، لا يعرفها، لا يجدها في نفسه، ولذلك شرط الحب الموافقة، قيل لرجل: فلان يحبك، قال: ما أحبني إلا لشر فيّ، رجل سيء كيف يحبني وهو سيقال أحبني لشر في. القصد؛ هذه انتهينا منها، إذًا المطلق العلمي يورث اللذة، أي علم يورث اللذة، ولكن هذه اللذّة عند علمائنا ليست هي الحاكمة على الأشياء، ولذلك مذهب اللذة في ديننا مذهب باطل. هناك مذهب إنساني يسمى بمذهب اللذة وهو – أي هذا المذهب – يرى أن التحسين والتقبيح معلق، ومناطه اللذة، فما حقق اللذة فهو حسن، وهذا الذي أنشأ ما يسمى باللامنتمي، أنشأ الإنسان الهيبيز، أنشأ الإنسان البهيمي، أنشأ الإنسان الغربي الذي ترونه، أنه ما حصَّل له اللذة فهو حسن، ومالم يحصل له اللذة فهو قبيح، فهو مذهب باطل لا يرضاه الإسلام. الإسلام معيار الحق والباطل فيه هو الدار الآخرة، المعيار الأول للحق والباطل هو الدار الآخرة، والدار الآخرة تتعلق بما يحب الله وما يكره.

فإذًا الشرع عندنا هو تحسين ما أحبه الله، وقبح ما كره الله، **هذا واحد**.

الشيء الثاني في هذا الذي يقوله الشيخ في هذا الباب، أن الشرع لا يعني أنه يناقض هذا الذي قلناه، أن الشرع لا يعني أنه يناقض اللذة، فقد يأتي الشيء باللذة، وقد يأتي الشيء بغير اللذة، اللذة ليست هي مقصوده، فقد تكون تبعًا كما هو شأن اللذة في النكاح، كما هو شأن اللذة في الجهاد، –رغم الناس، هكذا لذته الجهاد كما كان لذة خالد —رضي الله عنه–، لكنه لا يعني ما نقوله أنه حيثما وُجدت اللذة وجد النهي، لا، ليس كذلك، حيثما وُجد حب الله ومقصد الشارع فهو الحسن، وحيثما تخلف ذلك فهو القبيح، بحسب درجاته: الكراهة أو التحريم، هذه مهمة، ولذلك لا ينبغي تعليق الأمر على اللذة.

هنا تأتي مسألة يا مشايخ، مسألة مهمة، ولا أريد أن أعرض لها هنا، تراجعونها في كتاب (قواعد الأحكام) للشيخ العز بن عبد السلام، وهي قاعدة «المشقة مع التكليف»، فهل للمشقة اعتبار عند الشارع؟ هناك من يقول نعم، أن المشقة مقصودة للشارع ويحتجون بكلمة عائشة –رضي الله عنها–: "أحب الأعمال إلى الله أحمزها"، ويحتجون بقاعدة: "الأجر على قدر المشقة"، والعلماء لا يرون هذا، ويقولون بأنه قد وردت أجور عظيمة على أعمال ليس فيها مشقة: (كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم)، هذا احتج به العز بن عبد السلام، فأين المشقة؟ فقالوا: هذا الصواب، الصواب أن المشقة ليست مقصودة للشارع، وقد تكون وقد تتخلف، وليست المشقة مقصودة للشارع.

إذًا هنا الشيخ، نرجع إلى مقصد الشيخ، هذا كله على هوامش الكلام، أنا ألاحظ في الشروح أننا مراتٍ نستغرق في الهوامش ولا نذهب إلى مقصد الشيخ في الكتاب، ولأنه في الحقيقة كلام الشيخ واضح، ولكن نحن نعرج على غيره. ولذلك لما جاء إلى الموضوع – وهو المهم –، وقال: – لأن هذا البحث ما زال تحت القاعدة التي تقدمت وهي المقدمة الخامسة، وهي التي تقول أن الاشتغال بالمباحث النظرية التي ليس لها ثمرة عملية هذا مذموم شرعا، هذه قاعدته، تقدمت –، فقال بأن هناك من العلوم ما يحصل به اللذة ولكن لا يحصل بها النفع، فهذه ليس لها فائدة لا في الدنيا ولا في الآخرة، وبالتالي غير مقصودة للشارع، طيب.

هنا فقط يعني يقول: وكم من لذة وفائدة يعدها الإنسان كذلك، وليست في أحكام الشرع إلا على الضد، ولو قيل له: هناك من الأعمال الصالحة ما فيه لذة، لكان. فدلَّ على أن اللذة ليست معيارًا، لا بالتحسين ولا بالتقبيح، فقد توجد مع مراد الشارع وقد تتخلف، تفضل يا شيخ.

"ومنها: أن الشرع قد جاء ببيان ما تصلح به أحوال العبد في الدنيا والآخرة على أتم الوجوه وأكملها، فما خرج عن ذلك قد يظن أنه على خلاف ذلك، وهو مشاهد في التجربة العادية؛ فإن عامة المشتغلين بالعلوم التي لا تتعلق بها ثمرة تكليفية تدخل عليهم فيها الفتنة والخروج عن الصراط المستقيم، ويثور بينهم الخلاف والنزاع المؤدي إلى التقاطع والتدابر والتعصب، حتى تفرقوا شيعا، وإذا فعلوا ذلك خرجوا عن السُنّة، ولم يكن أصل

التفرق إلا بهذا السبب، حيث تركوا الاقتصار من العلم على ما يعني، وخرجوا إلى ما لا يعني؛ فذلك فتنة على المتعلم والعالم، وإعراض الشارع – مع حصول السؤال – عن الجواب من أوضح الأدلة على أن اتباع مثله من العلم فتنة أو تعطيل للزمان في غير تحصيل"

هنا الشيخ جاء إلى الوجه الأول وبيَّن العبرة بما فيه فائدة، وقال بأن هناك من العلوم ما ليس فيه فائدة، إلا مجرد حصول اللذة، فلذلك هي غير معتبرة، هكذا قال، وقد صحَّ كلامه –رحمه الله–، ثم جاء هنا –فيما قال وتكلم – إلى واقع المشتغلين بالعلوم التي لا أهمية لها في الشرع، ولم يقم لها الشرع اعتبارا.

واضح أن كلام الشيخ أبي إسحاق هنا عن الفلاسفة، هذا كلامه عن الفلاسفة بأن هؤلاء اشتغلوا في علومٍ لم يأت بها الشارع، أو أنه قد سئل عنها في بعض وجوهها – كمسألة ماهية الروح –، فأعرض عنها وتركها، فهؤلاء الذين اشتغلوا بهذه الأمور في الغيبيات التي لم يأت الشارع ببيانها، أو اشتغلوا بعلوم للعقل فيها مجال كبير وعريض للبحث، وهنا يقول الشيخ بأن هؤلاء قد ثبت أنهم أبعد الناس عن مقاصد الشرع في سلوكهم وأعمالهم.

وها هنا نقطة مهمة يا مشايخ، وهو أنه جعل مناط الفساد – في هذه العلوم – أنها جعلت العاملين فيها شيعًا وفرقًا. انتبهوا إلى هذا، دلت القاعدة على أن أيَّ أمرٍ – وسَنُبيّن حتى لو كان الاشتغال بالقرآن، سَنُبيّن هذا الأمر – من أمور العلم كان سببًا للخلاف والشقاق والتفرق هو أمر باطل، ينبغي الإعراض عنه، وهذا يحصل بسببين يا مشايخ، يحصل بسببين:

السبب الأول: إمّا بالنظر إلى ذات العلم، على ما يريد الشيخ أبو إسحاق، بأن هذا العلم لا منفعة فيه. هذه العلة تحصل بسببين – أي علة التفرق في النظر إلى العلم –، إمّا بسبب أن العلم ليس بنافع، ومعنى أنه ليس بنافع أن الشارع لم يأت به، ولما كان الشارع قد أعرض عنه فلا جواب سوى الرأي، وكل رجل له رأي، واضح؟ لما انقطع حكم الشارع عن المسألة، ما الذي يجيب عنها؟ الرأي، الهوى، الاستحسان، الظن، إلى آخره. فحينئذ يحصل التفرق، كل واحد له رأي، وهذا دَلّ على أن العلم غير نافع. هذا ليس كافٍ في حصول التفرق في العلم الذي يوجب الإعراض عنه، ونحن قلنا هنا بالنظر إلى ذات العلم، ما هو السبب الثاني؟

السبب الثاني: بالنظر إلى الناظِر في العلم، وهذا كذلك من نفس النوع، بمعنى أنه اشتغال بما فيه تفرق: يأتي جماعة جهلة، يجلسون ويتكلمون في مسائل جاء الشارع بها، من مسائل الفقه ومسائل العقائد ومسائل الآداب، فيتكلمون فيها تكلمَّ الجهال، شأنهم شأنُ من؟ شأن الأوائل، أولئك فقدوا الدليل، وهؤلاء فقدوا الدليل، الأوائل فقدوا الدليل لعدم وجوده، والفريق الثاني فقد الدليل لعدم وجدانه؛ لأن عدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود. مش هيك يقولون؟ يقولون عدم الوجدان لا يدلُّ على عدم الوجود: تقوم أنت تبحث عن شيء في مكتبتك فهو موجود، لكن لا تجده، فعدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود، أنت لم تجده لا يعني أنه غير موجود، هو موجود لكنك لم تجده.

فالأوائل فقدوه لعدم الوجود، الفريق الثاني فقده لعدم الوجدان – غير موجود عندهم لكنه موجود –. القصد من هذا؛ – لا نريد أن نبتعد كثيرًا لكننا نُفصّل –، دَلَّ هذا على أن كل علم أورث الفرقة وجب التوقف عنه، لأن الفرقة إما لأن هذا العلم غير نافع، وإما لأن الناظرين فيه لا علم لهم.

ولذلك لما خرج رسول الله –صلى الله عليه وسلم– والناس يتكلمون في القرآن، فقال: (ما لهذا أُنزل، اقرؤوه ما اجتمعت عليه قلوبكم فإذا تفرقتم فقوموا). هذا في النظر في القرآن، القرآن لا يجوز التفرق فيه، فإذا جلس الناس يتفرقون دل على سبب، إمّا أن ما بحثوه في الآيات ليس من العلم، وإمّا أن الذي بحثوه في الآيات لا يملكون فيه الوسيلة لمعرفة مراد الله فيه، فحصل التفرق.

وشيخ الإسلام هذا فنه، الناس لا يعرفون شيخ الإسلام، أكثرهم لا يعرفونه، فنه هو ما أراده الشاطبي في هذا الكتاب، فن ابن تيمية –رحمه الله–: تحصيلُ الموافقات. وماذا قال الشاطبي في المقدمة؟ قال أنه أراد أن يوفق بين مذهب ابن القاسم وبين مذهب ابن حنيفة: تحصيل الموافقات.

أعطيكم أمثلة في كلام شيخ الإسلام –رحمه الله–، وهذا مهم، لما جاء إلى موضوع التفسير في (مقدمة التفسير)، ما هو أعظم مبحث في (مقدمة التفسير) لشيخ الإسلام –رحمه الله–؟ أنه جعل الخلاف في التفسير عند السلف كأنه غير موجود، ما ظنَّهُ الناظِر نظرًا سطحيًا بعيدًا عن التعمق، الناظر لما نظر إليه، يرى أن هذا تفرق بين المفسرين، هو

قال: لا، هذا ليس تفرقًا، وبحث هذه المسألة بما تعلمون، ربما قرأتم المقدمة، أغلبها يدور حول هذا، بأن ما تظنونه تفرقًا ليس كذلك، صحيح؟ تعرفون هذه المقدمة؟ وذكر الخلاف اللفظي، وخلاف التنوع، وخلاف التضاد، وذكر أن بعض التفاسير تفسِّر بالمثال، وبعضها بالعاقبة، وبعضها باللازم، وبعضها بالنوع، وكلها تعود إلى شيء واحد. هذا أمر عظيم أن يقوله العالِم، لا ما يقوله المعاصرون الذين يفتحون الباب للزنادقة للطعن في الشريعة أنَّ الشريعة مختلفة، وما من مسألة إلا وفيها خلاف، هذا كلام من لا يفهم، من لا يعرف العلم.

الصورة الثانية التي وعدتُ أن أتكلم عنها: شيخ الإسلام لما جاء إلى موضوع - وهذا مبحثٌ جليل، وأظن أنه من كتابات شيخ الإسلام –رحمه الله- المتأخرة -، عندما جاء إلى عمل أهل المدينة، وبحث بسؤالٍ توجه إليه عن عمل أهل المدينة الذي يقوله المالكية. أنتم إذا قرأتم كتب الأصول، وجدتم أن عمل أهل المدينة قد اختص به مالك، هكذا هي القسمة، بأن عمل أهل المدينة لا يقول به لا الشافعي ولا أحمد ولا أبو حنيفة، وهذا غير صحيح، هو يقول أنه غير صحيح؛ فإن هناك مما يدخل في مسمى عمل أهل المدينة، يقول به كل المسلمون، الفقهاء الأربعة وغيرهم، ويضرب على ذلك أمثلة ليس هذا وقت بيانها. الحقيقة، من أجمل ما كتب شيخ الإسلام، من أجمل ما كتب في هذا الباب. هذا مثال ثاني وأقف عنده هنا، ولكني أقول لطالب العلم اقرأ كتاب شيخ الإسلام (القواعد النورانية)، تجده على هذا المسلك وهو الموافقات، فهذا يكفي.

القصد؛ هنا ينبغي أن نفهمها وأن نطبقها، اقرؤوا القرآن، وهذا إذا كان في القرآن، يقول –صلى الله عليه وسلم-: (اقرؤوه - أي القرآن - ما اجتمعت عليه قلوبكم فإذا تفرقتم فقوموا)، فما بالك إذا قرؤوا بيت شعر؟ ما بالك إذا قرؤوا عملًا من الأعمال الكونية القدرية التي تحتاج إلى النظر والبحث؟ فإذا اختلفتم فقوموا. ولكن هذا ينبغي أن يوضع - وهو بَيِّن عند طالب العلم-، أنه إذا حصل خلاف من أجل البحث، وعندهم القدرة على النظر، ومن أجل أن يصلوا إلى قوي فيه، وهو ما يسمى بالنظر والجدل، هذا مما لا يُترك.

هنا يقول بمسألة عاد إليها، وهي إعراض الشارع مع حصول السؤال - على ما تقدم من الأمثلة -، أن هناك أسئلة توجهت إلى الشارع، فأعرض الشارع عن الجواب، من أوضح الأدلة على أن اتّباع مثلِه من العلم فتنة، أو تعطيل

للزمان في غير تحصيل. إذًا هنا سببان لإعراض طالب العلم عن العلم: إما أن يكون العلم فتنة، أو يكون إشغالاً عما هو مهم. نعم يا شيخ.

"ومنها: أن تتبع النظر في كل شيء وتطلب عمله من شأن الفلاسفة الذين يتبرّأ المسلمون منهم، ولم يكونوا كذلك إلا بتعلقهم بما يخالف السنة؛ فاتباعهم في نحلة هذا شأنها خطأ عظيم، وانحراف عن الجادة. ووجوه عدم الاستحسان كثيرة"

نعم، هنا يتكلم عن الصورة التي تقدمت، وهو أننا رأينا أن الذين يتطلبون النظر في كل شيء، هذا من عمل الفلاسفة.

وهنا فقط، الفلسفة ليست كلمة عربية، واضح يا مشايخ؟ هي كلمة يونانية تعني: محب الحكمة، الفيلسوف = محب للحكمة، ودلَّ هذا على أنه يجوز أن تُعَرَّب، لأنه ليس عند العرب فلسفة، على القاعدة التي تقدمت، هل للعرب فلسفة؟ لا، ليس عندهم فلسفة على الطريقة التي عند الآخرين، فلما كانت غير موجودة، كان اسمها غير موجود، فلما جاءت، جاءت وهي محمولة على اسمها، واضح؟ فإذا جاءنا شيء جديد لا نعرفه، يأتينا محمولًا على اسمه الذي قاله أهله وصنعه أهله، فهذا هو، هذه قضية مهمة.

فيقول: هؤلاء الفلاسفة يتطلبون النظر في كل شيء، وتطلب عمله من شأن الفلاسفة الذين يتبرأ المسلمون منهم.

والبيئة الأندلسية، والشاطبي أندلسي، فهم اختلفوا لماذا سمي بالشاطبي، لم نترجم للشاطبي تركناه لجهودكم أن ترجعوا إليه، إلى ترجمته، لكن الشاطبي أندلسي، وقيل بأنه سمي شاطبي نسبٌ إلى شاطبة لأنه ولد فيها، لكنه يُعلَم عنه أنه لم يخرج من غرناطة قط، حتى لم يخرج منها لا لحج ولا لعمرة، كما هو الشأن في ابن حزم، ابن حزم لا حجّ ولا اعتمر، وذلك لبعد المكان وكثرة الأشغال ومشقة الطريق، والشاطبي عاش وولد ولم يخرج من غرناطة، كمالك، مالك، هل خرج من المدينة؟ خرج لحج وعمرة، لكن لم يخرج عنها، وكان يقول: "كل حديث خرج من حارتي فلا مخ له"، رعرع، ما معنى رعرع يا مشايخ؟ أي لا مخ له، أو عاد مخه ماءً، ذاب مخه. طيب، فالشاطبي –عليه رحمة الله– لم يخرج من الأندلس، والأندلس كان هذا الأمر فيها، أي أمر الخلاف بين الفقهاء وبين الفقهاء الذين يجمعون مع الفقه طرق المتكلمين والفلاسفة، كان هذا الصراع موجودًا، واضح يا مشايخ؟ ويأتي الحكام فينصر بعضهم الفقهاء المجردون عن

الفلسفة، وبعضهم ينصر هذا وهذا، والصراع قائم، وهذا الذي أدى بابن رشد الحفيد، لأن عندنا ابن رشد رجلان: الرجل الأول هو الجد، وهو فقيه قاض مالكي لا شأن له بالفلسفة، لا شأن له ولا علم له بها ولا نظر، وأمّا ابن رشد الحفيد فهو فيلسوفٌ فقيه، أو فقيهٌ فيلسوف، واضح؟ فهذا الصراع كان موجودًا.

كلمة شيخ الإسلام عن الفلاسفة هي أكثر دقة من كلمة الشاطبي. الشاطبي يقول أن علماء الإسلام جملةً أنكروا الفلسفة، وهذه كلمة فيها – كما ترون – جمود، فإن بعض أهل الفقه قال في الفلسفة، وتكلم فيها، ولكنهم على الجملة، وقالها شيخ الإسلام بأن الناس اختلفوا هل في الإسلام فلسفة أو لا يوجد فلسفة، وذكر هذا في كتابه (الرد على المنطقيين)، المهم أننا لا نريد أن نتكلم عن الفلسفة وما هي مباحثها، وما هي طرائقها في النظر والبحث، ولكن، تعلمون أن الفلسفة تقسم إلى قسمين: – هذا للذكر حتى تعلموا التطور وأين الفلسفة اليوم – الفلسفة إمّا فلسفةٌ مثالية، وإمّا فلسفةٌ مادية.

الفلسفة المثالية هي الفلسفة القديمة بكل أنواعها، من المشائين وغيرهم والسوفسطائيين، وهكذا، وهذه التي تُقدم العقل على المادة، وترى أن المادة تاليةٌ للعقل، في البحث العقلي ومسائله، والغيب ومسائله، والنفس ومسائلها إلى آخره. فلما جاء هيجن قلب المجن، وقال بالفلسفة المادية – التي بنى عليها ماركس بعد ذلك ما يُسمّى بالفلسفة المادية، ولكن أساس الفلسفة المادية هو هيجن –، وقال بأن المادة سابقة على العقل، فلا بُدَّ من البحث في المادة التي تنير لنا معنى العقل، ويرى أن العقل هو انعكاس هذا العقل على المادة، فلا بُدَّ من المادة وهكذا.

ولذلك لا تبحث اليوم الفلسفة بمفهومها العلمي إلا في الجامعات والمعاهد، تُدَرَّس، ولكن الذين يسمون بالفلاسفة اليوم – يعني هل هناك فلاسفة؟ – هم الذين يبحثون في الأطر التي بحثها القدماء، أو الذين يسيرون على نهج الفلسفة المادية المعاصرة.

وها هنا نقطة، ربما في كل درس سأقولها: أنصح طلبة العلم بقراءة كتاب (قصة الإيمان) لنديم الجسر، كتاب جميل رائع مع بعض الملاحظات، أذكرها، وهذا الكتاب من ضمن سلسلة [ألف كتاب قبل الممات]، اسمه (قصة الإيمان)، مؤلفه نديم الجسر، وهذا كتاب لو أنه أُنتج في الغرب لقاموا له وقعدوا، كتاب عظيم، جميل، رائع. وهناك قصة، فهو

صاغ الفلسفة على أسلوب الرواية، وأن هناك رجلاً أصابه الشك في الأديان لأنه ارتشف رشفةً من الفلسفة، فقال: القليل من الفلسفة يؤدي إلى الإلحاد، ولا بُدَّ من الذهاب إليها، إلى النهاية لأنها تؤدي إلى الإيمان، هكذا تقول القصة، أنه قُدر لهذا الحيران اللاهوري أن رحل إلى خرتنك - هكذا أنطقها لعل لها نطقة أخرى، وهي كلمات أعجمية، وهي التي فيها قبر الإمام البخاري -، فذهب هناك فوجد رجلًا شفاه فلسفي من الإلحاد.

كتاب جميل ورائع، وساق معه مِن أول ما نُطقت كلمة الفلسفة وألصقت برجل إلى عصره، وأنَّ الجميع لا بُدَّ لزومًا أن يؤمن بالله، لأن الصراع في ذلك الوقت، ما هو صراع الإيمان مع الكفر؟ هو صراع المادية التي تنفي الوجود الإلهي، مع صراع الإيمان بالمفهوم البسيط وهو مفهوم الربوبية. هذه لا نريد أن نخوض فيها، ولا يستعلي علينا أحد ويقول: هذه الربوبية وهي لا تكفي في الإيمان، نقول نعم، نفهم هذا، ولكن الصراع في الحقبة التي سلفت صراعٌ بين الإلحاد وبين الوجود، إلحادٌ يريد نفي وجود الله وغيره، فهذا كتاب مهم، جميل جدًا ورائع، اسمه (قصة الإيمان) لنديم الجسر.

أقول هذا الكتاب، لماذا قلتُ أنه صيغ على وجه القصة؟ لأن هناك قصة ألفها دنماركي أو هولاندي، أظنه هولاندي، اسمها (قصة صوفي)، وهذا لا بأس من قراءته، ليست من الألف كتاب، لكن اسمها (قصة صوفي)، على غرار هذه: (قصة الإيمان)، لكنها أضعف بكثير، فيها شيء من ظلال القصة والرواية المعاصرة - فهمنا الظلال؟ - التي تفتقدها (قصة الإيمان)، لكنها بالنسبة لصياغة قصة الإيمان ليست بشيء، ومع ذلك هذا الكتاب بِيع منه في ألمانيا بمفردها خمسة عشر مليون نسخة، لكي تعرفوا هم ماذا يقرؤون ونحن ماذا نقرأ! هذا الكتاب لا يعرفه أحد، لا يعرف (قصة الإيمان) إلا القليل. وهذا الكتاب لما كنت في الجامعة، وأخذت مادة الفلسفة عند دكتور ملحد - لا يؤمن بالله - درس في روسيا، فأحضرت هذا الكتاب له، كنت في السنة الثانية، قلت له - لا أريد أن أذكر اسم هذا الرجل، موجود هو -، فأعطيته (قصة الإيمان)، وقلت له اقرأها، فرجع بعد أسبوع، قال: لا أريد أن أعيد لك النسخة، خلاص أخذتها، وسأفرض هذا الكتاب على طلاب الدراسات العليا في الفلسفة، نرجع إلى ما نحن فيه يا مشايخ.

إذن هو يقول أن الذين يطلبون النظر في كل شيء، إذن لا يُطلب النظر في كل شيء، هل يُطلب النظر في كل شيء يا مشايخ؟ لا، إنما يطلب النظر فيما فيه منفعة في الدنيا والآخرة، ولا بُدَّ من ترتيب العلوم، ولترتيب العلوم

أنصحكم بقراءة كتاب الشوكاني (نهاية الطلب)، واضح؟ هذا كتاب يبين هذه المسألة تفصيلًا لطالب العلم؛ لأنه لا بُدَّ من ترتيب العلوم أن يعرف ما هو مهم وهكذا.

"فإن قيل: العلم محبوب على الجملة، ومطلوب على الإطلاق، وقد جاء الطلب فيه على صيغ العموم والإطلاق، فتنتظم صيغه كل علم، ومن جملة العلوم ما يتعلق به عمل، وما لا يتعلق به عمل؛ فتخصيص أحد النوعين بالاستحسان دون الآخر تحكم، وأيضا؛ فقد قال العلماء: إنّ تعلم كل علم فرض كفاية، كالسحر والطلسمات، وغيرهما من العلوم البعيدة الغرض عن العمل، فما ظنك بما قرب منه؛ كالحساب، والهندسة، وشبه ذلك؟ وأيضاً، فعلم التفسير من جملة العلوم المطلوبة، وقد لا ينبني عليه عمل، وتأمل حكاية الفخر الرازي: أن بعض العلماء مر بيهودي وبين يديه مسلم يقرأ عليه علم هيئة العالم، فسأل اليهودي عما يقرأ عليه؛ فقال له: أنا أفسر له آية من كتاب الله، فسأله ما هي؟ وهو متعجب، فقال: قوله تعالى: {أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ} [ق: ٦]. قال اليهودي: فأنا أبين له كيفية بنائها وتزيينها. فاستحسن ذلك العالم منه. هذا معنى الحكاية لا لفظها، وأيضا؛ فإن قوله تعالى: {أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ} [الأعراف: ١٨٥] يشمل كل علم ظهر في الوجود، من معقول أو منقول، مكتسب أو موهوب، وأشباهها من الآيات، ويزعم الفلاسفة أن حقيقة الفلسفة إنما هو النظر في الموجودات على الإطلاق، من حيث تدل على صانعها، ومعلوم طلب النظر في الدلائل والمخلوقات؛ فهذه وجوه تدل على عموم الاستحسان في كل علم على الإطلاق والعموم"

يكفي، هنا – كما ترون – ملاحظات، ترى الكلام واضح، وسنبين فيما يأتي –إن شاء الله– من معاني تتفجر من هذا الكلام:

أولها: أن هذا العالِم الشاطبي، وهذه سمة علمائنا، سمة هؤلاء العلماء أنهم يسوقون كلام الخصم بأجمل مما يسوقه الخصم. وهذا من الإنصاف والعِلم والدين والتقوى، وهذا هو حالُهم، وكذلك هذا دالٌّ عل ثقة هذا العالِم بعلمه، فإنه يُجَلي كلام الخصم بأفضل ما يكون، لأن عنده ما يَقوى على هدم هذا البنيان الجميل القوي، الذي إذا بدا لوحده بدا قويًا.

ولذلك عندما تسمعون أن الشيخ الإسلام بن تيمية كان يعرف مذاهب الخصوم أكثر مما يعرفها أهلها، فصدِّقوا. يعني هو يعرف مذاهب الناس أكثر مما يعرفها أصحابها، بل يأخذون كلامه عليهم أنه هذا دينهم، وهذا إنصاف. ولا بأس، نحن نتكلم دائمًا عن القامات العظيمة، لكن لو رأيتم كذلك كتاب أبي الحسن الأشعري (مقالات الإسلاميين) لرأيتم كذلك هذا الإنصاف العظيم في ذكر مواطن القوة في مذاهب الناس، ويرد عليها، وهذا من الإنصاف، ينبغي أن تتأمله.

ولذلك يحضر في هذا المقام كلام الضالين، لما جاء محمود أبو رية وألّف كتابه (الأضواء على السنة المحمدية)، تعرفون هذا الكتاب، هذا من أوائل الكتب التي أُلفت في هذا العصر من قبل الزنادقة لإبطال الأحاديث الصحيحة، على طرائق الروافض، يأتي إلى أحاديث في الصحيحين فيبطلها. يقول الشيخ لما رد عليه في (الأنوار الكاشفة)، من الذي رد عليه؟ إمام أهل العصر: الشيخ عبد الرحمن المعلم، هذا إمام أهل العصر، هذا إمام عظيم لا يوجد له مثيل في هذا العصر، والعالم قد يُربي كتابًا، وأعظم كتبه هو (التمكين)، هذا من الألف كتاب، من لم يقرأ هذا الكتاب فلا يعرف شيئا، لا يعرف العلم؛ لأنه عظيم في طرائق الجدل.

المهم، لا يهمنا هذا، كتاب (التمكين) هذا من الألف كتاب، تقرؤونه، لا تضعونه عندكم وتتزينوا به، تحفظوا اسمه، تقرؤونه حرفا حرفا، وكلمةً كلمة.

طيب، هذا لما جاء الشيخ عبد الرحمن المعلمي إلى كتاب أبي رية، يقول هو: تعجبتُ، كيف لهذا الرجل القدرة على التغلغل والسباحة في كتب أهل العلم هذه، وكتب الرجال، وكتب الحديث، ليستخرج هذه ما سماها: "التناقضات"؟ أي رجل هذا؟

فهمتم الكلام؟ يعني هذا أبو رية يسب على السنة، يضعف الأحاديث التي في صحيح البخاري وفي صحيح مسلم، يرد عليها بكلام منطقي وبكلام فلسفي، ويرد عليها بالرجال، كيف؟ يقول الشيخ عبد الرحمن – هذا إمام –، يقول: أتعجب، أي رجل هذا؟ لا يجد هذا الكلام لأهل العلم، لا يعرف هذه القدرة على النظر في الكتب في أهل العلم من أهل الإسلام المعاصرين له، فكيف لهذا الرجل الزنديق الذي لا يسوى شيئًا؟ كيف عنده القدرة؟ يقول الشيخ

عبد الرحمن – لتروا الإنصاف الآن –، يقول: فلما تقفيت وتقفرت كلامه، وجدت أنه قد أخذه من كلام ابن قتيبة، في ذِكر ما قاله المعاصرون لابن قتيبة للرد عليهم، فهمتم الكلام؟ ذهب إلى كتاب ابن قتيبة القتبي، الذي كانوا يسمونه «خطيب أهل السُنّة»، مقابل من؟ الجاحظ، خطيب أهل البدعة، وهو تلميذه – أبو قتيبة تلميذ الجاحظ في الأدب – . القصد؛ بأنه قال من أين جاء بهذا؟ فلما بحث، وجد أنه يسوق الكلام الذي رد عليه ابن قتيبة للمعاصرين من زمانه –والمعاصرون من زمانه علماء، مع زندقتهم هم علماء، ليس كزنادقة هذا العصر جهلة–، فيرد عليهم، فأحضر أبو رية الكلام المردود عليه لينشره هو، هذا على ماذا يدل؟ على إنصاف ابن قتيبة، أنه كان، هذا الذي أردته من جانب آخر، على إنصاف ابن قتيبة القتبي – عليه رحمة الله – في ماذا؟ في بيان ما يقوله المعاصرون له من الزنادقة، واضح الكلام؟ هذا مهم، مهم أن تكون أمينًا تنقل الكلام، وليس الطريقة التي ذكرناها لكم عندما ذكرنا أن الأدلة استشهاد واعتضاد ورد اعتراض، أليس كذلك؟ فلا تأتي إلى رد الاعتراض، ولا تأتي إلى ما هو اعتضاد، وتبحث فيه من أجل أن تهدمه تاركًا الأدلة الكبيرة فيه، ليس هذا من العلم في شيء، هذا من الخيانة.

إذًا هنا الشيخ يقول، يذكر لنا الأدلة التي ساقها، ويكفي أن نقرأها لأنه سيناقشها، لكن بلا شك، أنه يناقش مناقشة جميلة، وقد يفوته بعض الأمور فنأتي عليها إن شاء الله، لا أريد أكثر من هذا، فقط هو ساق الآن الكلام الذي قاله، فلو رددنا نحن لكان هذا تطاولًا، العالم هو ذكرها ليرد عليها، فإذا جاءنا شيء من التنبيه نبهنا عليه، تفضل يا شيخ.

"الجواب عن الأول: إن عموم الطلب مخصوص، وإطلاقه مقيد بما تقدم من الأدلة"

هذا هو، هذه قاعدة. هم قالوا أن هذا عمومٌ ولم يُقيد، فقال: لا، بل قُيد. هذا أولا، أن هذا العموم ليس على عمومه، وأن هذا الإطلاق ليس على إطلاقه، بل هو مُقيّد مخصوص، عندما مدح الشارع العلم قَيَّده، ولذلك يقول: أين قيده؟ لو قيل: أين قيده؟ لرأينا أنه تقدم هذا عندما قال بالاستقراء، الشارع لم يجب عن أسئلة كان يعلم الشارع أنها لا فائدة منها وأنها ليس تحتها علم، نعم.

"والذي يوضحه أمران:

أحدهما: بأن السلف الصالح من الصحابة والتابعين لم يخوضوا في هذه الأشياء التي ليس تحتها عمل، مع أنهم كانوا أعلم بمعنى العلم المطلوب، بل قد عَدَّ عُمَر ذلك في نحو {وَفَاكِهَةً وَأَبًّا} [عبس: ٣١] من التكلف الذي نهي عنه، وتأديبه صبيغًا ظاهر فيما نحن فيه، مع أنه لم ينكر عليه، ولم يفعلوا ذلك إلا لأن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– لم يخض في شيء من ذلك، ولو كان لنقل، لكنه لم ينقل؛ فدل على عدمه"

أنتم تعرفون العموم، العموم هل هو في القول؟ وهذه تأتي إن شاء الله في صيغ العموم، لأنه يبحثها، يبحث فيها الشاطبي بحثا جميلا، لكن من المعلوم أن العموم لا يكون إلا في الأقوال، لا يكون في الأفعال، الأفعال لا عموم لها، نعم يا مشايخ؟ الأعمال لا عموم لها، كذلك يقول أهل الأصول، وإنما العموم في الأقوال. لكن هل الخصوص يكون في الأفعال؟ هذه القاعدة تقول: أن الخصوص يكون في الأعمال، ولذلك فهو خصَّ العموم - الذي هو قول - بعمل الصحابة، فدل على أن فهم الصحابة لهذا العموم ملزمٌ لنا، هو يريد أن يقول أن الصحابة فعلوا كذا وكذا، وهكذا تعاملوا مع القرآن، فإذًا طرائق فهمهم، طرائق عملهم، مخصصة للعموم اللفظي.

ثانيًا، دل على أن فعل الصحابة هو الألزم في فهم الكتاب والسُنّة، ويجب التزامه، وهذا يشرحه كثيرًا في (الاعتصام)، واضح؟ على قاعدة: أنه ما لم يوجد - هذه قاعدة مهمة، أهم قاعدة في البدع -، وهي ما لم يوجد في عصر الصحابة وفي الزمن النبي –صلى الله عليه وسلم–، ولم يوجد موجِبُه، دلَّ على أنه غير مطلوب أو بدعة، شرط.

هل كل شيء لم يكن في زمن النبي –صلى الله عليه وسلم– وزمن الصحابة بدعة وغير نافع؟ هكذا؟ الجواب: لا. ما هو الشيء الذي إذا عُلم وجوده في زمن الصحابة وفي زمن النبي –صلى الله عليه وسلم– قبل الصحابة - وزمن النبي –صلى الله عليه وسلم– هو زمن الصحابة - عُدَّ بدعةً؟ ما هو؟ إذا وُجِدَ موجبه، إذا وُجِدَ ماذا؟ موجبه.

لذلك كتبنا إذا وُجِدَ موجبه. والأمثلة كثيرة، لو قال قائل: لما جمع أبو بكر الصديق القرآن، هذا لم يكن في زمن النبي –صلى الله عليه وسلم–، لكن لم يوجد موجبه. كيف لم يوجد موجبه؟

أول شيء: وُجد المانع، وهو تنزل القرآن، واضح؟ وُجد موجبه (موجب التفرق)، مخافة ذهاب القرآن، هذا لم يوجد هذا الموجب، فلما عُدِمِ الموجب، امتنع تسميته بالبدعة، فإذا وُجد المنفعة إلى آخره.

لماذا لم يُعَدّ فعل عثمان –رضي الله عنه– في الأذان الأول في الزوراء في السوق بدعةً، أرسل مؤذنًا يؤذن الأذان الأول يجمع الناس لصلاة الجمعة، لم يقل أحد من أهل العلم ولا في زمن الصحابة أنه بدعة، لماذا؟ مع أنه لم يكن في زمن النبي –صلى الله عليه وسلم–، لعدم وجود موجبه في زمن النبي –صلى الله عليه وسلم–، وهو توسع المدينة، المدينة صارت وسيعة، وصار الإمام يصعد المنبر فيجد الناس قد تأخروا في المجيء، فلما لم يوجد الموجب فصار السبب، فدلَّ على أنه سُنّة، لكن لو أن هذا كان متسعًا يأتي أو لا يأتي، لو كان زمن النبي –صلى الله عليه وسلم–، لكان الموجب الذي افترضه عثمان ليس مقبولاً، لأن هذا الموجب موجود في زمن النبي –صلى الله عليه وسلم–، ويحتج علماؤنا – وهذه أمثلة، والأمثلة كثيرة–. لكن يحتج علماؤنا على بدعة المولد النبوي، ما هو موجب المولد النبوي؟ هو حب الصحابة للنبي –صلى الله عليه وسلم–، سألت الناس، تسألهم لماذا تصنعون المولد النبوي؟ يقولون نحب النبي، هذا الموجب موجود في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم- أم لم يوجد؟ موجود، هذا الموجب موجود، فلا يجوز لأحد أن يقول أنني أفعله لوجود هذا، لأنه موجود، كان هذا الموجب موجودًا في زمن النبي –صلى الله عليه وسلم–، إذًا هذه هي القاعدة.

إذًا يحتج هنا الإمام الشاطبي – وهذا كما ترون خطاب لأهل الإسلام، هو يخاطب أهل الإسلام، هذا الخطاب لا ينفعل لغير المسلمين –، يقول هذا لم يكن في زمن النبي –صلى الله عليه وسلم– مع وجود موجبه فدل على أنه غير شرعي، هذا واحد. فهذا أول المنافع في هذه الجملة الرائعة من كلام الشاطبي.

ونحن كما ترون نستقرئ منهجه في البحث، وهنا نحن نعلم أن عُمَر -رضي الله عنه- سأل عن الكيفية، عن كيفية الشيء، ولما كانت هذه الكيفية لا منفعة لها دلت على التكلف، وكذلك تأديبه صبيًا، صبي كان يسأل في متشابهات القرآن، لو أن رجلاً سأل عن متشابهات القرآن للعلم، ولِمَن هو صاحبها – مش بس يسأل أهل العلم، ويسألها لمن هو صاحبها –، كما سأل نافع بن الأزرق بن عباس عن المتشابهات، يسأل عنها، فكانت إجابة ابن عباس من العلم العظيم الذي انتفع به الناس.

"والثاني: ما ثبت في كتاب (المقاصد) أن هذه الشريعة أُميّة لأُمَّةٍ أُميّة، وقد قال–صلى الله عليه وسلم–: نحن أُمَّةٌ أُميّة، لا نحسب ولا نكتب، الشهر هكذا وهكذا وهكذا، إلى نظائر ذلك، والمسألة مبسوطة هنالك، والحمد لله"

هنا نتوقف لأن هذه في الحقيقة ليست مبحوثة هنا البحث الذي هو فيه الإجابة، وإنما مبحوثة في كتاب (المقاصد)، وهذه جملته، جملة الشاطبي، هي التي يتعلق بها نُفات التفسير العلمي للقرآن، هذه الجملة. فهو يبسطها هنا هكذا، بأنه يجب إجراء الكلام على طرائق الأُميّين، فقط أقف عند نقطة مهمة، وهي –هذه النقطة لها أهمية كبيرة–، وهو لماذا لما قال: (نحن أُمَّةٌ أُميّة، لا نحسب ولا نكتب، الشهر هكذا وهكذا وهكذا)، لماذا جعل أمر هذا الدين – وهو عبادة – على معنى الأُميّة؟

انتبهوا، ما تقدم من الدرس الفائت، أطلقتها لمحة، ولكنها قاعدة، وهي التي قال، أنا استندت لكلام أهل العلم، لأني لو لم أستند لكلام ابن القيم لقام التشغيب، عندما قلنا بأن: (نِعم الإدام الخل)، شو قال ابن القيم؟ قال: هذا ليس من المدح المطلق.

وهذه القاعدة هي التي اعتمدها الشافعي، هناك خلاف: هل يُخصص بالسبب، انتبهوا، هذه تَفْرِق بينهم وبين قاعدة «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب»، هذه تَفرِق، هذه مسألة أخرى، لا يقول أحد بأن آيات الظهار خاصة بخولة وبزوجها، لا يقوله أحد من أهل العلم، وإلا لبطلت الشريعة، فالعبرة بعموم اللفظ. لكن هل يُخصص العام بالسبب؟ انتبهوا، نعم يُخصص بالسبب. الجمهور يقولون: لا، أنا مع الشافعي في هذه، بأن العام يُخصص بالسبب، ومنه هذا الذي بين أيدينا –لا أريد أن أطيل–، يُخصص بالسبب كيف؟ أنه لما قال: (نِعم الإدام). هذا عام، أطلقها، لكن خُصص بالسبب، وهو فقدان غيره من الأطعمة، واضح يا مشايخ؟

هذا باب فقهي كبير ومهم، والحقيقة فيه فوائد عظيمة، وقول من قال – وهو الشافعي، وأنا له تبع في هذا –، فيه فائدة عظيمة، يُطبّقه بطريقة رائعة، ذكية، راقية، في كتابه (الأم)، مثال من كلام (الأم) حتى تعرفوا أن الذين يسبون على فقهائنا لا يفهمون من أين أتى العلم، الذين ينتقدون الأئمة لا يعرفون من أين أتى العلم.

جاء الإمام الشافعي إلى حديث: (يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله)، نحن يا مشايخ، المعاصرون نظروا لكتب الفقه فوجدوا أن هذا الحديث، هذا موجود، نظروا إلى معنى القراءة، هل هو الحفظ، هل هو القراءة المتقنة، إلى آخره، وقع الخلاف فيها ولكنهم جعلوا هذا اللفظ على إطلاقه، الشافعي يقول: هذا ليس على إطلاقه، يقول: هذا الحديث وقع على قومٍ تساووا في الأعمارِ وفهمِ الدين – هذا كلامه في (الأم)، وليس كلامي، اقبلوه، ردوه، لكن هذا كلامه –، يقول: هذا الحديث وقع على أقوام تساوت أعمارهم، تساوى فقههم فيما هو الخطاب متوجهٌ إليه، وهو الصلاة، هم يفهمون الصلاة ويفهمون أحكامها، والخطاب لهم، فجاء التعظيم لما فيه تمايز، فقال: (أقرؤهم لكتاب الله)، فإن كانوا في القراءة سواء؟ إيش؟ فأعلمهم بالسُنّة. قال: فلما كان الحال قد اتفق في الفقه، قُدمت القراءة، لأن، – هذا هو التخصيص بالسبب، فهو قال بأن،ما الذي يريد أن يصل إليه؟ –، يقول: لو جاء الناس في زماننا لقُدِّم الفقيه على القارئ، هذا وجهه، هذا التخصيص بالسبب، واضح الكلام؟ لماذا جئت حتى لا أنسى؟

طالب: لماذا جعل أمر هذا الدين – وهو عبادة – على معنى الأُميّة؟

نعم، الآن يأتي واحد يقول: نحن أُمَّةٌ أُميّة، ويريد أن يعممه، هذا الذي أردت، قعَّدنا القاعدة، ننطلق إليها لما نحن فيه، يقول القائل: نحن أمة أمية، فلا يريد لا يحسب، ولا يكتب، ولا يعد، ولا يصنع كمبيوتر، يعني هذه القاعدة. وهذا جهل في الشريعة، بل هو جهل مدقع، وعماية عن الحق، ودعوة إلى أن تكون هذه الأُمَّة في أسفل سافلين.

لأن المقصود هو الأُميّة في الفقه، ماذا تعني الأمية في الفقه؟ الأمية في الفقه ليست الأُميّة في الحياة، يقول: ((نحن أُمَّةٌ أُميّة، الشهر عندنا)). لماذا؟ لأن الشارع من مقاصده أن لا يُدخل فوق الأُميّة مرتبةً يدخلها في الشريعة، لماذا؟ لا يريد ذلك الشارع، يقول: كل عمل يخرج، هكذا يقول النبي –صلى الله عليه وسلم– في الحديث: (نحن أُمَّةٌ أُميّة)، يريد أن يقول: كل إدخال لعلم فوق الأُميّة في تطبيق الشريعة وفهمِها لا نريده، لسنا كذلك، هذه لما تعلمون فائدتها تنظرون إلى حكمتها، وتدركون أنها الحقيقة، يعني الآن لا نفهم حكمتها، لكن إذا فهمتم حكمتها تعرفون عظمة هذه القاعدة يا مشايخ.

الصلاة هل هي أمر لعموم المسلمين أم لآحادهم؟ هل يقيمها العقلاء والعلماء والخبراء والأذكياء، ولا يقيمها العامي البسيط الساذج، الإنسان البدوي البوال على عقبيه؟ أم هي أمر لكل أحد؟ تفهمون هذا الكلام، فالشريعة

تكليف لكل الناس ويجب أن تبقى على ما يمشي به أدناهم، ويتقنه أدناهم. أنا أتكلم على التطبيق، وليس على فهم الشريعة، على تطبيق الشريعة، فتطبيق الشرائع مكلف به عموم الناس، فلذلك كان يجب إعمال الآلات لتطبيق الشريعة مما يتقنه ويحسنه ويتحصنه جميع الناس.

اسمحوا لي أضرب هذا المثال، وهو مثالٌ عجيب دائمًا يحضرني عند هذا الباب، تداولت الفيفا –وشو جاب الأصول للفيفا؟ لا بأس–، تداولت الفيفا في عمل بعض القوانين في كرة القدم، هناك ألعاب تدخل فيها التقنية الإلكترونية، صحيح؟ يعني لعبة التنس الأرضي تدخل فيها التقنية، بحيث هل الكرة جاءت في داخل الملعب أم في خارجه، هل جاءت على الخط، هي تدخل. الكرة الأمريكية، نفس الشيء، تدخل فيها التقنية. فكثير من الألعاب المعاصرة تدخل فيها التقنية الالكترونية. لما جاءوا يبحثون، هل هذا يُطَبق في كرة القدم أَم لا، فانتصر الفريق الذي يقول أن هذه اللعبة **شعبية**، ويجب أن تبقى قوانينها شعبية، بعد ذلك ذكروا حِكم أخرى، ما يهمنا، قالوا بأن هذا هو ما يعطي ميزة كرة القدم، يعطيها الشعبية والحوار والإثارة، إلى آخره، لكن ما يهمنا القاعدة الأولى. هذا الذي قالوه هو الذي في الشريعة، هذا الذي قالوه هو ما نحن فيه، أن الشريعة، شوا قالوا؟ كرة القدم ماذا؟ شعبية، يجب أن تبقى قوانينها شعبية، الناس يلعبونها في الحواري ويلعبونها في الطرق، وهكذا، ويعلبها كل الناس والحضور كثير، وهكذا ينبغي أن تبقى شعبية.

هذا الذي قالوه، هم أدركوا حكمة الشريعة في قوله: (نحن أُمَّةٌ أُمية)، يجب أن تبقى هذه الشريعة ماذا؟ أمية.

واحد حامل بوصلة معه في الصلاة، هذا غلط، لا ينبغي. الآن نتكلم عن قاعدة في الشريعة، واحد حامل بوصلة من أجل أن يعرف أين القبلة، هذا خطأ، يجب أن يبقى قوله –صلى الله عليه وسلم–: (بين المشرق والمغرب قبلة)، خلاص هو الذي قال، لأن هذا ينطبق بها كل الناس، واحد عنده قدرة يشتري بوصلة وواحد ما عنده قدرة يشتري بوصلة، واحد يعرف يستخدمها وآخر لا يعرف استخدامها، يبقى الرجل الذي في الصحراء. هذه شريعة موضوعة لتطبيق جميع البشر، فلازمُ هذا القول هو أن آلية التطبيق مقدورة لكل البشر، واضح الكلام؟

ليس لها دخل بقضية أمية، واحد يدخل لنا فيها. ليس لها دخل، واضح الكلام؟ هذا مهم جدًا، ويكفي إلى هنا، أرجوا أن تكونوا قد أخذتم أبعد مما أقول، أنا لا أريد أن تأخذوا ما أقول فقط، لكن تأخذون مني أبعد مما أقول، ويكفي إلى هنا، والحمد لله رب العالمين وجزاكم الله خير الجزاء وبارك الله فيكم.

نسمع الأسئلة إذا كان في الوقت القصير، لا أريد أن أطيل عليكم اليوم، ولا أطيل على نفسي، فليس كل يوم فيه أسئلة طويلة، لكن أسئلة قصيرة هذا ماشي، تفضلوا هل أحد عنده سؤال إخواني؟ تفضل.

أَسْئِلَـة

- القاعدة تكلمت أن أي أمر من أمور يحدث الشقاق والتفرق كان باطلاً، قد تقع أحكام شرعية يختلف فيها الناس؟

إحنا قلنا، يعني تكلمنا عما يحصل فيه، يسأل أخوكم يقول: هل هذا في قضية أن كل مسألة يترتب عليها اختلاف، فهي شر وباطلة؟ وهكذا، فيقول: هل هذا ينطبق على كل مسألة يختلف فيها أهل العلم؟ الجواب: لا، لأن هذا خلاف مأذون له في الشريعة، فلو جاء رجل مُبطل وأراد أن يجعل هذا الخلاف غير مسموح، كمن يريد أن يفعل هذا. انتبهوا، قاعدة الخلاف كالتالي: لا بد من الخلاف لكنه غير مطلوب شرعًا، الخلاف لا بد منه، لكنه غير مطلوب شرعًا، وهنا وقع أناس جعلوا الخلاف مطلوب شرعًا، ويأتي ويقول: {وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ}، أنا رأيت رجلًا، والله أعرفه من أكثر من ثلاثين سنة، مدرس، وهو أحد أساتذتي، يتكلم عن هذه النقطة، وهذا الذي دعاني إلى تفسير سورة الشورى، كلامه هذا الذي دعاني إلى تفسير سورة الشورى، لما سمعته ذهلت، وأعلم أنه يحفظ أغلب كتاب الله، وهو مفسر إلى آخره، فيريد أن يبين أن التفرق القدري، أنه مأذون به شرعًا، ويقصد به الإسلام والكفر! هذا غير صحيح، فلما جاء إلى الآية – ما زلت أذكر هذا الموقف –، فلما جاء إلى: {وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ}، لما جاء إلى: {إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ}، علِم أن {إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ} ستبطل قوله، فسكت عنها. وهذا الذي جعلني أفسر، وسورة الشورى رأيتها تجيب عن هذا السؤال: كيف يتفرق الناس في القدر؟ كيف يتنوع الوجود، ويتنوع ويتناقض؟ تجدون السورة مليئة بهذا، في التناقض القدري، ولكنها لا تعيد الحق إلا لواحد، إلا لحق واحد، وهكذا.

فالقصد بأن هناك خلاف يقع الشارع قد أذن في وجوده، قد أذن في وجوده وقد أوجب على الناس أن لا يتفرقوا بسببه، لأنه جعله بين أجر وأجرين، فكيف تعيب على من أصاب أجرا في ظنه؟ قد يكون هو الذي أصاب الأجرين، والله تعالى أعلم، تفضل.

- يا شيخنا، في الآونة الأخيرة كثرت المشاكل وكثر الاختلاف بين الشباب في قضية تكفير المعين، حتى أنهم ذهبوا إلى أبعد من هذا، هل هذا يدخل فيما يحدث فيه اختلاف؟ أم أن هذه مسألة علمية أدت إلى خلاف واسع؟

يسأل أخوكم لعلكم سمعتموه، وهذه مسألة طويلة الذيول، والحديث فيها، ما فيها حق، وفيها ما فيها باطل، فيها ما يجوز فيه الخلاف، وفيها ما لا يجوز فيه الخلاف، فيها أن هناك ممن يخوض فيها ممن لا يستحق الخوض فيها، وهكذا. هذه مسألة طويلة ربما إن شاء الله نتكلم عنها في درس مستقل.

جزاكم الله خيرًا وبارك الله فيكم، والحمد لله رب العالمين.

الدرس [١٤]

جزاكم الله خيرًا وبارك الله فيكم والحمد لله حمدا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

هذا هو الدرس الرابع عشر من دروس شرح كتاب الإمام أبي إسحاق الشاطبي المعنون ب(الموافقات)، ونحن ما زلنا مع المقدمة الخامسة من مقدمات المصنف في تقريراته الأولى لعلم الأصول.

وهذا الكتاب أنا نوهتُ وفصلت، نوهت بمعنى لم أجمع هذا الأمر في درس واحد، وهو الحديث عن الكتاب وعن أبي إسحاق، وإنما نثرت الكلام عن الكتاب ومنهجه والكلام حوله في الدروس المتعددة، وهذا وجدته خير من المقدمة ثم تنسى.

هذا الكتاب، اختلف أهل العلم من المتأخرين بل من المعاصرين، اختلفوا في مقصد الكتاب، هل هو كتاب يجري على مجرى كتب الأصول المعروفة؟ أنه تكلم عن الأصول بما يرجع إلى طريقته، يتكلم في مسائل الأصول على طريقته، ولأن هذا الكتاب أنشأه لمقصد، وهو المقصد الذي انتشر بسبب الكتاب، وهو باب المقاصد، هل أنشأ كتابه للمقاصد؟ أم أنه أنشأه للأصول وجعل فيه كتاب المقاصد مضمنًا؟ فهذا خلاف بينهم، والذي عندي أنا في الحقيقة، أن هذا كتاب الأصل في أنه كتاب أصول، وأن الإمام وضعه على هذا المجرى، ولذلك تفنن في الحقيقة أبو إسحاق الشاطبي في مسائل عدة، كما تفنن في باب المقاصد، أو في كتاب (المقاصد).

القول بأن الإمام –رحمه الله– وضع كتابه من أجل فن علم المقاصد الذي يُعد عند العلماء هو الذي أرسى قواعده، لا نقول أرسى قواعده، نقول أتم بناءه، كان علم المقاصد منثورًا في كتب أهل العلم، موزعًا على المسائل الفقهية، كأسرار الصلاة وغيرها، وأسرار الشريعة وفروعها، ولكنه أراد أن يؤصل له تأصيلا، أو أنه موجود –هذا الكتاب– في علم الوصول، في علم المقاصد، منثور في كتب أهل العلم هنا وهناك، في (المستصفى)، في (قواعد الأحكام)، وهكذا.

والذي عندي أن هذا الكتاب كتاب أصول، وتفنُّن الشيخ في مسائل الأصول فيه يكاد يعادل تفننه في كتاب المقاصد. نعم هو جمع ما تفرق، ونوع، وتفنن في ما يُبنى، وما هو مستحسن، وما هو ضروري، وما هو واجب، في علم المقاصد، لكنه لم يقصر في الكتب الأخرى كذلك، فلو أنه أراد كتاب المقاصد فقط لما صار فيه إلا لبناء هذه المسألة، والحقيقة غير ذلك، لكن هل الشيخ -هذه نقطة أخرى-، هل الشيخ أبو إسحاق رجل كلي النظرة، أم جزئي النظرة؟ نحن تكلمنا قبل ذلك عنها، وستأتي كثيرًا هذه الكلمة، كما قلت لكم هي مفتاحكم لهذا الكتاب: التفريق بين ما هو جزئي وما هو كلي. هل أبو إسحاق يهتم كثيرا بالفروع أم أنه يذهب إلى المقاصد الكلية وإلى الكليات؟ الجواب: أن الشيخ أبا إسحاق رجل كلي النظرة، وهو رجل أصولي يُقَعد القواعد، صحيح أن له كتاب في النوازل والفروع، ولكن كتبه تدل على هذا الأمر، حتى كتابه في النحو، لا يُعرج كثيرًا على مسائل الفروع، إنما يبني القواعد، فإذا جاء إلى الفروع جاء إليها تبعًا لا أصالة، وكذلك كما نرى في كتابه (الاعتصام)، هو يُؤصل الأصول، فهو رجل أصولي، عقله أصولي، هذا الرجل. وهذا يكفي الآن، تفضل يا شيخ اقرأ، أين وصلنا؟ ما زلنا مع رد الاعتراض على دعوى بعضهم بأن كل علم ممدوح، هكذا يقول المخالف له: أن كل علم ممدوح، وهو قرر أن العلم الممدوح هو العلم الذي يُنشئ تكليفًا، يُنشئ عملاً، إما أن يكون العمل قلبيا أو بدنيا، تفضل يا شيخ.

"والثاني: ما ثبت في كتاب "المقاصد" أن هذه الشريعة أمية لأمة أمية، وقد قال عليه السلام: "نحن أمة أمية، لا نحسب ولا نكتب، الشهر هكذا وهكذا وهكذا" إلى نظائر ذلك، والمسألة مبسوطة هنالك، والحمد لله.

وعن الثاني: إنا لا نسلم ذلك على الإطلاق، وإنما فرض الكفاية رد كل فاسد وإبطاله، علم ذلك الفاسد أو جهل؛ إلا أنه لا بد من علم أنه فاسد، والشرع متكفل بذلك. والبرهان على ذلك أن موسى -عليه السلام- لم يعلم علم السحر الذي جاء به السحرة، مع أنه بطل على يديه بأمر هو أقوى من السحر، وهو المعجزة؛ ولذلك لما سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم؛ خاف موسى من ذلك، ولو كان عالما به لم يخف، كما لم يخف العالمون به، وهم السحرة؛ فقال الله له: {قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى} [طه: ٦٨].

ثم قال: {إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى} [طه: ٦٩].

وهذا تعريف بعد التنكير، ولو كان عالما به لم يعرف به، والذي كان يعرف من ذلك أنهم مبطلون في دعواهم على الجملة، وهكذا الحكم في كل مسألة من هذا الباب، فإذا حصل الإبطال والرد بأي وجه حصل، ولو بخارقة

على يد ولي لله، أو بأمر خارج عن ذلك العلم ناشئ عن فرقان التقوى؛ فهو المراد، فلم يتعين إذا طلب معرفة تلك العلوم من الشرع"

رحم الله الشاطبي، هذه جملة مفيدة، فيها فوائد جمة، وتدل على أن الرجل يعرف مراتب الأدلة، ونحن، لا نقول من باب الحكم، ولكن من باب الاكتشاف، ليس لنا أن نحكم على الإمام، لكننا نكتشف الإمام، فلما نقول يدل على أن الرجل يوَسع باب الأدلة على خلاف ما يقوله البعض، وهذه مسألة -أي توسع أو توسيع باب الأدلة- شأن الكبار، هذه المسألة شأن الكبار، ولأن الصغار لا يعرفون إلا الحدود الدنيا والحدود العليا، فقط، الصغار لا يعرفون إلا الحدين، فهم لا يعرفون، كما يقول الجاحظ، الجاحظ له كلمة رائعة -لا بأس- في كتابه (الحيوان)، يقول: الجهلة لا يعرفون إلا الإنكار المطلق، ولا يعرفون إلا اليقين المطلق، فهم إما مكذبون لما يسمعون على الجملة، أي إذا جاءهم خبر كذبوه، وإما يصدقونه، فهذان حدان لهما. العلماء ليس هذا شأنهم، لماذا؟ لأنه بين اليقين المطلق، وبين الإنكار والرد المطلق، هناك مراتب، هذا هو شأن العلماء. وابن القيم -رحمة الله عليه- في كتابه (الطرق الحكمية) أتعب نفسه وجرى جري اللاهث من أجل أن يبطل هذه القاعدة، وهي حصر الأدلة، واضح يا مشايخ؟ وابن تيمية -رحمه الله- في (نقض المنطق) صار في هذا السبيل قبله، عندما رد على المناطقة في الأدلة الموجبة للعلم، على طريقته، فردها، وابن القيم لما جاء إلى معنى الأدلة ردها، والآن سأتكلم عن ابن حزم، رد هذه الأقاويل التي تَحصُر الأدلة، هناك شو قال؟ كلمته: "كل ما أدى إلى الحق فهو دليل"، على الرد على الذين يوجبون الشهود أو الاعتراف في معرفة الأدلة في طرق القضاء. كتابه (طرق الحكمية) فقط لهذا، لو قال قائل أن كتاب ابن القيم -رحمة الله عليه- من أجل هذه المسألة لأصاب، والكتاب كذلك، للرد على من حصر الأدلة عند القاضي لمعرفة الحقيقة، الأدلة لا حصر لها. ابن تيمية رد على أهل المنطق عندما قالوا: "إن الطريق الوحيد لتحصيل التصور هو الحد"، رد عليهم. وهذا رجل كذلك عظيم في هذا، لا يهمني كيف رد عليهم في المسألة التي بين أيدينا، سأبينها، ولكن ما يهمني أن الشيخ على سنن هؤلاء الكبار.

وأنا أقول نحن لا نحكم ولكننا نكتشف، هذه مهمة جدًا، لئلا يقول قائل أننا جلسنا فوق مرصد عال لنحكم على الناس أو على كبار الأئمة، نحن في مقام التعلم، واضح هذا؟ وكذلك ابن حزم، حتى هذا الرجل العظيم، وأنا من محبيه لكني لست من المفتونين به، مضى هذا، عصر الفتنة عشناه، في أول الطلب عندما جبهنا وصدمنا -كما سُمي عند المعاصرين- بمنجنيق أهل المغرب، فمن يقف أمامه؟ فلما صفت لنا الأجواء علمنا مقامه بين الأئمة، لو قيل أين ابن حزم؟ لقيل ليس هو في مرتبة الكبار من الأئمة، بل ولا في المرتبة الثانية من كبار الأئمة، أضعه أنا في المرتبة الثالثة،

بعلومه كلها، وهو رجل عظيم ولكن يكفي هذا، يعني لا أضعه لا في مرتبة الشافعي، ولا في مرتبة مالك، ولا في مرتبة أحمد، ولا في مرتبة أبي حنيفة، ولا يوضع في مرتبة تلامذتهم، كالربيع عند الشافعي، ومحمد بن حسن عند أبي حنيفة، وهكذا، إنما هو فقط في المرتبة الثالثة. ومع ذلك ما يهمني هنا أنه لما جاء إلى الأدلة وسَّع بابها. نعم، ترك القياس على معنى معين، على معنى معين ترك القياس، ولم يسم البناء الذي يسميه الفقهاء قياسًا في بعض صوره قياسًا، إنما سماه برهانًا. عندما يضرب الأصوليون مثالاً عن القياس: كل مسكر حرام، والخمر مسكر، فالخمر حرام، هكذا يقولون، يقول بهذا الدليل هو، صورة هذا الدليل لا ينكرها، لكن لا يسميها قياسًا يسميها برهانًا، فلما أتى إلى الدليل قال: الأدلة: الكتاب والسنة والإجماع والدليل، إذا بحثنا عن كلمة الدليل، وجدنا أن الشيخ توسع فيها، وهكذا. ولذلك الشيخ هنا يجري على سند هؤلاء الكبار، ولا يقف موقف الذين يتكلمون عن الأصول باعتبارها حدودا منتهية، لا يقف على هذا الموقف. الأدلة ما هي؟ الكتاب والسنة، هو يقول: لا، هناك أدلة كثيرة، واضح؟ هذه سنبينها، وأنا هذا ما يهمني هنا في هذا الباب، هذا ما يهمني في ما يقوله الشيخ.

يعني، مرة، يقول ابن القيم -رحمة الله عليه- في توصيف طريقة ابن تيمية في الردود وفي التقريرات، يقول: عندما يتكلم فيذهب -هذه قلناها-، ثم يفتح له هذا الطريق بابًا من العلم، فيكون تقريريه لهذا الباب خير من تقريره الذي يريده أصالةً، أو للإجابة التي يريدها ابتداءً، يكون ما ذهب إليه أحب إلينا في البيان، واضح؟

هذه مسألة مهمة، يعني أن الرجل يريد شيئًا، وهذا الذي يسميه الأحناف بالظاهر، ما هو الظاهر عند الأحناف؟ ليس على طريقة الجمهور، الظاهر عند الأحناف ما فُهم تبعًا لا أصالةً.

مراتب الأدلة: أولاً: المفسر والمحكم عندهم، أول شيء عندهم المحكم، ثم المفسر، ثم النص، ثم الظاهر. ما الظاهر عند الأحناف؟ الظاهر عند الأحناف هو ما فُهم تبعًا لا أصالة، ويمثلون على ذلك بقوله تعالى: {وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا}، فيقولون هذا ليس أصالةً، لم يرد بها هذا، إنما أراد، ما هو الأصالة؟ هو تفرقة البيع عن الربا، هذا أصالة: "البيع ليس مثل الربا"، وما هو؟ {وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا}، هذا تبعًا، انظر، فكان التبع فيما يظهر لنا أجمل من الأصالة. يعني عندما نقول: {وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا}، هذا ماذا هو؟ هذا سيق تبعًا للرد على الذي قالوا: {إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ

الرِّبَا}، الله أراد أن يبين أن البيع ليس مثل الربا، فجاء تبعًا: {وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا}، فكان التبعي أجمل من الإصالة في الرد عليهم.

النقطة التي بين يدينا، والآن نرجع إلى مقصد الشيخ نرجع إلى الكتاب، ما زلنا مع الكتاب لا نريد أن نطير فنبتعد عنه.

الشيخ تقدم في ذكر مقالة مخالفيه، في أنهم قالوا بأن العلوم فرض كفاية، ومن ذلك أن هناك من العلوم ما هي فرض كفاية على جهة الرد –انتبهوا–، هي فرض كفاية على جهة الرد على فاعليها المبتلين، فتعلم السحر والطلسمات وغير ذلك هي فرض كفاية، لماذا يقول؟ هؤلاء يقولون: السبب أنها فرض كفاية هو للرد على هؤلاء، واضح الكلام؟ واضح يا مشايخ؟ يقول أنها فرض كفاية للرد، ليس السحر فرض كفاية من أجل ذات هذا العلم، فهو علم باطل بل شركي، لكنه فرض كفاية للرد. الشيخ رد عليهم بما تقدم مما قرأ لنا الشيخ فقال: "إنَّا لا نسلم ذلك على الإطلاق –والدليل أنه إذًا يسلم ببعض جهته أو ببعض معانيه– وإنما فرض الكفاية رد كل فاسد وإبطاله، علم ذلك الفاسد أو جهل؛ إلا أنه لا بد من علم أنه فاسد، والشرع متكفل بذلك"، يقول بأنه، بأن ما قلتموه هو ليس على إطلاقه، وإنما المراد من الرد معرفة إبطاله، وليس معرفة حقيقته، ماذا يعني هذا؟ يعني أنك ربما تُبطل الشيء دون أن تعرف حقيقته –دون أن تعرف ماذا؟ يعني ما معنى حقيقته؟ كنهه، ماهيته، كيف هو–، ولكنك تعلم ما يشارك هذا العلم من الغلط، وأما كنهُه فأنت جاهل به. ويضرب على ذلك بالسحر، فإن السحر يجهله العالم، ولا يعرف كيف يمشي هذا العمل وهذا الفن البشري، لا يعرف العالم كيف يمشي على يد فاعله، لكن المسلم وطالب العلم يعلم بأن هذا العلم باطل، لماذا؟ ليس لأنه يعلم ذاته، ولكن يعلم لما يأتلفه من أمور، ولما فيه من أمور، ولكن لا يعلم حقيقته، أليس كذلك؟ لا يعلم. ولذلك السحر ليس من الدين أن تتعلمه، بل في الحقيقة لا يمكن أن يتعلمه المرء على جهة الممارسة والفعل إلا أن يكفر، حتى يصبح الرجل ساحرا لا بد أن يكفر: {وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ}، فباب تعليم السحر هو الكفر.

فأنت إذًا لا تعرف ما داخل البيت، لا تعرف ما داخل البيت، ولكن مكتوب على هذا الباب الذي يدخلك إلى البيت: "لا تدخله حتى تكفر"، فعلمت أن ما وراءه هو الكفر والردة.

وهذا الذي قاله، ثم استرجع الشيخ -رحمة الله عليه- قصة ابطال موسى للسحر، فلم يكتف موسى، ولم يرد، بل لم يرد أن يعلم كيف يمارس هؤلاء السحرة هذا الإجرام وهذا الكفر، ويكفي أنه أبطله بالحق. الآن وقفنا إلى هنا، هذا هي طريقته، طريقته في القول بأن ما سميتموه فرض كفاية ليس على الإطلاق، يكفي أن تعلم أنه باطل، لماذا؟ لإبطال الشرع له ولِما يكتنف هذا العلم من أمور مقررة عند أهل العلم أنها باطلة، إذًا ليس كل علم ممدوح، رجع إلى النقطة، أراد أن يقول -النقطة الأولى وهي المهمة-، أن ليس كل علم ممدوح، هناك علوم لا قيمة لها، بل لا يفعلها المرء إلا بعد ضلال أو إضلال. أين وجدنا في كلام الشيخ ما تقدم من توسيع دائرة الأدلة؟ إلى هنا يكفي. طبعًا أنتم تعلمون أن القول بأن نتعلم السحر ونعمل به كل هذا باطل، وأحاديث لا قيمة لها، لأن السحر لا يُتعلم، ويكفي أن يعلم المرء أنها باطلة من جهة الشرع، فيعود عليها بالكر والإبطال، طيب.

الآن نأتي إلى كلمته التي افتتحنا بها الشرح، انظر إليها: والذي كان يعرف من ذلك أنهم مبطلون في دعواهم على الجملة، أي موسى عليه السلام يعرف أنهم مبطلون، أنهم على باطل، وهكذا الحكم في كل مسألة من هذا الباب. انظر إلى هذه، تأمل هذه الجملة وضع تحتها خط، فإذا حصل الإبطال والرد بأي وجه حصل، ولو بخارقة على يدي ولي لله، واضح؟ أو بأمر خارج عن ذلك العلم، ناشئ عن فرقان التقوى، فهو المراد فلم يتعين -هذه الجملة-، فلم يتعين إذًا طلب معرفة تلك العلوم من الشرع.

إذًا هو يريد أن يقول، وقلنا أن الأدلة ثلاثة: استشهاد، واعتضاد ورد اعتراض. الآن هو في مقام رد الاعتراض، أليس كذلك؟ بلى، هو في رد الاعتراض الآن، في رد الاعتراض يوسع باب الأدلة لهذا العلم، وهو رد الاعتراض، فإن المناطقة والمتكلمين لو قيل لهم: ماذا هو السبيل لرد الاعتراض؟ لقالوا هو العلم، هو الكلام، أن تتكلم بالجدل، يأتي بالأدلة ترد عليه بالأدلة وغير ذلك، هذا هو الذي يجري عليه الناس والأصوليون في بيان طرق الجدل، وهو أن يأتي بالسؤال فيرد عليه بالجواب، ويأتي بالاعتراض فيرد على الاعتراض بالاعتراض، وهكذا. فيقول المسألة ليست كذلك، هذا الذي أردته، يقول: إن مسألة العلم في رد الاعتراض ليست محصورة فيما يحصره أصحاب كتب الجدل.

علمُ الجدل علمٌ ليس مذمومًا على الإطلاق، علم الجدل هو جزء من علم الأصول، وقد صنف فيه الأئمة في كتب الأصول، ثم أُفرد هذا العلم في كتب مستقلة، ولكن علم الجدل هو جزء من علم الأصول، هذا تقدم الكلام فيه، أنا هنا

أتكلم عن الجدل الممدوح، وهو الجدل القرآني، الجدل السني، الجدل المهتدي. ايش الجدل هنا؟ الجدل ليس بالمفهوم المذموم الذي عليه، وهو الرد مطلقًا، وهو الكلام فيما لا منفعة فيه، الجدل من الجدْل، وفي الجدْل لا بد من شيئين، يعني السؤال والجواب لأهل الكلام، والاعتراض ورد الاعتراض، وهكذا، فإحدى طرق العلم العظيمة هو الجدل، وهذا ذكرته في مقدمة تعليقي على كتاب (كسر الصنم)، واضح؟ وهذا فن عظيم عند أئمتنا، فن عظيم، من قرأ كتاب (العواصم من القواصم) مثلاً، هذا كتاب من الألف كتاب، هذا كتاب عظيم لا ينبغي لرجلٍ تتصور أن يقال عنه طالب علم دون أن يقرأ هذا الكتاب، ويقول لك أنا طالب علم ولم يقرأ هذا الكتاب، ضعه على الجانب، هذا كتاب: (العواصم والقواصم)، ليس لأبي بكر العربي المشهور هذا، لا، (العواصم والقواصم) لابن الوزير، وهذا رجل عجيب، هذا ابن الوزير رجل عجيب، معاصر لابن تيمية ولم يره ولم يسمع به، يعيش في اليمن. كتب هذا الكتاب لولا وجود الفرق في الأسلوب – الأسلوب هذا شيء مهم، قصدي أسلوب الكتاب، وليس أسلوب العلم في الرد–، ولولا أن شيخ الإسلام له أسلوب آخر في الكلام، ويقول أهل اللغة: الرجل بأسلوبه، كما أن للرجل صفحة وجه يعرف بها ويتميز بها عن غيره، كذلك للرجل لسانه وقلمه الذي يتميز به عن الآخرين.

هذا أمر مهم جدًا، وهذا الذي يقوله، لا بأس أن أفتح قوسًا هنا، وهذا الذي قاله الباقلاني من أجل إثبات إعجاز القرآن، الباقلاني له كتاب اسمه (إعجاز القرآن)، وهو إمام جدلي من علماء الجدل العظام في تاريخنا، ويكفي فخرًا هذا الباقلاني، أن الإمام الداراقطني المحدث الأثري العظيم، كان إذا قابله قبَّل يده، لأنه كان الصخرة التي هي في زمانه تتكسر عليها أدلة الزنادقة. الأثريون مشتغلون بالحديث، الداراقطني مشغول بالرؤية وإثباتها ضد النفاة، مشغول بالنزول وإثباته، مشغول بالحديث ومسائله، وهو باب عظيم تحتاجه الأمة، لكن ما الذي يقف على باب الإسلام ليرد العاديات عنه؟ الباقلاني. فالرجل يعرف أنه في الداخل، لولا الباقلاني على باب البيت يحميه لدخل عليه الزنادقة وما صنع بالأحاديث شيئًا، فكان إذا قابله علِم مقامه وقبَّل يده. هذا من أئمة أهل الجدل في التاريخ، وهو، الحق الذي يعرفه طلبة العلم أن مذهب الأشاعرة لا ينتسب للأشعري على الصحيح، مذهب الأشاعرة، الذي قرر قواعده، وأرسى دعائمه، وفصل معالمه، إنما هو أبو بكر الباقلاني، لذلك إذا قيل مذهب الأشاعرة، فإنه مذهب أبي بكر. حتى تعلموا أن أئمتنا كانوا يعرفون للناس فضلهم حتى وهم في البدعة، لكن يعرفون أين مقامهم من الدفاع عن الإسلام، هذا الذي أريد أن أقوله.

نرجع إلى كتاب ابن الوزير، فالرجل بأسلوبه، الباقلاني ضربت المثل حتى نعرف الأسلوب، قال الباقلاني في (إعجاز القرآن): "إذا أردت أن تعرف إعجاز القرآن عليك أن تقرأ الشعر العربي، وأن تقرأه جميعًا"، طبعًا هذا الشيخ ذهب إلى أبعد الطرق، لكنه أجمل الطرق، وأفضل الطرق، وإذا سلكت هذا الطريق الذي أراده الباقلاني، لم تصل إلى نهايته حتى تكون جبلاً من العلم. ماذا يريد منا الباقلاني هذا الرجل العظيم في كتابه (إعجاز القرآن) حتى ندرك سر كلام المتكلم – وهو الله–؟ يقول: عليك أن تقرأ كلام العرب، وشعر الشعراء فتعرف كل شاعر من لسانه، ما هو، ما نفسيته، كيف يتكلم، ثم ترجع إلى كلام الله، لتدرك أن كلام الله يختلف عن كلام المتكلمين، فكلام المتكلمين يدل على أنهم بشر، وكل بشر له سمة، وحين ترجع إلى كتاب الله، فتعلم أنه يتحدث هذا الكتاب عن إله، وأنه المبين عن ذات ربنا، وعن نفسه، وعن علمه.

هذا عن الأسلوب، نرجع الآن للكلام عن العواصم، فكتاب (العواصم والقواصم)، وهو خلاف كتاب (العواصم من القواصم) لأبي بكر العربي، هذا كتاب، قلتُ أنه لولا وجود اختلاف الأسلوب، لقال رجل: هذا ابن تيمية يتكلم.

ودلَّ هذا على أن من سلك طرق العلم وصل إلى ما وصل إليه الناس الأوائل، هذا علمٌ لا يُختم، وهذا علم لا يقف عند أحد. إذا تسلك طريقه، تبذل جهدك له، تعرف وسائله، ستصل إلى ما وصل إليه الأوائل، وبعد ذلك تنطق بالحكمة وتنطق بالكلمة، فتصاب بما يُصاب به الكثيرون، يقولها الكثيرون، تصبح تتكلم بالكلام فتعجب أن فتح الله عليك هذا الكلام، فإذا رجعت إلى كلام العلماء وجدت كلامك ككلامهم، فتصاب بالحزن وبالفرح.

أما الفرح فلأن كلامك وافق كلامهم، تقول: الحمد لله، صرت أغني مثلهم، تقول عائشة لأبي سلمة بن عبد الرحمن: "يا أبي سلمة ما أنت إلا صوص رأيت الديكة تصرخ فصرخت صراخهم"، يعني صار ديك. هكذا شأن العلماء، قالوا يومًا عن الشعر: "يا من أنشأ القلم، ما زال هذا الرجل يهذي حتى قال الشعر"، ما زال هذا الرجل يهذي حتى يصير بعد هذا ايش؟ هذا يفرحك. ماذا يحزنك؟ لأن الإخلاص عزيز، تتمنى أن ينسب الكلام لك، ولكن أنى لك ذلك، سبقك بها العلماء.

القصد؛ نرجع إلى المسألة الأولى، وهو توسيع دائرة الدليل، هذا الذي قاله، يريد أن يقول بأن الأدلة التي تُنشئ العلم ليست محصورةً فيما قاله الأصوليون، الأدلة أوسع. اطمئنان القلب، كيف ينشأ؟ يقول: اطمئنان القلب ينشأ بطرق متعددة، وجاء إلى مسألة خارق العادة، هل تُنشِئ علمًا؟ هل خارق العادة تُنشئ علمًا؟ الجواب: نعم، تُنشئ علمًا. لكن هل خارق العادة تُنشئ علما يقيم الأدلة على درجة الاستشهاد أم الاعتضاد؟ على درجة الاعتضاد. لو أن رجلاً علِمت فيه التقوى والصلاح وظهر على يديه الكرامة، وهكذا، فهذا يدل على أنه أقرب إلى الله، مع أن شيخ الإسلام في (الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان) له قول آخر. في التعليق على هذه الكلمة التي يقولها الشاطبي، للتوسعة فيها يقول ابن تيمية –رحمه الله– أنَّ الله لا يُظهر الكرامة إلا عند ضعف العِلم، فإذا احتاج الناس إلى دليل غير العلم، كانت هناك الكرامة لتَجْبُر ما حصل من نقص في العلم. وضرب الأمثلة الكثيرة، وجاء إلى كلمة النبي –صلى الله عليه وسلم–، –انتبهوا إلى هذا، هذا فقه، هذا فقه خاص، توافقه أو تخالفه، لكنها تدل على السمو في الفهم–، يقول ابن تيمية –رحمه الله– بأن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: (لو كان في أمتي محدثون لكان عمر)، يقول: لما كان الكتاب والسنة فيهما الكفاية لأهل العلم، لم تحتج هذه الأمة إلى محدثين، وإلى من يُلقى عليه الكلام، لم تحتج هذه الأمة لهذا، هذا هو تفسير الحديث. يقول لك عمر ليس بمحدث، لماذا؟ لعدم حاجة هذه الأمة إلى من يُلقى على لسانه الكلام ليعرف الناس الحق، لماذا؟ لاستغناء هذه الأمة بالكتاب والسنة.

ولذلك الكرامة عند شيخ الإسلام –رحمه الله– هي بابٌ من أبواب مَلْءِ العجز عن حصول العلم، قد يحتاجونه. لكن المرء يظهر له غير ذلك، تظهر له الرؤية، ولذلك من مسائل الأصول –وأدرجها كثير من أهل العلم، وأقرب الكتب وهو كتاب الشوكاني وهو: (الإلهام)، اطمئنان القلب–، الرؤية هذه، هل تحصل العلم؟ وهذه على الجملة لا تنشئ علمًا، لكنها تعضد هذا العلم. إذًا من رأى الاستقامة، رأى أن الله عز وجل يوفقه من طاعة إلى طاعة، من عبادة إلى عبادة على الشأن الذي هو فيه، علِم أنه على هذا السبيل الذي سلكه الأوائل.

انتبه إلى كلمتي، أريد أن أقول هنا كلمة، الشيخ دقيق، الشيخ أصولي، يقول: وهكذا الحكم في كل مسألة من هذا الباب فإذا حصل الإبطال والرد بأي وجه حصل ولو بخارقة على يد ولي لله، انتبه إلى كلمته الأخرى هذا ما يهم، إذا وضعتم تحت هذه الجملة خط، فضعوا تحت هذه الكلمة خطوط، قال: أو بأمر خارج عن ذلك العلم.

يريد أن يقول بأنه ليس من الضروريات للرد على المبطِل أن تذهب –والآن نذكر أدلة–، ليس من العلم في إبطال علم باطل أن تذهب إلى العلم مباشرة، بل ربما تذهب إلى غيره للدلالة عليه إو لإبطاله. والدليل على ذلك حديث الفتى، الفتى لما وقف متحيرًا بين الراهب وبين الساحر، وسمع من هذا وسمع هذا، وبلا شك، مال قلبه لكن بقي على درجة من الشك، هناك جزء من قلبه يملؤه الشك ويحتاج إلى يقين. بما حصل اليقين؟ هل بمناقشة ما يقولون؟ الراهب يقول شيئا، والساحر يقول شيئا، أمر ليس له أي علاقة بما سيحدث بعد ذلك، ما الذي حدث بعد ذلك؟ أن وقفت دابة، فعلِم الحق بما؟ بأمر آخر، علم الحق بأمر آخر لا علاقة له بالعلم المبحوث، ولا علاقة له بالمسألة الموضوعة، واضح يا مشايخ؟ إنما ذهب إلى أمر آخر، قال: (اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة)، وما دخلها؟ وهكذا. فلو قال قائل: ما أمر الدعاء؟ لماذا تذهب للدعاء؟ نقول لأنه من سبل العِلم التي يحصل بها اليقين في القلب، واضح؟

هذه الكلمة مهمة منه، وهو قوله –رحمه الله–: "أو بأمر خارج عن ذلك العلم، ناشئ عن فرقان التقوى". في سورة الأنفال يا مشايخ، سياقات متعددة، في: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا}، **هذه واحدة**، تقدمت، والعجب أن يبدأ بها. ثم جاء بعدها: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ}، انظر، موقف عملي، موقف طاعة وإخبات: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ}، **هذه الثالثة**، **رابعًا**: {أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}، بما خُتمت؟ هذه النداءات الربانية للمؤمنين: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ}، كل تلك أوامر، هذه خاتمة الوعد، هذه الأوامر: لا تفروا، استجيبوا، أطيعوا، لا تخونوا، بعد أن ذكر الله الفضائل والمكارم من الدنيا، قال: {لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}، ثم جاءت المكرُمة في النهاية، وقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ}، هذا متى تتقي الله؟ بالأوامر التي تقدمت. ماذا كانت النتيجة والعاقبة؟ {يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا}، فوجود الفرقان في القلب للتفريق بين الحق والباطل، هذا هو شأن أهل الدين وأهل العلم. العالِم لا يرد عوادي البدع بما علِم في عقله فقط، لا، العالم –خذوها مني–، العالِم يرد عوادي البدع والضلالات بما وقر في قلبه أكثر مما وقر في عقله، مرات حتى تكون هذه لا يعرفها إلا لمحًا بهذه البدع، قد يقول هذه صوفية جديدة يا شيخ، ماذا نريد؟ هذه صوفية، هذا دين، وهذا تقوى.

وهكذا كان الصحابة يفهمون، حتى قال عمر –رضي الله تعالى عنه–: "فما رأيت حتى هدى الله قلب أبي بكر فعلمت أنه الحق"، هذه مراتب فوق ما يريد البعض أن يحصر الأمر في الكلام واللفظ وما يقول، وحسب ما يغلب المرء في مناظرته، شيء وقر في قلبه، شيء استقر في قلبه، شيء وجدته في نفسي، هذا لا ينفع إلا –شرطه–، لا ينفع إلا {إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ}، رجل يأكل الحرام محبوس عن نور بالهداية، رجل ينظر إلى الحرام محبوس عن نور التوفيق، واضح الكلام؟ رجل لا يُصلح بينه وبين الله، الله يمنع عنه النور. هذا نور خاص، وهذا النور الذي كان علماؤنا يستمدون منه الخير، هذا النور هو الذي وقر في قلب البخاري، وهو يكتب كل حديث فيستخير الله فيه، فيستقر في قلبه، واضح الكلام؟ هذا نور آخر الناس في غفلة عنه، وهذا هو الذي يسمى بالفرقان كما أراد الشيخ هنا، وهو فرقان التقوى، الفرقان هو الذي يفرق بين الحق والباطل، وكلما ازداد المرء نورًا ازداد فرقانه. لو دخلت هذا البيت وهو مظلم، لا تفرق بين الحية والعصى، هذا الكلام هل له مقدمات؟ نعم، هته المقدمات هي أعظم مقدماته، ولا يصلح إلا أن يكون الرجل عالما، لأنه لو وُضع له النور ولا يعرف الأشياء وأسماءها، ولا يعرف تمييزها، فحتى لو وُجد النور يحمل العصى وتكون حية، وهو لا يعرف، كما يفعل الطفل الصغير.

وهذا لا يحصل بمجرد القراءة، ولا بمجرد البحث، هذا يحصل بالإخبات والطاعة والاستغاثة. هذا الذي كان يفعله أئمتنا حين يُحبسون عن بعض الفهم، فيلتجؤون إلى الله ليفتح عليهم، هذا الذي قاله ابن القيم في (مدارج السالكين)، عن شيخه ابن تيمية أنه إذا أعيته مسألة.

نحن هل هناك مسألة تعيينا اليوم يا مشايخ؟ الأمور واضحة الحمد لله، نحن اليوم كل المسائل عندنا بينة، حتى أننا نعلم إيمان الرجل وكفره من قلبه ليس من لسانه، نحن كل شيء مكشوف عندنا، نحن عندنا كل العلوم بينة، لكن هذا رجل مسكين، اسمه ابن تيمية، فكان إذا أعيته مسألة ذهب إلى مسجد مهجور –يقول ابن القيم– فسجد لله طويلا يقول: "يا معلم إبراهيم علمني يا مفهم سليمان فهمني"، فلا يرفع رأسه حتى يفتح عليه. هذا شأن هذا الدين، هذا دين رباني، علاقة مع الله، ليست الواسطة بينك وبين الله فقط الحرف ولا الكلمة، فيما تعلم ماذا يحب الله وماذا يكره، الواسطة بينك وبين الله –بعد أن تعلم كلمته وكلمة رسوله–، هي واسطة خفية بينك وبين الله.

هل هذا من الجدل؟ هل هذا من العلم؟ الجواب: من العلم، لكن هل خارج عما نحن فيه من الكلام؟ الجواب: نعم، هذا الذي أريد أن أقف عليه. ولذلك هذه كلمة رائعة من الشيخ، طبعًا هذا كلام صوفي يا إخوان، كل هذا صوفي. واليوم لن نطيل كثيرًا لأسباب، ولكن إن شاء الله نحاول أن ننهي المسائل، أرجوا أن نمشي، ولو وقفنا هكذا سيطول الأمر.

"وعن الثالث: إن علم التفسير مطلوب فيما يتوقف عليه فهم المراد من الخطاب، فإذا كان المراد معلوما؛ فالزيادة على ذلك تكلف، ويتبين ذلك في مسألة عمر، وذلك أنه لما قرأ: {وفاكهة وأبا} [عبس: ٣١] ، توقف في معنى الأب، وهو معنى إفرادي لا يقدح عدم العلم به في علم المعنى التركيبي في الآية؛ إذ هو مفهوم من حيث أخبر الله تعالى في شأن طعام الإنسان أنه أنزل من السماء ماء فأخرج به أصنافا كثيرة مما هو من طعام الإنسان مباشرة؛ كالحب، والعنب، والزيتون، والنخل، ومما هو من طعامه بواسطة، مما هو مرعى للأنعام على الجملة؛ فبقي التفصيل في كل فرد من تلك الأفراد فضلا؛ فلا على الإنسان أن لا يعرفه، فمن هذا الوجه والله أعلم؛ عد البحث عن معنى الأب من التكلف، وإلا؛ فلو توقف عليه فهم المعنى التركيبي من جهته لما كان من التكلف، بل من المطلوب علمه لقوله: {ليدبروا آياته} [ص: ٢٩] ، ولذلك سأل الناس على المنبر عن معنى التخوف في قوله تعالى: {أو يأخذهم على تخوف} [النحل: ٤٧] ؛ فأجابه الرجل الهذلي بأن التخوف في لغتهم التنقص، وأنشده شاهدا عليه:

تخوف الرحل منها تامكا قردا ... كما تخوف عود النبعة السفن

فقال عمر: "يا أيها الناس! تمسكوا بديوان شعركم في جاهليتكم؛ فإن فيه تفسير كتابكم"، ولما كان السؤال في محافل الناس عن معنى: {والمرسلات عرفا} [المرسلات: ١]، {والسابحات سبحا} [النازعات: ٣] مما يشوش على العامة من غير بناء عمل عليه، أدب عمر صبيغا بما هو مشهور، فإذًا تفسير قوله: {أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها} الآية [ق: ٦] بعلم الهيئة الذي ليس تحته عمل؛ غير سائغ؛ ولأن ذلك من قبيل ما لا تعرفه العرب، والقرآن إنما نزل بلسانها وعلى معهودها، وهذا المعنى مشروح في كتاب المقاصد بحول الله"

جزاك الله خيرًا، الحقيقة أنني أريد، في وقت قادم وليس الآن، أن أبين أن وجه مقالة الفاروق –رضي الله عنه– عندما سأل عن الأب، وهربتُ وتحايلتُ عليكم، هربت منها سابقًا، وما زلت أهرب، أنا أوقف نفسي للكلام عليها، لكن ليس الآن. وهو هل معرفة كيفيات الأشياء من التكلف؟ أم أنها على معنى التكلف على ما تقدم في الدرس

الفائت؟ وهو التخصيص بالسبب. هذه يستحضرها كثيرًا، وستجدونها كثيرًا فيما أتكلم عنه، التخصيص بالسبب ذكرنا هذا، وهو أن الكلام ليس على إطلاقه، ولكنه مقيد بالحال الذي قيل فيه، أو بالسبب الذي أُنشئ من أجله الكلام، واضحة هذه النقطة؟ هذه تكلمنا عنها، لما جئنا إلى حديث: (نعم الإدام الخل)، ولما جئنا إلى حديث: (نحن أمة أمية)، وهكذا. هذا باب واسع، نعم الفقهاء يستخدمونه في مسائل الفقه، وههنا كلمة، أكرر: الفقهاء يستخدمونها في مسائل الفقه فهي محصورة في مسائل الأحكام، لكنني أكرر لكم بأن قواعد الأصول هي قواعد الفهم -هكذا قلنا-، إن قواعد الأصول هي قواعد الفهم.

وهذا نُجريه، ويجب علينا أن نفهم كلامه بما يناسب الحال، وبما يُنشئ الكلام، السبب الذي أنشأ الكلام، ما هو؟ فتفهم الكلام والسبب المنشئ، لذلك قلت نحن مع الشافعي في التخصيص للسبب، وهل نجري كلام ربنا على ما يجري عليه كلام الناس؟ هذا أولى بأن نُعمله.

القصد بأن عمر -رضي الله تعالى عنه- لما قال: {وَفَاكِهَةً وَأَبًّا}، ثم قال: "هذا التكلف يا عمر"، فإنما لها سبب، وهو عندي باختصار هنا أنه انشغال عن الأهم بالمهم، أو انشغال عن المهم بما هو مستحب، بما هو مجرد مستحبات، يعني على قاعدة الضرورات والواجبات والمستحبات، هذه مستحبات، وليس من التكلف على معنى الذم، يعني كيف أتكلف البحث عنها وأنا مشغول بغيرها.

وهذا الذي يقوله الشيخ هنا هي قاعدته فيما قلنا كثيرًا بأنه يرفض التفسير العلمي. طبعًا هنا يأتي إلى المعنى الإفرادي والمعنى التركيبي، وهذا معروف عند أهل اللغة، المعنى الإفرادي يعني الكلمة: "أبًا"، والمعنى التركيبي: في السياق، بالنظر إليها في السياق وهي دالة على أنها من الخضروات أو من النباتات، نعم، ويكفي هنا.

وهنا كلمة عظيمة تُنسب له والحديث موقوف كما ترون، والأمر فيه سهل، أنه لما جاء إلى قوله تعالى: {أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ}، وقال التخوف هو التنقص، لأن الخوف في الحقيقة إذهابٌ لبعض كمال الرجل وهو الشجاعة، فإذا خاف نقص، فجاءت على معنى التنقص، ثم ضرب مثالاً بالشاهد الذي أتى معنا.

وهذا الذي يقوله هنا الشيخ في الثالث، وهو الرد على حكاية الفخر الرازي التي تقدمت، حكاية الفخر الرازي تقول بأن الرجل كان يُعلم الرجل علم الهيئة، اليهودي يعلم المسلم علم الهيئة، فقال له ماذا تعلمه؟ قال: {وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا}، أعلمهم كيف هي السماء، وهذا ليس من الخطأ في شيء، لكنه انشغال عندهم عن الأهم بالمهم.

ثم قال بأن الأسئلة إما أن تنشأ على وجه الاستفسار والتعلم، وإما أن تنشأ على وجه التشويش والأغاليط، ولذلك في الحديث الضعيف الذي رواه أبو داوود وغيره، نهى رسول الله عن الأغاليط وهو حديث فيه ضعف، والأغاليط يعني أن تسأل لتُغلط المسئول أو لتُنشئ شيئًا في ذهنه لا يستحب.

يقول هنا: "فإذًا تفسير قوله تعالى في: {أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها}، بعلم الهيئة الذي ليس تحته عمل، غير سائغ، ولأن ذلك من قبيل ما لا تعرفه العرب"، هذه قاعدته وسنناقشها عندما يأتي الكلام حولها، "والقرآن إنما نزل بلسانها وعلى معهودها، وهذا المعنى مشهور في كتاب المقاصد بحول الله".

يكفي إلى هنا اليوم ، وكنت أحب أن أنتهي منها، كم بقي تقريبًا؟ خمسة وأربعين، نكمل إذن. الأشياء كلها رد بالطريقة المعهودة لطريقته، والآن صرنا نفهم الكثير من نفس الشيخ وتقريراته، تفضل.

"وكذلك القول في كل علم يعزى إلى الشريعة لا يؤدي فائدة عمل، ولا هو مما تعرفه العرب؛ فقد تكلف أهل العلوم الطبيعية وغيرها الاحتجاج على صحة الأخذ في علومهم بآيات من القرآن، وأحاديث عن النبي –صلى الله عليه وسلم– كما استدل أهل العدد بقوله تعالى: {فاسأل العادين} [المؤمنون: ١١٣].

وأهل [النسب العددية أو الهندسية] بقوله تعالى: {إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين} [الأنفال: ٦٥] إلى آخر الآيتين.

وأهل الكيمياء بقوله، عز وجل]: {أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها} الآية [العدد: ١٧].

وأهل التعديل النجومي بقوله: {الشمس والقمر بحسبان} [الرحمن: ٥].

وأهل المنطق في أن نقيض الكلية السالبة جزئية موجبة بقوله: {إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب} [الآية] [الأنعام: ٩١].

وعلى بعض الضروب الحملية والشرطية بأشياء أخر.

وأهل خط الرمل بقوله سبحانه: {أو أثارة من علم} [الأحقاف: ٤]، وقوله –عليه السلام–: "كان نبي يخط في الرمل" إلى غير ذلك مما هو مسطور في الكتب، وجميعه يقطع بأنه مقصود لما تقدم".

(...) بأنه **غير** مقصود، أي غير مقصود للشارع، لما تقدم من كلامه لما يقول: "كان نبي يخط في الرمل" إلى غير ذلك مما هو مسطور في الكتب، وجميعه، أي جميع ما تقدم، يقطع بأنه غير مقصود، صحيح؟ (..) وجميعه، أي مما تقدم، يقطع بأنه، أي مما قالوه، يقطع بأنه غير مقصود، للشارع، لما تقدم من كلامه أنه، أن عمر عده من التكلف إلى آخره.

طيب، والله هذه الجمل جميلة رائعة وتحتاج إلى وقفة، لا نريد أن نمر عليها هذا المرور السريع، وإلا لفوتنا بعض الفوائد، لكن أقف، هنا فقط أنا أنبه على كلامه، انتبهوا لهذا الموضوع، لأن الكلام عن الدين، فقط أريد أن أبرّئ الدين أنه لا يحض على العلوم، من كلام الشيخ، فقط من كلام الشيخ، تبرئةً لكلام الشيخ، انتبهوا، وإن كان في الحقيقة أتمنى أن نعود إلى هذه الجمل، يقول، وهذا طريقته كذلك في كتاب (الاعتصام)، هذه الجملة مرادةٌ عنده، وليست مقولة على وجه الخطأ أو على وجه الزيادة في الكلام، يقول: وكذلك القول في كل علم يعزى، انتبهوا إلى هذه، هذه توضع حتى نبرئ الشيخ مما ينسب إليه، حتى نبرء الشيخ، وكذلك القول في كل علم يعزى إلى الشريعة، فنقول بأن الشيخ لم يُرد هنا نفي هذه العلوم، ولا أنها غير ذات فائدة بالنسبة للأمة، هو لا يريد هذا، واضح الكلام؟ هو لا يريد هذا، إنما يريد أن يقول بأن هذه العلوم لا ننسبها إلى الشريعة، والشريعة لم تأت بها، وهذا في الحقيقة كلام صحيح بهذا المعنى. حتى الذين يقولون بالتفسير العلمي، هل يقولون بأن القرآن أُنزل كتاب كيمياء؟ هل يقولون بأن القرآن أُنزل كتاب جغرافيا؟ لا يقولون هذا، يقولون بأن القرآن كتاب هداية، الكل مجمِع على هذا. لكن هل يمكن أن يستفاد من هذه الآية فهمٌ آخر هو زائد عن مراد الكتاب في بيان الهداية؟ هذا الذي يقولونه، ولذلك الشيخ يقول: "وكل علم يعزى إلى **الشريعة**"، على قاعدته في كتابه (الاعتصام)، ماذا يقول عن البدعة؟ ويشرحها، يطول في شرحها في (الاعتصام)، يقول: "البدعة أمر تعبدي"، حتى يُخرج غير التعبدي، ويشرح هذا، أن البدعة لا تسمى بدعة في الشريعة على المعنى الشرعي المذموم حتى

تكون تعبدية، أما على ما يفعلها الناس من تحسينات في حياتهم أو ما فيها منافع، فهذه ليست من البدعة، حتى لو لم تكن على عهد النبي -صلى الله عليه وسلم-، واضح الكلام؟

فلذلك يقول هنا أن الخطأ في أن ننسبها إلى الشريعة، وإذا أردنا أن نفهم الآية نفهمها على جهة ما فهمه العرب. هل نقبل منه هذا الكلام؟ يرُده حديث، كلام الشيخ هذا يرده حديث، باختصار، وهو حديث: (ما من نبي إلا وقد أوتي آية من كتاب الله)، أو هكذا، الحديث الذي في الصحيحين، (وأني أوتيت على ما مثله آمن البشر)، يعني ما من نبي إلا وقد أوتي آية من الآيات تكون كافيةً لأهل عصره أن يؤمنوا به -أهل عصره-، ما من نبي إلا قد أتاه الله -عز وجل- آية، كرامة، معجزة، لكن النبي -صلى الله عليه وسلم- أوتي -هنا النص الذي يرد على الشيخ الشاطبي-: (وإني أوتيت ما على ما مثله آمن البشر).

إذًا أهل زمان كل نبي لهم حالة متحدة، تكون الإجابة على ما اتحدوا عليه فقط دون غيره. واضح الكلام؟ مثل قضية السحر، مثل قضية الناقة يرونها، إلى آخره، لكن النبي -صلى الله عليه وسلم- جاء من أجل البشر جميعًا، فهل يُدخلهم في الدين ما فهمته العرب من القرآن أنه كلام الله؟ الجواب: لا. لو خوطب اليوم أي أحد -حتى بعض العرب، لو خوطبوا بالإعجاز على طريقة القدماء لم يفهموها، ولم يعرفوا أن هذا معجز، لكن القرآن معجز، ومعنى أنه معجز أنه يعجز كل عصر، لا عصر النبي -صلى الله عليه وسلم-، فهذا إعجاز متجدد. هذه نقطة مهمة، لما نقول القرآن معجز، بمعنى أنه لا يستطيع أحد أن يأتي به في كل عصر؛ وهذا لا يمكن أن يتأتى إلا بتجدد الإعجاز، هذا التجدد معناه أن يُقيم هذا القرآن الحجة على أهل كل عصرٍ بما هم مبرزون فيه، كما أنه جاء للعرب بما هم مبرزون فيه في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم-، والذي برزوا فيه: البيان، الذي برز أهل ذلك العصر البيان والقِيم. انتبهوا، الذين يتكلمون، يتكلمون فقط عن الإعجاز في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم- فقط بالبيان، أنه معجز في البيان، ولكنه كذلك جاء معجزًا لزمانه في باب القِيَم، ففُتنوا بما فيه من قِيَم. اليوم: هذا الباب ضعيف: الإعجاز البياني وهو أغلبه وأقواه، وقد نشأ صراع معاصر: هل يمكن -هذه نقطة تحتاج إلى فهم، وأنوه بها لأهميتها، لأنها باب جميل ورائع، تفتح وراءها من العلوم العظيمة-، نشأ صراع وجدل معاصر، وهو هل يمكن أن نحيي الإعجاز الأول، وأن نتكلم فيه؟ مالك ابن نبي في (الظاهرة القرآنية) أشار إلى أن هذا أمرٌ قد توقف وانتهى، والشيخ محمود شاكر لما طُلب منه، وهذه مقدمة الشيخ شاكر، هذا كتاب من الألف كتاب، (الظاهرة القرآنية)، كتاب عظيم.

كأمر الغلاة اليوم، لما ظهر الغلاة في الجزائر أول ما بدأ السب على من ينتسب إليه الطوائف، منسوبون للجماعات، وهناك جماعة في الجزائر تسمى الجَزْأرة تتنسب للأستاذ مالك بن نبي -رحمة الله عليه-. وعليه ما عليه ككل علمائنا، نحن لا نتكلم عن مالك بن نبي كما نتكلم عن ابن تيمية، فالمعاصرون لهم تصرفات في السياسة والأحوال، كما نتكلم عن رشيد رضا، لو فتحنا باب الحديث عن هؤلاء لوجدنا كلامًا كثيرًا، لكن الجهلة لا يرون إلا الظاهر في الحقيقة، الجهلة لا يرون إلا الظاهر، لا يرون الجهة الأخرى من العلم والفائدة، بل قد يكون الظاهر قد غفلوا عنه وذهبوا إلى المؤول.

مالك بن نبي إنسان عظيم وكُتبه نافعة، ويُنصح طالب العلم بقراءتها كلها، إلا كتاب (المعجزة الأفرو-آسيوية)، هذا كتاب أنشأه لأجل مؤتمر باندونج، وعليه كلام، الرجل ظن أن جمال عبد الناصر هو الذي (د: ٠١:٠٢:٥٧ ينقذ؟) لما أنشأ ما يسمى بعدم الانحياز.

القصد؛ نعود إلى ما نحن فيه. نشأ خلاف، لما جاء مالك بن نبي -رحمه الله- إلى "الظاهرة القرآنية"، وتكلم عنها بكلام عظيم، وطرح موضوع الإعجاز من وجه جديد، ومالك بن نبي لم يكتب بالعربية، هذا أظن كذلك من سيئاته، كما أن من سيئات سيد قطب أنه حالق لحيته، ماذا نفعل؟ الأمة هكذا، نحن نعيش في زمن الصغار. فكان يكتب بالفرنسية وكان عبد الصبور شاهين هو الذي يترجم له، وعبد الصبور شاهين إمام، وعلى ما عليه، حتى مع كتابه الآخر: (آدم ليس آدم)، عليه ما عليه هذا الرجل، لكنه في الحقيقة في البلاغة والأدب أستاذ، وكان -عبد الصبور- صديقًا للشيخ شاكر، وكل إمام عظيم في هذا الفن -البلاغة واللغة-، عاصر الشيخ شاكر لا بد أن يكون صديقًا له، فجاء بكتاب (الظاهرة القرآنية)، وأعطاه للأستاذ شاكر - هو يرفض كلمة الشيخ على ما نعلم -، فالأستاذ محمود شاكر، لأن الشيخ تطلق على أحمد شاكر، فلما قال له واحد: شيخ، قال: الظاهر خلبط بيني وبين أخي، أنا لست شيخًا. القصد؛ فأحضر الكتاب (الظاهرة القرآنية)، وأعطاه للأستاذ محمود شاكر، وكتب مقدمة تستحق أن تُفرد في كتيب، هي مقدمة ليست كثيرة وهكذا هي عادة الشيخ، لم يكتب كتبا كثيرة وإنما عامة كتبه مجموعة من مقالات، إلا كتاب (المتنبي).

نرجع، فنشأ، وعلق على مضمون كلام "الظاهرة القرآنية"، نحن ما زلنا مع الشاطبي، لم نبتعد عن الشاطبي، لأن هذه المسألة من المسائل التي تدور حول الشيخ الشاطبي -رحمه الله-، فكَتب مقدمة رائعة، هذه المقدمة، وهذه الكتب تقرؤونها، هذه المقدمة وهذا الكتاب تقرؤونه وهي تدور، كلمة كتاب لمالك بن نبي، يدور حول "الظاهرة القرآنية"، وأنها ظاهرة تصلح لهذا العصر بأن تُنشئ هداية وإعجاز على طريقة المعاصرة، الأستاذ محمود شاكر قال: لا، بل القرآن تبقى معجزته البيانية هي الأقوى والأهم، وهي التي عليها يجب أن نجادل الآخرين في إثبات الإعجاز، وهي التي إذا خفت ذوق البلاغة في الناس، علينا أن نحييه بها ليفهموا القرآن، واضح الكلام؟ تقرؤون هذا، هذه مهمة هذه، مهمة، مهمة، أنا أخاف لما أقول: "ألف كتاب" أنتم تهربون، اجعلوها مائة كتاب يا جماعة. يكفي إلى هنا، وجزاكم الله خيراً والحمد لله رب العالمين.

أَسْئِلَــة

-استدل من قبله على الحديث الأول (..) استدل في القولين (...)

لا، بلا شك، أن انشراح صدر أبي بكر ليس هو الدليل الكلي، وليس هو دليل الاستشهاد، لا يقول أحد بهذا، وعمر لا يقول بهذا، والدليل أنه خالف أبا بكر في أمور، خالفه في الديوان، في لما وضع الديوان وقدم وأخر، فكان أبو بكر -رضي الله تعالى عنه- يُفرق بين الناس في العطاء، على قاعدة عمر التي قالها الرجل لما سئل عمر عن العطاء، هذه قواعد أناس عقلاء، القرآن عندنا ونحن نحفظه، والسنة عندنا نحن أكثر، السنة مجموعة بين يدينا أكثر مما هي مجموعة في وقت عمر -رضي الله تعالى عنه- في الرجل الواحد، لكن، هذا القلب يا سيدي، قال: "الرجل ببلائه، الرجل بحاجته، الرجل بسابقته"، استوعبت الوجود، هذه الكلمات استوعبت الوجود كله، لا إله إلا الله.

لو رجعتم لكلام العرب لما يأتي الزهير إلى مقاطع الحق، هذه يرددها أهل الإسلام على جهة القبول واليقين بها، ما هي مقاطع الحق؟ يقولها جاهلي، يقولها جاهلي، فيأخذها الإسلام على معنى اليقين أنها كلمة صحيحة، ويرددها الفاروق، ويقول هي من أكمل وأتمّ الكلام وأفضله وأحكمه، القصد أن أبو بكر كان يفرق، وجاء عمر ولم يفرق، قال الناس، أظن العكس، استغفر الله، العكس أن أبا بكر كان لا يفرق في العطاء، بين مهاجري وأنصاري، لا يفرق بينهم، كل الناس يعطيهم سواء، وجاء عمر قال: لا، الناس ليسوا سواء، وجعل يفرق، خالف عمر -رضي الله تعالى عنه- أبا بكر، فلو كان يعلم أن ما يقوله أبو بكر هو الحق المطلق لسلّم له في كل ما يقول، أليس كذلك؟

لكن أن يتكلم، وكل العلماء يتكلمون، أن هذه تكون بعد العلم والبحث في الأدلة، وبعد ذلك الأدلة مرات لا تكون بينة وواضحة ، وهذا الذي قلناه في بداية الكلام، لا تنسوا، نحن نبني، عندما قال الشافعي -رحمه الله-، وردده الطبري من بعده، وقال بأن الله ابتلانا بالنص كما ابتلانا بالاجتهاد، هذه هي، لماذا ابتلانا بالاجتهاد؟ أي أخفى لنا دررًا وأحكامًا عظيمة في الداخل. ليتميز الناس، ليتميز الناس بين عالم وبين جاهل، لو أن العلوم مبذولة على جهة واحدة

على ظهر الأرض يلتقطها كل من سعى إليها بغير جهد، لما افترق البليد عن الذكي، ولما افترق الساعي بجهده عن الكسول، ولما افترق المهدي عن المحجوب، صحيح؟ كل هذا بيّن، ولذلك كلمة عمر -رضي الله عنه- نبه العلماء عليها أنها ليست على جهة التسليم لما يقوله أبو بكر، ولكن على جهة الاعتضاد والاطمئنان. فقال، هذه كلمة عظيمة، كلمة عظيمة في كتاب ربنا لما قال الله لإمام الحنفاء وأب الأنبياء (والدهم)، قال له: {أَوَلَمْ تُؤْمِنْ}، ماذا قال؟ {قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي}، فدل على أن الاطمئنان مرتبة أعلى من مرتبة الإيمان لماذا؟ هذه تحتاج إلى شرح (وقفة)، لجمالها وعظمتها وأننا نحتاج إليها، بما يحصل الاطمئنان؟ وبما يحصل ضده؟ هناك إيمان مبتلى، فهذا إيمان عظيم، وإيمان المجاهد، فهذا إيمان عظيم. الإيمان مبتلى، مبتلى بماذا؟ مبتلى بالشبهات، بمبتلى بالشهوات، تأتي إليه فتغزوه، ويضطرب هذا الإيمان، يصارع يصارع، فهذه مرتبة عظيمة، وهذه مرتبة رسولنا -صلى الله عليه وسلم- مقابل عمر. لما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ما سلكت يا عمر فجًا إلا سلك الشيطان فجًا غيره)، طيب لماذا الشيطان لا يفعل هذا مع النبي -صلى الله عليه وسلم-؟ بل إن الشيطان لما قام رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يصلي من الليل، نزل من الوادي هاجرًا غضبًا يحمل مشاعل من نار ليحرق رسول الله، لماذا لا يهرب منه كما يهرب من عمر؟ هل مرتبة الفاروق أعلى من مرتبة النبي -صلى الله عليه وسلم-؟ ذلك لأن مرتبة النبي -صلى الله عليه وسلم- مرتبة الجهاد فيه، ولذلك إذا جاهدت حتى الجبان يجرؤ، إذا قاتلت حتى الجبان، القطة إذا دخلت بيتك، ماذا تفعل؟ تهجم عليك، والجبان ربما ينسى جبنه لحظة الابتلاء، ولذلك الشيطان بسبب الغيظ الذي في قلبه نسي جبنه أمام الإمام، واضح؟ يعني الأذان يحرقه، لكنه قد يشتد غيظه فيهجم على الرجل، وهكذا، إذا اشتد غيظه. فلما اشتد غيظ الشيطان لنور النبي -صلى الله عليه وسلم- هاجمه، نسي نفسه، لكن هو لم يصل هذه الدرجة مع عمر، لا يصل لهذه الدرجة مع عمر، وغيظه من عمر ليس كغيظه من الرسول -عليه الصلاة والسلام-، وهو غيظ عقلاني، إن جازت تسميته هكذا، غيظ يمكن أن يعرف ماذا يفعل، لكن في غيظه من النبي -صلى الله عليه وسلم- نسي نفسه، ولذلك هاجم النبي -صلى الله عليه وسلم- لشدة غيظه، لشدة غيظه فأخذه، النتيجة أخذه الرسول -صلى الله عليه وسلم-، أخذه من عنقه وجعله ذليلاً وربطه في المسجد.

نرجع للآية حتى نفهم السورة كاملة، فالإيمان المبتلى إيمانٌ عظيم، وإيمان إبراهيم إيمانٌ مبتلى، إيمان فيه خضة، قال: {لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي}، أريد أن أكمئن، يريد الإيمان المطمئن، ما معنى المطمئن؟ الساكن، الذي ليس فيه خضة، إما أنه غير معادى، وإما أنه لا ينشئ لديه الاضطراب الذي يوصل إلى هذه الدرجة من الحوار بينه وبين خصمه. فهمت ما معنى:

{أَوَلَمْ تُؤْمِنْ}؟ هو مؤمن، ولكن قال: {لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي}، ما معنى: "ليطمئن قلبي"، يريد أن يسكن، فإذًا هو سؤال لديه، هذا السؤال لا ينقض الإيمان، لا ينقض اليقين، ولكنه في حاجة إلى الاطمئنان، واضح الكلام؟

فقط، السؤال نعم، على كلمة الصديق، على كلمة عمر -رضي الله تعالى عنه-، يطمئن، أراد الاطمئنان، هو قال له أدلة، هذا إيمان مبتلى، ولا نقول ما زال فاقدًا لليقين، هو يقين موجود هذا، إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، إيمانه كالجبال، يقين، لكنه يريد ثباته، لا يريده مبتلى، هذا إيمان لا يريده مبتلى، ليطمئن قلبي، شفت بعيني، اطمئن قلبي، خلاص، لا تأتيه، إذا جاءته الشبه، أخذها كما أخذ النبي -صلى الله عليه وسلم- بعنق الشيطان: إيمان مرتاح، ليس مبتلى، والله تعالى أعلم، تفضلوا يا مشايخ.

هل هناك سؤال من الإخوة على الغرفة؟

الحمد لله جزاك الله خير، نعم لو ترسل لي الأسئلة فهذا جيد في الحقيقة ليتم الانتقاء، والانتقاء ليس عيبًا، وقطعًا سيكون الانتقاء بإذن الله -عز وجل- أولاً لما هو مهم، وثانيًا لما هو في الدرس، وثالثًا لما معنا من الوقت، ما يوافق الوقت، وهذا جيد، فأن تُرسل الأسئلة لي، لو كانت حتى بعد الدرس أرسلت لك أسئلة، فترسل إلي لأنظر فيها، وأرتبها، فهذا جيد.

الشيء الثاني، السؤال، نعم، قوله: (الإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس)، يعني هذا حديث عظيم عظيم، وهو من المقامات العليا التي يدعوا إليها الإسلام، هذا الحديث من المقامات العليا، وهذا فورًا يقفز حديث عظيما ليفسر هذه القضية، انظر إلى: (والإثم ما حاك في صدرك)، انتبه لهذا الصدر، انتبه، (وكرهت أن يطلع عليه الناس)، انظر إلى هتين الخصلتين، من حالة الحياء مع الله في ما حاك في صدرك، وانظر إلى حالة الحياء مع الله، مع الناس، مع الله في نفسك، ومع الناس، وكرهت أن يطلع عليه الناس.

ولذلك أعظم درجات وأعظم حصون منع حصول المعصية هو الحياء، وهذه مرتبة عظيمة، انظر إلى قوله -صلى الله عليه وسلم- عندما قال ناهيًا أن يطلع على عورتك إلا أهلك وكذا، فقال: يكون الرجل عاريًا، يكون الرجل وحده أيتعرى؟ قال: (فالله أحق أن يستحي منه))، هذا الرقي الذي يدعوا إليه الإسلام ليرقى الإنسان من درجة البهيمية إلى

درجة الملائكية، من أين أتت درجة الملائكية؟ ليست على طرائقهم. لما يقول النبي –صلى الله عليه وسلم– عن درجات قراءة القرآن: (والذي يقرأ القرآن وهو ماهر به)، ماذا قال؟ مع من؟ قال: (مع السفرة الكرام البررة)، يعني مع الملائكة، وقال: (لو تكونوا في بيوتكم كما تكونون عندي لصافحتكم الملائكة في الطرق وعلى فرشكم)، هل هذه درجة الحياء مع الله، هذه لا يصح إعمالها للمبتدئ، ولا يصح إعمالها لمن يختلي، يعلم أنه يصيب معاصي، رجل يعلم نفسه أنه يصيب المعاصي، له أكل الحرام، لسان الحرام، نظر الحرام، فرج الحرام، هذا رجل محجوب عن هذه المرتبة، هذه لا يصح له أن يفكر فيها، هذا ميت، مثل هذا البيت، هذا قلب ميت، وبيت ميت، البيت الذي لا يقرأ فيه القرآن، ماذا؟ الذي لا يقرأ فيه سورة البقرة: بيت ميت، القلب الذي ليس ذاكرا: (مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت). الآن رجل حي وفيه بصر قوي، ما الذي يؤذيه؟ يؤذيه لو جاءت في بصره الحياة، لو جاءت على عينه القليل من الغبار، ماذا تفعل به؟ "ما لجرح بميت إيلام"، الميت لو قطعت يده لا يشعر، ولذلك يؤخذ عرضه منه وهو لا يشعر، كما هو حال أمتنا، يؤخذ منهم دينهم، تؤخذ منهم أموالهم، تؤخذ منهم أعراضهم، يؤخذ منهم شرفهم، تؤخذ من عزتهم، ما لجرح بميت إيلام –كما ترون–، لا قيمة له، لا يوجد إحساس، أنا أردت هذا، وهذا يحتاج إلى توسع.

ولكن لما قال: (الإثم ما حاك في صدرك)، أي صدر هذا؟ هذا الذي قال عنه –صلى الله عليه وسلم–: (تعرض المعاصي على قلب ابن آدم كما يعرض الحصير، فأيما معصية رضيها أشربها، ونكت في قلبه نكتة سوداء حتى يصبح) ماذا هذا القلب؟ (أسود، مرباد، مجخيًا كالكوز)، الكوز أسود في داخله، كيف يقال يحوك في صدره؟ ورجل تخرج زوجته عارية، ويخرج وهو عار، لا يستحي من الناس، كيف يقال له هذا الحديث؟ هذه الأحاديث خوطب بها الكبار، وهم الصحابة، ويخاطب بها الأولياء، العلماء الذين يستحيون من الله أن يراهم على المعصية، وأن يكون حياؤهم من الله في السر أكثر من حيائهم مع الناس، وعندما يجلسون مع الناس حياؤهم من الناس يمنعهم.

هذه مرتبة الأدب، يأتي بعض الفقهاء ويتكلم عنها كلامًا غريبًا، هذه مقامات نتركها للناس، وهذه صوفية؟ عندما يقول أنا أستحي أن انظر إلى السماء حياءً من الله؟ هذه مرتبة ممدوحة، نعم النظر إلى السماء، النبي نظر إلى السماء، لكن هذه مقامات ناس يستحيون من الله، هكذا في قلبه يستحي أن ينظر إلى السماء لأنها تذكره بربه، هو هذا حاله، لم يقل أنها مكروهة، لم يقل أنها هذه الحالة يجب أن تطَّرِد في كل أحد، هذا المعنى قد لا ينشأ عند آخر، إنما ينشأ في باب

آخر، فهو يستحي أن ينظر إلى السماء لأنها تُذكره بالله، فيقع في قلبه الحياء الشديد، فيستحي، ولا ينظر إلى السماء، حالة.

وللناس معاني في هذا، فالإثم ما حاك في صدرك، أنا لا يهمني. هذا الحديث صحيح مائة بالمائة، ومعناه على ما تقدم من الكلام، لكن يهمني أي صدر، هذا لا يقال للرجل: اذهب فالإثم ما حاك في صدرك، يقول لك والله يا أخي أنا مطمئن. مطمئن تأكل ربا؟؟ مطمئن، وقلبك بتنام الليل الطويل مثل الدابة. ويقول قلبي مطمئن، أي قلب مطمئن؟ وهكذا، فهذا لا بد أن ننبته إليه، وجزاكم الله خيرًا وبارك الله فيكم.

فيه سؤال آخر يقول انتقد الشيخ في مجلس سابق وكذلك في وكذلك في سورة العنكبوت الطريقة التي صار عليها البعض في تنقيح بعض العلوم كالسيرة للأحاديث الضعيفة، فهل هذا يتعارض مع ما قاله بعض المحدثين أن علم الحديث يحتاج إليه وهو خادم لبقية العلوم، بالإضافة أن هذه الأحاديث غالبًا ما يستند عليها المستشرقين في الطعن على الإسلام؟

هذه قلتها في بداية الكلام، من المهمات لطالب العلم، وهو أن يتناسب الدليل مع مدلوله، أن يتناسبا في القوة، وقلت بأن السيرة لها منافع أخرى غير الأحكام، وهي منها المنافع التربوية، والمنافع الأخرى التاريخية، قد يأتي الرجل للسيرة ليعرف التاريخ، وقد يأتي إليها ليعرف اللغة وهكذا، فمنافع السيرة أكثر مما يظن الظان اليوم أنها فقد للأحكام، ولذلك ما قاله البعض أن كتب فقه السيرة ليست صحيحة، هذا غلط، هذا غير صحيح، هذا قصرٌ للسيرة على ما يريده الفقهاء، وديننا أوسع من ذلك. هنا العلم الباطن كما يسميه الغزالي، هناك علم التربية والتزكية كما يسميه بعض أهل العلم، كما يسميه العلماء قديمًا وحديثًا، فهناك علوم كثيرة، فهذه يُحتاج إليها في وقت، كما قال الإمام أحمد –رحمه الله–، أما الأحاديث، هنا انتبهوا، هذا الذي فيه رد على أخي السائل، أما الأحاديث المنكرة فهي منكرة، وهذا إذا قدر الله نشرحه: الفرق بين الضعيف والمنكر، المنكر هو الذي فيه الغلط، ثبت للعالم أن هذا حديث غلط، هذا واحد، هذا من المنكر، وأنا أوسع دائرة المنكر ليس على ما يقوله المتأخرون بعد كتاب ابن الصلاح، لا، المنكر أوسع من هذا عند المتقدمين، المنكر هو ما ثبت خطأ العالم فيه، إذا ثبت خطأ العالم فيه، حتى لو كان هذا العالم من الجهابذة الذين لا

يخطئون في الأحاديث، بل أحاديثهم صحيحة، فلو ثبت أنه أخطأ يُرد حديثه ولا يلتفت إليه، وكذلك منكرًا إذا كان قد خالف الصحيح، هذا منكر خالف الصحيح، والصحيح المقصود به الحديث الصحيح، وكذلك إذا خالف الفطرة، أحاديث كثيرة تخالف الفطرة، ولذلك حتى الأحاديث التي يقال عنها صحيحة، -هذا ذكرته أمثلة-، التي يقال عنها صحيحة خطءً، وبعد ذلك يستخرج منها الأحكام والعقائد، كذلك هذه ينبغي أن تذكر في المسألة. عندما رددت حديث: (إن الله خلق آدم على صورة الرحمن)، عندما رددنا حديث أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يتبرك من ماء الميضة التي يتوضأ منها -صلى الله عليه وسلم-، هذا كلام باطل، وهكذا، وهذه أحاديث تُرد لمعانيها أولاً، ولا بد من وجود فساد في السند، هذه قاعدة من قواعد أهل العلم. أما أن المستشرقين فلسنا في وارد ترتيب ديننا على ما يقول خصومنا، خصومنا لا نهتم لوجودهم، المشكلة في داخلنا، أما هم فإنهم يأتون إلى توحيدنا وديننا فيتهمونه، ولا قيمة لما يقولون.

-أين الاطمئنان من مراتب اليقين الثلاثة المذكورة في القرآن؟

لم أفهم السؤال، أين الاطمئنان، الاطمئنان حالة، الجماعة ظنوا الاطمئنان، الاطمئنان ليس حالة من حالات الإيمان في الرقي، لكنها حالة من حالات الإيمان في العمل. هناك مرتبة أخرى وهي الاطمئنان، هذه المرتبة وهي حالة الإيمان في العمل، كيف حالة الإيمان؟ مطمئن، مقابلها حالة الإيمان غير المطمئن، المحارب، المجاهد، رجل يجلس في بيته وهو في أمان وهو في بيته، فيعلم أن عدوًا قادم له، هل هذا يطمئن؟ لا يطمئن، وهناك فرق بين الأمان والاطمئنان، ذكرتها سورة النحل: {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آَمِنَةً مُطْمَئِنَّةً}، الأمان غير الاطمئنان، فقد يكون الرجل مطمئنًا غير آمن، وقد يكون آمنًا غير مطمئن، صحيح؟ الاطمئنان حالة نفسية، والأمان حالة وجودية، فقد يكون الأمان موجودا والرجل غير مطمئن، وقد يكون العكس، وهذا فضل الله، بأن تجتمع الحالة النفسية الموافقة للحالة الوجودية، فالإيمان يا شيخنا، الاطمئنان هو حالة فعل الإيمان وليس حالة من مراتب اليقين، نعم.

يكفي إلى هنا وبارك الله فيكم، والحمد لله رب العالمين، وجزاكم الله خير الجزاء، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الدرس [١٥]

"وبه تعلم الجواب عن السؤال الرابع، وأن قوله: {أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء} [الأعراف: ١٨٥] لا يدخل فيه من وجوه الاعتبار علوم الفلسفة التي لا عهد للعرب بها، ولا يليق بالأميين الذين بعث فيهم النبي الأمي –صلى الله عليه وسلم– بملة سهلة سمحة، والفلسفة –على فرض أنها جائزة الطلب– صعبة المأخذ، وعرة المسلك، بعيدة الملتمس، لا يليق الخطاب بتعلمها كي تتعرف آيات الله ودلائل توحيده للعرب الناشئين في محض الأمية؛ فكيف وهي مذمومة على ألسنة أهل الشريعة، منبه على ذمها بما تقدم في أول المسألة"

جزاكم الله خيرًا، هنا ما زلنا مع الشيخ في القاعدة التي تقررت مقدمًا بأن كل علم لا يورث عملاً ليس من صلب العلم، وإنما هو عارية عليه، وهذه القاعدة بالنسبة لأصول الفقه، لأن مقصود الفقه هو خطاب الله –تعالى– للمكلف، وخطاب الله –عز وجل– للمكلف لا بد أن يورث علمًا نافعًا، والعلم النافع هو ما فيه مصلحة العبد في الدنيا والآخرة، هذا على المطلق، ولكن بالنسبة لقضايا مسائل الشريعة، فإن العلم النافع هو ما تعلق بأمور الشريعة نفسها، فقد يكون الشيء نافعا في الدنيا لكن ليس له ارتباط بعلم الشريعة، إلا أنه يدخل في علم الشريعة من جهة الأمر بالمنفعة العامة: (عليك بما ينفعك)، فيدخل فيها هذا المعنى، ولكن هل هذا من الشريعة؟ الجواب: لا، وقد تقدم هذا.

ما يهمنا من كلام الشيخ في هذه المسألة هو تحقيق قوله في موضوع الفلسفة، وهذا القول الذي قاله الشاطبي يدل على أنه –ولا بد لأن بيئته كذلك–، لا بد أنه قد اطلع على هذا العلم، وهو علم الفلسفة، أنه اطلع عليه وعرف منه ما عرف، هل هو ممن تعمق فيه أم لا؟ لا يظهر من هذا، لا يظهر من كتبه أنه تعمق في هذا العلم تعمُّقَ أصحابه.

وفي الأندلس كان هناك تياران، كما كان في المشرق، وإنْ كان في المشرق قد غلب تيار الأشاعرة، وتيار الأشاعرة على الجملة منكِرٌ للفلسفة، ولما قام الغزالي –رحمه الله– بتكفير الفلاسفة في كتابه (تهافت الفلاسفة)، هذا الكتاب هو الذي حَكم المشرق، الغزالي له حضور كبير في المشرق الإسلامي في القرن السادس الهجري، هو توفي سنة خمسمائة

وخمسة، يعني في القرن السادس، ولكن حضوره كان في القرن الخامس في نهايته، فهذا الرجل أثر كثيرًا في العالم الإسلامي، وبالفعل، الغزالي يستحق هذه المرتبة.

وأنا لا بأس أن أقف عند هذا الرجل موقفًا يسيرًا، وهو أن مَن تعامل مع الغزالي تعامُل الأخذ المطلق فهو غالط، ومن تعامل مع الغزالي تعاملَ الرفض المطلق فهو غالط، الرجل صاحب عقلٍ عظيم ولا شك، لا يُنكِر هذا إلا جاهل، واقتحام الغزالي للكتب اقتحامُ الرجل الذي يفرض نفسه على الأرض البِكر، ولا يأتي الغزالي أبدًا -هذه من عقله الكبير-، لم يأت الغزالي إلى علم قط على جهة التقليد، لم يأت. هذا من الأمور التي ينبغي أن نفهمها، فكل كتب الغزالي تدخل في عالَمٍ بكورية العلوم، تكلم كلامًا من جهة نفسه، ولو قرأت كتب الغزالي كلها لوجدت شيئًا بيّنًا واضحًا، أنه حين يكتب كتابه، كأنه يدخل غرفةً في بيته لا يوجد فيها إلا القلم والورقة التي يكتب عليها وهو، فقط، يعني لا يكون ناظرا قط إلى الكتب التي حوله ليؤلف ويصنف، لم يكن الغزالي كذلك، الغزالي صاحبُ عقل كبير، حتى وهو يكتب في الأصول، هذا تعرفه حين تمارس الكتابة وتنظر إلى كتب الناس: هل كتب هذه الجملة وهو ينظر إلى كتاب آخر، أو وهو يصيغ جملة في كتاب آخر بصياغته؟ الغزالي ليس من هذا النوع، وهذا شيء ينبغي أن ننتبه له.

الشيء الثاني في الغزالي أنه عاش مِحنة عصره، لماذا ذهبنا إلى الغزالي؟ لا بأس، لأنني وجدت أن الإخوة الذين يستمعون لهذه الأشرطة ينتفعون بالهوامش التي نتكلم عنها في هذه الدروس أكثر مما يتعلمون أو يهتمون بما نشرح به صلب الكتاب، ولا بأس، وهذا من الأمور التي نعيشها.

الغزالي عاش محنة عصره وتقلب فيها، وعصره هو عصر الفتن السياسية والفكرية، هو عصر الصليبين، عصر غلبة الفرق الباطنية، غلب الباطنيون على أهل الإسلام، والفقهاء كان لهم حضور على جهةٍ ما من التأليف والتصنيف وغيره، وعاش هذه الفترة، وقد تحدث الغزالي، وهذا فنٌّ قلَّما كتب فيه العلماء، علماؤنا قلَّما كتبوا عن أنفسهم وما عاشوه، تستطيع أن تلتقط -انتبهوا لهذا-، تستطيع أن تلتقط شيئًا من ذاتية المصنف من خلال كتابه، كما رأينا مع الشاطبي في مقدمته، ولكن أن يأتي العالم فيصنف محنته أو قضيته أو مسألته الذاتية تصنيفًا مستقلاً، لا تجد.

الغزالي تكلم بهذا، وألف كتابه الجميل الرائع وهو: (المنقذ من الضلال). نعم وصل إلى نتيجة ما -هذا شيء آخر، وجد أن طريقة المعرفة هي طريقة الكشف الصوفي، هي الطريقة اليقينية، وذلك كما فسر ابن تيمية، لأن الرجل كان بعيدًا عن الحديث، ثم يقول ابن تيمية -رحمه الله- أن خاتمته كانت البحث عن الحديث، وأنه مات وعلى صدره صحيح البخاري. أنتم تتكلمون عن بيئة غريبة، في غربتها عن علم الحديث، تلك البيئة بعيدة عن علم الحديث.

وأنا هنا لا بد أن أفتح قوسًا، وأن أعلق هامشًا، وهي قضية مهمة، وهو أن العلم -وهذه سنتكلم عنها بتفصيل كافٍ إن شاء الله-، وهو أن مفتاح الإعراض عن العلوم هو احتقارها والطعن في دلالتها على المراد، وهذه الطريقة التي نبه عليها -انتبهوا- الأستاذ محمود شاكر -رحمه الله- في مقدمة كتاب عبد القادر الجرجاني (أساس البلاغة).

يقول الأستاذ محمود شاكر أن الذي فتح باب الإعراض عن تراثنا هو من بدأ يحتقر هذه الكتب، حتى صاروا يطلقون عليها ماذا؟ الكتب الصفراء، وكذا، إلى آخره. وهذا باب استغله كذلك من جاء بعده، فتجد طه حسين قد جعل الناس يُعرضون عما تقدم، ماذا قال عمر -رضي الله تعالى عنه-؟ "عليكم بديوان العرب"، عليكم بشعر العرب. فالشعر هو باب فهم الكتاب والسنة، لكن لما احتقر الشعر، ونوه به أنه لا يدل على ما يعيشه العرب، وأنه منتحل، وأنه مصنوع، إلى غير ذلك، سقطت قيمته، فأعرض الناس عنه.

كذلك الحديث في زمانه، لماذا أعرضوا عنه؟ لِما تقدم من كلام الشاطبي. ماذا تقدم؟ أن الأدلة السمعية أدلة ظنية، لا تفيد اليقين حتى لو ثبتت على جهة اليقين كالكتاب، فإن الدلالة ظنية، لأن اللغة كما يقول الجويني -وأبو المعالي الجويني هو شيخ الغزالي، وهذه ذكرناها سابقًا-، فإنهم كانوا يقولون بأن الأدلة السمعية حتى لو ثبتت على جهة اليقين، فإن دلالتها على المراد ظنية، لأن اللغة لا تفيد إلا هذا، لوجود العوارض التي شرحناها في درس كامل من كلام الشيخ، العوارض التي تعترض البيان في كونه يفيد اليقين، ولذلك هو لا يفيد إلا الظن. وهذا يبعث في النفس الإعراض عن هذا العلم، ولا بد أن ينشغل بما يفيد اليقين، فصار علم الحديث مهجورا، هجره الناس. ولذلك تعجب لما قلنا لكم بأن الجويني الأب لما أراد أن يؤلف كتابًا في الفقه، افتتح كتابه بحديث ضعيف، ونسبه للبخاري ومسلم. إلى هذه الدرجة كان إعراض الفقهاء عن الحديث، وإلى وقت قريب كان الفقيه ينسب الحديث إلى الكتب التي يسمونها غير أصلية.

تعرفون أن كتب الحديث يقسمها العلماء إلى قسمين: كتب أصلية، وهي التي اهتمت بالسند، أي تنسب الحديث بسندها، وكتب تأخذ هذا الحديث وتنسبه إلى الكتب الأصلية. فتجد مثلاً في (نيل الأوطار): رواه البخاري، فيأتي هذا الفقيه فيكتب كتابًا ويقول: (نيل الأوطار) رواه البخاري، أو ذكره الشوكاني في (نيل الأوطار)، إلى هذه الدرجة! والسبب هو نفسي كما تقدم من الشرح، هذه ينبغي أن تحضر في أذهاننا.

وهذه القضية هي التي جعلت طلبة العلم اليوم يهجرون علم الأصول، لما يفعله ما يسمى بالسلفية أو غيرها من تحقير هذا العلم، وأنه دخل فيه علم الكلام، و و إلى آخره، فهو علم لا قيمة له، وهكذا. أين هذا العلم؟ أين حضور هذا العلم في عقل مُدعي الاجتهاد وفتح بابه؟ أين هو؟ مهجور.

لماذا؟ لأنهم قالوا عنه ما قالوا، هذه كتب قديمة أُلفت على طرائقهم فهم يعرضون عنها، لماذا يعرضون عنها؟ يعرضون عنها بسبب ما تقدم، وهو أن التحقير هو عنوانها، عنوان النظر إلى هذه الكتب. وهذا جهل عظيم بما تقدم، تكلمنا، لا أريد أن أعيد بأن هذا جهل عظيم وأن الطريق الصحيح هو أنك إذا أردت الاجتهاد حقًّا عليك أن تقتل الماضي بحثًا كما يقول الأستاذ عبد السلام، واضح الكلام؟ فهذه قضية مهمة.

نرجع للغزالي، لأن هذه القضية تتعلق بالفلسفة. الغزالي رجل عظيم، لا ينبغي أن تَقبل كل ما يقول، ولا أن ترفض كل ما يقول، وإياك والمقارنة بينه وبين أي عالِم آخر، فإن للواقع سطوته -هذه كلمة ينبغي أن تنتبهوا لها، شرحتها لما تكلمت عن الذين يريدون أن يقارنوا بين سيد وبين ابن تيمية-، الواقع له سطوته. الآن، عالم عظيم كالشاطبي، هل رأينا لواقعه سطوةً عليه؟ رأينا، رأينا للواقع سطوة على العالِم. والخروج من الواقع يحتاج إلى سياسة، ويحتاج إلى شجاعة، ويحتاج إلى بصيرة. الخروج، كما قال الغزالي نفسه في مقدمة كتاب (المستصفى): "والفطام شديد"، وهذا تكلمنا عنه لما ذكرنا ابن قدامة إلى آخره؛ ولذلك لا ينبغي أن نُحاكم العالِم إلا من خلال بيئته، وعلينا ونحن في هذا الوقت، في هذا الزمان، أن نقرأ التاريخ، وأن نقرأ علماءه، وأن نعرف الحق، وهذا يجعلنا ننصف.

اليوم، في هذا الزمان، هناك فائدة عظيمة، حتى أن هذه الفائدة لم يعشها من عاش قبلنا، فقط الجيل الذي سبقنا، يعني لو سألت هذا الجيل الذي سبق هذا العمر الذي أعيش فيه الآن، لقلت لك أن هذه الفائدة لم تكن موجودة، وهي

أنهم تعاملوا مع تراثنا بما استقر عليه وما قاله المتأخرون، وأما اليوم فهذه المخطوطات للكتب القديمة منثورة بين الناس، لا يضر أن تقول: "ابن تيمية" اليوم، ارجع، ارفع، ارفع النسبة، اليوم الكل مطبوع، تعرف ماذا يقوله الطبري، له كتاب، تريد أن تعرف؟ ارفع النسبة، صِل، لا تقل: قال فلان، قل: قال الشافعي، ارفع النسبة. لا تقل: الشافعي بعد ذلك، ارفع النسبة، قل ما قاله يحي بن سعيد القطان، ارفع النسبة، وهكذا.

اليوم هذه المخطوطات التي انتشرت بين الناس، تُحصِّل لديك هذه المرتبة، وهي أن ترفع نسبة العلم، حينها تقوى حجتك، ويزيد اطمئنان قلبك. إذًا إذا جئت إلى علم العقائد، هو يقول: قال الباقلاني، أنت تجابهه تقول: قال ابن تيمية، هذا لا ينفع، ارفع النسبة. ولذلك قال الشيخ أبو إسحاق الشاطبي كلمةً عظيمة، ليتنا نقرؤها، حقيقة هي من مهمات المقدمات في قراءة الكتب ونسبة العلوم، قالها في (الاعتصام) -وهذا رجل عظيم، وحقيقة هذا رجل أي عقل عنده! هذا الرجل أبو إسحاق هو من قماشة الكبار، هذا العالم من قماشة العلماء الكبار-، قال بأن الكتب لا تصلح لأخذ العلم إلا مع عالِمٍ، وقال كلمة توافقها على هذا المعنى -وإن كان هذا الكلام عليه احتراز ويحتاج إلى تعليق كبير-، وقال بأن المرء لا ينبغي أن يتعامل مع المتأخِّر، إنما التعامل مع المتقدم. وهذه قواعد قررها، وهو له هذا الفن، وهو أنه يقدم لكتبه بمقدمات.

القصد أن الغزالي إمام عظيم، عليه ما عليه، وله منافع عظيمة، يكفي أن تعرف منهجه، وأنا لا أهتم بالفروع –انتبهوا-، كما ترون، لا أهتم بالفروع، أفصلها أبينها، ولكن المهم في هذه الدراسة هو أن ترتفع إلى درجة الأصول والقواعد، ومنهج العالِمِ في الكتابة، إلى غير ذلك مما ذكرناه.

هنا نرجع، ذكرنا الغزالي وما فيه، ولم نُفصل، وإن كان الغزالي يحتاج إلى دراسات وليس إلى دراسة، لا على طريقة التعظيم وطريقة التقليد، ولكن على طريقة البحث، لأنه قنطرة في تاريخ أمتنا. ذكرنا هذا، يكفي إلى هنا.

الغزالي ألف كتابه وقد عاش محنة عصره، قلنا أنه عاش محنة عصره وبيَّن ما في عصره من الفتن، ومصائب الأفكار وحطامها، وتحطمها وصراعها، فعاش وكتب في هذا كتبه، كتبه على هذا المعنى، واقتحم الغزالي بجرأته الغريبة مواطن عجيبة جدًا، اقتحم مواطن خطيرة. لما ألف كتابه (إلجام العوام عن علم الكلام)، لما أراد أن، وفشل، هناك نجاح جزئي

وهناك فشل جزئي، لم يحقق ما أراد. مثلاً، في كتابه (قانون التأويل)، هذه المسألة التي ما زالت إلى اليوم لا يستطيع أحد أن يضبطها، لماذا؟ لأن مسائل النفس والنسبية لا تُضبط، توضع لها القواعد، بعد ذلك يأتي دور الرجل وما استقر عليه قلبه. وليس أنا الذي قلت أنه فشل، ولكن شيخ الإسلام بن تيمية يقرر هذا، والذي يريد أن يجعل قانونًا محددًا للتأويل من كلام ابن تيمية كذلك سيفشل، لماذا؟ لأن ضبط ما في النفس عسير. أنت، هذا تطمئن إليه أنه يقول تأويلًا مستساغا، فإذا طبقت القاعدة على غيره تجد أن قلبك لا يطمئن، لأن هذا متلاعب، وهكذا، فضبط قانون التأويل عسير.

وهذا كل يوم يسألونني فيه الشباب، يقولون: ما هو قانون التأويل؟ ما هو قانون الإعذار؟ ما هو القانون كذا؟ وأنت تنقل لهم كلام العلماء إذهابًا له وإبعادًا عنه، وإلا فالمسألة عسيرة كما تعلمون؛ لأن ضبط ما في النفس عسير، طيب.

نأتي إلى الفلسفة، الشيخ أبو إسحاق هنا -وهذا عجيب- قال كلامًا لولا أني على يقين أن الشاطبي لم يطلع قط على كتب ابن تيمية، لقلت بأن الرجلين قد جلسا معًا وكتبا هذه الكلمة معًا، واضح؟ ما هي الكلمة؟ وهي قوله: "صعبة المأخذ، وعرة المسلك، بعيدة الملتمس، لا يليق الخطاب بتعلمها كي تتعرف آيات الله ودلائل التوحيد للعرب الناشئين في محض الأمية".

هذه الكلمة هي التي دار عليها كلام ابن تيمية في (نقض المنطق)، وقال كلمته، واشتق ابن تيمية حديث أم زرع، لما جاء إلى المنطق والفلسفة، قال: "هو كلحم جمل غث على رأس جبل وعر لا سهل فيرتقى" إلى آخره. أين هذا الحديث؟ هذا حديث أم زرع، ووصف ابن تيمية الفلسفة على هذه الحالة. هو لحم جمل غث، جمل، ووين حاطينه كمان؟ حاطينه على رأس جبل وعر، والصعود إليه يكاد يكون ممنوعا، ومع ذلك إذا وصلت إليه لم تجد إلا لحم جمل غث. وهذا هو الذي يقوله، وهذا أمر لا قيمة له، لكنه صعب المنال مع قلة فائدته.

الحياة يا إخوتي لها قانونها، الناس يقولون: الشعير مأكول ومذموم، كالهواء، لا يشعر الناس به مع أهميته، وهناك أشياء بعيدة، يقول لك: أبعد النجعة، شو أبعد النجعة؟ النجع هو مكان الماء (النبع)، النجع هو النبع، فرجل عنده ماء بين رجليه، فهو يترك الماء الذي بين يديه ويذهب إلى نبعة بعيدة! أبعدتَ النجعة، هي بين يديك. هذه بعض تصرفات

البشر وغرائبه، فيجد المرء أن الوصول إلى الحق سهل، ولكن يأبى المرء إلا أن يُعَقد هذا السهل ليصبح ذا قيمة، واضح أيها الإخوة؟

ونحن علمنا هذا من العلماء، أبو زكريا الفراء قالوا عنه: "نقم عليه أهل النحو لأنه أراد أن يجعل النحو سهلاً يتلاعب به صبيان الكتاتيب"، أنت تريد أن تضيع شغلنا، تضيع عملنا، تقفل علينا باب الرزق؟! وهكذا، فيصعبونها.

القصد؛ نرجع بأن الغزالي أنشأ نقض الفلسفة، هَدَمها، حطمها، وألف كتابه في (تهافت الفلاسفة)، وقال أن الفلاسفة كفار، كفَّر الفلاسفة، ولم يقم واحد من أهل المشرق ليرُد عليه، وبقيت الفلسفة بعده حطامًا منثورًا، بعيدة عن أن تُتَعاطى في عالم الناس، لِما أحدثه الغزالي. لكن هذا العلم (الفلسفة) قام لها من قام لها في المغرب، وألف أبو الوليد بن رشد كتابه المشهور: (تهافت التهافت)، ورد عليه، ولذلك بقي في المغرب فلسفة، وأما في المشرق فكأنها بعد الغزالي قد انتهى أمرها، واضح الكلام؟ هذا من فوائده، الذين يريدون أن يبحثوا عن الغزالي وفوائده، هذا من فوائده.

فهذه الفلسفة، يقول عنها الشيخ الشاطبي: "وعرة المسلك بعيدة الملتمس"، يعني لا تلتمس إلا بالمشقة، فهذا هو شأن هذا العلم، لكن هل هذا -هو يضع كلمة هنا-، هذا إن أقررنا بجوازها، فهو لا يريد أن يحسم، قد يكون الأمر محسومًا في نفسه، كما هو محسوم في أذهان الفقهاء في عصره، الفقهاء في عصره كانوا يُحرمون الفلسفة وهم على نهج المالكية، وعلى نهج كبيرهم، من كبيرهم؟ أبو الوليد، الحفيد اسمه أبو الوليد الباجي، والجد اسمه أبو الوليد الباجي، والأول (الجد) فقيه مالكي محرِّمٍ للفلسفة، مانعٌ لها، والحفيد على: (فصل المقال فيما بين الفلسفة والشريعة من الاتصال)، هذا اسم كتابه، يريد أن يجمع بين الحكمة -كما سماها الفلاسفة- وبين الشريعة أنها شيء واحد، وهذا الذي يقوله البعض، واضح الكلام؟ يقول أن الفلسفة توصل إلى ما أوصلت إليه الشريعة، وكتاب قصة (حي ابن يقظان) تدور على هذا المعنى، واضح؟ تعرفون قصة (حي ابن يقظان)؟ وأنا أنبه إلى أن العرب ليسوا بعيدين عن طرق نشر الفكر بالقصة، (حي بن يقظان) هذا ألفه ابن سينا أولا، كثير من العلماء ألفوها، كلهم يريد منها هذا المعنى وكلهم يؤلف قصة على منواله، فقصة (حيي بن يقظان) لابن طفيل الفيلسوف الأندلسي أنه أراد أن يقول بأن الرجل لو عاش لوحده في غابة بدون وجود الوحي، لاهتدى إلى ما جاء به الوحي، هل هذا كلام صحيح؟ لا، ليس صحيحًا. يعني لو أنك أردت الموازنة،

هل هو أقرب إلى الصحة أم أقرب إلى البطلان، لا تستطيع إلا أن تقول أنه أقرب إلى البطلان منه لحاجة الناس إلى الأنبياء، طيب.

لكن ألا ترون أن الشيخ -هنا فقط أنبه-، الشيخ هنا جاء إلى علوم الطبيعة، تريدون أن تعرفوا هنا علوم الطبيعة، ليس ما يقوله المتكلمون، لأن المتكلمين يقولون بأن الطبائعيين، كما كانت تسمى في زمان، ذكرنا هذا في ذكرنا لجمال الدين الأفغاني، ذكرنا أنه ليس له إلا رسائل، منها رسائل في الرد على النشاريين، الرد على الطبائعيين، على الذين يقولون بالطبيعة. الطبيعة عند المتكلمين وعند العلماء هو من نسب إلى الأشياء ذواتها بنفسها دون وضع إلهي، دون خلق إلهي، هؤلاء يسمونهم طبائعيين، واضح؟ هؤلاء عند العلماء، لما تفتح كتب المتكلمين تجدها تقول: والطبائعيون كفار. وهذا صحيح (حق)، لأن من نسب إلى الأشياء ذواتها، وأنها لا تُخلق إلا على هذه الهيئة، ولا يستطيع الرب إلا أن يوجدها على هذا المعنى -إذا نسبوا فعلا للرب في الإيجاد-، فهذا كفر، واضح ما معنى الطبائعيين؟ ولكنه لما قام هذا العلم في بلاد الإسلام على معنى قراءة الكون، سمّوها طبيعة، فجاء المشايخ ليُكفروا من درس الطبيعة.

وهناك قصة على علماء الطبيعة وتكفيرهم، تعرفون أن المدارس الدينية في بلاد الشام وغيرها، يرسلون الأبناء الطلبة إلى القرى في رمضان، ليجمعوا المال وليحلوا مشاكل الناس الفقيرة، فيذهبون إلى القرى، فعامة ما يجدون في القرى من مشاكل هي مسألة الإرث، وعامة مشاكل الناس في القرى هي الأرض، يعني كيف يقسمون الأرض، فلا بد للفقيه أن يكون مهندسًا، يعرف الطريق المستقيم إلى آخره، فكانوا يشْكون إلى أساتذتهم أننا في القرى عندنا هذه المشكلة، يأتوننا إلى الأرض كيف نقسمها، لا نعرف الحسابات ولا الرياضيات، قال لهم أحد الشيوخ: أنا عندي قريب لي يُدَرس الرياضيات، ويعلم في لهندسة، فلا بد من أن نحضره للمدرسة -إحدى المدارس الدينية- ليعلمنا الهندسة وكيفية الحسابات فيها، فقالوا: لكن هؤلاء المدرسون الطبيعيون كفار، قال: لا بأس، نحضره ونجلس معه ونسمع له، فإذا وجدنا كفرًا طردناه، وإذا وجدناه جيدًا تابعنا معه الدراسة. فحضر هذا الرجل المسكين ووقف أمام الطلاب، وبدأ يشرح لهم علم الرياضيات والهندسة، فأول ما يُدرس هو الخط المستقيم، ما هو الخط المستقيم، فجعل يشرح هذا الخط المستقيم، الطريق المستقيم، والمشايخ في الخلف صاروا ينفخوا: استغفر الله، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، لا إله إلا الله. المهم، الرجل مسكين ضَيَّع، اللحى والمشايخ والعمائم غاضبون !بعد الدرس أخذوه: يا ابني، اتق الله، أنت مسلم وأبوك مسلم

وجدك مسلم، إلى آخره، كيف الطريق المستقيم هذا؟ الطريق المستقيم هو الصراط المستقيم، والسنن إلى غير ذلك. هذه مشاكلنا، وهذه أمتنا وصلت لهذه الدرجة، نعم يا مشايخ، يكفي إلى هنا.

ولكن أنا أريد أن أقول إن ما قاله الشيخ الشاطبي من أن علوم مدارك الأشياء وإدراك كنهها ليس من الفلسفة، واضح؟ ليس من الفلسفة. لكننا أمام مشكلة اجتماعية وتاريخية في أمتنا، وقال، وأول من شكى منها إمامنا الحبيب الشافعي. قلَّما تخْلوا هذه الدروس هنا من ذكر هذا الرجل، فإنه عاب على أهل الإسلام أنهم فرطوا في علم الطب والحساب، فقال بأن العلماء فرطوا في هذين العلمين، ووجدنا في التاريخ أن عامة الأطباء إما نصارى وإما فلاسفة على جهة الطرق الإلحادية وغيرها، والفلاسفة الذين كفرهم علماؤنا كالفارابي وابن سينا وغيرهم، فأولئك كفرهم أهل العلم لأشياء عندهم من العقائد الباطلة، كإنكارهم أنْ يعلم الله -عز وجل- الجزئيات، هذه كفَرهم بها الغزال، قالوا أن الله لا يعلم الجزئيات، يعلم الكليات، وهكذا.

لماذا؟ لأن علم الطب والحساب قد ارتبط بالملاحدة والنصارى، فصار الشيخ إذا انتسب إلى هذا العلم كأنه انتسب إلى شيء حقير أو إلى شيء يُتهم به، واضح الكلام؟ فصار كأن الفيلسوف هو الطبيب، ولذلك نجد أن الرازي الفيلسوف هو طبيب، والفارابي الفيلسوف هو طبيب، وهكذا، فهمنا؟ فكأنه ارتبط في أذهان الشيوخ أن الفيلسوف هو الطبيب.

وقد ذكر الجاحظ -هذه من طرائق-، والجاحظ مع أنه إمام الأدباء ويُقرَأ له، إلا أنه، لأننا ذكرناه في درس فائت، سيقول بعض الجهلة بأن الشيخ يحتج بالجاحظ، نحن نحتج حتى بأكفر خلق الله إذا قال الحق، نحن نتعلم، نحن نريد أن نتعلم ونفهم، نريد أن نفتح النوافذ، نحن لا نخاف، الذي يخاف هو الجبان، الذي يخاف هو الضعيف؛ ولذلك أنا أكره ما أكره في القراءة، هو القراءة الطهرية، هذا إنسان مُعَطّل لا يفهم الحياة، لا يفهم الدنيا، لا يفهم الناس، لا يفهم التاريخ، ولن يفهم القرآن على وجهه، وذكرنا هذا سابقًا.

فالجاحظ لِمَ ذكرناه؟ الجاحظ تُقرأ كتبه وفيها النفع العظيم، وكتابه (البيان والتبيين) هو أحد الأركان التي ذكرها وأجمع عليها العلماء أنها من كتب الأدب، أربعة كتب، منها كتاب (البيان والتبيين) للجاحظ. هذا ليس ما يهمنا، ما يهم أنه

ذكر في كتاب (الحيوان) قصة غريبة، وهو أن رجلاً عالمِا فقيهًا كان طبيبًا، لكن لا يأتي إليه أحد، لا يطرق بابه أحد، وكان بصيرًا بالطب، فشكى لأحد أصدقائه أنه أنا طبيب لا يأتيني أحد، قال: لو كنت نصرانيًا أو فيلسوفا لجاءك الناس، واضح؟

حتى في وقت من الأوقات في أمتنا انتشر هذا المعنى، كان قديما في وقت، لازم الطبيب تكون عيونه زرقاء، لا يزعل منا أصحاب العيون الزرق من العرب، لأنهم من بقايا الصليبيين في بلاد الشام، المهم أنه ربط بين الفلسفة والعلم بِكُنه الأشياء، وهذا غير صحيح، ولكن ننتبه إلى كلمته ونقارنها، نحن طلبة العلم نقارن بين كلمته هذه: -على فرض أنها جائزة الطلب- صعبة المأخذ وعرة المسلك بعيدة الملتمس لا يليق الخطاب بمتعلميها كي تتعرف آيات الله ودلائل توحيده للعرب الناشئين في محض الأمية، إلى آخره، تفضل يا شيخ.

"فإذا ثبت هذا؛ فالصواب أن ما لا ينبني عليه عمل غير مطلوب في الشرع.

فإن كان ثم ما يتوقف عليه المطلوب، كألفاظ اللغة، وعلم النحو، والتفسير، وأشباه ذلك؛ فلا إشكال أن ما يتوقف عليه المطلوب مطلوب، إما شرعا، وإما عقلا، حسبما تبين في موضعه، لكن هنا معنى آخر لا بد من الالتفات إليه، وهو:"

دعونا نقف هنا، فقط نضع خطا وننبته، هذه قاعدة نضعها، ونصنفها، لو أنكم أخذتم على أول الكتاب هنا، أو في دفتر مستقل إذا استطعتم الوصول إليه كثيرًا، لأننا نحتاج إلى تصنيف القواعد التي أتى عليها أبو إسحاق الشاطبي، هناك قواعد، منها هذه القاعدة، انتبهوا لها، وهي قوله: "فلا إشكال أن ما يتوقف عليه المطلوب مطلوب إما شرعًا وإما عقلاً"، هذه واحدة، يكفي، هناك من العلم -هذه نضعها، وننتبه إليها-، هناك من العلم تفسيرُه قراءتُه، فقط. اقرأه وهو يفسر نفسه، لا حاجة، أي تفسير له سيكون فقط إكثارا من الكلام، واضح؟ هناك من العلم ما هو؟ تفسيره ما هو؟ قراءته فقط. اقرأه وهو يفسر نفسه، وهذا مما هو فيه، نعم:

"فلا إشكال أن ما يتوقف عليه المطلوب مطلوب إما شرعًا وإما عقلاً"، وهنا أنبهكم لكلمة ربما أحب أن أرددها في كل درس، إن علماءنا وضعوا قواعد العلم للحياة، واضح؟ قواعد العلم التي وضعها علماؤنا لم يضعوها لعلم خاص، ولا

لعلم العربية، ولا لعلم المسلمين، قواعد العلوم التي قالها علماؤنا هي قواعد الحياة، ولكل علم في الوجود، يقوله مسلم أو يقوله غير مسلم، نعم يا مشايخ.

هو إذًا يقول –هنا انتبهوا–، إلى قضية أخرى نشأت في ذهن الشيخ، يريد أن ينبهنا عليه، ما هو، لكن هو معنى آخر لا بد من الالتفات إليه، ما هو؟ نعم

"المقدمة السادسة:

وذلك أن ما يتوقف عليه معرفة المطلوب قد يكون له طريق تقريبي يليق بالجمهور، وقد يكون له طريق لا يليق بالجمهور، وإن فرض تحقيقا"

هذا البحث يتعلق بوسيلة العلم لا العلم نفسه، هذه المقدمة تتعلق بوسيلة العلم لا العلم نفسه. هو يقول في المقدمة التي سبقت كلامًا يتعلق بالعلم، واضح؟ هل هو علم نافع، غير نافع، هل هو ضروري، غير ضروري، متى يكون جائزًا، إلى آخره، هذا يتعلق العلم. هنا يتكلم الشيخ عن أسلوب العلم، كيف يبذل العالم علمه للناس كتابةً وتدريسًا.

فقط أنا أنبه –فاتني أن أنبه، وكانت في الذهن ورجعت الآن، لأنها في الحقيقة مما يتعلق بها النقطة–، أن ابن تيمية في (نقض المنطق) يقول –انتبهوا، هذا حديث عن النفس، شيخ الإسلام يتحدث عن نفسه–، يقول: كنت في الابتداء أظن أن هذا العلم صعب لكن مباحثه صحيحة، هكذا يقول، لكنني الآن أقول إن مباحث العلم غير صحيحة كذلك، واضح؟ فقط، هذه كلمة عظيمة، تدل على أن العالِم يترقى، ابن تيمية في أوله غير في نهايته، ولذلك، إذا أردت أن تعرف ابن تيمية على حقيقته التي مات عليها، فقط اقرأ آخر كتاب كتبه وهو (تفسير آيات)، انظر للعنوان، لا يهمه العنوان شيخ الإسلام، بالرغم أن العناوين موضوعة من أجل الاختصار لأنها متضمنة، من أجل أن يتلقى، قال: (تفسير آيات أشكلت على كثير من العلماء حتى لا يوجد في طائفة من كتب التفسير فيها القول الصواب بل لا يوجد فيها إلا ما هو خطأ)، وله نهاية كذلك، يأتي إلى آيات، وبدأ كتابه في مسألة غريبة ظن الناس أنها منتهية –وهي آية الربا– وافتتحها بطريقة. هذا آخر كتاب كتبه شيخ الإسلام بن تيمية، آخر كتاب كتبه في السجن، وهذا فنه كما نقرر.

ما يهمنا أن العالم يترقى، إذا قلنا هذا، فمن الجهل والضلال وفعل الصبية الصغار، أن يُعاب العالم: هكذا كنت، كيف صرت؟ كنت تقول كذا، والآن صرت تقول كذا. مع أن الكلام يكون أصله واحد، ولكن اختلفت العبارة، أو أن الكلام يتكلم، كما قال المتنبي، لما قال شعرًا، فقال غيره له: كيف تقول هذا وهذا؟ فقال له: هذا حال وهذا حال، وهكذا.

ولو رجعنا إلى كلام ابن عباس مع نافع ابن الأزرق في تفسير كلام الله لوجدنا عنوانها: هذا حال وهذا حال، لا نستطيع أن أقول لكم: هذا حال وهذا حال، ولا أنسب العلم لئلا أُتهم بالفساد أني أحتج بكلمةٍ قالها المتنبي، هذا أستطيعه، ولكن هذا من التحايل، والحمد لله أتقن التحايل في الكلام، لكني أخذت عهدًا على نفسي ألا أفعلها، لأن هذا من خيانة العلم، وهذه لا أفهمها، وكثير من كلام العلم ينبغي على طالب العلم أن يقول: لم أفهمه، وإذا جاءته الكلمة من أي أحد، من بركة العلم أن تنسبه لصاحبه، وهذه لا تعاب، هذه تعاب عند الجهلة الذين يريدون أن يقولوا، كما نبهنا سابقًا على كلمة الشاطبي في مقدمة (الاعتصام) حين قال: إن الناس يفتخرون أنهم كتبوا هذا الكلام دون أن يرجعوا إلى كتاب، أليس كذلك؟ قال: هذا هو الجهل، والجهلة كثيرون.

والقصد أن عنوان كلام ابن عباس مع نافع ابن الأزرق، ما هو؟ هو ما قاله المتنبي: هذا حال وهذا حال، وإذا أردت أن تتعلم وتعرف هذا فارجع إلى كلامه ستجده بينًا واضحًا. القصد بأن ابن تيمية يقول: "كنت أعتقد أن مباحث هذا العلم صحيحة، ولكن أسلوبه غير صحيح"، ثم جاء وقال: "حتى مباحثه غير صحيحة". هذا حديث عن النفس، حديث عن نفسه، العالم يترقى، والإنسان يتغير وربما لا يتغير، ولكن تغير الخطاب، وربما يكون هذا له حال وهذا له حال، لكن ماذا نفعل مع الجهلة؟ والمشكلة ليست ماذا نفعل بالجهلة، بل ماذا نفعل بالحياة عندما تكون كلها جهلة؟ هذه مشكلة، لا بأس.

إذًا هذا حديثٌ للشاطبي عن ماذا؟ كان حديثًا على العلم، والآن حديث عن وسائله، وأسلوبه، هنا هو قال لنا –رحمه الله–: "وذلك أن ما يتوقف عليه معرفة المطلوب"، إذًا هناك لنا مطلوب في العلم، هناك مطلوب، وهناك وسيلتان، بل وسائل، فوسيلة تليق –انتبهوا لهذه الكلمة–، تليق بالجمهور.

انتبهوا، هذه ضعوا تحتها خطا، لأنكم إن انتبهتم لها، علمتم أن ما يقال اليوم من ألفاظ قالها سلفنا، فكلمة الجمهور كلمة تعني: "العامة"، ويظن بعض الناس أن كلمة الجمهور في معنى أنها تفيد العامة أنها كلمة جديدة، محدثة، يستخدمها الناس، بل هي كلمة قديمة، واضح؟ واستخدمها علماؤنا. "قد يكون له" طريق العلم، العلم المطلوب، "قد يكون له طريق تقريبي يليق بالجمهور"، لو سأل سائل: ما هي طرق التقريب التي تليق بالجمهور؟ الجواب: هو التمثيل.

وأعتقد أن في هذا الوقت واجبٌ على القادة من علمائنا ومشايخنا والقادة أن يقرؤوا كتابا من المائة كتاب، من الخمسين كتاب، يجب عليكم أن تقرؤوا هذا الكتاب، ابحثوا عنه، ويجب عليكم أن تقرؤوه، وإذا ما وجدتموه فإن شاء الله أعطيكم إياه تصوروه. إذا أردتم أن تعيشوا الحياة، وأن تعرفوا كيف تتواصلون مع الناس، وإذا أردتم أن تعرفوا كيف تُساق الجماهير، وإذا أردتم أن تعرفوا ما ينتظركم من تعب وعنت في الوصول مع العوام، فعليكم بكتاب: (سيكولوجية الجماهير)، لمن يا مشايخ؟ لجوستاف لوبون، وهو فرنسي، وهو أول من تكلم عن هذا. عادةً كانوا يتكلمون عن علم نفس الفرد، وهذا الذي تكلم عنه من تكلم مما يسمى علماء النفس، أو كما أسميهم علماء النَّفَس والأرجيلة، حتى ينكر بعض إخواني ايش الأرجيلة ولا النفس. ستجدون في هذا كتاب.

-**الطالب**: هل هو مترجم؟

نعم مترجم، ترجمه تلميذ محمد أركون: هاشم صالح، محمد أركون بعدين نتكلم عنه، سيأتي، لأن محمد أركون ممن فتح باب الشر ولم يدخل إليه، وهاشم صالح هو تلميذ محمد أركون، ذلك الرجل الذي يُتهم في نسبه، وهو من أكابر المجرمين في هذا العصر، ودعوتُ مرة إلى مصنَّف أردت أن أنشغل به يوما، وهو (طبقات الزنادقة المعاصرين)، كما تكلم علماؤنا قديمًا عن طبقات الزنادقة في عصورهم. من طبقات الزنادقة المعاصرين، وعلى رأسهم: محمد أركون، وتلميذه هذا لعله نُصيري أو إسماعيلي، واسمه هاشم صالح، وقد اعترف باعترافات خطيرة في ترجمته لبعض كتب محمد أركون، ما يهمني -حتى لا نبعد-، فهذا هو الذي ترجم كتاب جوستاف لوبون (سيكولوجية الجماهير)، يعني علم نفس الجماهير، واضح؟ وهذا كتاب مهم، وخاصة قواعده الأولى. وهذا الرجل هو الذي أنشأ هذا العلم، ثم هذا العلم ذهب، لم يهتم به كثير من الناس، ولكنه صار له اهتمام غربي بسبب الانتخابات وحركة الناس وغيرها، وفيه من قواعد فهم العوام (الجمهور) ما ينبغي أن نتعلمه، ليس على جهة التسليم، ولكن على جهة الفهم والوعي، واضح؟

لو قال قائل: أليس في تاريخ الإسلام من اهتم بهذا؟ يوجد، لكن نحن نحتاج إلى ابن خلدون جديد. ابن خلدون ماذا فعل؟ جاء إلى مباحث قد انتشرت في كتب أهل العلم وجمعها في كتاب واحد، في صعيد واحد. فيوجد الكلام عن العوام، يوجد كثير من الكلام عن العوام، يوجد كثير من الكلام عن الخاصة، عن النخبة، يوجد كثير من الكلام الطيب في هذا الباب، لكن يحتاج إلى جمع، وهذا الكتاب يُعينك في هذا الباب.

القصد؛ إذًا هناك طريق للجمهور وهو طريق المثال، يقول جوستاف لوبون كلاما جميلا، يقول أن الخاصة -أي النخبة- يتعلقون بالعقل والبحث والنظر والأدلة، والعامة يتعلقون بالممارسة والعمل والمثال، هو لا يناقش، تناقشه وتقول له: الروافض كفار، وتأتي له بأدلة، وقال المجلسي وقال كذا، وتطلع فيه، شو يحكي الرجل هذا؟ هو شايف حزب الله يقاتل تلموذ إسرائيل، هذا الذي يهمه، يقول لك احكي اللي تريد، ملعون أبوه ولا تخصني عقيدته، هو يقاتل اليهود خلاص، انتهى الموضوع. أليس كذلك؟ تقول له صدام بعثي إلى آخره، وفعل وفعل، شو يحكي هذا؟ ضرب صواريخ على إسرائيل، واضح الكلام؟

ولكن هذا في العامي ليس بمستغرب، الغريب أن يصبح عند من يزعم العلم، والفرق بينهما ليس بشيء، الفرق أن هذا وضعوا له على الدال نقطة، والثاني مسكين لم يضعوا له دال نقطة، وكلاهما في القواعد السواء.

القصد بأن العامي، أن الجمهور لهم طرائق ينبغي أن تتعامل بها، ليس هذا مراد الشاطبي، ولكننا ننوه بأن طرائق إدراك العلوم العامة تختلف عن إدراك الخاصة. وهنا يقول بأن العالم يجب عليه أن يتعامل مع الشريعة تعامل من خوطبوا بها، واضح؟ من خوطبوا بها، هذه قاعدته، هذه قاعدة من قواعد الشاطبي، يكررها كثيرًا، بأننا يجب أن نتعامل مع الناس بما تعاملت به الشريعة، وهو التقريب، النبي ماذا قال -صلى الله عليه وسلم-؟ (صلوا)، ايش قال؟ (كما رأيتموني أصلي)، (خذوا عني مناسككم)، هذا يسمى التعليم بالمثال، وهذا من أرسخ أنواع التعليم.

لما حدث ما حدث، وقد غزى أبو أيوب الأنصاري -رضي الله تعالى عنه- مع يزيد القسطنطينية، والناس قالوا عن فلان الذي اخترق الصفوف: "ألقى بنفسه إلى التهلكة"، قال لهم، هذه الآية أنزلت فينا، واضح؟ فكانوا يعيشون مع القرآن، لا على جهة البيان اللفظي فقط، ولكن على جهة التمثل، هو يعيش معهم: {إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ}، شو

قال بعدها؟ {وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا}، يقول جابر: "ما يسوؤنا أن تنزل هذه الآية"، قال: "لأن فيها {وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا}"، هو يعيش معها ويعرف على من نزلت، فلان وفلان، هذا هو المقصود، هو نزل فيه هذه الآية، فلان نزلت فيه هذه الآية، هذه الجماعة نزلت فيها هذه الآية، وهكذا. هذا التمثيل، وهذا من الصور الكثيرة.

والقصد في هذا الباب أن طالب العلم إذا خاطب الناس خاطبهم بما يفهمون، نعم، بلا شك ليس لدرجة الاسفاف، فلا يعاب على العالم على أن يجلس مع العامة، ويترفق بهم.

ولذلك هنا لا بد أن أقول كلمة، شوفوا أنا جالس هنا أثير قنابل، وجاهز، أثير مشاكل مع هذه العقول المتحجرة، إن أعظم رجل في هذا العصر جلس إلى العامة ليقرب إليهم كلام الله هو الشعراوي. قولوا ما قلتم، لكن هذا الرجل في هذا الفن أستاذ الأساتذة، لم يصل إليه أحد. هو يجلس مع العامة، ويجلس أمامه الرجل العامي، الأمي، يجلس أمامه أميون، ويجلس أمامه علماء من الأزهر، ويجلس أمامه المثقف، يجلسون أمامه، وكل يأخذ حاجته، فيفسر لهم أصعب مسائل البلاغة، هذا الرجل يفسر لهم أصعب مسائل البلاغة العلمية فيهتز لها العامي، ويتهز لها العالم، ويهتز لها المثقف، إلى أخره. بعد هذا الرجل لم يأت أحد، في الحقيقة لم يأت، لا أعرف أحدًا يجلس أمام العامة ويفعل فعل هذا الرجل، وليت الناس تعلموا علمه، وفهموا، وقرؤوا طريقته، فقط، وليس هذا بمستنكر أن ننصف الناس، ولكن الجهل هو أن نسب الناس سبًا مطلقًا، طيب.

إذًا هناك، "وقد يكون له طريق لا يليق إلا بالجمهور وإن فرض تحقيقًا"، وقد يكون له طريق لا يليق بالجمهور، نعم. التجريد الذهني هل يليق بالجمهور؟ التجريد الذهني، هو مسكين لا يستخدم عقله كثيرًا، يستخدم أذنه وعينه، أذنه لما يسمع، ولكن لا يستخدم عقله في الأبعاد التجريدية، "وإن فُرض تحقيقًا"، يعني إن فرض ماذا؟ كلمته هذه رائعة،"وقد يكون له طريق لا يليق بالجمهور وإن فرض تحقيقًا": القصد وإن كانت طريقته صحيحة، هذا معنى كلامه، "وإن فُرض تحقيقًا" أي إن تَحقق بهذه الوسيلة التي لا تليق بالجمهور، وإن تحقق حصول المراد منها.

"فأما الأول؛ فهو المطلوب، المنبه عليه، كما إذا طلب معنى الملك؛ فقيل: إنه خلق من خلق الله يتصرف في أمره، أو معنى الإنسان؛ فقيل: إنه هذا الذي أنت من جنسه، أو معنى التخوف؛ فقيل: هو التنقص، أو معنى الكوكب؛ فقيل: هذا الذي نشاهده بالليل، ونحو ذلك؛ فيحصل فهم الخطاب مع هذا الفهم التقريبي حتى يمكن الامتثال"

إذًا فيحصل فهم الخطاب، حصل المراد من العلم، نعم.

"وعلى هذا وقع البيان في الشريعة؛ كما قال –عليه السلام–: (الكبر بطر الحق وغمط الناس)، ففسره بلازمه الظاهر لكل أحد"

نعم، هنا في الحقيقة تفتح لنا أبواب بما يفسر الشيء، وهذه هي التي يقع فيها الجاهل اليوم، هذا التكفير الذي يقع من الناس، هذا التأويل الذي يقع من الناس، هذا الفقه الذي يقع من الناس، كله لأنهم لا يفهمون كلام العلماء، وكل ما ترونه من الاستدلال بكلام العلماء الذي يوصل إلى غير الحق الذي هو في الكتاب والسنة، سببه أنهم يُنزلون الكلام على غير مراد العالِم؛ فالشيء قد يُفسر بلازمه، وقد يُفسر ببعض معانيه. يعني مثلا، فقط اقرؤوا لتتعلموا المنهج، وهو (مقدمة التفسير)، لمن؟ (مقدمة التفسير) لشيخ الإسلام بن تيمية، كيف بيَّن لنا الإمام بأنه ما يعرض للطالب من اختلاف أقوال العلماء، أنها غير مختلفة. كيف؟ جاء إلى طُرق تفسيرهم للنص، أنهم يفسرون اللفظة بطرائق مختلفة، أي بقواعد مختلفة، فاختلفت عباراتهم، لكنها تدل على المطلوب، فقد يُفسر الشيء بلازمه، وقد يفسر الشيء ضمنيًا، وقد يفسر مطابقةً، وقد يُفسر بما يؤول إليه، وقد –وهذا علم الأصول– يوضع الشرط كشرطٍ لا بد منه لتحقيق المعنى، وقد يوضع الشرط على جهة الغالب، وهذا موجود، الآن، لما نحن نقول في قوله تعالى: {إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ}، ماذا يقول شيخ الإسلام؟ ماذا يقول على {مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ}؟ قال: هذا جرى على جهة الغالب، هذا تفسيري على ما قاله سبحانه وتعالى: {إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا}، يعني هل الجارية يجوز إرسالها من قبل سيدها ومالكها للبغاء إنْ وافقت؟! لا يجوز، وإنما هذا نزل بسبب موافقة الحالة، وهو عبد الله بن أُبيّ يُرسل أمته مكرهة، فجرى هذا الشرط مجرى الغالب، أو مجرى سياق الحدث، وهكذا.

فلذلك كلام أهل العلم يجب أن يُفهم على هذا، وفي حواراتي مع أغلب الطلبة، هذا هو عجزهم. لما يأتي شيخ الإسلام يقول: "يفسرون الريب بالشك وليس كذلك"، ارجع إلى كتب التفسير، يقرب إليك، يقول: "الريب أوسع من الشك، فالشك يتعلق بمسائل العلم، والريب يتعلق بالعمل والعلم"، لماذا يقول له هذا؟ لو أراد أن يُفسر هذا اللفظ تفسيرًا على جهة مرادِهِ من الأمثال، لاحتاج هذا اللفظ إلى صفحة أو صفحتين من كتابه، المفسرون لا يجرون على هذا المعنى.

ولذلك هناك نقطة لا بد أن نفهمها في هذه المسألة، وهو أن ما كثر الكلام فيه عند المتأخرين ليس لكثرة عِلمهم، وأن ما قلّ حوله الكلام عند المتقدمين إنما هو بسبب علمهم، هم يحدثون، العلماء يعرفون بماذا يحدثون. فالمتأخر ماذا يفعل؟ كما يفعل الشاطبي معنا الآن، وكما يفعل ابن تيمية، هل تجدون هذا الكلام الطويل الكثير، هل تجدونه في كلام الأوائل؟! الأوائل يطلقون اللفظة، ويعرفون ماذا ستُحدث هذه اللفظة من علوم وبِحار من الفهم في نفس متلقيها، لأنها حاضرة في نفسه، نحن لا نفهم ونضطر إلى الإطالة.

ولذلك ما اضطر إليه المتأخرون من التوسع في الكلام، ليس لأن علمهم أعظم من المتقدمين، لا، ولذلك كانوا يقولون: **البلاغة هي اللمحة الدالة**، هذه البلاغة، ما هي البلاغة؟ قالوا: هي اللمحة أو اللفظة الدالة. لمحةٌ دالة فقط، وهذا يفسرها -يأتي هنا شيء آخر-، يُفسرها قولهم: "البلاغة في الإيجاز"، قالوا: ما البلاغة؟ قالوا: في الإيجاز، قالوا: ما العيب؟ قالوا: ما أنت فيه. اللي انتا تسوي هذا الكلام، الراجل يخربط ويحكي، المسألة بسيطة.

ولذلك أريد منكم فقط -وأرجوا أن تفعلوها-، وهذا كتاب منتشر أظن، ما خلا بيت منه، تزينون به مكاتبكم، لكن حتى تفهموا هذا المنهج، افتحوا كتاب الإمام ابن رجب في شرح (الأربعين النووية): (جامع العلوم والحكم)، أنا ذهبت لكتاب ابن عبد البر: (جامع بيان العلم وفضله)، شو جابني؟ المهم، ارجعوا إلى هذا الكتاب **فقط**، لا أريد أن تقرؤوا الكتاب كله، إذا شئتم فاقرؤوه ستجدون علومًا عظيمة، لكن ما يهمني فقط في الصفحة الأولى، عندما ينقل ابن رجب تفسير حديث: (إنما الأعمال بالنيات)، وانظروا إلى ترقي اللفظ الذي قاله الشافعي إلى مَن بعده، كيف بدؤوا ينسجون حوله، ويلتصقون به فيزيدون شيئًا، فقط، هذه فقط لتروا كيف أن المتأخر يأتي، فتجد تفصيلا يفصِّل لك، والمتقدم قد قالها في عبارة أوجز وأعظم، لكنها عيية علينا، عصية علينا، نحن نعجز أن نفهمها، وهم يفهمونها فيزيدون

فيها، ونحن نضطر أن نأخذ كلام المتأخر، لأن كلام المتقدم صعبٌ علينا، واضح؟ ارجعوا إليها فقط، أظن أن هذا الكتاب موجود عندكم، فارجعوا إليها، كيف يقول أن الدين، الشافعي يقول أن مدار الدين على كذا وكذا، فيأتي غيره ويزيد، ويأتي غيره ويفصل، انظروا فقط، هو أمامكم، هذا الكلام ستجدونه في صفحة واحدة، وانظروا إلى هذا التطور في اللفظة. ومرات التطور مشكلة، يضطر أن يقول كلامًا ليس دقيقًا كما قاله الأول، يعني لو رجعتم إلى تفسير الفعل المضارع في كلام سيبويه، لا يقول فعل مضارع، أنشأه المتأخرون، وتجدون فرقا كبيرا بين ما يريده سيبويه من الفعل الذي، لأنه الحقيقة مضارع غير صحيح لأنه مستقبل كمان؛ الفعل الماضي، وفعل الأمر، فعل: "يَفْعَلُ"، هل هو مضارع يستمر أم أنه كذلك آت فيما هو؟ هو آت. فانظروا، ارجعوا إلى هذه فقط، ارجعوا إلى ما يقوله سيبويه في الكتاب، لا أظن أنكم تمتلكون الكتاب لأن العلماء، انظروا إليه، ستجدون الفرق أن المتأخر أراد أن يبسط ولكنه لم يصب ما أصابه المتقدم.

ومثال ذلك، أغلبه هو مسألة الإيمان، قال، هكذا، كل الناس يقولون هذا وهذا غير صحيح، لم يقله العلماء الأوائل، يأتي ويقول لك: الإيمان قول باللسان عمل بالأركان، ايش؟ إقرار بالجنان، وهذا غير صحيح، هذه محاولة عاجزة عجزًا أن تصيب كمال قول من تقدم أن الإيمان قول وعمل، هذه شرحتها أظن في دورة الإيمان، فتجد أن المتأخر يفصل المسكين، لكنه لا يدرك شأو المتقدم.

لماذا قلنا هذا يا مشايخ؟ لا، إحنا قلنا فسره الشيخ، جزاك الله خيرًا، فأنا أكره كلمة "لا"، هذه بعض الناس يقولونها، أنا منهم طبعًا، لكي أول ما يجابه يقول: لا، ثم بعدها يعيد كلامك، لكن متعود يقول "لا"، لكن أنا ما سمعتُ ما قلت.

"ففسَّره بلازمه"، واللزوم هو ما يتْبع المعنى وجوبًا، هذا هو اللزوم. فقال: الكبر، ما هو لازمه؟ لا يكون الكبر إلا بلازمه، وهذا ليس هو الكبر، لكنه عمل من أعمال الكبر، صورة من صور الكبر، وهو الأغلب فيه، أنه (بطر الحق وغمط الناس)، وفي الحقيقة هذا حديث، والله يا إخوتي، والله ما من حديث نبوي للنبي –صلى الله عليه وسلم– إلا ويشهد أن قائله هو رسول الله، ما من حديث يصح إلا ويشهد بكل صراحة ووضوح أن الذي قاله رسول الله، لا يقوله إلا رسول، هذا حديث لا يقوله إلا رسول، طيب.

قال: "ففسره بلازمه الظاهر لكل أحد"، هو لا يريد أن يقول بلازمه، هذه نحن وقفنا عليها كثيرا، ولكنه أراد أن يقول -تفسيرًا كلامه- ما وراءه هو قوله، ماذا؟

"الظاهر لكل أحد"، نعم، هذا الذي هو يريده، فسّره بلازمه الظاهر لكل أحد، اتفضل يا شيخ.

"وكما تفسَّر ألفاظ القرآن والحديث بمرادفاتها لغة"

قف هنا، هل يوجد في اللغة مترادف؟ هل يوجد في القرآن مترادف؟ أهل العلم اختلفوا في هذا، ولكن الأغلب -وهذا قول شيخ الإسلام ويجزم به- أن القرآن لا يوجد به مترادف، وأما اللغة فقد اختلفوا فيها، والأغلب والأقوى أنها ليست كذلك، ليس فيها مترادفات. والمترادف هو اللفظ الذي يمْلَأُ غيرُه معناه تمامًا بما لا يزيد ولا ينقص، هناك لفظان يملَآن المعنى ولا يزيدان على بعضهما البعض، ولا ينقص أحدهما عن الآخر، هل يوجد هذا؟ أهل اللغة، أهل التحقق، يقولون: لا، واضح؟ يقول هنا: لا، ويكفي إلى هنا وبارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

أَسْئِلَة

- هناك سؤال يقول: ما حكم تدريس مادة الفلسفة ودراستها؟ وما حكم الشرع في أساتذة الفلسفة الذين تأثروا بها وأثرت في معتقداتهم؟

السؤال الأول غير السؤال الثاني، أما دراسة الفلسفة فهذه طرائق أهل العلم، لا بد أن يدرسوها، العلماء والكبار لا ينفع منهم أن يردوا الشيء دون إدراكه، أنا لا أدعوا طالب العلم المبتدئ ولا المنتصف (لا في الابتداء ولا في الأثناء) أن يقرأ الفلسفة، وهل هو عنده وقت ليدرس الفلسفة؟ فهذا لا أدعو إليه، ولكني لا أقبل من عالم بَلَغ أن يتكلم فيها حتى يقرأها، حتى يعرف ما هي، وهذه طرائق سلفنا، هذه طرائقهم، يدركون العلوم على ما هي عليه، ويردون عليها.

وشيخ الإسلام له كلمة عظيمة، قال: إن العلماء -وهذه دراسة لكلام علمائنا-، يقول: إن العلماء لم يَرُدوا ويتركوا العلوم ويُنفروا عنها من أجل أسلوبها، ولا من أجل مواضيعها، ولكن من أجل أسلوبها ومواضيعها، فإنهم أدركوا ما تُؤَدي إليه من المعاني، كما أنهم نهوا عنها من أسلوبها. ولذلك نهوا عن هذا العلم، وهذا النهي إنما هو للعوام، (إلجام العوام عن علم الكلام)، وأما العلماء فبحسبهم، هناك علماء لا يفرغون لهذا، وليس مطلوبا من كل عالم، لكن من أراد أن يتكلم في فنٍّ وجب أن يعرفه، ولا بد على أهل العلم في كل وقت إذا انتشرت الفلسفة أن يدرسوها. واليوم لا انتشار لها، أنتم تعرفون، فقط للذكر، أن الفلسفة قد صوَّحت ميادينُها، يعني خلَت، لا يوجد، لماذا؟ ما بقيت إلا في التدريس من أجل لقمة العيش، وأهم شيء الواحد يدرس الفلسفة كي يُعلم في الجامعة ويدرس لأنها لقمة العيش، لا يوجد من يقرأ الفلسفة لأنها باب من أبواب العلم، أو باب من أبواب الانتفاع العقدي، فقد ذهبت، لماذا؟ السبب: لغلبة الفلسفة المادية؛ لما قامت الفلسفة المادية -كما تقدمنا سابقًا- فإنها أعادت الناس إلى الآلة، فصار للآلة شأنها.

الآن الناس كلها ماذا تقرأ؟ يقرؤون كمبيوتر، ايش دخلو في الفلسفة،(... د ٠١:١٢:٥٤)، أي دكان يجلس فيه ليتعلم الفلسفة! فلذلك إذا قرأها العلماء على هذا المعنى جاز، والله تعالى أعلم.

أما الذين تأثروا بالفلسفة، فإذا تأثروا بمعتقدات الفلاسفة فهذا كفر بالله -عز وجل-، إذا تأثروا بها على المعنى الكامل، أخذوا بمعتقداتها وتركوا الشريعة وغير ذلك، فهذا كفر، وأما من تأثر بها، فالحكم عليه بمقدار تأثره بما أصاب.

وأنا هنا -من الخمسين كتاب- أدعو إلى كتب، أدعو طلبة العلم، بغض النظر عن شخصه واختياراته، أنا دائمًا أُفرق بين الكتاب والكاتب، لما ذكرت الشعراوي وأسلوبه وطرائقه، لم أتكلم عن شخصه، لم أتكلم عن معتقده وحكمه، وماذا قال في الباب الفلاني، وماذا صنع مع الطاغوت، هذه طريقة الجهلة، وطريقة العلماء هي التفصيل، أن تذكره في الحالة التي يُنتفع بها، أو الحالة التي يُنفر منها، بحسب سياق الكلام، ننتبه لهذا.

وأنا هنا لماذا أقول هذه المقدمة؟ لأني أدعوا طالب العلم أن يقرأ كتب الدكتور طه عبد الرحمن، ولو جاز في هذا العصر أن يقال: "مَن فيلسوف الإسلام؟"، لكان هذا الرجل، واضح؟ الدكتور طه عبد الرحمن، وكُتبه نافعة وفيها فوائد. لا تستمعوا إلى دروسه، طه عبد الرحمن لا تستمعوا إلى دروسه، ولا إلى محاضراته، ولا إلى لقاءاته التلفزيونية، فهو يأتي بالعجب العجاب، وغرائب الأقوال والأفعال، ويكفي أنه في ممارسته صوفي، يرقص كما يرقص الصوفية، عجيب، ولكنه فيلسوف، وكتبه نافعة، نعم.

- قبل السؤال، ممكن أن يذكر لنا اسم كتاب الكاتب الفرنسي واسمه؟

ذكرته يا شيخ مشتاق، وهو كتاب (سيكولوجية الجماهير)، لا تقرؤوا المقدمة، دعوكم منها، مقدمة هاشم صالح لا تقرؤوها، يعني إذا ضاق الوقت عليكم، والنصف الثاني من الكتاب لا تقرؤوه، فقط اقرؤوا نفسية الجمهور، فقط هذا البحث، وهو مليء، وضعوا خط تحت كل قاعدة، تجدون اجتمعت لكم، وربما أفرغ لهذا أن أكتب في القواعد التي ذكرها جوستاف لوبون، من أراد أن يعرف مرة أخرى فليرجع إلى الشريط وليسمع، طيب.

- هل هناك كتب إسلامية تعلمنا علم النفس؟ وماذا تنصحنا بقراءة كتب لعوام الناس حتى لا تكون إسلامية.

والله يا إخوتي، وإني لصادق، ولا أقولها على جهة التعظيم لما هو معظم عند كل مسلم: لا يوجد كتاب يكشف الإنسان -الإنسان هذا- بشموله وباستغراق لكل إنسان، كما هو كتاب ربنا، ولا يوجد كتاب يُفسر هذه المعاني التي في القرآن كما تفسرها سيرة النبي والصحابة، اقرؤوا فقط، اقرؤوا بهذا المعنى، ولذلك ما أردته من الكتب التي تقدمت في

التفسير وغيرها، هو كشف الإنسان، في (صبغة الله الصمد)، لما تقرأ القرآن في الأحداث، تجده الله يعالج علم النفس، لا يعالج إلا النفس، لا يفصل إلا في هذا، يقترب من الأمور الأخرى، يلامسها على درجة، لكنه يستغرق في الحديث عن النفس البشرية، اقرؤوا القرآن تجدونه.

الكتب الأخرى للأسف -انتبهوا، حتى نجيب الأخ السائل-، هذا أفسد علمٍ من علوم الأغيار، ليس فيه خير قط. انتبهتم؟ الذي يسمونه علم النفس هو أفسد علوم الآخرين (الأغيار)، ولا يوجد علمٌ فيه الضلال كما في هذا العلم، وهو علم النفس، لماذا؟ لأسباب، لا بد لشرحها من درس جديد، نعم، السبب أن الدافع لقراءة هذا العلم عندهم هو غيرُ دافع الحق. قد يقول قائل: أنت ذهبت إلى الدافع لتدرس الشيء، نعم، الذين يدرسون النفس البشرية من أجل أن يتعاملوا معها لحصول التعبد، يدرسونها على معنى مختلف عما يُراد بها من تحويل الإنسان إلى آلة، عالَم النفس البشرية عند الغرب يتعلق بعالم القِيَم، مستحيل ينفصل عنها، ولا يوجد أحد يستطيع أن يقرأ علم النفس دون أن يمزجها مزجًا تامًا بعالم القِيَم، القيَم، الأخلاق، وعالم القِيَم فسادُه عند الغربيين يتعلق بمصدر القيَم، من مصدر القيَم؟ المادة. أين وصلنا؟ وصلنا إلى أنَّ دراسة علم النفس عندهم هي أشبه بقراءة المادة أو بقراءة الدابة؛ ولذلك تجدونهم يطبقون ما يصلون إليه من قواعد الحيوان على الإنسان، وهذا يكفي الآن، وإلا فيحتاج إلى تفصيل أكثر، المهم جزاكم الله خيراً وبارك الله فيكم.

- ما رأي الشيخ في كتاب (المسائل المشتركة بين أصول الفقه وبين أصول الدين) للدكتور محمد العروسي؟

والله هذا كتاب، أنا خرجت يا شيخ مشتاق، وبين يدي أطنان من الكتب لم أطلع عليها، وهذا مما علمت أنه خرج متأخرًا فيما أظن ولم أطلع عليه، ما رأي الشيخ في (كتاب المسائل المشتركة بين أصول الفقه وبين أصول الدين) للدكتور محمد العروسي، الحقيقة لا أعرفه والحمد لله رب العالمين، طيب يكفي إلى هنا.

- السؤال الرابع: عندما نقرأ كتب الإمام الغزالي إلى ماذا ننتبه عند القراءة إن كانت هناك من سلبية

هذا يحتاج إلى درس، إن شاء الله نفصل فيه في درس قادم، لكنني أردت أن أضع فقط علامات في التعامل مع العلماء، أما أن نقرأ كل عالم على حدة، ما فيه وما له وما عليه، فهذا يطول، ولكنني أكره -أكرر- القراءة الطهرية، اقرؤوا، اقرؤوا، لكن ابتدئوا بتقرير القواعد العلمية، نعم.

- بسبب الشيخ اضطررت أن اقرأ بكتاب (الرسالة) للشافعي، ولكن عبارة صغيرة أشكلت علي في الصفحة الأولى، وهي: "توجب على مؤدي ماضي نعمه بأدائها نعمة حادثة يجب عليه شكره بها"

لو استمعت إلى الشرح، شرحنا هذه، شرحنا هذه العبارة وهي كلمة شرحها الشاطبي، أن كل نعمةٍ قد مضت توجب حمدًا، هذا الحمد يصبح نعمةً ماضية توجب حمدًا، وهذا الحمد الذي حصل من حمدك على الحمد، يُصبح هذا الحمد نعمة ماضية توجب حمدًا، وهكذا فيجب عليك الحمد، إذًا أنت عاجز على أن تصل للنهاية، هذا الذي يسمونه التسلسل عند العلماء.

يكفي، جزاكم الله خيرًا وبارك الله فيكم، والحمد لله رب العالمين وجزاكم الله خير الجزاء، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الدرس [١٦]

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، هذا هو الدرس السادس عشر من دروس الشرح لكتاب (الموافقات) لأبي إسحاق الشاطبي -رحمه الله-، تفضل يا أبا عمر...

"وكما تفسر ألفاظ القرآن والحديث بمرادفاتها لغة، من حيث كانت أظهر في الفهم منها، وقد بين -عليه السلام- الصلاة والحج بفعله وقوله على ما يليق بالجمهور، وكذلك سائر الأمور، وهي عادة العرب، والشريعة عربية، ولأن الأمة أمية؛ فلا يليق بها من البيان إلا الأمي، وقد تبين هذا في كتاب المقاصد مشروحا، والحمد لله"

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، هذا الكلام لا نريد أن نفهمه على طريقة من قال من المتكلمين بأن خطاب القرآن إنشائي أو خطابي، هكذا يقول بعض المتكلمون، وأصل هذا الكلام هو كلام الفلاسفة الذين يهينون القرآن الكريم، يقولون بأن طريقة الخطاب تقسم إلى طريقتين: طريقة برهانية وطريقة خطابية، والطريقة الخطابية مبناها على الوعظ والتهديد والترغيب والترهيب، والطريقة البرهانية مبنية على المقدمات العقلية والنتائج الموجبة لهذه المقدمات، هذا كلام انتشر وسرى، وكما ترون، هذا الكلام هو الذي يُسقط هيبة القرآن، ويُبعد القرآن عن أن يكون مصدر المناظر، والبناء النفسي هو أهم ما نحتاجه في هذا اليوم، البناء النفسي هو أهم ما يحتاجه المسلم الداعي لبناء المسلم الصحابي، والكلمات المقصود منها هو إحداث الأثر النفسي -أنا أنبه لهذا-.

أقول بأن الأثر النفسي الذي يُنشئه أي كلام هو ما نهتم له، لأن البناء العقلي لا يحتاج إلى مدة طويلة حتى تتعلم المسألة، وحتى تتقن بنائها العلمي، هذا لا يحتاج إلى وقت طويل، ولكن الذي يحتاج إلى وقت طويل في البناء هو البناء النفسي، والكلمات يُطْلقها خصومنا من أجل المقاصد النفسية، كيف؟ هذا في كل مرحلة من المراحل.

لما ذكرنا قضية الشعر الجاهلي وماذا ترتب عليه، من ذلك أن القرآن كلام الله، لما يأتي المعتزلي ويقول: القرآن مخلوق، انظر إلى درجة تأثر النفس الإنسانية عندما تقرأ أن القرآن كلام الله، عندما أنت تردد على لسانك، وتسمع بأذنك،

وأنت تعلم أن الله هو الذي تكلم هذا الكلام، وأن هذا الكلام يُعبر عن مراد الرب ويكشف نفسه، فهذا الذي أحدث هذا المعنى في نفوس الصحابة. ولما تأتي وتقول أن هذا الكلام مخلوق، فأنت تنظر إليه كإبداع المخلوق، كإبداع الخالق للمخلوق، والله يبدع في هذا الكون من الإبداعات الخلقية التي نراها في السماء وفي الأرض وفي الأنفس وفي الآفاق إلى غير ذلك، ولكن أين هذا الأثر أنك تردد كلام الله؟ هذا شيء كبير، ما يهمنا هو البناء النفسي. ولذلك يمكن للرجل أن يتكلم -إذا قلنا أنه مخلوق-، يمكن بعد ذلك أن يتكلم عنه ما يتكلم.

الآن نحن نتكلم عن هذه الكلمة الخطيرة التي قالها الأوائل من الفلاسفة والمتكلمين، أن طريقة القرآن خطابية، ما معنى خطابية؟ مثل ما نقول اليوم: أنت جاي تخطب علي؟ بمعنى أن كلامك يفقد العلمية، ويفقد النقاش البرهاني العلمي، أنت بتخطب علي؟ هذا هو المعنى، فلا ترفع صوتك، لأن قوة الخطاب ليست برفع الصوت، أو بالكلمات الفاقعة التي لا قوة لمعناها في داخلها، كلمات قوية لكن بداخلها الفراغ.

فالقرآن، يقولون خطابه خطابي أو إنشائي؟ خطابي. لماذا؟ لأنه يقفز إلى النهايات مع أحكامها، هكذا يقولون، يقفز إلى الأحكام، إلى النهايات -وهي الأحكام-، مع نهايتها، مع أحكامها التي تترتب عليها من الوعظ، من الجنة والنار، كل هذا لا يصلح إلا للعوام، وأما الخواص فيجب أن يُخاطبوا بالخطاب البرهاني، الخطاب العقلي. هذه الكلمة اليوم تجدونها، صحيح؟ تجدونها، يقول لك: احنا جالسين جلسة حوار، فلا تقل لي: "قال الله وقال الرسول"، لا تُدخل الدين في الموضوع.

كل هذه الكلمات التي تقال اليوم هي نِتاج هذه الكلمة المجرمة التي قيلت قديمًا، ويستغلها من يستغلها من المعاصرين من أعداء الدين، مع أن القرآن هو كتاب الجدل، والجدل الإيجابي، وكتاب المناظرة؛ إبراهيم -عليه السلام-، مناظراتُه في القرآن من أعظم المناظرات، وبناء النتائج على المقدمات في القرآن شيء معلوم، عندما يتحدث عن الآخرة، لما يأتي إلى القدرة الإلهية فيتحدث على أنه: {لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ}، ويقول عن الغيب -وهو الآخرة-: {وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ}، لأن المادة موجودة، ولكن الإنسان عندما أُنشئ لم تكن مادته، وهكذا. وكذلك يضرب الأمثلة على إحياء الأرض فيقول: {وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ}، هذه هي الأمثلة، لكن هذه الطريقة هي الطريقة الحقيقية التي توصل إلى المراد

بأسهل الطرق، التعقيد يُتعب العقل وربما إذا وصلْت إليه بعد الإتعاب لا تحس بأهميته، ولكن يوصلك إلى المراد. فطريقة القرآن طريقة برهانية، وطريقةٌ خطابية، على معنى ما يذكرون، وهو أنه يذكر العاقبة (الجنة والنار).

الآن، هنا يأتي السؤال: ماذا يريد الآخرون وماذا يريد القرآن؟ كل واحد يستخدم أسلوبه للمراد الذي يريده: الأسلوب يوافق المراد، هذه قاعدة، ما هو أسلوبك؟ ما هو مرادك؟ لو جلست أنت مع قاضي لتقيم له الحجة في قضية ما، أو لتنفي تهمة موجهة إلى وكيلك، فأنت تحتاج إلى البرهان، الأدلة، والصوت الكبير لا ينفعك، لكن إذا أردت أن تُحيي الإرادة وأن تدفعها، فلا بد أن تستخدم الوعظ، مع المقدمات العلمية.

هم يقولون -وذكرناها أكثر من مرة، مرتين تقريبًا-، الجماهير لا تتأمل في الفكر، الجمهور يتأمل في المثال، والعقلاء يتمايزون بالفكر، والإنسان شيء كامل، يحتاج إلى هذا ويحتاج إلى هذا، الإنسان بكماله. أنت ماذا تحتاج؟ عندما تدغدغ عواطفك، مهما كان الرجل عظيمًا في فكره، إن لم تُصب منه عاطفته فلن تُحرك إرادته؛ ولذلك مما ينبغي أن ننبه عليه، الذين يزعمون أنهم يجلسون مثلاً مع النساء، -انظروا إلى هذه القضية، هي قضية جزئية توضح قضية كلية-، الذين يجلسون مع النساء يكذبون على الناس، يقولون: أنا أجلس مع المرأة من أجل فكر، لا أنظر إلى الجنس، يقولون: أنتم دائمًا يا مشايخ، دائمًا يا مسلمون تتحدثون عن الجنس، والمرأة كأنها شيء متاع، نحن جماعة تخطينا هذه المسألة، نحن نجلس رجالا ونساءً ونتكلم عن الفكر، وأنا أنظر إلى المرأة كمفكرة، كما يتكلم الرجل، أليس كذلك؟ ألا يقولون هذا؟ فهُم يريدون أن يجردوا الفكرة من العاطفة، أو يفصموا الإنسان فكرًا وعاطفةً، وأنه يمكن الفصل بينهما، وهذا لا وجود له، الإنسان كلٌّ كامل.

ولذلك أستاذنا، هو حبيبنا -رحمه الله- السيد علي الطنطاوي، له كتيب صغير -وهذا من الخمسين كتاب-، اسمه: (يا بنتي)، أنصح كل أبنائي في الدنيا، وكل ابنة مسلمة هي ابنتي، وأنصح كل امرأة وهي أختي، وأنصح كل أم وهي أمي، أن تقرأ هذا الكتاب. الأستاذ علي طنطاوي في هذا الكتاب تألق تألقًا عظيمًا، لأنه خاطب أعز ما في هذه الدنيا على قلبه، الأستاذ علي طنطاوي لم ينجب رجالًا، كل عاقبته بنات، وكتب رسالته إلى ابنته التي نسأل الله أن تكون قد ماتت شهيدة، وهي بنان الطنطاوي، وهي زوجة الأستاذ عصام العطار قتلها النظام النصيري الكافر في بون، كانت في بون، فطرقوا الباب، فلما خرجت أطلقوا عليها النار وقتلوها.

فهذا الكتاب خاطب فيه ابنته بنان، وعامة بناته، ونصح النصيحة العظيمة، وقال كلمته العجيبة في هذا الكتاب، هو كتيب صغير، لكنه سر الرجل مع المرأة، وسر نظرة الرجل للمرأة، يقول: "يا بنتي، إياك أن تظني أنك إن جلست إلى الرجل نظرَ إلى شيء آخر غير ما ينظر الرجل إليه"، البقية عندكم. إذا جلس الرجل مع المرأة، هي تتكلم فكرًا، تريد أن تشتري بضاعة، تريد أن تتحدث عن مشاكلها، لا يوجد رجل في الدنيا يُخاطب امرأة تجلس أمامه إلا وذهنه يسمع لها، لكن في ذهنه شيء آخر كذلك يتخفى في داخل عقله. هذا الكلام من الشيخ -رحمه الله- هو تفسير حديث النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ما خلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما)، إلا كان الشيطان، ما معنى الشيطان؟ أين يوجه نظره؟ أين يوسوس في عقله وفي نفسه؟ واضح؟ هذه كلمة قلناها، لأن الإنسان، هل هو عقل فقط؟ لا. هل هو عاطفة فقط؟ لا. لا بد للعلم السليم أن يجمع بينهما.

الآن، هذا الكلام الذي قاله الشيخ أبو إسحاق، نرجع إلى الكلام، يقول هناك خطاب يليق بالجمهور، وهذا الخطاب هو الأليق بالقرآن، لكن هل هذا يؤدي بنا إلى ما يقوله هؤلاء؟ بأن خطاب الجمهور هو فقط خطاب عاطفي؟ لا. هو خطاب علمي، لكنه يوصل المراد عن طريق المثال، وهو خيرها وأجلاها وأبينُها طريقة، أن تقول لشيء: ما هذا؟ ما هو الخبز؟ تحضر له رغيفا وتقول له: هذا هو الخبز، فلو فسرته على طريقة الحد وعلى طريقة التصور لأنشأ تصورًا ما، ولكنه لا يكفي لما يقوم به المثال، وهذا تكلمنا عنه سابقًا، ولكني أريد أن أنبه عليه لأني أحس في الكلام أنه قد يوصل إلى المعنى الذي قاله الآخرون، فلا بد أن نضع علامة تنبيه (تحذير): ليس هذا مرادهم، ليس معنى هذا أن هناك طريقة شعبية مبتذلة وليست علمية، وهناك طريقة علمية خاصة نخبوية فوقية، لا، لا يوجد هذا. الإنسان هو الكامل في عقله والكامل في عواطفه، لا بد أن نُخاطب الإنسان بكليه، بمجموعه.

أنا توقفت كثيرا في الدرس الفائت على تفسير الكلام باللازم إلى آخره، وقلنا: "كما تفسر ألفاظ القرآن والحديث بمرادفاتها لغة"، هنا كلمة، أنا أريد أن تفهموا الشيخ، وأنا أصر أن نقرأ كلام الإمام بدِقة، انتبهوا للعبارة التي تلت هذه الكلمة، ماذا قال الشيخ؟

قال: "من حيث كانت أظهر في الفهم منها"، حط تحت هذه خط. يا إخوتي، كلام العلماء يوزن بالذهب، الناس يتكلمون ب: "ما أردت، وما قصدت، وهذه كلمة قلتها زيادة"، كلام العلماء لا يفهم بهذا، هذه الكلمة من الشيخ، يتنازع الأمر في هذا الكلام، وهو أن يأتي المفسر -انتبهوا-، أن يأتي المفسر فيقرأ كلام الله، هل هناك أبين من كلام الله

عن مراد الله؟ لا يوجد، {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ}، {كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ}، لكن هذا المحكم، وهذا المفسر، وهذا المفصل، هذا قد يعجز عنه الرجل لضعف نظره، النور قد لا يُرى، لضعف الناظر وليس لضعف النور، واضح الكلام؟ فلذلك لا يجوز أن يقول لكلمة أظهر منها في المعنى، لأنه لا يوجد –انتبهوا–، لأنه لا يستطيع أن يقول لكلمة أظهر منها في المعنى، فلو قال هذا لكانت طامة، وهو لا يقولها، وإذا قالها عالم من علمائنا تأولناها له، ولكنه هنا ضبطها في الفهم، إذًا المشكلة في الفهم، واضح الكلام؟ لأن هذه الكلمة التي نفسر بها كلام الله، ليست لأنها أظهر في المعنى من كلام الله، لكنها أظهر في الفَهم، لأن الفهم يَكِلّ عن المراد. لماذا يكل الفهم عن المراد؟ لضعف فيه. هو لا يعرف هذه الكلمة، فهو يبحث عن مرادف لها، لماذا هذه الكلمة، وهكذا، يفسر هذا الكلام، فإذًا انتبهوا لكلمة الشيخ، يقول: "من حيث كانت أظهر"، هل يقول منها، هل قال منها أم في الفهم؟ "في الفهم"، هذا حتى تعرفوا لماذا هذه الكلمة.

أريد أن أقول لكم قاعدة يطبقها نقاد الشعر، ونقاد الشعر هم نقاد أعلى الكلام، ولذلك مَن لا ينقد الشعر، لا يستطيع أن يقرأ كتاب الله قراءةً بلاغية عظيمة، يقول: انثروا الشعر، الطريقة لفهم الشعر ومعرفة مراتبه: انثروا الشعر، والشعر ما هو؟ الكلام الموزون المقفى، طبعًا هذا بالنظر في الشعر إلى هيكله، إلى صورته الظاهرة، الكلام الموزون المقفى. فأنت انثره، فإذا نثرته لتعرف المعنى فلو وجدت كلمة فيه، لو أزلتها لما تغير المعنى، لكان هذا الشعر ضعيفًا، واضح القاعدة؟ انثر الشعر، فإن وجدت فيه كلمةً لو أزلتها لما تغير المعنى، لكان هذا الشعر ضعيفًا، هذا حشو، وهكذا في كلام أهل العلم.

يعني لو أزلنا هذه الكلمة، هل يتغير المعنى أم لا تغير؟ يتغير المعنى، يصبح المعنى خطيرا، فقط بهذه الكلمة، وهكذا. كلام أهل العلم بهذا المعنى، والله تعالى أعلم، نعم يا شيخ، ايش يقول هنا؟ تكلم عن القضية التي ذكرناها وهي أن النبي –صلى الله عليه وسلم– فسر الشريعة عملاً، نعم تفضل.

"فإذا؛ التصورات المستعملة في الشرع إنما هي تقريبات بالألفاظ المترادفة وما قام مقامها من البيانات القريبة"

الآن ننتبه، كلمة "تصورات" يعني، بعضهم من جمع الألفاظ المنهي عنها، وجاء إلى الكلمة التي أفاض الأستاذ سيد قطب –رحمه الله– في استخدامها، وهي كلمة "التصور الإسلامي"، وكأن هذه الكلمة، كأنه كل ما يأتي من الأدب يجب

أن ننبذه، كل ما جاء شيء من الفكر يجب أن ننبذه، وكل ما خرج من مشكاة غير الفقهاء التقليدين علينا أن نضع أمامه، وكأن كلمة "التصور" لها فساد. كلمة "التصور" أجمل من كلمة "عقيدة"، وكلمة "عقيدة" أصلًا كلمة محدثة جرى العلماء عليها، ووضعت من الآثار السيئة ما وضعت، ولكنها استقرت، والناس تركوا كلمة "الإيمان" واستبدلوها بالعقيدة، ولن تجدها في الكتاب والسنة، ولا في الجيل الأول من الصحابة، لا توجد في الصحابة، بل لا أعرف تابعيا قال هذه الكلمة، وصارت مستقرة وتستخدم.

لماذا جئت إلى هذه وتنكر؟ لأن هذه الكلمة استخدمها الأستاذ سيد قطب -رحمه الله- وأفاض فيها، وأكثر من كلمة التصورات، فصارت هذه الكلمة قبيحة ومن المنهيات، لماذا؟ لأنها جاءت من غير، وهكذا تعرفون، هذا السبب النفسي الذي يمارس، انظروا إلى هذه الكلمة: "تصور"، كلمة قديمة، والناس أصلًا قسموا العلوم إلى قسمان: تصورات وتصديقات، وقصدوا بالتصورات تلك المعاني التي تنشأ في الذهن، نعم.

فقوله:"فإذًا؛ التصورات"، ولأن المفسر يريد أن يُنشئ في ذهنك الصورة، أنت تقرأ الكلام، لا تعرف صورته، ما معنى صورته؟

هنا أقف فقط قليلا، أصّلتها كثيرًا، وهي كلمة المآل أو التأويل، من أين أتت كلمة "التأويل"؟ مِن الأَوْل، أي المصير: آل، صار، انتقل من حال إلى حال، صار تحول. وهناك قاعدة من قواعد اللغة يا مشايخ جميلة جدًا، هي تنفعك كثيرًا، ليست بإطلاقها، ولكن تنفعك كثيرًا إذا جاءتك -وهذا من أسرار العربية-، كلمة من وحْش الكلام -شو وحش الكلام؟ الكلام الوحشي يعني الغريب، الذي لا يستخدمه أحد-، فإذا جاءتك كلمة من وحش الكلام فانظر إلى أقربها مبنى فهو أقربها معنى، واضح الكلام؟ فانظر إلى أقربها مبنى تجد أنه هو الأقرب معنى، هذا من سر العربية. والأمثلة كثيرة، لو قلت: "واصبة"، في القرآن: {وَاصِبٌ}، في سورة الصافات، وفي سورة النحل، واصب، قَرِّبها، ما هي؟ ناصب. نصب الشيء، وصبه، أقامه، الدين الواصب، الدين القائم، أي الناصب، الواقف، هذه كلمات لها أمثلة كثيرة جدًا نتركها لكم، هنا يأتي دور عقلك تبحث، طيب.

فكلمة -هذه قلتها- كلمة: آلَ، تحوَّلَ، يعني إن جاءتك كلمة: "إل"، ما هي أقربها؟ إلى، هكذا سيأتيك هذا كثيرا، هذا كثير جدًا. فأقرب الكلام إلى الكلمة مبنى هو أقربها معنى، وحتى أنها في المترادفات تجدها، البر، البحر، وهكذا، لا بأس، القر، الحر والقر، يُنظر، تجد حتى في المتعارضات، المهم، هذه مسألة من فقه اللغة، ومن مسائل اللغة.

الآن كلمة التصور، وهذه نقطة مهمة، لماذا؟ لأن كلمة "التصور" من أين جاءت؟ جاءت من الصورة، حتى هذا إخواني من لم يعرفه لا يتذوق العربية، ومن لا يتذوق العربية لا يتذوق القرآن، يجب أن تتذوق، ما معنى أن تتذوق؟ يعني أن تتمتع، تصبح متعة، هذه المتعة لا تنشأ من غير الفهم، إذا فهمت تمتعت، وحينئذ ترقى نفسك. كلمة "آل"، على معنى تحول، صار، صحيح؟ آل الشيء، كان ماءً فسُخن فآل أن يكون غازًا، آلَ، تحول، فإذًا التأويل هو التحول، وهو الصيرورة، صيرورةُ الشيء، ومن هنا يأتي التأويل على معنى التفسير، هذه كلمة كان حالُها أنها مكتوبة، تنظر إليها، هذه الكلمة مكتوبة، فإذا آلت، أي تحولت، لا بد أن تضعها في ذهنك. هذا هو التصور، صارت صورة، آلت، هذه الكلمة تقرؤها ولا تعرف أنت معناها، كلمة مثل ما قلنا "واصبة"، مثل قوله: {تُبْسَلَ}، ما معنى "أبسلت"؟ أي "جوزِيَت"، ولذلك، ابن سينا الفيلسوف سمّى "باسال" أي المحاسَب، في قصة حيي بن يقظان سمى الرجل "باسال"، "أبسلت" التي في سورة الأنعام: {تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ}، أبسِلت أي جوزيت، وهي أقرب إلى معنى الجزاء بالعقاب، واضح؟ فأنت هذه كلمة موجودة بين يديك، "سامدة"، {وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ}، هذه كلمة مكتوبة، هذا هو حالها، حالها أنها مكتوبة، فجاء رجل وقرأها، تحولت من حال الكتابة إلى حال القراءة، هذا هو: "آلت"، هذا أَوْل، هذا التأويل، واضح؟ هذا التأويل، كانت على حال الكتابة فانتقلت إلى حال القراءة، الآن هي في الذهن ليس لها أي وجود، فجاء من فسرها، صنع لها صورة في الذهن، هي كان لها صورة، أين؟ كان لها صورة على الورق، وكان بعد ذلك لها صوت على اللسان، الآن ما هو وجودها في الذهن؟ التصور، فآلت إلى الذهن، إذا فهمتها فهذا هو التأويل. التأويل هو التفسير: "فسّرَ"، طيب. جاءت كلمة، قال يوسف -عليه السلام-: {إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا}، هذه كلمة موجودة، هو رآها ذهنًا على معنى كلمة، الآن يريد تفسيرها، رأى الشمس والقمر، لها تفسير واقعي، فلما وقعت آلت إلى الحقيقة، إلى كونها حقيقة، صار لها وجود ذهني كان (...) وهو التصور، ثم صار لها الوجود الواقعي، آلت لهذا، واضح الآن معنى "الأول"؟ فقال: {هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ}، تأويل، آلت، تحولت من الحالة التصورية الذهنية إلى الحالة الواقعية، فهذا هو التأويل، واضح الكلام؟

فلما نقول: "التصورات"، فهذا من ذوق العربي الذي جعل الأخبار والكلمات لها صورة في الذهن، في التصورات، واضح؟ هذه كلمة لا يجوز أن تنقد، يأتي واحد ويقول: هذه الكلمة لا تقوم مقام الإيمان، نقول: نعم، كما أن كلمة "العقيدة" لا تقوم مقام الإيمان، لماذا؟ العقيدة من العقد، الربط، وذلك لشدة ما استقر في قلب المكلَّف من تصديق الخبر أنه عقد عليه، طيب، ايش دخل هذه في الإرادة؟ هو صَدَّقها، لكن ما دخلها بالإرادة والفعل؟ لا وجود لها. الإيمان، هل له وجود في العمل؟ نعم. إذًا الإيمان أشمل من كلمة عقيدة، ولكن قبلوها لأنهم لا يناقشون العقيدة بمعنى أثرها على العمل، يناقشون العقيدة في وجودها الأول، وهو ارتباطها في القلب، أنه يجب أن يخوضها على معنى الربط والعقد، واضح الكلام؟ وكذلك كلمة "تصور"، هم لم يريدوا بها أن يناقشوها مناقشة القرآن لها، مناقشة كلمة الإيمان، لأن مقصود القرآن ما هو؟ تحصيل الفعل والطاعة والعمل، سواء عمل قلبي أو عمل جوارح، فلم يريدوا هذا، فجاؤوا إلى كلمة، ماذا تحدث هذه الكلمات من تصورات، واضح؟ ما هي كلمة "تصور"، أين سبيلها، والعقيدة أين سبيلها؟ في الحقيقة كلمة "تصورات" أقرب من كلمة "عقيدة" في فهم مراد العقيدة، المعقود عليه، أفهم، لأنها تنشئ ماذا؟ تصورًا. وكلمة العقيدة ليس من شرطها أن تنشئ تصورًا، إنما تنشئ ربطًا إيمانيًا عليك أن تستقر عليه، فكلمة "تصور"، أين العيب فيها؟ ومع ذلك، لأنها قيلت في هذا الزمان فيجب أن تباد، ولأنها قيلت من جهة ما، فيزداد الإبعاد والطرد لها، والبقية عندكم أيها المشايخ.

إذًا نأتي إلى كلمة الشيخ، وسامحونا أننا اطلنا في هذا، لأن هذا جزء من حياتنا لا نستطيع أن نلغيه، يقول الشيخ أبو إسحاق: "فإذًا التصورات المستعملة في الشرع"، هو يقول "تصورات"، والمقصود به الألفاظ، لكن لأن الألفاظ المقصود بها حصول التصور، "فإذًا التصورات المستعملة في الشرع إنما هي تقريبات"، لأنه لا تستطيع أن تقوم مقامها، هل يوجد؟ لذلك قالوا لا يوجد مترادف، "إنما هي تقريبات بالألفاظ المترادفة وما قام مقامها من البيانات القريبة"، البيانات القريبة، فالأول إما أن تُفسر اللفظة باللفظة، وإما أن تفسر الجملة بالمعنى الكلي، فهذا البيان، الذي هو التفسير.

"وأما الثاني –وهو ما لا يليق بالجمهور– فعدم مناسبته للجمهور أخرجه عن اعتبار الشرع له؛ لأن مسالكه صعبة المرام، {وما جعل عليكم في الدين من حرج} [الحج: ٧٨]، كما إذا طلب معنى الملك، فأحيل به على معنى أغمض منه"

هنا فقط نضع كلمة تحتاج إلى ضبط من الشيخ أبي إسحاق، وهي كلمة: "لأن مسالكه صعبة المرام"، ونزيد عليها نحن، مع احترامنا لمتن الإمام وبقائه كما هو، لأن: "صعبة المرام" أي المقصود والمطلوب، أنها صعبة حين نطلبها، وكذلك فاسدة المعنى، وهذا ذكرناه، قلنا الفرق بين، وهذه هي المرحلة التي كان عليها ابن تيمية، وذكرنا هذا، أن ابن تيمية –رحمه الله– كان يَعُد مباحث المناطقة صحيحة، لكنها صيغة بعبارات صعبة إلى آخره، هذا تقدم الكلام عليه، لا نقف عنده، فقوله: "مسالكه صعبة المرام"، هل طردها الشارع لأنها صعبة المرام، أم لأنها فاسدة المعنى كذلك؟ للأمرين. نعم يا شيخ.

"فأحيل به على معنى أغمض منه"،

لكن هنا أريد أن تنتبهوا إلى طرق استنباط أهل العلم للآية، قول الإمام: {وما جعل عليكم في الدين من حرج} –يا مشايخ، هذه انتبهوا لها، مهمة، وهذه تعينكم في استخدام الآيات والاحتجاج بها–، الذي يُصرف الذهن إليه عند سماعها هو رفع الحرج في التكليف، صحيح؟ هل رأيت أحدًا من أهل العلم استخدم هذه الآية في رفع الحرج في فهم القرآن؟ لا. تروهم يستخدمونها: {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ} في بيان التيسير في الأحكام، ولكنهم لا يحتجون بهذه الآية على {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ}، وكلمة "الدين" هنا جاءت على معنى أسلوب القرآن والسنة، وهذا (د ١٨:٣٦)، هذا توسع.

ولذلك أعجبني إمام حنبلي كان ذاهبا للحج مع مجموعة من الصوفية، فشيخ الطريقة لما وصل فيهم جهة تيماء، قال لهم: "تعالوا نرجع، بطلنا نحج"، قال له الشيخ الحنبلي: "لمَ؟"، فجعل يذكر من عوارض القلوب، وسوانح النفوس، خلاص وقع في القلب كذا، وقع في القلب كذا، جاء في قلبه من السوانح والعوارض وما يأتي على القلب كما يأتي على الصوفية فيما تعلمون، ويأتي على أصحاب اللمحات من صرف القلوب عن مقاصدها بسبب سانحة، بسبب كلمة، كما هو شأن أصحاب الفأل، أو أصحاب الطيرة، يقع.

فهذا الحنبلي ذكي، فقال له كلمة على جهة ما يصيغ الصوفية كلماتهم، مِثل (الحِكم العطائية) لابن عطاء السكندر، لو قرأتموها، أو كلمات النفري، يصيغونها بطريقة فيها الحكمة، مثلاً: "إن القلوب إذا أقبلت فلا تردها، وإذا عزمت فلا تقطع لها عزيمتها"، الصوفية لهم هذه الكلمة، والصوفية –للذكر– هم أول من أدخل الرمز على الشعر العربي، انتبهوا،

العرب لا تعرف الرمز، تعرف التشبيه، تعرف الاستعارة، تعرف الكناية، وأما الترميز فلا يعرفونه، من أدخل على الشعر أن ليلى هي الله؟ هم. من أدخل أن القرآن هو الخمر؟ الصوفية. ولذلك لو أردتم الفن الشعري لوجدتموه عند ابن الفارض أعلى من غيره، لماذا؟ لأنهم يستخدمون الرمز، والناس يحبون هذا، يشعرون أن الكلام عميق وعظيم، فيه ايش؟ "شربنا على ذكر الحبيب مدامة"، يطير الصوفي بها، "شربنا على ذكر الحبيب مدامة سكرنا بها، قبل أن تخلق الكرمة"، يطير الصوفية، "سكرنا على ذكر الحبيب"، سكر الرجل، وهكذا، هذا الرمز.

القصد بأن هذا الإمام الحنبلي ساق له جملة من جمل القوم، أو ساق له كلمة على صيغة جمل القوم، بأنه إذا أقبلت الإرادة فلا تقطع، إلى آخره، فهذا الشيخ الصوفي تأملها وأُعجب بها، فغيّر النية وأقبل على الحج، مشى معهم، ثم استدار الحنبلي إلى جماعته وقال لهم: "ألم يأمرنا الله -عز وجل- بأن نخاطب القوم بألسنتهم: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ}"، والمقصود باللسان: لغة الناس، ولكن هو وسع هذه الدائرة، وسع مفهوم اللسان، حتى عليك أن تتكلم مع الناس على طرائقهم في الخطاب وعلى أسلوبهم من أجل أن يرتدعوا، فقال لهم الشيخ الحنبلي: "والله لو قرأت له آية: {وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ} ما استمع لها"، {وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ}، أنت عزمتَ فأتِمّ، قال: "ما استمع لها"، ولكن لما صاغ عبارته على طريقة القوم قبِلها وسلَّم لها.

فهو يقول هنا: "لأن مسالكه صعبة المرام، {وما جعل عليكم في الدين من حرج}"، هنا انتبهوا، أنه وسع دائرة الحرج، حتى أنه ليس في الدين من حرج حتى في فهمه: {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ}.

"كما إذا طُلب معنى المِلك"، المِلك يا مشايخ، لغة مأخوذة من الملوكة، والملوكة هي الرسالة، وقالوا الملك لا، هو من الملك الذي كما تقال إنسان، وقالوا شيئا آخر، لهم كلمات كثيرة تصل إلى خمسة أو ستة أقوال فيما هو مصدر كلمة "الملك"، ما يهمنا هذا، في النهاية الملك هو ما نعرفه.

"فأحيل به على معنى أغمض منه"، هو يسأل على الملك، فأحاله على معنى أصعب من المطلوب، والمقصود أن التفسير يُحصل التقريب لا الإبعاد، فيقول له، ماذا سيقول هذا المفسر؟ ما هو الملك؟

"وهو: ماهية مجردة عن المادة أصلاً"

كلمة "ماهية" هذه كلمة مستحدثة، لم تكن من كلام الجاهليين، وهي -الماهية- ما كان جوابًا عن سؤال: "ما هو؟"، واضح؟ فإذا جاء الجواب، فالجواب هو الماهية، واضح الكلام؟

لو قال رجل: ما هو الحب؟ فالجواب يكون هو الماهية، يقول: ما هو الباب؟ فالجواب هو الماهية، فالماهية هي الجواب عن سؤال: ما هو؟

طبعًا هنا عند الصوفية كلمة "هو"، هي أعلى درجات الذكر عندهم، لأنها هي الذكر الذي يوصل إلى وحدة الوجود -انتبهوا لهذا-، لأن كلمة "هو" فلأنها هي الذكر الوحيد الذي يوصل لوحدة الوجود، لماذا؟ لأنه إذا قال المرء كلمة "الله" -هنا تأتي دلالات الألفاظ-، إذا قال كلمة "الله" لا يمكن أن تصرف إلا إلى الرب الذي هو في السماء، {هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا}، لا تصرف إلا إلى الله، إذا قال: "الرب" فهي لا تنصرف إلا لله في عقل المسلم، نتكلم عن المسلم، أما النصراني فالرب عنده شيء آخر، وهكذا. فإذا نطق المرء حتى لو يقول: "الله"، مع أنها لا تفيد مدحًا وليست من الذكر -الكلمة المفردة ليست من الذكر-، لكن لو قال: "الله"، لو بقي يقول: الله، الله، فهي لا تنصرف في ذهنه إلا إلى ربه، إلا إلى الله الذي في السماء -جل في علاه-، لكنه يريد ذكرًا ينطبع به في عقله كل شيء: "هو"، على ماذا تطلق؟ على كل شيء. "هو"، وهو في ذهنه الله، انتبهوا لهذا، كيف هذه الصناعة لوحدة الوجود في القلب، هو يقول: "هو" ويقصد بها كل شيء، وهو يريد الله، فيكون الله هو كل شيء، هذا هو وحدة الوجود، واضح الكلام؟ ملناش في هذا، فقط للذكر وللتنبيه، ونعتذر لمشايخنا الذين يحبون فقط الاقتصار على قراءة الكتب كما هي دون زيادة.

فيقول: "وهو ماهية مجردة" يعني شيء، ما هو؟ القصد؛ "ماهية" يعني شيء له وجود، لكن ايش؟ "مجردة عن المادة"، يعني ليس فيه مادة، هذا الذي قالوه في الملك: شيء له وجود لكن ليس مادة، نكمل، هذه الكلمة لم نستفد منها شيئا، وهو الملك.

"أو يقال: جوهر بسيط ذو نهاية ونطق عقلي"

قوله "جوهر"، لأن، ما بحب أفسر، مشكلة هذه الكلمات أنكم تجدونها في كتب العلم.

العلماء يقسمون الوجود إلى شيئين -لا بأس، فيها فائدة يا شيخ-، العلماء القدماء يقسمون الوجود إلى قسمين: جوهر وعرَض، والعرَض من اسمه مأخوذ، وهو الشيء المتحول، المتغير، مثل ايش؟ مثل الحجم، مثل الطول والعرض، مثل اللون والمذاق، هذا اسمه "عرَض"، ولذلك الدنيا تسمى: عرض، ليش؟ لأنها متحولة. العرض هو الشيء الذي يعرض، نقول: عرض له، يعني شيء جاء ولم يكن، فالذي جاء ولم يكن سيذهب، إذا كانت له بداية ستكون له نهاية، فهذا العرض. فأي شيء في الدنيا يقسم إلى قسمين: جوهر وعرض، الآن نتكلم عن الجوهر، وهذه مصيبة وطامة، الكلام عن الجوهر، علم الذرة، الجوهر هو الذرة، بين قوسين حطوها، ولكن يسمونها اليوم "الذرة"، لا يقولون: "الجوهر"، يقولون "الذرة"، ومن يتكلم الذرة ليس من كلام العلماء المعاصرين من العلماء الطبيعيين الذين يقال عنهم كفار، مش هيك قلنا؟

إذًا العرض هو مثل لونه، مثل طوله، مثل عرضه، مثل مذاقه، إلى آخره، وهذا شيء متغير ومتبدل، وهذا لا يجوز أن يُفسر الشيء به لأنه شيء متحول. إذن الشيء ما هو؟ -انتبهوا-، الشيء هو الجوهر، ما هو الجوهر؟ عندهم ماذا يعرفونه؟ نتكلم عن كلام القدماء الآن: هو أصغر شيء في المادة، أصغر ما يمكن أن تصل إليه المادة، انتبهوا، **هذه واحد**، هو أصغر شيء في المادة.

ثانيًا: "هو شيء واحد في كل شيء"، هذه الطامة التي نتكلم عنها، هذه الطامة الكبيرة، "هو شيء واحد في كل شيء"، هو أصغر شيء في المادة، وهذا "الشيء الأصغر" هو شيء واحد في كل مادة؛ لأجل هذا قال من قال بنفي -انتبهوا-، قال من قال بأن الأشياء في ذاتها لا تحمل حسنًا ولا قبحًا، يعني الآن، ذرة الخمر الصغيرة هي ذرة الماء، هم لا يعلمون التفريق بين ما هو جُزَيْئي وبين ما هو ذري، هم لا يفرقون —انتبهوا-، ما دام أن الذرة —اللي قلنا أنهم يسمونها "الجوهر"-، ما دام أنه أصغر شيء في المادة، وهو واحد في كل شيء، وهو واحد، لا يختلف، لماذا؟ لأنه عندهم لا يتعدد، هذا الجوهر لا يتعدد.

فهذا الجوهر إذًا عندهم، كل الأشياء تصل إلى حقيقة واحدة، فلماذا أحل الله الماء وحرم الخمر، لأنها في الحقيقة واحدة. وبهذا نفهم العلل، أساس نفي العلة ونفي التحسين والتقبيح العقلي -اللي شرحناه في درس سابق-، أساسه هذه النظرية الكونية بأن الأشياء في ذاتها واحدة، ما في فرق بين ذرة (جوهر) البنزين وبين جوهر الماء، ما في فرق بين

جوهر حبة القمح وجوهر المخدرات (الحشيش)، ما في فرق. طيب كيف؟ قال: هذا تحسين وتقبيح، بما تتم الأعراض؟ شرحنا وقلنا: عندها لا بها، النار يحرق عندها، لا يحرق بها، إلى آخره، واضح الكلام؟ هذه فقط ذكرتها لقضية الجوهر، والآن ثبت أن هذا الكلام غير صحيح، وأن الذرة (الجوهر) تختلف من أشياء إلى أشياء، وأنها ليست أصغر شيء في المادة، حتى هذه الذرة تنقسم وتنشطر، وانشطارها صنع القنبلة الذرية، أليس كذلك؟ طيب.

للذكر وأنتم تقرؤون زمان، تقرؤون لعلمائنا، تجدونه في الكتب، نحن نشرح كلام الكتب، يقولون أن الكيميائي، ما هو الكيميائي؟ قديمًا كانوا يقولون أن الأشياء، ما هو الشيء؟ أن الأشياء لها روح، هذه الروح تُستخلص من الشيء. الشيء له روح يجب أن تُستخلص منه، فإذا استُخلصت هذه الروح ثم وُضعت على غيرها سَيطرت عليه. واضح الكلام؟ كيف؟ كانوا يستخرجون روح الورد، فيأتون بروح الورد يضعونه على الماء، شو يصير الماء؟ ورد.

كان علماؤكم الأقدمون يبحثون عن روح الذهب، من أجل أن يستخلصوه ليضعوه على الأشياء، فهذا هو الإلكسير، الروح تسمى عندهم "الإلكسير"، هذه مشكلة بالعربية، فإلكسير الشيء هو الذي يسيطر على غيره إذا وُضع عليه، فكانوا يبحثون عن إلكسير الحكمة، شو إلكسير الحكمة يا مشايخ؟ إلكسير الحكمة وهو روح الذهب الذي إذا وُضع على المادة تحولت المادة إلى ذهب، من أجل هذا كان الكيميائيون دائمًا فقراء ويبحثون عن هذه المسألة، هذه فقط للذكر، والعلماء يقولون: "من طلب علم الكلام تزندق"، تفسير هذه الكلمة تقرؤونها أظن، يعرفها طلبة العلم، "ومن طلب الكيمياء افتقر"، تفسير هذه الكلمة: "طلب الكيمياء افتقر"، ليش؟ لأنه يضيع عمره يدور على الذهب بهذه الطريقة التي ذكرناها، مش طريقة جماعتنا هنا من الباحثين عن الذهب، نعم يا مشايخ.

نقف عند كل كلمة، ولكن إن شاء الله فيها فوائد، وما يتضايقون منا.

فقال: "جوهر بسيط"، جوهر بسيط يعني لا عرض له، هذا تقدم، مجردة عن المادة، المادة ايش هي؟ العرض. التفسير الأول، لما قال: "وهو ماهية مجردة عن المادة"، يعني لا عرض لها، فسرها الآخر بقوله: "جوهر بسيط"، يعني لا عرض له، واضح الكلام؟ العرض يعني المادة.

"ذو نهاية ونطق"، نعم، طيب، يكفي إلى هنا، نقرأ الكلام بكماله لبيان فساد هذه الطريقة من طرق المناطقة، نعم،

"أو طلب معنى الإنسان؛ فقيل: هو الحيوان الناطق المائت، أو يقال: ما الكوكب؟ فيجاب بأنه جسم بسيط، كري مكانه الطبيعي نفس الفلك"

كُرِيّ يعني من الكرة، لكن هنا انتبهوا إلى قضية: "فيجاب بأنه جسم بسيط كُرِيّ مكانه الطبيعي نفس الفلك"، ابن حزم -رحمه الله-، ونقلها ابن تيمية مقرا لها، هذا لمن يكذب على سلفنا، يقولون مَن أنكر كُروية الأرض كَفر، هذا ابن حزم يقولها في (الفصل في الملل والنحل)، موجودة في (الفصل)، مطبوع وليس كتابا قديما، موجود، ونقلها ابن تيمية وأقرها، ويقولون بأن الفلك مُدور، لأن "الفلك" هو من "تفلك الشيء" أي تدور، واضح؟ يقول: تفلك الثدي، أي تكون ليكون دائرة، الفلك مدور، واضح الكلام؟

فالقصد بأنه من أنكر كروية الأرض كفر، وإنما جاء الخلاف بين المعاصرين بما لا يفقهون، وتكلموا في غير فنهم فأتوا بالعجائب، ولا ينكر أحد من أهل الإسلام أبدًا كروية الأرض، قديمًا قبل هؤلاء الفيزيائيون والطبائعيون، نعم، فيقال "ما الكوكب؟ فيجاب بأنه جسم بسيط كري مكانه الطبيعي نفس الفلك"، نعم.

"مكانه الطبيعي نفس الفلك، من شأنه أن ينير، متحرك على الوسط"

متحرك عن الوسط يعني يدور حول نفسه، الكوكب متحرك على الوسط يعني يدور حول نفسه.

"غير مشتمل عليه، أو سئل عن المكان؛ فيقال: هو السطح الباطن من الجرم الحاوي، المماس للسطح الظاهر من الجسم المحوي، وما أشبه ذلك من الأمور التي لا تعرفها العرب، ولا يوصل إليها إلا بعد قطع أزمنة في طلب تلك المعاني، ومعلوم أن الشارع لم يقصد إلى هذا ولا كلف به"

يعني نحن احتجناها -كما رأيتم-، نشرح الجوهر ونشرح العرض حتى نفهم شو يريد، حتى نفهم التعريف.

"وأيضاً؛ فإن هذا تسور على طلب معرفة ماهيات الأشياء، وقد اعترف أصحابه بصعوبته، بل قد نقل بعضهم أنه عندهم متعذر، وأنهم أوجبوا ألا يعرف شيء من الأشياء على حقيقته؛ إذ الجواهر لها فصول مجهولة، والجواهر عُرفت بأمور سلبية"

الأشياء إمّا أن تُعرف بالإيجاب، وإما أن تُعرف بالسلب، السلب هو نفي ما لا يوجد فيها، أو نفي ما يوجب لها، هذا السلب، قال: ليست كذلك، السلب، والسلب لا يوصِل إلى المراد، لأن الشيء لو أردت أن تُعرفه بالإيجاب لثَبتَ، لأن هذه صفته، لكن لو قيل لك ما الأبيض؟ فماذا تقول؟ ليس الأحمر، ليس الأخضر، ليس الأسود، ليس البني، متى تنتهي حتى ترصوَ؟ ليس هو، ليس هو، ليس هو. ولذلك السلب ليس مدحًا –انتبهوا لهذا–، وهذه أخذها علماؤنا في فهمهم لكتاب ربنا، وقالوا بأن القرآن قليلُ سلب الصفات عن الله، كثيرُ الإثبات لها، أليس كذلك؟ هذه قاعدة من قواعد الأسماء والصفات، قال ربنا: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}، كم مرة نفى عنه ما لا يليق؟ {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}، لكن عندما ذكر صفات الإثبات أتى بالكثير، وهكذا، فالنفي ليس في القرآن إلا على جهة المدح، وهذا كذلك موجود في صفات المؤمن في القرآن، فالمؤمن في القرآن يُكثر الرب من ذكر صفاته الموجبة، هذه ذكرتها في تفسير سورة الإسراء عند ذكر صفات المؤمنين وبرهم بآبائهم وما يفعلون ولا يقتلون النفس إلى آخره، فذكرت بأن القرآن كما أكثر من صفات الرب الموجبة، كذلك يكثر من صفات المؤمن الموجبة، فإذا جاء على صفات السلب، لم يأت بها إلا ما دلت مدحًا بذاتها، كقوله: (ولا يشركوا به شيئا)، فترك الشرك مدحٌ، ترك الزنا مدح، واضح؟ فإذا كان النفي متضمنًا للمدح نُسب إلى من يستحق، نعم يا شيخ.

القصد؛ هنا كلمة أنا أريد أن تفهموها، وهذه تجدونها عند المتكلمين، ولو فتحتم كتب الأصول كلها –هنا هذه النقطة–، لو فتحتم كتب الأصول كلها لوجدتموها تبدأ بتفسير العلم، ثم يأتينا صاحب (المحصول)، وهو أكثر من جمع في هذا الباب وتوسع، وهو الرازي، لوجدتم أنه بعد أن يقطع شوطًا يصل إلى أكثر من مائة ورقة، يقول: "وتعريف العلم متعذر"، وانتهى، السلام، خلاص. شو العلم؟ هل يمكن أن نعرف ما هو العلم؟ قال: متعذر، انتهى الموضوع. وكذلك الشوكاني، الشوكاني جرى على طريقتهم في (إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول)، طبعًا خاض فيها من خاض من الأوائل، قلت ما تجد كتاب أصول إلا خاض في هذا، حتى (روضة الناظر) لابن قدامة، كلهم يبحثون عما هو العلم، ما هو العلم؟ ثم ينتهون إلى القول: هل نفسر العلم أو لا نفسره؟ فيختلفون، نفسره أو لا نفسره؟ فبعضهم يقول: أصلًا البحث في هذا خطأ، العلم شيء معروف في الذهن، فأنتم تعرفون المعرف! وهكذا، فبعد أن تقطع الأنفاس

في تعريف العلم ينتهي إلى أن يقول لك: ليس هناك تعريف للعلم لأنه معلوم ما هو، معلوم ما هو؟ قال: فسرتَ العلم بلفظه في المعرَّف، في التعريف، وهذا ممنوع، انتهينا، واضح الكلام؟ نعم يا مشايخ.

فهو يقول: "فإن هذا تسور على طلب معرفة ماهيات الأشياء"، لأنه هل يجوز أن تعرف الأشياء بالعوارض؟ قلنا أن الأشياء تقسم إلى قسمين: عوارض وجواهر، هل يجوز أن تفسر بالعوارض؟ قالوا: لا، لا يجوز، لأن العوارض مشتركة، غير ثابتة، تتحول. هل يصلح أن نقول أن الإنسان أبيض؟ لا، لأنه قد يكون أسودا، "وقد اعترف أصحابه بصعوبته، بل قد نقل بعضهم أنه عندهم متعذر، وأنهم أوجبوا ألا يعرف شيء من الأشياء على حقيقته؛ إذ الجواهر لها فصول مجهولة"، ما معنى فصول؟ يعني قواعد، والجواهر عُرفت بأمور سلبية.

"فإن الذاتي الخاص إن علم في غير هذه الماهية لم يكن خاصا"

هذا الذي قلته، أن الأعراض ايش؟ تتبدل، فإن الذاتي الخاص إن عُلم في غير هذه الماهية لم يكن مختصًا بها، لم يكن مختص بهذه الماهية.

"وإن لم يعلم فكان غير ظاهر للحس، فهو مجهول"

هم يقولون أن إدراك فصولها متعذر، إذًا هو مجهول، يتكلم عن الجواهر.

"فإن عُرف ذلك الخاص بغير ما يخصه؛ فليس بتعريف"

لأن التعريف شرطه أن يكون مانعًا، أي مانعًا من دخول غيره عليه، فإذا اشترك التعريف مع غيره دلَّ على أنه باطل، لأنه أدخل غيره فيه فليس بتعريف.

"والخاص به كالخاص المذكور أولا، فلا بد من الرجوع إلى أمور محسوسة، أو ظاهرة من طريق أخرى"

وقلنا هذا المحسوس هو من العوارض ولا تُعرف به، هذا خلاصة الكلام، لكن حتى نفهمه، نحن مع كلام أئمتنا وطرائقهم في البحث فلا بد أن نفهمه.

"وذلك لا يفي بتعريف الماهيات"

الماهيات تعريفٌ بالخواص والجواهر، لأنها هي التي تحمل الافتراق.

"هذا في الجوهر، وأما العرض؛ فإنما يعرف باللوازم؛ إذ لم يقدر أصحاب هذا العلم على تعريفه بغير ذلك، وأيضا ما ذكر في الجواهر أو غيرها من الذاتيات لا يقوم البرهان على أن ليس ذاتي سواها، وللمنازع أن يطالب بذلك"

شو قال الحاد، يعني ليس المعرف، الحاد يعني المعرف، وليس للحاد أن يقول.

"وليس للحاد أن يقول: لو كان ثم وصف آخر لاطلعت عليه"

يعني لا يجوز للحاد أن يترك اليقين، لأنه حينئذ لا يقدم التصور التام ولا المطلوب.

"إذ كثير من الصفات غير ظاهر. ولا يقال أيضا: لو كان ثم ذاتي آخر ما عرفت الماهية دونه"

يعني لو وُجد ما يشابهه، فلا نعرف ماهيته إن تنزل هذا الشيء.

"لأنا نقول: إنما تعرف الحقيقة إذا عرف جميع ذاتياتها"

إذا عُرفت الحقيقة يجب أن تكون جامعة، ونقول: إنما ترى الحقيقة إذا كان التعريف جامعًا، هذا معنى الكلام، تُعرف الحقيقة إذا عُرفت جميع ذاتياتها، أي صفاتها التي تختص بها، ذاتياتها يعني صفاتها التي لا تجتمع مع غيرها.

"فإذا جاز أن يكون ثم ذاتي لم يعرف؛ حصل الشك في معرفة الماهية"

واضح الكلام إن شاء الله.

"فظهر أن الحدود على ما شرطه أرباب الحدود يتعذر الإتيان بها"

لأن للحدود عند العلماء شروطا -ما المقصود بالحدود؟ يعني التعريفات-، للتعريفات عند العلماء شروطا يضعونها، مما ذكرنا، ذكرنا أشياء تكون جامعة مانعة: ألا يُذكر المعرف في التعريف، ولهم شروط فيها، وأن يكون ذاتيًا، كلام طويل لهم في هذا.

وهنا نقطة، لا بأس، من الذي أدخل التعريفات على علوم الشريعة؟ الذي أدخلها هو الفقه الأرسطي، العرب لا يعرفون هذا، لا نعرف أن العرب أرادوا يومًا أن يعرفوا ما هو الحب، وأنهم أرادوا أن يعرفوا ما هو البغض، لا يُعرف هذا عن العرب، ولكننا نجد أن هذا الفن من التعريف دخل الفقه، ودخل العقائد، ودخل العلوم والأصول، فتجد أن أول شيء لا بد أن يُحد، لماذا؟ لأنهم أوجبوا -هؤلاء العلماء- أن الحد هو الطريقة الوحيدة التي يُعرف بها الشيء، فلذلك جاؤوا إلى الحد، وبدؤوا يعرفون الأشياء بالحدود والتعريفات. فأنت لو جئت مثلاً، وهنا، هل لهذا العلم مفاسد؟ ما من أسلوب جديد يدخل على الدين إلا وأحدث مفاسدا.

انتبهوا لهذه القضية، هذه القضية مهمة، أن الله -عز وجل- أنزل دينه عِلمًا، وأنزل أسلوبه الملائم لهذا العلم، هل الكلام واضح يا شباب؟ هل نعيده؟ أن الله -عز وجل- أنزل علمًا وكذلك أنزل أسلوبه، وهذا الأسلوب هو الملائم لمراد الرب من هذا العلم، ولذلك لم يقل النبي -صلى الله عليه وسلم- ما هي الصلاة؟ الصلاة هي حركات معلومة، في أوقات معلومة، على صفات معلومة، أو هكذا، ما هي الزكاة؟ هي إخراج مال مخصوص، بكمية مخصوصة، لجهة مخصوصة، ما الذي استفدناه؟ هكذا يُعرفون، هكذا هي التعريفات، وإذا جئت بعد ذلك تشرحها، فهذا الشرح هو الذي يقرب المراد، والحد بنفسه لا يقرب المراد. وهذه الطريقة في الحدود والتعريفات هي التي علَّق عليها علماؤنا فسادَ فهم كلمة الإيمان، الكلام الذي تقدم من كلام الشيخ أبي إسحاق، قال بأن الأشياء لا تثبت معرفتها إلا بركنها، إلا بأركانها، فإذا فُقدت هذه الأركان فُقِد وجود المعرف، واضح الكلام؟

طيب، الذين أخرجوا الأعمال، ظنوا أن الأعمال ليست من أركان الإيمان، لأنهم قالوا: لو تركت الأعمال لتركت الإيمان، لأن المعرف يجب أن يكون شرطه موجودا في التعريف؟ طيب، ولا يجوز أن يوجد فيه شيء زائد ما لو فُقد لا يفقد المعرف، واضح الكلام هذا؟ لا يفقد المعرف. طيب لو فقد المرء عملاً من الأعمال المستحبات، هل هو من الإيمان؟ نحن نقول هو من الإيمان، عمل من الأعمال المستحبات، عمل من الأعمال الواجبات، وليس من الأركان، لو

فقده الفاعل هل يكون مؤمنًا؟ نقول: نعم، يكون مؤمنًا، مع أنه ترك واجبًا، هل نخرجه من التعريف؟ لو أخرجناه من التعريف لفسدَ الأمر.

ولذلك قال علماؤنا أن أول جريمة أحدثها علم الحدود أنه جنى على أعظم كلمة في كتاب الله وسنة النبي –صلى الله عليه وسلم–، وهو كلمة الإيمان، واضح الكلام؟

ولذلك تُعرف –هذه نقطة أخرى–، ولذلك تُعْرف عظمة الكلمة في ديننا لكثرة ذكرها، واضح الكلام؟ إذا أردت أن تعرف قيمة كلمة، فعليك أن تعرف كم تتردد على لسان المتكلم، لهذا مثلا قالوا: المتنبي، ما هو عمود صورة شخصيته؟ قالوا: الحسد. ليش؟ لأنه قلَّما تجد قصيدة له ليس فيها ذكر الحسد، حتى أنه سمى ابنه الذي قتل "محسَّد"، لكثرة ما يتردد.

فكثرة كلمة "الإيمان" في القرآن، هي كلمة عظيمة، فهي أعظم كلمة، أعظم كلمة في القرآن والسنة هي كلمة "الإيمان"، ثم إذا جئنا إلى علم الحدود وجدناه أول ما يفسد هذه الكلمة، واضح؟ لكنهم يستخدمونها، وهذه طرائقهم، وجزاكم الله خيرًا وبارك الله فيكم والحمد لله رب العالمين، لا بأس، لا نريد أن نستعجل نعم، طيب الشيخ يقول بقي سطران، تفضل يا شيخ، لا بأس، أنا لكم.

"ومثل هذا لا يجعل من العلوم الشرعية التي يستعان بها فيها"

لما كانت غير موصلة لمراد المطلوب في العلوم الشرعية لا يجوز أن يستعان بها ولا أن تجعل منها.

"هذا المعنى تقرر، وهو أن ماهيات الأشياء لا يعرفها على الحقيقة إلا باريها؛ فتسور الإنسان على معرفتها رمي في عماية، هذا كله في التصور"

الآن يأتي إلى التصديق، لأنهم يقسمون الكلام إلى قسمين: تصورات وتصديقات، ما هي التصديقات؟ ما تعلق به الخبر. يقولون الكلام إنشاء وخبر، مع أنهم يقسمون تقسيمات أخرى، الكلام ايش؟ إنشاء وخبر. التعجب من أين؟ ما هو الإنشاء؟ هو الأمر والنهي، الأمر والنهي هذا من الإنشاء، ويدخل فيه ما يدخل، وأما الخبر فهو ما تعلق به

التصديق. الإنشاء ما تعلق به التصور، والخبر ما تعلق به التصديق، واضح الكلام؟ فهذه فقط مقدمة حتى نأتي إلى الجملة التي تليها: "وأما التصديق"، أي ما تعلق بالخبر.

طيب، جزاك الله خيرًا، وبارك الله فيكم والحمد لله رب العالمين. وإذا أحد عنده سؤال يا إخواني هنا، فليتفضل،

اليوم أكثرنا لكم من المنطق ومسائله، أليس كذلك؟ تعبتم منه؟ هذا فقط من تاريخ أمتنا، ومعرفته يُسهل الكثير من قراءة كتب السلف، وهذا ما نريده، أن يكون هذا الكتاب عند طلبة العلم، طريقا لتعلم كتب السلف وإدراك ما فيها من كلام.

أَسْـئِـلَـة

– يا شيخ في رابط الفلسفة وعلم الكلام والمنطق مثلاً شو هي، هل هي مواضيع معينة، أو هي آلية للفهم؟

يسأل الشيخ هل علم الكلام والفلسفة والمنطق، هل هي آلية فهم؟ أم هي مواضيع؟ في الحقيقة كلاهما، يوجد لها آلية الفهم، يعني هي آلية لطرق الفهم والإدراك، وكذلك لها مواضيعها، وللأسف –هنا نقطة مهمة يستفاد منها–:

إن هذا العلم التصوري الذهني البحت يمكن أن نقبله في عالم الفكر، لكن لا يجوز أن نقبله في عالم المادة، لا يمكن أن نقبله في عالم المادة، لكن الفلاسفة تدخلوا فيما لا يعنيهم، ومن أجل هذا فإن الشرع أنشأ التجربة: {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا}، فجعل السير في الأرض هو طريق النظر، {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ}، توجد رؤية.

لكن عندما تُفسر الأشياء المادية والكونية والخَلقية، عندما تُفسر بالذهن والنظر والتفكر، نصل إلى ما وصل إليه أرسطو، أن أسنان المرأة أقل من سنان الرجل، لم يكلف نفسه –أرسطو– أن يذهب ليعدها، فلذلك مثل هذه الأبحاث التي تجاوزت حدها أفسدت.

ثانيًا: كما ذكر الشاطبي، تكلموا فيما لا يعرفون، ماهية الأشياء، قالوا ماهية الأشياء لا تُدرك، لما تكلموا عن الجواهر أنها أصغر شيء في المادة وأنها شيء واحد في كل شيء، هل هذا من قبيل النظر الذهني ولا من قبيل التجربة العملية؟ من قبيل النظر الذهني. طيب، كيف جاز لهم ذلك وهم لم يروا؟. وأعظم مصيبة، وهذه شيخ الإسلام يُعلق عليها الكلام الكثير، وهذه إن شاء الله سأتكلم عنها في دروس متعددة ندخلها، وهي ما زالت تعمل عملها، وهو: "قياس الغائب على الحاضر"، هذه من أعظم ما يفسد الذهن، وهي إذا أنزلناها تصل لدرجة ما يسمى بقياس الشبه: {إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ}، ونحن ما شاء الله، هذه: "قياس الغائب على الحاضر" نُعْملها، أعملَها المتكلمون على عالب الغيب وعالم الشهادة، ونحن نعملها في عالم الشهادة فيما نعلم أن الظروف فيه مختلفة: صار كذا بدوا يصير كذا، لأنه صار كذا في يوم كذا، وهكذا، وهذا أمر باطل.

فالقصد من هذا أن الفلسفة والمنطق لها طرائقها في الدراسة، ولكن كذلك لها مواطنها فيما تبحث فيه، وللأسف الفلسفة القديمة تبحث في كل شيء، مما تعلمه وما لا تعلمه، مما تدركه ومما لا يمكن أن تدركه.

- يأتي سؤال من الإخوة هناك، يقول الكاتب: **ذكر الشيخ سابقًا أن العالم يضع القاعدة ويخطئها، فهل ما وقع فيه الإمام الشاطبي من مخالفات في باب الصفات والقدر والإيمان من هذا الأمر؟**

يعني الشاطبي، لو أردت أن تقول أنه في كتاب (الاعتصام) قرر قواعد الفهم عن الشريعة، فهذا حق، ولو أردت أن تقول أنه هو -الشاطبي- قرر في كتابه (الموافقات) أننا يجب أن نجري القرآن والسنة على مجاري كلام العرب، ثم جاء إلى القدر وفسرها على طريقة الأشاعرة، لأن المالكية الذين كانوا في المغرب أشاعرة في مسائل القدر والأسماء والصفات، فالجواب نعم، على هذه القاعدة.

فلو جرى الإمام الشاطبي، لو أنه جرى على هذا الأمر في مسائل الصفات والقضاء والقدر، على قاعدته: "علينا أن نعرف طرائق الكلام على طرائق العرب، وطرائق فهم كلام الله على ما فهمه العرب"، لكان مصيبًا فيها، ولكن هي ليست قاعدة للشيخ الشاطبي، هو يذكرها عن غيره، وأخطأ لأن -هنا نأتي إلى المسألة-، لأن بيئته مُطْبِقة على هذا الأمر وهذا الفهم.

هو كان سؤال من أحد الإخوة كيف يكون الإجماع، ثم ينتشر خلاف الإجماع، صحيح؟ يعني كان حديث على أن الصحابة أجمعوا على أن تارك الصلاة كافر، فكيف انتشر مخالف الإجماع؟

فيقال لهؤلاء الذين يناقشون: كان الصحابة على مذهب الإثبات في الكتاب والسنة، فكيف انتشر مذهب التأويل والتفويض؟ حتى أنه لا يعرف علماء طبقة في زمن من الأزمان، لا يعرفون من مذهب السنة إلا أنه إما التفويض وإما التأويل، ولا يعرفون الإثبات، إثبات المعنى، والكيف، مع تأويل الكيف.

لماذا تقبلون أن هذا الإجماع –وهو ليس إجماعا، لكن هذا القول الذي غلب على الجمهور– صار غالبا على ما أجمع عليه السلف، كيف تقبلونه؟ لكن في الصلاة لا تقبلونه؟ لكن الناس كما تعلمون يضعون القاعدة ويخطئونها، هذه منها يا شيخ مشتاق، يضعون القاعدة ويخطئونها.

أنا أختصر لأن، أحد عنده سؤال آخر من إخواننا؟ طيب لو كان لأرسل، جزاكم الله خيرًا، ونريد أن نرتب مع إخواننا درس، ليس درس، سؤال وجواب يكون في غير هذا الوقت حتى يكون الأغلب والجميع.

– هل علم النفس هو علم الكلام، وأنا لو أعمل مدرس يحرم علي تدريسه ويكون علم الكلام ......؟

هذا تكلمنا عنه البارحة، في الدرس الفائت، علم النفس والأرجيلة ليس هو علم الكلام، فرق بينهما، نعم، جزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الدرس [١٧]

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، هذا هو الدرس السابع عشر من دروس شرح كتاب (الموافقات) للإمام الجهبذ أبي إسحاق الشاطبي -رحمه الله-، تفضل يا شيخ اقرأ.

"وأمّا في التصديق؛ فالذي يليق منه بالجمهور ما كانت مقدمات الدليل فيه ضرورية، أو قريبة من الضرورية، حسبما يتبين في آخر هذا الكتاب بحول الله وقوته. فإذا كان كذلك؛ فهو الذي ثبت طلبه في الشريعة، وهو الذي نبه القرآن على أمثاله؛ كقوله تعالى: {أفمن يخلق كمن لا يخلق} [النحل: ١٧].

وقوله تعالى: {قل يحييها الذي أنشأها أول مرة} [يس: ٧٩] إلى آخرها.

وقوله تعالى: {الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء} [الروم: ٤٠].

وقوله تعالى: {لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا} [الأنبياء: ٢٢].

وقوله تعالى: {أفرأيتم ما تمنون، أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون} [الواقعة: ٥٨-٥٩].

وهذا إذا احتيج إلى الدليل في التصديق، وإلا؛ فتقرير الحكم كاف"

جزاكم الله خيرًا، تقدم الكلام بأن الكلام عند العلماء ينقسم إلى إنشاء وإخبار، والإخبار هو الذي يُعمَل فيه التصديق، والمقصود بالتصديق هو ما يقع في القلب من ترجيح صدق الخبر، هذا هو التصديق، وقلنا بأن هذا يتعلق بالأخبار وما تقدم يتعلق بالأوامر والنواهي والتي تسمى عندهم بتصورات، وهذا موجود في قوله تعالى: {وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا}، فالصدق ما تعلق بالأخبار، والعدل ما تعلق بالأحكام، انظر إلى: {وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا}، هذا إيجاز بلغ قاموس البحر كما وصفه العربي، هذا بلغ قاموس البحر، {وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ}، ف"تمت" إما أن تأتي بمعنى أنها قد ختمت، فكان "صدقًا وعدلاً" وصفًا لما تَمّ، وإما أن يكون التمام، أي تمام الصدق، وتمام العدل، فجاز هذا وهذا على التفسير، واضح؟ إما أن تكون قد تمت كلمة ربك، فكان تمامها كقوله: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ}، و{صِدْقًا

وَعَدْلًا}، هذا وصف الكلام، وإما أن يكون صدقا وعدلاً جاء وصفها، أي جاء وصف الصدق والعدل بالتمام، فإنه فيه تمام الصدق وتمام العدل، {وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ}.

وأنا هنا فقط أشير إلى مسألة مهمة، لا بأس، على عادتنا في أن الهوامش تفيد فيها، يكون فيها الإفادة كما هو في الصلب، في الحقيقة أيها الإخوة تأملت كتاب الله -جل في علاه- فلم أر أعظم مقاما يوصف فيه الرسول -صلى الله عليه وسلم- مثل مقامه في قوله تعالى عند ذكر آدم: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ}، {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ}، كأن خطاب الوجود قد التقى مع إيجاد الوجود، كأن خطاب الوجود -أي خطاب الله- فيما يتعلق بالوجود، وكأن الوجود كله هو متعلق برسولنا -صلى الله عليه وسلم-، هذا أعظم مقام فيه المدح لحبيبنا محمد -صلى الله عليه وسلم-، {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ}، ما قال: "وإذ قال ربكم"، "وإذ قال الله"، "وإذ قال رب السموات"، {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ}، كأن شأن الوجود في الابتداء كان لحضور هذا الحبيب -صلى الله عليه وسلم-، وكان مع حضور هذا الحبيب. وهنا انظر إلى قوله تعالى، هذا في قضية الخلق والإيجاد، وانظر إلى هذه الآية التي لها تعلق بختم الكلام الرباني، هذا في أول الوجود، كلام الإيجاد، حضر اسم الحبيب -صلى الله عليه وسلم-، والآن يحضر اسم الحبيب عند تمام الكلام فقال: {وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ}، تأملوا في هذا وسرحوا فيه النظر ما شئتم لتعلموا عظمة هذا الحبيب في نفس ربنا، ويكفي هذا الآن.

القصد من هذا، فإن التصديق يقابل {وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا}، فيما نحن فيه.

"فالذي يليق منه بالجمهور"

أي من مسائل التصديق، هنا الذي يليق ما هو؟ الذي يليق به الدليل وليس الخبر. يعني ما هو الذي يليق بالجمهور؟ الكلام عن الدليل. ما هو الدليل الملائم للجمهور، ما هو الدليل؟ فذكر شأن الدليل، لأننا ما زلنا في تقريره بأن الشريعة جاءت ملائمة للجمهور، ورددنا على هذا القصر بأن الشريعة جاءت -نتكلم عن الأسلوب هنا، لا نتكلم عن الموضوع، نتكلم عن الأسلوب القرآني-، يقول بأن الأسلوب القرآني جاء ليملأ الناس جميعًا، جاء ليملأ عالِمهم ويملأ عاميَّهم وجمهورهم، فالقول بأن القرآن ليس فيه إلا خطاب الجمهور قولٌ قاصر، هذا نبهنا عليه لئلا نصل إلى ما قاله المتكلمون، هذا نبهنا عليه، وقلنا بأن القرآن شاملٌ لكل أنواع الخطاب الملائم لمراتب العقل ومراتب الناس، يملؤها، لأن فيه من الآيات على ما مثله آمن البشر، فالبشر جميعًا باختلاف مراتبهم في الإدراك، في قوة النظر.

يقول: "ما كانت مقدمات الدليل فيه ضرورية"

الدليل عندهم مقدمات ووسط وخاتمة، هكذا يقولون، لا بد من مقدمة ووسط وخاتمة، وهذا دائمًا تَفَكَّر فيه، وقد يكون ذكر الوسط عبثًا، وهذه مما شدد عليها شيخ الإسلام -رحمة الله عليه- في (الرد على المنطقيين) ، على أن إصرار المتكلمين على ذكر الحد الوسط من أجل إنتاج النتيجة غير ضروري. كيف؟

هم يقولون: "كل مسكر خمر، وكل خمر حرام، فكل مسكر حرام"، الحديث أعفانا من الوسط، وقال: (كل مسكر حرام)، عفانا من الوسط، فلا ضرورة لأن نقول وكل مسكر خمر، أو أن نقول كل خمر حرام، هو يصل إليك، فالقرآن يصل إليك من غير التطويل. وهذا شأن عظيم في القرآن يستخدمه علماؤنا، في أن حضور المعنى في الذهن ذِكره في الكتاب تطويلٌ لا ضرورة له، هذه القاعدة انتبه لها: "إن حضور المعنى في الذهن ذكرُه في الكتاب تطويلٌ لا ضرورة له"، هذا من باب التطويل، باب استطراد لا أهمية له.

هناك أمثلة كثيرة في القرآن جاء ذكر الضمير لشيء لم يتقدم ذكره في الكتاب، وإنما يعود هذا الضمير إلى شيء ضروري أنه يعود إلى الشيء الذي في ذهن المرء، واضح الكلام؟ فلما جاء: {وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ}، أنا ضربت مثالا بعيدا في الفقه، ولكن لتعلموا أنه ليس مهمتنا أن نقرأها قراءة لغوية فقط، ولكن أن نقرأها قراءة فقهية، {فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ} ايش؟ {أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ}، الشافعي جاء قال: ما المقصود ب: {فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ}؟ فقال الشافعي منفردًا إعمالاً لهذه القاعدة أن المخاطَب حاضر في الذهن، وهو الولي، المفسرون جاؤوا إلى سياق الآيات فلم يجدوا ذكرًا للولي، إنما الخطاب كله يدور حول الزوج وزوجته، فأين تعضلوهن؟ فقال الشافعي، هذا الذي قاله {فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ}: هو حاضر في الذهن أنه لا يكون الخطاب بمثل هذا اللفظ إلا للولي، الجمهور قال: لا، على الزوج ألا يكون شريرًا حيث طلق امرأة، كما كان يفعل بعض العرب، إذا طلق امرأة فإنه يمنع عنها الأزواج، هكذا قالوا، لأن السياق جريانه خطاب بين المرأة ومطلقها، الشافعي قال: لا، هناك غائب حاضر في الذهن.

هذه القاعدة لو اطردت لعلمنا أن، وهذه مهمة، يأتي دور سيد، هنا أذكر فضيلة لسيد في ظلاله تنبه إلى هذه النقطة، لماذا؟ لأن تفسيره كما تعرفون من التفسير الموضوعي أو أقرب إلى هذا المعنى، وإن كانوا يسمونه بالتفسير الحركي إلى آخر هذه التسميات، وهذه التسميات عند المحققين تُميت كثيرًا من المعاني. أين تضع هذا الكلام؟ هل هو في الرثاء؟

هل هو في المدح؟ هل هو في التفسير الموضوعي؟ هل هو في التفسير اللغوي؟ هل هو التفسير بالأثر؟ هل هو التفسير بالرأي؟ فوضع الكتب ضمن هذه الأنماط مُميتٌ للنظر الصحيح لهذا الكلام. اخرُجْ من هذه النمطية، حطم هذه النمطية وانظر إلى الكتاب باعتباره مفيدًا لشيء ما، قد يكون جامعا لأشياء وقد يكون مبدعا في شيء آخر لم يذكره أصحاب الأنماط الواحدة، نتكلم كلاما واضحا؟

سيد –رحمه الله– تنبَّهَ لهذا، مثلًا: من أين أتى ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما– بقوله في السحرة؟ من أين أتى ابن عباس بقوله أنهم كانوا في أول النهار كفرة سحرة وفي آخر النهار شهداء بررة؟ كما يقول ابن كثير، هذا لفظ ابن كثير، وأما لفظ ابن عباس فكانوا في خاتمة النهار شهداء، ولكن ابن كثير أراد أن يجعلها على نسق تُحفظ فيه، ففي أول النهار ماذا؟ كفرة سحرة، وفي آخر النهار شهداء، من أين أتى بهذا؟ لم يُذكر في الآية، انتهى خطاب القرآن في هذه الحادثة إلى تقرير فرعون: لأقتلنكم، أصلبنكم، إلى آخره، صحيح؟ فقال –هنا يأتي دوره–: لأن المذكور بعد ذلك معلوم لا محالة منه، لا بد أن ينصرف الذهن إليه، ماذا سيفعل؟ إذًا لا توجد ضرورة أن يُذكر، انتبهتم إلى هذا؟ لأن الحدث مستقر في النفس، ماذا سيكون؟ وفي سورة يس، صاحب يس، أين ذكره؟ أين ذكر قتله؟ لماذا لا يذكر قتله؟ لأنه شيء مستقر في النفس، واضح؟

قال الشافعي في كتابه (الرسالة): وأعظم ما في كلام العرب هو ما جاء على وفق هذا المعنى الذي ذكرته، هذا لفظي أنا وليس لفظه، وأعظم كلام الناس ما جاء في هذا المعنى، ايش هذا المعنى؟ هو أن يقول لك الكلام، فيقطع عند نقطة أنت تُكملها، لماذا؟ هذا تفسيري، لماذا؟ هذا تجدونه في أنفسكم. يقول ماذا يريد هذا الرجل؟ يريد هكذا، أنا الذي أتيت بها، فحينئذ حين ينشأ إطلاع المعنى على النفس من النفس يكون أكثر قبولاً وأكثر استقرارًا، واضح؟ حين يكون إطلاع المعنى على النفس من أين؟ إطلاع المعنى من أين؟ هو يطلع عليك المعنى، يأتي عليك، إما أن يأتي عليك من متكلم، إما يأتي من كاتب، لكن هنا يطلع عليك المعنى إلى نفسك، لكن من أين خرج هذا المعنى؟ من نفسك أنت. فحين يطلع عليك المعنى من نفسك إلى نفسك يكون أبهج وأكثر جمالًا واستقرارًا، واضح الكلام يا مشايخ؟

نأتي إلى كلام الشيخ، هنا كل هذا لنُميت ما قرره المتكلمون من ضرورة ذكر وسط النتائج، خلاص، ما دام موجودا ليس هناك ضرورة لتكرره، لماذا تذكره لي؟ فحين يغيب عن اللسان ويحضر في الذهن يكون أكثر جمالاً، فهنا، إن فهمتم

هذا -نحن وين وصلنا في كلامنا مع الشافعي؟ أن هذا هو كلام العرب، هذه هي بلاغتهم، هذا هو جمالهم-، فحينئذ تستطيعون أن تقرروا ما أراده السيرافي في مناظرته لمتى. مش قلنا في أول الدرس، لما تكلمنا عن اللغة أنها ميزان عقلي، فحين تناظرا من الذي غلب؟ هذه من جملة ما يمكن أن يستدل به على أنه اللغة في إيصالها للمعنى للنفس الذي يستقر فيه هذا المعنى، أبلغ مما يقوله المتكلمون، واضح الكلام؟ انتبهوا لهذا، حركوا عقولكم، لا نترك. العلم كالشبكة، أي ضعف في غرزة فيه، في هذه الشبكة، ضعف في الجميع، وأي تقوية لهذه الغرزة تقوية للجميع، عليك أن تنسج هذا العلم نسجًا تامًا متلائمًا، لا يجوز لك أن تصنع العلم على جهة الجُزُر: هنا الفقه، هنا اللغة، هنا التفسير، هذا من أفسد ما يطرأ على العقل، حينئذ أنت لا تنتفع أبدًا، لا بد أن تلقي هذه العلوم كوحدة واحدة، باعتبار العلم وحدة واحدة يلتقي كله مع الكلمات الأربعة، سبحان الله، والحمد لله، كلها، لا يوجد علم إلا ويوصل لهذه الكلمات الأربعة.

نقول: "ما كانت مقدمات الدليل فيها ضرورية"، فهمنا ما معنى ضروري؟ على ما تقرر، لا أريد أن أكرر، خلاص، ما معنى العلم الضروري.

"أو قريبة من الضرورية حسب ما يتبين في آخر هذا الكتاب بحول الله وقوته"،

لأنه كلام هذا الكتاب، لأنه كلام عن الاجتهاد.

"فإذا كان كذلك فهو الذي ثبت طلبه في الشريعة"

أي ثبت وصول المراد إليه وهو التصديق، علم ضروري الذي أوجب التصديق التام.

"وهو الذي نبه القرآن على أمثاله"

أي من الأساليب التي تنشئ اليقين.

"قوله تعالى {أفمن يخلق كمن لا يخلق}"

وذلك لصنع المقارنة بين ربنا الذي خلق وبين الآلهة الباطلة التي لا تخلق، إلى آخره.

"وقوله تعالى: {قل يحييها الذي أنشأها أول مرة}"،

ذلك لأن الذي أنشأها أول مرة أنشأها من العدم، مادتها غير موجودة {وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} كما قال تعالى، لكن الذي يحييها، يحييها مع وجود المادة،

"وقوله تعالى {الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء}"

هذه الآية في سورة الروم ومثلها في سورة البقرة: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ}، هذه الآية من سورة البقرة وهذه الآية من سورة الروم، وكذلك الآية التي في سورة الحج، كلها تفسير لقوله تعالى: {قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ}، واضح؟ وهذا من جملة تسمية العدم موتًا، لأنه: {أَمَتَّنَا}، أين الإماتة الأولى؟ عدم الوجود. {هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئًا مذكورا}، هذه إماتة، ثم أحياه، ثم الإماتة الثانية، ثم الإحياء ليوم القيامة: {قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ}، فدَلّ على أن عدم الإيجاد إماتة.

طيب، وهذه يسميها علماؤنا بدليل (برهان) الإيجاد والإمداد، ما هو الدليل على وجود الله؟ طبعًا هذا دليل لا يُطلب، والقرآن لم يأت قط على قضية الوجود، لأن قضية الوجود مستقرة في النفس، والحوار فيها –على القاعدة الأولى– حوار على شيء مستقر في النفس، واضح الكلام؟ وإنما قضية القرآن في قضية إثبات الإلهية، وما تَمَّ فيه –هنا أنبه على نقطة، لا بأس–، وما تم فيه من ذكر الربوبية إنما هو لتقرير الإلهية، ولكن هل فقط لذلك؟ أم لأن ذكر الربوبية عظيم؟

لأن بعض الناس الآن يقولون: الربوبية يعني أمر انتهينا منه، والمهم الإلهية، فكأنهم أسقطوا ذكرَ ومحاسنَ الربوبية، ما هو أجمل شيء في القرآن؟ هو مدح الرب لذاته. وما نشأ القرآن إلا لهذا –نشأ على معنى تكلم الله بعد أن لم يكن متكلمًا فيه، كقوله: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ}، ليس أنشأ بمعنى خلق، حتى لا يقف عندنا أحد ويقول أنه يقول بخلق القرآن–، ما تكلم الله كلامه إلا من أجل أن يُظهر نفسه، يتكلم عن ذاته، وهذا هو أجمل المدح، فأجمل المدح هو ما ذكره الله في كتابه، وهذا من إدراك الصحابة –رضي الله تعالى عنهم–، من فقههم. أي آية في كتاب الله أعظم؟ أين ذهب هذا الصحابي؟ سأله عن سورة، ربما أجابه بالفاتحة، ربما أجابه ب: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}، لكن لما سأله عن أي آية في كتاب الله، ماذا فهم؟ أي آية في كتاب الله أعظم؟ من أين فهم الصحابة أن آية الكرسي هي أعظم آية؟ لأنها الآية التي ذُكر فيها عشر صفات لربنا كما قال علماؤنا، هذا في تفسير ابن كثير، لما قارن بين هذه الآية من سورة البقرة، وبين آية ربنا في سورة الشورى، وقال: هنا ذكر عشر أوامر وخصال، وفي آية الكرسي ذكر عشر خصال، واضح الكلام؟ فلماذا؟ –هنا السؤال، نرجع إلى ما نحن فيه–، لماذا فهم الصحابي أن أعظم آية هي هذه؟ لماذا؟ لأن القرآن إنما سيق من أجل أن يعرفنا بصفات الرب، فهذه الآية اختصت بصفات الله –عز وجل–، هذا فقه الصحابة، وهذا هو فقه الفقه، وهو منتهى الطلب، ومن لم يفقهه لم يفقه شيئا.

فالفقه الأول إنما هو وسيلة، يعرف أحكام، لكن لا يعرف هذه الأحكام لمن، ولماذا تصرف، ولماذا يطبقها المرء من تعظيم الله، فهذا لم يصل لشيء، هذا مسكين، هذا محجوب، محجوب بالرسوب.

القصد أن القرآن فيه دليل الإيجاد ودليل الإمداد، الإيجاد إيجاد الخلق من العدم، والإمداد هو رزقه، وكنا نقول -هذه لا بأس منها-، كنا نقول أن ترديد البعض أن توحيد الربوبية ليس بشيء إنما أقيم من أجل توحيد الإلهية، كلام ينبغي أن يعاد النظر فيه، لأنه أدى سلوكيًا وعمليًا من هؤلاء القوم إلى عدم تعظيم الرب، فإن تعظيم الله لا يُنشئه إلا الربوبية، إلا فقه المرء بالربوبية.

ولذلك هذا القرآن، وهذه طريقة بناء القرآن، هذه قضية أخرى لا أريد أن أعرج عليها، وإنما ذكرتها لمن أراد أن يتوسع فليرجع إلى تفسير سورة الإسراء عندما رددت على قول من قال في سورة النمل عند قوله -سبحانه وتعالى-: {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ}، فقال أغلب المفسرون، وتبعهم المعاصرون، أن هذه آية حديث عن يوم القيامة، والآية ترد عليهم، قال: {صُنْعَ اللَّهِ}، ويوم القيامة هو هدم للصنع، ولكن ليس هذا ما أقوله، ولكني ذكرت فيها -هنا الموطن- بناء السورة القرآنية، ارجعوا إليها فإنها مهمة، بناء السورة القرآنية مهم جدًا في قراءتك لكتاب الله، هذا من الأصول، نحن لم نخرج من الأصول يا شيخ، بناء السورة، السورة لها بناء عجيب، هذا البناء كيف أنه حديث عن الربوبية، عن الخلق، عن تنوع الخلق، عن تضاد الخلق في الوحدة الواحدة وعن تعظيمه، ثم بعدها يقذف القرآن كلمة الإلهية، واضح الكلام؟ هذا بناء قرآني، ارجعوا إليه، هذا كثير في القرآن، بل هو بناء السور، السور القرآنية تبنى هكذا، لو رجعتم إلى سورة الكهف، لو رجعتم إلى سورة الروم، وهكذا، بناء السورة على هذا المعنى الذي قررناه.

فالقصد بأن هناك نزعة للحديث عن الإلهية دون مقدمات -على خلاف طريقة القرآن من الحديث عن الربوبية- أذهبَت هيبة الرب، صار كأن التعامل مع الله فقط كأنه الآمر الناهي، دون النظر إلى عظمة الله، إلى ربوبيته، إلى حكمته، وإلى تنوعه في الواحد، وتضاده في الواحد، كل الخلق الحي نشأ من خلية، لكن انظر هذه الخلية ماذا أنشأت، انظر إلى تنوعها، إلى تضادها، الوحدة في التنوع أو التنوع في الوحدة، طيب.

نقف عند قوله تعالى، هو يقرر لنا أن طريقة القرآن: بينة واضحة وتصل إلى المراد من غير تعقيدات المتكلمين، لم نخرج من هذا، وإنما أنبه أننا في قراءتنا لهذا الكتاب لا نريد **فقط** -بل قد يكون المقصد الثالث-، لا نريد فقط أن نقرأ علم الأصول، ولا مصطلحات علم الأصول، لو أردنا لأخذنا كتابا من هذه الكتب والمتون وشرحناها، ولكنني أقول هنا، حتى لا يقول واحد: هذا أخرجنا عن الأصول الذي جئنا من أجله، أقول إن مراد هذه الحلقات وهذه الدروس:

أولاً صناعة عقل المسلم النير، لنصل إلى مرتبة المسلم الصحابي، هذا الذي لا نقول أنه لم يتكرر، لا، بل تكرر، المسلم الصحابي تكرر. نعم، على مستوى الجيل التام لم يتكرر، لكن هل المسلم الصحابي تكرر في تاريخنا؟ إن هؤلاء الاستشهاديين هم المسلم الصحابي، إن هؤلاء العلماء الذين أبدعوا في دين الله من المقالات، هؤلاء هم المسلم الصحابي، وهذا المسلم الصحابي نريد أن نعود إليه، فنحن في هذه الدروس نريد ماذا؟ نريد صناعة العقل المسلم الذي يوصلك إلى المسلم الصحابي فهمًا، ليس فقط فهمًا على طريقة الوعي بأن يكون رأسك كقبة المسجد ورجليك أعواد الكبريت، هذا وعي الجهلة، هناك أناس كثيرون يتكلمون في دين الله، لكنهم فقط يضعون الكلام في العقول، فإذا طلبنا منهم تحرك إراداتهم، أي تحرك أرجلهم للمراد نكسوا، لأن رؤوسهم كبيرة كالقبة وأرجلهم صغيرة كأعواد الكبريت، هذا انحراف، واضح؟ وهناك من لهم أرجل كأرجل المصارعين، وعقولهم مثل علبة الكبريت -حتى تتم المقارنة-، رؤوسهم صغيرة، هذا كله انحراف، نحن نريد العقل العظيم مع الأرجل العظيمة، فَهْم عظيم وإرادة تزحزح الجبال، لا بأس إلى هنا.

فالقصد **أولاً** أننا نريد صياغة عقل المسلم، حين يسمع يفهم دينه على وجهٍ من الفهم والإدراك، وأن يكون بصيرًا سُنَنيّا، هذا المقصد الأول.

المقصد الثاني وهو كيفية قراءة كتب التراث؛ إن أعظم جناية هي جنايةُ من لم يفهم كتب التراث فسبها، هذه الطريقة، طريقة من لا يفهم كتب التراث لِما يجد فيها من ألفاظ تاريخية صنعت لأسباب -كما نرى، كما نشرح-، فلما عجزوا عن فهمها أين ذهبوا؟ إلى سبها، قالوا: ما في ضرورة، نروح للكتاب والسنة مباشرة.

طيب، نأتي إلى قوله: "وقوله تعالى: {لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا}"

هذه لا أريد أن أقف عندها وإن كانت هي أجَلُّ ما يقال، ولكني أعيدكم إلى مقدمة، إلى كتاب شرح ابن أبي العز لمتن (الطحاوية)، فقد شرحها رادًّا فيها على الفلاسفة الذين جعلوا آلهة بمعنى أربابًا، واضح؟ وإنما هو آلهة، وهذه الآية

تقرير ليس على طريقة الشاطبي، الشاطبي وضعها على جهة إثبات وحدانية الرب، على طريقة من تكلم فيها من المتكلمين، والصواب أن هذه الآية إثبات لوحدة التشريع، واضح الكلام؟{لو لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ} أي معبودات، {لَفَسَدَتَا}، واضح؟ وهذا الذي يقع، فإن فساد الأرض والسماء يقع بعبودية الناس لغير الله -عز وجل-، هذا هو المراد، وليس المراد فيها تضاد الأرباب كما يقولون، ولا أريد الإطالة، هذه الحقيقة تستحق وهي من أجَّل ما يُتكلم فيه، أنا أعرف، ولكني تركتها لوجود من تكلم فيها، وتستطيع الرجوع إليها، وقد شرحتها بتوسع في شرحي للطحاوية، نعم.

"وقوله تعالى: {أفرأيتم ما تمنون، أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون}، وهذا إذا احتيج إلى الدليل في التصديق، وإلا؛ فتقرير الحكم كاف".

هذه كلمة ضعوا تحتها خطوط، وأنتم لا يمكن لكم أن تفهموا الكلام حتى تعيشوا مع الرجل كأنه يجالسكم، ولا يمكن أن تفهموا كلام أهل العلم حتى تدققوا في كلامهم. لا تكونوا مثل الجهلة، تضع لهم الجبال من الكلام فيقول: أين هو، أين هو؟ فكيف إذا كانت هذه الكلمات التي هي كالجبال وبيّنة لم ينتبه إليها الأعمش، بل هو الأعمى، ليته أعمش، الأعمش يرى في النهار ولكنه لا يرى في الليل، لكن هذا لا يرى لا في النهار ولا في الليل، فتقول له: عجيب، لم تقرأ الكلمة، فكيف نصنع فيه مع كلام العرب الذي مدحه الشافعي؟ لأن الشافعي قال: "أجمل الكلام ما لغز"، ما أُخفي، هذا هو أجمل الكلام، فإذا كان أجمل الكلام ما أخفي، فكيف يفهم هؤلاء؟ لو أخفينا وقلنا أنت تعرفه؛ ومن هنا -هذا قلته الدرس الفائت أظن-، ومن هنا اضطر المتأخرون إلى الشرح، الشروح هذه ليست علامة علم، كثرة الشروح والكتب هذه ليست دلالة علم، هذه دلالة دُنُوّ وتدنِّي مستوى المخاطَب، وإلا فالعالم يكفيك هذا، ولذلك قالوا عن البلاغة: "اللمحة الدالة"، انظروا إلى كلمته.

يقول: "وهذا إذا احتيج إلى الدليل"

يقول: حتى مرات بعض الأمور يكفي أن تقال لتُصدق، لا يوجد ضرورة للدليل. بالله عليكم، واحد الآن لو قال: نحن في النهار أم في الليل؟ وهو جالس تحت الشمس، هل هذا يخاطَب مخاطبة العقلاء؟ فأن يخبر بمجرد أنه في النهار، هذا دليل على أنه إما أعمى، فإن كان بصيرًا فهو مجنون، أما المصيبة فكيف يطلب الدليل، ولذلك يقول: "وهذا إذا احتيج"، أي التقرير، أي موضوع التصديق "إلى دليل"، وإلا فهو مقرر بلا دليل، كقوله: "وإلا فتقرير الحكم كاف".

هنا يحضرني بعض الجهلة لما -ليس دفاعًا عن النفس ولكن هذه طامة أمتنا، ماذا نصنع؟- يضطر المرء يقول: يا جماعة ظننا أنكم تفهمون، لما واحد يقول: هذا الرجل يتكلم كثيرا، لا يذكر الكتاب والسنة، لا يذكر أحاديث، لا يذكر قرآن؛ لأني في الحقيقة لا أفسر قرآنًا، ولا أفسر أحاديثا، أنا أصنع العقل الذي ينبت فيه الكتاب، كيف تفسر الكتاب، لذلك فهذا كلام عقلي، ثم يطلب منك أين الدليل! والله هذه مشكلة يا إخوة، يقولون: أين الكتاب، أين السنة في كلامه؟ لا بأس، هكذا، هذا هو الزمان.

ولذلك من أعظم ما يصيب المرء في الجلسات، أنا دائمًا أُسأل هذا السؤال يا مشايخ، ما أشق ما رأيت في الحياة؟ صدقًا، ما أكبر مصيبة وقعت فيها في الحياة؟ ما هو الألم الذي يتفجر منك حتى يخرج من أذنيك وأنفك؟ هو أن يجلس المرء جلسة المناظر ومرتبته أن يتعلم. يعني يجادلك رجل تتمنى أن يجلس حتى تُعلمه، ليستفيد، بعدين يروح يجادل واحد ثاني، لكن يأتي واحد يريد أن يجادلك، وهو مرتبته أن يتعلم، وأغرب ما تقول، ومثلها مرة، أقول قاعدة أصولية فأراد الرجل أن يتفلسف وهو ينتسب لأهل العلم، قال: ما دليلها؟ أنا ظننت أن بتقرير القاعدة انتهينا لنبني عليها، وإذا هو ما زال في المرتبة الأولى: كيف تُبنى القواعد وما هو دليل القواعد، إلى آخره. ومصيبتنا، عندما يأتي هذا الدليل ظنيا والقاعدة يقينية على طريقة ما قرره الشاطبي، لا بأس، اقرأ يا شيخ،

"وعلى هذا النحو مر السلف الصالح في بث الشريعة للمؤالف والمخالف، ومن نظر في استدلالاهم على إثبات الأحكام التكليفية؛ علم أنهم قصدوا أيسر الطرق وأقربها إلى عقول الطالبين، لكن من غير ترتيب متكلف، ولا نظم مؤلف"

قصده بالنظم المؤلف، النظم ما هو؟ يعني لم يصغه على طريقة صياغة الأدب، لكن لو قيل لأحدهم، الكلام واضح لا نريد أن نقف عنده لأنه شُرح كثيرا وليس فيه ما ينبغي أن نقف عليه، ولكن، لو سأل سائل لماذا كتبت المتون الشعرية؟ لأنها أسهل في الحفظ، لأن الشعر أسهل من النثر في الحفظ، فقط لتسهيل الحفظ، نعم.

"بل كانوا يرمون بالكلام على عواهنه"

على عواهنه دون صياغة تزويقية هذا هو المقصود، بدون صياغة، ليس المقصود على عواهنه بدون تدبر ولا تفكر، لكن بدون تزويق.

"ولا يبالون كيف وقع في ترتيبه"

أما هذه فلا تصح، من نظر في كلام أهل العلم وترتيبهم للكتب علِم دقة فهمهم ووجود قوة النظر عندهم، وهذا شيء عظيم في علوم أهل العلم، لماذا صاغوه؟ أنا ذكرت لكم مثالا في قضية كيف رُتبت كتب الفقه، رُتبت على معان من النظر، صحيح؟ ولوجدت هناك المسائل.

الآن هو الشيخ قرر -كما ترون-، بنى مقدماته بناءً علميًا.

أولاً: قرر أن القواعد يقينية لا تناقش فيها، انتهى.

ثم بدأ بقضية تقرير أساليب الشريعة، كيف أسلوب الشريعة، كيف هو، وسنرى أنه بعد ذلك تكلم عن العلم وعن فضائله إلى آخره، فترى أن أهل العلم لا يرمون كلامهم على جهةٍ غير معلومة في أذهانهم، ومُرتبة بغير تدقيق عقلي، لكن مقصوده أن كلام أهل العلم سيق بالنسبة لمسائل الفقه على طريقة سهلة ميسورة يدركها الناس جميعًا هذا هو، قال، وهذه نقطة توضع بجانبها، كما ترون أن هذا من آداب القرآن الذي أخذه علماؤنا، الأمة الإسلامية هذه من محمد -صلى الله عليه وسلم-، -والآن سأبين هذه الكلمة-، من محمد -صلى الله عليه وسلم- إلى أصغر واحد فيها، لا يوجد فيها خير قط إلا وهو منبثق من القرآن، واضح؟ هل يقول قائل حتى الحديث النبوي هو من القرآن؟ هذه فيها خلاف، وأنا أميل إلى كلام الشاطبي -رحمه الله- فيما سيأتي، وهو كلام رائع، وليس كلام غيره، وهو كلام ابن القيم، أقول: إن السنة شرح للقرآن، يقول ابن القيم -رحمه الله- في (بدائع الفوائد)، يقول بأن عظمة العالِم تظهر في إعادته النص النبوي إلى النص القرآني، فهمتم؟ من أين أتى هذا الحديث؟ من أين أتى؟ يقول: يظهر علم الرجل ومقدار إدراكه وفقهه للكتاب والسنة في كيف أنه جعل هذا الحديث يعود إلى القرآن، أين هو من القرآن، واضح الكلام؟

لتروا عظمة القرآن، إذا كان هذا كل حديث، وهذه الحكمة كلها التي فيها حديث النبي -صلى الله عليه وسلم- كلها منبثقة من القرآن، لتعلموا ما هو القرآن، ولذلك الدعوة إلى: "حكموا القرآن"، أو الجماعات إحياء القرآن، هذه فقط شعار، إلى الآن يفهمها الناس مجملة، القرآن فيه الحق، طيب أين الإجابة؟ من الذي يحتج بالقرآن على واقعنا

بطريقة سُننِية؟ على طريقة ما فهمها رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؟ أما الذين يضربون القرآن بالسنة فهؤلاء لم يفهموا السنة، ولا يعرفون عظمة القرآن. القرآن ليس كتابًا مجملاً كما يقولون ويزعمون، وهذه كلمة للأسف قديمة قالها الجويني وقالها آخرون، القرآن يقولون أنه كتاب عمومات، أليس كذلك؟ أتسمعون بهذا؟ هذه كلمة مجرمة. "القرآن كتاب عمومات"، هذه كلمة مجرمة تناقض قوله تعالى: {كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ}، الله يقول لرسوله: {وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ}، لا إله إلا الله.

من أعظم الناس عقلاً في الوجود منذ أن أنزل آدم إلى يوم فنائها؟ من هو؟ محمد -صلى الله عليه وسلم-. ومع ذلك القرآن يُجرده من أن يُنشئ حكمًا أو عِلمًا من جهة نفسه، فيقول له: {وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ}، فإذا كان رسولنا -صلى الله عليه وسلم-، هذا العظيم بعقله، نتكلم عن عقله، وهو الذي لا يوجد في الوجود مثله، في صياغة البشرية، صنعه الله -عز وجل- صناعة تامة في عقله وفي إدراكه وفي كل شيء، ثم يجرده الله -عز وجل- مِن أن يقول قولاً من الأحكام والتحسينات والتقبيحات من جهة نفسه أو من جهة عقله، فماذا أبقى للناس بعد ذلك؟

ثم يزعمون أن القرآن كتاب عمومات، قل: "أنا أعمى لا أرى إلا هذه الكلمة الكبيرة"، فنقول لك: نعم، لكن ماذا تحت هذه الكلمة الكبيرة من تفصيلات؟ هذا جهل منك وليس في الكتاب، وإلا فرسولنا -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه -رضي الله تعالى عنهم- ما خرج منهم علم قط إلا ومصدره الكتاب.

ولذلك أنبه على مسألة أصولية، نشرها ابن حزم وصارت إلى السلفية المعاصرة، وهي قولهم بأن القرآن والسنة مرتبة واحدة، هذه كلمة يناقضها فقه الصحابة؛ ارجعوا إلى كتاب (الفقيه والمتفقه) للخطيب البغدادي، تجدون أن الصحابة يُعيدون المجتهد، دعكم من حديث معاذ: (كيف تقضي إذا عرض لك قضاء؟ قال: أقضي بكتاب الله. قال: فإن لم تجد في كتاب الله؟ قال: فبسنة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: فإن لم تجد في سنة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؟ قال: أجتهد رأيي ولا آلو. فضرب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- صدره وقال: الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله)، لا نريد أن ندخل فيه، ولكن رد هذا الحديث من جهة معناه باطل، نعم، لا لأنه حديث صحيح، ولكن رد الحديث من جهة أن معناه غلط هذا ردٌّ باطل؛ فإن فقه الصحابة -رضي الله عنهم- يقوم على تقديم القرآن أولًا، حتى قبل السنة؟ الجواب: نعم.

هل معنى ذلك أن السنة تخالف الكتاب؟ لا، فإنها مسألة تربوية، والدليل: انظروا الآن كم عناية ما يسمى بالسلفية المعاصرة بالقرآن، الأمر للناس، للناظر والباحث، ولكنهم في السنة على المعنى الورقي، حتى هذه مفقودة المعنى، لأنها في الحقيقة عليها كلام، ولكن كم عناية الناس بالقرآن؟ لماذا؟ لأنهم قالوا: إن السنة شارحة للقرآن، ونحن مرتبتنا ماذا؟ هم يعرفون أنها مرتبة ضعيفة، كيف يأخذون الحكم من القرآن؟ هو لا يعرف أنه سيأتي إلى أمر يحتاج إلى نبط، حفر، "حفر" يعني معنى "نبط" لغة، تنبط، تستنبط، تحتاج إلى نبط، يحتاج أن يتعب، يحتاج أن يعرق، مثل ما الشافعي عرق، جلس أسبوعا وهو يقرأ كلام الله حتى عرف دليل الإجماع، هذه تحتاج إلى استنباط، أما هو فيذهب ويريد أن يجاوب أمام التلفزيون بدقيقة، فالكتاب ليس حاضرا في ذهنه.

ولذلك أنا ذكرت لكم سابقًا أن العلماء يمدحون الرجل بقولهم: "أشد نزعًا لآية"، أليس هكذا قلنا؟ كما يُمدح مالك، وأشد الناس نزعًا لآية هو أبو بكر، نتكلم طبعًا عن الأمة، أشد الناس نزعًا لآية هو أبو بكر، انظر كيف كان يستخدم الآيات تعجب لها، عمر لا يسبقه، عمر لا يسبقه معنى ذلك أن المنافسة بين الكبار. وكانوا يقولون مالك، وكانوا يقولون شيخ الإسلام كأن القرآن بين عينيه، وأن السنة بين عينيه، أشد الناس نزعًا لآية. ونحن مساكين نقول ما الآية، هذه الآية في سورة كذا، هو يعرف أنها موجودة، لكن هل هو في هذه المرتبة؟

القصد؛ عندما نقول بأن القرآن أولاً، إنها مسألة تربوية، لا لإيجاد -كما يزعمون- المنازعة بين القرآن والسنة، ولا لأن السنة لا تفيد اليقين -كما يقول المتكلمون وبعض الأصوليون-، ولكننا نقول أنها مسألة تربوية تعود إلى تعظيم القرآن، وتعود إلى تنمية العقل لصنع الإرادة فيه من أجل تقويته في الاستنباط. هذا في القرآن، دوِّر عليه في القرآن، ابحث! فهو يبحث، هذا أمر تعبدي، يقرأ القرآن مرة ومرات وهكذا، أليس صحيحا؟ يُصبح القرآن ديدنه، يعيش معه في ليله، يقوم الليل، هو يقوم، والناس يعرفون هذا، لا يحتاج إلى دليل ولا إلى كلام، وهذا موجود في سورة المزمل لما يقول سبحانه: {قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا}، ويقول: {إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا}، دلَّ على أن معالجة السبح الطويل المعانى في النهار لا يمكن أن يقوم له وأن يرققه وأن يذهب بلاءه إلا: {قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا}، وحينئذ تعرفون الفقيه الذي لا يقوم الليل ماذا يكون شأنه، ولذلك هذه كلمة أحمد لما قال: "محدِّث ولا يقوم الليل!"، من أين يأتيك الفقه يا مسكين؟ وأنت نائم؟ من أين يأتيك القيام؟ من أين تفهم دين الله -عز وجل-؟ ولذلك حينئذ يقوم الليل؛ لأنه يعلم أن في القيام

أعظم التنزل، القرآن له نزول واحد، لكن له تنزلات لا تنتهي، نزول القرآن مرة وتنزل القرآن لا ينقضي، واضح الكلام؟ تنزله. فيقوم الرجل هذا المسكين يطلب من ربه، يقرأ القرآن يبحث عنها، يقرأه بتأمل، يقرأه بتدبر، وهكذا.

إذًا عندما نقول بأن القرآن أولاً، فلهذا المعنى، فهمتم هذه القضية؟ هذه مهمة، لا تستمعوا لمن يقول القرآن والسنة، هذه لم تكن من فقه الصحابة، فقه عمر، فقه عشرات الصحابة، ارجعوا إلى (الفقيه المتفقه) تجدونها، وهذه مسألة شرحتها في كتاب -نسأل الله أن أجده-، وهو (الحوار مع الكبار)، في رد دعوى أن القرآن والسنة منزلة واحدة، هذا غير صحيح. ولا في شيء؟ حتى في الفقه؟ حتى في الفقه. هذه المسألة التي تهمني الآن، والشيخ الشاطبي يأتي إليها، وبعض المحققين أنشأ المعركة ونصر من قال بأن السنة والقرآن على منزلة واحدة، نعم يا مشايخ.

"ولا يبالون كيف وقع في ترتيبه إذا كان قريب المأخذ، سهل الملتمس، هذا وإن كان راجعا إلى نظم الأقدمين في التحصيل؛ فمن حيث كانوا يتحرون إيصال المقصود، لا من حيث احتذاء من تقدمهم"

إذًا هو قصدهم أن يوصلوا المقصود والأسلوب يختلف، هذه الكلمة تكلمنا فيها لا نريد أن نقف عندها، وقد أطلنا فيها النفس لأهميتها، نعم يا مشايخ، تفضل.

"وأما إذا كان الطريق مرتبا على قياسات مركبة أو غير مركبة؛ إلا أن في إيصالها إلى المطلوب بعض التوقف للعقل؛ فليس هذا الطريق بشرعي، ولا تجده في القرآن، ولا في السنة، ولا في كلام السلف الصالح؛ فإن ذلك متلفة للعقل ومحارة له قبل بلوغ المقصود، وهو بخلاف وضع التعليم، ولأن المطالب الشرعية إنما هي في عامة الأمر وقتية؛ فاللائق بها ما كان في الفهم وقتيا، فلو وضع النظر في الدليل غير وقتي؛ لكان مناقضا لهذه المطالب، وهو غير صحيح"

هذه جمل رائعة من الشيخ، رائعة، جمل رائعة من أي جهة؟ من جهة التربية. هذه كلمات ينبغي على المربي، على المدرس، على الشيخ، على المعلم، أن يهتم لها، هذه جمل تربوية، قف عندها، وأخرِجْها من سياقها من هذا الكتاب لتضعها دُرة في كل باب، في هذا الكتاب وفي غيره.

ماذا يريد أن يقول الشيخ؟ الكلام الذي ظاهره أنتم تعرفونه، قد تكون المقدمات له مركبة، القياسات مركبة على قضايا، تكون هذه القضايا أصلًا تحتاج إلى نظر، وليست من العلم الضروري؛ لأنه تقدم أنه إذا كانت المقدمة ضرورية تصل إلى المراد بسرعة، طيب إذا كانت غير ضرورية؟ إذًا سيتم حولها النقاش، هذا النقاش متلِف للعقل قبل أن تصل للمطلوب، وهذا يعلمنا شيئًا، وهو: -ياريت المشايخ يسمعوه-، علشان الله تدخل في الموضوع، هذه حطوها بين قوسين، معنى هذا الكلام، الكلام علشان ايش؟ تدخل في الموضوع. يأتي ليعطينا درسا يقدم مقدمة ربع ساعة، علشان الله تدخل في الموضوع، واضح؟ هذا أسلوب التربية، يأتي فيقول: "هذه مقدمة أولى، مقدمة ثانية، مقدمة ثالثة"، يا حبيبي ادخل، أنا جاي أسمع منك في هذا الموضوع.

وإنما هي أساليب لها أسبابها النفسية وأساليبها العقلية؛ بعض الناس يحب التعقيد، هكذا ليُقال عنه عالم، وهذه قاعدة اكتبوها، تكلمت كلامًا لا أفهمه أنا ولا يفهمه الناس حتى يقال عالم! حتى أن كُتب العقائد صيغت على هذا المعنى، وذكرت هذا في مقدمة (معارج القبول) لمن قرأها، هذه الكلمة قلتها هناك، قبل سنين، قبل أكثر من سبعة وعشرين سنة. سأتكلم كلامًا لا أفهمه، فالناس يحبون هذا ليقال عالم، وبعضهم أصلا هو ليس عنده شيء في هذا الباب، يحفظ جملة أو جملتين، فهو لا بد له من مقدمة طويلة، وهذا من أبغض ما تسمع، ياعمي أنا جاي أسمع المحاضرة أو أسمع منك؟! هذا الباب لا تضيعه، ادخل في الموضوع.

فلذلك، هنا الذي يقوله الشيخ، يعلمنا شيئًا عظيمًا، وهو أنك أتعبته في الطريق، فإذا وصل إلى المراد كلَّ وتعب، أليس كذلك؟ رجل يريد أن يقطع شجرة في هذا النهار، مشي طويلا، هو ممكن يصل إليها في خمسة دقائق، فلف حوله ولف حوله، قبل المغرب وصل بخمس دقائق، هذا لا يستطيع أن يقوم بالمطلوب وهو قطع الشجرة، أليس كذلك؟ بلى. ولذلك على، وهذه مأخوذة من قول ابن عباس -رضي الله عنهما- في قوله تعالى: {كُونُوا رَبَّانِيِّينَ}، قال: "الربانيون الذين يعلمون الناس صغار العلم قبل كباره"، تبنيه، ولأن صغار العلم بالنسبة إليهم ماذا؟ مقبولة، وكبار العلم لو عرضته على الصغير أتعبَته ولم توصله إلى المراد، فابْنِه بناءً صحيحًا، هذه كلمة عظيمة، هذه الأولى.

الأولى إذًا: لا تكثر من المقدمات، ادخل في الموضوع، لا تُتعِبْه في المقدمات، بل صله بالمطلوب، ما هو المطلوب؟ هذا هو، صله به، نعم.

يقول هنا: "وأما إذا كان الطريق مرتبًا على قياسات مركبة أو غير مركبة إلا أن"،

هل هناك قياسات غير مركبة؟ هذا نشرحه عندما نأتي إلى القياس، وهو قياس الدلالة، واضح؟ قياس الدلالة في بعض معانيه، لأنه كما يقول الجويني -طبعًا هناك قياسات عدة، لكن نتكلم عن القياسات الشرعية، أما القياس بالمفهوم العام له معاني كثيرة-، يقول الجويني في (الورقات)، وهذا أفضل ما قيل في حصر القياسات الشرعية، أن القياس إما قياس علة، وإما قياس دلالة، وإما قياس شبه، واضح؟ هذا في (الورقات)، نشرحه إن شاء الله لما نأتي إلى القياس، لكنه لما جاؤوا إلى قياس الدلالة، الشارحون ذكروا لها معاني متعددة، مما نحن فيه وهو قياس الدلالة وهو القياس على الأثر، وهذا شيء معروف، أن تعرف أن رجلا شارب خمر برائحته، هذا قياس بالأثر، هو ليس قياس علة، وهذا عامة الفقهاء القدماء يستخدمونه، قليل من يستخدم قياس العلة مع أنه الأشهر عندهم، فهذا المقصود بقياسات مركبة أو غير مركبة.

يقول: "إلا أن في إيصالها إلى المطلوب بعض التوقف للعقل".

هذه: "التوقف للعقل"، تقابل ماذا؟ الضروري. توقف العقل يقابل الضروري، لأن توقف العقل يعني أن العقل ناقشها ويحتاج إلى وقت لمعرفة صوابها، فإذا احتاجت لذلك، خرجت عن مسمى العلم الضروري.

وههنا نقطة مهمة تكلمت عنها بما يكفي إن شاء الله في وقته، والآن هي تدخل فيه، قلنا أنه لا بد -انتبهوا، لا بد من وجود صلاحيات بين قوة الدليل والمدلول، أليس كذلك؟ لا بد من معادلة. طيب ما يتحدث الشارع -انتبهوا-، هذه أنتم لو أنكم راجعتم الكلام من أول الدروس إلى اليوم لوجدتموها مرتبة، ولكني أذكركم حتى تربطوا الكلام بعضه ببعض-، قلنا هذه الكلمة، وقلنا مسألة ثانية بأن الله ابتلانا بالتعبد بالنص، وابتلانا بماذا؟ بالاجتهاد. اجمعوا بينهما، بماذا ستخرجون؟ ستخرجون بأن هذا الكلام -أي ما يحتاج إلى التوقف، توقف العقل فيه- إنما هو ليس في المسائل البدهية والأولية في الشريعة، يعني مثل الكلام: {أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ}، لأنه تحدث عن الله أو عن الشرك به، وهذه مسألة مقررة، بمجرد أن يقذف الدليل يفهمه الناس على مرتبة واحدة، لكن هل كل مراتب الفقه والشريعة على هذا المعنى؟ أجيبوني، هل كل الفقه على هذه الطريقة من الوضوح؟ ذكرنا لكم قصة أبو عبيد مع الشافعي في مسألة دور أهل مكة، أبو عبيد لم يفقه المسألة، وتعرفون قصة الشافعي مع المحدثين، أنه كان في الوضوء في زمزم، فدخلت امرأة ووقفت على المحدثين سألتهم عن تغسيل المرأة لزوجها وهي حائض، فنظروا إلى أنفسهم، يعني اطلعوا مين الي عنده.

الآن هذه المسألة لو كانت كالمسائل الأولى الواضحة لأجابوا عليها، ولكنهم لا يعرفونها لأنها تحتاج إلى شيء من النظر، إلى العقل، إلى التعقل، العقل يقف فيها، فخرج الشافعي وإذا هو متوضئ فقالوا: عليك بهذا الفتى، فذهبت إليه فجعلت تسأله وهو ماش حتى وقف على رؤوسهم قال لها: "لا بأس"، هم الآن قالوا: "وين الدليل؟"، هكذا السلفية في كل وقت، قالوا: من أين أتيت بهذا؟ من أين جئت بهذا؟ قال: من قوله –صلى الله عليه وسلم-: (حيضتك ليست في يدك)، فجعل الجلوس يتذاكرون في سند الحديث، قالت لهم: الآن؟ الآن يعني شاطرين؟

المهم، القصد من هذا أن هذا التعقل ليس في كل مسألة، يكون بحسب مرتبتها في الاستنباط، وكثير من المسائل تحتاج إلى هذا المعنى، هذا واضح الكلام فيه، وإنما الكلام عن التقريرات الكلية، نعم، اقرأ يا شيخ، أكمل.

"فليس هذا الطريق بشرعي ، ولا تجده في القرآن، ولا في السنة، ولا في كلام السلف الصالح؛ فإن ذلك متلفة للعقل ومحارة له قبل بلوغ المقصود، وهو بخلاف وضع التعليم".

انتبهوا هنا، حتى قلنا ماذا؟ هذه من حِكم المربين والمعلمين، هذه أولى انتهينا منها.

والثانية: "ولأن المطالب الشرعية إنما هي في عامة الأمر وقتية".

هنا يقصد بالوقتي أنه متسارع، طبعًا هنا عندنا التراخي، وعندنا ايش؟ ما يقابل التراخي وهو المسارعة، يقول بأن عامة الشريعة جاءت على جهة الأمر بالمسارعة، فيجب النفوذ إليه والمسارعة، لو أنه احتاج إلى نظر لاحتاج إلى وقت، فلما كان الأمر يحتاج إلى مسارعة كان بينًا، كان واضحًا. وهذا يقوله المربون وحتى يقولونه في الإداريين، يعني الإداري الناجح هو الذي لا يترك كثيرًا من عدم الوضوح، نعم يترك أمورا، يتركها لاجتهاد المقابِل، ولكنه يفصل له التفصيل الذي يطرد الخلاف.

"فاللائق بها ما كان في الفهم وقتيا"

المقصود ما كان في الفهم سريعًا حاضرًا ملائمًا وقتيًّا.

"فلو وضع النظر في الدليل غير وقتي، لكان مناقضا لهذه المطالب، وهو غير صحيح"

تفضل.

"وأيضا؛ فإن الإدراكات ليست على فن واحد، ولا هي جارية على التساوي في كل مطلب، هذه الذي قلناه"

هذا الذي قلناه، لا أريد أن أشرحه أنتم اقرؤوها، اقرؤوا الكلام على ما قلتُ، لأنه واضح وبيِّن لمن تأمل الكلام، والإدراكات ليست على فن واحد ولا هي جارية على التساوي في كل مطلب، تفضل.

"إلا في الضروريات وما قاربها؛ فإنها لا تفاوت فيها يعتد به، فلو وضعت الأدلة على غير ذلك؛ لتعذر هذا المطلب."

أي هذا المطلب للضروريات، لتعطل هذا المطلب في الضروريات، نعم.

"ولكان التكليف خاصًا لا عامًا"

لماذا؟ لأن الناس يتفاوتون في الاستنباط. لكان خاصًا، ولذلك لما كان الفقه على غير هذا المعنى من الضروريات، كان لا بد من سؤال العلماء، فلو كان واضحًا وبينًا ومن ضروريات العلم لقيل لكل واحد خذه كما تشاء. نعم يا شيخ، ما شاء الله، ما شاء الله، رحم الله أئمتنا.

"أو أدى إلى تكليف ما لا يطاق"

وذلك لأن "تكليف ما لا يطاق" في معانيه وليس فقط ما تعلق بالإرادة، أغلب الناس يتحدثون عن تكليف ما لا يطاق على قاعدة: "ليس في الدين من حرج"، أليس كذلك؟، كيف حملها على الأسلوب، أليس كذلك؟ حملها على الأسلوب، وهنا تكليف ما لا يطاق لأن ليس كل ما لا يطاق له تعلق بالإرادة، بل كثير منه يتعلق بالعلم، واضح؟ الإرادة يعني لا قدرة له أن يعملها من جهة بدنه، من جهة وسعه واستطاعته، ولكنه قد لا يستطيع أن يفهمها وهذا أعجز، ألا يفهمها أعجز من أن يفهمها ولا يستطيع أن يعملها، نعم.

"أو ما فيه حرج، وكلاهما منتف عن الشريعة، وسيأتي في كتاب "المقاصد" تقرير هذا المعنى"

الآن يكفي إلى هنا، لكن دعونا نقرأ العبارة، أنا أتمتع، فقط، أنا أريد أن نقرأها فقط كما يضع المرء في فمه الحلوى، نحن نضع في عقولنا جمال الكلام الذي يقوله، فقط نقرأها للجمال حتى نختم بكلامه، نعم، اقرأ المقدمة السابعة، فقط نقرأ قبل الدليل، لأنه حين نصل إلى الدليل هناك أمور، فقط نقرأ عبارته ونتركها للتأمل أيها المشايخ، تأملوا فيها، نعم.

المقدمة السابعة:

"كل علم شرعي فطلب الشارع له إنما يكون من حيث هو وسيلة إلى التعبد به لله تعالى"

بالله عليكم، لا أريد أن أزيد عليها، فقط هذه الكلمة، فقط، لا إله إلا الله، أعدها مرة ثانية يا شيخ.

"كل علم شرعي فطلب الشارع له إنما يكون من حيث هو وسيلة إلى التعبد به لله تعالى".

هذه تكفي، يكفي، والحمد لله رب العالمين، اسمعوا هذه، رددوها، رددوا هذا الكلام العظيم الذي يستغرق الوجود، يستغرق الوجدان، يستغرق الكتاب والسنة، يستغرق الحياة، انظروا إلى هذه الكلمة العظيمة للإمام، جماعة يضعون كتبهم لله، يقرؤون لله، يستنطبون لله، يُعَلمون لله، ينفون عن الشريعة ما دخل فيها لله، جماعة هم لله، هذا هو، هؤلاء هم علماؤنا، بهذا حُفظت الشريعة، لأن الله -عز وجل- في قلوب واضعيها. رجل يستحضر هذا لا يتكلم عن العلم أنه يُنمي العقل وأنه يصنع كذا، وأنه يُغير، لا، هو لا يستحضر هذا، هذا الإمام، لتعرفوا لماذا نصرهم الله، لماذا حفظهم، حفظ كلماتهم، لماذا هم علماء: إنما هو التعبد. اقرأها مرة ثانية، اقرأها مرة ثانية يا شيخ أبو عمر، اقرأها، اقرأها حتى تتأملوا كيف يضعها هذا الرجل، لماذا يتكلم؟ لماذا يقرأ القرآن؟ لماذا يحيا؟ وهم يعرفون أن الحياة هي تعبد.

"كل علم شرعي فطلب الشارع له إنما يكون من حيث هو وسيلة إلى التعبد به لله تعالى".

خلاص، ماذا يقال أعظم من هذا؟ ماذا يقال؟ والحمد لله رب العالمين جزاكم الله خير الجزاء وبارك الله فيكم.

طيب، أحد عنده سؤال من الإخوة وأنا لي أساتذة يسمعون لكم في الأشرطة، وأحبة قالوا لي لا تسمح لأحد أن يسأل أي سؤال خارج الدرس، وهؤلاء إخواني نصائحهم أوامر عندي، إذا سمعوها عرفوا أنفسهم، نعم.

أَسْئِلَـة

- يا شيخ، تقسيم الدليل إلى مقدمات (... د ٠١:٠٨:٣٧).

الدليل يحتاج عند المتكلمين إلى مقدمتين، يعني مثلاً تقول: [كل إنسان ناطق، وعمر ناطق، إذًا هو إنسان]، [الأصل في الأشياء الإباحة إلا ما جاء الدليل على تغييره، الخيار لم يأت الدليل على تحريمه إذًا هو مباح]، وهكذا، فهي: [مقدمة أولى، مقدمة ثانية، نتيجة]، تكلمنا وقلنا بأنه لا ضرورة بأن تقول هذه المقدمات، هم ما يفرضونه من أسلوب لا يوصل إلى نتيجة إلا بهتين المقدمتين، قلنا أن هذا تطويل، لأنه قد يكون -كما قال- مجرد تقرير النتيجة كاف لإثبات حقيقتها، وقد يكون فقط ذكر المقدمة الأولى كاف لإيصال النتيجة، فهذا الأسلوب الذي فرضه المتكلمون غير ضروري، واضح الكلام؟

هو فقط بعض الإخوة قال لا نسمع الأسئلة، الشيخ قال اذكر لنا بعض الأمثلة كيف أن العلم لا بد له من مقدمتين ثم نتيجة، وذكرت الأمثلة السريعة، لأنه في الحقيقة بابٌ الإكثارُ منه لا جدوى منه، يكفيك من العلم بعضه، لا نريد أن ندخل فيما قالوه.

- ولكن تقسيمات مراتب الأدلة، يعني هل لها تقسيمات معينة مثلاً يقولون في البداية الناظر في الدليل أول شيء ينظر في الإجماع، ثم ينظر في الكتاب والسنة.

يسأل الشيخ يقول: ما هو ترتيب الأدلة؟ الكتاب، واليوم تكلمنا عن ترتيب الكتاب بأنه الأول، لكنه يسأل عن موضوع الإجماع، هل يذكر أولاً، أم أنه يذكر تاليًا؟ الإمام الغزالي يقول في كتابه (المستصفى): يُنظر إلى الإجماع أولا، وابن تيمية يخالفه، يقول يُنظر إلى الدليل، يعني القرآن والسنة أولاً.

والصواب أن كل شيء بحسبه، كل مقام بحسبه: لو وُجد المخالف -أنت تعلم وجود المخالف-، فقذفُ الإجماع أولى لأنه يُبطل الخصومة، ولكن لو أن المرء يريد أن يسمع المراتب، فإنه لا أحد يقول أن الإجماع في قُوته يسبق الكتاب،

لأن الإجماع بالنسبة للأدلة فرع، ما الذي أنشأ الإجماع؟ أولا: الدليل. ولذلك على الصحيح -فيما سنتبين من الإجماع- أنه لا إجماع إلا بنص، هذه قاعدة من قواعد أصول الفقه، ولذلك النص أصلا هو الذي أنشأ الإجماع، فترتيبه من حيث القوة ما هو؟ أنه تابع. لكن لو وُجد الخلاف -وهذا لا بد من مراعاته، مراعاة الحال-، لما نأتي إلى حديث معاذ: (يا معاذ إنك تأتي قوم أهل كتاب)، لما أرسله إلى اليمن، (فادعهم إلى لا إله إلا الله)، هم يعرفون لا إله إلا الله، يعرفون محمد رسول الله، ولكنهم يناقشونك في بعض الأحكام، فكل بحسبه، قد تناقشه أولاً فيما خرج عنه أو فيما ناقضه، وهكذا، فلا بد من النظر إلى الحال، وهذا كله من فقه إمام الأئمة الشافعي الذي يرى التخصيص بالسبب، هذا احفظوه، هذه مهمة.

ولذلك الصواب أنه لا بد من مراعاة الحال، فإن الإجماع يقطع النزاع، فإذا علمت وجود النزاع فاقذف في وجهه الإجماع ليقطعه.

ولكن هذا الإجماع اليوم فُتح، للأسف هدموه تحت قول: لعل الناس اختلفوا، وكذا. الكلمات الرائعة التي قالها أئمتنا تُستخدم في غير محلها، كما هو شأن الكتب، كيف يُستخدم كتاب الشاطبي؟ في غير مكانه. كيف يُستخدم ابن خلدون؟ في غير مكانه. وهكذا، هذه طريقتهم.

- بارك الله فيك يا شيخ، أنت ذكرت أن الذين قالوا أن القرآن كتاب عمومات وجاء مجملًا، طب يعني إذا نظرنا إلى قول الله تعالى: {وأقيموا الصلاة}، أليس هذا على سبيل الإجمال؟ والسنة أن يفصل طريقة أداء هذه الشريعة؟ وضح لنا ايش معناها.

أظن أنكم سمعتم لأن الميكروفون قريب منه ولأن السؤال طويل.

إخوتي لا بد من تحرير القلب ولا بد من إزالة العوائق بيننا وبين كلام ربنا، لأننا إذا أردنا أن نصنع متعبدًا لا بد أن نقفد به مع الكتاب، ليس فقط تحفيظًا للّفظ ولكن غوصًا في المعاني، انتبهوا لهذا، كلمة "عمومات"، أعطيك أين شرها؟ والعلوم لا يدرك شرها فقط بإدراك ما هي عليه، ولكن بإدراك آثارها، أنها شر بإدراك آثارها.

الآن لو أراد رجل أن يفهم مسألة من مسائل النوازل، أيذهب إلى كتاب ربنا؟ الفقيه هل يذهب إلى كتاب ربنا؟ يقول هذه من النوازل الخفية، ومن النوازل الفرعية، وهو لا يعلم إلا أن القرآن هو كتاب عمومات جاء بالأحكام العامة، وعلينا أن نذهب إلى السنة، فإن لم نجد هذا في السنة ذهبنا إلى كتب الفقهاء، إلى غير ذلك. فالقرآن يزيله من ذهنه في النظر إلى النازلة. هذه الكلمة، كلمة "عمومات" اليوم، هي التي صنعت الفقه الأعوج عند الأحزاب، هم يقولون: نُحَكم القرآن، لكنهم يقولون معها أن القرآن كتاب عمومات، بمعنى أنه ترك لنا أن نفهم الفرعيات، هذا هو الشر الذي وقع، وجاء فقهاءٌ زعموا العودة إلى الكتاب والسنة، ولكن على الطريقة التي أودت بهم إلى الصورة التي ذكرناها.

الآن السؤال الذي قاله الإمام أحمد لما قال ميمون بن مهران -كما ذكر هذا الدالمي في سننه-: "السنة قاضية على الكتاب"، الإمام أحمد استقبح هذه الكلمة. وهو قصده ما هو؟ ما قصد ميمون بن مهران؟ الناس يقولون كلاما ولا يُشترط أن يضبطوا العربية ويضبطوا المعاني النفسية التي لها، لا يُشترط من العالم هذا، فالناس يخوضون فيها. فلما ميمون بن مهران قالها، إنما أراد بها أن السنة تقضي على الخصم، إدراك المعاني، وهذه مسألة مهمة، والحديث عن نفس المتكلم المجتهد، ونفسية المخاطب الفقيه يجب أن تراعى، لما يأتي المرء ويجادل مناظرًا، ما الذي يقضي عليه -المناظِر، الخصم-؟ يقضي عليه الكتاب أم تقضي عليه السنة؟ لأن، انتبه ضربنا أمثلة، الفقيه يقول مع الفقيه، وهو يريد أن يسمع منه ويتعلم وهو لا يفهم عليه، فكيف يُحضر له الكتاب؟ يقول له كذا، يقول: لا، ليست بينة عندي، وهذه خفية؛ فلذلك يضطر أن يأتي بماذا؟ يأتي بالسنة ليقضي، على القاعدة التي ذكرناها: متى يحتاج إلى التفصيل؟ إذا قلَّت مرتبة المقابِل أو إذا وُجد المعارض، على هذا المعنى، والمعارض هو مخالف لوجود التأويل لديه، ولوجود الجهل لديه.

ولذلك الآن هو يسأل: هل القرآن كاف لإيجاد التكليف في كل تفصيلاته؟ الجواب: نعم. هل القرآن أتى بالصلاة؟ الجواب: نعم. هل أتى بمواقيتها؟ الجواب: نعم. أتى بمواقيت الصلاة، انتبه، وليس كما قالوا فقط أتى ب: {أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ}، وقالوا بأن هذه الآية شاملة فقط لثلاث حدود للصلاة وهي: {أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ}، دلوك الشمس على الأقوال أنه ميلانها من كبد السماء -على قول الأكثر-، إذن أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل، ثم ماذا بعد غسق الليل؟ إلى أوله أو إلى منتصفه على ما يقولون، فذكرت حد صلاة الظهر والعصر، وحد صلاة المغرب والعشاء، وقرآن الفجر: الفجر، هذا غير صحيح، ولا نريد أن نفصل، فارجعوا إلى تفسير سورة الإسراء فقد ذكرت فيها أن القرآن ذكر الأوقات الخمسة.

فهل ذكر أوقاتها؟ الجواب: أنت الآن تستنبط، أين هذا من الكتاب؟ أقول تستنبط أين هذا من الكتاب، ليس هذا مع المعارض، وليس مع الجاهل، بمعنى لو جاءك الرافضي الذي يقول بالجمع مطلقًا لا ينفع معه الكتاب، كما أنه لا ينفع الخطاب مع الجاهل، لأن هذا من مسائل الاستنباط التي يخفى فيها الدليل ولا يكون ظاهرًا على جهة العلم الضروري التي تكلمنا عنها، واضح الكلام؟ فلذلك أنت تذهب إلى السنة، تقول له: السنة فصلت وفَعل النبي كذا، وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (بين هذا الوقت وهذا الوقت صلاة)، حديث جبريل، حديث ابن عباس، وهو أشهر حديث في أوقات الصلاوات، فالمخالف يحتاج إلى هذا. لو قال قائل: هل في القرآن ركوع؟ نقول: نعم. هل فيه سجود؟ نعم. هل فيه قيام؟ {وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ} نعم. إذًا الصلاة بكل حركاتها موجودة في الكتاب، هذا المعنى يجب أن تفهمه، ما هو دور السنة؟ قال: الحكمة. ما هي الحكمة؟ هو التطبيق العملي للأمر، هذا هو دور السنة، لكن هل يوجد في القرآن أنك يجب أن تكون قائما في الأول، ثم تركع، ثم هناك سجدتين، ثم هناك كذا؟ لا يوجد فيه هذا الترتيب. لكن هذه موجودة في الكتاب؟ هذه الأعمال التعبدية من الركوع والسجود وغيرها، هذه موجودة بلا شك، وهكذا، هذا هو المعنى الذي أردته، وهذا الذي ينبغي أن نربي الناس عليه، اذهب اذهب.

ابن عباس، هذا ينبغي أن تتأمله، الآن يا إخواني هذا من الأمور المهمة لأن إغفالها هو المرض الذي نجده في عالمنا، هذا المرض الذي نجده، ابن عباس يقول: كنت أبحث عن صلاة الضحى في القرآن، معنى كلامه، لماذا يبحث عن صلاة الضحى في القرآن؟ لأنه يعلم أن رسولنا -صلى الله عليه وسلم- لا يصلي الضحى أو لا يحض عليها إلا وهي موجودة في كتاب الله، هذا هو الأصل، هذا الذي أردنا، فأخذها من قوله في سورة ص: {بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ} من فعل داوود، العشي والإشراق، واضح الكلام؟ وهذا هو المعنى، وابن القيم ذكر هذا، ذكر أمثلة بيّن فيها أن الأحكام مأخوذة من القرآن على طريقته، وذكرنا ما ذكرنا سابقًا، فهذا الذي نريده، لكن لو قال قائل: أنا قرآني؟ هو كذاب، هو لو كان قرآنيا لكان سننيا. لا يوجد شيء اسمه قرآني، يوجد كفار، كما ذكر هذا الإجماع السيوطي في كتابه (مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة)، أن من أنكر السنة جملة فهو كافر.

- ذكرت حديث معاذ اقضي بكتاب الله، هل صح سند للحديث؟

يسأل أخونا يقول حديث معاذ: (اقض بكتاب الله)، هذا حديث من جهة السند ومن جهة الدراسة الحديثية ضعيف، لكن معناه صحيح، قد يقول قائل: كيف يكون الحديث ضعيفا، ونقول المعنى صحيح؟ أنا لم أثبت به إيجابًا،

عندما أوجب على الناس أن يفعلوا أولاً كتاب الله، ثم سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، ثم أقول برأيي، لم أقل به هذا، ولكن معناه صحيح، وهو الواقع والحقيقة التي عاشها الصحابة، فالحديث لا يصح سندًا، ولا يجوز الاحتجاج به لقطع الخصم والمخالف.

- هل يجب لطالب العلم -أو على طالب العلم، لا بأس، يعني أخونا السائل يجيز التناوب في حروف الجر، وهي مسألة خلافية في النحو-، **هل يجب على طالب العلم أن يتعلم بعض مسائل المنطق حتى يفهم كتاب الله وسنة رسوله؟**

أعوذ بالله، لا يحتاج، هنا انتبهوا، لا يحتاج مفسر القرآن إلا إلى اللغة، قد يقول: ألا يحتاج إلى السنة؟ هذا يرجع إلى ما تكلمنا فيه. لا أريد أن نعود في كل مسألة هكذا تُقرر، القرآن: { وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ **حُكْمًا** عَرَبِيًّا }، حكمًا، أنزلناه قرآنًا عربيًا، فالقرآن لا يُفهم إلى على أساليب العرب، وما فهمه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فهِمَه على أساليب العرب؛ ولذلك نقول: نحن لا بد من اللغة العربية، لا بد من السنة، لا بد من فهم تفسيرات السلف لأنها ضرورية لنا في مراتبنا، وإلا فالقرآن عربي. أما المنطق، نحن على مذهب ابن تيمية -رحمه الله- أنه لا نفع فيه، لا في أسلوبه ولا في تقريراته، لكن إن وُجد في كتب علمائنا علينا أن نفهم ما يقولون، وكيف ردوه ولماذا ردوه، هذه مسألة بين العلماء.

- السؤال الثاني: ما هو اسم كتاب مصطفى صبري الذي تكلم فيه عن خطورة فكر جمال الأفغاني، وهل يمكن أن تحدد ....

هذا السؤال خارج الموضوع، وإن شاء الله تسأله يا حبيب غدًا السبت الساعة التاسعة، أسيادي ومشايخي قالوا لي لا تجب عن أسئلة خارج الموضوع، لكن كتاب مصطفى صبري ارجعوا إليه، ربما هو موجود في الإنترنت، كتاب عظيم، هذا كتاب عظيم لشيخ الإسلام في الدولة العثمانية عند سقوطها وهو يدل على أن .... نعم، إن شاء الله شيخ مشتاق، طيب أحد عنده سؤال آخر؟

جزاكم الله خيرًا وبارك الله فيكم وجزى الله الحضور خير الجزاء وجزاكم الله خير الجزاء على تحملكم لنا، والحمد لله رب العالمين.

سؤال جديد هذا الآن وصلني من الشيخ مشتاق.

- في الرسالة للشافعي عدة مرات يقول: حدثني الثقة ...

الثقة هو، يعني هناك كثير، لكن أغلب من هو الثقة في كتب الشافعي هو محمد بن إبراهيم التيمي، وهو غير ثقة، لا بأس، هو غير ثقة، هذا ثقة عنده، وعلماء الحديث يستدلون على أن توثيق الراوي للرجل ليس كافيًا، فهو ثقة عنده ولكن ليس فقط هو، ليس هو فقط، لكن أغلبه هو محمد بن إبراهيم التيمي، وهو ليس ثقة عند أهل الحديث، هذه ليست مسألة في الأصول لكن لا بأس.

- ما حكم الذي يقول فيه الشافعي الثقة؟

السؤال خطأ، انتبهوا يا إخوة، كونوا طلبة علم، يسأل الأخ يقول: ما حكم الحديث الذي يقول فيه الشافعي: حدثني الثقة؟ لو سألت السؤال التالي، آسف لأننا علينا أن نتعلم كيف نسأل، لأن السؤال نصف العلم، لو قلت: ما حكم السند الذي يقول فيه الشافعي، حكم **السند**، انتبه، هناك فرق بين الحديث والسند، السند الذي يقول فيه أي عالم ذكر هذا أنه مبهم، يسمى عند أهل العلم بالمبهم، الثقة مبهم، والمبهم ما لم يكن صحابيًا أو كان معلومًا عنه أنه إذا قلت لكم حدثني الثقة فهو فلان ثم تبين أنه ثقة فسنده ضعيف، أقول وجود المبهم في السند يضعفه، لكن هل هذا تضعيف للحديث؟ هذا يعرفه طلبة الحديث أنه لا، لأنه قد يكون الحديث له أسانيد أخرى، وجزاكم الله خيرًا.

- ولماذا لم يصرح باسم الراوي؟

دخلنا في درس المصطلح، طيب وقد بدأنا كما قلت، لماذا لم يصرح باسم الراوي؟ لم يصرح باسم الراوي لأسباب متعددة، منها ما هو سياسي، ومنها ما هو اجتماعي، ومنها ما هو عِلمي، ومنها ما هو على سبيل الإكثار، أنه ثقة عنده وأراد أن يوثقه.

أما سبب سياسي فيقول "الثقة" مخافةَ الرقباء، لو قال رجل: حدثني سعيد بن جبير في زمن البحث عن سعيد، لقيل له: أين قابلت سعيد؟ ووقعت مشكلة، فيقول حدثني الثقة، هذا سبب موجود. سبب آخر أن يقوله لسبب علمي، لو

قال اسمه في الكوفة لضربه الناس لأنه قد يكون في مسجد فيه كثير من الروافض، وقد حدث مع النسائي هذا، فإنه لما دخل الشام وقال له أهل الشام حدثنا بفضائل معاوية -من قديم يميلون إليه-، فقال: لا يكفي أنه يخرج رأسًا برأس حتى يكون له حديث، قاموا إليه وضربوه على خصيتيه حتى مات، ويقال أنه لم يمت في تلك الحادثة، لكن بقي متألما حتى مات في الرملة إلى آخره، الأسباب كثيرة، ضربت لكم بعضها وهناك كثير، مرات العالم يقول: حدثني الثقة ليغِير أمامه أنه الثقة، وأنتم تعلمون من أقصد فهو ثقة عندي، وهكذا، أسباب كثيرة لأهل العلم في هذا الباب، وليس هناك من سبب يفيد في الصناعة الحديثية، إنما هو من فضول العلم، طيب.

جزاكم الله خيرًا وبارك الله فيكم والحمد لله رب العالمين.

□

الدرس [١٨]

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، والصلاة والسلام على سيد الخلق وإمام المرسلين والأنبياء والصالحين، محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، اليوم هو الدرس الثامن عشر من دروس شرح كتاب الإمام الشاطبي، وصلنا إلى المقدمة السابعة أيها الإخوة الأحبة، اقرأ يا أبو عمر، وجزاكم الله خيرًا.

"كل علم شرعي فطلب الشارع له إنما يكون من حيث هو وسيلة إلى التعبد به لله تعالى، لا من جهة أخرى، فإن ظهر فيه اعتبار جهة أخرى؛ فبالتبع والقصد الثاني، لا بالقصد الأول،

والدليل على ذلك أمور:

أحدها: ما تقدم في المسألة قبلُ أن كل علم لا يفيد عملا؛ فليس في الشرع ما يدل على استحسانه، ولو كان له غاية أخرى شرعية؛ لكان مستحسنا شرعا، ولو كان مستحسنا شرعا؛ لبحث عنه الأولون من الصحابة والتابعين، وذلك غير موجود، فما يلزم عنه كذلك"

بس، جزاك الله خيرًا، وقفنا عند هذه الكلمة العظيمة للإمام أبي إسحاق وهي الدالة على مقصد بعثة الأنبياء، والدالة على مقصد الشريعة، وهذه الكلمة لو راجعتم ما تقدم من تفسير وتعريف كلمة الدين لوجدتم أن هذه مِن هذه، وهي قول الذين عَرَّفوا الدين بقولهم هو "وضع إلهي سائق لذوي العقول إلى ما يصلحهم" أو إلى خيرهم في الدنيا والآخرة. الآن وضع إلهي سائق لمنفعتهم، ما هو مقصد هذا الدين كله؟ وهو تحقيق العبودية لله. فكل علم لا يحقق في نفس صاحبه الخشية، وكل علم لا يحقق في نفس صاحبه ولا في قلب صاحبه التقوى، وكل علم لا يرفع من شأن طالب العلم في عبوديته لله، وفي ترقِّيه في فهمه عن الله، وفي إقبال إرادته ودفعها لتحقيق مزيد من العبودية، فهذا علم مغشوش؛

ولذلك سألني سائل أيها الإخوة الأحبة: بعد هذا التطواف في هذه الحياة والجماعات والناس، وذهبتَ، فماذا وجدتَ من خلاصة هذا التطواف وهذه الحياة وهذه القراءة؟ فقلت له ما قلت لكم مِن أنني وجدتُ كل نظر في الكون -وليس الكون المقصود به المادية في الشمس والقمر، فهذا جزء من المراد-، فوجدت أن كل نظر في الحياة، حتى في كفر الكافر، وحتى في كلمة الكفر، وحتى في حركة الناس، وحتى في كُتب من كَتب على أي وجه كتب من الإسلام أو الكفر

أو من لفظ الكلام، فوجدت أنها كلها تُوصل إلى هذه الكلمات الأربع: سبحان الله، الحمد لله، لا إله إلا الله، الله أكبر. هذه يجب أن تفهمها، فكل حالة أنت يجب عليك أن تستثمرها.

أنا أقلب دليل الشاطبي هنا، الشاطبي قال أن كل أمر أتى به الشارع مقصود به التعبد، أنا أقول أن كل أمر في الوجود يحقق التعبد، إن كل أمر في الوجود يحقق التعبد لله إذا صرفته على المعنى الذي أقامه الله -عز وجل- شرعًا أو قدرًا. يعني لو واحد قال: لماذا يوجود الكفر؟ لعلِمت أن وجود الكفر دال على وحدانية الله، وعلى عظمته، وعلى حكمته، وعلى عزته، وعلى عدله، إلى غير ذلك من الصفات الدالة على أن الله لم يُقِم كونًا إلا للدلالة على صفاته -جل في علاه-، ولم يقم شرعًا لم يدل على هذا. الآن وكل علم لا يوصل إلى هذا المطلوب فهو لا قيمة له. وأنا أنبه على هذه النقطة: إن تأملك -انتبهوا لهذه الكلمة،- إن تأمُّلَك يا طالب العلم فيما هو دال على المراد -وهو الله- على طريق المباشرة -انتبهوا، انتبهوا لما أقول-، إن تأملك أيها المريد، أيها السالك، يا طالب العلم، إن تأملك لما أمر الله -عز وجل- به من الشرائع ليوصلك إلى عبودية الله، هو تأملُّ الأمر الذي يوصلك إلى هذا المراد مباشرة، فإذا تأملت الصلاة توصلك إلى هذا المعنى مباشرة، الزكاة، الحج، هذا التأمل الذي يوصل إلى المراد مباشرة، هو تعليمٌ لك بِأَنْ تتأمل ما لا يوصلك إلى المراد إلا بعناء واجتهاد؛ فإنك تبدأ بطالب العلم لوصوله إلى المعاني بما هو من أمثلة مباشرة، سهلة لا التواء فيها، لكن ليس كل دليل يوصل إلى المراد يؤدي إليه مباشرة، لا بد أن يكون له التواءات، ومثال ذلك: ما لو وضعت لرجل سرا وجعلت له سبلاً طويلة، هذه توصل إلى هذه وهذه توصل إلى هذه، على طريقة المعادلات الرياضية، فهذا يحتاج إلى عقل وتفكر، ولذلك لا بد أن ننتبه لهذا.

الأمر الذي يريده الشاطبي -رحمه الله-، وقد قلنا لكم في الدرس الفائت: تأملوا هذه الكلمة، لأنها دالة على عبودية هؤلاء القوم لربهم، هم يستحضرون الله -عز وجل- في سكناتهم، يستحضرون الله -عز وجل- في حركاتهم، يستحضرون الله حين يكتبون، يستحضرون الله -عز وجل- حين يدعون؛ ولذلك كما ذكرنا من مدح علمائنا لبعضهم بعضًا في قولهم لرجل منهم: هو أنزع الناس لآية، كانوا يصفون الرجل بأنه أوقفُ الناس لنِيّة، وممن يُذكر عنه هذا البخاري -رحمه الله-، يقول عنه أصحابه: ما رأيناه فعلَ فعلاً وسألناه إلا وجدناه قد استحضر النية في عبودية الله، نية عبودية الله في هذا الفعل، لا يتحرك حركة ونقول: ماذا يريد منها؟ كيف ربط هذه الحركة بعبودية؟ ماذا يريد منها؟ فيسألونه فيجدون عنده الجواب أنني أردتُ هذا من أجل كذا وكذا، هو عبودية لله -عز وجل-.

فإذا كانت هذه المعاني من السلوك توصل لهذا المعنى، فمن باب أولى العلم الذي أنزله الله –عز وجل– على رسوله دال على هذا المعنى، يجب عليك أن تتأمل هذا وأنت تقرأ، وأنت تتعلم، وأنت تجلس، وأنت تذهب، أن تتعلم هذا المعنى وهو أن تستحضر عبودية الله –عز وجل–، ما معنى أن تستحضر عبودية الله؟ أُخبركم بأمر، لو أنك سجدت لله، وسأتحدث عما هو مباشر –وأرجوا أن تفهموه لا على جهة فقط أن تدخل المعلومة إلى الذهن، ولكن أن تدخل إلى القلب–، لو سجدت لله –انظر إلى هذا، انتبه له–، لو سجدت لله فقلت: سبحان الله، فيشترك في هذه الكلمة مقصدان: مقصد تحقيق الأجر، هذا أبعِدْه، مع أنه عظيم لكن أبعده، ولكن انظر –وهنا أقول لكم– انظر إلى ربك، أيفرح لقولك أم لا؟ وأنت ساجد افعلها، عندما تصلي بعد قليل الضحى، فسجدت، أنا أقول "سبحان الله" أطلبُ الأجر، هذه نية صالحة لكن أبعِدْها، وقل في نفسك: يسمعني ربي، أيبتسم لي؟ أيضحك لي؟ أيفرح ربي؟ تأمل هذه المعاني، حينئذ قد وصلت المراد، لا تهتم أن تُحَصل الأجر وهو حاصلٌ، ومطلب تحصيل الأجور مقصد عظيم، لكن أعظم منه أن تُحصل رضى الله، ولذلك قال في الحديث: (اليوم أحللت عليكم رضواني)، قالوا أعطيتنا الجنة، أخذنا الأجور، أخذنا ما ينفعنا وما هو ليس من قبيل إلا الجزاء فقط، وليس المعادلة وليس الثمن، ولكن اليوم –هكذا وصل أهل الجنة–، هذه معرفة يصلها أهل الجنة وهي أعظم ما يصل إليه المرء من المعاني. أعود وأقول: هذا المعنى يوافق –انتبهوا لهذا–، هذا المعنى الذي ذكرته يوافق عُلو العلم الذي وصل إليه أهل الجنة، وهو منتهى الطلب من العلوم كلها، حين يتلذذون –انتبه–، حين يتلذذ أهل الجنة بأن رَضي الله عنهم، تصبح لذتهم الأعظم والأبلغ أن الله رضي عنهم. هم قبل ذلك لم يصلوا إلى هذه المعاني بل وصل إليها بعضهم، ولكن أهل الجنة جميعهم وصلوا إلى هذه المرتبة أن تصبح اللذة العظمى وهو أن يرضى الله عنهم، نظروا إلى وجه الرب فرأوه يبتسم لهم ويضحك لهم، فهذا منتهى الطلب، تأمل هذا، عِشه، عشه للحظات! وهذا المعنى قد لا يحضر في ذهنك في كل وقت، لكن تتدرب عليه، تتدرب عليه في سجودك، في ذكرك، أنا ماذا أطلب من هذا الذكر؟ الآن الله يذكرني، ماذا يذكرني؟ فرح لي، الله –عز وجل– الآن يفرح، فأنت إذا تعاملت مع هذا المعنى في عبوديتك لله صِرت عابدًا لربك حقًّا، تأمل هذا دائمًا.

إذًا هذه الكلمة من أئمتنا، تدل هذه الكلمة من كلام الشيخ أبي إسحاق على استحضار هذا المعنى عند كتابة العلم، وعند تحصيل العلم، وعند العمل بالعلم، لأنه تحدث على أن مقصود العلم هو العمل، الآن يتحدث عن ماذا؟ عن مقصود ذلك، مقصد المقصد.

مقصد العلم هو العمل، مقصد المقصد هو أن يكون العمل لله -عز وجل-، انتبه لهذا جيدًا، لأنه هو الفارق بينك وبين غيرك في المراتب، مراتب الإحسان، أن تعبد الله كأنك تراه.

الآن انتهينا من هذا المعنى التربوي، ونأتي إلى المعنى الأصولي وهو مهم جدًا، هذا المعنى الأصولي مهم جدًا، انظر إلى هذا الإمام العظيم كيف يخلِط على طريقة القرآن الحديث بين التربية -أي تنقية النفس- وبين تنقية العقل، القرآن لا يُحدث النفس فقط بلا علم، ولا يحدث العقل بلا نفس، بل هو يُربي النفس لتعمل، ويربي العقل من أجل أن يُدرك، فهمتم؟ هذه طريقة القرآن، وهذه طريقة أئمتنا مما تعلموه من القرآن، انتبه لكلام الإمام، طوَّفْنا مع هذه الكلمة الجميلة، تأملناها، هي دُرة، من أين أتيت بها؟ أشرقت عليك أنوار عظيمة في قلبك، الكلمة درة، لكنها ليس لها وجه واحد، قلِّبها، فستشرق عليك بأنوار مختلفة، "كل علم شرعي فطلب الشارع له إنما يكون من حيث هو وسيلة إلى التعبد به لله تعالى"، ولا تهتم بأن تعبر عنها في الابتداء، هذه كلمة أخذناها من الشافعي، أليس كذلك؟ هذه كلمة أخذناها من الشافعي: إن من العلم ما يخطر على بالي لا أستطيع أن أبلغ عنه، هذا الشافعي إمام من بلغ عما في نفسه، ومع ذلك يقول: "أعجز"، لا تهتم، لا تهتم، ستقول في قلبك، ليت الناس يعلمون ما في قلبك، لا تهتم بها الآن، فقط عشها، تلذذ بها، طوِّف بها، طيب.

انظر إلى كلمته -رحمه الله-، الآن جئنا إلى الأصول، هذا أصل الأصول، الذي تكلمنا عنه في الأصل هو أصل الأصول، هو كل شيء.

قال: "كل علم شرعي فطلب الشارع له إنما يكون من حيث هو وسيلة إلى التعبد به لله تعالى لا من جهة أخرى"

ما المقصود؟ يعني الشيخ في كلامه بأنه قد يحصل -وهذا من المقاصد-، قد يحصل للعبد بهذا التعبد مقاصد أخرى، من جهة نفسه ومن جهة الحياة، واضح؟ من جهة نفسه قد ينتفع بها، ومن جهة الحياة مثل الصوم، يتحدث الناس عن الصوم وفوائده، يتحدث الناس عن الزكاة في محبة الناس له إلى آخره، يتحدث الناس عن الجهاد المقاصد التي يحققها، لكن هذه المقاصد، ماذا؟ هي مقاصد أخرى، مقاصد تبعية، انتبهوا، لأنه سيرتب عليها أمورًا عظامًا أذكر منها شيئًا حتى نأتي إليها فنشرحها الشرح اللازم.

يقول: "فإن ظهر فيه اعتبار جهة أخرى؛ فبالتبع والقصد الثاني، لا بالقصد الأول"

ماذا يريد الشيخ أن يقول؟ يقول أن هناك أصل وهناك تبع، فوجود التبع لا يُلغي الأصل، هذه **واحدة** اكتبوها، فوجود التبع لا يلغي الأصل، هذا واحد، **ثانيًا** وجود التبع ليس مُلغيًا للأصل. ما الفرق بين الأولى والثانية؟ الفرق أن الأولى هي عملك أنت، ماذا قلنا في الأولى؟ "وجود التبع لا يلغي الأصل"، بمعنى أنك أنت عليك -هذه القاعدة التي سأذكرها-، أن عليك ألا تُلغي الأصل برفع درجة التبع عليه، ولذلك يقول الشاطبي -هذه ضعوها بين قوسين-: "كل فرع عاد على الأصل بالإبطال بطل"، هذه نأخذها ونعيدها، يقول الشاطبي فيما يأتي من كلامه -عليه رحمة الله-: "وكل فرع عاد على الأصل بالإبطال بطل". يعني هناك أصول وهناك فروع، هناك أمور أصلية وهناك أمور تبعية، لا يجوز للتبعية أن تلغي الأصل، فلو عاد التبع على الأصل بالإبطال -أي أبطل التبع الأصل-، يجب أن نلغي التبع، يبطل، لا يجوز أن نعتبره؛ إذًا هناك صراع بين تبع وأصل، الآن **هذه واحدة**، انتهينا منها وهي فعلك أنت.

الثانية تُقرر أنه لا بأس أن يكون هناك تبع، وهذا هو ما يتحدث عنه علماؤنا من حِكم الأمور، ومن حِكم التعبدات، ومن حِكم الأعمال، ومن حكم التشريع؛ فإن الحديث عنها ليس من الشر في شيء، يعني أن الشارع لا يقصد من الفعل قصدًا واحدًا، له قصد أصلي وله مقاصد تبعية، فوجود المقاصد التبعية أمر مقرر من قبل الشارع، إذن كلامنا الثاني يعطي شرعية الحديث عن تبعية المقاصد.

وهنا مسألة نأتي إليها في القياس، هل يجوز -انتبه-، هل يجوز أن يعلَّل الحكم بأكثر من علة؟ الجواب نعم. بل يجوز أن يكون له علة أصلية وعلل تبعية، واضح الكلام؟ هذا هو، إذًا هو يقرر هذه التقريرات البيِّنة الواضحة. لو سأل سائل: كيف تُعرف؟ فكلامه سيُبينه في المقاصد -انتبهوا انتبهوا-، إذًا الشيخ في ذهنه وهو يكتب هذا، ما قرَّره بعده في المقاصد أن أعظم المقاصد هو أن تُرضيَ ربك، واضح؟

هذه كلمة تقال أيها المشايخ، كما ذكرت في حديث: (ما الفقر أخشى عليكم)، للأسف هذا كلام يخاض به على جهة التربية، ولا يخاض به على جهة الفقه والأصول، وهذا من الجهل بمكان، هذا الكلام، وهو أن ما تقوله من قضية إرضاء الله، هذه قضية لها علاقة بالتربية، وأين علاقتها بالأصول؟ أين علاقتها بالفقه؟ هذه هي أس الفقه، وما تسمعونه

من الفتاوى المتسيبة، وما تسمعونه من إلغاء حق الله مقابل مصالح البشر، وما ترونه من الفتاوى التي لا تقام على جهة الحق والدليل، مبعثها هذا الأمر، وهو إلغاء النظر إلى رضى الله -عز وجل- في المسائل، هذا الكلام أدى بنا إلى ما قاله الشاطبي بأن الإجماع مُنعقد -انتبه، هذه تأتي في المقاصد، الله يحيينا حتى نصل إليها-، هذا الذي قلناه هو الذي قرره أبو إسحاق في المقاصد حين قال: "إن الإجماع على أن ضرورية الدين هي أعظم الضروريات في الوجود"، الإجماع منعقد يا مشايخ على ماذا؟ على أن ضرورية الدين مقدمةٌ على كل الضروريات الأخرى، فلو تعارضت ضرورية الدين مع ضرورية الدنيا، ما الذي يقدم؟ لماذا شرع الله الجهاد مع أن فيه قتل النفس، وإهلاك المال، ومفارقة الأوطان، والتعب والنص؟ دل هذا على أن الله يحبه، ولما كان الله يحبه فدل على أن ضرورية الدين مقدمةٌ على ضرورياتك أنت، اللي هي التبعية، النسل، والمال، والعقل وغير ذلك، واضح؟ إذًا من أين مبنى هذا؟ مبنى هذا على أصل الدين، وهو قضية عبوديتك لربك.

الآن انظروا إلى الناس، انظروا إلى المفتين، هل يتحركون على وفق هذا؟ ولذلك لما يقول: (ما الفقر أخشى عليكم، أخشى عليكم أن تفتح عليكم زينة الدنيا وزهرتها فتنافسوها)، نعم هنا المشكلة، حين تختل موازين الضروريات في نفسك، حين تصبح ضرورية الدين عند الفقيه مؤخرة، وضرورية الدنيا بل زهرتها هي المقدمة، حين يصبح الحديث عن الربا حديثا عن مصلحة شخصية، والحديث عن سفور النساء مسألة شخصية، إلى غير ذلك.

فإذًا المسألة ليست متعلقة بالتربية السلوكية فقط ولكنها داخلة في أصول الشريعة، وداخلة في الفقه، وداخلة في النوازل، فالمطلوب من الفقيه حين تُعرَض عليه مسألة -انتبهوا-، الفقيه، المجتهد حين تُعرض عليه مسألة من مسائل النوازل عليه أن يخلو إلى زاويته، فيجلس ويأنس إلى الله ليراقب ربه -جل في علاه- ماذا يحب في هذه المسألة وماذا يكره، ولا يمكن -هذا المهم، بعدها هذه فهمناها-، **ولا يمكن للمرء أن يفهم أنيسه إلا بطول الصحبة**، مفهوم الحكي ولا ليس مفهوم؟ ولا يمكن للمرء أن يفهم أنيسه إلا بطول الصحبة. واحد ليس له صحبة مع الله، أعتذر لهذه الكلمة هذه من جهة الإخبار، واحد يقول صاحب لله، نقول من جهة اللغة ومن جهة الإخبار، -هذه تعمل مشكلة، الناس واقفين على الكلام بجهل، اليوم الجهل كثير، واحد يقول هل يجوز أن نقول "صاحبه لله"؟ نقول من جهة الإخبار نعم، لأن علماءنا قرروا أن باب الإخبار أوسع من باب الإثبات، المهم نعود نبقى، لا نريد أن نخلط العلم بما هو ضروري من حياتنا وسلوكنا-.

فمن لم يأنس بالقرآن ولم يطل صحبته لا يفهمه، ومن لم يأنس بالسنة ولم يطل صحبتها لا يفهمها، ومن لا يأنس بهما لا يفهم ربه، ومن لا يفهم ربه ولا يعلمه على جهة تعلم ما في نفسه ولا يتحدث عن الله حديث الأنيس لأنيسه، هذا لا يصيب الحق، لا يعرفه، هو طول عمره جالس مع الناس، وهذا يقول له دنيا، وهذه الزوجة تطلب، وهذا كذا، والدنيا يتحدثون، وهو يجلس مع الناس ويأنسهم، ويعرف ما يضرهم وما ينفعهم، ما يؤذيهم في نفوسهم وما لا يؤذيهم، ولا يعرف ربه ما يحبه وما يكرهه، حينئذ الفتوى تخرج على وفق هذا الأمر، على وفق هذه النفسية الغريبة، واضح الكلام؟ أرجو أن يكون واضحًا.

إذًا الشيخ هنا ذكر لنا مقاصد أصلية في كل عمل، هناك مقاصد أصلية وهناك مقاصد تبعية على ما قررنا، فلا يجوز للفقيه أن يقدم المقاصد التبعية على المقاصد الأصلية، ومعرفة هذا بالعودة إلى الشريعة على ما بيَّنا، وكذلك اعترافٌ من الفقيه بأن هناك مقاصد تبعية والحديث عنها شرعي، وليس في ذلك بأس، انتهينا من هذا، الآن نأتي إلى كلام الشيخ – رحمه الله–.

يقول: "والدليل على ذلك أمور"

قدم لنا أنه ما تقدم في المسألة قبل:

"أن كل علم لا يفيد عملًا"

وقد وسع دائرة العمل في الأول، أليس كذلك؟ أدخل فيها التربية والقلب، نعم، لا تخلطوا ولا تنسوا،

"فليس في الشرع ما يدل على استحسانه"

أي كل علم لا يورث عملًا وتقوى فليس من الشرع، هذا يدل على استحسانه.

قال: "ولو كان له غاية أخرى شرعية، لكان مستحسنًا شرعًا"

هذه قاعدته، إذًا استحسان الشرع لأمر لأنه يحقق مقاصد الشرع، هذه قاعدة، استحسان الشرع لأمر لأنه يحقق مقاصد الشرع، أنت الآن اذهب بهذا، ما دام أن الشيء يحقق مقاصد الشرع فهو مطلوب شرعًا فهو حسن في الشرع، لأنه قد يقول الآن: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ} يحقق لهم مقاصد الشرع إلى آخره.

قال: "ولو كان له غاية أخرى شرعية لكان مستحسنًا شرعًا، ولو كان مستحسنًا شرعًا لبحث عنه الأولون"

هذه قاعدة نحن نعرفها، ذكرناها وهو أن كل شيء **كان موجبه** -هذه شرط-، كان موجبه في عصر الصحابة ثم لم يكن، لا يعتبر شرعًا، بس شرط هذه قاعدة ذكرناها، وأعيدها وأقول: إن كل أمر لم يكن عند الأولين **مع حضور موجبه** -شرحناها ارجعوا إلى الأشرطة، مع حضور موجبه هذا شرط- فليس من الشرع في شيء، وهذه مشروحة للإمام أبي إسحاق في (الاعتصام)، حضور موجبه مهمة ذكرناها ولا نريد أن نقف عندها، إلى هنا.

يقول: "لبحث عنه الأولون"

إذًا هذه قاعدة: العلوم الشرعية التي حضر موجبها ولم تكن عند الصحابة فليست من الشرع في شيء،

"وذلك غير موجود فما يلزم عنه كذلك"،

ما يلزم عنه أي ما يترتب عليه فليس كذلك، لأن لازم الشيء له حكمه، طيب اقرأ يا شيخ.

"والثاني: أن الشرع إنما جاء بالتعبد، وهو المقصود من بعثة الأنبياء -عليهم السلام-كقوله تعالى: {يا أيها الناس اتقوا ربكم} [النساء: ١].

{الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير، ألا تعبدوا إلا الله} [هود: ١-٢].

{كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد} [إبراهيم: ١].

{ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين} [البقرة: ٢].

{[الحمد لله] الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون} [الأنعام: ١]؛ أي: يسوون به غيره في العبادة؛ فذمهم على ذلك.

وقال: {وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول} [المائدة: ٩٢].

{لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات} [الكهف: ٢].

{وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون} [الأنبياء: ٢٥].

{إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين، ألا لله الدين الخالص} الآية [الزمر: ٢-٣]"

جزاك الله خيرًا، الحقيقة، أنا فقط أحب أن أمتعكم بما أتمتع به، نحن نجلس لنتمتع بكلام أئمتنا فقط، واحد سألني عن كتاب من كتب اللغة القديمة فلم أجبه البارحة، قال: ماذا تقول في كتاب كذا وكذا؟ لكن أول ما خطر على بالي:

من نحن حتى نحكم على كلام علمائنا؟ دورنا أن نفهمه، دورنا فقط أن نفهمه، فقط، الدور دورك أن تفهم كلام العلماء، أولا افهمه، تخالف بعدين بس تصير مش مشكلة، بس الأول أن نفهمه.

ما يهمني هنا، الشيخ -رحمه الله- جاء إلى الآيات الدالة على هذا المعنى، وهو أن مقصود الشارع حصول التعبد، وانظروا إليه -عليه رحمة الله- أنه لم يسق الآيات على وفق ورودها في القرآن صحيح؟ وإلا لكانت الآية {الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ} هي أول آية لأنها هي التي في سورة البقرة، ولكنه بدأ لنا بآيات أخرى، لو تأملتم هذا السبب، لو رأيتم السبب الذي دفع الإمام لهذا، هل هو على جهة ما خطر على باله فيكتبه؟ أنا لا أتصور أن علماءنا ينثرون الكلام على هذا المعنى، أنا لا أتصورهم، وذلك لخبرتي بكلامهم، لا يفعلون هذا، يأتي أحد يقول: أنت تفلسف وأنت تتوقع أن كل شيء مربوط بحكمة، يعني هكذا فهمت كلام العلماء، ولما تأملته على هذا المعنى وجدته مطَّرِدًا، أن العلماء لا ينثرون الكلام هكذا يرمونه يقولون: اذهب، خذه، لماذا؟ لأنهم يتعبدون الله، جماعة يتعبدون الله ما يضحكوا على الناس ويلفقوا عليهم، لما يتعبد المرء ربه يجري على قوله -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله يحب من العبد إذا عمل عملًا أن يتقنه)، يجري على هذا، ويريد أن يعبد الله، ويريد لهذا الكتاب يوم القيامة أن يأتي في صحيفته، فهو لا يريده إلا على معنى من معاني الحكمة التي يحبها الله والتي تُظهر علمه، **هذا واحد**، أنا أفهم هذا من كلام علمائنا، **وثانيًا** أنهم يستحيون من الناس، الأولى هي استحياء من الله أن يقدموا له عملا غير متقن، يستحيون من الله أن يقدمون عملًا غير متقن، كمن يقدم صدقة ليست طيبة، هذا لا يستحي من الله، فالذي يستحي من الله يقدم له الطيب، وكذلك هم يستحيون من الناس، وأعظم الناس أمامهم هم العلماء، هو يريد أن يقدمه للعلماء، والعلماء لهم عقول نفاذة، وبصائر قوية يلتقطون هذا الكلام ويفهمونه، يعرفون ويمشون معه، فهذا الذي يدفعني أن أقرأ كلام العلماء بهذا النظر، وهو أنهم لا يرتبون كلامهم على غير وفق الحكمة، بل يرتبون كلامهم على وفق الحكمة، هذا مبدأ من مبادئ قراءة التراث؛ ولا أدري أقلتها لكم أم لا، لكني أقولها هنا -انتبه-: إن الأمة ما ورثت ولا أنشأت علمًا إلا من القرآن، صحيح؟ وسر القرآن امتحان صاحبه، قلتها هذه؟ سر القرآن امتحان صاحبه، لا يوجد على ظهر الأرض كتاب يمتحن صاحبه كما يمتحن القرآن قارئه، القرآن يمتحنك ويمر، كيف يمتحنك؟ كما تمتحن -ولله المثل الأعلى- أنت ابنك بتخبئة الجواهر له وتقول له: ابحث عنها، انظر، اقرأها على هذا المعنى، فهو يمتحن صاحبه، يمتحن قارئه، هذه الجواهر، ابحث عنها، لماذا يُرتب، وهكذا.

ولذلك العلماء أنشؤوا العلوم كلها في القرآن على وفق امتحان القرآن لهم، كيف؟ ما معنى هذا الكلام يا مشايخ؟ أن العالم يأتي ويقول: علم المناسبة -مثلًا، أضربُ مثالا بعلم المناسبة-، ما معنى علم المناسبة؟ هو علمٌ موجود في أذهان علمائنا القدماء لكنه نشأ متأخرا، وهو المناسبة بين الآيات، هذه الآية لماذا أتت قبل هذه الآية؟ لماذا؟ فهذا امتحان، هو يسأل، كيف نشأ السؤال لديه؟ لأنه يعلم أن القرآن يمتحنه، لأنه يعلم أن القرآن يمتحنه ويقول له: اِعلم أن هناك سر! من أين نشأ هذا السؤال؟ نشأ هذا السؤال لأن العالم يعلم أن القرآن يمتحنه، علم المناسبة بين الآيات، علم المناسبة بين مقدمة السورة وخاتمتها، كيف يتم التوافق بين بداية السورة وبين نهايتها؟ علم التوافق بين بداية السورة ونهاية السورة التي قبلها؟ هذا عِلم، لماذا ينشأ هذا العلم؟ لماذا؟ كيف أنشأه العلماء؟ سؤالي لكم، كيف قال العلماء بأن هذا علم؟ لأنهم يعلمون أن القرآن يمتحنهم، واضح الكلام؟ فالقرآن يمتحن صاحبه، لماذا؟ قال هنا كلمة "هذه" ولم يقلها في سورة أخرى وفي آية هي على وفقها تمامًا؟ لماذا؟ هذا امتحان، القرآن يمتحنك، لماذا جاء بحرف الواو: {وفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا} عند دخول المؤمنين للجنة، ولم يأت بحرف الواو في سورة الزمر، ولم يذكر الواو عندما ذكر الكافرين؟ لماذا قال -سبحانه وتعالى-: {يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ}، وفي سورة إبراهيم جاء بحرف الواو؟ لماذا جاءت، لماذا هذا، لماذا؟ ماذا يقول القرآن لك؟ يقول أنا أمتحنك، تفكَّر، وهل ينتهي هذا العلم؟ لا ينتهي.

لماذا يأتي في القرآن قوله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} في سورة الحشر، وتكون في سورة غيرها {وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ} هذه في سورة الأنفال، فيذكر القاف التي تقرر ويأتي باسم رسوله -صلى الله عليه وسلم- في الشقاق، لماذا؟ إذًا القرآن ماذا؟ يمتحنك، يقول لك انظر، لأنه كلام الحكيم وكلام العظيم، فلو كان كلام غيره لقال: ما يدلني على أنه هناك معنى؟ انتهينا؟ هذا المعنى ورثه علماؤنا لأنهم يذكرون من العلم ويتركون.

ولذلك يأتي علماؤنا ويقفون عند تراجم البخاري، ويقولون سر فقه البخاري في تراجمه، لماذا؟ ويستهزئ بعض المعاصرين من هذا الفن من العلوم، يقولون: يعني تعبونا، هو البخاري كل شيء قاله لازم نفهم أن وراءه شيء؟ نعم؛ لأن البخاري على المعنى الذي تقدم، ماذا قلنا عنه؟ لا يتحرك حركة إلا إذا سئل عنها قال: أردت بها كذا، فكيف إذا كتب كتابًا أراد به حديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- هل يغفل عن هذا المعنى؟ إذًا لا بأس هو يمتحنك، ويمتحنك

هذا العالم يقول لك أنا نثرته ابحث، ابحث، هو يمتحنك وهو يُسِرُّ العظمة، وهكذا، هذا أمر منتشر، إذا قرأت كتب السلف على غير هذا المعنى بقيَت مجرد صناديق مغلقة عليك لا تفهمها.

فإذًا هل تفكرتم؟ هل أترككم مع هذه لتنظروا فيها لوحدكم؟ لماذا قدم وأخر؟

افتتح الشيخ بقوله تعالى لشرح هذه القاعدة -وهو أن الشرح **إنما** (حصر) جاء بالتعبد-: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ}، هو بدأ بالأمر، جاء بما هو أمر وهذا هو الأليق، فلو جاء بالوصف -انتبهوا، **هذه واحدة**-، لو جاء بأن المتقين هم الذين يتبعون شرعه وأوامره، فقد يقول قائل هذا على جهة المدح وليس على جهة الأمر، فلما جاء بالأمر دل على أنه هو الواجب، هو الذي يجب المصير إليه، واضح الكلام؟ فإذًا افتتحه بالأمر: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ}، هذا المعنى موجود أم غير موجود؟ انت تذكر صفة في الرجل، قد تكون هذه الصفة مستحبة، قد تكون واجبة وهكذا، قد تكون من باب الفضول ومن باب الإحسان، لكن أن تأتي بالأمر فدل هذا على أنها من باب الوجوب، من باب العدل: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ}.

ثم التي وراءها مثلها كقوله: {أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ}، ألا تعبدوا إلا الله، وفي هذا معاني كقوله تعالى: {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ}، دل على الوجوب، لماذا؟ لأن الظلمات، هل هي على جهة المدح أم على جهة الاستحباب أم على جهة الواجب؟ الظلمات مذمومة فوجب الخروج منها وجوبًا، إلى آخره، يكفي لا أريد أن أقف كثيرًا لكن تأملوها وهي طويلة جدًا في هذا الباب.

ولكني أقف عند قوله تعالى: {الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون}، العدل، الشيخ اختار كلمة جميلة ويوجد غيرها كذلك من المعاني الجميلة، فالعدل هو المساواة، والعدل هو الإمالة، هذه من كلمات الأضداد يا مشايخ، العدل، تقول عَدل عن طريق، عدل عن الطريق يعني مال عنه، صحيح؟ ميل، فقوله تعالى: {ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ} أي يميلون عن الحق، وسَوَّى العدل بالمساواة، لأن العدل مأخوذ من عدل الشيء، وهو أحد الخُرْجيْن فوق ظهر الدابة، مش الناس يأتون على الدابة فيحطون، هنا خُرج وهنا خرْج، فهذا يسمونه عدل، وعلشان هيك جماعتنا يسمون عديله، ليش عديله؟ لأنه المشارك له من جهة أخرى، يقولون عديله،

لكي تعرف أن جماعتنا ما دام خرجت الكلمات الإنجليزية والتركية والألمانية فَفكِّر في الكلام الذي يستخدمه العرب – حتى العوام– تجد فيه جمالاً، حتى العوام، انتبه لهذا، ما تستهزئ فيهم، صحيح؟

فالقصد أن العدل هو المساواة، والشيء لا يثبت فوق ظهر الدابة من خُرجَيْها إلا بالعدل، أن يكون هذا عِدْل هذا أي مساويا لهذا، فلو حملتها على العدل بمعنى الإمالة لصَحَّ، {الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ}، أي يعدلون يميلون عن الحق، ولو حملتها على معنى المساواة أي يجعلون لله مساويا لصح هذا، واضح الكلام؟ إلى هنا يكفي، نحتاج درس تفسير يا مشايخ، طيب.

وقال: {أطيعوا الله وأطيعوا الرسول}

هذه بعيدة في البيان، أخَّرها، أطيعوا الله، هو أراد أن يقول تعبدوا الله، فهنا يقول: {أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ}، بعيدة في البيان، ليست ظاهرة في البيان كظهور ما تقدم، إلى آخره، ويكفي إلى هنا جزاكم الله خيرًا، ثم ذكر شرط العبادة وهي الإخلاص إلى غير ذلك من طرقهم –عليهم رحمة الله–.

"وما أشبه ذلك من الآيات التي لا تكاد تحصى، كلها دال على أن المقصود التعبد لله، وإنما أتوا بأدلة التوحيد ليتوجهوا إلى المعبود بحق وحده، سبحانه لا شريك له، ولذلك قال تعالى: {فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك} [محمد: ١٩].

وقال: {فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون} [هود: ١٤].

وقال: {هو الحي لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين} [غافر: ٦٥].

ومثله سائر المواضع التي نص فيها على كلمة التوحيد، لا بد أن أعقبت بطلب التعبد لله وحده، أو جعل مقدمة لها، بل أدلة التوحيد هكذا جرى مساق القرآن فيها: ألا تذكر إلا كذلك؛ وهو واضح في أن التعبد لله هو المقصود من العلم، والآيات في هذا المعنى لا تحصى"

لا إله إلا الله، لا إله إلا الله بس، انظر إلى هذا الاستقراء العظيم لهذا الرجل، تأمل بناء كتابه، هذا لكي نتأمل فقط كيف بنى كتابه، انظر هذا الاستقراء فقط، لا أريد أن أوضح، الكلام يشرح بعضه بعضًا، ليس هناك ضرورة أن أشرح

كثيرا من معاني ما يريد الشيخ، ولكني أريد أن أذهب إلى منهجه في بناء كتابه، انظر إلى قوله، جماعة يعيشون مع القرآن، هو يريد أن يقول: اذهبوا إلى القرآن، ليقول ماذا يقول القرآن، ذهبوا إلى القرآن، القرآن أولًا يا مشايخ، لا تردوا عليهم، القرآن مع السنة واحدة.

يقول الشيخ هنا: "هكذا جرى مساق القرآن فيها"

أي في ذكر كلمة التوحيد، الضمير يعود على كلمة التوحيد.

"هكذا جرى مساق القرآن فيها ألا تُذكر إلا كذلك"

أي إنه ذكر التوحيد وذكر العبادة.

"وهو واضح في أن التعبد لله هو المقصود من العلم"

كيف هذا؟ لأن كلمة التوحيد عنده علم، واضح؟ لأن كلمة التوحيد: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ}، لأن كلمة التوحيد علم، والعبادة عمل، هكذا هو عنده، هكذا فسر الكلام، ولا نريد أن ندخل في هذه المسألة، سيقع الشيخ -رحمه الله- في أمور أوضح من هذه لنناقشه، ولكن لا نريد أن نناقشه هنا، نريد أن نفهم كيف بنى كتابه، وهذا دليل على أنه استقرأ القرآن في هذه المسألة، هذا الذي يكفيني الآن، طيب وهو يقول: {فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ}، {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ}، ايش؟ {هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ}، عبادته، وهو إخلاص العبادة له -جل في علاه-، اقرأ يا شيخ.

"والثالث: ما جاء من الأدلة الدالة على أن روح العلم هو العمل، وإلا؛ فالعلم عارية وغير منتفع به"

بيّنٌ هذا، ولذا قال: "العلم يهتف بالعمل فإن أجابه وإلا رحل"، ما الذي يقرر العلم في قلبك وفي قلبي وفي قلب كل أحد؟ هو العمل، العلم يهتف بالعمل، فإن أجابه بأن جاء للعمل فاستقر العلم، وإلا رحل، العلم: شكرا، لا أصلح لك، إذًا ما الذي عند هؤلاء الذين لا يعملون؟ يجلسون فيفتون: "في المسألة خلاف وأرى"، هذه تجدونها عند كلهم ،هكذا يجلسون فإذا سئلوا الفتوى ماذا يقولون؟ وهذه المسألة فيها خلاف وأنا أرى، اجلسوا واسمعوا إن وجدتم غير هذا فراجعوني وخطئوني. كيف يبتدئون؟ كلهم يقولون في المسألة خلاف وأنا أرى، ما شاء الله، هذا هو العلم اليوم، أما العلم الذي يقرب إلى الله فهذا مفقود، بعيد.

"فقد قال الله تعالى: {إنما يخشى الله من عباده العلماء} [فاطر: ٢٨]"

لكن كلمة الروح، ماذا تعني؟ الروح تعني السر، الروح هي سر، فلذلك يستعاض عنها، ما معنى سر؟ هنا انظر، ما هو قوام الإنسان؟ الروح، إذًا السر هو قوام الشيء، هذه افهموها، ولذلك يقول "أسرار الشريعة"، (عنوان التعريف بأسرار التكليف)، ما معنى السر؟ الروح. مما هو الروح؟ هو قوام الشيء. فما هو السر؟ هو قوام الشيء، واضح؟ ما هو الفرق بين عبودية الأنبياء وبين عبودية غيرهم؟ هناك من المشركين من لا يقيم النظر إلا على الهياكل، فهؤلاء لا قيمة لهم، وهناك من الفلاسفة من يزعم أن العبادة قائمة على السر بلا تعبد، أي بلا هياكل فقد ضلوا، فالصواب هو هذا، هو سر الشيء مع وجوده، لأن الشيء لا يقوم إلا بسره، والسر لا يجزم بوجوده إلا بقيام في هيكله، الإنسان لا يمكن أن يسمى إنسانًا إلا باجتماع شيئين، ما هما؟ الروح والبدن، فلو خلا الإنسان من البدن ما كان إنسانًا، ولو خلا من الروح ما كان إنسانًا، وهكذا التعبد.

فالقصد؛ هنا الذي أريد أن أقوله: إذا سمعت كلمة الروح في كلام علمائنا فاعلم أنها مقصد الشيء، واعلم أنها سر الشيء، واعلم أن الشيء لا يقوم إلا بها، فهمتم الكلام؟ هذه كلمة الروح، نعم يا مشايخ، ولذلك ما جاء من الأدلة الدالة على أن روح العلم، روحها، العمل لا قوام له إلا بروحه وهو العلم، العمل.

"وقال: {وإنه لذو علم لما علمناه} [يوسف: ٦٨].

قال قتادة: يعني لذو عمل بما علمناه"

شوف هنا، أول شيء: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} وهذه القراءة الوحيدة، ونُسب إلى أبي حنيفة ما هو مكذوب عليه، وهو ما لا ينبغي أن ينسب إلى عالم قط، فالعلماء هم الذين يخشون ربهم، قد يقول قائل: الجاهل يعبد الله، كيف يعبد الله وهو لا يعرفه؟ وكيف يعرف ربه؟ بالعلم. هو إذًا يعبد شيئًا في ذهنه على غير صفاء، الجاهل يعبد شيئًا في ذهنه على غير صفاء، وأما العالم فيعبد الله كما كان ابن عمر يقول في حجه كما في (صحيح البخاري): "كأننا ننظر إليه"، يعني هو يطوف وهو ينظر إلى الله، طبعًا هذا في عالم المثال، لا أحد يرى الرب في الدنيا كما قال –صلى الله عليه وسلم–: (إنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا).

قوله: {وإنه لذو علم لما علمناه}

طيب إذن هو معلم، قال: يعني ذو عمل، فسمى العلم عملًا، هذا قول قتادة، وقتادة هو ابن دعامة السدوسي، تابعي اتُّهِم بالقول بالقدر ولا يصح عنه، وفيه تدليس يسير، نعم،

"وقال تعالى: {أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة}"

{أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآَخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ}، فقط، {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي}، وبالاستقراء لا توجد كلمة "علم" في القرآن إلا على هذا المعنى، وهو ذكر الدار الآخرة، خذوها مني، جزاكم الله خيرًا، ولذلك ما ذُكر العلم إلا على هذا المعنى: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي}، {أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ...يَحْذَرُ الْآَخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ}، فهؤلاء هم العلماء، {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ}، وهذا ذكر للعلم وللعقل، للعلم وللعقل.

"إلى أن قال: {قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون} الآية [الزمر: ٩].
وقال تعالى: {أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب} [البقرة: ٤٤]"

والمقصود بالبر هو العمل، {تَتْلُونَ الْكِتَابَ} هو العلم.

"وروي عن أبي جعفر محمد بن علي في قول الله تعالى: {فكبكبوا فيها هم والغاوون} [الشعراء: ٩٤]؛ قال: قوم وصفوا الحق والعدل بألسنتهم، وخالفوه إلى غيره"

أبو جعفر هو محمد بن علي المسمى بالباقلي، وجعفر هو جعفر بن محمد، أبو جعفر محمد، جعفر بن محمد وهو جعفر الصادق، نعم، وهذا دليل على أن أهل السنة يأخذون من أهل السنة من أئمة أهل البيت، وأئمة أهل البيت هم أئمتنا لكن الرفض والاعتزال غلب على متأخريهم، كما هو معروف من الراضي والرضا إلى آخره، هذه المسألة لا نريد أن نقف عندها ولا تهمنا الآن.

"وعن أبي هريرة؛ قال: "إن في جهنم أرحاء تدور بعلماء السوء، فيشرف عليهم بعض من كان يعرفهم في الدنيا، فيقول: ما صيركم في هذا، وإنما كنا نتعلم منكم؟ قالوا: إنا كنا نأمركم بالأمر، ونخالفكم إلى غيره".

وقال سفيان الثوري: "إنما يتعلم العلم ليتقى به الله، وإنما فضل العلم على غيره؛ لأنه يتقى الله به"

الله أكبر، نعم يا شيخ.

"وعن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (لا تزول قدما العبد يوم القيامة حتى يسأل عن خمس خصال)، وذكر فيها: وعن علمه ماذا عمل فيه.

وعن أبي الدرداء: "إنما أخاف أن يقال لي يوم القيامة: أعلمت أم جهلت، فأقول: علمت، فلا تبقى آية من كتاب الله آمرة أو زاجرة إلا جاءتني تسألني فريضتها، فتسألني الآمرة: هل ائتمرت؟ والزاجرة: هل ازدجرت؟ فأعوذ بالله من علم لا ينفع، [ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع]، ومن دعاء لا يسمع"

فقط، هنا فائدة نذكرها، سياق هذه الأحاديث يدل على أن كتاب (جامع بيان العلم وفضله) كان أمام الشيخ، واضح؟ لأن هذه الأحاديث التي ساقها والروايات موجودة في هذا الكتاب، وهذا ليس إلا من المدح وليس من الذم في شيء، بل هو مما يعرفنا بمصادر الشيخ في كتابه، فدلت هذه السياقات والأحاديث على أن كتاب (الجامع) كان بين يديه وينقل منه، وهو كتاب المالكية -لابن عبد البر- ويحق لهم أن يفتخروا به، وإن زعم زاعم أن ابن عبد البر في آخر عمره مال إلى الظاهرية، ولكنه إمام مالكي وكفى به فضلًا أن شرح (الموطأ) في كتابه (التمهيد)، وهو أعظم شرح له، نعم يا شيخ، وهو إمام عظيم، بعض الجهلة والسفلة اليوم زعموا أنه مرجئ وليس كذلك.

"وحديث أبي هريرة في الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار يوم القيامة، قال فيه: (ورجل تعلم العلم وعلمه، وقرأ القرآن، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، فقال: ما عملت فيها؟ قال: تعلمت فيك العلم وعلمته، وقرأت القرآن. قال: كذبت، ولكن ليقال: فلان قارئ؛ فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار)"

يعني فقط، من مسائل نافع ابن الأزرق، لأن هذا حديث فيه هذه الفائدة، الفائدة التي يريدها الشيخ بيِّنة، لأن الله يعذب يوم القيامة مَن علِم ولم يعمل، فهذا بيِّن، ومن أسئلة ابن الأزرق أنهم كيف يتكلمون بالباطل مع أن الله ختم على ألسنتهم؟ فقال ابن عباس ما قلناه لكم، هذا حال وهذا حال، واضح؟ يعني كان هذا قبل، فلما كذبوا ختم على ألسنتهم وأنطق أبدانهم وأبشارهم إلى آخره، واضح؟

"وقال: "إن من أشد الناس عذابا يوم القيامة عالما لم ينفعه الله بعلمه"، وروي أنه -عليه السلام- كان يستعيذ من علم لا ينفع.

وقالت الحكماء: "من حجب الله عنه العلم؛ عذبه به على الجهل، وأشد منه عذابا من أقبل عليه العلم فأدبر عنه، ومن أهدى الله إليه علما فلم يعمل به"،

نعم، إذًا لما يقول الناس "الحكماء"، الكلمة عند الفقهاء يقصدون بها المطلق، ولكنها للأسف في بعض الكتب يقصدون بها غير المسلمين، بأن الحكماء هم طاليس، أرسطو، سقراط، إلى آخره من هؤلاء، ولكن هذه كلمة لا يقولها إلا متدين، وأولئك مشركون، إلا إذا أخذها العلماء من السابقين وحوروها على معنى شرعي، وهذا يفعلونه، كما يفعلون في اللغة، الآن لو قرأت أنت الحروب الصليبية، طبعًا كلمة "الصليبية" لم ترِد في كلام سلفنا، كلمة "الحروب الصليبية" هذا كلامهم هم، الغربيون، المشركون، النصارى، هم الذين سموها بالحروب الصليبية، أما علماؤنا فسموها بحروب الفرنجة، لا توجد هذه الكلمة قط "الحروب الصليبية"، يسمونها حروب الفرنجة، ما يهمنا أن علماءنا جاؤوا إلى أسماء طواغيتهم وقادتهم فحرفوها للعربي، لأنهم لا يعرفون ينطقون الأسماء بطريقتهم فهم يأخذون الكلمة وينطقونها بما يوافق لهجتهم، هذا مهم، فهذه الطريقة يفعلها السلف، يعني يأخذون الكلمة على معنى الحكمة من غيرهم فيلبسونها لباسًا إسلاميًا، واضح؟

القصد؛ ولكن هذه في الحقيقة فيها نظر، فيها نظر لماذا؟ لأن سلفنا أنشؤوا كتب الأدب، -لا بأس هذه فائدة نختم بها، وأنا تعبت البارحة فسامحوني ألا أطيل-، لماذا أنشأ علماؤنا كتب الأدب فقط التي اقتصرت على الحديث كما فعل البخاري -رحمه الله- في (الأدب المفرد)، وكما أطال النفس في كتاب الأدب أبو داوود. ما هو أوسع كتاب للأدب في كتب السنن؟ كتاب (السنن) لأبي داوود. لماذا؟ ردًا على من أنشأ كتب الأدب وخلطها بكلام الأغيار، إلى هذه الدرجة من الغيرة على أمتنا أن يدخل فيها كلام الأغيار، يعني ما عندنا كافي؛ فلذلك لما أنشأ ابن المقفع كتاب (الأدب الأكبر) و(الأدب الأصغر) وبدؤوا يكتبون الأدب ويأخذون من حكمة الآخرين عندما ترجمت كتبهم، انبرى لهم أهل السنة من الحديث وأنشؤوا هذه الكتب ليقولوا: هذا يكفينا، وصدق سيد: "إن من أعظم صفات جيل الصحابة هو وحدة المصدر"، وحدة المصدر، وليتنا فهمنا هذا.

وبارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا

والحمد لله رب العالمين وأسأل الله -عز وجل- أن ينفعنا بما سمعنا وينفعنا بما علمنا، وأن يغفر لنا تقصيرنا، وأرجوا المعذرة من إخواني اليوم لا يوجد أسئلة، وجزاكم الله خيرًا وبارك الله فيكم.

الدرس [١٩]

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، والصلاة والسلام على أشرف الخلق وسيد الأنبياء والمرسلين محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد؛ فهذا هو الدرس التاسع عشر من دروس شرح كتاب (الموافقات) للإمام/ أبي إسحاق الشاطبي -رحمه الله-، تفضل يا أبي عمر.

"وقال معاذ بن جبل: "اعلموا ما شئتم أن تعلموا؛ فلن يأجركم الله بعلمه حتى تعملوا"، وروي أيضا مرفوعا إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- وفيه زيادة: (إن العلماء همتهم الرعاية، وإن السفهاء همتهم الرواية).

وروي موقوفاً أيضاً عن أنس بن مالك، وعن عبد الرحمن بن غنم؛ قال: حدثني عشرة من أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قالوا: كنا نتدارس العلم في مسجد قباء؛ إذ خرج علينا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: (تعلموا ما شئتم أن تعلموا؛ فلن يأجركم الله حتى تعملوا)، وكان رجل يسأل أبا الدرداء؛ فقال له: كل ما تسأل عنه تعمل به؟ قال: لا. قال: فما تصنع بازدياد حجة الله عليك؟ وقال الحسن: "اعتبروا الناس بأعمالهم، ودعوا أقوالهم؛ فإن الله لم يدَع قولا إلا جعل عليه دليلا من عمل يصدقه أو يكذبه، فإذا سمعت قولا حسنا؛ فرويدا بصاحبه، فإن وافق قوله عمله؛ فنعم ونعمة عين"، وقال ابن مسعود: "إن الناس أحسنوا القول كلهم، فمن وافق فعله قوله؛ [فذلك الذي أصاب حظه، ومن خالف فعله قوله]؛ فإنما يوبخ نفسه"، وقال الثوري: "إنما يطلب الحديث ليتقى به الله -عز وجل- فلذلك فضل على غيره من العلوم، ولولا ذلك كان كسائر الأشياء"، وذكر مالك أنه بلغه عن القاسم بن محمد؛ قال: "أدركت الناس وما يعجبهم القول، إنما يعجبهم العمل"، والأدلة على هذا المعنى أكثر من أن تحصى، وكل ذلك يحقق أن العلم وسيلة من الوسائل، ليس مقصودا لنفسه من حيث النظر الشرعي، وإنما هو وسيلة إلى العمل، وكل ما ورد في فضل العلم؛ فإنما هو ثابت للعلم من جهة ما هو مكلف بالعمل به"

ما زال الشيخ –رحمه الله– مع المقدمة السابعة، وهي أن كل علم شرعي إنما طلبه الشارع على جهة كونه وسيلة إلى التعبد لله –عز وجل–، وهنا أفاض الشيخ في الأحاديث والأقوال الدالة على أن مقصود العلم هو العمل، وهذا أيها الإخوة الأحبة، هذا الأمر بَيِّن وواضح، يعني هذا الأمر لا يحتاج إلى كثير وإطالة مقال.

ولكن لا بد من التنبيه على نقطة مهمة جدًا، وهي أن العلم بنفسه عمل، وإنما يُقال هذا الكلام عندما نجد الرجل قد خالف عمله علمه، هذه قضية مهمة، هذا الكلام الذي قاله الإمام الشاطبي نقلًا عن كتاب (جامع بيان العلم وفضله) لأبي عمر ابن عبد البر، إنما يُحتج به على من خالف عمله قوله، فحينئذ يقال: "أنت لم تنتفع في علمك شيئًا"، لكن العلم بنفسه عمل، وطَلب العلم بنفسه عبادة، أن يطلب المرء العلم عبادة، وأن ينشره بين الناس عبادة، وأن يتقفر مسائله ليستنبط منها المسائل التي تنفع الناس عبادة.

فالعلم له مقصودان: مقصود لذات العلم، لأنه بذاته –أي العلم– شرف، وقد يقول قائل: شرفه بأن يورث مقاصد أخرى، نقول: كذلك العمل، العمل كذلك ليس المقصود منه حركة البدن، كما أن العلم ليس المقصود منه أن يتلفظ بلسانه ما يعلمه. ما يُقال في العلم من أنه ليس مقصودا كذلك يقال في العمل، ولكن العلم على الجملة يورث الخشية والتقوى، كما أن العمل يورث الخشية والتقوى، يعني، أضرب مثالا: رجل يقوم الليل ثم يصبح في نهاره عاصيًا، فيقال له: ماذا أحدث فيك قيام الليل؟ وإنما مقصود قيام الليل أن تعبد الله وأن تتقيه وأن تخشاه وأن تجتنب معاصيه، هو يُقَويك، كما قال الله –عز وجل–: {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى}، أن هداك الله لأمر –وهو قيام الليل–، فعليه أن يجدك هدى بترك المعاصي في النهار. هذا الذي قلناه في العمل –وهو قيام الليل–، نقوله في العلم، فحين يأتي المرء إلى مسألة من مسائل العلم، ثم يأخذها في الليل أو يأخذها في النهار فيخالفها فيما تعارض منها من الوقت، إذا أخذها في النهار عارضها في الليل، نقول له: ما فائدة علمك؟ كما قلنا في الأول: ما فائدة صلاتك؟ لأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر؛ ولذلك العلم له مقصدان: مقصد يتعلق بذاته، لأن العلم في ذاته شرف، وأن طلب العلم بذاته عبادة، **وأول درجة من درجات العمل بالعلم هو أن تعلمه، ثم أن تنشره**، يعني كيف يعمل، لو قيل لرجل: كيف تعمل بعلمك؟ فقال أنشره لَصدقَ.

فأول درجات العمل بالعلم هو أن يعلمه، وهو مطلب شرعي -وأنا سآتي إلى كلمة العلم-، لأنه بالعلم يخرج من مهيع الفساد، وهو الجهل، والجهل مذموم في القرآن، مذموم في السنة، مذموم عند العلماء، مذموم في فطر البشر، الجهل مذموم؛ ولذلك على المرء أن يتعلم، قد يقول قائل: أخاف أن أتعلم فلا أعمل، فيقال له: هذا من تلبيس الشيطان، لأن العلم ولا بد أنه بذاته عمل، مجرد أن تعلم هذا الأمر يعني أنك قد قطعت على الشيطان وسائله في نفسك في هذه المسألة، لأنه قد يأتيك الشيطان إلى ضدها وأنت لا تعلمها؛ ولذلك العلم بذاته له قوتان: قوة لتحصيل الخير، وقوة لصرف الشر. إذًا هذه مسألة مهمة، لأننا نجد الكثير ممن يعيبون على العلماء أنهم لا يعملون، والقليل من الطاعة مع العلم أفضل من الكثير من العبادة مع الجهل، وفي تاريخنا، قال علماؤنا أن الله -عز وجل- لم يتخذ وليًا جاهلًا، يعني بداية الولاية لله هو العلم، فإذا قطعت هذه البداية لم تحصل على ما بعدها من الولاية، فأن يقول قائل: أنا قد أتحصل ولاية الله ولا أريد العلم، أقول له: لن تصل إليها، قد أخطأت الطريق، فلم يتخذ الله وليًا جاهلًا.

وهذا ردٌّ على من يكتب -ممن كتبوا في تاريخنا- عن أولياء لم يبذلوا طريق العلم ولم يسلكوه، وهذا باطل، لا نتصوره، كل ما تسمعونه من أولياء وعُبَّاد، مما يقال لهم فقراء أو صوفية بلا علم، هؤلاء لا وجود لهم. نعم يوجد من يعبد الله -عز وجل- ويتخذ طريقا للعبادة فهذا شأنه، ولكنه قد يدخل أبواب الشر دون أن يدري.

لماذا أقول هذا الكلام؟ لأنه في الحقيقة قد يقع هذا الكلام على غير موقعه من الشرع، وهو أن يقول: ما دام أن العلم لا يُحصل عملًا فلا قيمة له، نقول: إن تحصيل العلم عمل، يأتي آخر ويقول: إننا نجد علماء حصلوا العلم ولم يأتوا بالعمل، نقول: كثير كذلك من العباد أتوا بالمعاصي ووقع منهم ما وقع، يقال هذا، ويقال هذا، انتبهوا لهذا؛ ولذلك لا تنفروا من طلب العلم، وأنا أقول لكم وإني على يقين مما أقول: لا يمكن لكم أن تدخلوا باب الولاية إلا بالعلم، إذا أردتم أن تكونوا أولياء لله حقًا فلا بد أن تسلكوا طريق العلم، هو الذي يبصركم، هو الذي يهديكم، عليكم بالكتاب، عليكم بالسنة، وكلما ازددتم علمًا كلما ازدتم خشيةً رغم أنوفكم. هناك من سيقول: أنا أسمع فلانا يتكلم كثيرا، نقول له: هذا ليس من العلم في شيء، هو فقط يَرغي ويزبد، ولكنه لو طلب العلم لاختلف الامر، ما معنى طلب العلم؟ أين هو من حديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؟ أين هو من تفسير كلام ربنا؟ أين هو من القراءة؟ هذا هو العلم، هذا هو بداية العلم، لأن العلم له قواعد، فهو يأتي إلى ما يتكلم به، ما يحكى به، وهذا ليس من العلم في شيء.

نحن نتكلم عن العلم، وهذه المسألة: "ما هو العلم الذي نتحدث عنه"، هي مسألة لازمة في الحديث، وقد تقدم الكلام عليها من كلام الشيخ وسيأتي كذلك، وكل الكتاب هو حديث عن العلم، وعن ما هو العلم اللازم، فهمنا هذه المسألة؟ لأنني أخاف أن يكون كلام الشيخ هنا منفرًا ومهولًا بشأن العلم، وهو لم يُرد هذا –عليه رحمة الله–، وعلماؤنا لم يريدوا هذا، بل كانوا يقولون: مع المحبرة إلى المقبرة، رأى أحدهم الإمام أحمد يجري ومعه أوراقه وهو كبير قال: أين؟ وبعد هذا قال: مع المحبرة إلى المقبرة، وكلما ازدت بابًا من أبواب العلم، كلما ازدت قربًا من الله –عز وجل–، هذه حقيقة، ولكن لا بد أن تعرف كيف تُرتبَ العلم في ذهنك، لا بد أن تتعلم كيف ترتب العلم ليحصل به التقوى، هذا ما نقرأه هو ما يريده الشيخ: كيف ترتب العلم ليحصل به الدين، ليحصل به مراد الله –عز وجل–، نقرؤه لهذا الأمر، فلا تذهب نفوسكم إلى التقليل من شأن العلم، ولكنه لو بذل الرجل ليله ونهاره في طلب العلم، مع قيامه بالواجبات لكان خيرًا من رجل دخل بيته متعبدًا ولم يطلب العلم، من هو الأفضل؟ الأفضل هذا؛ لأن هذا رجل يسمع الحديث وبعد ذلك يقيمه الله –عز وجل– إن أخلص النية مقام الأئمة.

وإياكم أن تظنوا أن هناك أولياء وهناك فقهاء، لا، الولي هو أحمد، الولي هو الشافعي، الولي هو أبو حنيفة، الولي هو مالك، الولي هو يحي بن سعيد القطان، الولي هو عبد الرحمن بن مهدي، الولي هو محمد بن إسحاق، الولي هو إسحاق بن راهويه، هؤلاء هم أولياء الله. الناس في أذهانهم دائمًا إذا قيل: أين ولي الله؟ ينصرف ذهنهم إلى هذه الصور التي أقامتها الصوفية في كتبهم من العباد الذين بهذا الشكل، وهذا باطل، ألغوا هذا، هذا من أفسد ما يقع فيه الناظر في تاريخ الولاية والعلم في تاريخ أمتنا، هؤلاء هم أولياء الله، هؤلاء هم الأولياء، هؤلاء هم أتقى لله، هؤلاء هم التقاة العباد، هؤلاء لا يتقي أحد من البشر مثل تقواهم، والله يحبهم أكثر من حب من ذُكر من الداخل في بيته فقط وهو متعبد إلى غير ذلك.

وحين تسمعون أحد هؤلاء العلماء يمدح عابدًا تفرغ للعبادة فاعلموا أنه على أمرين: الأمر الأول أن هذا العابد إنما فرغ للعبادة بعد طلب العلم، فأخذ العلم اللازم له، وطلب الحديث، وطلب السنة والفقه، كما يُذكر عن أمر بِشر الحافي، فبشر الحافي لم يأت من الشارع ومن الخمارة ليكون عابدًا داخل بيته فمدحه أحمد، وعليكم الآن أن تتذكروا أن صناعة الحديث هو صناعة اجتماعية، أليس هكذا قلنا؟ بِشر كان يمشي معهم مشيهم في طلب الحديث والطلب، ثم

وقع في قلبه أنه لا يريد هذا الباب مِن أن يفرغ للحديث وتعليمه والفقه وتعليمه، ففرغ للعبادة، فقال عنه أحمد: "ما نسعى إليه هو ما وصل إليه بشر"، نعم، جيد، ليس هناك مشكلة، هذا **الأمر الأول**.

الأمر الثاني: وإنما يُمدح غمطًا للنفس، يعني عندما يقول الإمام أحمد -رحمه الله- عن بِشر: "ما نسعى إليه هو ما وصل إليه بِشر"، إنما يقوله غمطًا لنفسه، وهذه كلمات كثيرة تُقال في زمانه بين العلماء، والجهلة يظنونها على الحقيقة، وإلا فأحمد أعظم من بِشر الحافي في طريق العلم والعبادة وفي طريق الولاية، إنما تُقال هذه الكلمات غمطًا للنفس، واضح الكلام؟

هذا الكلام لأن كل كلام يُخاف من ضده، هذا الكلام لا يعني ألا يكون العالم عابدًا، علماؤنا الذين نتحدث عنهم كانوا يقيمون الليل، كانوا يجاهدون، قد ابتلوا في سبيل الله -عز وجل-، كانوا من أورع الناس، لا ينبغي أن يقال: أنا أشتغل بالعلم فأنا لا أعمل جزء من القرآن، أنا أطلب العلم فلا أقرأ كتاب الله، لا أصلي الضحى، لا أصوم الإثنين والخميس، وهكذا، هذا جهل، هذا غلط وهذا غلط؛ لأن كل كلام يخاف أن يفرز ضده عند مَن لا يتقن الجمع بين الأمور، وهذا شأن الصغار، هذا أمر ننبه عليه في هذا الكلام.

وهنا أنا فقط أردتُ أن أعود بكم إلى كلمة، وأنا أذكرها هنا لأن ما يهمني هو أن نتعامل مع ما نقرؤه فيما نعيشه فقط، وقد خطرت في بالي وأنا أتكلم ولكنها ذهبت، وهي لما تكلمنا في بداية الكلام، قلنا أن الشرائع لها مقاصد أصلية ولها مقاصد تبعية، وهذا من فقه القرآن، في بداية المقدمة السابعة، صحيح؟

في الدرس الفائت قلنا أن الشرائع لها مقاصد أصلية ومقاصد تبعية، لما نتحدث فعلينا أن نستحضر هذا، وفي مرات نحن نستخدم المقاصد التبعية لأسباب، ولكن هذا لا يُلغي المقاصد الأصلية، وحين نتكلم عن المقاصد الأصلية لا يجوز لنا أن نتَّهم من يتحدث عن المقاصد التبعية بالغلط، وأنا أعني مسألة الجهاد هنا مثلا، ومسألة الأحكام الشرعية، فحين يأتي متحدث ليقول: لماذا تجاهدون؟ يقول: هؤلاء أخذوا بلادنا، هؤلاء انتهكوا أعراضنا، هؤلاء كذا، فهذه مقاصد تبعية، ولكنها أصلية في بعض المواقف، كدفع الصائل، في دفع الصائل المسلم هي مقاصد أصلية في دفعه، وهي مقاصد تبعية في قتال الطلب، واضح؟ فحين يأتي يقول: "انظر إلى هذا الشيخ يتحدث وكأننا نقاتل الكفار ليس لكفرِهم"،

وهذا كله من الجهل، أو حين يأتي يقول: "نحن لا نقاتل إلا من عادانا"، هذا كذلك جهل، واضح؟ فهذا وهذا غلط؛ فعلى طالب العلم أن ينتبه لأننا ابتُلينا في هذا الزمان بالجهلة، يعرف الكلمة ولا يعرف كيف يضعها، هذا هو الجهل اليوم، ولذلك إذا كثر جهل المرء أو قل علم المرء كثر اعتراضه، هذه قاعدة: إذا قل علم المرء كثر اعتراضه، لأنه جاهل لا يعرف المسائل، لا يعرف الأصول، إلى غير ذلك.

ولذلك صدرت كلمة الشيخ في نهايتها، أنا لا أريد أن أعلق لا تصحيحًا ولا تضعيفًا لما تقدم من الأحاديث، هذه يعاد فيها إلى مصادر التخريج وهي بيّنة وكثيرة، وهذا العلم اليوم هو الذي يأكل به الناس الخبز! أما التعليق على معانيها فهي كثيرة جدًا، أتركها لأننا لو وقفنا عند كل حديث ليتغير مسار الكلام.

ولذلك يقول الشيخ الشاطبي في نهاية الحديث: "وكل ذلك يحقق أن العلم وسيلة من الوسائل"، وسيلة لماذا؟ ما هو المقصد؟ المقصد الأصلي ما هو؟ عبادة الله. لأنه وسيلة، ولكن هذا مقصد أولي ومقصد أصلي، ومقصد تبعي أنه وسيلة للعمل الصحيح، إذا أراد المرء أن يقوم بعمل صحيح لا بد له من العلم.

"فلا يقال: إن العلم قد ثبت في الشريعة فضله، وإن منازل العلماء فوق منازل الشهداء، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن مرتبة العلماء تلي مرتبة الأنبياء، وإذا كان كذلك، وكان الدليل الدال على فضله مطلقا لا مقيدا؛ فكيف ينكر أنه فضيلة مقصودة لا وسيلة؟ هذا وإن كان وسيلة من وجه؛ فهو مقصود لنفسه أيضا، كالإيمان؛ فإنه شرط في صحة العبادات، ووسيلة إلى قبولها، ومع ذلك؛ فهو مقصود لنفسه"

هذا شرحناه، تقدم الكلام عليه في التعليق والشيخ أتى به، يعني هذا كلام المخالفين، وهو أدخل رده فيه ثم يرد عليه ردًا تفصيليًا، نعم يا شيخ، ولذلك فالصواب أن فضل العلم الشرعي مقصود لذاته، وهو مطلقًا خير، هذه قضية مهمة جدًا، هل العلم الشرعي مقصود لذاته؟ الجواب: نعم، هل فضل هذا العلم الشرعي مقصود لذاته؟ الجواب: نعم، واضح؟ ولكن الرجل يعاب عليه أنه علم فحصل له فضل العلم، ولم يعمل ففاته فضل العمل، ولكن فضل العلم يلحقه، فإذا كانت مرتبة العلم الذي علمه ثم خالفه هي من مراتب الوجوب، يعني علِم أن الربا حرام فأكل الربا، فهذا معذَّب، معذَّب على أكله الربا وعذابٌ آخر أنه خالف عملُه علمَه، هكذا، هكذا الأمور مرتبة إن شاء الله بطريقة صحيحة.

"لأنا نقول: لم يثبت فضله مطلقا بل من حيث التوسل به إلى العمل، بدليل ما تقدم ذكره آنفا، وإلا؛ تعارضت الأدلة، وتناقضت الآيات والأخبار، وأقوال السلف الأخيار"

لا لم تتعارض، فصلنا بينهم، انتبهوا لهذا الكلام لأنه في الحقيقة هو مهم، أمر النوازل والرد على مسائل الاختلاف يقوم على مسألتين -أنا لا بأس أستعجل، أعتذر لأني في الحقيقة أخاف لكثرة الشر فكأني أُلاحقه-، أمر فقه النوازل ومعرفة الأحكام يقوم على مسألتين:

- مسألة تتعلق بالنص، وفيها أمران
- ومسألة تتعلق بالواقع

وخلاصة الفقه كله يدور على هذه الآثار، خلاصة الفقه أن تكون فقيهًا أصوليًا يقوم على هتين المسألتين: المسألة الأولى مركبة من قضيتين، والمسألة الثانية مركبة من قضية واحدة.

المسألة الأولى المركبة من قضيتين هي **فهم النص**، وهي تقوم على ما يسمى ب"انفكاك الجهة" إذا تعلقت بها نصوص يبدو فيها الاعتراض، هذا تراجعونه وتكتبونه.

أعود وأقول أن المقدمة الأولى في أن تكون فقيهًا في النوازل عالِما بالشريعة تقوم على قضيتين: **أولاً**، ما يتعلق بالنص، ما هو الذي يتعلق بالنص؟ هو ما يسمى بانفكاك الجهة، ما هو انفكاك الجهة؟ إذا جاءت النصوص وقد بدا فيها التعارض، كلمة "انفكاك الجهة" هذه يقولها المناطقة، وكنت أخاف أن أتكلم بها فيسألني سائل يقول: أنت من أين أتيت بها؟ فأحيله إلى كتب المناطقة، ثم أُنقذتُ بأن وجدتها في كتاب من كتب الحنفية فارتحت، اه يا مشايخ، فمرات لا تسألوا، بتفضحونا من أين جئت بها؟ وهي في الحقيقة من أجمل ما وجدته من تركيب العبارة: "انفكاك الجهة"، هذه اختص بها علماء الحنفية، وهي في الأصل كلمة للمناطقة في قضية درء الاعتراض على الأدلة، واضح شو معناها؟ شو انفكاك الجهة؟ هناك قضيتان عقليتان أو شرعيتان يبدو منهما التعارض، ماذا تفعل؟ ماذا تفعل إذا كان هناك سهم

مُتوجِّه إلى سهم وبينهما التعارض؟ ماذا تفعل؟ حرِّكْ الأسهم إلى جهات مختلفة: فكاك الجهة، إلى جهات مختلفة، وهكذا النصوص، إذا جاءت وبدت متعارضة، ماذا تفعل؟ فُكها، أرسِل هذه إلى جهة، وأرسل هذه إلى جهة، يذهب التعارض، وهذا مما أكرره وقاله المتنبي: "هذا حال وهذا حال"، هذا موضع وهذا موضع، ما فيه اعتراض، هذا واحد.

النقطة الثانية، وأرجو أن نوقف يومًا من الأيام لكن حتى ننتهي من مقدمات درس الشاطبي في (الموافقات) ونفرُغ لدرس أو درسين في هذه المسألة، لأن عامة الشر في هذا العالم منذ الخوارج إلى يومنا يقوم على هذه المسألة، وهي "**علاقة الأحكام بالأسماء**". إذن، **النقطة الأولى من المقدمة الاولى**: انفكاك الجهة، إذا بدا التعارض نَحُلُّه، **النقطة الثانية من المقدمة الأولى**: كيف تفهم الأسماء الشرعية وكيف تفهم الأحكام الشرعية، والأحكام معلقة كما تعلمون على الأسماء، أليس كذلك؟ الأحكام معلقة على الأسماء، -آسف بدها درس، اليوم أنا أشرح وأعطي فقط عناوينا-، أقول: النقطة الثانية من المقدمة الأولى هي علاقة الأسماء بالأحكام، والأسماء إما أن تكون لأفعال أو معاني. الأحكام فرغنا منها فيما تقدم من انفكاك الجهة، أعود إذًا، لأن المقدمة الثانية التي يبنى عليها الفقه كله، وهي علاقة الأسماء بالأحكام، والأسماء إما أن تكون لأفعال وإما أن تكون لمعاني، والأسماء إما أن تأتي كلية أو جزئية، وعلى ضوء ورود الأسماء كلية أو جزئية تأتي الأحكام كلية أو جزئية، هذه خذوها، دكنوها، وبعدين بيجيها يوم، جيد؟ انتهينا الآن، هذا ما تعلق بالنقطة الأولى، انتيهنا من المقدمة الأولى التي فيها نقطتان، مش هيك؟ انتيهنا منهما.

الآن نأتي إلى **المقدمة الثانية للفقيه**، شو قلنا عن الأسماء؟ إما أن يكون لها تعلق بالأفعال وإما بالمعاني، وهذه النقطة الثانية، وهي تتعلق **بالواقع**، النقطة الثانية، وهي ما لها ضرورة بفهم الواقع، وهي معرفة مراتب الأسماء، مين كتبها؟ أيوة إذًا النقطة الأولى انتهينا منها وهي تتعلق بالشرع، الثانية ما لها ضرورة في فهم الواقع، وهي معرفة الأسماء، لأن الأسماء ايش قلنا؟ إما أفعال وإما معاني، هذا الواقع، وهنا لا بد من معرفة مراتب هذه الأسماء في الواقع، انتهينا من هذه القضية، هذا هو الفقه كله. إذَا أردت أن تكون فقيهًا، هذه إذا رتبتها في ذهنك ثم علمت فروع الشريعة وعلمت الواقع أصبحت فقيه نازلة، عالِما مجتهدا، وفتح الله عليك، خلاص، انتهينا، عليك الأمر كله.

إذًا لا بد من معرفة الواقع -أي معرفة الأسماء-، ثم معرفة مرتبتها، ومن هنا تعرف أنه ما من واقعة في الحياة -كما يقول الإمام-، هذا الذي شرحته هو فقط جملة أو جملتين قالهما إمام الأئمة في (إعلام الموقعين) وهو ابن القيم، وهذا الذي إذا فهمتَه علمت أنه ما من واقعة في الحياة إلا يعرف حكمها هكذا: معرفة الوقائع، الأسماء، الأفعال، الأفعال لها مراتب، المعاني لها مراتب، يقابلها الأحكام، الأحكام إما أن تكون كلية أو جزئية، لها تعلق بدخول الفعل فيها دخولاً كليًا أو جزئيًا، فككنا الاتجاه في قضية ما يبدو التعارض من النصوص، انتهى الموضوع، الآن تستطيع أن تحكم. نحن هنا نتكلم عن لو أردت أن تقول ما هي الطريقة لأن تكون جراحًا؟ بسيطة جدًا، افتح البطن،لازم يكون عندك مشرط، افتح البطن بالطول، من هذه تطلعها، لكن كيف تمارس هذا؟ هذا هو هداية الله لك، وكثرة القراءة والاطلاع، ومعرفة الأحاديث والسنن وفقه العلماء، إلى آخره، لكن هذا هو خلاصة الفقه، لا بأس، هذه بدي تفهموها لأننا سنأتي إليها، إذًا ههنا نحن فتح الباب لانفكاك ايش؟ الجهة، انفكاك الجهة.

"فلا بد من الجمع بينها، وما ذكر آنفا شارح لما ذكر في فضل العلم والعلماء، وأما الإيمان؛ فإنه عمل من أعمال القلوب، وهو التصديق، وهو ناشئ عن العلم، والأعمال قد يكون بعضها وسيلة إلى البعض، وإن صح أن تكون مقصودة في أنفسها، أما العلم؛ فإنه وسيلة، وأعلى ذلك العلم بالله، ولا تصح به فضيلة لصاحبه حتى يصدق بمقتضاه، وهو الإيمان بالله"

هنا فقط أنبه على كلمة، لن أشرحها لكن أضعها وأنت دورك لما تقرأ القرآن أن تتأملها، تتأمل السنة، والشاطبي يقول في (الموافقات): "وأحكام القرآن كلية"، هو يقولها وسنأتي إليها، أحكام القرآن ايش؟ كلية، الجزئي والكلي سنأتي إليه، لكن أحكام القرآن كلية، لا يوجد في القرآن كلمة "العلم" إلا وهي ممدوحة، فدل على أنها حققت مقصدها الذاتي ومقصدها التبعي، فلا يوجد في القرآن إلا "العلم" بمعنى الذي أورثَ مقصودَهُ -مبدناش نطول، هذه كلمة كبيرة ولكنها مبثوثة في كلام ربنا-، لا توجد كلمة "العلم" إلا ممدوحة، فإذا كانت ممدوحة دلت على أنها حققت مقاصدها الأصلية والتبعية، وما جاءت كلمة الجهل في القرآن بمعنى عدم العلم، وما جاءت في القرآن كلمة الجهل لتدل على عدم العلم، وهي من معانيها ولكنها ما جاءت في القرآن بهذا، وإنما جاءت على معنى ما تقوله أنت لرجل كبير يعلم الحق ولكنه يخالفه، فيسمى جاهلا، جاهل بمعنى ماذا؟ بمعنى لم تنبعث إرادتُه لما علِمَه، واضح؟ إذًا كلمة العلم في القرآن ممدوحة، إذًا دلت على وجود مقاصدها، وكلمة الجهل دلت على وجود العلم الذي لا يورث العمل، هذه على كلام الشيخ.

النقطة الثانية -ولا أريد هنا أن أطيل-، أنتم تعلمون مسألة: "هل الإيمان هو التصديق؟" إلى غير ذلك، وهذا معروف بطلانه وخطؤه، والإيمان ليس هو التصديق، إنما الإيمان هو القول والعمل، لا نريد أن نطيل في هذه وأنتم تعرفونها وقد انتشر أمرها بفضل الله -عز وجل-.

فقوله: "وأما الإيمان؛ فإنه عمل من أعمال القلوب"

هذا قصر غير صحيح، وإن كان صحيحًا من باب، لأنه لا يُتصور عمل بدني إلا بانبعاث إرادة القلب، فهو عمل من أعمال القلب، لكن لما قصره على التصديق دل على الخطأ، واضح الكلام؟ لو قال قائل: إن الإيمان هو عمل القلب لصحَّ، لأنه ما من عمل بدني إلا ومبعثُه مرجلُ الإرادات، ما هو مرجل الإرادات؟ القلب. والإرادة لا تنبعث إلا بشيئين: بالعلم وقوة الباعث، واضح الكلام؟ كيف تتكون يا مشايخ الإرادة؟ بالعلم، لأنه لا إرادة لشيء تجهله، وقوة الباعث وهي ما يتعلق بالرغبة، أين رغبتك؟ الآخرة، الجنة، الشهوة. وبهذا فالإيمان صراع إرادات، والكفر صراع إرادات، فقط، هذه تفسر القرآن كله، بعد ذلك يأتي القدرة وعدم القدرة، وهذه القرآن لا يُعلق عليها كثيرًا، لأن القدرة وعدم القدرة، هذا إما القدرة عند نزول الحكم، وإما القدرة عند انبعاث الفعل، كما يفسره علماؤنا ردًا على المخالفين من القدرية ومخالفيهم، فهذه مسألة أخرى، وأما فالإيمان هو الإرادة، هذا من باب وهو باب الوجوب، انتبهوا، الكلام يجب أن يكون دقيقًا ومفهومًا، هذا من باب الوجوب.

وأما من باب الاستحباب فالقوة إيمان، هل القدرة إيمان مع أنها عطاء إلهي؟ الجواب: نعم، من أين؟ من قوله -صلى الله عليه وسلم- عن النساء: (ناقصات عقل ودين)، فلما فسر كلمة "الدين"، ماذا فسرها؟ ما هو نقصان الدين؟ يتركن الصلاة والصيام، تركن الصلاة والصيام لعدم القدرة على تحصيل الطهارة قدَرًا، قدرًا، ليس بتقصير، ومع ذلك هو نقص إيمان، واضح؟ هذا من باب الفضل، وقوله -صلى الله عليه وسلم-: (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف)، ولا تكون الخيرية إلا بسبب إيمان زائد، فهو مؤمن قوي زاد إيمانه، وهذا أمر مهم، ولذلك يُعلق القرآن الوعود على الإيمان، ليس على إرادة القلوب ولكن على اكتمال الإيمان، وهي الإرادة والقدرة، قد يكون الرجل عنده إرادة أن ينصر الدين، وأُمّة عندها إرادة أن تنصر الدين ولكن ليس عندها قوة أن تنصر الدين، فهذه لا تستحق، ولا إيمانها الموجود موجب لتحقيق الوعد الإلهي في الدنيا، في الآخرة موضوع آخر، واضح الكلام؟

القصد أن كلمة التصديق كلمة قاصرة.

قوله: "وهو التصديق، وهو ناشئ عن العلم"

هذا صحيح، لكن كونه هو الإيمان فقط، ليس صحيحا، تفضل يا شيخ، انتبهوا لكلامه هنا، هذا كلام رجل عالم يعرف ماذا يقول، وهكذا علماؤنا.

"والأعمال قد يكون بعضها وسيلة إلى البعض"

قد يكون وسيلة لذاته وقد يكون وسيلة لغيره، قد يكون لذاته وقد يكون لغيره، الآن الوضوء -وهذا يأتي إليه في المقاصد، يشرحه لا تخافوا، إذا وصلنا للمقاصد يفيض فيه الشيخ، هو فنه-، هل الوضوء مقصود لذاته؟ الجواب: نعم، مقصود لذاته لأنه الطهر، ولكنه مقصود كذلك لغيره، واضح؟ مقصود لذاته ومقصود لغيره وهكذا.

وكذلك لما يأتي إلى موضوع المستحب -هذا في كتاب الأحكام، وهو أول كتاب من (الموافقات)-، وهذا إمام عظيم، يتأمل الحياة ويتأمل الشريعة، لما يأتي للمستحب يقول: "ما من فريضة"، الفريضة مقصودة لذاتها "إلا وقد أقام الشارع تبعًا لها من جنسها، أو من غير جنسها، لكن من جنسها لا بد"، يعني ايش؟ عندنا الصلاة فريضة وعندنا نافلة، واضح؟ فما من شريعة فرضها الله -عز وجل- مقصودة لذاتها إلا وقد أقام الشارع لها تابعًا يحميها، وهكذا، المقصد التبعي والمقصد الأصلي، هذا يأتي إليه إن شاء الله في الكلي والجزئي.

قال: "والأعمال قد يكون بعضها وسيلة إلى البعض، وإن صح أن تكون مقصودة في أنفسها"

واضح الكلام؟ نعم واضح، الأعمال الشرعية.

"وأما العلم؛ فإنه وسيلة"

هل هو وسيلة فقط؟ أم أنه لذاته كذلك؟ قد شرحتها، مقصد ووسيلة، نفس الشيء.

"أما العلم؛ فإنه وسيلة، وأعلى ذلك العلم بالله، ولا تصح به فضيلة لصاحبه حتى يصدق بمقتضاه، وهو الإيمان بالله"

هذا كلام بيّنا أن عليه ما عليه، فإن العلم بالله ممدوح في القرآن، فلا يكون العلم إلا ما استحق وصفه وقد شرحته.

"فإن قيل: هذا متناقض؛ فإنه لا يصح العلم بالله مع التكذيب به"

لشيخ الإسلام لفتة عظيمة، وهذه لا علاقة لها بالأحكام، هذه لها علاقة بفهم جريان الأحكام، واضح؟ لا علاقة لها بالأحكام، هذه لها علاقة بفهم جريان الأحكام، كيف تنشأ الأحكام، شيخ الإسلام لما جاء يناقش الذين قالوا بالتصديق قال: كيف تقولون يُمكن أن ينشأ التصديق من غير متابعة؟ -وهذه سأستخدمها الآن، سأستخدم هذه الكلمة-، يقول: الذين يقولون يُمكن أن ينشأ التصديق بلا عمل، وأن التصديق يمكن وجوده بلا عمل، يقول: هذا غير صحيح وغير متصور، والدليل هو التالي: لو أنك جئت إلى مفترق طرق، وأردت طريقًا سليمًا مفازًا، والطريق الأخرى فيها ما يؤذيك أو أنها لا توصل للمقصود، فسألت رجلا قال: قائما هذا المفترق، فقلت له: ما هي الطريق الموصلة لمقصدي؟ يقول لك: هذه التي على اليمين، فذهبت وخالفتها، أصدقته؟ لم تُصدقه، فكيف يمكن أن نُسمي شيئًا "التصديق" مع مخالفة العمل؟ كيف؟ هذا تفسير للحكم، أن التصديق لا يمكن أن يكون منفردًا إلا بإنشاء ما يوجبه، واضح؟ ما يوجبه أن تعمل بالتصديق.

كذلك العلم كيف يمكن لامرئٍ أن يكون العلم عنده على جهة اليقين والرسوخ، ثم يخالفه؟ نفس الشيء، كيف يمكن؟ رجل يعلم أن هذا الطريق يوصله إلى المهلكة، وهو على ثقة بهذا العلم وأنه علم صحيح، ولذلك القرآن علق المعاصي على المرض، مرض القلب، المرض في القلب ينشأ أساسًا من العلم، عدم اليقين عليه، كما أنه يقول عدم التصديق به نفس المعنى، واضح الكلام؟

يقول: "فإن قيل: هذا متناقض؛ فإنه لا يصح العلم بالله مع التكذيب به"

هذا كلام صحيح، ولكن للأسف الشيخ له نظرة أخرى وتوجيه آخر.

"قيل: بل قد يحصل العلم مع التكذيب؛ فإن الله قال في قوم: {وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم} [النمل: ١٤]"،

هذا صحيح ولكن نرجعه إلى موضوع صراع الإرادات، ولو قال قائل: إن هذا العلم ضعيف مقابل علم آخر لصحَّ هذا، ولكن قد يغلب العلمَ الهوى، هو يعلم أنه سيموت ولكنه يسلكه لغلبة شهوته، وهنا ينشأ صراع الإرادات، وهي

قوة الباعث، لأن الإرادة مصدرها ماذا؟ ما هو مصدر الإرادة؟ نفهمها، العلم وقوة الباعث، فقد يكون الضعف في العلم، وقد يكون في قوة الباعث، وقد يكون في كليها إلى آخره.

"فإن الله قال في قوم: {وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم}"

ليس هذا الدرس درس عقائد، ولكن لأبين الخطأ المنتشر اليوم وهو أن الجحود {وَجَحَدُوا بِهَا}، الجحود في القرآن ليس هو عمل القلب، وكل ما يتكلم به مرجئة المعاصرين وغيرهم أن الجحود هو عمل القلب، وفي القرآن: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ}، إذًا أين الجحد؟ في اللسان، والقرآن ليس به الجحد القلبي إنما فيه جحد اللسان، وهم الآن لا يعرفون إلا جحد القلب، لا يكون كفر عندهم إلا بالجحود القلبي، وهذا غير صحيح، والقرآن يقرر أن الجحود يكون فقط باللسان، نعم يا مشايخ، هذا ليس درس توحيد ورد على المرجئة ولكنه إن شاء الله نافع لإخواني.

"وقال: {الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون} [البقرة: ١٤٦].

وقال: {الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون} [الأنعام: ٢٠]"

ولذلك المعرفة لم تُطلق في كتاب الله على الله، "يعرفون الله" لا توجد، يوجد "العلم بالله"، قالوا: السبب أن المعرفة ليس من موجباتها أن تُنشئ عملًا بخلاف العلم، العلم يُنشئ عملًا، المعرفة لا، مجرد أنه موجود هذا الشيء في داخل نفس المرء لا يُنشئ شيئا، فالعلم أعظم من المعرفة، وقالوا: والدليل أن الله لم يصف نفسه بالعارف، أنه يعرف، وإنما وصف نفسه بالعالم، وقالوا: من أسباب ذلك أن المعرفة –وهذا كلامهم- تكون قد سبقها الجهل، جهل ثم جاءت المعرفة، فالمعرفة أمر طارئ بخلاف العلم، لا يُشترط فيه هذا المعنى.

"فأثبت لهم المعرفة بالنبي –صلى الله عليه وسلم- ثم بين أنهم لا يؤمنون، وذلك مما يوضح أن الإيمان غير العلم؛ كما أن الجهل مغاير للكفر.

نعم، قد يكون العلم فضيلة، وإن لم يقع العمل به على الجملة، كالعلم بفروع الشريعة والعوارض الطارئة في التكليف، إذا فُرض أنها لم تقع في الخارج؛ فإن العلم بها حسن، وصاحب العلم مثاب عليه وبالغ مبالغ العلماء، لكن من جهة ما هو مظنة الانتفاع عند وجود محله"

فقط أنا أنبه على ما قال الشيخ هنا، "قد يكون العلم فضيلة وإن لم يقع العمل به على الجملة"

بمعنى أنه يقع قليلًا، وهي التي تسمى عندهم بالنوازل، "كالعلم بفروع الشريعة" قد تقع وقد لا تقع، "والعوارض الطارئة في التكليف"، بمعنى النوازل التي لا تقع على جهة المعنى الظاهرة التي لها الدوام، "إذا فرض أنها لم تقع في الخارج"، نعم.

"ولم يخرجه ذلك عن كونه وسيلة، كما أن في تحصيل الطهارة للصلاة فضيلة وإن لم يأت وقت الصلاة بعد، أو جاء ولم يمكنه أداؤها لعذر، فلو فرض أنه تطهر على عزيمة ألا يصلي؛ لم يصح له ثواب الطهارة، فكذلك إذا علم على ألا يعمل؛ لم ينفعه علمه، وقد وجدنا وسمعنا أن كثيرا من اليهود والنصارى يعرفون دين الإسلام، ويعلمون كثيرا من أصوله وفروعه، ولم يكن ذلك نافعا لهم مع البقاء على الكفر باتفاق أهل الإسلام"

لماذا؟ صراع الإرادات، هذا انتهينا منه.

"فالحاصل أن كل علم شرعي ليس بمطلوب إلا من جهة ما يتوسل به إليه، وهو العمل"

وقوله ...وهو التعبد لله -عز وجل-، لا نريد أن نقف عليه.

"فصل

ولا ينكر فضل العلم في الجملة إلا جاهل، ولكن له قصد أصلي وقصد تابع.

فالقصد الأصلي ما تقدم ذكره"

ما هو القصد الأصلي؟ هو تحقيق العبودية نعم، وهو العمل.

"وأما التابع؛ فهو الذي يذكره الجمهور من كون صاحبه شريفا"

نعم، هذه فضائل العلم، هذه تضعونها، الآن سيشرع الشيخ في فضائل العلم، فأولًا، من فضائله أن العلم شريف، ومن تلبس به حصل له الشرف، وهذا في التاريخ معروف، فإنه ما تلبس أحد بعلم من العلوم إلا وحصل له الشرف والرفعة على الناس وأشار الناس إليه. لو أراد الرجل شرف الدنيا فإن أعظم الشرف هو العلم، وإذا أراد الآخرة فإن أعظم ما يوصل إلى الآخرة هو العلم، فالعلم شرفٌ بذاته يحصل به الشرف لمن تلبس به.

"فهو الذي يذكره الجمهور من كون صاحبه شريفا، وإن لم يكن في أصله كذلك، وأن الجاهل دنِيء، وإن كان في أصله شريفا"

إذا كان الرجل في أصله شريفا وجاهلا، إلى آخره ما نريد.

"وأن قوله نافذ في الأشعار والأبشار وحكمه ماض على الخلق"

وأن قوله -أي قول العالم- نافذ في الأشعار والأبشار، الأشعار جمع شَعر، هنا فقط، إلا إذا أخذناها على أن قوله في شِعر الناس، ولا يقصده هنا يتكلم عن علم الشرعي، والأبشار جمع بشر، قوله: وحكمه ماض أي نافذ.

"وأن تعظيمه واجب على جميع المكلفين"

تتصور أن رجلا يجلس فيقول كلمة: اقتلوا هذا الرجل! فيقتلونه، ادفعوا له مائة ألف! فيدفعون، سبحان الله، ما الذي حصَّل له هذه القدرة التي ربما لا يصل إليها الآباء؟ أبوه يقول له: اقتل، يقول: لا، لا أقتله، يقول له سيده: اقتل، يقول: لا، لا أقتل، فيأتي له العالم يقول له: اقتل، فيقتل، ادفع، فيدفع، ما الذي حصل القوة لهذه الكلمة؟ هو العلم، هو ثقة الناس أن هذا يقول بالعلم.

"وأن تعظيمه واجب على جميع المكلفين، إذ قام لهم مقام النبي؛ لأن العلماء ورثة الأنبياء، وأن العلم جمال ومال ورتبة لا توازيها رتبة"

انتبهوا، "جمال"، هو شريف، ولأن العلم جمال ومال ورتبة، ورتبته لا توازيها رتبة.

"وأهله أحياء أبد الدهر"

وأن أهلَه أحياء أبد الدهر، إلا إذا قلنا واو استئنافيا وأهلُه أحياء أبد الدهر، يا سلام، الآن نتكلم عن الشافعي كأنه الآن يتكلم كلامَه، نتكلم عن أحمد كأنه الآن يتكلم كلامه، أحياء أبد الدهر، يتناقل الناس كلامهم كأنهم معهم، كأنهم هم الذي يحكون.

"إلى سائر ما له في الدنيا من المناقب الحميدة، والمآثر الحسنة، والمنازل الرفيعة؛ فذلك كله غير مقصود من العلم شرعا، كما أنه غير مقصود من العبادة والانقطاع إلى الله تعالى، وإن كان صاحبه يناله"

إذًا ليس هو مقصود الطلب، هو ايش مقصود العالم هذا؟ ولكن كما قال الإمام أحمد: "هذا عزيز"، إذا طلبت العلم لله، ايش قال؟ هذا عزيز، طلبناه كما يطلبه الناس، ثم كان للعلم سطوة على طالبه، أول شيء، له مقصد في أخذه، ثم صار للعلم سطوة، هذا العلم العزيز، هذا العلم، هذا القرآن، أبى أن يكون هذا العلم إلا لله، طلبنا العلم لغيره فأبى الله إلا أن يكون له.

"وأيضا؛ فإن في العلم بالأشياء لذة لا توازيها لذة"،

هذا تكلمنا عنه، لا نريد نضيع الوقت في أمور مكررة.

"إذ هو نوع من الاستيلاء على المعلوم والحوز له، ومحبة الاستيلاء قد جبلت عليها النفوس وميلت إليها"

هذا من علم النفس عند علمائنا، "ومحبة الاستيلاء"، التملك، التملك فطرة في الخلق، ولعن الله ماركس وجماعته عندما أرادوا أن يُلغوا فطرة الخلق بالتملك، م فيش تملك قالوا، التملك غريزة في نفس الحيوان والإنسان.

"وميلت إليها القلوب، وهو مطلب خاص، برهانه التجربة التامة والاستقراء العام"

هذا ضعوا تحتها نقطتين، خطين، ثلاثة، أربعة، خمسة عشر خطًا، لا بأس، هذه كلمة علمائنا، هذه الكلمة العظيمة تدل على طريقة علمائنا في استجلاب العلوم، وفي بيانها واستجلائها، كيف تحصل العلوم في أذهان علمائنا؟ انظر إليهم، بالاستقراء التام والتجربة التامة. الاستقراء العام أو التام، والتجربة، واضح يا مشايخ؟ ايش بنتكلم عنه، هو هذا العلم، فإنهم لا يقولون قولًا إلا وقد استقرؤوا أفراده على أي جهة هو، ولا يحكمون على أمر من أمور الكون حتى يرونه مُطردًا على معنى التجربة التامة، ونحن ليس عندنا فقه أرسطو مِن قياس الغائب على الحاضر، والتأملات الذاتية، هذه دعوها، دعوكم منها، لا وجود لها إلا في أذهان الصغار.

فقوله: " برهانه التجربة التامة والاستقراء العام "

أي كيف أن العلم يحْصل به لذة، لماذا؟ هو يقرر هذا، العلم له لذة، لماذا هذه اللذة؟ قال: لأن الرجل نظر لنفسه، فوجد، وقال: والله قد فهمتها، لما فهمها، ماذا؟ سيطر عليها؟ وهو تجده تعبان، مالك يا فلان؟ يقول: والله هذه المسألة لم أفهمها، فيحصل له الضيق، فإذًا حين أخذ المسألة استولى عليها، كما يأخذ المال ويستولي عليه، صار في ملكه، فهو نظر لهذا فوجده قد اطرد في البشر، وتكلمنا عن الاستقراء.

"فقد يطلب العلم للتفكه به، والتلذذ بمحادثته"،

وهذا نهى عنه النبي –صلى الله عليه وسلم– بقوله: (من طلب العلم ليماري به العلماء أو ليجاري به السفهاء فهو في النار)، عند أبي داوود وغيره.

"ولا سيما العلوم التي للعقول فيها مجال"

ولا سيما للعلوم التي فيها مجال، بمعنى أنها تُنشئ حركة في الذهن فتُنشئ حكمًا. والله هذه بدها وقفة، خليها لوقت آخر، نحن الآن كاد الدرس ينتهي وقته، ولكن في الحقيقة هذا الانفلات، انفلات النفس، انتبهوا لهذا، أقولها الآن باختصار فقط، لكن لعلنا نعود إليها إن شاء الله تعالى، لأن هذا هو مربط الفرس في صراع التعبد والتبعية لرسولنا –صلى الله عليه وسلم–، وبين ما يسلكه الإنسان من هوى، هذه النقطة.

يعني عندنا نحن هناك ماذا؟ عندما تتبع، التبعية قيدٌ، ضد الهوى، والهوى ماذا يريد أن يقول؟ من جهة نفسه، كما تجد في الولد الصغير تقول له: افعل، فهذا أمر يكرهه، يكره "افعل"، ولو تركته ربما فعله على جهة الهوى، ما المحبب لديه؟ ما المحبب لهذا الطفل؟ أن يفعله على جهة الهوى أم يفعله على جهة الأمر الخارجي؟ أن يفعله على جهة الهوى أحبّ إليه، ومن هنا –فقط أصِل إلى نقطة سريعة، أنا أقفز لأن الأمور تحتاج إلى تفصيل–، من هنا قال –صلى الله عليه وسلم– في الحديث القدسي: (وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه)، هو له جهات أخرى، ولكن ما يهمنا هو هذه النقطة، لماذا؟ لأن المستحب تجعله على جهة من جهات النفس، أنت تفعله من جهة حتى وأنت تفعله، بل ربما يكون الدافع له شدة الإيمان، وفعل الفريضة ربما دافعه أنك تَجبر نفسك عليه، تقوم ونفسك تكرهه، بالرغم أنك لما تقوم بمستحب تقوم به وأنت تحبه، لوجود هذا، فهمتم المسألة؟ واضحة؟ أنك تفعل الفرض ربما تفعله على جهة المحبة، ولكن أصله هو الأمر، ولكن قد تفعله على جهة الكراهة له، هل هذا له أجر؟ نعم.

تفعله على جهة رفع الدرجات، قال ايش؟ (والوضوء على المكاره)، وقال –صلى الله عليه وسلم– للرجل الذي قال: يا رسول الله، أكرهُ الإسلام، قال: (أسلم وإن كنت كارهًا)، هذا أمر يحبه الله، تفعل أمرا على جهة مراد الله، فهذا أمر تأتي به على جهة الفريضة، فهو أبغض للنفس، فلما كان أبغض للنفس كان أحب إلى الله، هذا معنى من المعاني، هناك معاني أخرى للفريضة، ولكن هذا المعنى هو حاضر فيما بين يدينا، فهمتم الفرق؟ ولذلك لما قال الشيخ هنا:

"ولا سيما للعلوم التي للعقول فيها مجال"

هذا الصراع بين أن تكون تابعًا وبين أن تكون صاحب هوى، فأنت تفعل العبودية على جهة الاتباع لرسولنا –صلى الله عليه وسلم–، فهذا شيء على النفس، وهناك ما تفعله على جهة الاختيار، فهذا للنفس فيه مجال، ولذلك الناس لا يحبون، لا يريدون أن يقرؤوا القرآن ليأخذوا منه العلم، يقولون: اجلس تأمل واللي يطلع معك جيد، فهذا الذي تحبه النفس، فهمنا؟

"ولا سيما العلوم التي للعقول فيها مجال، وللنظر في أطرافها متسع، ولاستنباط المجهول من المعلوم فيها طريق مهيع"

قال: "ولاستنباط المجهول من المعلوم"، وفي الحقيقة، هذه الكلمة أوقفتنا لأنه حقيقة استنباط المجهول من المعلوم هو أساس العلوم، وهذا فقط نقطة، أنا لا أدري قلتها أم لا، وهذه من مقدمات العلوم، ومن مقدمات الوجود، وهو قوله –سبحانه وتعالى–: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} قال: {وَعَلَّمَ آدَمَ}، هذه كلمة "وعلَّم" هي التي تحل مشاكل ما يسمى بالفلاسفة في معنى العِلم في الإنسان، وما هو دور العقل فيه، قد يقول قائل: ما الذي أدخلنا في هذا؟ هذه هي أساس كل شيء، لأن العقل لا ينتج علمًا إلا من معلومة سابقة، العقل لا ينتج عنده وحي هكذا، كما تقول الفلاسفة، العقل ليس إلا غريزة، كما يقول الحارث المحاسبي ويؤيدها شيخ الإسلام –رحمه الله–، وهذا الحارث المحاسبي له فوائد عظيمة، وإن كان أحمد –رحمه الله– كان يكره منه أمورا ولكنه كان يحب منه أمورا، ونحن نحب ما أحبه علماؤنا منه، وهو الذي أطلق هذه الكلمة العظيمة وقال: العقل غريزة، وهذا مهم جدًا، ولكن نقف، لا نريد أن نشرحه، كل شيء يحتاج إلى شرح، في الحقيقة هكذا ينبغي أن تساغ عقولنا وأن نفهمها على هذه الطريقة من العلم، وأن نفهم الكلام، وأن نفهم الحياة، وأن نستقرئ كلام علمائنا حتى لا نقع في المصائب، وحتى لا نتخذ وسيلة للشيطان باسم الدين، أعظم ما يقع فيه الناس اليوم وقديمًا، أنهم يأتون بالباطل على جهة مسمى الدين، هكذا الدين! هم لا يعرفون الدين، يقولون: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، هم لا يعرفون ماذا قال رسول الله، ولا كيف ينزله إلى آخره.

فالقصد بأن هذه "وعلَّم"، هذه كلمة عندما يأتي المفسر إليها يجب أن يجلس ويتأمل هذه الكلمة، كما قلنا {وإذ قال ربك}، كيف كانت هذه الكلمة {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ}؟ هذه الكلمة كانت مفتاحا لتعظيم النبي –صلى الله عليه وسلم–، {وَعَلَّمَ} هي بداية أساس حركة الإنسان، {وَعَلَّمَ آدَمَ}، فلا يوجد شيء في الإنسان بلا تعليم، لا يوجد شيء، وقصدي: لا عمل مهتدي ولا علم صحيح، إلا بأن يكون العلم قد حَصل من الخارج، {وَعَلَّمَ}، من الخارج، ولذلك قوله:

"والاستنباط المجهول من المعلوم فيها طريق مهيع"

مهيع يعني متبع.

"ولكن كل تابع من هذه التوابع؛ إما أن يكون خادما للقصد الأصلي، أو لا"

يعني كل هذه من التوابع التي ألحقها في فضائل العلوم إما أن تكون خادمة للقصد الأصلي -وهو ما تقدم من ذكر العبودية لله والعمل-، وإما ألا تكون خادمة له. اقرأ، اليوم لن نخرج حتى ننتهي من المقدمة هذه.

"فإن كان خادما له؛ فالقصد إليه ابتداء صحيح، وقد قال تعالى في معرض المدح"

وهذه قاعدة نضعها هنا، نضعها "فإن كان خادما له، فالقصد إليه ابتداءً صحيح"، يعني ما كان وسيلة للحق فهو حق، وهذا الحديث كنت أتمنى أن أكتب فيه، ولكن للعوارض، وهو سؤال النبي -صلى الله عليه وسلم-: هل يأتي الخير بالشر؟ فقال -صلى الله عليه وسلم-: (الخير لا يأتي إلا بالخير)، لا إله إلا الله، كم راجعت هذا الحديث في كتب أهل العلم، فتمنيت أن أجده على غير ما وُضع له من قضية زهرة الدنيا وزينتها والكلام عن الدنيا وزهرتها، فلم أجد، للأسف لم أجد، وهذا الحديث من أعظم ما يُمكن للمرء أن يحكم به على الأشياء، هذا واحد، وأن يعرف كيف يُدخَل الباطل على الحق، هذا الحديث حديث عظيم، قال -صلى الله عليه وسلم-: (الخير لا يأتي إلا بالخير)، ثم ضرب مثالًا على كيفية دخول الشر على الخير. الله يرحمنا برحمته، ما ندري ماذا، تكاثرت الضباء على فراشي المسكين

"فإن كان خادما له؛ فالقصد إليه ابتداء صحيح، وقد قال تعالى في معرض المدح: {والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما} [الفرقان: ٧٤]، وجاء عن بعض السلف الصالح: اللهم اجعلني من أئمة المتقين، وقال عمر لابنه حين وقع في نفسه أن الشجرة التي هي مثل المؤمن النخلة: "لأن تكون قلتها أحب إلي من كذا وكذا"، وفي القرآن عن إبراهيم -عليه السلام-: {واجعل لي لسان صدق في الآخرين} [الشعراء: ٨٤] .

فكذلك إذا طلبه لما فيه من الثواب الجزيل في الآخرة، وأشباه ذلك"

والله أنا حزين أن نمر على هذه المعاني بدون أن نفصلها، ولكن نقول بأن الشيخ أراد من هذا بأن هذه مقاصد تبعية، وهو أن يكون للمتقين إمامًا، هذا مقصد تبعي، لكنه وسيلة إلى المقصد الأصلي، وهو أن يكون متقيًا، لأنه أن يدعو الله أن يكون للمتقين إمامًا، دعى الله -عز وجل- أن يكون للعلماء إمامًا، وهذه، كيف؟ يعني أن يحصل له العلم أو أن

يُحصل له العلم الإمامة في العلم؟ هذا ليس مقصود، لكنه لا يُمكن أن يصل إلى هذا حتى يمر عبر المقصد الأصلي، وهو أن يكون متقيًا، فحصل له، وهذا المراد، واضح؟ هذا المراد الأول، وثانيًا عمر -رضي الله عنه- فرح فرحًا، كان حزينًا ألا يظهر هذا الفرح عندما سأل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن مثل المؤمن، أي شجرة تشبهه، خضرتها دائمة ورقها لا يسقط، فسكت الصحابة، فلما أخبرهم النبي -صلى الله عليه وسلم- أنها النخلة، فأخبر عبد الله أباه عمر أنه علِمها، فحزن عمر، فرح أنه علمها، لأن ابنه عرف الحق، لكنه حزن أن لا يُظهر هذا العلم، طيب هذا ما الذي يفرحه؟ يفرحه أن له مقصد ماذا؟ مقصد أصلي وهو عبوديته لله -عز وجل-، عمر يعرف هذا، أنه بهذا يحصل العبودية لله، أي يحصل لابنه المقام الذي عند النبي -صلى الله عليه وسلم-، يحصل به المقام الذي لا يكون هذا المقام له في حضور النبي -صلى الله عليه وسلم- إلا بأن يكون له المقام في العبودية لله -عز وجل-، وهكذا كان ابن عمر -رضي الله تعالى عنه-.

القصد أن عمر حزن، يقول قائل: أنا أحب لابني أن يكون عالمًا، هل هذا مقصد باطل؟ وهو يعلم أنه إنما يريد أن يكون عالمًا لماذا؟ لما يحصل له من الإمامة، هذا الذي أراده عمر أن يكون لابنه، ماذا؟ الإمامة، لكن هذه الإمامة: {وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا}، واضح الكلام؟ فلا يُذم الرجل على هذه المعاني العظيمة، هذا هو المقصود.

وقول إبراهيم -عليه السلام-: {وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآَخِرِينَ}، فقد كان له، يعني دعى الله -عز وجل- أن يذكره الناس بماذا؟ أن يذكره الناس بالذكر الطيب، وهكذا، نحن نقول: "اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم"، فقد حصل له -صلى الله عليه وسلم-: {وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآَخِرِينَ}، لكنه صدق، انتبهوا، وابن القيم له كلام رائع في هذا الباب، كيف "لسان صدق،" وكيف "مقعد صدق"، إلى آخره، و"مدخل صدق"، له كلام في (مدارج السالكين)، ارجعوا إليه في الجزء الأول، إن كان له طبعات بعدة أجزاء، المهم.

"وكذلك إذا طلبه لما فيه من الثواب الجزيل في الآخرة وأشباه ذلك"، نعم يا شيخ.

"وإن كان غير خادم له؛ فالقصد إليه ابتداء غير صحيح، كتعلمه رياء، أو ليماري به السفهاء، أو يباهي به العلماء، أو يستميل به قلوب العباد، أو لينال من دنياهم، أو ما أشبه ذلك؛ فإن مثل هذا إذا لاح له شيء مما طلب زهد في التعلم، ورغب في التقدم، وصعب عليه إحكام ما ابتدأ فيه"،

والله هذه من أعجب ما يخطر على البال من ملاحظاته، لكنه رجل يلاحظ نفسه ويلاحظ الآخرين، هذا الرجل، هذه كلمة رجل عانى، ولا يمكن أن تُدرَك من الآخرين، هذه الكلمة تُدرك من النفس، وأن يدركها المرء من نفسه ثم يصلحها هذه درجة عظيمة، وهكذا هو الشاطبي -رحمه الله-، والشاطبي في كتابه، بدناش نقول صوفي كما يقول ...، هو رجل تزكية، ولذلك تجدون في كلامه -كما سيأتي- أنه يناقش مفاهيم العُبّاد، ليس فقط مفاهيم الفقهاء، وخاصة الغزالي، لأن الغزالي في كتابه (الإحياء) هو أول من مزج الفقه بالتصوف -نقول: "بالتصوف"، لا بأس- لان له الكثير من مسالكهم، ولكنه على طريقة الشاطبي، مزج الكثير من الفقه بالتعبد، والشاطبي هنا في كتابه -كما سنرى- مزج الكثير من أصول الفقه بمفاهيم المتعبدين والمتزكين واضح؟ واضح الكلام هذا؟ ولذلك ماذا يريد أن يقول الشاطبي؟ يقول أن مَن طلب العلم لغير مقاصده النهائية أو طلب العلم لمقاصده التبعية التي لا توصل إلى المقصود الأصلي، فإن نهايته ألا يكمل الطريق، هذا الكلام واضح؟ فإن نهايته ألا يكمل الطريق. لماذا؟ في الحقيقة لماذا؟

الأمر الأول لعزة هذا العلم، القاعدة التي قلناها: "العلم يهتف بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل"، هذا مو شغلي، ...، فعزة العلم ألا تأتي إلا على سبيل الإخلاص، هذه نقطة.

النقطة الثانية، لأن المشقة التي يجدها المرء في العلم لا يمكن أن يُسَليها ولا يمكن أن يرطب قسوتها وشقاوتها إلا رجاء الدار الآخرة، واضح هذا؟ فهنا إذًا العلم، أولا كان يفكرها شغلة بسيطة، بعدين يدور له شغلة ثانية، نعم، أو أنه يقف ويكذب على الناس، يتعلم كيف الكلام، ويتعلم لفظتين أو ثلاثة، يعرف كيف يخربش وكيف يكتب وكيف يروح على الكمبيوتر ويطلع حديث ويخرجه ويبيع كتب ويقف هنا، حينئذ يأكل خبز ويصير شيخ، ولكنه لم يصل إلى المقاصد، لا المقاصد التبعية ولا المقاصد الأصلية.

"وأنف من الاعتراف بالتقصير؛ فرضي بحاكم عقله، وقاس بجهله"

هذه النقطة حطوها، إن الرجل يتبع الهوى دون أن يتبع النص لأمور، منها ماذا؟ أنه ما وصل، معرفش النص، علمه أبوه ايش؟ يقول له: في المسألة قولان، وأقول فيها، ورأيي كذا، هذه سهلة، حديثين ثلاث، يسمع شريط أو شريطين، يقرأ كتابا، وانتهى الأمر، وبعدين يصير يقول: في المسألة اختلاف يا أخي، المسألة مختلف فيها ورأيي كذا، وهذا كلامه.

قال: "وأنف من الاعتراف بالتقصير"، ما وصل للنهاية.

قال: "فرضي بحاكم عقله وقاس بجهله"، نعم.

" فصار ممن سئل فأفتى بغير علم؛ فضل وأضل، أعاذنا الله من ذلك بفضله، وفي الحديث: "لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء، ولا لتماروا به السفهاء، ولا لتحتازوا به المجالس، فمن فعل ذلك؛ فالنار النار"

هذه الجملة التي ذهبت، أرجوكم اقرؤوها، ضعوها، لتكن في أذهانكم، سترون في عالمنا الكثير ممن يعيشها، ضعوها، كلمة جميلة ورائعة، هذه الأولى.

"فإنّ مثل هذا إذا لاح له شيء مما طلب زهد في التعلم، ورغب في التقدم، وصعب عليه إحكام ما ابتدأ فيه، وأنف من الاعتراف بالتقصير؛ فرضي بحاكم عقله، وقاس بجهله؛ فصار ممن سئل فأفتى بغير علم؛ فضل وأضل"

يعني هذا أمره، هذه ستجدون من صورها الكثير في عالمنا.

وقال: (من تعلم علما ما يبتغى به وجه الله، لا يتعلمه إلا ليصيب به غرضا من الدنيا؛ لم يجد عرف الجنة يوم القيامة)

عَرْف، العرف هو الرائحة، وإذا قيل كيف العرف هو الرائحة؟ كيف قيل هو العرف؟ لأنه هذا من أصول الكلمات، لا بد أن ترجع لها ولو اختلف لفظها، لأنها بها يُعرف، الرائحة بها يعرف، رائحة القبيح تعرفك بالقبيح، رائحة الطيب تعرفك بالطيب، فلما كانت الرائحة معرفة سميت عرْف، لكن لا ينبغي أن تقول عَرَفَ لأن عرَف لها معنى آخر موضوع، لكن أصلها من التعريف، واضح؟ هذا من بلاغة هذه اللغة الشريفة.

"وفي بعض الحديث: سئل عليه السلام عن الشهوة الخفية؛ فقال: (هو الرجل يتعلم العلم يريد أن يجلس إليه)"

هنا التخاريج موجودة عندكم، هذا حديث ليس له مصدر، الحديث ضعيف، فالحديث إذا قيل: "أخرجه الديلمي في الفردوس"، فاعلم أنه ضعيف، هذا مما يعلمه طلبة علم الحديث.

"وفي القرآن العظيم: {إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار} [الآية] [البقرة: ١٧٤]، والأدلة في المعنى كثيرة"

وبارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا، وأنا أعتذر اعتذارًا على الطول والحبس، أنا حبستكم هذا الحبس الطويل، والحمد لله رب العالمين،

أطلنا اليوم فلا أظن أن هناك أسئلة، لأني لو أجبتكم لن أستفيض في الإجابة وستحرمون الخير الكثير، بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الدرس [٢٠]

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا،

إخوتي الأحبة، هذا هو الدرس العشرون من دروس شرح كتاب الإمام أبي إسحاق الشاطبي المعنون بـ(الموافقات)، والآن مع المقدمة الثامنة، تفضل:

"المقدمة الثامنة: العلم الذي هو العلم المعتبر شرعاً، أعني الذي مدح الله ورسوله أهله على الإطلاق هو العلم الباعث على العمل، الذي لا يخلي صاحبه جارياً مع هواه كيفما كان، بل هو المقيد لصاحبه بمقتضاه، الحامل له على قوانينه طوعاً أو كرهاً، ومعنى هذه الجملة أن أهل العلم في طلبه وتحصيله على ثلاث مراتب"

إخواني بعد أن فرغ الشيخ -رحمه الله- من بيان باعث العلم، وما هو العلم الصحيح، ولماذا أُنشِئ العلم -هذه قضايا انتهينا منها: ما هو باعث العلم؟ وهو قضية إرضاء الله -عز وجل-، مقصد العلم تحقيق العمل به-، جاء الآن إلى ما يسمى من ضروريات الفعل، وهو النظر إليه من جهة الإيجاب ومن جهة السلب. هذا مهم، لا بد أن ننظر إلى الفعل الشرعي -وإلى أي فعل في الوجود- من جهتين: من جهة ما يُحققه من فعل، ومن جهة ما يمنعه من فعل. هذا العلم، ماذا يحقق من أفعال؟ وماذا يمنع؟

فبعد أن تكلم الشيخ -رحمه الله- عن الموجِب من فعل العِلم، تكلم عن السالِب من فعل العلم، وهذا شيء نعرفه، يعني عندما يأتي العلماء إلى تفسير أو إلى تعريف الواجب، ماذا يقولون؟ يفسرونه بأمرين: بقوة الدفع، وقوة الرفع -هكذا يسمى: الدفع-، والدفع من ألفاظ الأصوليين، الدفع والرفع، الدفع هو ما يؤدي إليه الفعل، والرفع هو ما يمنع منه الفعل، واضح الكلام؟ إذًا من قوتين، فيقولون الواجب هو: "إتيانه يحقق الأجر، وتركه يؤدي إلى فعل الوزر"، فدل على أن الواجب له قوتان: قوة دفع وقوة رفع، أنه يرفع الوزر، وأنه يحقق الأجر، ما هو الأقوى في الفعل؟ هو الأول، هو أن تنظر إليه من جهة ما يحققه، هذا أقوى، ثم عليك أن تنظر إليه من جهة ما يدفعه، ما الذي يدفعه؟ هذا أمر ثاني، ولكنه أمر مهم ولا بد من النظر فيه.

ومن هنا فإن الفعل كذلك عندما ننظر إليه فإن له مصلحة وله مفسدة، علينا أن ننظر، تحصيل المصلحة هذا شيء مهم، ودرء المفسدة شيء مهم كذلك.

فكذلك في موضوع العلم، الشيخ بعد أن فرغ من دافع العلم، وهو ما يحققه العلم من دفع لأمور، تكلم عما يرفع هذا العلم من أمور، واضح الكلام؟

الآن جاء الشيخ إلى ما يمنع العلم، وهذه مسألة مهمة جدًا، وهي من دقائق النظر إلى أثر العلم في الحياة، أن المرء يراقب العلم: ماذا يُحدث من أمور، وماذا يمنع من أمور، وبعد أن بيَّن أن الفعل -أي العلم- يحقق عبودية الله، جاء ليقول: ما الذي يعارض العبودية؟ هذا الكلام شرحه شرحًا ممتعًا عظيمًا في (الاعتصام)، وجاء إلى قوله تعالى: {إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى}، الهدى يقابل الظن وما تهوى الأنفس، المشكلة فيما تهوى الأنفس، وهنا يأتي كلام طويل في هذا الموضوع، الشارع في القرآن الكريم بيَّن أن المانع الوحيد والأقوى في حياة البشرية وسبب منع حصول الهدى في القلب هو الهوى. دعكم من المحاكات العقلية، هذه كلها تزيينات، سبب عدم اتباع الحق هو الهوى؛ ولذلك هناك شعار ذكرته في خطب متعددة وهو: "موانع اتباع الحق بعد معرفته"، أنت تعرف الحق، ما هي الموانع لاتباعه؟ أعظم مانع هو الهوى.

ما هو الهوى؟ هي الرغبة العاجلة، من الهوى الكبر والغرور، من الهوى السفاهة في عدم النظر إلى المآلات، كل هذا من الهوى؛ ولذلك لما قال أحدهم لابن عباس -رضي الله عنهما-: "إن هواي معكم"، يعني آل البيت، فقال له ابن عباس -وهذا من استقرائه -رضي الله عنه-، وهذا من استقراء أئمتنا لكتاب ربنا-، قال كلمته: "إن الهوى في القرآن لا يكون إلا مذموما"، الهوى لا يكون ممدوحا؛ ولذلك ما هو الأمر الذي يدفعه العلم بعد أن يُحقق فضائله في العبودية؟ هو أنه يدفع ما يضاد العبودية، ما الذي يضاد العبودية؟ هو الهوى. تكلمنا الآن عن ترتيب هذه المسألة، تكلمنا عن أهميتها، تكلمنا عن ضرورتها في أنها تاليةٌ بعد ذكر الموجب للفعل.

يقول: "العلم الذي هو العلم المعتبر شرعًا"

لأن العلوم قد تعتبر شرعًا وقد لا تعتبر.

"أعني الذي مدح الله ورسوله ﷺ أهله على الإطلاق هو العلم الباعث على العمل".

لماذا استخدم هنا كلمة على الإطلاق؟ هل وضعها هكذا يريد أن يزين بها الكلام؟ لأن هناك ثمة علوم شرعية، أي دعا إليها الشرع لا على جهة الإطلاق ولكن على جهة الاستثناء. هناك علوم قد طلبها الشارع مطلقًا، يجب على كل أحد في كل الظروف أن يتعلمها، وهناك علوم مستحبة -على كل حالٍ وعلى كل ظرف وزمان هي مستحبة-، وهناك علوم مطلوبة شرعًا في بعض الظروف، ولكنها ليست مستحبة على الإطلاق ولا واجبة على الإطلاق، فلو تُركت بغير الاستثناء لكانت مباحة أو ربما مُنعت، وهذا ما تكلموا فيه من علوم الدنيا ومسائلها كعلم الهندسة والطب والحساب وغير ذلك، فهذه يُطلب من المرء أن يطلبها لا على جهة الإطلاق، ولكن على جهة الاستثناء، ولذلك هو يتكلم عما هو ممدوح من الشارع على جهة الإطلاق، واضح الكلام؟ لا بد أن ننتبه إلى كلامه حتى نعرف كيف نقرأ كلام سلفنا وأئمتنا.

قال: "هو العلم الباعث على العمل"

هذه انتهى منها الشيخ،

"الذي لا يخلي صاحبه جاريًا مع هواه كيفما كان"

هذه الكلمات تضعون تحتها ليس خطًا واحدًا ولكن خطوطا، إذًا العمل الذي يطلبه الشارع منك إعمالًا للعِلم هو الذي يُخرجك من هواك.

قوله: "بل هو المقيد لصاحبه بمقتضاه"

لماذا سمي العقل عقلًا؟ العقل هو الرَّبْط، وسميت المرأة عاقلة الرجل، لماذا سميت المرأة عاقلة الرجل؟ السبب: تشبيهًا لها بما يُعْقَل مِن كرام الإبل في البيوت، واضح؟ يعني مربوطة، فلا يخليها لأنها من كرامها، فهي تكون في بيته عاقلة مربوطة، والرجل يربط زوجته؛ فلذلك لما تكون سايبة على راسها فهي مش عاقلة، لا تقال عاقلة الرجل، وسمي العقل عقلًا لأنه يربط صاحبه عن السفاهات، ولماذا سميت عاقلة الرجل؟ هذه غير الكلمة الأولى اللي قلناها -عاقلته زوجته-، لماذا سمي من يدفع مع القاتل من أهله "عاقلته"، وهم قرابته من جهة أبيه، لماذا سمي عاقلة؟ لأنها مربوطة بالعاقلة التي تُعقل أمام البيت من الدية، واضح الكلام يا مشايخ؟ وهذا مشان تعرفوا كرامة الإبل شو دخلت لنا من أسماء، الإبل كم دخلت علينا من أسماء. ولماذا سمي العقال عقالًا؟ لأنه يعقل به الرجل عصبة رأسه مما يعقل به من دابة، هذا أصل العقال، يحطه على راسه ويمسك الدابة، فتمشي وراه بدل ما يظل ماسكها بإيده، فيعقل بها دابته، لماذا سميت العاقلة؟ أي عاقلة الرجل،

بما يعصب به، أي عصبته؛ لأنها بها تُعقل الإبل، هم بيجيبوا الإبل وبيربطوها؛ لذلك سميت الإبل عاقلة، واضح الكلام؟
قوله هنا: لماذا قلنا هذه الكلمة؟ قال: لأنه يقيده، انظر لكلمة الشيخ قال:

"بل هو المقيد لصاحبه بمقتضاه"

شو بمقتضاه؟ يعني بما ينتج عنه، قوله: "يقيده"، أي: العلم، يقيد هوى صاحب العلم، يقيده.

قوله: "لصاحبه بمقتضاه"

أي بنتيجته، هنا المقتضى بمعنى النتيجة التي أوجبته، أي أنه مطلوب منه أن يحصله؛ ولذلك لما نأتي إلى تفسير حكم الشارع، شو بنقول؟ "هو خطاب الله تعالى للمكلفين بالاقتضاء -الاقتضاء يعني الطلب- أو التخيير أو الوضع"، فالاقتضاء هو الطلب، فهنا "بمقتضاه"، أي بأثره، فالعلم ما أثره؟ يقيده بمقتضاه، أي بأثره، الكلام واضح يا مشايخ؟ إذًا هذا هو العلم، يقيده.

قوله: "بل هو المقيد لصاحبه بمقتضاه، الحامل له على قوانينه، طوعًا أو كرها"

أي أن قوانين العلم تحمل صاحب العلم على أن يجد على قوانين العلم، على ايش؟ قوانين السفاهة والجهل أي الهوى، وكلمة "قوانين" كلمة أصلًا غير عربية، وهي كلمة يونانية، كلمة "القانون" كلمة غير عربية، دخلت للعربية كما دخلت كلمة "فلسفة"، واستخدمها أئمتنا ولم يعيبوا على مستخدمها شيئًا، وهذا تدل على أن العربية تجيز هذا النوع من العلوم.

المهم، القصد أن كلمة "القانون" ليست عربية، ليست من كلام العرب، دخلت عندما تُرجمت كتب اليونان، فدخلت كلمة "قانون" وكلمة "فلسفة" إلى آخره واستخدمها علماؤنا ولم يعيبوه، كلهم استخدموها ولم يكن في هذا عيب قط.

إذن: "بل هو المقيد لصاحبه بمقتضاه، الحامل له على قوانينه، طوعًا أو كرها"، هذا السؤال: كيف يحمل العلم صاحبه طوعًا؟ هذه مفهومة، ولكن كيف يحمله كرهًا؟ لأن العاقل لا ينظر إلى ما تحبه نفسه وما تكرهه، العاقل لا ينظر لنفسه تحبه أو لا تحبه، ولكن ينظر إلى المآل؛ فقد يكون العمل الذي يؤدي إلى المآل الصالح مما تكرهه النفس فيفعله المرء كرهًا، هل له أجر في ذلك؟ أعظم الأجر. واختلف علماؤنا، كما ذكر هذا ابن القيم في (طريق الهجرتين)، واختلف علماؤنا فيمن يأتي الفعل على جهة المحبة له أو على جهة الكراهة له، من هو أعظم أجرًا؟ يعني أنت تقوم تصلي ونفسك تحب

هذا أو أنك تجبر نفسك على أن تقوم تصلي، ما هو الأفضل فيهما؟ وعلى طريقة شيخه ابن تيمية -هذه تعلمها ابن القيم من شيخه واعترف بها-، أن الشيخ كان إذا جاء إلى ما يظهر في كلام الناس من التعارض، ماذا يفعل؟ ماذا سمينها في الدرس الفائت؟ سميناها "انفكاك الجهة"، هذه لازم تستحضرها، ألَّا تجعل التصادم كليا، اجعل التصادم جزئيا فتوفق بينهما، فقد يكون لأحدهم، لا بد من حصولهما في النفس أولًا، فلا يمكن لنفس أن يحصل فيها محبة الخير كله، **هذا واحد**.

ثانيًا: لا يمكن أن تصبح النفس مُحبة للفعل حتى تكون قد مرت على جهة الكراهة له؛ ولذلك أن تفعل الخير على جهة الكراهة هذا أجر عظيم، وأن تفعله على جهة المحبة له هذه أيضًا لها أجر عظيم، هذه لها أجر وهذه لها أجر، والمرتبة الأولى هي مرتبة السالكين -كما يقول الصوفية-، والمرتبة الثانية هي مرتبة الواصلين -أي يقوم بالأمر على جهة المحبة عنده-، وهذه تحتاج إلى جهاد: "جاهدت نفسي أربعين سنة على أن أحملها على ركعتين فلم تطب نفسي بهما"، يعني نفسه تقول له وهي محبة: قم صل ركعتين، هذا لا يوجد، أربعين سنة وهو يصلي هذا الصالح، فلم تطب له نفسه بأن تقول له: قم صل ركعتين، وهو مرتاح ومحب للركعتين، لا بد أن يجاهد، واضح؟ ولذلك العلم، لماذا العلم؟ لأنه يُعرف الحق ويُعرف المآل، هذا الصواب، عليك أن تفعله غصبا عنك، وهذا مآله حق يجب أن تفعله، مثل الدواء، ولا نقول الشريعة فقط مثل الدواء، لا نقول هذا، ولكننا نقول هي أعظم من الدواء، واضح؟ لأنها ليست علاجا ولكنها فوق العلاج غذاء، الشريعة فوق أن تكون دواءً هي غذاء، وقد يكون الدواء ليس فيه الغذاء وقد يكون الغذاء ليه فيه الدواء، والشريعة جامعة للأمرين: الغذاء والدواء.

قوله: "ومعنى هذه الجملة أن أهل العلم في طلبه وتحصيله على ثلاث مراتب"

الآن بدأ يفصل، من هذه الجملة التي ذكرها، كي تعرفوا أن العالم لما يضع الكلمة يرتبها على قوانين، ويرتبها على معاني، فيقول: هذه الكلمة التي تقدمت، فإن العلماء يقسمون مراتب الناس في هذا الباب على ثلاث مراتب.

"المرتبة الأولى: الطالبون له ولما يحصلوا على كماله بعد، وإنما هم في طلبه في رتبة التقليد"

إخواني، هذه المقدمة والمقدمات التي تليها هي من أجَّل ما ذكر في هذا الباب من المقدمات فانتبهوا لها، وكل ما ذُكر جليل، لكن في الحقيقة هذه والتي تليها من تقسيم العلم إلى صلب وملح، فهذا من أجّل ما قاله الشيخ، انتبهوا لها لتفرقوا بين الناس، لتعرفوا الناس، لتعرفوا مراتب الناس ومرتاب العلماء، ايش العلماء، تفضل، اقرأ يا شيخنا، سنتركك تقرأ ونحن نتمتع.

"المرتبة الأولى: الطالبون له ولما يحصلوا على كماله بعد، وإنما هم في طلبه في رتبة التقليد، فهؤلاء إذا دخلوا في العمل به بمقتضى الحمل التكليفي والحث الترغيبي والترهيبي، وعلى مقدار شدة التصديق يخف ثقل التكليف، فلا يكتفي العلم ها هنا بالحمل دون أمر آخر خارج مقوله، من زجر أو قصاصٍ أو حد أو تعزير أو ما جرى هذا المجرى، ولا احتياج ها هنا إلى إقامة برهان على ذلك؛ إذ التجربة الجارية في الخلق قد أعطت في هذه المرتبة برهانا لا يحتمل متعلقه النقيض بوجه"

أريد هنا أن أنبه على نقطة، نحن سنشرح كلامه لكن أريد أن تنتبهوا، المهم أن نقرأ كليات الكتاب وقواعد الشيخ في صياغة الكتاب، مِن أعظم ما ستواجهونه الآن في كلام الشيخ مسألتين -فيكم تستحضروهم تماما-:

- **المسألة الأولى**، هي معالجة النفس؛ ولذلك يُعرج الشيخ الشاطبي كثيرًا على ما يسمونه بالتزكية ومراتب الفقهاء مع العبَّاد -كما يقول الصوفية-، كيف يريد أن يُخرج الفقه مما قاله الصوفية، وكيف يريد من الفقه أن يُحَصل مراتب التزكية، واضح الموضوع؟ سيأتي هذا الكلام قريبًا، ليس في المقدمات، فيما يأتي بعد، لكنه يأتي في باب العفو وفي باب المباح، سيأتي، له كلام كثير في تخريج كلام الفقهاء من بين براثن بعض كلام الصوفية، لكنه مع هذا التخريج وإخراج كلام الفقهاء من كلام الصوفية، يريد أن يجعل العلم تزكيةً وحالةً نفسية. الذين يتكلمون عن العلم من غير المسلمين، وممن تأثر من غير المسلمين، يجعلون العلم حالةً عقلية وذهنية فقط، ماذا تلاحظون في أول كلمة؟ يمزج الرجل -رحمه الله- الفقه بالحالة النفسية، ما هو أثره على الناس في العبادة وغير ذلك، هذه يجب أن تلاحظوها، هذه سنأتي على أفرادها فيما سيأتي وهذه النقطة تشهد لها.

- **النقطة الثانية** التي عليكم أن تلاحظوها فيما سيأتي، وأنا أقدمها ولما سيأتي أمرها سأبينها ولكن لا بد أن نذكرها الآن:

وهو أن الشيخ لا يكتفي بالأصول على جهة التجريد العقلي -شو التجريد العقلي؟ يعني فقط مجرد كلمات ذهنية-، لا، الشيخ إنما يخوض في أصول الفقه ليحصل بها القدرة على النظر والترجيح؛ ولذلك يمارس أمورًا كثيرة، منها ما سيأتي، الذي انفرد له، انفرادات الشيخ -الشيخ الشاطبي له انفرادات-، منها حديثه عن الكل والجزء، وأن الشيء -أي الفعل- قد يكون مستحبًا في الجزء لكنه واجب في الكل، واضح؟ وهكذا، هذه قضية لا تُبحث في أصول الفقه، هذه قضية يمارسها المفتي والمجتهد في النوازل ويهتم بها، واضح الكلام؟ ويأتي لهذه النقطة كثيرًا؛ فلذلك عليكم أن تهتموا بهذا الأمر، وهو أن الشيخ له تميز في هذين الأمرين في كتب الأصول، وكتب الأصول لا تبحث هذا، تعرج عليه في باب الإلهام وغيره، ولكنها لا تعرج عليه في بقية الأبواب.

الآن الشيخ يريد أن يتحدث عن العلم، هل هو حالة عقلية فقط؟ أم حالة نفسية وعقلية؟ الآن رأيتم الكلام، من نظر إلى كلام الشيخ رأى أن الشيخ مزج بين الحالة العلمية الذهنية الموجودة في الذهن، وبين الحالة النفسية، كيف يؤثر استقرار العلم وأدلته على الحالة النفسية، وكيف أن هذه الحالة النفسية في الناظر للعلم تؤثر في حال عبوديته لله -عز وجل-، واضح الكلام؟ أتمنى أن نقرأها مرة ثانية، ما عندنا مشكلة.

يقول: "المرتبة الأولى"

انتبهوا لها، مرتبة الناس مع هذا العلم.

يقول: "الطالبون له"

يعني كأن الشيخ هنا يتحدث عن العلم ومواقف الناس في الطلب، ولكن الفقهاء يتكلمون عن العلم مع الحالة الأولى ممن يُعرِض عنه -وهم المقلدون-، الشيخ لا، هذه تقدمة. ما الفرق بين كلام الشيخ هنا وكلام المقلدين في كتب الأصول؟ المقلدون في كتب الأصول هم الذين لم يطلبوا العلم، ورضوا من الغنيمة بالإياب -كما يقولون-، هو ليس مستعدا ليطلب العلم، إذا جاءته مسألة ذهب إلى الشيخ سأله وانتهى الموضوع، الشيخ أبو إسحاق لا يجعل هذه مرتبة التقليد، مرتبة

التقليد عنده هي مرتبة السالك في طلبه: الذي ما زال يبحث وما زال يطلب، فهذا هو التقليد، ما زالت هذه مرتبة من مراتب التقليد، ايش آثار هذا الرجل؟

قال: "الطالبون له ولما يحصلوا على كماله بعد"

ما حصلوا على كمال العلم، إنما هم يبحثون، ما زالوا في مراتبهم الأولى أو الأثناء

"وإنما هم في طلبه في رتبة التقليد"

فهؤلاء ذكر مرتبتهم العلمية، مرتبتهم الذهنية، الآن يأتي إلى المرتبة الثانية وهي ما تهمه

قال: "فهؤلاء إذا دخلوا في العمل به"

أي: في العلم

"فبمقتضى الحمل التكليفي"

يعني لأن الله أمر به ولأن الله –عز وجل– زجر تاركه ورغب فاعله، هذا هو الحمل التكليفي، واضح الكلام يا مشايخ؟

قال: "فبمقتضى الحمل التكليفي"

أي أن الله أمره

"والحث الترغيبي والترهيبي"،

خوفًا من الزجر ورغبة في تحصيل الأجر.

"وعلى مقدار شدة التصديق يخف ثقل التكليف"،

يعني التصديق عنده هو مقدار المحبة والرغبة فيه، ولكن هو يتحدث على مقدار التصديق على معناها البيِّن، وهو أنه على شدة يقين المرء بما يقال من العلم يكون حمله. كيف يزداد تصديقه للكلام؟ بزيادة العلم وبزيادة العمل، فماذا يحصل له؟ ماذا يحصل في نفسه –هو يتحدث عن النفس–؟ ماذا يحصل في نفسه بزيادة التصديق؟ يخف حمل التكليف. ونحن قلنا أن التكليف كلمة يذكرونها على معنى الكلفة، –هذا ذكرناه، مش هيك؟ ما ذكره أحد، هذه خذوها–، التكليف يذكرونه ابتداءً على معنى الكلفة ثم ينتهي إلى الكلف:

أولًا، يُحمل الطلب على معنى التكليف، والتكليف ما فيه مشقة على المكلف والفاعل، ولكنه ينتهي به إلى الكَلف، ما هو الكلف؟ شدة التعلق -واحد كلف بفلان أي متعلق به-، وكيف بدأ الأمر على جهة الكراهة له، ثم انتهي على جهة التعلق به، واضح الكلام؟ هذا مهم.

وبهذا خطَّأنا من خطَّأنا ممن سمى التشريع تكليفًا، يقول شيخ الإسلام أن هذه الكلمة لا توجد في الكتاب ولا السنة، وحملها بعض المعاصرين -ممن نشط إلى جمع المناهي اللفظية- على أنها منهي عنها، والصواب غير ذلك، ولو نظروا إلى معنى "الكَلَف" من التكليف لما وقع منهم هذا.

"وعلى مقدار شدة التصديق يخف ثقل التكليف، فلا يكتفي العلم ها هنا بالحمل"

لا يكفي أنك تحمل العلم، حامل العلم كأنه كالعيس يشحم العلم ولا يعمل به ولا يجاهده ولا يكابده، ماذا يقول الشاعر؟

كالعيس في البيداء يحملها الظمأ *** والماء على ظهورها محمول

وأجلُّ من هذا الشعر، قوله تعالى: {كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا}.

"دون أمر آخر خارج مقوله، من زجر أو قصاصٍ أو حد أو تعزير، أو ما جرى هذا المجرى، ولا احتياج ها هنا إلى إقامة برهان على ذلك"

كأنه يقول لك: ليس هناك ضرورة أن أقيم لك برهانا على أن بعض الناس على هذه المرتبة.

"إذ التجربة الجارية في الخلق قد أعطت في هذه المرتبة برهانا لا يحتمل متعلقه النقيض بوجه"

يعني الذي يقول بنقيض هذا الكلام كأنه أتى بأمر لا تعرفه التجربة وليس عليه برهان. تفضل يا شيخ، إذًا هذه المرتبة، وهي مرتبة كما ترونها أعلى من مرتبة التقليد -أكرر- التي يذكرها أهل الأصول، نعم.

" والمرتبة الثانية: الواقفون منه على براهينه، ارتفاعا عن حضيض التقليد المجرد، واستبصارا فيه حسبما أعطاه شاهد النقل الذي يصدقه العقل تصديقا يطمئن إليه، ويعتمد عليه؛ إلا أنه بعد منسوب إلى العقل لا إلى النفس، بمعنى أنه لم يصر كالوصف الثابت للإنسان، وإنما هو كالأشياء المكتسبة، والعلوم المحفوظة التي يتحكم عليها العقل، وعليه يعتمد في استجلابها، حتى تصير من جملة مودعاته، فهؤلاء إذا دخلوا في العمل، خف عليهم خفة أخرى زائدة على مجرد التصديق في المرتبة الأولى، بل لا نسبة بينهما؛ إذ هؤلاء يأبى لهم البرهان المصدق أن يكذبوا، ومن جملة التكذيب الخفي العمل على مخالفة العلم الحاصل لهم، ولكنهم حين لم يصر لهم كالوصف ربما كانت أوصافهم الثابتة من الهوى والشهوة الباعثة الغالبة أقوى الباعثين؛ فلا بد من الافتقار إلى أمر زائد من خارج، غير أنه يتسع في حقهم، فلا يقتصر فيه على مجرد الحدود والتعزيرات، بل ثَمَّ أمور أخر كمحاسن العادات، ومطالبة المراتب التي بلغوها بما يليق بها، وأشباه ذلك.

وهذه المرتبة أيضا يقوم البرهان عليها من التجربة، إلا أنها أخفى مما قبلها، فيحتاج إلى فضل نظر موكول إلى ذوي النباهة في العلوم الشرعية، والأخذ في الاتصافات السلوكية"

إذًا هو الآن يبدأ، قلنا وأنا أكرر لأهمية هذا، كما ترونه أنه حين يُرَقِّي مرتبة العلم في العقل لا بد أن يوافقها موافقةً للنفس، لا بد، في السلوك، مفهوم الكلام؟ هو لا يقتصر على العلم على مجرد فقط الذهن، هذا الذي يُبحث في كتب العلم، لو رجعتم إلى كتب الأصول التي تهتم بالعلم لا تنظر إلى العلم وأثره على النفس، لا تنظر إلى هذا، الشيخ يلاحظ هذا، يقول بأن العلم يترقى في العقل بطريقة ما:

- أخذه الأول على جهة التقليد -هذا حاله-، فإنما يندفع على العمل من جهة التقليد، ومن جهة الزجر والخوف والترغيب والحمل التكليفي على الحرام.

- الآن مرتبة ثانية: أخذ العلم على براهينه. بس هنا الشيخ دقيق جدًا، لا يقصد بالبرهان الدليل الشرعي؛ **لأنه يتكلم عن العلماء**، الشيخ لا يتكلم هنا عن مراتب الناس مع العلم، وإنما يتكلم عن مراتب العلماء في العلم؛ لأنه لو تكلم عن مراتب الناس في العلم، لقال: منهم مقلد ومنهم مجتهد، وهكذا بالتقسيمات الثلاثية أو الثنائية: مقلد ومجتهد،

والمجتهد أقسام، أو مقلد ومجتهد ومتبع، تقسيم ثلاثي وينتهي منه، الشيخ لا يتكلم عن هذا، الشيخ يتكلم عن مراتب **العلماء** في العلم، العلماء الذين حصل لديهم العلم، كيف يحصل لديهم العلم؟

- إما أن يأخذوا هذا العلم عملًا على جهة التقليد، ما هو التقليد عنده؟ أنه أخذه على جهة النص الحامل على التكليف، وأخذه خوفًا من حصول الزجر ومن أجل تحصيل الأجر، مش هيك؟ لما جاء إلى العالِم، وجدناه يقول: هؤلاء العلماء أخذوا هذا العلم، لكنهم أخذوه على جهة التقليد. ما هو التقليد إذًا عنده؟ التقليد أنه أخذه على جهة: "هكذا جاء التكليف به"، ولما عمِلهُ، عَمِلهُ على جهة الزجر والأجر، انتهينا منها؟ **هذه الحالة الأولى**.

- **الحالة الثانية**، يقول: لا، هؤلاء لم يكتفوا بالتقليد، ما التقليد إذًا عنده؟ الحمل التكليفي، أن الشارع جاء به. الآن خرج عن التقليد بأَنْ دخل عليه برهان العقل. من أين لنا هذا الكلام؟ من كلامه، لا بد أن نفهم من كلام الشيخ، لا أن نلبس ما عندنا، لما نتكلم من عندنا نصيب ونخطأ، لكن دورنا أن نفهم كلام الشيخ، ماذا يقول؟ يقول:

"والمرتبة الثانية:"

هذا دليل على ما قلت: بأن أصحاب المرتبة الثانية حصل لديهم:

- أولًا: العمل من جهة حمل الشارع له، الشارع قال له: افعله، فأخذه على جهة دفع الشارع له، هذه المرتبة الأولى عنده،

- المرتبة الثانية: حصل لهم برهان العقل لما استقر في قلوبهم من الشرع، منين الشرع جابوه؟ من الحمل التكليفي، واضح؟ وهذا الآن أشرحه على ما قاله ولي الله الدهلوي في (حجة الله البالغة)، بس حتى نفسر كلام الشيخ، يقول:

"المرتبة الثانية: الواقفون منه على براهينه"،

إحنا لو بقينا ساكتين هكذا سيُفهم أن "براهينه" المقصود بها الكتاب والسنة، وهو لا يريد هذا، لأن الأول كذلك يأخذ الحكم التكليفي من من مصدره، وهو الكتاب والسنة، قال:

"ارتفاعًا عن حضيض التقليد المجرد، واستبصارًا فيه حسبما أعطاه شاهد النقل، الذي يصدقه العقل تصديقًا يطمئن إليه"،

إذًا ما هي المرتبة الثانية؟ هي المرتبة الأولى، لكن زاد عليها بأن صَدَّق العقلُ الحملَ التكليفي، فصار مطمئنًا.

قد يقول قائل: هل يمكن للمرتبة الأولى أن يكون فيها القبول أو يكون فيها الرد؟ الجواب: نعم، على ما قلنا، يعني ممكن عقله لا يقبل هذا الأمر، لكنه لأن الله قاله يمشي به، وممكن هو نفسه أصلا لا تنزع للمعارضة ولا يفكر فيه بعقله. هتان المرتبتان تدخلان في المرتبة الأولى: إما أن يقبل العلم مع صراع العقل له، ولكن يقول: "هذا عقلي تعبان، ومش راضي، وكارهه"، ولكن يعمله لأن الله أمر به، هذه حالة أولى، ما زلنا في الأولى، أو ألا تخطر في قلبه معارضةٌ لهذا الحكم، ليس في عقله معارضة لو يفعله، أين مرتبة هذا الرجل؟ في الأولى.

أما الثاني فحصل له التصديق العقلي لما ورد من التكليف، على أنه هنا أدرك الحكم.

صاحب (حجة الله البالغة) اقتصر على هتين المرتبتين، وهو أن أفضل الناس عِلمًا مَن أدرك حكمة التشريع، هذا المقصود من كلام الشيخ، هنا بتفسير آخر وهو من أدرك حكمة التشريع، يعني الآن أنت تأخذ الشرع وتصدقه وتقول به، فما هو الأمر العقلي؟ هو إدراك الحكمة، إدراك المنفعة، إدراك النور فيها، ما هي مصالحه، ما هي مصالح الحكم الشرعي؛ لأن **العقل** -ليس الهوى- لا يقبل إلا ما فيه المنفعة، العقل لا يُقر من العلوم إلا ما كان فيه مصلحة وما كان صوابًا قبل ذلك، واضح تفسير الكلام؟

فإذًا ماذا عمل هذا الرجل الثاني؟ أخذ العلوم الشرعية وبدأ يُديرها في عقله حتى التقت المعالم الشرعية مع التقريرات العقلية، اسمع هذا الذي حصل لديه، هذا الشخص الثاني.

هل هناك مرتبة ثالثة؟ لنرى لأين سيوصلنا الشيخ، مرتبة عظيمة، لكنه يقول منبّهًا على هذه الحالة الثانية -هي مرتبة خفية لكن موجودة- أن هذا الرجل، حالتُه مع العلم لم تصل إلى أن تُصبح مَلكة نفس، هو يحملها، لكن متى يحضرها؟ فقط لما يستحضرها، لكن سلوكه قد يوافق وقد يخالف، أو أنه بيْنَ العلم الذي استقر في عقله وبيْن ما تستقر عليه نفسه، من الرغبة والهوى ما يُحدث صراعا، لكنه يدرك الحكمة، أظن أن الكلام بيّن الآن.

ماذا يقول الشيخ؟ انتبهوا، هذه الكلمة حبذا لو تضعونها في أول كتاب، وأنتو فاضيين وجالسين مع الأهل تتأملوها؛ لأنها أشبه بحِكم الوجود التي قالها حكماء أمتنا، هذه الكلمة منها، هذه الكلمة تضعونها وتكتبونها، وبين حين وآخر ترجعون إليها لجمالها وروعتها، وعظم دقة قائلها، ماذا يقول الشيخ؟

قال: "إلا أنه بَعدُ"

أي: هذا الشخص، إلا أنه ما زال هذا الرجل

"منسوبٌ إلى العقل لا إلى النفس"

أظن أن هذه كلمة نكتفي بقراءتها لوضوحها، أو أنها تحتاج لشرح؟

هذا الرجل ما زال منسوبا في علمه إلى عقله ولم يُصبح العلمُ سمةَ نفسٍ، ما زال سمة عقلٍ عنده، ما زال هذا العلم لم يصبح سمةً **لنفسه**، كيف "لنفسه"؟ هل هذا يعني أن الإنسان أشياء متعددة؟ الجواب: نعم، الإنسان أشياء متعددة، والدليل أنك أنت تغضب من نفسك، والدليل أن عقلك يقول لك هيك ونفسك تقول لك هيك، والدليل أنك تحب شيئا وعقلك يخالفه، أنت لست شيئًا واحدًا.

فهذا الرجل عنده النص الشرعي وعنده الحكمة العقلية، لكن الشيخ يقول: هذا كله كأنه محمول لديه، لم يصل إلى أن يتغلغل بحيث يكون هذا العلم صفةً لنفسه، يعني مستقرة عليه، يعيشها.

هذه كلمة خفية، ولا أستطيع أن أبيّنها حتى أنت تدركَ ما معنى أن يصبح العلم صفة نفس، ما معنى "صفة نفس"؟ أنا أفرق لكم بين أمرين: الآن -كمثال- لو وُجد عندك كأس ماء، ووُجد عندك قهوة، أنت تحملهما، عندك القهوة الصرف، وعندك الماء، فكلاهما عندك، هذه في عقلك موجودة وفي نفسك موجودة، فكأن القهوة في مكان والماء في مكان آخر، المرتبة الثالثة اللي بدو يوصلها الشيخ، هي أن يُصبح هذا العلم -الذي هو العقل الذي جاء من طريقين: من طريق النص (الحكم التكليفي)، ومن جهة العقل-، أن يدخل النفس بحيث تصبح نفسك هي العاملة وليس عقلك؛ لأنه حين يبقى في العقل إنما يحضر بالاستدعاء -أنا أحاول أن أقرب-، لأن هذا العلم الذي تريده، حين يكون في العقل لا يحصل لديك إلا باستدعاء، أنت تأتي به، تطلبه؛ لكنه حين يكون في نفسك لا يحتاج إلى استدعاء لأنه في نفسك.

هل أُقرب المثال أكثر؟ طيب، سألني سائل -وهذا المثال ضربته لشرح سابق مع أخ-، سألني سائل -ولم أجد تفسيرا لهذا السؤال-: "هل يأخذ المرء أجرًا وهو يذكر الله دون أن يشعر؟"، هو يذكر، يمشي ويذكر، وقد لا ينتبه هل هو سبّح، أم صلى على النبي، أم استغفر، هو لا يدري، هو ماشي، لحركة لسانه الدائمة، أنه نفسه، فقلتُ وتفكرت، وكان هذا الموطن هو موطن الفتح فيها، وهو أن هذا من أعظم الذكر، وليس فقط أنك تحتاج إلى أن تستدل هل هو جائز أو غير جائز. من أين أتيت بهذا؟ أتيت به من قوله -صلى الله عليه وسلم-: (يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النَّفس)، صار حركة نفس، التسبيح والذكر صارا حركة نفْس. أنت الآن لما تتنفس، هل تستدعي النَّفَس؟ احنا مش قلنا لا يحضر العلم إلا باستدعاء، هل أنت تستدعي النفَس أم أنه يأتي وحده؟ طيب، العلم يتغلغل في نفسك كما يتغلغل اللون في الشيء، هل اللون شيء موجود منفصل عن الشيء، أم أنه لا يكون اللون إلا مع وجود الشيء؟ العلم داخل في نفسك فلا يحتاج إلى استدعاء.

أكثر من هيك لا تطلبوا، هل توضح؟ طيب، خلاص الحمد لله.

القصد أنها هي في الحقيقة كلمات -على ما يقول أئمتنا-، كلمات واضحة في معناها، ما احتاجت إلا للتمثيل ربما، لعله يقرب، جزاكم الله خيرا، أنتم رحمتموني أنكم فهمتم علي، طيب.

هذا الرجل ما زال علمه في عقله، إذا احتاجه استدعاه، ولكن نفسه تفعله على جهة أخرى، على جهة الاستدعاء، يقول -انتبوا لهذه الكلمة الجميلة-:

"إلا أنه بعد -أي العلم- منسوب إلى العقل لا إلى النفس"

واضحة الآن؟ هذا العلم منسوب إلى العقل، لكن لم يصر في داخله الحب والرغبة. اهتدينا لكلمة جديدة: لم يصبح هذا العلم مخلوطا بالرغبة، بالحب، بالرضا، بالاطمئنان، بالحركة التي تفوق الإرادية، واضح؟ بمعنى أنه لم يصر

"كالوصف الثابت للإنسان"

شرحناها، وصف ثابت، مثل ماذا؟ لونه، مختلط به

"وإنما هو كالأشياء المكتسبة"

مثل المال في الجيب، هل المال في الجيب مختلط فيك؟ لا، هو موجود، متى تريده تستحضره، لكنه ليس في نفسك،

"والعلوم المحفوظة، التي يتحكم عليها العقل وعليه يعتمد في استجلابها"

أي: العقل يستجلبها

"حتى تصير من جملة مودعاته"

العلم من جملة مودعاته، أي: موجود

"فهؤلاء إذا دخلوا في العمل"

آه، لأن الحكمة موجودة

" فهؤلاء إذا دخلوا في العمل، خف عليهم خفة أخرى زائدة"

هذه في المرتبة الأولى

"على مجرد التصديق في المترتبة الأولى، بل لا نسبة بينهما"

آه، هنا مرتبة أخرى

"إذ هؤلاء يأبى لهم البرهان"

ما هو البرهان؟ العقل، حكمة عقل

"المصدق"

المصدق لماذا؟ المصدق لما قاله النص

"أن يُكذبوا، ومن جملة التكذيب الخفي"

يا سلام! هذه قد شُرحت، قوله: "ومن جملة التكذيب الخفي"، هذه اكتبوها لوحدها، هذه درر، أنت تتساءل ما معنى هذا، غدًا ستحتاج هذه الكنوز، الكلام كله ستحتاجه، عندما تأتيك الفتوى، عندما تُسأل عن سؤال لتحرره: لماذا هذا يحدث؟ حينئذ يجتمع لديك العلم في عقلك وتستحضره، قد تذكر أنها في هذا الكتاب، وقد تستقر في نفسك ولا تدري من أين جاءتك، وقد تظن أنها من جهة نفسك ولكنك مررت عليها، هذه كلها؛ لأن العلم يُبنى، في النهاية أنت إذا جاءك السؤال، أو جاءتك الحادثة، أو جاءتك الفتوى، أو جاءتك المشكلة أو المعضلة، وتريد تفسيرا لها، لماذا تقع؟ هذا كله تستحضره، هذا يقع في نفسك، هذا فورًا يأتيك. واضح ما هي فضيلة العلم؟ ما يصيرش تقول أن العالم يجلس وأنت قاعد تفسر من عندك، ويقولوا مسكين هذا، شو بيحكي وشو بيخبص؟ ولذلك ومن يقبله يقبله مثله، الاثنين الآن طلع في رؤوسهم الكلام وطلع من أذهانهم، على نظرة الحنفية معي، الأخوة يسألوا: ماهي نظرة الحنفية؟ هذه قصة طويلة، اسمعوا لي كلام الشيخ هنا:

"ومن جملة التكذيب الخفي، العمل على مخالفة العلم الحاصل لهم"

هذا تكذيب خفي، على القاعدة التي قلناها من كلام شيخ الإسلام: إنه لا يمكن للتصديق الصحيح والصادق أن يُخالف العمل، هذه ذكرناها لما جاء تفسير "كيف يكون التصديق بلا عمل"، فهذا كذب لا يُتصور، لا يتصور التصديق بلا عمل، هذه شرحناها سابقًا. انظر الىن إلى كلمة الشيخ الشاطبي –رحمه الله–، هذه كلمة رائعة منه:

"ومن جملة التكذيب الخفي"

ماذا؟ المرء ماذا يفعل؟ هو أن يأتي بما يخالف ما استقر لديه من العلم، هذا من التكذيب، هذا يعني أنه مش مصدق، واضح الكلام؟

"ومن جملة التكذيب الخفي العمل على مخالفة العلم الحاصل لهم، ولكنهم حين لم يصر لهم كالوصف"

الكلام واضح الآن، العلم حينما لم يصر لهم كالوصف

"ربما كانت أوصافهم الثابتة من الهوى والشهوة الباعثة الغالبة أقوى الباعثين"

يعني شعور النفس في جهة، والعقل في جهة، والعلم في جهة، فلما يصير صراع، يغلب ما في النفس المستقرة عليه، النفس ايش فيها اصلًا؟ على ماذا هي مجبولة؟ هي مجبولة على الهوى، والشهوة الباعثة الخفية، إلى آخره، يعني في الصراع بين العقل والنفس، من الذي يغلب؟ النفس. لماذا؟ لأن العلم مستقر بداخل القبة الكبيرة التي قلنا لكم عنها مرة، مش قلنا لكم مرة؟ واحد رأسه كالقبة (عنده علم)، ورجليه زي عيدان الكبريت.

"فلا بد من الافتقار إلى أمر زائد من خارج، غير أنه يتسع في حقهم، فلا يقتصر فيه على مجرد الحدود والتعزيرات"

لا بد أن يأتي أمر خارج، ما معنى الكلام؟

حين تقوم النفس بذاتها للعمل لأنها بذاتها مختلطة بهذا العلم، انتبهوا لكلام الشيخ هنا، الحالة أن النفس تقوم بذاتها إما بالطاعة أو تقوم بالمعصية، لكنه هنا في هذه المرتبة يتكلم عن النفس التي تقوم بالطاعة، لماذا تقوم بالطاعة؟ –ابحثوا عن الجواب من كلام الشيخ–، لماذا تقوم نفس صاحب هذه المرتبة بالطاعة مع أن الهوى مستقرٌّ على الرغبة والشهوة؟ لماذا؟ لأمر خارجي يأتيها.

الأصل أن ينبعث العمل من جهة المرتبة الثالثة كما سيأتي، باعث العمل هو اختلاط العلم بالنفس، هذه لتحصل تحتاج إلى أمر خارج، ليغلب ما في النفس من هوى، ليحصل ما في العقل من إرادة، لماذا؟ لأمر خارج، ما هو الخارج؟ شو هو الأمر الخارج؟ نتكلم والكتب بين أيديكم، يقول:

"فلا بد من الافتقار إلى أمر زائد من خارج، غير أنه يتسع في حقهم فلا يقتصر فيه على مجرد الحدود والتعزيرات"

الطبقة الأولى تدفعها الحدود والتعزيرات، هنا أمر خارج، فوق الحدود والتعزيرات.

"بل ثم أمور أخر كمحاسن العادات"،

يعني: الحياء، انتبهوا، كلمة "محاسن العادات" يعني الحياء.

"ومطالبة المراتب التي بلغوها بما يليق بها"

ما هذا؟ الحياء. ماذا يعني "مطالبة المراتب التي بلغوها"؟ لما إنسان يُنسب إلى العلم، ماذا يطلب منه الناس؟ يطلبون منه أن يكون عابدا، أن يكون عاملا بالطاعات، لما يريد أن يتكلم على أن الشريعة توجب صلاة الفريضة مثلًا، ماذا يصبح مطلوبا منه؟ أن يفعل هذا. فيصبح ما يُطلب منه من مجاري عادات النظر إلى العلماء، يُصبح هذا هو الباعث له على العمل، فوق الزجر، هذا الحياء، هذا هو المقصود، حياؤه من نفسه، حياؤه من الله -عز وجل- ألا يقوم بالعلم على الجهة المطلوبة. وهذا الكلام الآن كلام رائع، نرجع للكلمة حتى تصير مضبوطة:

"ولكنهم حين لم يصر لهم كالوصف ربما كانت أوصافهم الثابتة من الهوى والشهوة الباعثة الغالبة أقوى الباعثين"

ربما، ولذلك يقع منهم الغلط، فلا بد ليمنع حصول هذا، ليمنع حصول غلبة الهوى التي هي صفة النفس، لا بد من ماذا؟

"فلا بد من الافتقار إلى أمر زائد من خارج"،

الأصل أنه شرح ما هو الأمر الخارج في الأولى، ما هو الأمر الخارج الذي يدفع الأوائل للعمل؟ الزجر والترغيب والترهيب، مش هيك؟ يقول هذه مرتبة فيها أمر زائد عن المرتبة الأولى.

"غير أنه يتسع في حقهم، فلا يقتصر فيه على مجرد الحدود والتعزيرات، بل ثم أمور أخر كمحاسن العادات ومطالبة المراتب التي بلغوها بما يليق بها وأشباه ذلك"

شوف العبارة، رائعة! وهو يعترف أنها صعبة، وكانت صعبة علينا شوي، ولكنها -كما رأينا- مرتبة فيها من عظيم الكلام، ودقة النظر إلى النفس، ودقة النظر إلى هذه المرتبة، من الخفايا كما ترون.

يقول: "وهذه المرتبة أيضا يقوم البرهان عليها من التجربة"،

ما دليلك يا شيخ؟ التجربة.

"إلا أنها أخفى مما قبلها، فيحتاج إلى فضل نظر موكول إلى ذوي النباهة في العلوم الشرعية، والأخذ في الاتصافات السلوكية".

من الذي يعرفها؟ السالك الذي عاشها. هذه قضايا نفسية، كيف تريد أن تعرفها؟ لا بد أن تعيشها. "من ذاق عرف": هذه كلمة صوفية صحيحة، هذه لا تعابون على استخدامها، لا تستخدموها فقط عند الطبخ! نعم، نقرأ المرتبة الثالثة.

"والمرتبة الثالثة: الذين صار لهم العلم وصفا من الأوصاف الثابتة، بمثابة الأمور البديهية في المعقولات الأول، أو تقاربها، ولا ينظر إلى طريق حصولها؛ فإن ذلك لا يحتاج إليه، فهؤلاء لا يخليهم العلم وأهواءهم إذا تبين لهم الحق، بل يرجعون إليه رجوعهم إلى دواعيهم البشرية، وأوصافهم الخلقية، وهذه المرتبة هي المترجم لها"

-

"هي المترجم لها"، يعني كأنه يقول: أريد أن أقول لكم أن كتابي لهؤلاء؛ لأنه إذا دخلنا في النقاش العقلي تكون مشاكل، والناس يخالفوننا ولا يرضون كتابي، لكن الذي عاش هذه المرتبة يُحس أن هذا الكلام متوافق مع نفسه.

عرفنا الآن ما هي المرتبة الأولى والثانية، وعرفنا ما هي المرتبة الثالثة، وهو أن يصبح العلم حركة نفْس، صفة نفس، فعل نفس.

طيب، هو قد يخالفها لكنه حين يعود إلى الصواب، إنما شأنه شأن العائد إلى ما تحبه نفسه، قد يقع منه خطأ في شيء، الإنسان ليس معصوما، قد يقع، ولكنه حين يعود إلى العِلم إنما يعود لا على جهة أنه معقول، ولكن على جهة فطرته مما أحبه، على جهة نفسه مما تلاءمت مع الحق.

وهل من ممكن أن الواحد يذهب للشيء وهو يعرف أنه غلط؟ طبعا، يقع كثيرا، ألم تأكل يومًا أكلا لا تحبه، ثم ندمت أنك أكلته وأنت تعلم؟ دعيت لطعام مثلا، وقلت: والله ما بحبه، بس شو بدنا نسوي، بناكل، شو يصير فيك أنت بعدين؟ تندم أو لا تندم؟ تندم، مع أنك تعلم أنك لا تحبه، فقد يأتي الرجل ما لا يحبه؟ قد يأتيه، قد يأتي المرء ما لا يريده مما تريده نفسه؟ نعم، لكنه حين يعود إليه لا على جهة المناقشة العقلية، ولكن على جهة العودة إلى ما فطرت عليه نفسه وجبلت عليه نفسه، واضح الكلام؟

قال: "الذين صار لهم العلم وصفا من الأوصاف الثابتة"

هؤلاء هم الراسخون في العلم؛ ولذلك ارجعوا إلى كلمة الشيخ ابن القيم في معنى الرسوخ في العلم، في (مدارج السالكين)، وأنا علقت في (رسالة الغربة)، عندما قال -وهنا أعنى الشيخ أبو إسماعيل- أنه من الراسخين في علم، ولم أقبلها منهم، لا يعد لما في كلامه من اضطراب، المهم.

قال: "بمثابة الأمور البديهية"

ما معنى البده؟ ما هو بده الشيء؟ أوله. ما معنى البديهية؟ يعني أول ما يخطر على القلب من النظر، هذا معنى البديهية: أول شيء، هذا بديهي، حين تقول مثلًا: فُتح الباب، فأنت تتساءل: والله في رجل ولا ما في رجل؟ حين تلد امرأة، ما الأمر البديهي؟ أن لها زوج، أو أنها نُكحت، هذا هو البده، بده الشيء هو أول ما يجبه العقل، أول شيء، هذا بديهي ، هذا معناه.

"بمثابة الأمور البديهية"

أي التي تطرأ على النفس في الابتداء، هذا معنى البديهية.

"في المعقولات الأول"

لأنه هناك معقولات، وهي التي تقدمت، المعقولات التي لا يخالفها، كما تقدم في الحكم العقلي بأنه ما استقر في العقل ولا يمكن أن يخالفه إنسان، مجمع عليه: مسلم وكافر إلى آخره، الواحد أكبر من الجزء، اجتماع ضدين معًا، وهكذا، هذه قواعد تسمى أحكاما عقلية، ولذلك هو قال:

"أو تقاربها"

تصل لهذه المرتبة أو تقاربها، هنا هذه الكلمة هي كلمة رجل سالك وليست كلمة رجل يتكلم في الأصول، هذه الكلمة الآن كلمة رجل سالك ذواق، وليست كلمة رجل يريد أن يُعرفنا كيف تُعانَى العلوم، وهذه قالها ابن خلدون، ماذا قال؟ ما هي هذه الكلمة؟

"ولا ينظر إلى طريق حصولها"

يعني لا يصل المرء أن يتجاوز الدليل إلى المدلول، خلاص، الدليل لم تعد إليه حاجة، لا يسأله، لماذا؟ لأن المدلول هو المطلوب وقد استقر عليه، وهذا مأخوذ من قوله تعالى: {يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ}، أي تشرق أنواره في قلبه من غير مُعلِّم ولا دليل.

طبعًا الآن نحن نتكلم عن مرتبة نهائية، لا نتكلم عن كيفية الوصول إليها، حتى لا نصل لدرجة أن نقول يمكن الاستغناء عن الدليل، لا يمكن الاستغناء عن الدليل؛ لكنه في فترة من الفترات يكون هو الوسيلة، ثم يُنتهي من هذه الوسيلة إلى المقصَد، انتهى.

ولذلك يقول الشيخ هنا: ولا ينظر إلى هذه المرتبة كيف تَحصلها المرء، وهو أن يعيش مع المدلول دون النظر إلى الدليل.

أنا أعرف أن هذه تحتاج شرحا كثيرا، وعارف أنها خطيرة، ومزلق خطير، لكنها في الحقيقة هي مرتبة نفسية موجودة عند علمائنا، وهذا الذي نقوله هو الذي قاله الشافعي -رحمه الله-: "يخطر في قلوبنا أمور لا نستطيع الإبانة عنها"، فإذًا هو لا يستطيع الإبانة عنها، إذًا لا يعرف دليلها، لكن هي خلاص، وقعت في قلبه على معنى الاستقرار.

واضح الكلام مشايخ؟ ما بلاش تطلعوا فيا أنا خايف، طيب في الحقيقة بدها شرح، أنا عارف لكن لا بأس، لأني أخاف أن نصل إلى ما يقوله الصوفية وهي قولهم: نحن نأخذ: "حدثني قلبي عن ربي" وأنت تقول: حدثني فلان، ميت عن ميت، ليست هذه المرتبة هي المقصودة. للوصول لهذه المرتبة لا بد من أخذ علم الورق لا علم الخرق، لكنه حين يبلغها المرء ينتهي به ألا يهتم بأن تقول له ما الدليل إلا حين التعليم، لكن هو في نفسه قد وصل إليها واستقر عليها، واضح الكلام؟ بس يكفينا إلى هنا.

"ولا ينظر إلى طريق حصولها؛ فإن ذلك لا يحتاج إليه"

لماذا لا يحتاج إليه؟ لأنه وصل للمقصود، إلى المدلول

"فهؤلاء لا يخليهم العلم وأهواءهم"

يعني لا يخلي العلم بينهم وبين أهوائهم، العلم لا يخليهم بينه وبين أهوائهم، لماذا؟ لأن العلم صار صفة نفس

"إذا تبين لهم الحق، بل يرجعون إليه"

يعني كما قلنا، حين يقع لهم يرجعون، كما ذكرنا عن الطعام مثال الطعام، قال:

"رجوعهم إلى دواعيهم البشرية، وأوصافهم الخلقية، وهذه المرتبة هي المترجم لها"

كلمة "المترجم لها" نشرحها بعدين، أنه: "لهؤلاء وضعت كتابي".

طيب: "والدليل على صحتها من الشريعة كثير"، إلى آخره.

فيكفي إلى هنا، وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

اليوم أتعبناكم ولأن الكلام خفيّ، حديث عن النفس، لو كان مراتب العلم والمسائل العقلية لكان شرحه يسيرا، ولكن الحديث عن النفس هو أشق ما يقابل الناظر والباحث، وهذا قلناه من قبل لما ذكرنا قضية التأويل، تذكرون لما قلنا في قضية التأويل أن كل من حاول وضع قانون للتأويل قد أخفق، مش هيك؟ وقلنا أن السبب هو أنَّ في التأويل شطرٌ من النفس: الناظر ومعرفتك به، واطمئنان القلب، إلى آخر ذلك؛ لذلك فالحديث عن علوم النفس حين تدخل في مثل هذه الأبواب مِن أشق ما يقابل المرء؛ لأنه حينئذ تريد أن **تُذيقه** المعنى، المسألة اختراق عما في القلب لما في النفس ، فأنت تريد أن تذيقه هذا المعنى، وقد يقول: كشفته، طيب لو قلت له: اشرح، يقول لك: صعب، لكن فهمت ماذا تريد، وأرجو أن أكون قد أصبت هذا، أعتقد أني في الأولى أصبت، في الثانية قاربت ولم أستطع لأني تعبت في الحقيقة، وبارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

أَسْـئِـلَـة

- يا شيخ ذكرت هل الحياء فوق مرتبة الخوف والرجاء، وهل هو شيء؟

لكن هذا ليس في صلب الموضوع، هل الحياء فوق مرتبة الخوف والرجاء؟ الجواب: نعم، لا شك، والدليل قوله -صلى الله عليه وسلم-: (احفظ عورتك إلا من زوجك أو ما ملكت يمينك) قالوا له: يا رسول الله، إذا كان أحدنا خاليا؟ قال: (فالله أحق أن يستحيي منه)، والشكر مصدره الحياء، ولما قالت عائشة -رضي الله عنها-: ألم يغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-، -مرتبة عظيمة وهي مرتبة الحياء-: (أفلا أكون عبدًا شكورًا)، ما دافع الشكر؟ الحياء. دافع الشكر هو الحياء، ولذلك مرتبة الحياء مرتبة عظيمة، ولما كانت هذه مرتبته كان كله خير، الحياء كله خير، لا يأتي إلا بخير، واضح الجواب؟

- هل يتعارض الحياء مع الخوف من الناس؟ ذكرتم أن الناس، يعني يخاف من الناس أن يقولوا: كيف يكون عالما ولا يعمل؟ فهل هذا نوع من أنواع الرياء أو النفاق أو هكذا؟ يعني كيف نوفق بين هذه المسألة؟

السائل يقول هل يمكن أن للرجل أن يترك المعصية حياءً من الناس؟ الجواب: لو لم يكن في قلبه الإيمان لما حصل الحياء من الناس، والحياء لئلا يُقال عنه الشر، فيستحيي، فيترك العمل أي المفسد، وهذا مبعثه الإيمان، لقوله صلى الله عليه وسلم: (الحياء من الإيمان)، فلما كان مبعث ترك الفساد هو الحياء، كان سبب الحياء هو الإيمان، النبي يقول، هذه مهمة وأنا أعتذر، أنا عندي كلام كثير فيها، لكن اليوم أنتم تعرفون الحال وقلة النوم.

- شيخنا الله يجزيك خير، ذكر أن هذه المرتبة هي المترجم لها، هل هذه المرتبة بحاجة إلى الكتاب أم هي وسيلة؟

هو يقول أن هذه المرتبة هي التي أخاطبها في كتابي؛ لأن هناك كلامًا كثيرًا سأقوله، لا بد من أن يحس -لأن الكلام هو إبانة-، لا بد أن يحس به المقابل، هذا الإحساس لا يمكن أن يدركه المرء بمجرد اللفظ، لا بد أن يتذوقه كما تذوقتُه، وأن يعلمه كما أعلمُه على جهة اليقين، أما على جهة المماحكة فسيقول الناس يعني، فهذه المترجم لها، ليش المترجم لها؟

ايش يقول المترجم لها؟ يقول: "المقدمة"، لأنه ما زال فيها، ما زال في المقدمة الثامنة المترجم لها، هذه المرتبة الأولى في المقدمة يقول:

"العلم الذي هو العلم المعتبر شرعًا، أعني الذي مدح الله ورسوله ﷺ أهله على الإطلاق، هو العلم الباعث على العمل، الذي لا يخلي صاحبه جاريًا مع هواه كيفما كان، بل هو المقيد لصاحبه بمقتضاه، الحامل له على قوانينه طوعًا أو كرها"، هذا المترجم له، هذا شرطه، أنتم تستعجلون، ستأتي إن شاء الله، أنه حتى في المقدمة قال أن هؤلاء -يعني يتكلم عن العلماء- الذين صار العلم لهم وصف للنفس، صار العلم وصف لماذا؟ صار العلم وصفا للنفس لا لمجرد العقل والمعلومة.

- يقول السائل: السلام عليكم شيخنا الحبيب أبا قتادة، لدي سؤال عام في أس الموضوع ليس في ذات الطرح الذي طرحته اليوم، وهي قضية تتعلق بعلم المقاصد

لا أدري لماذا تستعجل المقاصد، هذا إضاعة للكتاب وفوائده، يعني بعض الإخوة يجلس ولا يريد أن يسمع شيئا حتى يصل للكلمة التي يريدها، هذا يفوته الخير الكثير.

- يقول هناك من يحور ويدلس في بعض الأمور ويلبسها لباس الشرع، مثلًا يقولون: من قال أن الغاية لا يتوصل إليها إلا بفعل شريف، فإحياء النفس غاية شريفة، ولكن قد يتوصل إليها أحيانًا بشرب الخمر، وهو أمر محرم، ثم يقيسون هذه الصورة على باقي الصور، حتى دخلوا في مسائل الكفر والإيمان تحت ذات العباءة، فما الرد عليهم يا شيخنا الفاضل؟ أخوكم فلان.

والله يا شيخ فلان، يا أيها الأمير، الجواب على هذا يحتاج إلى درس، درسين، ثلاثة نعم، وهذا سؤال نؤجله إلى علم المقاصد ونبين أمورا مهمة، يكفي الآن أن أقول لكم التالي أيها الإخوة الأحبة، والرجاء أن تفهموا هذه المسألة، أنا أعلم أني مرات أطرح، لما لا أدخل في الأمثلة يقع يعني القطع بيني وبينكم في البحث، الأمثلة هي تبين، ولكن أريد أن أقول لكم التالي:

- الأمر الأول: أن الرجل إذا كان عنده متاع فسرقه سارق، هل يتخلى عنه أم يسعى لإحضاره؟ يسعى لإحضاره. طيب، هذا واحد، يسعى لإحضاره.

- الأمر الثاني: ترون رجلًا وضع حذاءه على رأسه، هل تسبون الحذاء؟ وهل نترك لبس الحذاء البتة، أو أننا نعيد ترتيب وضع الحذاء في الرجل، ونضع على الرأس الكوفية، ونضع على الرأس العمامة؟ نعيد ترتيب الموضع.

المشكلة التي حدثت في أمتنا أن هناك -كما ذكرنا في مقدمة شرحنا للشاطبي- طريقة فاسدة، وهذه طريقة يستخدمها حتى الزنادقة مع القرآن، وهي أنهم يأخذون الحق فيضعونه فيصبح في جهة الباطل، هل نحن نأتي ونتخلى عنه؟ **هذا واحد،** نحن نحضره، نأتي به إلينا.

النقطة الثانية: حين يستخدمونه بترتيب باطل، حين يرتبون العلم بترتيب باطل يؤدي إلى وضع الحذاء على الرأس، ماذا نصنع؟ هل نتخلى عن هذا العلم؟ نتخلى عن الحذاء؟ نتخلى عن الكوفية حين يضعها الرجل في رجله؟ أم أننا نعيد ترتيبها؟ ما هي الطريقة؟ أم أننا نعيد ترتيبيها.

طيب، فهمنا الآن، هذه حين نطبقها -وهي طريقة عقلية بدهية، يعرفها كل إنسان في هذه الحياة-، حينما نأتي إلى كلمة المقاصد يا مشايخنا، الآن صارت لما تقول للأخ "المقاصد" و"المآلات"، يحس بشيء من النفور، حينما تقول كلمة "المصلحة"، خلاص، قاربتَ الكفر؛ والسبب في هذا أن الجاهلين استخدموا هذه الألفاظ في غير موطنها فأجازوا الكفر، وأحلوا ما حرم الله، ووقعوا في المفاسد، وغيروا وبدلوا.

الطريقة ما هي؟ هو أن نخرج هذه الكلمات الصحيحة العظيمة التي قال بها كبار أئمتنا، وما من عالم من علوم الإسلام إلا وقد اعتمد في فتواه على هذه القواعد الشرعية العظيمة، إلا وقد استخدمها، وهناك أمور كثيرة لا يمكن لنا أن نفهمها إلا بهذه الطريقة.

الآن، حتى أنتهي منها ثم أتي لطرق تطبيقها من العوام، فيأتي الناس يكرهون منك الكلمة، تقول له: هذه المقاصد، المآلات، فهو فورًا يصبح مثل عالَم الجهالة، ويراك أبا قتادة، وبعد أن تقول كلمة "المقاصد"، وإذا هو فورًا بنعجن صورتك وتصبح كأنك ابن الراوند الزنديق، لا نتكلم على مشايخ معاصرين حتى لا نقع في مشكلة، لماذا يحصل هذا؟ لأنه عنده هذه الكلمات وهذه القواعد لا يستخدمها إلا المبطلون. نتخلى عنها إليهم؟ نتخلى عنها؟ هيك الطريقة؟ أننا نروح نقول إن المقاصد (علم المقاصد والنظر إلى المآلات)، هذه ليست شرعية؟ **هذا واحد،** فعلينا أن نعيد هذا المسلوب منا إلى مكانه الصحيح، هذه واحدة.

ثانيًا: الطريقة هو أن نعيد ترتيبها، هم يضعونها "مقاصد"، يسمونها "مقاصد"، وهي من المناسب الملغَى شرعًا، أي بما يسمى المصلحة الملغاة، فيجعلونها شرطًا وشرعًا، كما ذكرنا في اللذة، كما ذكرنا في قضية الثروة والغنى، هذا ليس مقصدا شرعيا أوليا، المقاصد الشرعية الأولية هي الضروريات والتحسينيات، إلى آخره.

الدين مقصد أولي، فنرتبه، هم الدين هو آخر ما ينظرون إليه، إلى آخر هذه الأمور؛ فالطريقة هو أن نعيد الترتيب، لا يجوز لنا لما يقول: أنتم تفتحون باب المقاصد فهذا يؤدي إلى الفتح، لا يجوز لنا أن نتركها. طيب من قال هذا؟ طيب ألم يجز الشارع يا حبيبي السائل –نتبعد عن اسمه حتى لا نوقعه في مشكلة–، لما يأتي واحد ويقول: أنه يجوز في الشرع أن تشرب الخمر درءً للموت، يعني لو تصورنا رجلا لم يجد عنده إلا جرعة خمر لأجل أن يصرف عنه الموت، أي صورة، لا نريد أن نتكلم عن صور لا يتصور وجودها، لكن صورة، نقول: جائز. لماذا تذهب للخمر؟ اذهب للميتة، الشارع أجاز الأكل من الميتة دفعًا للموت، طيب هل هذا يجيز أن نكفر دفعًا للموت، الجواب: نعم، الشارع أجاز هذا: {إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ}.

هذه هي القاعدة، يأتي أحد ليجعل الضرورة التي تبيح المحظورات، فيدخل في الضروريات التحسينيات، هذا مُبطل، هذا جاهل، نقول له: ترتيبك مش صحيح، واضح الكلام؟

حين يُدخل الآخرون الضرورة في باب الإكراه، هذا كذلك إدخال غير صحيح، الشارع جعل الإكراه وما جعل الضرورة، شو يعني الضرورة؟ الضرورة يعني التي يحصل بها فوات بعض البدن، أو التي يحصل بها فوات النفس، طيب بدك

ترتب البدن، ما يترتب عليه، لذلك الإكراه هو الذي أجازه الشارع، وهكذا، فالقضية تعود إلى ترتيبنا، ترتيب العلماء لقضية المناسبة ما بين الفعل والتحريم الذي وقع عليه، ما المقابل له، أظن أني أجبت إجابة كافية لهذا الأمر.

يقول: فإحياء النفس غاية شريفة ويتوصل إليها أحيانًا بشرب الخمر

وكذلك إحياء النفس، نقول: {إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ}، من هُدد بالقتل ليقول الكفر، فأجاز له ذلك، وإن كان الأفضل غير ذلك.

ثم يقيسون هذه الصور على باقي لصور حتى دخلوا في مسائل الكفر والإيمان تحت ذات العباءة،

نحن ندخلها لكن بطريقة صحيحة وهكذا، أرجو أن أكون قد أجبت يا أمير.

– سؤال من المرة الماضية: يا شيخنا الجليل، هل قلة عبادة الناس لله ناشئة من قلة علمهم، أو هل نستطيع أن نقول إن العلم هو السبب الأول لابتعاد الناس عن ربهم ونبيهم؟

اليوم كان الجواب، يعني الجهل سبب من أسباب وقوع المعصية، لكن أساس المعصية في القرآن، ما هو؟ صراع الإرادات. أساس وقوع الناس في المعصية هو صراع الإرادات، وهو صراع بين إرادة الخير التي يقررها القرآن ومآلات الخير التي يقررها القرآن، وبين الهوى، فالسبب هو صراع الإرادات؛ فقلة العلم سبب، وأعظم شيء في قلة العلم هو التأويل، وهو الفتوى الباطلة؛ ولذلك في الحديث: (فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا)، فالإفتاء من غير علم هو من أسباب ضياع الناس، والناس يوافقون.

أذكر قصة غريبة جدًا، كان هناك جماعة من الناس، إذا ذكر شيخ من الشيوخ –أنا أتجنب أن أذكر أي اسم حتى لا ندخل في تمثيلات جزئية مُذهبة للمعنى الكلي–، كان بعض الناس يحبون شيخا من الشيوخ، وإذا قيل، قالوا: أفتانا الشيخ، أفتانا الشيخ، حتى أنهم أكلوا الربا بفتوى هذا الشيخ، فلما ذكر أن الشيخ يقول شيئا خلاف ما يفعلون، قالوا: الشيخ لا يفهم الواقع. وهكذا، الناس يفعلون هذه الأمور، ولكن الذي علم الناس التلاعب بالدين من هو؟ قطعًا للمشايخ دورٌ في هذا، وللمفتين دور في هذا، ترون التلاعب: كيف الشيء يكون حلالًا ويكون حرامًا، حتى سقطت هيبة الدين من قلوبهم.

وأما أسباب وقوع المعصية، فأعظمها الظن. ما هو الظن؟ يدخل تحته الجهل، يدخل تحته العلم المخالف للواقع، والتأويل أو الفتوى الخطأ، هذا الظن، وهو ما تعلق بالعلم.

وثانيًا: ما تعلق بالباعث، والباعث هو الهوى، وضدهما الهدى، ايش الهدى؟ الشارع لم يقل أن العلم، {إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ **الْهُدَى**}، لم يقل "العلم"، قال: {وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ **الْهُدَى**}؛ لأن معنى الهدى، هديت إلى الطريق أي "علمته"، فلا يكون هدى إلا بعلم، ولا يكون هدى إلا بعمل؛ فلذلك الأول يناقض الظن، والثاني يناقض الهوى، واضح الكلام؟ جيد.

جزاكم الله خيرًا، ونسأل الله أن ينفعنا وإياكم بما تعلمنا، وأعتذر عن التقصير، والحمد لله رب العالمين، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.